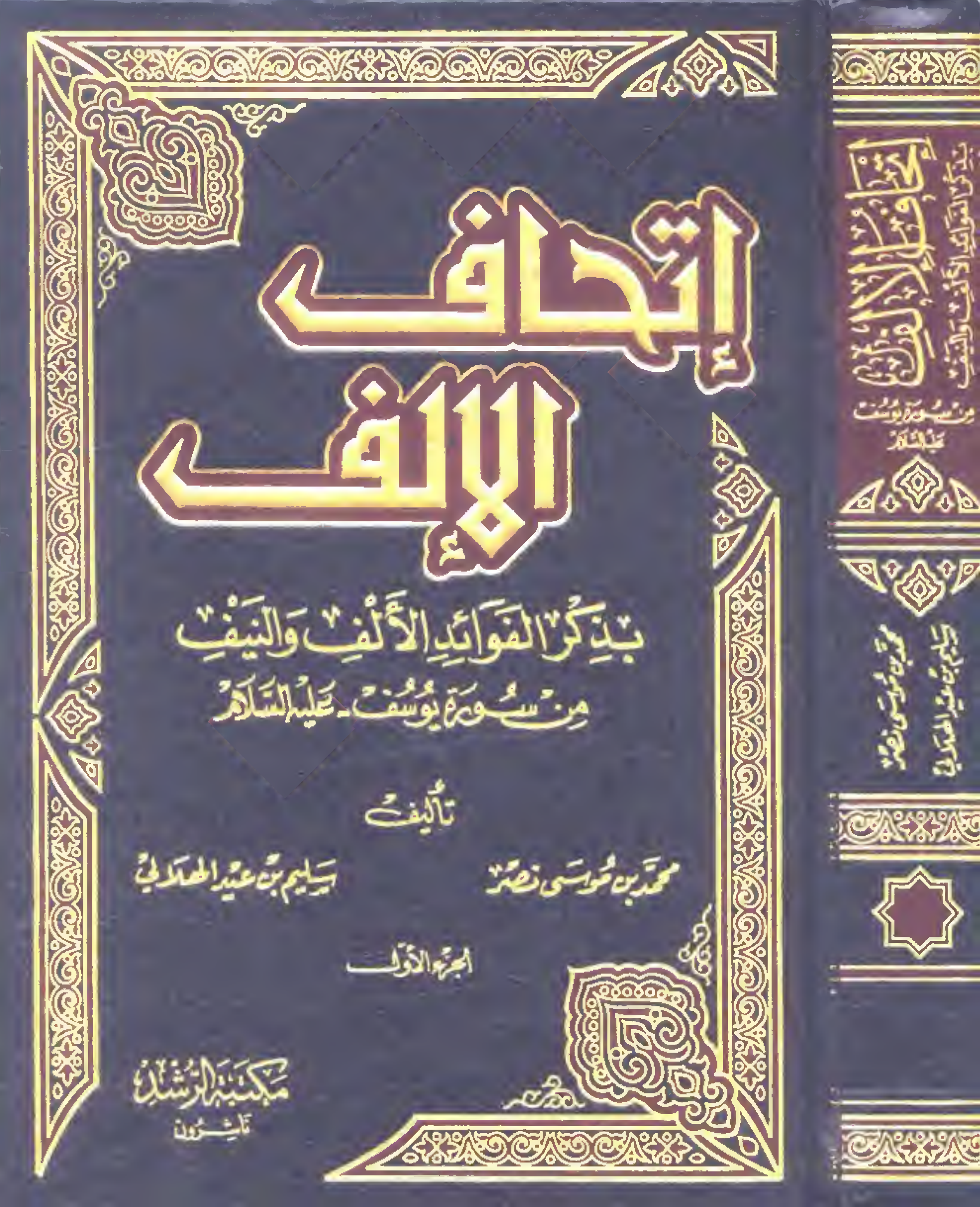

إتحاف الإلف
بذكر الفوائد الألف والنيف
من سورة يوسف عليه السلام
تأليف
محمد بن موسى نصر
سليم بن عيد الهلالي
الجزء الأول
مكتبة الرشد
ناشرون

كتب ثناها العلماء (١)

إتحاف الإلف

بذكر الفوائد الألف والنيف

من سورة يوسف - عليه السلام

تأليف

محمد بن موسى نصر

سليم بن عيد الهلالي

الجزء الأول

مكتبة الرشد

ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

مكتبة الرشد ناشرون

* المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ طريق الحجاز
ص ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١ فاكس ٤٥٧٣٣٨١
Email: alrushd@alrushdryh.com
Website : www. rushd.com

- فرع طريق الملك فهد – الرياض – غرب وزارة البلدية والقروية هاتف ٢٠٥١٨٣٠
- فرع مكة المكرمة – هاتف ٥٥٨٥٤٠١ فاكس ٥٥٨٣٥٠٦
- فرع المدينة المنورة – شارع ابي ذرالغفاري هاتف ٨٣٤٠٦٠٠ – ٨٣٨٣٤٢٧
- فرع جدة – ميدان الطائرة – هاتف ٦٧٧٦٣٣١
- فرع القصيم – بريدة طريق المدينة هاتف ٣٢٤٢٢١٤ فاكس ٣٢٤١٣٥٨
- فرع ابها – شارع الملك فيصل هاتف ٢٣١٧٣٠٧
- فرع الدمـــام – شارع ابن خلدون هاتف ٨٢٨٢١٧٥

وكلاؤنا في الخارج

القاهرة : مكتبة الرشد / ت ٢٧٤٤٦٠٥
الكويت : مكتبة الرشد / ت ٢٦١٢٣٤٧
بيروت : دار ابن حزم هاتف ٧٠١٩٧٤
المغرب : الدار البيضاء / مكتبة العلم / ت ٣٠٣٦٠٩
تونس : دار الكتب المشرقية / ت ٨٩٠٨٨٩
اليمن – صنعاء : دار الآثار ٦٠٣٢٥٦
الاردن – دار الفكر هاتف ٤٦٥٤٧٦١
البحرين – مكتبة الغرباء هاتف – ٩٥٧٨٣٣ - ٩٤٥٧٣٣
الامارات – الشارقة – مكتبة الصحابة هاتف ٥٦٣٣٥٧٥
سوريا – دمشق – دار الفكر هاتف ٢٢١١١٦
قطر – مكتبة ابن القيم هاتف ٤٨٦٣٥٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله ؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإن قصة يوسف -عليه السلام- نمط فريد في القصص القرآني؛ فقد استغرقت سورة كاملة في الكتاب العزيز على خلاف غيرها من القصص الحق حيث فُرِّقت في سور متعددة.

قال القرطبي -رحمه الله- «قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل»[١].

وقال الفيروز أبادي -رحمه الله-: «فُرِّقت قصص الأنبياء في القرآن، وجمع الله قصته في سورة واحدة»[٢].

ولذلك «لم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف -عليه السلام- هذه السورة من الإطناب»[٣].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١١٨)

(٢) «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (٦/ ٤٧).

(٣) «التحرير والتنوير»: محمد الطاهر بن عاشور (١٢/ ١٩٧).

«وإن في هذه السورة أسلوباً خاصاً من أساليب إعجاز القرآن، وهو: الإعجاز في أسلوب القصص»[١].

ولذلك لا بد من الوقوف بتدبر أمام سورة يوسف -عليه السلام-؛ لنستفيد مما فيها من العبر والعظات مما يُصْلِحُ البيت والأسرة والنفس والمجتمع في كلِّ الاتجاهات، وما يُصلِح التخطيط والتنظيم والتنفيذ على كل المستويات، وما يدفع إلى الأخلاق والعلم والعمل بكل الطاقات.

ولقد وقفنا على كلمة الإمام الرباني شيخ الإسلام الثاني ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: «وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة؛ لعلنا إن وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل»[٢]؛ فكانت دافعاً لنا حرك شوقنا إلى استقرائها واستخراج كنوزها ونظم فوائدها ودررها في كتاب مستقل؛ فحققنا -بفضل الله ومنَّته- أمنية عزيزة للإمام ابن قيم الجوزية الذي اخترمته المنية قبل تحقيق رغبته، وقد زادت فوائد هذه القصة على الألف فائدة، وسميناه: «إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف من سورة يوسف -عليه السلام-».

وقد استفدنا من كلِّ مَنْ سبقنا سواء أكانت كتب تفسير أو قصص الأنبياء أو كتب مفردة حول سورة يوسف -عليه السلام-.

ومما يجب التنبيه عليه وينبغي الانتباه إليه: أن نَقْلَنا فائدةً من كتاب؛ لا يعد قبولاً لما فيه جملة وتفصيلاً، أو إثبات قول صواب لا يلزم منه تزكية لقائله وبخاصة من عُرِف بمخالفته لعقيدة أهل السنة والجماعة ومنهج السلف

---

(١) المرجع السابق (١٢/ ١٩٩).

(٢) «الداء والدواء» (ص٣٢٢).

الصالح؛ لأن منهج السلف الصالح في نقل الأقوال، هو: قبول صحيحها وتقييد صوابها مع التنبيه على مخالفة صاحبها إن وجدت؛ كما في الحديث الصحيح: «صدقك، وهو كذوب»؛ فأقر رسول الله ﷺ الحق وبين حال قائله وأن الحق ولو جرى على لسانه لا يغير حقيقته أو يهون بدعته؛ كما يزعم دعاة المنهج المبتدع الضال «منهج الموازنات»، ولبسط الرد عليهم موضع آخر.

ونرجو الله أن يتقبله خدمة لكتابه، وبيانا لما فيه من الخيرات التي تبلغ بمن اتبع سبلها أعلى الدرجات؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وكتبه

أبو أنس محمد بن موسى نصر

وأبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

عمان البلقاء عاصمة جند الأردن من

بلاد الشام المحروسة

غرة رجب الفرد سنة ١٤٢٢هـ

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ ﴾.

١/١- تقرير إعجاز القرآن الكريم؛ إذ هو مؤلف من مثل :ألر، ألم، طس، ق، ومع هذا لم يستطع العرب أن يأتوا بسورة من مثله [(١)].

قال أحمد نوفل:

«وقد أنزل الله- تعالى- هذه الكلمات المركبة من الحروف الهجائية التي في أوائل السور إعلاماً لهذا الإعجاز؛ لأنها هي التي كانوا يؤلفون منها ومن أخواتها كلامهم الفصيح البليغ الذي افتتنوا به.

وما القرآن في سمو بلاغته وجمال رونقه إلا مركب من هذه الحروف، أما وقد عجزوا عن تأليف مثله؛ فهذه الكلمات أعلام نصر وعزة تدل على المعجزة الباقية إلى يوم الدين .

وهذه سورة يوسف التي فيها من دلائل النبوة وبراهين الرسالة آيات للسائلين، فلا غرو أن افتتحها الله- تعالى- بعلم من أعلام الإعجاز:

﴿ الٓرۚ ﴾؛ لينبه الأذهان إلى ما تحويه من جمال يبهر النفوس، ويشرح الصدور، ومن جلال يفتح القلوب المغلقة؛ ولذا أردف الله هذه الكلمة بقوله:﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ ﴾» [(٢)].

١/٢- إشارة إلى ما في الكتاب من العبر والعظات والمعجزات، والعلامات والعجائب الدّالة على شمولية القرآن الكريم لكل ما تقدم، وسورة يوسف اشتملت كذلك على ما تقدم؛ لقوله -تعالى-:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٩٢).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٢٢٥).

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ ﴾ [يوسف:٧].

قال محمد رشيد رضا:

«آيات هذه السورة هي آيات الكتاب المبين الظاهر بنفسه في حقيقته وإعجازه وكونه ليس من كلام البشر ، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين ومصالح الدنيا»(١) .

١/٣- بيان القرآن وسهولته.

قال العلمي:

«امتاز كتاب الله -تعالى- على سائر الكتب السماوية والوضعية بالبيان والظهور، وسهولة فهمه، وشدة إبانته لمعانيه ومراميه؛ فكانت العرب لا تتوقف في فهم مفرداته وجمله، أما أهل اليوم؛ فإنهم لبعدهم عن العربية، وإهمالهم لها؛ تراهم يعسر عليهم فهم بعض مفردات تعد على الأصابع ليس بينهم وبين الوقوف على معانيها سوى مراجعة قاموس لغة، أو سؤال عالم من العلماء.

وأما الكتب عند أهل الكتاب؛ فليس كلها مبينة، ولنضرب مثلاً لذلك «سفر دانيال» الموجود في أيديهم اليوم؛ فإنه ليس مبيّناً، بل هو كالألغاز والرموز لا يفهم إلا بعناء .

وهذا سفر «حزقيال» وسفر «الرؤيا» خصوصاً متصفه؛ ففي ذلك كله غوامض ومشكلات، وقع الاشتباه فيها، وأوقعت مفسريها في حيرة شديدة، والذي نراه في شأن ما يسمونه «بالعهد الجديد» أن حواريي المسيح أنفسهم ما كانوا يفهمون كل ما يخاطبهم به من المواعظ والأمثال، ولكن لم ينقل إلينا أن

---

(١) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٥١).

صحابة رسول الله ﷺ عُمِّي عليهم شيء من آيات القرآن الكريم؛ فلم يفهموها[١]؛ فالقرآن يمتاز على سائر الكتب بأنه هو الكتاب المبين ولكن المسلمين المتأخرين لم يرضوا بأن يمتاز القرآن بالبيان الذي ليس بعده بيان؛ فحاولوا تغميضه، والتسليم بأنه غامض، قالوا : إلا أفراداً من الناس أوتوا علماً جمّاً، وفاقوا سائر البشر بعقولهم وأفهامهم، كما فاقوهم بعلومهم ومعارفهم، ثم زعموا أن هؤلاء الأفراد كانوا في بعض القرون الأولى؛ كمثل من يسمونهم المجتهدين مثلاً، وأنهم قد انقرضوا، ولم يأت بعدهم، ولن يأتي من يسهل عليه أن يفهم آيات هذا الكتاب المبين[٢]، وتجد هذا القول المناقض للقرآن الكريم والناقض له مسلماً بين جماهير المسلمين حتى الذين يدعون بأنهم علماء الدين»[٣].

قال أبو السعود:

«﴿ ٱلْمُبِينِ ﴾ من أبان بمعنى بان؛ أي: الظاهر في كونه من عند الله -تعالى- وفي إعجازه بنوعيه لا سيما الإخبار عن الغيب، أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه، ولا يلتبس لديهم دقائقه؛ لنزوله على لغتهم.

---

(١) إلا أحرف يسيرة؛ مما يدل أن الاقتصار على اللغة العربية وحدها لا يفي ببيان القرآن الكريم؛ فلابد من سنة رسول الله ﷺ؛ لأنه المبيِّنُ لما أنزل إليه من ربه.

(٢) هذا إشارة منه -رحمه الله- إلى دعوى المقلدين المتمذهبين إلى إغلاق باب الاجتهاد، وهي دعوى باطلة، وانظر تفنيدها في كتاب: «هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة؟» للمعصومي؛ بتحقيق الشيخ سليم بن عيد الهلالي، وكذلك كتابه: «التعظيم والمنّة في الانتصار للسُّنة».

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٨٤-٨٥)

أو بمعنى بَيِّن؛ أي: المُبيِّن لما فيه من الأحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين في الدارين وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص.

وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة ؛ فإبانته إنباؤه عن قصة يوسف -عليه السلام-»[١] .

١/٤- ابتداء السورة بـ﴿ الٓر ﴾ يفيد التنبيه، ويثير الاهتمام؛ فعلى المسلم أن يسترعي انتباه الآخرين عندما يريد أن يعطيهم علماً نافعاً، أو يحدثهم عن أمر فيه خير لهم[٢].

١/٥- وصف القرآن بالبيان في فاتحة هذه السورة، يناسب موضوع القصة.

قال محمد رشيد رضا:

«فاتحة هذه السورة هي فاتحة سورة يونس إلا وصف القرآن بالمبين هنا، وبالحكيم هناك، وهما في أعلى ذروة من البيان، وأقصى مدى من الحكمة والإحكام، اختير في كلٍّ من السورتين ما يناسبها:

فسورة يونس موضوعها أصل الدين، وهو: توحيد الألوهية والربوبية، وإثبات الوحي، والرسالة بإعجاز القرآن، والبعث والجزاء، وهي من الحكمة.

وهذه موضوعها قصة نبي كريم تقلب في أطوار كثيرة كان قدوة خير وأسوة حسنة فيها كلها؛ فالبيان بها أخص»[٣].

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٥٠).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف»، زهير كحالة (ص٩-١٠) بتصرف.

(٣) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٥١).

١/٦- الغاية من إنزال الكتاب العزيز.

قال أحمد نوفل:

«ثم الحظ الغاية من إنزال هذا الكتاب وأنها تسديد العقل بل وجوده؛ فمن لم يهتد عقله وقلبه بنور هذا الكتاب كيف يستطيع أن يدرك عالم الغيب أو قيم الأشياء والمعنويات ؟

اللهم إلا أن يخبط خبط عشواء؛ فيأتي بالغث الهزيل من التصورات الباطلة المناقضة للحق.

واسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ للبعيد إشارة إلى بعد القرآن في المنزلة والعلو فيها.

﴿ءَايَـٰتُ﴾ جمع آية، والآية: العلامة، وسميت جمل القرآن آيات للإشارة إلى أنها في عظمتها وإعجازها ودلالتها القاطعة على الحق كأنها الآيات المعجزات التي كانت يزود بها الأنبياء»[1].

١/٧- القرآن معجزة قاهرة، وآية بينة.

قال الفخر الرازي:

«وإنما وصف القرآن بكونه مبينا؛ لوجوه:

الأول: أن القرآن معجزة قاهرة، وآية بينة لمحمد ﷺ.

والثاني: أنه بين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام، ولما بينت هذه الأشياء فيه كان الكتاب مبينا لهذه الأشياء.

الثالث: أنه بينت فيه قصص الأولين، وشرحت فيه أحوال المتقدمين»[2].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٢٦-٢٢٧).

(٢) «مفاتح الغيب» (٩/ ٨٥).

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ﴾.

٢/٨- اللسان العربي أوسع الألسنة وأفصحها.

قال الإمام الشافعي:

«ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى يكون موجوداً فيها من يعرفه.

والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه: لا نعلم رجلاً جمع السنن؛ فلم يذهب منها عليه شيء.

فإذا جُمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فُرّق علم كل واحد منهم: ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه موجوداً عند غيره.

وهم في العلم طبقات: منهم الجامع لأكثره، وإن ذهب عليه بعضه. ومنهم الجامع لأقل مما جمع غيره.

وليس قليل ما ذهب من السنن على من جمع أكثرها: دليلاً على أن يُطلب علمه عند غير أهل طبقته من أهل العلم، بل يطلب عند نظرائه ما ذهب عليه، حتى يؤتى على جميع سنن رسول الله، بأبي هو وأمي، فيتفرَّد جملة العلماء بجمعها. وهم درجات فيما وعوا منها.

وهكذا لسان العرب عند خاصتها وعامتها: لا يذهب منه شيء عليها، ولا يطلب عند غيرها، ولا يعلمه إلا من قبله عنها، ولا يشركها فيه إلا من اتبعها في تعلمه منها، ومن قبله منها؛ فهو من أهل لسانها»[١].

---

(١) «الرسالة» (ص ٤٢-٤٤).

قال البقاعي:

«وهذه الآية تدل على أن اللسان العربي أفصح الألسنة، وأوسعها، وأقومها، وأعدلها؛ لأن من المقرر: أن القول؛ وإن خص بخطابه قوم يكون عاما لمن سواهم» [١].

وقال جمال الدين القاسمي:

«وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس» [٢].

٢/٩ - لغة العرب أشرف اللغات.

قال ابن كثير:

«فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة، وهورمضان؛ فكمل من كل الوجوه» [٣].

٢/١٠ - لا يمكن فهم القرآن الكريم إلا بمعرفة لسان العرب، ولذلك ينبغي على المسلمين على اختلاف ألسنتهم تعلم لغة القرآن؛ لفهمه وتدبره وتلاوته.

قال الإمام الشافعي:

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٥).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ١٨٦-١٨٧).

(٣) « تفسير القرآن العظيم»: ابن كثير (١/ ١٧٨)، ونحوه في «البداية والنهاية» (١/ ١٩٧)، وعنه القاسمي في «محاسن التأويل» (٦/ ١٨٧) دون عزو، وكذلك «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٩٧).

«فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك.

وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله بلسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه: كان خيراً له. كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها، ويأتي البيت وما أمر بإتيانه، ويتوجه لما وجه له، ويكون تبعاً فيما افترض عليه وندب إليه، لا متبوعاً.

وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره: لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحدٌ جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها. ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها.

فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة: نصيحة للمسلمين. والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه، وإدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه، وترك موضع حظه. وكان يجمع مع النصيحة لهم قياماً بإيضاح حق. وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين من طاعة الله. وطاعة الله جامعة للخير»[1].

قال العلمي:

---

(١) «الرسالة» (ص٤٨-٥٠).

«بفضل كون القرآن عربيا، أصبحت اللغة العربية بعد الإسلام، لغة الدين والدولة والعلم، وما يتفرع عن هذه الأصول الثلاثة، من فروع جمة؛ كالأدب والتجارة والفن.

وقد رجح الإمام الشافعي في «الأم»[1] وجوب تعميم اللغة العربية، ووجوب تعلمها على كل مسلم؛ ليفهم القرآن الكريم، الذي هو أصل الدين... ولقد كان الصحابة الكرام، ومن اهتدى بهديهم من الفاتحين، يلقنون الناس الدين على وجه يبعثهم على تعلم العربية من أنفسهم، ولذلك لم يمض على انتشار الإسلام في بلاد الروم والفرس وبلاد أفريقيا وغربي أوروبا، زمن يسير، حتى علت اللغة العربية، على لغات هذه الأمم، بل نسختها كما تنسخ آية النهار آية الليل، من غير مدارس ولا معلمين، ينصرفون إلى تعليم اللغة، وما كان انتشار اللغة بهذه السرعة، إلا بوازع نفسي يفعل ما لا تفعل السياسة والمدارس، وما أوقف هذا السير؛ إلا ضعف الدول العربية، ووثوب الأعاجم على عروشها، وإفتاء علماء الأعاجم بجواز العبادة وقراءة القرآن وأذكار الصلاة باللغات الأعجمية...»[2].

---

(١) تقدم سياق كلام الإمام الشافعي -رحمه الله- (ص١٤-١٥).

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر- رحمه الله- في تعليقه على «الرسالة» (ص٤٩): «في هذا معنى سياسي وقومي جليل؛ لأن الأمة التي نزل بلسانها الكتاب الكريم، يجب عليها أن تعمل على نشر دينها، ونشر لسانها، ونشر عاداتها وآدابها بين الأمم الأخرى، وهي تدعوها إلى ما جاء به نبيها من الهدى ودين الحق؛ لتجعل من هذه الأمم الإسلامية أمة واحدة: دينها واحد، وقبلتها واحدة، ولغتها واحدة، ومقومات شخصيتها واحدة، ولتكون أمة وسطا، ويكونوا شهداء على الناس.

فمن أراد أن يدخل في هذه العصبة الإسلامية: فعليه أن يعتقد دينها، ويتبع =

إن نمو الإسلام في القلب، وفهم ما جاء به من الحكم والمعارف، التي ترقي النوع البشري، يتوقف على معرفة العربية حق المعرفة...

أنزل الله القرآن بلسان العرب، وخاطبهم فيه بما يعرفون، وبما يفهمون؛ فهو وحي من الله إليهم مباشرة...

وأما الأمم الأخرى التي تأخذ القرآن عن العرب؛ فلا بد لهم من معرفة اللغة العربية تدريجياً، وكذا معرفة أحوال العرب وعاداتهم وتاريخهم وإصلاحاتهم، حتى يتيسر لهم فهم القرآن على حقيقته، وبعد ذلك فهم غير محتاجين لشيء آخر»[١].

= شريعتها، ويهتدي بهديتها، ويكون في ذلك كله كما قال الشافعي -رضي الله عنه-: تبعاً لا متبوعاً.

وقد أشار إلى هذا المعنى والدي الأستاذ الأكبر الشيخ محمد شاكر -حفظه الله- في كتابه «القول الفصل في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأعجمية» (ص١١و١٢) قال: «وهل يأمن أولئك الذين يشجعون انتشار الترجمة الإنجليزية بين الشعوب الإسلامية هنا وهناك أن يصبحوا بأنفسهم من جملة العوامل في وضع الحدود الفاصلة بين الإسلام الغربي والإسلام الإنكليزي، لا في الأمم والشعوب غير العربية وحدها، بل في الأمم العربية أنفسها ، بما حبب إلى الناس من النزوع إلى التقليد الأوروبي، حباً في التجديد والانتقال، وبغضاً لكل قديم، مهما كان له من الآثار الصالحة في تكوين تلك العصبية التي ينظر إليها المستعمرون كما ينظرون إلى ألد الأعداء في طرائق الاستعمار ومغالبة الشعوب الشرقية»، ثم قال: «فهل يريد أولئك الذين أصابتهم حمى التجديد والانتقال، بثورتهم هذه على القرآن الكريم في ثوبه العربي: أن يشهدوا آخر مصرع للجامعة الإسلامية، إذ يجدون في الجمهوية التركية قرآناً تركياً، وفي المستعمرات الإنكليزية قرآناً إنكليزياً، وفي مستعمرات الدول الأخرى قرآناً فرنسياً، وآخر طليانياً، أو إسبانياً، أو هولندياً».

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٩٦-٩٧) بتصرف.

٢/١١ - إثبات علو الله على خلقه واستواءه على عرشه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«والذي يجب القطع به: أن الله ليس كمثله شيء في جميع ما يصف به نفسه، فمن وصفه بمثل صفات المخلوقين في شيء من الأشياء؛ فهو مخطيء قطعاً؛ كمن قال: إنه ينزل؛ فيتحرك، وينتقل؛ كما ينزل الإنسان من السطح إلى أسفل الدار؛ كقول من يقول: إنه يخلو منه العرش؛ فيكون نزوله تفريغاً لمكان وشغلاً لآخر؛ فهذا باطل يجب تنزيه الرّبّ عنه .

وهذا هو الذي تقوم على نفيه وتنزيه الرب عنه الأدلة الشرعية والعقلية؛ فإن الله -سبحانه وتعالى- أخبر أنه الأعلى، وقال: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ﴾ [الأعلى:١].

فإن كان لفظ العلو لا يقتضي علو ذاته فوق العرش؛ لم يلزم أن يكون على العرش.

وحينئذ؛ فلفظ النزول ونحوه يتأول قطعاً إذ ليس هناك شيء يتصور منه النزول.

وإن كان لفظ العلو يقتضي علو ذاته فوق العرش؛ فهو -سبحانه- الأعلى من كل شيء؛ كما أنه أكبر من كل شيء.

فلو صار تحت شيء من العالم؛ لكان بعض مخلوقاته أعلى منه، ولم يكن هو الأعلى، وهذا خلاف ما وصف به نفسه.

وأيضاً؛ فقد أخبر: أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش؛ فإن لم يكن استواؤه على العرش يتضمن أنه فوق العرش؛ لم يكن الاستواء معلوماً، وجاز حينئذ أن لا يكون فوق العرش شيء؛ فيلزم تأويل النزول وغيره .

وإن كان يتضمن أنه فوق العرش؛ فيلزم استواؤه على العرش، وقد أخبر أنه استوى عليه لما خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأخبر بذلك عند إنزال القرآن الكريم على محمد ﷺ بعد ذلك بألوف من السنين، ودل كلامه على أنه عند نزول القرآن مستو على عرشه؛ فإنه قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:٤]»[1]

٢/١٢- بعث محمد ﷺ الرسول العربي إلى الناس كافة .

قال العلمي:

«إن جملة ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ لا تشير إلى أن النبي لم يبعث لغير العرب..لا..حاشا وكلا.. ولكن المراد: أن العرب في الأصل، وهم متى عقلوا القرآن وفهموه أمكنهم أن يفهموه لغيرهم من الأمم، قال-تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة:٢]، وقال: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة:١٥١]؛ فالنبي يعلم قومه العرب ويزكيهم بالقرآن، ويعلمهم الكتاب والحكمة وهم ينشرون دعوته، ويبثون حكمته في الأمم، فيفتح الله لهم المشرق والمغرب ، وينقل الله بهم الأمم والشعوب، من حال إلى حال

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٧٨-٥٨٠).

أعلى وأرقى، ينقلونهم من الوثنية والعبودية والذلة والظلم وفساد الأخلاق وقلة الآداب والجهل، إلى التوحيد والحرية والعزة والعدل والآداب والفضائل والعلم وثمراته.

إذاً؛ فالصحابة -وأكثرهم عرب- هم رسل محمد ﷺ إلى الأمم والشعوب، التي تجتمع بالنبي ﷺ وأكثرهم عجم، وهذا يذكرنا بما كان من رسل المسيح عيسى- عليه السلام-؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝ ﴾ [يس:١٣-١٤]»[1].

٢/١٣- وصف القرآن بأنه بلسان عربي مبين يمنع ترجمته.

قال العلمي:

«إن مقاصد الإسلام العلمية، جمع البشر على دين واحد، ولغة واحدة؛ لتكتمل وحدتهم، وتتحقق أخوّتهم، ولذلك منعت ترجمة القرآن الكريم، على تقدير حسبان الترجمة قرآناً، فيحتم بقاؤه عربياً، ويجب شروع كل مؤمن في تعلم اللغة العربية، كما كان الحال كذلك، أيام صاحب الرسالة، والخلفاء الراشدين، بل وفي أيام دولة الأمويين والعباسيين، ولولا الصدمات السياسية التي صدمت الإسلام ، لظل أهل فارس ومن يجاورهم إلى هذا الزمن، ينطقون بالعربية؛ كما كانوا في القرون الأولى للإسلام، بل لكانت بلاد الهند والأفغان والترك وجزء عظيم من بلاد الصين، يحسنون التفاهم باللغة العربية، كبلاد سوريا ومصر لهذا العهد، ولكان الإسلام سياج من الوحدة لا يخرق[2].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٩٨-٩٩).

(٢) بل إن بعض المتآمرين على الإسلام كـ«أتاتورك» عندما ألغى الخلافة =

وههنا مسألتان:

إحداهما: ترجمة القرآن إلى لغة أعجمية؛ أي: التعبير عن معانيه بألفاظ أعجمية، يفهمها الأعجمي دون العربي.

والثانية: كتابة القرآن العربي، بحروف غير عربية.

وكلا المسألتين غير جائز، نعم إن المنع هو فيما إذا ترجم القرآن، وحسبت الترجمة قرآناً، وأما إذا ترجم بقصد جعله وسيلة للدعوة إلى الإسلام، أو بقصد إفهام من لم يمكنه تعلم اللغة العربية، فلا بأس بذلك.

قال ابن تيمية في كتابه: «العقل والنقل»: «وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم؛ فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة، كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعُرْفهم، فإن هذا جائز حسن للحاجة، وإنما كرهه الأئمة إذا لم تحتج إليه، ولهذا قال النبي ﷺ لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص- وكانت صغيرة ولدت بأرض

= الإسلامية الغى اللغة العربية جملة وتفصيلاً بل إن اللغة التركية التي كانت تكتب بالحروف العربية استبدلها بالحروف اللاتينية تنفيذاً لرغبات أسياده الذي ضخموه وفخّموه وحموه حياً وميتاً، فلقد سنَّ رفيقه وخليفته «عصمت اينونو» قوانين يحرس بها نظامه؛ فلا يستطيع أحد في تركيا أن يجهر بانتقاد أتاتورك وكشف مخازيه وفضائحه التي بقيت سراً لأكثر من نصف قرن...لكن الله أبى إلا أن يفضح من عصاه، ومن يرد الله أن يفضحه لا يستره شيء، ولا يحميه أحد؛ فلقد قام طبيب أتاتورك الخاص (رضا نور) -وهو الذي لازمه مدة حكمه-؛ فكتب أربعة مجلدات: كتبها في الإسكندرية، وأكملها في لندن، وأوصى بنشرها بعد موته: روى فيها فضائحه، وكشف مخازيه التي يخزى منها كل إنسان حيٍّ الضمير وذي عقل مستنير، ووضح أبعاد المؤامرة الصليبية اليهودية على الإسلام، وأن أتاتورك حفيد يهود الدونمة الذين فروا من مذابح التفتيش في الأندلس.

الحبشة؛ لأن أباها كان من المهاجرين إليها-: «يا أمّ خالد سنا»[١]، والسنا بلسان الحبشة : الحسن؛ لأنها كانت من أهل هذه اللغة، ولذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم، ويترجم بالعربية؛ كما أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود[٢]؛ ليقرأ له، ويكتب له ذلك، حيث لم يأتمن اليهود عليه»[٣].

٢/١٤- العرب مادة الإسلام.

العرب في الأصل متى عقلوا الإسلام وفهموا القرآن أمكنهم أن ينقلوه لغيرهم من أمم الأرض؛ ولذلك ينبغي عليهم حمله والقيام به، فإن عجزوا عن ذلك؛ فغيرهم أعجز.

قال معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه-: «والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ ؛ لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به»[٤].

ولذلك فـ«إن من تكريم الله لهذه الأمة أن أنزل القرآن الكريم بلغة العرب، وذلك أن اللغة العربية استوعبت المعاني والمبادىء والقيم التي جاء بها الإسلام، فكانت نعم الوعاء لهذا الفكر[٥] الرباني العظيم، ومن ثم كان

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٢٣).

(٢) صحيح- كما في «السلسلة الصحيحة» لشيخنا -رحمه الله- (١٨٧).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٩٩-١٠٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢)، والدارمي (٢/ ١٥٨)، والحاكم (١/ ١٢٨) والآجري في «الشريعة» (ص٣١) وغيرهم بإسناد حسن.

(٥) الفكر لا يطلق إلا على نتاج العقول البشرية، أما الإسلام؛ فدين الله ارتضاه لعباده.

العرب أولى الناس بأن يعقلوا القرآن ويهتدوا به، وكل من تعلم العربية؛ فهو قادر على فهم القرآن وتدبر آياته واجتلاء حكمه»[١].

٢/١٥- الحكمة من إنزال القرآن لا تتم إلا بتعقل معناه وتدبر آياته.

قال البيضاوي:

«﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ علة لانزاله بهذه الصفة كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه وتستعملوا عقولكم؛ فتعلموا أن قصه كذلك ممن لم يتعلم القصص معجز لا يتصور إلا بالإيحاء»[٢].

قال العلمي:

«ألفاظ القرآن وحده إنما هي هيكل عظمي، وأما معناه؛ فهو اللحم والدم، وأما فهمه؛ فهو أكُلُه المقصود بالذات، فالحكمة من إنزاله لا تتم إلا بتعقل معناه، لا أحسبك إلا مسلماً لي في هذا الاعتقاد على طول الخط[٣].

قال -تعالى-: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الدخان:٥٨]، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص١٠).

(٢) «تفسير البيضاوي» (ص٣٠٩).

(٣) مقاصد الكلام طيبة لكن اعتراها سوء تعبير؛ فهذا التشبيه لا يليق بكتاب الله من وجوه:

الأول: أن هذه الجمل تشبيه كلام الله بالمخلوقات، وكلام الله صفة له غير مخلوق، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالح، ومن قال بخلق القرآن؛ فهو جهمي مبتدع ضال، ومن توقف فهو كذلك.

الثاني: لا يمكن فصل المعاني عن المباني؛ لأن الألفاظ قوالب المعاني.

الثالث: هذه الاصطلاحات محدثة، ولع بها بعض المتأخرين؛ فيجب الابتعاد عنها.

﴿١٧﴾ ﴾ [القمر:١٧]، وقال-تعالى-: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الزخرف:٣]، وقال -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال-تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه:١١٣]، وقال -تعالى-: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النور:٦١]، وقال -تعالى-: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٦] ، وقال -تعالى-: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾ [النور:١]، وقال -تعالى-: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:٦٥].

فنرى في هذه الآيات: أن خطاب الشريعة موجه إلى العقلاء؛ فلهذا يجب على كل مسلم مؤمن أن يكون عاقلاً عالماً بأسرار أحكام الله؛ لكي يستفيد منها حق الاستفادة.

لأن الثمرة المقصودة من الكتاب هي فهمه، وقد ذمّ الله من لا يفهم أو من لا يريد أن يفهم كتابه؛ فقال: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [البقرة:٨٨] ، وقال-تعالى-: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت:٥] وقال-تعالى-: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤]، وقال- تعالى-: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان:٣٠].

والهجر؛ هجران: هجر التركيب، وهجر المعنى، ومن لم يتدبر معناه؛ فقد هجره هجراً معنوياً، وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا

نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك:١٠]، وبالمقابل فقد مدح الله -تعالى- عباده الذين يسمعون القرآن بآذان واعية، وينظرون إليها بعيون واعية؛ حيث قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان:٧٣]، فتح الله قلوبنا وأنار بصائرنا لفهم كتابه العزيز.

ولا يزال كتاب الله -تعالى- يحث مخاطبيه على التعقل ، ويدفعهم إلى التفكر؛ لأجل تمحيص الحقائق وهكذا إن شاء الله لا سيرة لنا في هذه النبذة التاريخية على غير العقل والحقيقة، خلافاً لمن تعودوا أن يقبلوا ما سطره من قبلهم دون أن يمعنوا النظر فيه؛ فتراهم ينقل ويقتبس بعضهم من بعض دون أن يحكموا العقل فيما ينقلون ويقتبسون[1].

وغني عن البيان أنه إنما أنزل الكتاب الكريم ليعمل بما تضمنه من الحكم والأحكام، وإن سعادة الدنيا والآخرة موقوفة على هذا العمل إلا إذا فهم القرآن وتعقله؛ فليجعل المكلف كل همه في فهم ما يشير ربه إليه، ثم يعمل به، فإنه لا حياة إلا بالعلم والعمل، وبطن الأرض خير من ظهرها لمن فقد أحدهما.

تفهم معاني الكتاب وتعقله صفة من صفات المؤمنين؛ كما أن عدم ذلك من سيما سواهم؛ قال -تعالى-: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ

---

(١) مدار الأحاديث النبوية والآثار السلفية على الأسانيد؛ فهي قوائمها التي تثبت بها، وإلا ردّت.

وأما عرضها على العقل المجرد، أو الكشف، أو الإلهام، أو الذوق؛ فإنها مسائل مبتدعة.

ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء:٤٥-٤٦].

والحجاب: هو معاصيهم وكفرهم وكبرياؤهم، وكلما كان المرء أكثر عصياناً وكفراً كان أبعد عن فهم كلامه -تعالى-، وهذا الجعل المذكور في الآية تكويني...

يوجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تمتدح المتعقلين، وآيات كثيرة تذم الساهين الغافلين، منها:

أولاً: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

ثانياً: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

ثالثاً: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال:٢١و٢٢].

رابعاً: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة:١٢٧].

خامساً: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].

سادساً: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان:٣٠].

سابعاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان:٧٣].

ثامناً: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك:١٠].

تاسعاً: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص:٢٩].

عاشراً: ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ [المنافقون:٣].

حادي عشر: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

ثاني عشر: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الكهف:١٠١].

ثالث عشر: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت:٥].

وبناء على ما تقدم؛ فالأصل في مشروعية تلاوة القرآن الاهتداء والاعتبار، ولا يكون ذلك إلا بالتدبر والتفهم، نعم قد يثاب التالي للقرآن بغير فهم، إذا كان يتلوه لغرض شرعي آخر؛ كتجويد التلاوة والحفظ، فإن توجه الذهن إلى ضبط الألفاظ، وإتقان مخارج الحروف مثلاً، يشتغل عن تدبر المعاني، ولكن مثل هذا يكون غرضاً عارضاً لا دائماً[1].

---

(١) لا شك أن مَنْ تلا كتاب الله -عز وجل- حق تلاوته بقصد العبادة والتقرب إلى الله كان له بكل حرف عشر حسنات؛ كما ثبت عن رسول الله ﷺ.

معنى ﴿ تَعۡقِلُونَ ﴾ تفهمون وتفقهون؛ كما في الحديث: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[١]؛ فالفقه في هذا الحديث، إنما هو بمعنى فهم مرامي الكتاب العزيز، والسنة النبوية...

وعماد الدين وقوامه، هو: الاعتقاد الصحيح، ومعرفة مكارم الأخلاق، والتحلي بمحاسن الآداب، وتطهير العقول من لوث الخرافات والأوهام، وكل هذا يكون بالوقوف على مرامي كتاب الله؛ فهذا هو الفقه بالمعنى المعروف في عصر النبوة والخلافة.

ليست الحكمة في إنزال القرآن الحكيم، التعبد بتلاوته من غير فهم معناه، أو لنجعله «حانوتاً» نبيع منه «عِدّية يس»، ولا لنجعله «صيدلية» نكتب آياته في آنية ونمحوها بالماء، ونتعاطاها لنشفى من داء كذا، ولا ..ولا..إلخ[٢]، بل الحكمة من إنزال القرآن مبينة في نفس القرآن، وهاكم بعضها:

أولاً: الهداية؛ كما قال: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة:١و٢].

ثانياً: التعقل؛ كما قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ ﴾ [يوسف:٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١و٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧) (٩٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه-.

(٢) لاشك أن التداوي بالقرآن والاستشفاء به جائز شرعاً وذلك بالرقى الشرعية، وقد فصلنا ذلك تفصيلاً حسناً في كتابنا «موسوعة صحيح الطب النبوي».

وأما ما ذكره الشيخ العلمي؛ فهو خروج بالقرآن عن مقاصده، والله أعلم.

ثالثاً: الخروج من الظلمة إلى النور؛ كما قال: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم:١].

رابعاً: البشارة والنذارة؛ كما قال: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴿٣﴾ ﴾ [الكهف:١-٣].

خامساً: التذكير؛ كما قال: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ [طه:١و٢].

سادساً- التدبر؛ كما قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤].

سابعاً وثامناً وتاسعاً-التثبيت والعظة والذكرى؛ كما قال: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود:١٢٠].

عاشراً- الاعتبار؛ كما قال: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾ [يوسف:١١١].

الحادي عشر- قانون عدلية أو مجلة أحكام[1]؛ كما قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ [طه:١١٣].

---

(١) هذه مصطلحات نابعة من الأحكام الوضعية والقوانين الأرضية، وتشبيه =

الثاني عشر- التفكر؛ كما قال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١].

الثالث عشر- شفاء ما في صدور الناس ، من أمراض الجهل بالله ، وبما له على عباده من الحقوق، وما لبعضهم من ذلك على بعض.

وأمراض الأخلاق السيئة والعادات الضّارة؛ كما قال:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٥٧].

إلى غير ذلك مما يزيد على ضعفه»[١] .

٢/١٦- كل كتاب سماوي أنزله الله بلسان قومه حتى يعقلوه ويفهموه لتقوم الحجة عليهم.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤][٢].

قال أبو السعود:

«﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾: لكي تفهموا معانيه طراً، وتحيطوا فيه من البدائع خبراً، وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر منزل من عند خلاق القوى والقدر»[٣].

= كتاب الله الكامل الشامل المفصل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بها خطأ مركب؛ فينبغي تنزيه كتاب الله عن ذلك، والأولى أن يقول: التحاكم إليه.

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ١٠٢-١١١) باختصار وتصرف.

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٥) بنحوه.

(٣) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٥).

٢/١٧- القرآن الكريم: لسان عربي ورسالة عالمية.

قال أحمد نوفل:

«ويستوقفنا ثانياً عربية هذا القرآن: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ وقد أكدت آيات عديدة في القرآن الكريم على هذه القضية، وإن عروبة لسان القرآن لا تعني عروبة القيم والمبادىء والعقائد التي فيه والنظم ؛ فتلك إنسانية عامّة تنتظم البشرية كلها، وإنما العربية وصف للسان الذي نزلت به تلك التعاليم لا لذات التعاليم؛ فلنتنبه أخي حتى لا نخدع بدعاوي المزيفين الذين يزعمون: أن الإسلام رسالة قومية عربية»[1].

٢/١٨- من مقاصد القرآن إيقاظ العقل وإرشاده.

قال أحمد نوفل:

«ثم وقفة ثالثة مع قوله -تعالى-: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

و﴿ لَّعَلَّكُمْ ﴾ في جنب البشر للتوقع، وفي جنب الله -عز وجل- للقطع؛ فهذا الكتاب من شأنه أن ينبه عقل من قرأه، ولكن فريقاً من الناس لا ينتبهون ولا يعقلون، لا لأن القرآن لا يستطيع أن يوقظ العقل ويهديه، لا، ولكن؛ لأنهم هم عطلوا عقولهم وملكاتهم ومواهبهم، وإن من مهام هذا القرآن أن يهدي العقل إلى الطريق السليم للتفكير، وأن يزوده بالمعلومات السليمة التي تمكنه من التفكير السليم؛ فإن العقل يحتاج إلى منهج كالطريق يسير عليه، ويحتاج إلى معلومات تُشَغِّله، والقرآن زودنا بكل ذلك بالمعلومات اللازمة عن الغيبات وعن الكون، وزودنا بالمنهج الذي نفكر به ووفقه ننظم طاقاتنا الفكرية ونحفظ عقولنا من أن تتبدد في الضلال، وتأسرها الأهواء

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٣٣).

والأحكام الخاطئة والمناهج الفاسدة من فلسفة ضالة أو منطق مزيف، وكم اخترع الإنسان من مناهج ضلل بها نفسه.

والحمد لله على منّة حفظ عقولنا مع منّة هداية قلوبنا.

والذين يعطلون عقولهم عن التفكير الصحيح وصفهم القرآن بأنهم لا يعقلون، وذلك الحق؛ فإن العقل الذي من شأنه أن يهدي إن أسيء استخدامه؛ فقد يعمق الضلال وإلا؛ فمن أين نشأت الأفكار الضالة؟»[١].

(١) «المرجع السابق» (ص٢٣٣-٢٣٤).

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

٣/١٩- القرآن الكريم اشتمل على أحسن القصص؛ فلا معنى لسماع قصص غيره[(١)].

قال البقاعي:

«ومن ذلك قصة يوسف -عليه السلام-؛ فقد ضمنها -سبحانه- من النكت والعبر والحكم أمرًا عظيماً.

وذكر فيها حسن مجاورة يوسف -عليه الصلاة السلام- لإخوته، وصبره على أذاهم، وحلمه عنهم ، وإغضائه عند لقائهم عن تبكيتهم ، وكرمه في العفو .

والأنبياء، والصالحين، والملائكة، والشياطين، والإنس، والجن، والأنعام، والطير، وسير الملوك، والمماليك، والتجار، والعلماء، والجهال، والرجال والنساء ومكرهن.

والتوحيد، والنبوة، والإعجاز، والتعبير، والسياسة، والمعاشرة، وتدبير المعاش، وجميع الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

وذكر الحبيب والمحبوب ، ولم يدخل فيها شيئاً من غيرها دون سائر القصص، وكان عقابها إلى خير وسلامة واجتماع شمل وعفو من الله وتجاوز عن الكل»[(٢)].

وقال أبو حيان:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٩٣).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ 6).

«وقيل: كانت هذه السورة أحسن القصص؛ لانفرادها عن سائرها بما فيها من ذكر الأنبياء، والصالحين، والملائكة، والشياطين، والجن، والإنس، والأنعام، والطير، وسير الملوك، والممالك، والتجار، والعلماء، والرجال، والنساء وكيدهن ومكرهن.

مع ما فيها من ذكر التوحيد، والفقه، والسير، والسياسة، وحسن الملكة، والعفو عند المقدرة، وحسن المعاشرة، والحيل، وتدبير المعاش، والمعاد، وحسن العاقبة في العفة والجهاد والخلاص من المرهوب إلى المرغوب، وذكر الحبيب والمحبوب، ومرأى السنين، وتعبير الرؤيا والعجائب التي تصلح للدين والدنيا.

وقيل: كانت أحسن القصص؛ لأن كل من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة: أنظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز والملك أسلم بيوسف وحسن إسلامه ومعبر الرؤيا الساقي، والشاهد فيما يقال»[1].

وقال القرطبي:

«واختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص؟

فقيل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن في العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة؛ وبيانه قوله في آخرها: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

وقيل: سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم وعفوه عنهم بعد الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه وكرمه في العفو حتى قال: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٣٦).

وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء، والصالحين، والملائكة، والشياطين، والجن، والإنس، والأنعام، والطير، وسير الملوك، والممالك، والتجار، والعلماء، والجهال، والرجال، والنساء، وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد، والفقه، والسير، وتعبير الرؤيا، والسياسة، والمعاشرة، وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا» [١].

قال عبد الرحمن السعدي:

«لصدقه وسلاسة عبارته ورونق معانيه كان أحسن القصص.

فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب؛ فهو مستدرك على الله ، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص ، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحاً، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة لما قصّه الله -تعالى- بشيء كثير؛ فعلى العبد أن يفهم على الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل» [٢].

قال القشيري:

«أحسن القصص: لخلوه عن الأمر والنهي الذي سماعه يوجب اشتغال القلب بما يعرض لوقوع التقصير.

أحسن القصص: لأن فيه عفو يوسف عن جنايات إخوته.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٢٠)، وانظر «اللباب في علم الكتاب»، لابن عادل الحنبلي (١١/ ٦).

(٢) «تفسير الكريم الرحمن» (ص٣٤٩).

أحسن القصص: لما فيه من ذكر ترك يوسف لامرأة العزيز وإعراضه عنها عندما راودته عن نفسه.

أحسن القصص: بالإضافة إلى ما سألوه أن يقص عليهم من أحوال الناس.

أحسن القصص: لأنه غير مخلوق.

وأحسن القصص: لأن فيه ذكر الأحباب»[١].

وقال أبو السعود:

«أحسن القصص؛ أي: أحسن الاقتصاص، فنصبه على المصدرية. وفيه مع بيان الواقع إشارة لما في اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل.

وأحسنيته؛ لأنه قد اقتص على أبدع الطرائق الرائعة وأعجب الأساليب الفائقة اللائقة، كما لا يكاد يخفي على من طالع القصة من كتب الأولين والآخرين وإن كان لا يميز الغث من السمين، ولا يفرق بين الشمال واليمين.

وأحسنيتها؛ لتضمنها من الحكم والعبر ما لا يخفي كمال حسنه»[٢].

وقال محمد رشيد رضا:

«نحدثك أحسن الاقتصاص والتحديث بيانا وأسلوبا وإحاطة، أو أحسن ما يقص ويتحدث عنه موضوعا وفائدة، ويجوز الجمع بين المعنيين. فالقصص: مصدر أو اسم من قص الخبر إذا حدث به على أصح الوجوه وأصدقها؛ لأنه من قص الأثر، واقتصه، إذا تتبعه وأحاط به خبرا؛ كأنه قال:

---

(١) «لطائف الإشارات» (٣/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٥١).

نقصه عن اقتصاص وإحاطة، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول، فيكون القصص بمعنى المقصوص من الأخبار والأحاديث»[1].

٣/٢٠ - علم التاريخ علم يهم كل إنسان الاطلاع عليه ودرسه وتعلمه.

قال العلمي:

«نتعلم من هذه الآية الكريمة وأخواتها الكثيرة في القرآن: أن علم التاريخ هو علم يهم كل إنسان الإطلاع عليه ودرسه وتعلمه. خصوصاً التاريخ الديني، وإليك بعض الآيات التي نتعلم منها ذلك:

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ [الأعراف:١٠١].

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠].

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه:٩٩].

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١].

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾ [مريم:١٦].

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم:٤١].

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص:١٧] أعني: مجموع قصتي داود وابنه سليمان.

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ [الأحقاف:٢١].

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾ [مريم:١-١٥].

---

(١) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٥٢).

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف:٩-١٦].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ [الكهف:٦٠-٨٣].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ [الكهف:٨٣-١٠٠].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم:٥].

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ ﴾ [المائدة:٢٧-٣٢].

﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ [الأحقاف:٤]، وهذه الآثار هي بقية من بقايا الأولين وما ذلك إلا علم التاريخ.

ويوجد في القرآن الكريم سور كثيرة سميت بأسماء حوادث تاريخية اشتملت تلك السور عليها ، بل وعلى غيرها من الأنباء الهامة ، أنباء الأنبياء وأقوامهم، والملوك ورعاياهم، والصلحاء والأشقياء ، والأمم الدائرة، والممالك الغابرة، والرجال والنساء وما إلى هذا القبيل ، وإليك بعض الأمثلة: سورة البقرة، آل عمران، المائدة، يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، الكهف، مريم، الأنبياء، النمل، القصص، الروم، لقمان، الأحزاب، سبأ، المؤمن، الأحقاف، الفتح، الحجرات، المجادلة، الحشر، المنافقون، نوح، الجن، عبس، الفيل، قريش، أبي لهب؛ فهذه ثلاثون سورة سميت بأسماء حوادث تاريخية ذكرت فيها، عناية بتلك الحوادث، وإعلاء من شأنها، وتشويقاً للقارئين في تفهمها، وأنت إذا أمعنت النظر ، ودققت في تتبع القرآن الكريم، وجدت في كل سورة من سور المئة والأربعة عشر نموذجاً من التاريخ الإنساني أو الحيواني أو النباتي أو الجمادي- الطبيعي أو السياسي أو الاجتماعي-الخاص أو العام- أو الديني أو الدنيوي، وهكذا تجده محتوياً على

تاريخ اليهود والمصريين والعراقيين وأهالي جزيرة العرب واليمن والنصارى، وما إلى ذلك مما يعثر عليه المنقبون ، ويقف عليه العارفون.

لو قال قائل :إن التاريخ من العلوم التي يسهل على البشر تدوينها والاستغناء بها عن الوحي، فلماذا كثر سرد الأخبار التاريخية في القرآن وكانت في التوراة أكثر؟.

فالجواب: ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو تاريخ وأخبار وقصص، وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها في القرآن، سوى قصة يوسف، فإنها نزلت مرة واحدة مرتبة مفصلة، وكل ما ترى من هذه في التوراة التي عند القوم من القصص المسهبة والتاريخ المتصل من ذكر آدم وما بعدها، فهي مما ألحق بالتوراة، بعد موسى بقرون، بل إن أكثر تواريخ العهد القديم، إنما كتب بعد السبي ورجوع بني إسرائيل من بابل»[1].

٣/٢١- إثبات نبوة محمد ﷺ وتقريرها بأقوى برهان عقلي وأعظم دليل نقلي.

إن محمد ﷺ هو النبي الأمي الذي لم يكن يعلم شيئاً من القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٨و٤٩].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ١١٢-١١٥).

وقولـه: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران:٤٤].

وقولـه: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود:٤٩].

ولذلك أكـد ذلـك في سـورة يوسـف بقولـه: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف:١٠٢].

قال العلمي:

«كان النبي ﷺ أمياً لم يتعلم من الكتب قط، ولم يُعْـنَ في طفولتـه ولا في شبابه بشيء مما كـان يسـمى علمـاً عنـد الأميـين؛ كالشـعر، والنسـب، وأيـام العرب، ولم يتربَّ على يد عالم ولا حكيم ولا سياسي، وكان – وهـو في سـن التعليم وتكوّن الأخلاق والملكات- يرعى الغنم نهاراً، وينام مـن أول الليـل؛ فلا يحضر سمّار قومـه، وهـي: موضـع السـمر في الليـل، ولا يجتمـع بـهم في معاهد لهوهم، واتجر قليلاً في شبابه مع قومه من أبناء الجاهلية وأتربـه؛ فـهو لم يصادف من التربيـة المنزليـة والتـأديب الاجتمـاعي في أول نشـأته مـا يؤهلـه للمنصب الذي تصدى له في كهولته، وهو: تربية الأمم تربية دينيـة اجتماعيـة سياسية، ولكنه مع ذلك قام بهذه التربية أكمل قيام.

وأتى من علم الحقوق والجزاء والتاريخ ما يعجز عـن مثلـه أكـبر رجـل دارس في الجامعات العالية؛ فكان هذا حجة على صحة نبوته، وبرهاناً عظيماً على عناية الله به، وتأييده إياه بوحيه :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود:٤٩].

ومن الغريب أنه يوجد في هذا العصر ، عصر النور والأفكار الحرة المطلقة[1]، من لا يفكر في إتيان الأمي الناشئ بين الأميين بخلاصة أخبار أشهر الرسل مع أهليهم وأقوامهم.

رجل أميّ يتيم فقير في بيئة منحلة ، وفي وسط جاهل ، لم يقرأ ولم يطلع على كل شيء من كتب الدين ولا كتب التاريخ، بل كان من «الغافلين» في غير عقيدته، ومع ذلك أتي من العلوم ما لم يأته قبله نبيّ ولا حكيم:

كفاك بالعلم في الأميّ معجزة
في الجاهلية والتأديب في اليتم»[2]

وقال البقاعي:

«ولما كانوا مع معرفتهم به ﷺ عارفين بأنه كان مباعداً للعلم والعلماء، وكان فعلهم في التكذيب فعل من ينكر ذلك، قال: ﴿ وَإِن ﴾؛ أي: وإن الشأن والحديث ﴿ كُنتَ ﴾ ولما كان كونه لم يستغرق الزمان الماضي، أثبت الجار فقال: ﴿ مِن قَبْلِهِۦ ﴾؛ أي: هذا الكتاب أو إيحائنا إليك به ﴿ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾؛ أي: عن هذه القصة وغيرها، مؤكداً له بأنواع التأكيد، وهو ناظر إلى قوله

---

(١) كما يزعم دعاة الفكر العقلاني؛ لانبهارهم بمدنية الغرب الجاهلية، والواقع عكس ذلك.

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ١٦٧-١٦٨).

آخرها:﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف:١٠٢] بعد التفاته عن كثب إلى آخر التي قبلها ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٢٣] والحسن: معنى يتقبله العقل، ويطرق إلى طلب المتصف به بأنواع الحيل...

فقد ظهر أن مقصود السورة وصف الكتاب بعد الحكمة والتفصيل بالإبانة عن جميع المقاصد المنزل لها؛ وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة من جملة ما قص عليه ﷺ من أنباء الرسل وأخبار من تقدمه مما فيه التثبيت الممنوح في قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠].. وإنما أفردت على حدتها ولم تنسق على قصص الرسل مع أنهم في سورة واحدة لمفارقة مضمونها تلك القصص، ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم الصلاة والسلام، وكيفية تلقي قومهم لهم، وإهلاك مكذبيهم.

أما هذه القصة؛ فحاصلها: فرج بعد شدة، وتعريف بحسن عاقبة الصبر؛ فإنه -تعالى- امتحن يعقوب -عليه الصلاة السلام- بفقد ابنيه وبصره، وشتات بنيه، وامتحن يوسف -عليه الصلاة والسلام- بالجُبِّ، والبيع، وامرأة العزيز، وفقد الأب والأخوة، والسجن.

ثم امتحن جميعهم بشمول الضر وقلة ذات اليد: ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ [يوسف:٨٨].

ثم تداركهم الله بالفهم، وجمع شملهم، ورد بصر أبيهم، وائتلاف قلوبهم، ورفع ما نزغ به الشيطان، وخلاص يوسف -عليه السلام- من كيد من كاده ، واكتنافه بالعصمة، وبراءته عند الملك والنسوة، وكل ذلك مما أعقبه

جميل الصبر وجلالة اليقين في حسن تلقي الأقدار بالتفويض والتسليم على توالي الامتحان وطول المدة.

ثم انجرّ في أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز ورجوعها إلى الحق، وشهادتها ليوسف -عليه الصلاة والسلام- بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين.

ثم استخلاص العزيز إياه إلى ما انجر في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]، فقد انفردت هذه القصة بنفسها ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود ولوط وشعيب وموسى -عليهم السلام- وما جرى في أممهم؛ فلهذا فصلت عنهم»[(١)].

قال القشيري:

«... أي: ما كنت إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها؛ أي: إنك لم تصل إلى معرفتها بكدّك وجهدك، ولا بطلبك وجدك بل هذه مواهب لا مكاسب»[(٢)].

٣/٢٢- غفلة النبي ليست عيباً يذم به.

قال العلمي:

«الغفلة قسمان:

غفلة يذم بها الإنسان، وهي فيما إذا كان قد بُلِّغَ شيئاً وعُلِّمه ثم غفل عنه.

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٧-٨).

(٢) «لطائف الإشارات» (٣/ ١٦٧).

وغفلة يعذر بها الإنسان، وليست مذمومة قط، وهي فيما إذا غفل عن شيء لم يُبَلَّغه ولم يعلَّمه.

فقوله: ﴿ وَإِن كُنتَ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ۝٣ ﴾ لا يقصد منه الذم والعتاب، ولكن يقصد منه بيان الواقع؛ لأن الغفلة هنا قريبة من معنى الجهل الذي هو ضد العلم، قال- تعالى – في الفقراء المتعففين: ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة:٢٧٣] فوصف الجهل هنا ليس فيه ذم؛ لأنه توصيف لبيان الواقع، هذا وإن عدم علمه ﷺ بالكتابة كان من أركان آياته، وعدم علمه بالشعر من أدلة الوحي وبيناته، وكل ما يتوقف علمه على الوحي الإلهي لا تكون غفلة الرسول عنه قبل نزوله عليه عيباً يذم به، وإذ لا يذم الإنسان إلا بما يقصر في تحصيله وكسبه، وقد أمر الله -تعالى- رسوله بأن يسأله زيادة العلم ، وكان يزيده كل يوم علماً وكمالاً، بتنزيل القرآن وبفهمه، وبغير ذلك من العلم والحكمة، وهذا لا يقتضي الذم قبل هذه الزيادة» [١].

وقال جمال الدين القاسمي:

«والتعبير عن عدم العلم بالغفلة؛ لإجلال قدر شأن النبي ﷺ» [٢].

وقال ابن عاشور:

«والغفلة: انتقاء العلم لعدم توجه الذهن إلى المعلوم. والمعنى المقصود من الغفلة ظاهر.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ١٦٩).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ١٩٧).

ونكتة جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كل من لم ينتفع بالقرآن؛ فدل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم»[١].

٣/٢٣- الإنسان لا يَعلم إلا ما يُعلَّم:

قال العلمي:

«إن الإنسان أي إنسان لا يعلم ما لم يُعلّم.

قال -تعالى-:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥٢].

وقال -تعالى-: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٣].

وقال -تعالى-: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى:٧].

هذه نصوص القرآن الكريم، وهي ظاهرة المعنى، فلا نعلق عليها بشيء، سوى أن نقول: كلمة واحدة: تبارك الله، والله لو كان هذا القرآن من عند (محمد) لما وردت فيه هذه الآيات الكريمة»[٢].

٣/٢٤- العقل يكون في غفلة -وإن كان ذكياً ألمعياً- حتى يتلقى علماً منهجياً ينقله إلى دائرة الحضور والوعي.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٠٤).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٦٨).

قال أحمد نوفل:

«أما وصف الغفلة الذي وصف به النبي ﷺ في هذه السورة، ووصف ﴿ ضَآلًّا ﴾ في سورة الضحى؛ فيعنيان عدم تحصيل العلم؛ أي: الأمية، وهذا من باب تقرير الواقع لا من باب الذم -معاذ الله- أما الغفلة المذمومة؛ فهي ما كانت عن تشاغل ولهو وإعراض بعد معرفة، وفي هذا يظهر فضل الله على هذه الأمة الأميَّة وعلى نبيها، ويظهر لنا -أيضاً- أن العقل يكون في غفلة -وإن كان ذكياً ألمعياً -حتى يتلقى علماً منهجياً ينقله إلى دائرة الحضور والوعي على الكون المحيط وحقائقه الثابتة الصحيحة»[(١)].

٣/٢٥- الصبر مفتاح الفرج.

المقصود: تثبيت رسول الله ﷺ بهذه القصة وأشباهها في القرآن الكريم.

قال -تعالى-: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود:١٢٠].

فكما كانت عاقبة يعقوب ويوسف الفرج كذلك عاقبتك.

قال الرازي:

«الصبر مفتاح الفرج؛ كما في حق يعقوب -عليه السلام-؛ فإنه لما صبر فاز بمقصوده، وكذلك في حق يوسف -عليه السلام-»[(٢)].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٣٧).

(٢) «مفاتح الغيب» (٩/ ٨٧).

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝ ﴾.

٤/٢٦- بيان شفقة الأب على أبنائه، ودفع ما يسوؤهم.

قال العلمي:

«كأن هذه الكلمة ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ من الابن إلى الأب استعطاف واسترحام، وتذكير بالأبوة وواجباتها، نحو الشفقة والعناية بالأبناء، وما بين الابن والأب من الحقوق التي تجب مراعاتها والقيام على الوفاء بها من الطرفين»[١].

وقال جمال الدين القاسمي:

«ناجى يوسف أباه بهذه الرؤية؛ لاعتقاده كمال علمه وشفقته عليه، بحيث لو كانت رؤياه تسوؤه؛ لأمكنه صرفها عنه»[٢].

٤/٢٧- وجوب الأدب مع الوالدين في الكلام والتلطف في الخطاب.

ويظهر في مناداة يوسف -عليه السلام- لأبيه بأداة النداء للبعيد إعلاء لمنزلة أبيه ورفعة شأنه، وكذلك في قوله ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ فيه إظهار الطواعية والبر بمخاطبة أبيه.

وهذا ما أكده الله في أكثر من موطن في كتابه العزيز؛ كقوله -تعالى-: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ١٧١).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ١٨٧).

﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

وقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان:١٤-١٥].

٤/٢٨- ثبوت الرؤيا شرعاً ومشروعية تعبيرها[١].

قال العلمي:

«من الواضح الذي نستحي أن نعزوه إلى كتاب، أو نقيم عليه شاهداً: أن الرؤيا المنامية معتبرة شرعاً[٢]، ومسطورة في كثير من الكتب السماوية، بل معتبرة فناً؛ فإن علماء الطبيعة[٣]، وعلماء النفس[٤] أثبتوها.

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٩٤).

(٢) وهي مما يُستأنس بها؛ لأن الرؤيا الصادقة من المبشرات، وأما الاحتجاج بها كدليل مستقل كما يفعل المتصوفة؛ فلا أصل له في الشرع، بل هو من أسباب ضلالهم وأبواب زيغهم.

(٣) المراد بالطبيعة: العلم التجريبي.

(٤) لا تعد الدراسات حول النفس البشرية التي يقوم بها هؤلاء علماً؛ لأن ذلك ليس له ضوابط وقواعد، والنفوس البشرية مختلفة الطباع والأمزجة؛ فكل إنسان عالم مستقل عن غيره.

ولا يمكن ضبط ذلك إلا بما يعلمه اللطيف الخبير من مكنون النفس؛ لقوله تعالى: =

قال -تعالى-: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء:٦٠].

وقال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات:١٠٢].

وقال -تعالى-: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح:٢٧].

وروى البخاري ومسلم عن أبي قتادة قال: كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الصالحة من الله، والرؤيا السوء من الشيطان؛ فإذا رأى أحدكم ما يحب؛ فلا يحدث بها إلا من يحب، وإذا رأى أحدكم ما يكره؛ فليتفل عن يساره ثلاثاً، وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها؛ فإنها لن تضره»(١).

وعن أبي رزين العقيلي قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا المؤمن جزء من أربعين (وفي رواية: جزء من ستة وأربعين) جزء من النبوة».

قال: وأحسبه قال: «ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً»(٢).

= ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك:١٤].

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٤)، ومسلم (٢٢٦١/ ٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٠)، وعلي بن الجعد في «مسنده» (٢/ ٧١٧/ ١٧٧٢). وصححه شيخنا الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (١١٩و١٢٠).

ووجه كونها جزءا من ستة وأربعين جزءاً من النبوة: أنه ﷺ بقي حسبما أشارت عائشة -رضي الله عنها- ستة أشهر يرى الوحي مناما، ثم جاءه الملك يقظة، وستة أشهر بالنسبة إلى ثلاث وعشرين سنة جزءاً من ستة وأربعين جزء، ولا تنس أن كون الرؤيا الصادقة جزءا مما ذكر إنما هو اعتبار صدقها لا غير، وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبيا وليس كذلك، هكذا أفادنا الحافظ العسقلاني -رحمه الله-، وعليه؛ فلا تكون الرؤيا مبدأ للنبوة ولكن تعد من مقدماتها؛ فالظاهر لنا أن رؤى الأنبياء المنامية قبل نبوتهم هي من قبيل الإرهاصات التي تكون قبل النبوة؛ أي: قبل الزمن الذي يتأهل فيه النبي لقبول الوحي في اليقظة، وأما رؤياهم في المنام بعد النبوة بالفعل؛ فهي وحي صريح؛كما نتعلمه من حادثة رؤيا إبراهيم المنامية في شأن ولده الذبيح.

والخلاصة: أن رؤيا الأنبياء حال نبوتهم نوع من أنواع الوحي، ورؤياهم قبل نبوتهم هي كسائر رؤى أهل الصلاح والخير، تعد من أنواع المبشرات لا من قبيل الوحي.

قال- تعالى-: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

وقد ورد في الحديث[1]: أن البشرى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ٤٧) من حديث أبي الدرداء- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني-رحمه الله- في «الصحيحة» (١٧٨٦).

ثم قال لي هاهنا ثلاث كلمات:

الكلمة الأولى: إن الرؤيا المنامية معتبرة خصوصاً إذا كانت للأنبياء؛ لأنها لهم وحي إذا كانت بعد النبوة، أو إرهاص إذا كانت قبلها ، وها هنا ربما ينتقدنا بعضهم بأن قوله -تعالى-: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ﴾ [الأنفال:٤٣] يفيد أن الرؤيا المنامية للأنبياء قد تكون غير موافقة للواقع لبعض الأسباب اللازمة؛ كما ترى من هذه الآية؛ فإن المشركين في بدر كانوا كثيرين، وقد أراهم الله لنبيه ﷺ قليلين؛ فأخبر بذلك أصحابه؛ فاعتقدوهم كذلك، ولكن بعد اللقاء في الهيجاء رآهم النبي ﷺ وأصحابه كثيرين؛ أي: ألفاً، وكان المسلمون (٣١٣) نفراً، فكيف مع هذا يقال: إن الرؤيا حق، وإن رؤيا الأنبياء وحي صادق موافق للواقع؟.

وجوابنا عن هذا السؤال : أن الله تعالى قد يوحي إلى أنبيائه ورسله في المنام ما هو في حُلل المجازات والاستعارات والتمثيلات، ونظائره كثيرة، وشواهده متوفرة...

منها ما جاء في حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأناّ في دار عقبة بن رافع؛ فأتينا برطب من رطب ابن طاب؛ فأولت أن الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب»[١].

وعليه؛ فالعلة هاهنا مجاز عن ضعف المعنويات؛ أي: قلة الكم مجاز عن قلة الكيف، كما يرى الإنسان في منامه حية وهي كناية عن العدو، ويرى أن فلاناً مات، وهو كناية عن قلة دينه، وهلم جراً، ولو تتبعنا كتب تفسير

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٠).

الأحلام لوجدنا جميع المنامات التي يراها الناس هي من هذا القبيل، نعم وربما وقعت الرؤيا للأنبياء صريحة وربما وقعت لهم من باب التمثيل.

والخلاصة: أن مدار انتقاد المنتقد السابق على تحتم أن تكون رؤيا الأنبياء صريحة دائماً.

ومدار جوابنا على جواز أن تكون رؤياهم في بعض الأحيان من قبيل التمثيل، وعلى كل حال؛ ففرق عظيم بين رؤيا الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ورؤيا غيرهم من الناس ومن لم يفرق بين الرؤيتين؛ فهو كمن لم يفرق بين التوم والثوم[1].

الكلمة الثانية: أحوج الناس إلى اعتبار المرائي المنامية وتصديقها هم النصارى؛ وذلك لأنهم يقولون: إن يوسف النجار خطيب السيدة مريم اتهمها لما رآها حبلى، وأراد تخليتها سراً، ولكنه عدل عن ذلك بما رآه في النوم من الرؤيا المنامية التي نفت عنها الفاحشة والتهمة الكاذبة؛ فهذه الرؤيا التي رآها في نومه هي التكأة الكبرى والدعامة الوحيدة التي استند إليها يوسف النجار في براءة السيدة مريم مما اتهمها به، مع أن يوسف عندهم ليس بنبي يوحى إليه، وغايته أنه رجل صالح من صالحي بني إسرائيل، وهذه الحكاية عندهم مسطورة في (سفر متى) هكذا: «لما كانت مريم أمَةً مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من روح القدس؛ فيوسف رجُلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سراً، ولكن فيما هو مفتكر في هذه الأمور، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك؛ لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس».

---

(١) التوم جمع تومة، وهي اللؤلؤة، والثوم معروف.

فهذا المنام الذي دفع التهمة عن السيدة مريم معتبر عند النصارى، وبناء عليه؛ فجميع المرائي المنامية يجب أن تكون عندهم في محل الاعتبار، وأما قول شراح المرائي وغيرهم من المسيحيين[١]: لم يبق بعد المسيح لزوم لإعلان الله إرادته للناس في النوم وليس من احتياج لذلك؛ فهو دعوى مجردة عن البرهان، ولا يؤيدها العقل، بل إن صدق ألوف الألوف من المرائي المنامية التي رآها ويراها الناس بعد المسيح يناقض هذه الدعوى[٢].

الكلمة الثالثة: الرؤيا المنامية ولو كانت صحيحة وحقاً، فهي لا تحرم حلالاً، ولا تحلل حراماً، ولا يترتب عليها حكم شرعي، وقد حكي أن رجلاً صالحاً فقيراً رأى رؤيا: أن النبي ﷺ جاءه في نومه وقال له: إن في موضع كذا ركازاً، احضر وخذه، ولا تؤد خمسه؛ فقام من نومه صباحاً، وأخذ ما يقتضي لحفر الأرض؛ فاطلع على الركاز، فذهب إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام يستفتيه في عدم إعطاء خمسه لبيت المال، حسب ما قال له النبي مناماً، فقال له الشيخ عز الدين: يجب عليك أن تؤدي خمسه لبيت المال، كما أفتانا النبي ﷺ يقظة، وفتواه في اليقظة مقدمة على فتواه في المنام، نعم إن رؤيا النبي حق، ولكن يحتمل عدم ضبط الألفاظ تماماً؛ فلعله قال لك: وأد خمسه لبيت المال. وأنت سمعته يقول: ولا تؤد خمسه.

وهكذا قال الفقهاء: لو اختلف المسلمون في آخر يوم من شعبان: هل غداً من رمضان أم لا؟ ثم رأى رجل النبي ﷺ في نومه ، وسمعه يقول له: إن

---

(١) الصواب أن يقال: النصارى.

(٢) إيراد مثل هذه الحكايات من كتب النصارى هو لإلزامهم بها.

وأما شرعنا الحنيف؛ فهو كامل شامل لا يحتاج إلى غيره بل هو مهيمن عليه، وهو يقوم على أصول قطعية الثبوت من الكتاب والسنة وفهم السلف.

غداً أول يوم من رمضان؛ فصمه، وأمرالناس بصيامه، لا يجب عليه صيامه؛ لأن الرؤيا التي في المنام، لا يترتب عليها شيء من الأحكام الشرعية، ولو كانت حقاً وصحيحة، هذا إذا كانت لغير الأنبياء أنفسهم، وأما رؤيا الأنبياء أنفسهم؛ فهو وحي كما في اليقظة، تترتب عليها الأحكام الشرعية بلا خلاف»[١].

٤/٢٩- بر الأم مقدم على بر الأب.

قال ابن عطية:

«القمر: تأويله الأب، والشمس: تأويلها الأم؛ فانتزع بعض الناس في تقديمها وجوب بر الأم وزيادته على بر الأب»[٢].

قلنا: وهذا موافق لما ثبت عن رسول الله ﷺ: أن رجلاً قال: من أحق الناس بحسن صحابتي. قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أبوك»[٣].

٤/٣٠- حاجة الصغير إلى أمه أشد من حاجته إلى أبيه.

الطفل محتاج لأمه وعنايتها وحنانها أكثر من حاجته لأبيه؛ فتعبير الشمس بالأم مستقيم؛ لأن الشمس تمد الخلق بالحرارة والإشراق؛ كما تمد الأم ولدها بالدفء والحنان.

٤/٣١- الإرهاصات تدل على ما بعدها.

قال عبد الرحمن السعدي:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ١٧٦-١٨١).

(٢) «المحرر الوجيز» (٣/ ١٢١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

«فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف -عليه السلام- من الارتفاع في الدنيا والآخرة، وهكذا إذا أراد الله أمراً في الأصول العظام قدّم بين يديه توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، ولطفاً بعبده، وإحساناً إليه.

فأولها يعقوب بأن الشمس أمه، والقمر أبوه، والكواكب إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له واصطفائه إياه، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل والتمكين في الأرض، وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له وصاروا تبعاً له فيها»[١].

وقال ابن عاشور:

«وابتداء قصة يوسف -عليه السلام- بذكر رؤياه إشارة إلى أن الله هيأ نفسه للنبوة؛ فابتدأه بالرؤيا الصادقة...

وفي ذلك تمهيد للمقصود من القصة وهو: تقرير فضل يوسف -عليه السلام- من طهارة وزكاة نفس وصبر، فذكر هذه الرؤيا في صدر القصة؛ كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة.

وجعل الله تلك الرؤيا تنبيهاً ليوسف -عليه السلام- بعلو شأنه ليتذكر كلما حلت به ضائقة؛ فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة»[٢].

فإن قيل: لِمَ لمْ ير يوسف -عليه الصلاة والسلام- رؤيا تدل على ما سيصيبه من شر؟.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٩٣).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٠٨).

فالجواب ما قاله العلمي:

«كانت قدّرت أشياء على يوسف لا بد منها، وذلك مثل امتحانه بمراودة امرأة العزيز إياه، ثم نسبة المراودة إليه زوراً، ثم اختباره ثانياً بالنسوة المصريات، ثم سجنه ظلماً، ولم ينذر بشيء من هذه الأشياء ولم ير عنها في منامه ولكنه قدرت له أشياء أخرى، وذلك مثل سجود إخوته له، واجتباء ربه إياه، وتعليمه من تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه، وهذا النوع قد بشر ببعضه مناماً، وبشر ببعضه الآخر بلسان أبيه يقظة، ولماذا هذه التفرقة يا ترى؟

أعني: أنه لم ينذر بما سيصب عليه، ولكنه بُشِّرَ بما سيصير له.

وجوابنا على ذلك: أن الأفضل فيما كان من قبيل الخير أن يبشر به الإنسان، ويوعد به قبل حصوله له بالفعل، وذلك لكي يتلذذ بالأمل بحصوله قبل أن يحصل بالفعل، وأما ما كان من قبيل الشر؛ فالأوفق أن لا يشعر به أولاً؛ لئلا يتنغص به قبل وقوعه، وقد قيل : الوقوع في الشر ولا انتظاره»[1].

قلنا: لأن المبشرات تزود العبد بطاقة احتمال عظيمة تجعله يصبر على ما يلقى من عوائق وعقبات في طريقه وسيره إلى الله، ويستصغرها وهو يرى أفق المستقبل الواعد بإذن الله وتوفيقه.

٤/٣٢- رؤيا الأنبياء وحي، وكان تعبيرها أعظم معجزات يوسف الصديق -عليه السلام-، ولذا تر قصته مسلسلة بتأويل الأحاديث.

قال الشنقيطي:

«قوله -تعالى-: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ ﴾.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ١٨١-١٨٢).

لم يبين هنا تأويل هذه الرؤيا، ولكنه بينه في هذه السورة الكريمة في قوله: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

ومن المعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي.

لقولـــه -تعـــالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف:٦].

بيّن الله -جل وعلا- أنه علّم نبيه يوسف من تأويل الأحاديث ، وصرح بذلك في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ ﴾ [يوسف:٢١].

وقوله: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ ﴾ [يوسف:١٠١].

واختلف العلماء في المراد بتأويل الأحاديث:

فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد بذلك:تعبير الرؤيا؛ فالأحاديث على هذا القول هي الرؤيا.

قالوا : إنها إما حديث نفس، أو ملك، أو شيطان.

وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا، ويدل لهذا الوجه الآيات الدّالة على خبرته بتأويل الرؤيا .

كقولـــه: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف:٤١].

وقوله:﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف:٤٧-٤٩].

وقال بعض العلماء:المراد بتأويل الأحاديث معرفة معاني كتب الله وسنن الأنبياء، وما غمض وما اشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم، ويشرحها، ويدلهم على مودعات حكمها.

وسميت أحاديث؛ لأنها يحدث بها عن الله ورسله؛ فيقال:قال الله: كذا، وقال رسوله: كذا، ألا ترى إلى قوله: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [المرسلات:٥٠]، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [الزمر:٢٣].

ويدل لهذا الوجه قوله -تعالى-: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [يوسف:٢٢].

وقوله: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ ﴾ [يوسف:٣٧]»[1].

٤/٣٣- فائدة الإتيان بالظرف الزماني :

قال أحمد نوفل:

«من هذه الآية تبدأ قصة يوسف بالظرف الزماني(إذ) الذي وظيفته اقتطاع جزء من الزمان الممتد والتركيز عليه ووضعه تحت الأضواء؛ لأخذ العبرة منه والفائدة .

ولذلك كثر هذا الظرف في القصص القرآني، وكثر أيضا في المواطن التي يراد لفت نظر العباد إلى ما فيها من آيات الله وأفضاله.

وتأمل إن شئت آيات الأنفال التي وصفت لنا غزوة بدر ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾، ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ ﴾، ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾»[2].

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٥١-٥٢).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٤٤-٢٤٥).

٤/٣٤- العبرة بالخواتيم.

رؤية يوسف إخوته كواكب دليل على حسن خاتمتهم وأن أمرهم سيؤول إلى خير [(١)].

تنبيهات:

الأول: شاع في هذا العصر تفسير علمي -زعموا- لهذه الآية، حيث قالوا: إن هذه الآية دالة على ما اكتشفه علماء الهيئة من وجود أحد عشر كوكباً تدور حول الشمس، وقمر واحد يدور حول الأرض، وهو ما يسمى بـ «المجموعة الشمسية».

وهذا تأويل باطل لا يستسيغه لسان العرب، وبخاصة أن رؤيا يوسف عُبِّرت في السورة نفسها.

الثاني: السجود الوارد في الآية؛ لأن ذلك كانت تحيتهم ولم تكن عبادة وهو حرام في شرعنا.

قال القرطبي: «وهكذا كان سلامهم بالتكفي والانحناء، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا، وجعل الكلام بدلاً من الانحناء، وأجمع المفسرون أن السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة....

هذا الانحناء والتكفي الذي نسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية، وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض، حتى إن أحدهم إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء، نكبوا عن السَّنن، وأعرضوا عن السُّنن» [(٢)].

---

(١) انظر: «روح المعاني» (١٢/ ١٨٧-١٨٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٦٥).

الثالث: رؤية يوسف -عليه السلام- إخوته كواكب يرجح نبوتهم، وأنهم الأسباط الذين ذكرهم الله في قوله -تعالى-: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة:١٣٦]، وقوله: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [آل عمران:٨٤]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [النساء:١٦٣]، والله أعلم.

﴿ قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

٥/٣٥- مشروعية التحبب إلى الصغير وملاطفته.

قال أبو حيان:

«ولما خاطب يوسف أباه بقوله: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ﴾، وفيه إظهار الطواعية والبر والتنبيه على محل الشفقة بطبع الأبوة، خاطبه أبوه بقوله: ﴿ يَـٰبُنَيَّ ﴾ تصغير التحبيب والتقريب والشفقة»(١).

قال العلمي:

«خاطب يعقوب يوسف بذلك؛ تحريكاً لسلسلة النسب، وتذكيراً برابطة البنوة، وإرشاداً لما على الابن من وجوب سماع نصيحة الأب.

ونظيره ما في قول لقمان لابنه: ﴿ يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٣-١٧].

ثم ما في قول إبراهيم لولده الذبيح إسماعيل: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الصافات:١٠٢].

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٣٨).

ثم ما في قول يعقوب لأولاده إذ حضرته الوفاة: ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢].

ثم ما في قول إبراهيم لوالده آزر: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم:٤٢].

وبالعكس ما صدر من آزر لابنه إذ قال: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾ [مريم:٤٦].

ثم ما في قول هارون وهو يخاطب أخاه ويستعطفه إذ قال: ﴿ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٠] وبعكسه خطاب أخيه موسى له إذ قال: ﴿ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝ ﴾ [طه:٩٢-٩٣]، فموسى خاطب أخاه باسمه الشخصي ولم يرد أن يخاطبه باسم الأخ مع أن هارون أكبر منه بأربع سنين؛ لأنه متكدر منه، وأما هارون؛ فخاطب موسى بابن أمه؛ ليذكره برابطة الأخوة، ويحرك منه سلسلة انتسابه إليه، كي يتحنن ويعطف عليه»[1].

٥/٣٦ - مشروعية الحذر والأخذ بالحيطة في الأمور الهامة[2].

قال أبو حيان:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٠٢-٢٠٤).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٩٥).

«وفي خطاب يعقوب ليوسف تنهية عن أن يقص على إخوته مخافة كيدهم؛ دلالة على تحذير المسلم أخاه المسلم ممن يخاف عليه، والتنبيه على بعض ما لايليق، ولايكون ذلك داخلاً في باب الغيبة»(١).

٥/٣٧- الإنسان مأمور بالاحتراز؛ فإن نفع فذاك، وإلا لم يلم العبد نفسه.

قال السعدي:

«أن من الحزم إذا أراد العبد فعلاً من الأفعال أن ينظر إليه من جميع نواحيه ويقدر كل احتمال ممكن، وأن الاحتراز بسوء الظن إذا لم يتحقق، بل يحترز من كل احتمال يخشى ضرره، ولو تضمن ظن السوء بالغير إذا كانت القرائن تدل عليه وتقتضيه، كما في هذه الآية، وكما قويت القرائن في قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

فإنه سبق لهم في أخيه ما سبق، فلا يلام يعقوب إذا ظن هذا الظن، وإن كانوا في الأخ الأخير لم يجر منهم تفريط ولا تعدٍّ»(٢).

٥/٣٨- الحذر من الذنوب.

قال السعدي:

«الحذر من الذنوب، خصوصاً الذنوب التي يترتب عليها ذنوب أخر ويتسلسل شرها، كما فعل إخوة يوسف بيوسف، فإنه نفس فعلهم فيه عدة جرائم في حق الله، وفي حق والديه، وقرابته، وفي حق يوسف؛ ثم يتسلسل كذبهم كلما جرى ذكر يوسف وقضيته، أخبر بهذا الكذب الفظيع، ولهذا حين

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٣٩).

(٢) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف -عليه السلام-» (ص٢٩-٣٠)

تابوا وخضعوا وطلبوا من أبيهم السماح: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾[1]».

٥/٣٩- وجود الحسد عادة بين الأخوة والأقارب:

«الحسد ظاهر بين الأقارب ، وهذا ظاهر في طعن الرجل من بني سَلِمة -وهم قوم كعب بن مالك- في كعب في تبوك، وقد أثبت القرآن الكريم هذه الحقيقة في قصتين:

الأولى: نبأ ابني آدم عندما تقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر؛ فحسد أخاه، وبغى عليه؛ فقتله: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة:٢٧-٣١].

قال ابن كثير -رحمه الله-: «يقول -تعالى- مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور[2]، وهما: قابيل وهابيل[3] كيف عدا أحدهما على الآخر؛ فقتله بغياً عليه وحسداً له فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله -عز وجل-؛ ففاز المقتول بوضع الآصار والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين»[4].

---

(١) المرجع السابق (ص٣١-٣٢).

(٢) وهو الصواب.

(٣) لم يثبت في السنة الصحيحة، وإنما في الإسرائيليات.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٣).

الثانية: خبر يوسف مع إخوته عندما سمعوا الرؤيا؛ فكادوه وحسدوه، وهذا ما حذر منه يعقوب -عليه السلام- ابنه الصديق: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝﴾ [يوسف:٥].

قال القرطبي:

«وفيها ما يدل على جواز ترك النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيداً ...وفيها دليل واضح على معرفة يعقوب -عليه السلام- بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك في نفسه، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه، ويدل على أن يعقوب -عليه السلام- كان أحس من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن قص الرؤيا عليهم خوف أن تغل بذلك صدورهم؛ فيعملوا الحيلة في هلاكه»[1].

قال أبو بكر بن العربي:

«فيه حكم بالعادة أن الأخوة والقرابة يحسدون»[2].

قال العلمي:

«لو قال قائل: أراد من كلمة ﴿إِخْوَتِكَ﴾ الأخوة المناوئين ليوسف المتألبين عليه، فليس منهم بنيامين قطعاً؛ كما هو واضح، ولكنه يظهر أنه أراد

---

(٢) «إتحاف السالك بفوائد حديث المخلفين برواية كعب بن مالك» (ص٢٧٦-٢٧٧) لأبي أسامة سليم الهلالي.

(٣) «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٧٥) ونقله القاسمي في «محاسن التأويل» (٩/ ١٨٩).

عموم الإخوة العشرة إجمالاً؛ سداً لباب الفساد بالمرة، وطرداً للكلام على وتيرة واحدة؛ لأن الوقت ليس وقت تفصيل ولا تشريح»[١].

٥/٤٠- ينبغي البعد عن أسباب الشر وما يخشى مضرته[٢].

قال السعدي:

«على كل والد أن يحرص على أولاده، ولا يسمح بأن ينشأ فيهم داء الحسد، وإلا دخل الشيطان بينهم، سلط بعضهم على بعض، وإذا أصاب أحدهم خير خاص به ينبغي ألا يذكره لغيره؛ كي لا يثير غيرتهم وحقدهم وحسدهم وسائر المشاعر السلبية التي يمكن أن تكون مركومة في النفس البشرية»[٣].

قال العلمي:

«إن أهل الفضل والنبل محسودون من قديم الزمان، ولذلك يجب ألا يتظاهروا بمفاخرهم، إذا خافوا من أهل الحسد شراً»[٤].

قال السيوطي في «الإكليل»:

«قال الكيا: هذا يدل على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى من حسد ومكروه»[٥].

وقال القاسمي:

«وقال بعض المفسرين اليمانيين: قال الحاكم: هذا يدل على أنه يجب في

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٢) «تيسير الكريم المنان» (ص٣٦٣).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص١١-١٢).

(٤) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٠٢).

(٥) ونقله القاسمي في «محاسن التأويل» (٩/ ١٨٩).

بعض الأوقات إخفاء فضيلة تحرزاً من الحسود.

وهذا داخل في قولنا: إن الحسن إذا كان سبباً للقبيح قُبِّح، ومنه آية الأنعام: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ ﴾ [الأنعام:١٠٨].

وفي هذا ما ذكر عن زين العابدين:

إني لأكتم من علمي جواهره
كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتن

والأبيات معروفة ذكرها عن زين العابدين الغزالي في «منهاج العابدين»، والديلمي في كتاب «التصفية».

وهذا يعقوب -صلوات الله عليه- أمر يوسف ألا يقص رؤياه على إخوته، والمعنى واحد؛ فلا معنى لإنكار من ينكر ويزعم أن العلم لا يحل كتمه.

ومقصوده: أن خوف شر الأشرار من الصوارف عن الصدع بالحق.

قال السيد المرتضى اليماني في «إيثار الحق»: مما زاد الحق غموضاً وخفاء خوف العارفين مع قلتهم من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق مع جواز التقيّة عند ذلك بنص القرآن، وإجماع أهل الإسلام، وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق، وما برح المحق عدواً لأكثر الخلق.

وذكر -رحمه الله- قبل في الاستدلال على التقية؛ أنه -تعالى- أثنى على مؤمن آل فرعون مع كتم إيمانه، وسميت به سورة «المؤمن»، وقد صح عن

أبي هريرة أنه قال في ذلك العصر الأول: «حفظت من رسول الله ﷺ وعائين أما أحدهما؛ فبثثته لكم، وأما الآخر؛ فلو بثثته؛ لقطع هذا البلعوم»[١].

قال الغزالي في خطبة «المقصد الأسنى»: «من خالط الخلق جدير بأنه يتحامى، لكن من أبصر الحق عسير عليه أن يتعامى»[٢].

وفي هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر؛ كما ورد في الحديث الحسن لشواهده: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها»[٣].

قال القرطبي:

«وفيها ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيداً»[٤].

قال أبو المظفر السمعاني:

«قال أهل التفسير: إن رؤيا الأنبياء وحي؛ فعلم يعقوب أن الإخوة لو سمعوا بهذه الرؤيا عرفوا أنها حق، فيحسدونه؛ فأمره بالكتمان؛ لهذا المعنى»[٥].

٥/٤١- ذكر المساوئ على سبيل النصح لا يعد من الغيبة.

قال البقاعي:

«وفي الآية دليل على أنه لا نهي عن الغيبة للنصيحة، بل هي مما يندب إليه»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٠).
(٢) «محاسن التأويل» (٩/ ١٩٠).
(٣) «الصحيحة» (١٤٥٣)، وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٨١).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٢٧).
(٥) «تفسير القرآن» (٣/ ٨).
(٦) «نظم الدرر» (٤/ ١١)، وانظر: «تيسير الكريم المنان» (ص٣٦٣).

وقال القرطبي:

«وفي هذه الآية دليل على أن مباحاً أن يحذّر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه،ولا يكون داخلاً في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب –عليه السلام– قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته؛ فيكيدوا له كيداً»[١].

قلنا: على هذا قام علم الجرح والتعديل؛ ذباً عن الشريعة الغراء، وحماية للدين من كذب المفترين، وتطهيراً للسنة النبوية من وضع الوضاعين؛ كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الحسن لغيره: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[٢].

٥/٤٢–إن الحسد قد يقع ممن هم في سن الشيوخ لمن هم في سن الفتيان الصغار؛ لأنه وقع في إخوة يوسف وهم أسن منه بأعوام كثيرة باتفاق المفسرين والمؤرخين ، وهو –عليه السلام– كان طفلاً صغيراً وكذلك أخوه.

ولم يمنعهم التفاوت في السن من الحسد والبغي والكيد له ولأخيه.

وهذا أمر رأيناه رأي العين ولمسناه لمس اليد من أناس في سنِ آبائنا، فالله المستعان، وعليه التكلان [٣].

٥/٤٣- للشيطان سلطة على كلِّ الناس حتى أولاد الأنبياء حاشا الأنبياء أنفسهم[٤].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٢٦-١٢٧).

(٢) حسن لغيره؛ كما بينه الشيخ سليم الهلالي في كتابه« بصائر ذوي الشرف بشرح مرويات منهج السلف» (ص١١١).

(٣) انظر: «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٠٢).

(٤) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٠٢).

ومما يؤكد ذلك ما وقع لأبناء آدم -عليه السلام-: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة:٢٧-٣٠].

وما وقع لابن نوح -عليه السلام- الذي كفر بالله: ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود:٤٣].

وما وقع بين أبناء يعقوب -عليه السلام-.

قال أبو السعود:

«﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة؛ فلا يأل جهداً في إغواء إخوتك وإضلالهم وحملهم على ما لا خير فيه؛ وهو استئناف؛ كأن يوسف- عليه السلام- قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوة؟ فقيل: إن الشيطان يحملهم على ذلك»[1].

٥/٤٤- أمر الرؤيا مشكل؛ فلا ينبغي أن تقص إلا على شفيق ناصح[2].

قال ابن كثير:

«فخشي يعقوب -عليه السلام- أن يُحَدِّث بهذا المنام أحداً من إخوته؛ فيحسدونه على ذلك؛ فيبغون له الغوائل حسداً منهم له.

ولهذا قال له: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف:٥]؛ أي: يحتالون لك حيلة يردونك فيها.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٥٣).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ١١).

ولهذا أثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب؛ فليحدث به، وإذا رأى ما يكره؛ فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً؛ فإنها لا تضره»[١].

وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل «السنن» من رواية معاوية بن حيدة القشيري؛ أنه قال: قال رسول الله: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت»[٢]»[٣].

قال القرطبي:

«هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها»[٤].

٥/٤٥- إن تعدد الزوجات ربما أثار عداءً ينتشر من الضرائر إلى أولادهن[٥].

وهذا نتيجة لسوء التربية وليس بسبب التعدد؛ لأن التعدد شرعه الله، وندب إليه أمة الإسلام.

ولذلك ينبغي أن يحرص الرجل على رعاية بيته وتربية أولاده وعدم التفريق بينهم وبين أمهاتهم؛ فسياستهم بالعدل كفيل بإطفاء نار الحسد والغيرة بين الضرائر وأبنائهن.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٥)، ومسلم (٢٢٦١/ ٤).

(٢) قلنا: وهم الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في عزوه هذا؛ فلم يروا الإمام أحمد ولا أهل السنن هذا الحديث من حديث معاوية بن حيدة، وإنما أخرجه أحمد (٤/ ١٠)، وأبو داود (٥٠٢٠)، والترمذي (٣٢٧٨)، وابن ماجه (٣٩١٤) وغيرهم كثير بسند حسن في الشواهد من حديث أبي رزين العقيلي، لكن الحديث ثابت بشواهده، كما فصل ذلك كله شيخنا أبو عبد الرحمن الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (١٢٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٨٦).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٢٦).

(٥) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٠٢).

٥/٤٦- وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس لاسيما مع وجود هوى النفس:

قال محمد رشيد رضا:

«﴿ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة بيِّنها لا تفوته فرصة لها؛ فيضيعها. هذا بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد، وهو أنه من وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس عندما تعرض له داعية من هوى النفس، وشرها الحسد الغريزي في الإنسان»(١).

قلنا: ودليل هذا قوله ﷺ: «إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن بالتحريش بينهم»(٢).

٥/٤٧- الشيطان يزين للإنسان بما تهوى نفسه، ويدور في خلده.

قال أحمد نوفل:

«الشيطان يدخل للإنسان من المدخل الذي يهوى، ولما كان الإخوة أبناء نبي وفي نفوسهم بقية من خير ودين زين لهم الشيطان الجريمة وربطها بدافع ديني وأخلاقي -كما يتوهمون-: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝ ﴾ [يوسف:٩]»(٣).

٥/٤٨- الأب جلّاب والأخ سلّاب.

قال أبو بكر بن العربي:

---

(١) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٢).

(٣) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٦٠٢).

«قال علماؤنا: هذا يدل على معرفة يعقوب بتأويل الرؤيا؛ لأن نهيه لابنه عن ذكرها، وخوفه على إخوته من الكيد له من أجلها علم بأنها تقتضي ظهوره عليهم، وتقدمه فيهم، ولم يبال بذلك يعقوب، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه»[1].

٥/٤٩- النصح والإرشاد لا يزيد نفس المؤمن إلا صفاء وسريرته نقاء وطهراً.

قال ابن عاشور:

«وقول يعقوب -عليه السلام- هذا لابنه تحذير له مع ثقته بأن التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته، لأن وثق منه بكمال العقل، وصفاء السريرة، ومكارم الخلق.

ومن كان حاله هكذا سمحاً، عاذراً، معرضاً عن الزلاّت، عالماً بأثر الصبر في رفعة الشأن؛ ولذلك قال لإخوته: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ وقد قال أحد ابني آدم- عليه السلام- لأخيه الذي قال له لأقتلنك حسداً ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٧٥)، وانظر -لزاماً-: «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٧٠).

فلا يشكل كيف حذر يعقوب يوسف -عليه السلام- من كيد إخوته؛ ولذلك عقب كلامه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾؛ ليعلم أنه ما حذره إلا من نزغ الشيطان في نفوس إخوته...

فهذه أية عبرة بتوسم يعقوب- عليه السلام- أحوال أبنائه وارتيائه أن يكف كيد بعضهم لبعض»[(١)].

وجعل الله تلك الرؤيا تنبيهاً ليوسف -عليه السلام- بعلو شأنه، ليتذكرها كلما حلّت به ضائقة؛ فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة»[(٢)].

٥/٥٠- علم يوسف عظمة رؤياه؛ لأنه رأى سجود الأشياء الشريفة له.

قال ابن عاشور- رحمه الله-:

«وإنما أخبر يوسف -عليه السلام- أباه بهاته الرؤيا؛ لأنه علم بإلهام أو بتعليم سابق من أبيه أن للرؤيا تعبيراً، وعلم أن الكواكب والشمس والقمر كناية عن موجودات شريفة، وأن سجود المخلوقات الشريفة له كناية عن عظمة شأنه، ولعله علم أن الكواكب كناية عن موجودات متماثلة، وأن الشمس والقمر كناية عن أصلية لتلك الموجودات، فاستشعر على الإجمال دلالة رؤياه على رفعة شأنه، فأخبر بها أباه»[(٣)].

٥/٥١- وجود علاقة محبة وتقدير بين العالم والمتعلم مدعاة إلى الاستزادة من العلم والانتفاع بالتربية.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢١٤).

(٢) المرجع السابق (١٢/ ٢٠٨).

(٣) المرجع السابق (١٢/ ٢٠٨-٢٠٩).

وهذا ما كان بين يعقوب -عليه السلام- وولده يوسف حيث كان محباً له ومشفقاً عليه وناصحاً له؛ فكان دافعاً ليوسف أن يتوجه إليه ويخبره بما رأى.

ولقد كان رسول الله ﷺ مثالاً عظيماً في هذا الباب؛ كما يدل عليه حديث الجارية[١].

٥/٥٢- تعبير الرؤى متوارث في آل إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام-.

قال ابن عاشور:

«وكانوا يعدون الرؤيا من طرق الأنباء بالغيب إذا سلمت من الاختلاط وكان مزاج الرائي غير منحرف ولا مضطرب، وكان الرائي قد اعتاد وقوع تأويل رؤياه وهو شيء ورثوه من صفاء نفوس أسلافهم إبراهيم وإسحاق -عليهم السلام-، فقد كانوا آل بيت نبوءة وصفاء سريرة ...وقد رأى إبراهيم -عليه السلام- في المنام أنه يذبح ولده فلما أخبره: ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات:١٠٢]، ولذلك يشير قول أبي يوسف -عليه السلام-: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ﴾. فلا جرم أن تكون مرائي أبنائهم مكاشفة وحديثاً ملكياً»[٢].

٥/٥٣- تأثير القرآن في اللغة وآدابها وأربابها لا ينقضي.

---

(١) وانظر تخريجه مبسوطاً في كتاب «أين الله؟ دفاع عن حديث الجارية رواية ودراية» للشيخ سليم بن عيد الهلالي.

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٠٩).

قال محمد رشيد رضا:

«هذه الآيات في بيان ما وقع بين يوسف في طفولته وأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام-، فاستدل أبوه برؤياه على أنه سيكون له شأن عند الله وعند الناس فتعلق به أمله، وشغف به قلبه، فكان مبدأ لكل ما حدث له من الوقائع المحرقة، ومن العاقبة المشرقة، فهذه الرؤيا لا يظهر تأويلها إلا في آخر هذه الرواية .

وأصحاب القصص المنتحلة في عصرنا يحتذون أسلوب قصة يوسف في سورته هذه بوضع خبر مشكل خفي يشغل فكر القارئ أولها ويظل ينتظر وقوع ما يحل إشكاله ويفسر مآله؛ فلا يصيبه إلا في آخر القصة»(١) .

٥/٥٤- حكمة المربي تتجلى في فهم الواقع ومحاولة علاجه.

قال القاسمي:

«﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ ﴾: هذا النهي من الالهامات المجملة، يصل أثره إلى القلب، ولا يتشخص في النفس مفصلاً حتى يقع العلم؛ كما هو، فيقع في النفس منه خوف واحتراز إن كان مكروهاً، وفرح وسرور ان كان مرغوباً، ويسمى هذا النوع من الالهام: إنذارات وبشارات. فخاف عليه السلام من وقوع ما وقع قبل وقوعه، فنهاه عن إخبارهم برؤياه احترازاً، ويجوز أن يكون احترازه كان من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته، وزيادة قدره على إخوته، فخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك»(٢).

وقال أحمد نوفل:

«هذه الآية تتجلى حكمة يعقوب في فهم واقع أبنائه ومحاولة معالجته لهذا الواقع بقدر الامكان، والتحرز من مضاعفة عوامل الحسد والغيرة في

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٥٣).

(٢) «محاسن التأويل» (٩/ ٣٥٠٤-٣٥٠٥).

نفوس الإخوة جهد الطاقة، ومن هذا المنطلق وصاته ليوسف بأن لا يخبر إخوانه برؤياه، وقد يقال: إنه بهذا الكلام قد نبه وعي ابنه على ما قد يكون غائباً عنه، وأن من الأسلم والأفضل الإبقاء على حاله على ما كان، ونقول: هذا يصح لو لم يكن من المحتمل أن يقص الولد على إخوانه؛ فيتفاقم الشر ويقع المحذور.

وقد يقال: لم لم يمنعه من السرد والقص دون تعليل؟ ونقول: إن الإنسان يكون أكثر اقتناعاً بما عرف علته من الأشياء، فهذا التبرير والتعليل يحفز إلى الالتزام، ومن هنا كان الآمر الحكيم سبحانه يفرض علينا ما يفرض ويبرر لنا فرائضه علينا وهو الرب الذي حقه أن يعبد فيقول: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت:٤٥] ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] إلخ.

لاحظ أن يعقوب قد صاغ كلامه ألطف صياغة وفي كلمات دقيقة، حين عزا الدافع الشرير الذي قد ينشأ في نفس الأخوة إلى ما يثيره الشيطان ويلقيه من وساوس إذ هو العدو المبين للإنسان.

وتنكير كيداً يحتمل التعظيم والتحقير، فإن كان للتعظيم فليردع ابنه وليكون المنع آكد، وإن كان للتهوين فحتى يخفف من أضغان النفوس بين يوسف وإخوته»[١].

٥/٥٥ - تعبير الرؤيا علم موهوب للصالحين.

قال ابن عاشور:

«...وأن تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده»[٢].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٧٤-٢٧٥).

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ١٩٨).

٥/٥٦- الرؤيا الصادقة باعتبار النفوس الصالحة.

قال القرطبي:

«فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛ فمن خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه كانت رؤياه أصدق وإلى النبوة أقرب؛ كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله- تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]»(١).

وقال ابن عاشور:

«والرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض أصفيائه الذين زكت نفوسهم؛ فتتصل نفوسهم بتعلقات من علم الله، وتعلقات من إرادته، وقدرته وأمره التكويني، فتنكشف بها الأشياء المغيبة بالزمان قبل وقوعها، أو المغيبة بالمكان قبل اطلاع الناس عليها اطلاعا عاديا...

وإنما شرطت المرائي الصادقة بالناس الصالحين؛ لأن الارتياض على الأعمال الصالحة شاغل للنفس عن السيئات؛ ولأن الأعمال الصالحات ارتقاءات وكمالات؛ فهي معينة لجوهر النفس على الاتصال بعالمها الذي خلقت فيه، وأنزلت منه، وبعكس ذلك الأعمال السيئة تبعدها عن مألوفاتها وتبلدها وتذبذبها»(٢).

٥/٥٧- كيد الحاسد أو حذر الحاذق لا يغير القدر السابق:

قال أبو السعود:

«﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾؛ أي: كيدًا متينًا راسخًا لا تقدر على التفصي عنه أو خفيا على فهمك لا تتصدى لمدافعته، وهذا أوفق بمقام التحذير، وإن

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٢٣).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢١٠-٢١١).

كان يعقوب -عليه السلام- يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا على وقوعه»[١].

وقال ابن عاشور:

«والكيد: إخفاء عمل يضر المكيد.

واللام في ﴿ لَكَ ﴾ لتأكيد صلة الفعل بمفعوله، كقولك: شكرت لك النعمى.

وتنوين كيداً للتعظيم والتهويل زيادة في تحذيره من قص الرؤيا عليهم.

وقصد يعقوب- عليهم السلام- من ذلك نجاه ابنه من أضرار تلحقه، وليس قصده إبطال ما دلت عليه الرؤيا؛ فإنه يقع بعد ذلك أضرار ومشاق، وكان يعلم أن بنيه لم يبلغوا في العلم مبلغ غوص النظر المفضي إلى أن الرؤيا إن كانت دالة على خبر عظيم يناله فهي خبر إلهي، وهو لا يجوز عليه عدم المطابقة للواقع في المستقبل»[٢].

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٥٤-٢٥٣).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢١٣-٢١٤).

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾.

٦/٥٨- النبوة اصطفاء واجتباء لا تنال بالمجاهدة ولا بالتمني، وفي هذا رد على الفلاسفة وغلاة المتصوفة.

ولذلك أنكر العلماء تلك المقولة المنسوبة لابن حبان البستي: «النبوة: العلم والعمل، فحكموا عليه بالزندقة، وهجر، وكتب فيه إلى الخليفة، فكتب بقتله.

قلت: أي: الذهبي: هذه حكاية غريبة، وأما ابن حبان؛ فمن كبار الأئمة، ولسنا ندعي فيه العصمة من الخطأ، لكن هذه الكلمة التي أطلقها، قد يطلقها المسلم، ويطلقها الزنديق الفيلسوف، فإطلاق المسلم لها لا ينبغي، لكن يعتذر عنه؛ فنقول: لم يرد حصر المبتدأ في الخبر، ونظير ذلك قوله -عليه الصلاة والسلام-: «الحج عرفة»[1] ومعلوم أن الحاج، لا يصير بمجرد الوقوف بعرفة حاجا، بل بقي عليه فروض وواجبات، وإنما ذكر مهم الحج، وكذا هذا ذكر مهم النبوة، إذ من أكمل صفات النبي كمال العلم والعمل، فلا يكون أحد نبيا إلا بوجودها، وليس كل من برز فيها نبيا؛ لأن النبوة موهبة من الحق -تعالى-، لا حيلة للعبد في اكتسابها بل بها يتولد العلم اللدني والعمل الصالح.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، وابن ماجه (٣٠١٥)، والنسائي (٥/ ٢٦٤)، وأحمد (٤/ ٣٠٩و٣١٠و٣٣٥) وغيرهم، وصححه شيخنا الألباني -رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٤/ ٢٥٦/ ١٠٦٤).

وأما «الفيلسوف؛ فيقول: النبوة مكتسبة ينتجها العلم والعمل؛ فهذا كفر، ولا يريده أبو حاتم أصلاً وحاشاه»[(١)].

«ولذلك ينبغي أن يحرص المؤمن على أن تكون علاقته مع الله -سبحانه- علاقة عملية متينة؛ لكي يحظى من الله بالتوفيق والاصطفاء ويكون أهلاً لتكريم الله له بالتعليم وإتمام النعمة عليهم»[(٢)].

٦/٥٩- أصول علم التأويل:

قال السعدي:

«فمن فوائد هذه السورة: أن فيها أصولاً لعلم تعبير الرؤيا، فإن علم تعبير الرؤيا علم عظيم مهم، مبناه على حسن الفهم، والعبور من الألفاظ والمحسوسات والمعنويات أو ما يناسبها بحسب حال الرائي، وبحسب الوقت والحال المتعلقة بالرؤيا، وقد أثنى الله على يوسف -عليه السلام- بعلمه بتأويل الأحاديث؛ تأويل أحاديث الأحكام الشرعية والأحاديث المتعلقة بتعبير الرؤيا، والفرق بين الأحلام التي هي أضغاث أحلام لا تأويل لها مثل ما يراه من يفكر ويطيل تأمله لبعض الأمور، فإنه كثيراً ما يرى في منامه من جنس ما يفكر به من يقظته، فهذا النوع الغالب عليه أنه أضغاث أحلام لا تعبير له.

وكذلك نوع آخر: ما يلقيه الشيطان على روح النائم من المرائي الكاذبة والمعاني المتخبطة؛ فهذه -أيضاً- لا تعبير لها، ولا ينبغي للعاقل أن يشغل فكره، بل ينبغي له أن يلهى عنها.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٩٦-٩٧).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ١٢).

وأما الرؤيا الصحيحة؛ فهي إلهامات يلهمها الله للروح عند تجردها عن البدن وقت النوم، أو أمثال مضروبة يضربها الملك للإنسان ليفهم بها ما يناسبها، وقد يرى الشيء على حقيقته ويكون تعبيره هو ما رآه في منامه، فيوسف -عليه الصلاة والسلام- أعطاه الله من العلم ما يميز به بين المرائي الصحيحة والباطلة، والحق والباطل منها، وهذه القصة فيها الدلالة على تعبير الرؤيا من وجوه:

أحدها: رؤيا يوسف التي قصها على أبيه يعقوب-عليه السلام-: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ ﴾.

ففسرها يعقوب بغاياتها وما تؤول إليه ، وبوسائلها التي تتقدم عليها، ففسر الشمس والقمر بأبي يوسف وأمه، والكواكب الأحد عشر بإخوته، وأن الحال سيكون مآلها أن الجميع سيسجدون ليوسف ويخضعون له.

ولهذا لما حصل الاجتماع ودخل أبوه وأمه وإخوته مصر، ورفع أبويه على العرش، خر الجميع له سجدا ، وقال يوسف متذكرا ذلك التعبير والتفسير: ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾.

وهذا أمر عظيم أن تصل بيوسف الحال إلى أن يكون معظما تعظيما عند أبويه وإخوته، وكذلك عند الناس.

وهذه الغاية تستدعي وسائل ومقدمات لا تحصل إلا بها، وهي العلم الكثير العظيم ، والعمل الصالح، والإخلاص، والاجتباء من الله، والقيام بحق الله وحق الخلق؛ فلهذا قال في ذكر السبب الموصل لهذه الغاية الجليلة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ

وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾.

يعني: لا بد أن يتم الله عليك نعمته بتعليم العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة، والاجتباء من الله، وحصول الأخلاق الجميلة والمقامات الجليلة، فبشره بحصول هذه الأمور، ثم بالوصول إلى الرفعة في الدنيا والآخرة.

وفي ضمن هذا التعبير من يعقوب ليوسف بشارة له، وتسهيل لما سيناله من المشقات والكروب مع إخوته وفي السجن؛ فإن من علم أن المكاره والمشقات تفضي إلى خير والراحات تسلي، وهانت عليه مشقتها، وسهلت عليه وطأتها، وحصل بذلك من اللطف والروح بشيء عظيم، وهذا من جملة اللطف الذي أشار إليه يوسف في قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ ﴾.

وهذا من مقتضى حكمة الله أن المراتب العاليات لا تنال إلا بالوسائل الجليلة، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾.

ومن فوائد التعبير لرؤيا يوسف بشارة عظيمة ليعقوب وأم يوسف وإخوته بحصول الرفعة والصلاح والخير، فيعقوب -عليه السلام- من أكابر الأنبياء وأفاضل الأصفياء، وأمه لها من الخير والصلاح والرفعة في الدنيا والآخرة حيث شبهت بالشمس أو بالقمر، على اختلاف القولين، وإخوة يوسف وإن كان قد جرى منهم في حق أبيهم وأخيهم من الأذية والعقوق والقطيعة ما جرى ، ولكن أباهم وأخاهم عفيا عنهم واستغفروا الله لهم والله -تعالى- أرحم الراحمين.

فالشمس والقمر والنجوم تضمنت النور والارتفاع ، ولكنها متفاوتة في نورها بحسب التفاوت بين الأبوين وبين الإخوة ، فالحاصل أن هذه الرؤيا تضمنت ما حصل ليوسف -عليه الصلاة والسلام- من خير الدنيا والآخرة

والمقامات العظيمة والوسائل والمنن التي أوردتها هذه الأمور وما حصل لأبويه وإخوته من مشاركته في خير الدنيا والآخرة، والله -تعالى- أعلم»[١].

٦/٦٠- الملك والنبوة لا يقومان إلا بالعلم والتأويل المنتهي الذي يصير إليه المعنى[٢].

٦/٦١- بيان أفضال الله على آل إبراهيم بما أنعم عليهم فجعلهم أنبياء آباء وأحفادا[٣].

لذلك فقد اجتمع ليوسف -عليه الصلاة والسلام- من عراقة النسب ما لم يجتمع لأحد من العالمين إلا لنبينا محمد ﷺ حيث أن نسبه مسلسل بالأنبياء.

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أنه قال: «الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-»[٤].

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم لله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» الحديث[٥].

٦/٦٢- يطلق على الجد اسم الأب.

---

(١) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف -عليه السلام-» (ص١٤-١٨).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ١١).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٩٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٨٢).

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٨٣).

قال القاسمي:

«استدل بالآية على أن الجد يطلق عليه اسم الأب؛ فيدل أن من نسب رجلاً إلى جده، وقال :يا ابن فلان إنه لا يكون قذفاً»[١].

وقال محمد رشيد رضا:

«وهذا الاستعمال مألوف عند العرب وغيرهم، وكانوا يقولون للنبي ﷺ: يا ابن عبد المطلب، بل قالها هو أيضاً»[٢].

وقال الزمخشري:

«وأراد بالأبوين الجد وأبا الجد؛ لأنهم في حكم الأب في الأصالة، ومن ثم يقولون : ابن فلان، وإن كان بينه وبين فلان عدة»[٣].

وقال أبو حيان:

«وسمي الجد وأبا الجد أبوين؛ لأنهما في عمود النسب؛ كما قال: ﴿ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾ [البقرة:١٣٣]، ولهذا يقولون: ابن فلان، وإن كان بينهما عدة في عمود النسب»[٤].

٦/٦٣ - بيان أن نعمة الله على العبد نعمة على كل من يتصل به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه[٥].

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ١٩١).

(٢) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٥٦).

(٣) «الكشاف» (٢/ ٢٤٣).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٠).

(٥) «تيسير الكريم المنان» (ص٣٦٣).

٦/٦٤- يطلق آل الرجل على أهل بيته وأقاربه الذين يضافون إلى اسمه، ويطلق على جميع أتباع الرجل.

قال العلمي:

﴿ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾: يراد بهم أسباطه، والسبط: ولد الولد، والفريق من اليهود، ويقال للعرب: قبائل، ولليهود: أسباط.

وكلمة (آل) لفظ من خمسة ألفاظ وردت في كتاب الله -تعالى- بمعنى واحد.

والثاني: بنو إسرائيل؛ كما في: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [يونس:٩٠].

والثالث: ذرية إسرائيل؛ كما في: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [مريم:٥٨].

والرابع والخامس الأسباط والأمم؛ كما في:

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ [الأعراف:١٦٠].

ويطلق آل الرجل على أهل بيته وأقاربه الذين يضافون إلى اسمه، ويطلق على جميع أتباع الرجل.

فمن الأول قوله -تعالى-: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص:٨] إذا قلنا: أن الشخص الملتقط هو من أفراد الأسرة المالكة.

فإن قلنا: أن الملتقط هو إحدى الجواري أو الخادمات كان من قبيل إطلاقه على الأتباع؛ كما في: ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة:٥٠].

ومن أمثلة إطلاقه على الذرية ما في قوله -سبحانه-: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا

مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤]؛ فالمراد من آل إبراهيم هنا ذريته وسلائله»[١] .

٦/٦٥- كان يوسف -عليه الصلاة والسلام- أعبر الناس للرؤيا في زمانه وأصحهم عبارة لها[٢].

٦/٦٦- أن لكل حديث معنى إفرادي وآخر تركيبي، وغاية ينتهي إليها تأويلاً وتحقيقاً.

قال العلمي:

«لكل حديث معنى إفرادي، ومعنى تركيبي، وغاية ينتهي إليها وإن شئت قلت: مصداق يقع في خُبْر الخَبَر.

فأما القسم الأول: وهو المعنى الإفرادي؛ فهو ما يذكر في كتب الصرف والمقصور والأمثلة والقاموس والأساس والمصباح والصحاح واللسان والفائق ومفردات الراغب وغيرها من كل المعاجم التي تبين الألفاظ المفردة.

وأما القسم الثاني: وهو المعنى التركيبي؛ فهو ما يذكر في كتب النحو والمعاني والبيان معنى الجملة الحقيقي أو المجازي أو الكنائي، والفهم في هذين الضربين قاصر محدود لا يتسع عقل صاحبه للتدبر كثيراً، وإنه ليستوي فيه كل إنسان عاقل لبيب، سواء أكان صالحاً أو طالحاً، مؤمناً أو كافراً، وهو أمر كسبي يتحصل عليه الإنسان بكسبه وجده، ولا يتفاوت إلا بتفاوت العقل والإدراك.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) «الكشاف» (٢/ ٢٤٢).

وأما القسم الثالث: وهو الغاية التي ينتهي إليها الحديث، وإن شئت قلت: مصداق الحديث الذي يقع فيكون خُبْرُ الخبر؛ فهذا لا يكون بكسب وجد، ولا يستوي فيه سائر الناس، ولا يمكن أن يتحصل عليه الإنسان بذكائه وحدة فهمه، ولا يمكن أن يستقل به المرء، ولكنه موهبة من الله -تعالى-، وإلهام يلهمه عباده الصالحين: من أنبيائه وأوليائه وعلمائه، وهذه الغاية التي تنتهي إليها الأحاديث هو ذات ما أخبر به، هي التي يعبر عنها تارة بالمصائر، وحيناً بالعواقب والمراجع، وطوراً بالمصاديق.

وأخيراً: إذا قلنا: ﴿ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾؛ نعني:المحكي عنه في تلك الحكاية التي هي الحديث؛ فالحديث حكاية، وتأويله هو المحكي عنه، فالتأويل تفعيل من آل إذا رجع، وهو ما يؤول إليه الشيء، وبالمثال يتضح المعنى وتظهر صحة المقال:

١- قال -تعالى-: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٩]؛ أي: عاقبة؛ فهو تأويل فعلي.

٢- قال -تعالى- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء:٣٤-٣٥]، أي: أحسن عاقبةً؛ فهو تأويل فعلي .

٣- قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ

فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأعراف:٥٢-٥٣]؛ فتأويله هنا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبيين صدقه وظهور صحة ما نطلق به الوعد والوعيد؛ فهو تأويل فعلي .

فليس المراد هنا من تأويل الكتاب: تفسيره وبيانه؛ لأنه جاءهم مفصلاً على علم وهدى ورحمة، فلا يحتاج إلى التفسير والبيان، ولكن أولئك الخاسرين ينتظرون تحقق ما جاء به من شؤون الآخرة؛ كالجنة والنار وعذاب القبر والحساب وهلم جراً، وذلك واضح لا غبار عليه، وهل يفهم غير هذا من قوله –تعالى-: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:٥٣]»؟

فالتأويل هنا مصائر وعواقب أخبار الكتاب الغيبية، ولا جرم أنه لا يعلم حقائق شؤون الآخرة مثلاً، ولا كيف تقع، ولا متى تكون سوى السميع العليم؛ فالمؤمنون بما ورد من ذلك في الكتاب وإن لم يعلموه وقتاً وقدراً ونوعاً وحقيقة، فإن ذلك من موسوعات علم الله وحده دون سواه إلا من ارتضى من رسول، وأما الذين كفروا؛ فيكذبون بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله .

٤- قال –تعالى-: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ ﴾ [يونس:٣٩]؛ أي: مصيره ومصداقه وذات ما أخبر به مما سينزل به من عقاب الدنيا والآخرة، وسائر نذره وبشائره؛ فهو تأويل فعلي.

وذلك كإخبار القرآن بالجنة والنار والملائكة والجن ونعيم الجنة وعذاب النار والنشر والحشر والحساب والميزان والصراط وعذاب القبر ونعيمه والسؤال فيه، والكلام عن الله وذاته وصفاته والساعة وأشراطها وشؤون الآخرة والوعد والوعيد وكيف يقع ومتى يقع؛ فكل هذه الأشياء وما إليها لا

يعلمها إلا الله، ولكنه ربما علم شيئاً منها لبعض عباده ممن ارتضى من رسول، ومن كان على قدمه من الصالحين، وكل هذه الأشياء ونحوها كذبوا بها؛ لأنهم لم يحيطوا بعلمها، ولما يروا ويشاهدوا تأويلها؛ أي: مصائرها وذاتها .

فالتأويل هو ما يعد به الكتاب السماوي من المثوبة والعقوبة؛ أي: ما يؤول إليه الأمر في الوعد والوعيد والأخبار.

٥- في حديث عائشة؛ -رضي الله عنها - : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك» يتأول القرآن(١)؛ تعني: أنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر:٣]؛ أي: تعني أن النبي يرجع بذلك إلى القرآن، ويصير إلى هذه الآية؛ فهو تأويل فعلي.

ولابد لنا قبل الختام من كلمة لها علاقتها الكبيرة بهذا المقام وهي أن لكلمة (تأويل) ثلاث معان:

١-التأويل بمعنى مصير الشيء وعاقبته، وهذا تأويل ليس بالقول ولكنه تأويل بالفعل، ومنه الشواهد التي تلوناها على أسماعكم، بل منه ما في قول يوسف الصديق: ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ ﴾ [يوسف:١٠٠]؛ أي: هذا الفعل مصداقها ومصيرها؛ فهو تأويل فعلي .

٢-التأويل بمعنى تفسير المتشابه، وهذا تأويل قولي علمي.

٣-التأويل بمعنى بيان السبب والعلة؛ كما في قصة موسى مع ذلك العبد الصالح الذي آتاه الله علماً إذ يقول لموسى: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨ ﴾ [الكهف:٧٨]»(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري (٨٧١)، ومسلم (٤٨٤).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٣١-٢٣٤).

٦/٦٧- من استحسن شيئاً اصطفاه لنفسه.

قال العلمي:

«من استحسن شيئاً، فاصطفاه؛ فقد قطعه لنفسه، ومن قطع شيئاً لنفسه اصطفاه لها .

فالله اجتبى يوسف، وملك مصر استخلصه لنفسه، وما الثانية إلا مظهراً من مظاهر الأولى؛ فذرة من ذرات الاجتباء السماوي تجعل العبد مجتبى لجميع من يعقل من أهل الأرض.

الله اجتبى يوسف وانتحله على إخوته، واختاره على عموم من سواهم من الأسرة، واصطفاه على سائر أهل عصره ونوّه باسمه في فلسطين ومصر وغيرهما؛ لأنه أصفاهم جوهراً، وأروضهم نفساً، وأطيبهم قلباً، وقد جاءت لفظة الاجتباء بصيغة المضارع ﴿ يَجْتَبِيكَ ﴾ باعتبار ما سيكون ليوسف آنذاك في القريب العاجل، وكل آت قريب، وما أبعد المسافات وما أقرب ما هو آت؛ فيوسف اجتبي كآدم الذي بعد توبته ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه:١٢٢]، وكجده إبراهيم الذي: ﴿ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل:١٢١]، وكعموم الخمسة وعشرين نبياً الذين: ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام:٨٧].

نعم: قال الله -تعالى- في كل العالم الإسلامي: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ [الحج:٧٨]، ولكن يوجد فرق كبير بين الاجتبائين، فاجتباء الله لأهل الإسلام

هو بمعنى أعم وأحط من اجتبائه -تعالى- ليوسف وسائر إخوانه الأنبياء؛ فهو أخص وأعلى من الأول»[(١)].

٦/٦٨ - تمام النعمة أمر زائد على أصلها؛ فهي بالنسبة إلى الأنبياء تكون بأداء الرسالة وتبليغها.

قال عبد الحميد كحيل:

«إن تمام النعمة لكل إنسان إنما يكون أمراً زائداً على النعمة مناسباً لما أنعم به ولحال المنعم عليه؛ فإذا أضيف إلى نبي من الأنبياء كان معناه تمكنه من أداء الرسالة، ونصره على أعدائه، واستقرار الأمر له حتى يدخل الناس في دين الله؛ ولذلك لما عقد الرسول ﷺ معاهدة الحديبية مع قريش وانتهت منازعتهم له، واستراح من حروبهم، وتيسر السبيل لدخول الناس في دين الله أفواجاً خاطبه الله بقوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾ [الفتح:١-٣].

أما إذا أضيف إتمام النعمة إلى غير نبي كان له معنى آخر مناسب لما أضيف إليه؛ كما قال تعالى مخاطباً أمة محمد ﷺ في حجة الوداع: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة:٣]»[(٢)].

وقال ابن عاشور:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٢٧).

(٢) «يوسف عليه السلام» (ص ١٩-٢٠).

«وإتمام النعمة عليه: إعطاؤه أفضل النعم: وهي نعمة النبوة أو هو الملك إلى النبوة والرسالة؛ فيكون المراد :إتمام نعمة الاجتباء الأخروي بنعمة المجد الدنيوي»[(١)].

٦/٦٩- فضل العلماء والتعلم في استنباط الدقائق واللطائف واستخراج السنن والقوانين.

٦/٧٠-الصفات التي تختم بها الآيات لها مدلولات ترتبط بالسياق والسباق.

قال ابن عاشور:

«وجملة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تذييل بتمجيد هذه النعم، وإنها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل؛ لأنه خلقها لقبول ذلك،فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة.

وتصدير الجملة بأن للاهتمام، والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف -عليه السلام- وتأهله لمثل تلك الفضائل»[(٢)].

٦/٧١-التربية في الصغر لها فوائدها في الكبر.

قال أحمد نوفل:

«وتأمل كيف لطف الله: أن هذا الفتى ما غادر حجر النبي الكريم يعقوب إلى بلاد الشرك إلا بعد أن تشرب عقيدة التوحيد، وهذا بجد ذاته

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢١٦).

(٢) المرجع السابق (١٢/ ٢١٧).

أعظم اللطف إذ لو كان إلقاءه في الجب في سن مبكرة وهجرته إلى بيئة الجاهلية قبل تفتح التمييز والإدراك؛ لكان محتاجاً إلى المربي وأين يجده؟»[1].

٦/٧٢- التعليم من لوازم الاجتباء والملك والنبوة.

قال أبو السعود:

«﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ بأن يضم إلى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك، ويجعله تتمة لها، وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء، ولرعاية ترتيب الوجود الخارجي، ولما أشرنا إليه من كون أثره وسيلة إلى تمام النعمة»[2].

٦/٧٣- النبوة نعمة تامة.

قال الفخر الرازي:

«النعمة التامة في حق البشر ليست إلا النبوة، وكل ما سواها؛ فهي ناقصة بالنسبة إليها»[3].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص١٠٩-١١٠).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٥٤).

(٣) «تفسير الفخر الرازي» (٩/ ٩٣).

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

٧/٧٤- سورة يوسف -عليه السلام- مشحونة بالدروس والعبر التي يجب على المتدبر للقرآن أن يسأل عنها ويهتم بمعرفتها.

وهذا ما دعا كثيراً من أهل العلم على إحصائها في مصنفاتهم أو التنويه على ذلك.

قال الإمام ابن قيم الجوزية:

«وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا إن وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل»[١].

قلنا: وهذه الأمنية القيمة لهذا الإمام الهمام لم يتيسر له تحقيقها، ولذلك فقد وفقنا بحمد الله ومنته على تحقيق رغبة شيخ الإسلام الثاني، فجمعنا ما زاد على الألف فائدة وهاهي بين يديك.

ولقد تضافرت كلمات الأئمة على بيان ما في هذه السورة من كنوز العلم وينابيع الحكم ما لا يوجد مجموعاً في قصة غيرها حيث وصفها الله بأنها أحسن القصص.

قال الماوردي:

«في هذه الآيات وجهان:

أحدهما: أنها عبر للمعتبرين.

الثاني: زواجر للمتقين.

وفيها عن يوسف وإخوته أربعة أقاويل:

أحدهما: ما أظهره الله -تعالى- فيه من عواقب البغي عليه.

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٣١٦).

الثاني: صدق رؤياه وصحة تأويله.

الثالث: ضبط نفسه وقهر شهوته حتى سلم من المعصية وقام بحق الأمانة.

الرابع: الفرج بعد شدة الإياس»[(١)].

وقال القاسمي:

«لقد كان في قصتهم وحديثهم دلائل على قدرته -تعالى- وحكمته في كل شيء، وآيات معظمات لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها تدلهم:

أولاً: على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله -تعالى- لا يتعلق بسعي ساعٍ، ولا إرادة مريد؛ فيعلمون مراتب الاستعدادات في الأزل.

وثانياً: على أن من أراد الله به خيراً لم يكن لأحد دفعه، ومن عصمه الله لم يكن لأحد رميه بسوء، ولا قصده بِشَرٍّ؛ فيقوى يقينهم وتوكلهم.

وثالثاً: على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد حتى الأنبياء؛ فيكونون منه على حذر.

وأقوى من ذلك كله: أنها تطلعهم طريق الفهم الذي هو الانتقال الذهني على أحوالهم في البداية والنهاية، وما بينهما، وكيفية سلوكهم إلى الله؛ فتثير شوقهم وإرادتهم، وتشحذ بصيرتهم، وتقوي عزيمتهم»[(٢)].

وقال ابن الجوزي:

«وفي وجه هذه الآيات خمسة أقوال:

---

(١) «النكت والعيون» (٣/ ٩).

(٢) «محاسن التأويل» (٩/ ٣٥١٢).

أحدهما: الدلالة على صدق محمد ﷺ حين أخبر أخبار قوم لم يشاهدهم ولا نظر في الكتب.

والثاني: ما أظهر الله في قصة يوسف من عواقب البغي عليه.

والثالث: صدق رؤياه وصحة تأويله.

والرابع: ضبط نفسه وقهر شهوته حتى قام بحق الأمانة.

والخامس: حدوث السرور بعد اليأس.

فإن قيل: لم خص السائلين ولغيرهم فيها آيات؛ فعنه جوابان:

أحدهما: أن المعنى: للسائلين وغيرهم؛ فاكتفى بذكر السائلين من غيرهم كما اكتفى بذكر الحر من البرد في قوله: ﴿ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ [النحل:٨١].

والثاني: أنه إذا كان للسائلين عن خبر يوسف آية كان لغيرهم آية أيضاً، وإنما خص السائلين؛ لأن سؤالهم نتج الأعجوبة وكشف الخبر»[١].

قال الطاهر بن عاشور:

«ففي قصة يوسف -عليه السلام- دلائل على ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر، أو على ما للحسد والإضرار بالناس من الخيبة والاندحار والهبوط.

وفيها من الدلائل على صدق النبي ﷺ، وأن القرآن وحي من الله.

إذ جاء في هذه السورة ما لا يعلمه إلا أحبار أهل الكتاب دون قراءة، ولا كتاب وذلك من المعجزات»[٢].

---

(١) «زاد المسير» (٤/ ١٨٢).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢١٨).

٧/٧٥- بيان قدرة الله -تعالى- وحكمته وتوفيق أقداره، ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم وحسن عنايته بهم للسائلين عنها[١].

٧/٧٦- على المسلم القارئ للقرآن أن يلتمس وجه العبرة في القصص القرآني كله؛ وبخاصة قصة نبي الله يوسف -عليه السلام-[٢].

قال العلمي:

«جعل الله -سبحانه- هذه السورة الشريفة علة من العلل التي يظهر فيها حكمته، ووسيلة من الوسائل التي يرشد الناس بها للعبرة والعظة؛ فعلى الرجل الرشيد العاقل أن يقرأ هذه السورة ليس لما فيها من التاريخ فحسب، بل لما حوته من العظات والعبر، وما اشتملت عليه من الحكمة والأدب .

إن أول ما ينبغي لمن قرأ هذه السورة أو استمع لها: أن يعرف وجوه العبر التي نزلت لأجلها، ويتعلم رموز الحكم التي رمزت فيها، والغاية التي أراد الله -تعالى- من سرد مواضيعها، ولعمري أن القارئ لهذه السورة إذا لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني، ولا أي ثمرة يجتني منها ولا أي نتيجة روحية تحصل له من تعاليم هذه السورة، وإنه إن كانت غايته من هذه السورة التلذذ بقراءتها والبلوغ إلى آخرها، دون تفهم ما يقرأ منها، وبلا تفكير في عبرها وحكمها؛ فلا ريب أنه لا يعود عليه شيء يرجع إليه نفعه في تأديبه وتكميله، ووقوفه على عجائب التدابير والألطاف الإلهية، وباهر الحكم الربانية، ويكون مثله كمثل رجل قدم له لوز صحيح؛ فلا بد أن يكسره ويستخرج ما فيه، لكي ينتفع منه النفع العظيم، وإلا لم ينتفع إلا برؤية قشره

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٥٩).

(٢) «دروس مستفادة من قصة يوسف» (١/ ١٣).

الذي هو ظرف لِلُبّه.

ينبغي لقارئ هذه السورة الكريمة أن لا تكون غايته معرفة معاني المفردات فقط، ولا الوقوف على السيرة كقصة تاريخية فحسب، ولا استفادة النكت التي تذكر في علم البلاغة فقط، فإن هذه الأمور وإن كانت مهمة في ذاتها؛ لكن هناك ما هو أهم منها جداً، وذلك كما قلنا هو الإشراف على ما تضمنته هذه السورة من الأمثال وعجيب التدبير الإلهي، والمسائل الاجتماعية، والعبر الربانية؛ فيقف القارئ عند كل مثل وجملة وحرف من حروف المعاني، ومقدمة ونتيجة، وتأصيل وتفريع، وقاعدة كونية، وتطور مدهش، وانقلاب سريع.

يجب على قارئ هذه السورة الكريمة أو سامعها أن يلتمس جواهر معانيها، ويلتمس درر مراميها ومغازيها، ولا يظن أن نتيجتها هي الإخبار عن حيلة إخوة يوسف حتى أخذوه، أو مغازلة السيدات المصريات ليوسف وجماله، أو محاورة الجنود المصريين لإخوته حين اتهموا بأخذ الصّواع، أو بغير ذلك؛ فينصرف بهذا عن الغرض المقصود ويكون مثله مثل الغواص في البحر الذي كان يلتقط الجواهر ذات القيمة؛ فرأى في عميق الماء سمكة؛ فترك الصدف الذي فيه الدر الثمين، وقذف نفسه في اللجة التي فيها السمكة، فاشتغل بصيدها عن التقاط الجواهر؛ كأنه نسيها أو تناساها أو جهل أنها تساوي أموالاً كثيرة، وكذلك الأغرار الذين يجمدون عند ألفاظ هذه السورة وظواهرها ويغفلون أمر التفكير فيما شملته من الحِكَم والعِبَر وما تضمنته من الاجتماعيات وتطور الحوادث، وأسرار ذلك وأسبابه»[1].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢٤٦-٢٤٧).

وقال البقاعي:

«في هذه الرؤيا وما كان من تأويلها وأسباب ذلك ﴿ ءَايَٰت ﴾؛ أي: علامات عظيمة دالات على وحدانية الله -تعالى-، ونبوة محمد ﷺ، وغير ذلك مما تضمنته القصة.

﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ الذين يسألون عنها من قريش واليهود وغيرهم، وآيات عظمة الله وقدرته في تصديق رؤيا يوسف -عليه السلام- ونجاته ممن كاده وعصمته وإعلاء أمره»[١].

٧/٧٧- السائلون هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون؛ فلا ينتفعون بالآيات ولا بالقصص والبينات؛ فلا ينتفع بالعلم إلا من يهتم به وسأل عنه[٢].

قال العلمي:

«﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾؛ أي: لمن يسأل ويهمه الوقوف على الحوادث التاريخية وعواقبها ويعني بغرائب الأعمال ونتائجها.

﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ الذين يستحثون الأخبار، ويستطلعون الوقائع ويتطلبون الوقوف على الحوادث.

﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ الذين يسألون الرواة، وأهل الذكر، ويسألون التاريخ الذي سجّل سيرتهم، وحفظ لنا ترجمة حياتهم وأعمالهم.

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ١٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٤٩) بتصرف.

﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ الذين يهمهم الوقوف على العبر والعظات، وتهمهم الاستفادة من القصص والمثلات.

﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ الذين يتأملون في أسباب حوادثهم ونتائجها، والوقوف على القواعد الاجتماعية، والفوائد التاريخية .

﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ الذين يحرصون على العلم والتعلم، ويبحثون عما يجهلونه حباً منهم في العلم والمعرفة؛ فهم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها، وأما الذين لا يسألون عما يجهلون، ولا يجتهدون أن يقفوا على ما يجب الوقوف عليه، بل يستوي عندهم العلم بالشيءوجهله، ومن كسلهم أنهم إن جاءهم شيء عرفوه، وإن لم يسمعوا شيئاً لم يسألوا عنه، ولم يأبهوا به؛ فالعلم بالشيء والجهل به سيان عندهم، فهؤلاء الكسالى لا يعتبرون بما يسمعون من الحوادث، ولا يحفلون بالآيات التي يجب أن يستفيدوا من التاريخ وحوادث الدهر.

فلهذا كله خص الله -سبحانه وتعالى- الاستفادة من الآيات «بالسائلين» عنها، دون سواهم»[1].

٧/٧٨ - العلامات التي أقامها الله في الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته وكماله وتنزيهه.

قال أحمد نوفل:

«ومن معاني الآيات:العلامات التي أقامها الله في الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته وكماله وتنزيهه، والآيات التي في الكتاب العزيز تشهد لها الآيات التي في كتاب الكون الكبير، وتؤديان معاً وظيفة واحدة هي الدلالة

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٥٦و٢٥٧).

على وحدانية الله وعلمه وعظمته، ومنها المعجزات الخارقة للعادة التي أجراها الله على أيدي رسله، وآيات القرآن المعجزة تدل على نبوة محمد ﷺ.

وتأتي بمعنى العبر والحكم والذكر والعظات:

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ و:﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[1]».

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٢٧).

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.

٨/٧٩- إن الميل القلبي أمر خارج عن نطاق تصرف الإنسان إذ لا يستطيع إنسان أن يتحكم في الميل القلبي الذي يشعر به تجاه الآخرين.(١)

إن يُتْمَ الأطفال سبب لتعلق القلب بهم؛ لضعفهم وعجزهم، حيث إن يوسف «وأخوه بنيامين هما أخوان لأب وأم، وكان يعقوب قد كَلُفَ بهما لموت أمهما، وزاد في المراعاة لهما؛ فذلك سبب حسدهم، وكان شديد الحب ليوسف؛ فكان الحسد له أكثر، ثم رأى الرؤيا؛ فصار الحسد له أشد»(٢).

قال محمد رشيد رضا:

«إن هذا الحكم منهم على أبيهم جهل مبين وخطأ كبير، ولعل سببه ميله إلى يوسف، ولكن ما يفعل الإنسان بغريزة قلبه وروحه:

دلائل العشق لا تخفى على أحد
كحامل المسك لا يخلو من العبق

سئل والد بليغ: أي ولدك أحب إليك؟ فقال: صغيرهم حتى يكبر، وغائبهم حتى يرجع، ومريضهم حتى يشفى»(٣).

وقال ابن عطية:

«وكان حب يعقوب ليوسف -عليه السلام- وبنيامين لصغرهما وموت أمهما، وهذا من حب الصغير هي فطرة البشر، وقد قيل لابنة الحسن:أي

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص١٤).

(٢) «النكت والعيون» (٣/ ٩).

(٣) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٦١).

بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يبرأ»[١].

٨/٨٠- إن العدل مطلوب في كل الأمور لا في معاملة السلطان رعيته فقط[٢].

قال محمد رشيد رضا:

«ومن وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد وتربيتهم على المحبة والعدل بينهم، ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض مما يعده المفضول إهانة له و محاباة لأخيه في الهوى، وقد نهى عنه النبي ﷺ مطلقاً»[٣].

قلنا: كأنه يشير إلى قول النبي ﷺ: «اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم»[٤].

٨/٨١- الضلال أنواع:

قال العلمي:

«فهذه الأنواع من الضلال أخف من الضلال الذي يكون في أصول الدين عمداً، ولا عن تأويل، وذلك كما في قوله- تعالى-: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝ ﴾ [إبراهيم:٢-٣].

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٦٣).

(٣) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٦١).

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣/ ١٤).

وقولــه -تعــالى-: ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝ ﴾ [الملك:٩].

وقولــه -تعــالى-: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾ [آل عمران:١٦٤].

فهذا النوع من الضلال هو ضلال الكفر العمدي الذي ليس شيء أكبر منه، وعلامته: أن يوصف بوصف بعيد أو كبير أو مبين، وما يشبه ذلك مما يشير إلى عظمه في باب الكفر.

وإنما وصف أبناء يعقوب ضلال أبيهم بأنه ﴿مُّبِينٌ﴾ تشدداً في البذاءة وغلواً في السفاهة على جناب والدهم -عليه السلام-»[1].

قال أبو حيان:

«والضلال هنا هو: الهوى؛ قاله ابن عباس، أو الخطأ من الرأي؛ قاله ابن زيد، أو الجور في الفعل؛ قاله ابن كامل، أو الغلط في أمر الدنيا»[2].

قال الشنقيطي:

«الظاهر: أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- في هذه الآية إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي .

ويدل هذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٧٦).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٢).

فمنه في هذا المعنى قوله -تعالى- عنهم مخاطبين أباهم:

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾.

وقوله -تعالى- في نبينا محمد ﷺ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى:٧]؛ أي: لست عالما بهذه العلوم التي لا تعرف إلا بالوحي، فهداك إليها وعلمكها بما أوحي إليك من هذا القرآن .

وليس مراد أولاد يعقوب: الضلال في الدين إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارا، وإنما مرادهم: أن أباهم -في زعمهم- في ذهاب عن إدراك الحقيقة، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به حيث آثر اثنين على عشرة، مع أن العشرة أكثر نفعا له، وأقدر على القيام بشؤونه وتدبير أموره .

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين:

أحدهما: الضلال في الدين؛ أي: الذهاب عن طريق الحق الذي جاء بها الرسل -صلوات الله عليهم وسلامه-، وهذا أشهر معانيه في القرآن.

ومنه بهذا المعنى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الصافات:٧١].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ [يس:٦٢].

الثاني: إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة من قول العرب: ضل السمن في الطعام؛ إذا غاب فيه، وهلك فيه؛ ولذلك تسمي العرب الدفن: إضلالا؛ لأنه تغييب في الأرض يؤول إلى استهلاك عظام الميت فيها؛ لأنها تصير رميما، وتمتزج بالأرض .

ومنه بهذا المعنى قوله- تعالى-: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [السجدة:١٠].

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله -تعالى-: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [القصص:٧٥]؛ أي: غاب واضمحل.

ومن إطلاق الضلال على الدفن قول نابغة ذبيان:

فآب مضلوه بعين جلية
وغودر بالجولان حزم ونائل

فقوله: «مضلوه»؛ يعني: دافنيه، وقوله «بعين جلية»؛ أي: بخبر يقين. والجولان: جبل معروف دفن عنده المذكور.

ومن الضلال بمعنى الغيبة والاضمحلال قول الأخطل:

كنت القذى في موج أكدر مزبد
قذف الأتي به فضل ضلالاً

وقول الآخر:

ألم تسأل فتخبرك الديار
عن الحي المضلل أين ساروا»[1]

٨/٨٢- معيار البعد والقرب والبغض والحب ليس المنافع المادية.

قال البقاعي:

«...حيث فضلهما علينا، والقرب المقتضي للحب في كلنا واحد؛ لأنا في البنوة سواء، ولنا مزية تقتضي تفضيلنا، وهي: أنا عصبته، لنا من النفع له، والذب عنه، والكفاية ما ليس لهما».[2]

قال القاسمي:

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٥٢-٥٤).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ١٣).

«والعصبة والعصابة: الجماعة من الرجال؛ عشرة فصاعدا سموا بذلك؛ لكون الأمور تعصب بهم؛ أي: تشد؛ فتقوى،وذكرها ليس لإفادة العدد فقط، بل للإشعار بالقوة؛ ليكون أدخل في الإنكار؛لأنهم قادرون على خدمته، والجد في منفعته، فكيف يؤثر عليهم من لا يقدر على ذلك؟»[١].

قال ابن عاشور:

«وجملة ﴿ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ ﴾ في موضع الحال من أحب؛ أي: ونحن أكثر عددا.

والمقصود: من الحال التعجب من تفضيلهما في الحب في حال أن رجاء انتفاعه من إخوتهما أشد من رجائه منهما؛ بناء على ما هو الشائع عند عامة أهل البدو من الاعتزاز بالكثرة؛ فظنوا مدارك يعقوب -عليه السلام- مساوية لمدارك الدهماء، والعقول قلما تدرك مراقي ما فوقها، ولم يعلموا أن ما ينظر إليه أهل الكمال من أسباب التفضيل غير ما ينظره ممن دونهم»[٢].

قال أحمد نوفل:

«يدعي الإخوة أنهم أحق بالأحبية من يوسف؛ لأنهم عصبة، والعصبة كما في «الكشاف» العشرة فصاعدا، وكما في «مفردات الراغب» الجماعة المتعصبة المتعاضدة، وفي «النهاية» لابن الأثير من العشرة إلى الأربعين.

والاثنان لا يطلق عليهما لغة عصبة، وكان الإخوة يقولون: نحن عصبة وليس هذان بعصبة.

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ١٩٨)، وانظر: «فتح القدير» (٣/ ٨).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٢١).

وهذا الذي قالوه من أفضليتهم عنـوان على فسـاد مقياسـهم، إذ متى كانت الكثرة عنوان الأفضلية ومعيارها. فمثقال من ذهب خير من مئة من تراب.

وما أشبه حالهم بقول القائل:

تقـــول أنـــا الكبـــير فعظمونـــي
ألا هبلتـــك أمـــك مـــن كبـــير
إذا كـــان الغـــير أعـــم نفعـــاً
فمـــا فضـــل الكبـــير علـــى الصغـــير»[1]

٨/٨٣ - أغلب الناس يسيطر عليهم الوهم.

قال أحمد نوفل:

« ثـم لفتـة نبـه إليـها الدكتـور حسـن بـاجودة في كتابـه: «الوحـدة الموضوعية» عن بروز ضمـير المتكلـم في هـذه الآيـة، والتـأكيد علـى إظـهار ذواتهم في معرض الحديث عن تشخيص الواقع الذي يعيشون، وانظر كم مرة تردد ضمير المتكلم في نصـف سـطر: ﴿ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا ﴾ وهنـا ننبه إلى أن الوهم قد يسيطر على الإنسـان؛ فيقـع الإنسـان فريسـة لـه، وهـذا الذي حدث مع أبناء يعقـوب، وكمـا يقـول الغـزالي في «المسـتصفى»، فـإن أغلب الناس يسيطر عليهم الوهم؛ ولذلك فنحن محتاجون أن نراجع ما عندنا من قناعات، وما يعشش فينا من مُسَلَّمات، فلربما كان الكثير منها مجرد أوهام لا أساس لها من الصحة على الإطلاق.

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٩٢-٢٩٣).

ومن هذا القبيل؛ أي: سيطرة الوهم خوف الملدوغ من الحبل المرقش كما يقول الغزالي- رحمه الله-، ومن هذا -أيضا -خوف الناس من الظلمة، وخوف الناس من المكوث مع الميت كل هذه أوهام، وجنون العظمة وهم، والغرور وهم، وغير هذه»[١].

قال ابن عاشور:

«ودعواهم: أن يوسف -عليه السلام- وأخاه أحب إلى يعقوب- عليه السلام- يجوز أن تكون دعوى باطلة أثار اعتقادها في نفوسهم شدة الغيرة من أفضلية يوسف -عليه السلام- وأخيه عليهم في الكملات وربما سمعوا ثناء أبيهم على يوسف -عليه السلام- وأخيه في أعمال تصدر منهما أو شاهدوه يأخذ بإشارتهما أو رأوا منه شفقة عليهما لصغرهما ووفاة أمهما؛ فتوهموا من ذلك أنه أشد حبا إياهما منهم توهما باطلا»[٢].

٨/٨٤- ذوو الهيئات والشأن يذكرون، والأتباع يلحقون بهم.

قال أحمد نوفل:

«والتصريح باسم يوسف وإخفاء اسم الأخ الآخر دلالته: أن القوم مغتاظون من يوسف، وأما أخوه؛ فليس بذي شأن بالنسبة ليوسف؛ فألحقوه به إلحاقا»[٣].

٨/٨٥- ذوو المصالح قد يجتمعون على هدف مشترك ولو كان فيه خطر وضرر.

---

(١) المرجع السابق (ص٢٩٢).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٢١).

(٣) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٩١).

قال ابن كثير: «ينبه -تعالى- على ما في هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات.

ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه؛ يعنون: شقيقه لأمه بنيامين أكثر منهم، وهم عصبة؛ أي: جماعة.

يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بتقديمه حبهما علينا، ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها؛ ليخلوا لهم وجه أبيهم؛ أي: لتمتحض محبته لهم، وتتوفر عليهم، وأضمروا التوبة بعد ذلك؛ فلما تمالؤوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾؛ أي: المارة من المسافرين ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ما تقولون لا محاله، فليكن هذا الذي أقول لكم؛ فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه؛ فأجمعوا رأيهم على هذا»[1].

وقال أحمد نوفل:

«والغريب أن الإخوة العشرة يجتمعون على قضية لا يليق بمثلهم سناً وتربية أن يجتمعوا عليها:

وتأمل رجالاً أشداء، أبناء نبي بل أنبياء يعقوب وإسحاق يعقدون مؤتمراً غاضباً صاخباً لأجل حب أبيهم لأخيهم الصغير.

وتأمل كيف جرؤ هذا المقترح على افتتاح هذا المؤتمر الحاقد لولا أنه رأى من نفوس إخوانه ومن تصريحاتهم وتلميحاتهم ما شجعه على أن تولى

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٠٠).

كبر هذه المسألة غير هياب ولا وجل أن ينقلها أحد من إخوته؛ لأبيه لأنه رأى منهم جميعا ما رأى من نفسه غضبا وحنقا وحقدًا»[١].

٨/٨٦- القوة والكثرة تورث الغرور.

قال ابن عاشور:

«ويجوز أن تكون جملة ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ عطفا على جملة ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا ﴾.

والمقصود: لازم الخبر، وهو تجرئة بعضهم بعضا عن إتيان العمل الذي سيغريهم به في قولهم: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾؛ أي: أن لا يعجزنا الكيد ليوسف -عليه السلام- وأخيه؛ فإنا عصبة، والعصبة يهون عليهم العمل العظيم الذي لا يستطيعه العدد القليل؛ كقوله: ﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾»[٢].

قلنا: وهذا أمر مضطرد على مر التاريخ ودلائله كثيرة منها:

١- اغترار الكفار بكثرتهم فتآمروا على رسول الله ﷺ؛ قال- تعالى-: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ۝٣٠ ﴾ [الأنفال:٣٠].

قال محمد الغزالي:

«واجتمع طواغيت مكة في دار الندوة؛ ليتخذوا قرارا حاسما في هذا الأمر، فرأى بعضهم أن توضع القيود في يد محمد ﷺ، ويشد وثاقه ويرمى به

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٩١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٢١-٢٢٢).

في السجن لا يصله منه إلا الطعام، ويترك على ذلك حتى يموت، ورأى آخر أن ينفى من مكة فلا يدخلها، وتنفض قريش يديها من أمره وقد استبعد هذان الاقتراحان لعدم جدواهما، واستقر الرأي على الاقتراح الذي أبداه أبو جهل: أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسطاً فتياً، ثم نعطي كل فتىً سيفاً صارماً ثم يضربونه -جميعاً- ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن بني هاشم يقومون على حرب قريش كافة، فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها.

ورضي المؤتمرون بهذا الحل للمشكلة التي حيرتهم، وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه، وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال:٣٠]»[1] .

٢-اغترار المسلمين بقوتهم يوم حنين؛ كما قال -تعالى-:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

قال الإمام ابن قيم الجوزية:

«واقتضت حكمته -سبحانه- أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عَدَدِهِم وعُدَدِهِم، وقوّةِ شوكتهم ليطامن رؤوساً رفعت

---

(١) «فقه السيرة» (ص١٦٧)، وانظر -أيضاً- «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٨٠) للعلمي.

بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله ﷺ واضعا رأسه منحنيا على فرسه حتى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعا لربه، وخضوعا لعظمته، واستكانة لعزته: أن أحل له حرمه وبلده، لم يحل لأحد قبله ولا لأحد بعده، وليبين -سبحانه- لمن قال: «لن نغلب اليوم عن قلة»: أن النصر إنما هو من عنده، وأنه من ينصره؛ فلا غالب له، ومن يخذله؛ فلا ناصر له غيره، وأنه -سبحانه- هو الذي تولى نصر رسوله ودينه لا كثرتكم التي أعجبتكم، فإنها لم تغن عنكم شيئا، فوليتم مدبرين، فلما انكسرت قلوبكم، أرسلت إليها خلع الجبر مع بريد النصر، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودا لم تروها.

وقد اقتضت حكمته أن خلع النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار، قال -تعالى-: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝ ﴾ [القصص: ٥-٦]»[1].

٨/٨٧- من وجد من حبيبه نفرة أو جفوة عليه أن يتهم نفسه لا غيره.

القلوب المحبة تربطها وشائج المودة؛ فإذا تنافرت فبذنب يحدثه أحدهما؛ لقوله ﷺ: «ما تواد اثنان في الله؛ فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما»[2].

ولذلك إذا وجد المرء من أخيه جفوة ونفرة؛ فليتهم نفسه قبل حبيبه؛ هذا هو الإنصاف، فأما أخوة يوسف؛ فاتهموا أباهم ولم يتهموا أنفسهم،

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٤٧٧-٤٧٨).

(٢) «صحيح الجامع الصغير» (٥٤٧٩).

وافترضوا في أبيهم أن يكـون سـاعياً لرضـاهم، والعكـس هـو الحـق في حـق الوالدين أن يسعى الأبناء لنيل رضاهم والحصول على محبتهم.

٨/٨٨- التعصب يولد الشر والتآمر والكيد.

أطلق على إخوة يوسف «عصبة»؛ لأنهم كادوا يوسف وأخاه.

وكلمة «عصبة» وردت في القرآن على سبيل الذم وفي معنى الشر.

موضعان في سـورة يوسـف، وثـالث في [النـور:١١]: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾، ورابع في [القصص:٧٦]: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ ﴾.

وهكذا ما دخل التعصب على قوم إلا تولـدت الشـرور والفـتن فيـهم؛ كـالتعصب المذهـبي، والتعصـب الحزبـي، والعصبيـة القبليـة أو العرقيـة أو الإقليمية.

٨/٨٩- الحسود لا يسود.

قال القشيري:

«لما حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له؛ لم يرض سبحانه حتى أقامـهم بين يدي يوسف -عليه السلام- وخـروا لـه سـجداً؛ ليعلمـوا أن الحسـود لا يسود.

ويقال: أطول الناس حزناً من لاقى الناس عن مرارة، وأراد تأخـير مـن قدّمه الله أو تقديم من أخره الله؛ فـإخوة يوسـف أرادوا أن يجعلـوه في أسـفل الجب فرفعه الله فوق سرير الملك»[1].

---

(١) «لطائف الإشارات» (٣/ ١٧٠).

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝ ﴾ [يوسف:٩].

٩/٩٠- ارتكاب أخف الضررين قاعدة شرعية عمل بها الأولون.

قال السعدي:

«إن بعض الشر أهون من بعض؛ فارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمها»[١].

٩/٩١- العزم على التوبة قبل وقوع الذنب[٢].

قال أبو الفرج ابن الجوزي:

«وفي قصتهم نكتة عجيبة وهو أنهم عزموا على التوبة قبل الذنب»[٣].

قال السمرقندي:

«وقال بعض العلماء: هكذا يكون المؤمن يهيء التوبة قبل المعصية»[٤].

قال ابن كثير:

«فأضمروا التوبة قبل الذنب»[٥].

قال القرطبي:

«تحدثوا توبة بعد ذلك؛ فيقبلها الله منكم»[٦].

---

(١) «تفسير الكريم الرحمن» (ص ٣٦٤).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ١٤).

(٣) «زاد المسير» (٤/ ١٨٤).

(٤) «بحر العلوم» (٥/ ١٥٢).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٧٠).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٣١).

قال البقاعي:

«فعزموا على التوبة قبل وقوع الذنب»[١].

٩/٩٢- الإنسان إذا خضع لوسوسة الشيطان انحط إلى أسفل سافلين.

قال أحمد نوفل:

«التفكير بالقتل لأخيهم الصغير الذي لم يرتكب جريرة ولا جريمة، وهذا يذكرنا بقتل ابن آدم لأخيه، ويذكرنا بأن الإنسان إذا خضع لوسوسة الشيطان انحط إلى أسفل سافلين، ورد إلى مرتبة أحط من الوحوش، وصار كما توقعت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، وأي دماء!؟ ..إنها دماء بريء.. وأي بريء!؟ إن الأخ اللطيف المهذب الذي لم يسيء.. ولن يسيء.

وتأمل الإنسان بين ما يريده الله له وما يريده له الشيطان»[٢].

٩/٩٣- التنافس على الظهور يؤدي إلى إضمار الشر والتخلص من الأقران.

قال ابن كثير:

«هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم اعدموه من وجه أبيكم؛ ليخلوا لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو أن تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه، وتخلوا أنتم بأبيكم»[٣].

قال السمرقندي:

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ١٤)، وانظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١١/ ٢٦).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٩٧).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٧٠).

«يقول: ليقبل لكم أبوكم بوجهه، ويصف لكم وجهه»[1].

قال أبو الفرج ابن الجوزي:

«أي: يفرغ لكم من الشغل بيوسف»[2].

قال السعدي:

«يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة؛ فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلا لا يتفرغ لكم»[3].

قال الشوكاني:

«يصف ويخلص؛ فيقبل عليكم ويحبكم حبا كاملا»[4].

٩/٩٤- إن توبة القاتل مقبولة.

قال القرطبي:

«وفي هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة؛ لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم»[5].

٩/٩٥- مزاحمة أهل الفضل بغير حق من الأخلاق السيئة.

قال ابن عاشور:

«وهذه آية من عبر الأخلاق السيئة، وهي: التخلص من مزاحمة الفاضل بفضله لمن هو دونه فيه أو مساويه بإعدام صاحب الفضل، وهي أكبر جريمة؛

---

(١) «بحر العلوم» (٢/ ١٥٢).

(٢) «زاد المسير» (٤/ ١٨٤).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٠).

(٤) «فتح القدير» (٣/ ٧).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٣١).

لاشتمالها على الحسد، والإضرار بالغير، وانتهاك ما أمر الله بحفظه، وهم كانوا أهل دين ومن بيت نبوءة وقد أصلح الله حالهم من بعد، وأثنى عليهم، وسماهم: بالأسباط»[١].

٩/٩٦- إن النفوس عندما تغضب تفقد زمامها وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث.

قال العلمي:

«يوجد أناس يخرجهم الغضب عن طور التعقل؛ فإذا غضبوا ظهرت إمارات الغضب في عيونهم وجباههم وألسنتهم؛ لذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره، وهؤلاء هم أهل الأمزجة العصبية، ولعل إخوة يوسف الذين أشاروا بقتله هم من هذا القبيل»[٢].

قال أحمد نوفل:

«التراجع السريع عن القتل إلى الطرح أرضاً، والطرح أرضاً أخف من القتل، فقد يصل إلى حد القتل ولكنه قتل بالتسبب، وهم لا يريدون القتل بالعمد ولكن لا بأس بالقتل بالتسبب، ولا يترتب على الطرح أرضاً موت ولا قتل. إن هذا الراجع السريع يدل على أن ما صدر من تلفظ بالقتل ليس مقصوداً، ولكنها ثورة الغضب وسورة النفس في أول الأمر، ثم ما لبثت أن سكنت بعض الشيء»[٣].

٩/٩٧- تبييت التوبة قبل الذنب ليس مسوغاً لارتكاب الجريمة.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٢٣).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٨٥).

(٣) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٩٧).

الأصل في التوبة أن تقع بعد الذنب الذي يقع غفلة أو جهلا أو ضعفا من العبد، أما التوبة التي تعد سلفا؛ فهي نوع من المكر والكيد والاحتيال الذي يزينه الشيطان لينزغ بين الجاني والمجني عليه.

وفيها عدة مفاسد:

الأولى: أن فيها تسويفا بالتوبة، وما يدريه أنه يمكن منها بعد وقوع الذنب.

الثانية: أنها دافع للشر وتسويغه.

الثالثة: أن فيها استصغار للمعصية واستخفاف بفعلها.

يقول عبد الحميد كحيل:

«وهذا رأي يدل على منتهى الدهاء، والمكر، وإحكام التدبير، فقد خيرهم في سلوك أحد طريقين كلاهما يقضي على يوسف القضاء المبرم، وأتى برأيه على صيغة الأمر ليكون أشد تأثيرا عليهم، وليحملهم على المبادرة إلى تنفيذه ما رآه، وليقطع عليهم سبيل المعارضة، وفاجأهم باقتراح القتل أولا ليصدع به قلوبهم، ثم أسرع إلى اقتراح طرحه أرضا، ليهون على من كبر القتل على نفوسهم قبول هذا الرأي والأخذ به.

وإني لأتصور هذا القائل الذي يمثل الرأس المدبر، يلهب الشعور ويشعل الصدور، ويثير فيهم كوامن الحقد، ويدفعهم إلى الشر دفعا، ويأمرهم بالإسراع بتنفيذ ما يراه صالحا لهم، ويصل بهم إلى الغاية التي ينشدونها من أقرب طريق.. ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾: أخفوا أثره من الوجود، ﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾: إن أبت نفوسكم الإقدام على القتل، فارموه في أرض بعيدة ليهلك فيها أو يغيب طول حياته، فلا يرجع إلى أبيه أبدا...فإن فعلتم أي الأمرين يخل لكم وجه أبيكم، فيقبل عليكم وحدكم، ولا يجد أمامه من ينظر إليه غيركم، فيصفوا لكم وده، ويجتمع لكم حبه، ولا يكون من يشرككم في معزته

ورضاه، ﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾: وتصيروا من بعد يوسف رجالاً صالحين، حائزين لجميع صفات الصلاح الدنيوي باستئثاركم بحب أبيكم كله، وبرضاه عليكم بعد اعتذاركم له، وبالتفرغ لتدبير شؤونكم الدنيوية، وحائزين لصفات الصلاح الديني بالتوبة إلى الله –تعالى–، وبالرجوع إليه، والاستقامة بعد ذلك على العبادة والتقوى.

وهذا مدخل من مداخل الشيطان التي يخدع بها المؤمنين ويغرهم بربهم الكريم، ويغريهم على الوقوع في المعصية، ارتكاناً على التوبة والصلاح بعد أن تزل أقدامهم»[1].

٩/٩٨- أن الحكمة والفائدة من ذكر هذه الحوادث هي تقرير أصل التوحيد الهادم لقاعدة الوثنية والشرك.

قال العلمي:

«إن الحكمة والفائدة من ذكر هذه الحوادث وأشباهها: هي تقرير أصل التوحيد الهادم لقاعدة الوثنية بالفصل بين ما هو لله وما هو لرسله تصويراً لحالة الرسل الحقيقية، وهي: أنهم لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ما عليهم إلا تبليغ دين الله وإقامته، وليس لهم من الأمر شيء ولا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً، وليس عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة، فلا يهدون من أحبوا، ولا يغنون عنه من الله شيئاً، وإن كان أقرب الناس وأحبهم إليهم في النسب والمعاملة الدنيوية.

وأما قاعدة وثنية العرب ونحوهم؛ فهي اتخاذ أولياء من العباد يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده في شؤون الإشقاء والإسعاد والسلب

---

(١) «سورة يوسف عليه السلام» (ص٢٥-٢٦).

والإمداد؛ فجعلوا مدار السعادة والنجاة على شفاعة أنبيائهم وأوليائهم، فجاء القرآن بذكر هذه الحوادث؛ حوادث أقارب الأنبياء هادما لتلك القاعدة الوثنية، معلما الناس أن مدار النجاة على الإيمان والأعمال، ولا تأثير للأقربين والبنين»[(١)].

٩/٩٩- المقاصد الشريفة لا يتوصل لها إلا بوسائل شريفة.

صدق من قال:

لكل داء دواء يستطب به
إلا الحماقة أعيت من يداويها

قال العلمي:

«وإنا نعجب من هؤلاء الأذكياء المنصفين يريدون أن يخلقوا الفضيلة فضيلة توجه أبيهم عليهم من جريمة هي من أكبر الجرائم بعد الشرك بالله- تعالى-»[(٢)].

قال أحمد نوفل:

«...هذه جريمة طريفة في هدفها وغايتها، ولو جاز التعبير لقلنا: إنها جريمة نبيلة الهدف، على الأقل في نظر من يرتكبها. ولسنا نقول بأن هناك جريمة نبيلة الهدف، فالغاية النبيلة يجب أن تكون وسيلتها في مثل نبلها، فلا يسرق الإنسان ليحج أو ليتصدق مثلا.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٧٩).

وهذا يجعلنا ننتبه إلى المنطق الذي يسير تفكيرنا، فقد يكون خاطئاً مقلوباً ولكننا نحن لطول تعودنا عليه نعتبره سليماً معتدلاً. فلينتبه كل منا لنفسه ولمنطقة ولفكره وما يجول في داخله، ولا يعيش الإنسان جاهلاً بنفسه.

فالهدف الذي زعموه: أنهم يريدون أن يزيحوا العقبة التي تقف أمام برهم لأبيهم وحبه لهم وحبهم له، والعقبة التي تحول دون صلاحهم... إنه منطق مخرَّق أخرق، أن نرتكب جريمة لوجه الله أو في سبيل الله أو ليكون فاعلها صالحاً مرضياً من الله»[١].

٩/١٠٠- موجبات الهلاك والخطر عند الإنسان.

قال العلمي:

«نعلم من هذه المفاوضة أن الإنسان قد يضعف عن احتمال سلطان الحسد وسيطرته عليه؛ فيقدم على المخاطرة المهلكة، وهو لا يجهل مكان الخطر منها، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومثاوراتها، حتى يتردى في مهواتها»[٢].

٩/١٠١- ينبغي للإنسان أن يحترس ويتحفظ من الناس.

قال العلمي -رحمه الله-:

«نعلم أنه ينبغي للإنسان أن يحترس ويتحفظ من الناس حتى من أقاربه، وأنه لا يبعد أن يجتمعوا على ضرره، ونعلم وهو المدهش أنه ربما

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٢٩٧-٢٩٨).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٨٢).

يوجد إخوة كهول وشيوخ يغارون من أخ لهم صغير في سن الحلم ربما يكون لهم أولاد أكبر منه لا يترفعون عن حسدهم له وغيرتهم منه»(١).

٩/١٠٢- ينبغي الحذر من شؤم الذنوب وأن الذنب يولد ذنوبا متعددة.

قال السعدي:

«الحذر من شؤم الذنوب وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعد جرائم؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه احتالوا بذلك بأنواع الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون ، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث حصل من الأخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب وآثاره التابعة واللاحقة»(٢).

٩/١٠٣- ينبغي العدل في معاملة الأبناء:

«الوالد المسلم يراعي العدل في معاملته لأبنائه، ولا يسرف في إظهار محبته وإيثاره لبعضهم على بعض، كي لا يدفع الحاسدين منهم والحاقدين إلى البحث عن وسيلة خاطئة للتنفيس عن مشاعرهم المكبوتة ضد بعضهم البعض»(٣).

٩/١٠٤- ضرورة الانتباه إلى بدء تخلق المشاعر السيئة في النفس.

قال أحمد نوفل:

(١) المرجع نفسه.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٦٣).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص١٤).

«ضرورة الانتباه إلى بدء تخلق المشاعر السيئة في النفس من أول أمرها قبل أن تتفاعل وتتضخم وتستفحل ويستطير شرها.

وهذا حال إخوة يوسف مع أخيهم لم ينتبهوا من غفلتهم إلا على صوت: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾، ولم يدركوا أنفسهم إلا وهم يخططون لجريمة لا أبشع ولا أفظع في عرف كل البشر»[(١)].

٩/١٠٥- مداخل الشيطان شتى.

قال أحمد نوفل:

«وقفة أخرى مع مداخل الشيطان: كيف يصطنع لكل حالة أسلوبها ولكل شخص طريقة خطابه، ولينتبه المؤمنون أن إبليس لن ييأس منهم بعد أن آمنوا والتزموا، فقد يفسد عليهم التزامهم بالتنطع أو بالْغلو أو بكثرة الخلاف، أو بالتعالي على المسلمين أو بسوء الظن بهم..فليحذر المؤمنون»[(٢)].

٩/١٠٦- الجاه يدعو إلى الحسد كالمال.

قال القاسمي:

«في الآية من الفوائد: أن الجاه يدعو إلى الحسد كالمال، وقد يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب، وأن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود، وبمن يراعيه، والحسد إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكمل عقلاً من الممكور به، وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة وأظهر ذلك لم يعتمد عليه، وفي الآية أن من طلب مراده

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٦٠٤).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٩٨).

بمعصية الله بعد عنه»[١].

٩/١٠٧- الغالب أن المرء له اعتناء بشأن نفسه واهتمام بتحصيل منافعه.

قال أبو السعود:

«وإيثار الخطاب في ﴿ لَكُمْ ﴾ وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول بإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل»[٢].

قلنا: ولذلك قال -تعالى-: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا ﴾ [التحريم:٦].

وقال ﷺ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[٣].

---

(١) «محاسن التأويل» (٩/ ٣٥٢٠-٣٥٢١).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (٩٩٧) بنحوه.

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾.

١٠/١٠٨- «الشفقة والمحبة في الشقيق أكبر منها في الأخ للأب»[(١)].

١٠/١٠٩- والقتل كبيرة عظيمة لا تطاق.

قال أبو بكر الجزائري:

«لا تقتلوا يوسف؛ لأن القتل جريمة لا تطاق ولا ينبغي ارتكابها بحال»[(٢)].

قال السعدي-رحمه الله-:

«فإن القتل أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم بل إنه عبد مملوك آبق؛ لأجل أن ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ الذين يريدون مكاناً بعيداً؛ فيحتفوا به»[(٣)].

١٠/١١٠- مشروعية التقاط اللقطة والإذن فيها.

قال أبو بكر الجزائري :

«في الآية دليل على مشروعية التقاط اللقطة، وقد أذن فيها رسول الله ﷺ ولم يأذن في ضالة الإبل إذ قال في اللقطة: «اعرف عفاصها، ووعاءها ووكاءها، ثم عرفها سنة؛ فإن جاء صاحبها، وإلا؛ فشأنك بها».

وقال في ضالة الغنم: «هي لك، أو لأخيك، أو للذئب».

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٩٧).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٥٩٦).

(٣) « تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٠).

وقال في الإبل: «مالك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها، تـرد المـاء وتـأكل الشجر حتى يلقاها ربها»[١]»[٢].

١١١/١٠- الاكتفاء بما حصل به المقصود.

قال ابن عاشور:

«فكان هذا القائل أمثل الإخوة رأيا وأقربهم إلى التقوى.

وقد علموا أن السـيارة يقصـدون إلى جميـع الجبـاب للاستسـقاء؛ لأنـها كانت محتفرة على مسافات مراحل السفر، وفي هذا الـرأي عـبرة في الاقتصـاد من الانتقام والاكتفاء بما يحصل به الغرض دون إفراط»[٣].

١١٢/١٠- وجود عقلاء ناصحون يقلل من الخطر والمبالغة في الشر.

قال الشاعر:

لا يصلـــح القـــوم فوضـــى لا ســـراة لهـــم
ولا ســـــراة إذا جـــــهالهم ســـــادوا

قال ابن عاشور:

«والمقصود من التسبب الذي يفيده جواب الأمر إظهار أن ما أشـار بـه القائل من إلقاء يوسف -عليه السلام- في غيابة جب هو أمثـل ممـا أشـار بـه الآخرون من قتله أو تركه بفيفاء مهلكة؛ لأنه يحصل به إبعـاد يوسـف -عليـه السلام- عن أبيه إبعادا لا يرجـى بعـده تلاقيـهما دون إلحـاق ضـر الإعـدام

---

(١) أخرجه البخاري(٢٣٧٢)، ومسلم(١٧٢٢).

(٢) «أيسـر التفاسـير» (٢/ ٥٩٦)، وانظـر -لزامـا-: «الجـامع لأحكـام القـرآن» (٩/ ١٣٤-١٣٦).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٢٦).

بيوسف –عليه السلام–؛ فإن التقاط السيارة إياه أبقى له وأدخل في الغرض من المقصود لهم وهو إبعاده: لأنه إذا التقطه السيارة أخذوه عندهم أو باعوه فزاد بعداً على بعد»[١].

١٠/١١٣- الشر والانتقام لا يكون إلا في لحظات الغفلة والغضب وشدة الانفعال.

ولذلك أوصى رسول الله ﷺ بعدم الغضب، ومدح الحلم والأناة، وأخبر أن التؤدة من الرحمن والعجلة من الشيطان.

وهذا ما يظهر جلياً في هذه الآيات؛ فعندما كان إخوة يوسف في شدةٍ من الغضب والحنق والحقد؛ فكروا بأسوأ جريمة وهي القتل؛ فلما بدأ يذهب عنهم ذلك شيئاً فشيئاً قلّ الشر حتى أجمعوا على إلقائه في البئر، وهذا لا شك أنه أهون من القتل.

١٠/١١٤- استحباب التستر على المسيء رجاء توبته.

قال الألوسي:

«وإنما لم يذكر أحد منهم باسمه ستراً على المسيء، وكل منهم لم يخل من الإساءة، وإن تفاوتت مراتبها»[٢].

قلنا: ولذلك كان رسول الله ﷺ في حال النصح والإنكار يعمم القول فيقول: «ما بال أقوام...».

١٠/١١٥- العبرة في القول لا القائل.

عدم تعيين القائل: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ فيه دلالة أن العبرة بصحة

---

(١) المرجع السابق (١٢/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٢) «روح المعاني» (   ).

القول لا بقائله؛ لأن الحق لا يعرف بالرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق.

١٠/١١٦- الخير مراتب ودرجات والشر منازل ودركات.

إن إلقاء يوسف في الجب التي تمر به القوافل أهون بكثير من قتله أو إلقائه في أرض مهجورة ليس فيها إلا الذئاب والسراب.

قال الخازن: «فيه إشارة إلى ترك الفعل؛ فكأنه قال: لا تفعلوا شيئا من القتل والتغريب، وإن عزمتم على الفعل ولا بد فافعلوا هذا القدر؛ أي: إلقاءه في البئر»[١].

١٠/١١٧- بعض الشر أهون من بعض.

قال السعدي:

«بعض الشر أهون من بعض؛ فحين اتفقوا على التفريق بين يوسف وأبيه، ورأى أكثرهم أن القتل يحصل به الإبعاد الأبدي: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٠].

فخفف به الشر عنهم؛ ولهذا لما وردت السيارة الماء، وأدلى واردهم دلوه تبشر بوجوده، وقال: ﴿ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾.

وكان إخوته حوله، فقالوا: إنه غلام أبق منا؛ وتبايعوا معهم: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وإنما قصدهم إبعاده والتأكيد على مشتريه منهم، صورة أن يحتفظ به لئلا يهرب.

---

(١) «تفسير الخازن» (٣/ ٢٦٦)- المطبوع مع تفسير البغوي).

ومن لطف الله أن الذي أخذه باعه في مصر على عزيزها، فحين رآه رغب فيه جداً، وأحبه، وقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ﴾.

فبقي مكرماً عندهم معفى عن الأشغال الشاقة وغيرها متجرداً للخير. وهذا من اللطف بيوسف؛ ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ﴾.

فكان تفرغه عند العزيز من أسباب تعلمه للعلوم النافعة؛ ليكون أساساً لما بعده من الرفعة في الدنيا والآخرة، كما أن رؤياه مقدمة اللطف، وكما أن الله أوحى إليه حين ألقاه إخوته في الجب: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وهذه بشارة له بالنجاة مما هو فيه، وأنه سيصل إلى أن ينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون، وقد وقع ذلك في قوله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف:٨٩]»[١].

١٠/١١٨- ينبغي أن يكون الكبير أعقل من الصغير غالباً.

قال السعدي:

«وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية؛ فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل»[٢].

١٠/١١٩- اللقيط يطلق على الصغير دون الكبير.

قال القرطبي:

---

(١) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف -عليه السلام-» (ص٣٣-٣٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٠).

«لفظ اللقيط في الشرع لا يطلق إلا على الطفل الصغير لا على الكبير»[١].

١٢٠/١٠- إخوة يوسف عند فعلتهم ما كانوا أنبياء؛ لأن الأنبياء معصومون عن التواطؤ على الظلم والبغي:

قال القرطبي:

«وفي هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولا ولا آخرا[٢]؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا ، وقيل: كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلة نبي، فكانت هذه زلة منهم، وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدمناه، وقبل ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله، وهذا أشبه، والله أعلم»[٣].

قال الشوكاني:

«وفي هذا دليل على أن أخوة يوسف ما كانوا أنبياء؛ فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على قتل مسلم ظلما وبغيا، وقيل: كانوا أنبياء، وكان ذلك منهم زلة قدم، وأوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم، واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم، ورد بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكثيرة المتبالغة في الكبر مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وافتراء الكذب، وقيل: إنهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء بل صاروا أنبياء من

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٣٤).

(٢) أما آخرا؛ ففي ذلك نزاع بين أهل العلم، والراجح أنهم صاروا أنبياء وكلام القرطبي يدل على ذلك، والله أعلم.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٣٣).

بعد»[١].

١٠/١٢١- الإخوة تختلف أحوالهم مع اتحاد الأصل الذي ينتسبون إليه.

قال العلمي:

«إن الإخوة قد تختلف أحوالهم مع اتحاد الأصل الذين ينتسبون إليه، واتحاد الخؤولة والبيئة البيتية.

أبـوك أبـي والأصـل لاشـك واحـد
ولكننـا صنـوان ورد وخـروع

فيوسف وإخوته كانوا كما قال أبو الطيب:

تفرقـهم وإيـاه السـجايا
ويجمعـهم وإيـاه النجـار»[٢]

١٠/١٢٢- غضب الحاسد على من لا ذنب له.

قال العلمي:

«ترتيب القتل على مجرد كون يوسف أحب لأبيهم منهم مما لا يقبله العقل، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم، وعليه؛ فلا ندحة لنا من أن نلاحظ أن الدافع الحقيقي لهم على إرادة قتله إنما هو الحسد الشخصي والحاسد غضبان على من لا ذنب له مع العداء العائلي الموروث عن الأمهات الضرائر، والذي سهل عليهم هذه الفكرة القاعدة الاجتماعية، وهي أن الجماعة أقل مبالاة من الفرد؛ لانحلال المسؤولية بكثرة التكافل، ونحن إذا لم نحمل كلامهم على ذلك كان منال النجم أقرب من تطبيق حالهم على

(١) «فتح القدير» (٣/ ٨).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٥٤).

قاعدة من قواعد العقل»[١].

١٠/١٢٣- حتى تؤدي الأصالة والتربية أثرها وثمارها لابد من استعانة العبد بربه حتى يوفق إلى مطلوبه ويهتدي إلى سبيل ربه.

قال العلمي:

«هذه صورة ما عسى أن يوجه إلينا السؤال والاستشكال، وأما الجواب عنه؛ فنقول: إن كلاً من الأصالة والتربية قد لا يفيد شيئاً إذا كان العبد لم يمد بالألطاف الإلهية، والتوفيقات الربانية، والدين لا ينظر إلى هذه الأشياء التي تنظر إليها الناس، ولكنه يقول في الكتاب الكريم: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣].

ويقول الشاعر:

لقد رفع الإسلام (سلمان) فارس
كما وضع الكفر الشريف (أبا لهب)»[٢]

١٠/١٢٤- إن إطلاق العنان للعواطف يزيد الخرق اتساعا بحيث يكون المرء في شر؛ فيقع في شر أعظم منه.

قال العلمي:

«يا إخوتي، لا تفعلوا، لا تذهبوا شرفكم ضحية عواطفكم، لا تستحوذ عليكم ميولكم، أنا أرى أن لا تفعلوا مع أخيكم شيئاً ما؛ لأنه هو لم يعمل معكم شيئا قط، وهو لم يرتكب جرما، افتكروا ملياً من هذا الموضوع، فقد قال العلماء:

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٨٤).

(٢) المرجع نفسه (١/ ٢٨٧).

أصاب متأمل أو كاد، وأخطأ مستعجل أو كاد.

يا إخوتي لا تطلقوا لعواطفكم العنان؛ لئلا تزيدوا الخرق اتساعاً، بحيث نكون في شر؛ فنقع في شر أعظم منه»(١).

١٠/١٢٥- الإصلاح من داخل الجماعة أكثر تأثيراً في الأوساط التي يغلب عليها التعصب والتحزب.

ولذلك لما جاء صوت أخيهم من داخلهم استمعوا له؛ لأنهم لا يتهمونه في قصده.

١٠/١٢٦- الطرق المهيأة للسفر ينبغي أن يقام عليها مستلزمات الحياة والاستمرار.

وصف الجب بأنه يغشاه السيارة والمسافرون يدل على أن الطرق المهيأة للسفر كان يقام عليها مستلزماته ليستطيع المسافر البقاء والاستمرار.

وهذا ما نراه مستمراً ومتطوراً في زمان الناس؛ كمحطات الوقود، والهواتف، والاستراحات، وأماكن إصلاح وسائل السفر.

---

(١) المرجع السابق نفسه (١/ ٣٠٥).

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾.

١١/١٢٧- التخطيط يسبق التنفيذ.

يلاحظ أن الآية السابقة شرحت تخطيط إخوة يوسف وهذه الآية وضحت شروعهم في تنفيذ المؤامرة.

١١/١٢٨- تقديم الإغراءات والمبالغة فيها دليل على نية فاسدة وطوية خبيثة.

قال أحمد نوفل:

«...وهكذا جاءوا أباهم مصممين على أخذ يوسف، وسيحتالون لذلك بكل حيلة ويتذرعون بكل ذريعة. وهذا الذي جعلهم يقدمون الإغراءات من زعم أنهم يريدون لأخيهم أن يتنزه وأنهم ناصحون في الذي يقولون، وأنهم لأخيهم حافظون.

وقد بدأوا بداية غريبة في الكلام، قد نستنتج منها السذاجة البالغة ويمكن استنتاج الذكاء الخبيث، أما السذاجة؛ فمن جهة أنهم بهذه الكلمة يطابقون قول القائل: يكاد المريب يقول خذوني، فهم يقدمون اتهام أنفسهم من غير أن يتهمهم أحد.

وأما الذكاء الخبيث؛ فلأنهم بدأو بالهجوم إذ هو آخر وسيلة للدفاع وحتى يضعوا أباهم في موضع لا خيار له فيه، وإلا؛ فإن عدم إرساله معهم يعني -حسب رأيهم-: التمييز وتخوين الأبناء وانطواء صدر الوالد على أمور ليست صحيحة»[١].

١١/١٢٩- «إن صدق المؤمن يحمله على تصديق من يحلف له ويؤكد

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٠٦).

كلامه»[١].

١١/١٣٠- الحنو جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء:

قال الشوكاني:

«لما أجمع رأيهم على أن يلقوه في غيابات الجب جاءوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوة استعطافاً له، وتحريكاً للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء، وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه»[٢].

١١/١٣١- كثرة الإلحاح على أمر دليل على شيء مجهول في النفس.

فقد سأل إخوة يوسف أباهم قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى.

قال القرطبي:

«وقيل: لما تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلم الثاني عادوا إلى يعقوب -عليه السلام-، وقالوا: هذا القول، وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم؛ فأبى»[٣].

١١/١٣٢- قد تظهر النية السيئة من فحوى الخطاب وفي لحن القول؛ فمن بيّت شيئاً في خوافيه لابد أن يظهر بعضه على فيه.

لقد أحس يعقوب -عليه السلام- منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه فيما أشاروا به عليه؛ ولذلك قالوا: ﴿مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾

قال القاسمي:

«أي: لم تخافنا عليه، ونحن نريد له الخير، ونحبه، ونشفق عليه، أرادوا

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٩٨).

(٢) «فتح القدير» (٣/ ٩).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٣٨).

بذلك استنزاله عن عادته في حفظه منهم، وفيه دليل على أنه أحسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه»[(١)].

قال العلمي:

«كان يعقوب يخاف على يوسف من إخوته ومن كيدهم له، وكانت تظهر منهم أمارات على ذلك في أعماله وأقواله، ولذلك خاطبوه بهذا الخطاب»[(٢)].

١١/١٣٣- النصح دليل الأمانة وسببها.

قال البقاعي:

«والنصح دليل الأمانة وسببها؛ ولهذا قرنا في قوله: ﴿ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف:٦٨]، والأمن: سكون النفس إلى انتفاء الشر، وسببه طول الإمهال في الأمر الذي يجوز قطعه بالمكروه؛ فيقع الاغترار بذلك الإمهال من الجهال، وضده الخوف: وهو انزعاج النفس مما يتوقع من الضر.

والنصح: إخلاص العمل من فساد يتعمد، وضده الغش.

وأجمع القراء على حذف حركة الرفع في تأمن وإدغام نونه بعد إسكانه تبعاً للرسم؛ بعضهم إدغاماً محضاً، وبعضهم مع الإشمام، وبعضهم مع الروم، دلالة على نفي سكون قلبه عليه -عليهم الصلاة والسلام-، بأمنه عليه منهم على أبلغ وجه مع أنهم أهل لأن يسكن إليهم بذلك غاية السكون، ولو ظهرت ضمة الرفع عند أحد من القراء؛ فإن هذا الإيماء إلى النكتة

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٠)، وانظر: «زاد المعاد» (٤/ ١٨٧).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣١٧).

البديعة»[١].

قال أبو حيان:

«وفي قولهم: ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا ﴾ دليل على أنهم تقدم منهم سؤال في أن يخرج معهم، وذكروا سبب الأمن: وهو النصح؛ أي: لم لا تأمنا عليه، وحالتنا هذه؟ والنصح دليل على الأمانة، ولهذا قرنا في قوله: ﴿ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف:٦٨]، وكان قد أحس منهم قبل ما أوجب أن لا يأمنهم عليه»[٢].

قال السعدي:

«أي: لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف من غير سبب ولا موجب والحال ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾؛ أي: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب -عليه السلام- لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها، فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة لعدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم»[٣].

قال البغوي:

«﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ النصح: هو القيام بالمصلحة، وقيل: البر والعطف، إنا عاطفون عليه، قائمون بمصلحته، نحفظه حتى نرده إليك»[٤].

١١/١٣٤- يمكن إضمار الكيد وإظهار الخير والشفقة.

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ١٤-١٥).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٣) «تيسير الكريم المنان» (ص٣٥٠).

(٤) «مختصر معالم التنزيل» (١/ ٤٣٢).

قال الزمخشري:

«والمعنى: لم تخافنا عليه، ونحن نريد له الخير، ونحبه، ونشفق عليه، وما وجد منا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمتعة، وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله على رأيه، وعادته في حفظه منهم»[١].

قال ابن كثير:

«وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له»[٢].

١١/١٣٥- قد يتم التستر وراء الدين للتوصل للمآرب الشخصية.

قال العلمي:

«التستر وراء الدين للتوصل للمآرب الشخصية:

الكلمة الأولى في تلك الجلسة المشؤومة: جلسة المؤامرة القاسية على يوسف أبدوا هذا الرأي الوخيم، إصغاء لنداء الحسد والغيرة والأثرة، ومع الأسف لم يصغوا لنداء ضمائرهم وإلا لما افتكروا هذا الفكر الرديء.

ورغماً عن أن قلوبهم كانت تناجيهم بأن هذا الفكر سيئ، فقد تعاهدوا عليه، وتواثقوا، وصمموا على إبرازه من حيز القول لحيز العمل، -لولا أن قال قائل منهم بغير مقالتهم، ورأى رأيا غير رأيهم- وقد احتجوا على الإقدام على هذا العمل الخطير بدفع تشويش معيشتهم مع أبيهم وتفرغه لهم.

وما أشبه هذه المؤامرة بالمؤامرة التي صارت بين البرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي، وعبد الرحمن بن ملجم المرادي؛ لأجل

---

(١) «الكشاف» (٢/ ٢٤٤).

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٤٢).

قتل الأول لمعاوية بن أبي سفيان ، وقتل الثاني لعمرو بن العاص، وقتل الثالث لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهم-، تذاكروا واتفقوا على قتلهم دفعاً للفتنة، وإراحة المسلمين منهم – في زعمهم -؛ هذه شبهتهم التي هي أوهى من بيت العنكبوت، كما أن شبهة أخوة يوسف أضعف من لعاب الشمس، ومع ذلك فيوجد فرق كبير، أو فروق كبيرة، بين هذه الحادثة وتلك الحادثة الأخرى.

واعجباه ! لعمري إن هذا شيء لم يسمع بمثله في تاريخ الجرائم، هاجت فيهم عوامل الغيرة، ولا ذنب ليوسف سوى أنه وجد في طريقهم لأبيهم عرضاً، وهو لا يعلم، ولا يقصد، وما أقدر المنشيء لهذه الفكرة ؟ فقد تلطف وتعلل بهذه العلة الدينية؛ علة أن أباهم لم يزدهم حباً عن يوسف؛ لأنهم أنفع منه، بل لم يساو بينه وبينهم في الحب؛كما هو الواجب، عللوا بذلك -وهم يعلمون فساده- توصلاً للقضاء على أخيهم؛ كمنوا وراء أكمة الدين؛ ليصموا إنساناً من أهل الدين باسم الدين، يتسترون بذلك تغفيلاً للجاهلين، وفي الحقيقة إن الدافع لهم لهذا العمل إنما هو العداء والنزق، وثورة القوة ونشوتها»[١].

١١/١٣٦- الحسود لا يوثق به.

قال القشيري:

«كلام الحسود لا يسمع ووعده لا يقبل، وإن كانا في معرض النصح؛ فإنه يطعم الشهد ويسقي الصاب.

ويقال: العجب من قبول يعقوب -عليه السلام- ما أبدى بنوه من

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٩٢-٢٩٣).

حفظ يوسف- عليه السلام- وقد تفرس فيهم قلبه؛ فقال ليوسف: ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾.

ويقال: من قبل على محبوبه حديث أعدائه لقي ما لقي يعقوب في يوسف من بلائه»[1].

١١/١٣٧- تواطؤ ذوي الأهداف المشتركة على وسيلة ذلك.

قال ابن عاشور:

« وفي هذا القول الذي تواطأوا عليه عند أبيهم عبرة من تواطؤ أهل الغرض الواحد على التحيل لنصب الأحابيل لتحصيل غرض دنيء، وكيف ابتدؤوا بالاستفهام عن عدم أمنه إياهم على أخيهم، وإظهار أنهم نصحاء له، وحققوا ذلك بالجملة الإسمية وبحرف التوكيد، ثم أظهروا أنهم ما حرصوا إلا على فائدة أخيهم، وأنهم حافظون له، وأكدوا ذلك أيضا»[2].

١١/١٣٨- سياسة جس النبض سياسة قديمة؛ يستعملها الساسة، وأهل الدهاء والمكر؛ ممن يريدون الكيد له ، والمكر به.

قال العلمي:

«دخل أخوة يوسف العشرة على أبيهم في خيمته وقالوا له: ﴿ يَٰٓأَبَانَا ﴾ المحترم ﴿ مَالَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ ﴾ أخينا ﴿ يُوسُفَ ﴾ المحبوب؛ أي: لم تخافنا عليه ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾؟؛ أي: ونحن نريد له الخير، ونحبه، ونشفق عليه، وما وجدنا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمقة،- وهذه السياسة تدعى: سياسة جس النبض؛ إذ أرادوا بذلك لما عزموا على كيد

---

(١) « لطائف الإشارات» (٣/ ١٧١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٢٩).

يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم»[١].

١١/١٣٩- اللسان ليس دائماً ترجمان الجنان بل قد يكون ترجمان الأهواء:

قال العلمي:

«عهدنا باللسان أنه ترجمان الجنان، ولكننا نراه الآن ترجمان الأهواء؛ لأن هؤلاء الأخوة يتكلمون بما لا ينطوون عليه، وغني عن البيان: أن الوفاء بالوعد من مهمات الدين، ومن الأخلاق الاجتماعية الفاضلة، ومع هذا؛ فإننا نرى هؤلاء المتكلمين مع أبيهم لم يفوا بالوعد، ولم يقفوا عند حدود هذه العهد»[٢].

١١/١٤٠- التقرب برابطة الأخوة النسبيّة:

قال أبو السعود:

«﴿ يَـٰٓأَبَانَا ﴾ خاطبوه بذلك تحريكاً لسلسلة النسب بينه وبينهم، وتذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف -عليه السلام-؛ ليتسببوا بذلك إلى استنزاله -عليه السلام- عن رأيه في حفظه منهم لما أحس البغي؛ فكأنهم قالوا ﴿ مَالَكَ ﴾؛ أي: أي شيء لك ﴿ لَا تَأْمَنَّا ﴾؛ أي: لا تجعلنا أمناء﴿ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾: مريدون له الخير، ومشفقون عليه، ليس فينا ما يخل بالنصيحة أو المقة قط»[٣].

١١/١٤١- تدرج الشيطان وتخطيطه في الدخول على ابن آدم:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣١٥).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣١٩).

(٣) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٥٧).

«من مداخل الشيطان على ابن آدم أن يزين له الشر»؛ فيحسب أنه خير؛ فيقدم عليه غير متحرج، ثم يندم على فعله»[1].

«إن هذا العدو القديم لبني آدم، وهو يزاول كيده ومكره، قرر أن يخوض المعركة على المدى الطويل، وبمراحل منتظمة، يفضي بعضها إلى بعض، فهو يمارس مع الإنسان سياسة الخطوة خطوة.

قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨و٢٠٨، والأنعام: ١٤٢].

ودونك بيان هذه الخطوات:

١- النسيان:

إن الشيطان يقتحم النفس البشرية في لحظة غفلة وضعف.

قال -تعالى-: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

لكنه في هذه الخطوة يمر بها سريعا يمسها مسا، ويتلمسها، ليتمكن من مداخلها، فإن تذكرت وعادت خنس، ولكنه لن يتركها، ولذلك فليأخذ الإنسان حذره.

٢- الاستدراج:

قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران:١٥٥].

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص١٤).

إن الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ بالبقاء على الجبل في معركة أحد، عندما انجلت المعركة ونسوا قول النبي ﷺ استدرجهم الشيطان إلى ترك مواقعهم.

إن هذه الآية وهي تصف ما يدور في نفس الرماة، تصور في عمومها حالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة؛ فتفقد ثقتها في قوتها، ويضعف ارتباطها بالله، ويختل توازنها وتماسكها، فتصبح عرضة للوساوس، بسبب تخلخل صلتها بالله، وثقتها من عفو ورضاه، عندئذ يجد الشيطان طريقة إلى هذه النفس، فيقودها إلى الزلة بعد الزلة، وهي بعيدة عن الحمى الآمن، والركن الشديد.

٣- الوسوسة:

قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه:١١٥-١٢٠].

هكذا يعرض القرآن قصة آدم مع الشيطان، لقد نسي آدم، ولم يجد له عزماً؛ لقد تبع النسيان هبوط في العزيمة، وضعف الصلة بالله، فلمس الشيطان الموضع الحساس في نفس آدم، فبدأ يوسوس له، أو كما يقولون: يعزف له على الوتر الحساس.

ووسوسة الشيطان للإنسان تأخذ عدة أشكال، منها:

أ- التزيين:

ففي قصة آدم أخذ الشيطان يزين له المعصية:

﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه:١٢٠].

﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠].

إن العمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة، ولذلك فالإنسان يتطلع إلى الحياة الطويلة، والملك الطويل، ومن هاتين النافذتين دخل الشيطان إلى نفس الإنسان، فزين له المعصية.

وفي معركة بدر زين الشيطان للمشركين أعمالهم:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال:٤٧و٤٨].

والتزيين الشيطاني يحمل في ثناياه الوعد الكاذب والأمنيات اللامعة، لقد وعد آدم بالخلد والملك، ووعد المشركين بالنصر.

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء:١٢٠].

والتزيين الشيطاني مخدر؛ لأنه مغطى بستار من النصح والشفقة والحب، لقد أقسم لأدم وزوجه أنه ناصح أمين.

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف:٢١].

وهذه سنة شيطانية، يتبعها إبليس وجنده مع بني آدم على مر العصور.

فلقد مارسها مع عاد وثمود:

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٨].

ولعبها مع سبأ وملكتهم:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [النمل:٢٤].

وطبقها على قريش في غزوة بدر.

وهذه سيرته مع كل الأمم، وفي كل العصور:

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [النحل:٦٣].

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

وبذلك حدد إبليس ساحة المعركة: أنها الأرض، وحدد عدته: أنه التزين: تزيين القبيح، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه.

وهكذا لا يجترح الإنسان شراً، ولا يقترف معصية، إلا وعليه من الشيطان مسحة تزينه، وتجمله، وتظهره على غير حقيقته ورداءته؛ فليحذر الناس كلما وجدوا في أمر تزييناً، وكلما وجدوا في نفوسهم اشتهاءً، فقد يكون الشيطان هناك.

ومن هنا ندرك التوجيه النبوي الكريم في تربية الناحية الجنسية لدى المسلم، عندما يرى امرأة تعجبه.

عن أبي كبشة الأنماري قال:

كان رسول الله ﷺ في أصحابه، فدخل، ثم خرج وقد اغتسل؛ فقلنا: يا رسول الله: قد كان شيء؟.

قال: «أجل، مرت بي فلانة؛ فوقع في قلبي شهوة النساء؛ فأتيت بعض أزواجي فأصبتها؛ فكذلك فافعلوا؛ فإنه من أمثل أعمالكم إتيان الحلال»[١].

وذلك أن النساء حبائل الشيطان، فربما زين الشيطان للإنسان فعل المعصية، فلا بد من قمع الشيطان، ودحر كيده، وهذا مما جاءت به السنة صريحا؛ فقد قال ﷺ: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة أعجبته؛ فليأت أهله؛ فإن ذلك يرد ما في نفسه»[٢].

وكذلك كشفت السنة الحقيقية التي يحاول طمسها الشيطان، مزينا للإنسان فعل الحرام، حيث صرح على لسان بعض الشعراء الغاوين:

وإن قالوا حرام قل حرام ... ولكن اللذاذة في الحرام

قال ﷺ: «أيما رجل رأى امرأة تعجبه؛ فليقم إلى أهله؛ فإن معها مثل الذي معها»[٣].

ب- التخويف:

إن بعض النفوس لا يجتالها التزيين الشيطاني، فعندئذ يبدأ معها الشيطان نوعا جديدا، وهو التخويف، والتهويل، والتشويش.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١) بسند حسن.

قلنا: وسنده حسن.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠٣)، وأبو داود (٢١٥١)، وأحمد (٣/ ٣٣٠،٣٤١، ٣٤٨،٣٩٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ رقم ١٣٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٥٤٦و٥٥٤٧ -إحسان) وغيرهم كثير من طرق عن أبي الزبير عن جابر مرفوعا.

قلنا: وهذا سند حسن في الشواهد؛ أبو الزبير مدلس وقد عنعن في جميع الطريق؛ إلا رواية عند أحمد صرح فيها بالتحديث؛ لكن فيها ابن لهيعة وهو ضعيف.

والحديث له شاهد من حديث أبي كبشة الأنماري بنحوه: أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١) وغيره بسند حسن.

(٣) أخرجه الدارمي(٢/ ١٤٦)، وغيره، وهو ثابت بما قبله.

قال -تعالى-: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥].

وهكذا يتم الكشف عن علة الخوف والفزع والجزع...إنه الشيطان، يحاول أن يجعل أولياءه مصدر رعب، وأن يخلع عليهم القوة والهيبة.

إن الشيطان وهو يضخم أولياءه، ويلبسهم لباس الحول والطول، إنما يريد أن يقضي بهم غاياته وأغراضه؛ لأن الشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل، ويعربد ويبدو قوياً قادراً قاهراً جباراً.. وفتحت شعار الخوف والرهبة، يفعل أولياؤه في الأرض الأفاعيل التي تقر لها عين الشيطان؛ فيقلبون المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وينشرون الفساد في البلاد والعباد.

والشيطان ماكر خادع، يختفي وراء أوليائه، ومن هنا يكشف الله كيده، ويوقفه أمام المؤمنين المخلصين عارياً لا يستره ثوب من مكر أو خداع أو كيد.

٤- التسويف:

قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد:٢٥].

٥- الأمر بالمعصية:

قال -سبحانه-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [النور:٢١].

٦- الأزُّ:

قال -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم:٨٣].

إذا تمكن الشياطين من قلب الإنسان، فإنها تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إلى الرذيلة هائجين، فهي تحركهم بإلهاب، فإذا رأيتهم

حسبتهم ذئابا مفترسة، أو كلابا مسعورة، كلما انتهت من المعصية عادت إليها، فهي لم تشبع من الإثم والعدوان، وهذه بداية العذاب الأصغر والذي يفضي إلى العذاب الأكبر، ونهاية اللذة المنقطعة التي زينها الشيطان لأوليائه.

٧- الحيرة:

قال -تعالى-: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام:٧١].

هكذا تفضي خطوات الشيطان بالإنسان إلى الحيرة، والتأرجح، والقلق...إنه العذاب النفسي، الذي تعيشه البشرية اليوم، لابتعادها عن منهج الله، فاستهوتها الشياطين، وتركتها في فلاة مجدبة، بعدما تخيلت السراب ماء.

٨- التبرؤ والشماتة:

قال -تعالى-: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٢].

نرى الشيطان، هاتف الغواية، وحادي الضلالة، يومئذ يلبس مسوح الرهبان، ولكن بعد فوات الأوان.

إن الشيطان الذي وسوس في الصدور، وأغرى بالعصيان، وزين الكفر، وصدهم عن استماع الدعوة واتباع الداعي، هو الذي يطعن أولياءه هذه الطعنة، حيث لا يملكون ردها عليه.

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له، وليس له عليهم من سلطان، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم، فاستجابوا لدعوته الباطلة.

ثم يؤنبهم، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم ثم يخلي بهم، وينفض يده منهم، وهو الذي وعدهم ووسوس لهم، ومنَّاهم، وأملى لهم. أما الساعة؛ فما ويملبيهم، بل يعلن التبرؤ منهم خاتماً به خطبته الشيطانية القاصمة، التي يصبها على رؤوس أوليائه وأهل طاعته.

وهذا ديدن إبليس، ونهاية خطواته.

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦][(١)].

(١) «مقامع الشيطان»: سليم الهلالي (ص٩-١٨).

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

١٢/١٤٢- تقرير قاعدة لا حذر مع القدر.

قال الشيخ أبو بكر الجزائري:

«تقرير قاعدة لا حذر مع القدر؛ أي: لا حذر ينفع في رد المقدور، وينفع في مالم يقدر بإذن الله تعالى»[١].

١٢/١٤٣- جواز اللعب المباح الذي لا معصية فيه.

«المراد باللعب المباح، لا المحظور؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم: ﴿ وَيَلْعَبْ ﴾، ومنه قوله عليه السلام: «فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك»[٢].

قال ابن الجوزي:

«فإن قيل: كيف لم ينكر عليهم يعقوب ذكر اللعب؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنهم لم يكونوا حينئذ أنبياء؛ قاله أبو عمرو بن العلاء.

والثاني: أنهم عنوا مباح اللعب؛ قاله الماوردي»[٣].

قال ابن عطية:

«هذا ذخل في اللعب المباح؛ كاللعب بالخيل، والرمي، ونحوه، فلا وصم عليهم في ذلك، وليس باللعب الذي هو ضد الحق، وقرين اللهو.

وقيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف يقولون: نلعب وهم أنبياء؟.

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٧١٥).

(٣) «زاد المسير» (٤/ ١٨٦).

قال: لم يكونوا حينئذ أنبياء»[(١)].

قال الألوسي:

«﴿ وَيَلْعَبْ ﴾ بالاستباق والانتضال ونحوهما مما يتدرب به لقتال العدو، وليس المراد لعب لهو، وإلا لم يقرهم عليه يعقوب -عليه السلام-»[(٢)].

١٢/١٤٤- الأخوة ينبغي أن يحفظ بعضهم بعضاً[(٣)].

قال القرطبي:

«معنى نرتع: نتحارس، ونتحافظ، ويرعى بعضنا بعضاً ومنه قولهم: رعاك الله؛ أي: حفظك»[(٤)].

١٢/١٤٥- الغد يطلق على اليوم الذي يلي يومك، وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد.

قال البقاعي:

«وانتصب غداً على الظرف، وهو: ظرف مستقبل يطلق على اليوم الذي يلي يومك، وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد»[(٥)].

١٢/١٤٦- الرتع واللعب مما ينشرح لهما صدر الصبيان.

قال ابن عطية:

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢٤).

(٢) «روح المعاني» (١٢/ ١٩٣).

(٣) «مختصر معالم التنزيل» (١/ ٤٣٣).

(٤) « الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٣٩).

(٥) «نظم الدرر» (٦/ ٢٠١).

«وعللوا طلبه والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسف؛ لصباه من الرتوع، واللعب، والنشاط»[(١)].

.قال العلمي:

«فوائد اللعب:

١- يفهم من مضمون الآية الكريمة أن يوسف كان الأغلب ملازماً لجلوسه بجانب أبيه، وربما لا يبرح سحابة نهاره، فهو لا حركة ولا عمل؛ ولذلك فاللعب الرياضي يناسبه كثيراً، فإخوته إنما تكلموا مع أبيهم بتعقل وإظهار نصح، ولكن النية منهم لم تكن صالحة.

٢- من المقرر أن الأوفق في الأعمال الرياضية أن تكون في الساحات الفسيحة الطلقة، حيث الهواء نقي طهور، والماء رقراق، ولذلك رغبوا أن يخرج معهم إلى البر.

٣- قال علماء الصحة: إن الرياضة البدنية وعمل العضلات يدعوان إلى دوران الدم وسيره في سائر الأعضاء، فتتخلص الرئة والأجهزة الباطنة ومركز مجموع الأعصاب من كثرة الدم، وإن عدم الانتظام في سير الدم يوقع الجسم في الأمراض، وضعف أعضاء التحليل، وبذلك يجد الإنسان من نفسه ميلا إلى الضعف والكسل وعدم إرادة الحركة.

٤- إن الرياضة البدنية تهيء الأجهزة المختلفة لإفرازات الفضلات، عرقا أو بولا أو مع زفير الرئتين، وتقوى العضلات والمفاصل، وتحفظ الدورة الدموية في حالة حية، فللعب الجسماني مكانة كبرى وأهمية عظمى، فلذلك

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢٤)، وانظر: «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٤).

وحيث أن أباهم يعقوب يرتاح لكل ما يعود على ولده المحبوب بالفائدة انتحلوا لسفره معهم هذا السبب.

٥- كان العرب كثيري الرياضة والألعاب، دعاهم إلى ذلك شهامة النفوس وحب الفخار والذود عن الشرف والميل إلى الحرب والمبارزة والركض وركوب الخيل وسرعة إجابة المستغيث، وما إلى ذلك، وإنا لنرى في كلام أولاد يعقوب -عليه السلام- ما يشير إلى أن فيهم شيئاً من ذلك.

٦- هذا النوع من اللعب؛ أعني: الرياضة البدنية بأقسامها ليس بمعيب ولا مستهجن ولا مكروه، فقد كان ﷺ يتسابق مع عائشة -رضي الله عنها- فمرة غلبته، وذلك لما كانت خفيفة اللحم، ومرة ثانية غلبها، وهذا حينما صارت بدينة، وقد ورد أن النبي ﷺ تصارع مع غيره، فكان النبي ﷺ غالباً وأسلم المغلوب وكان مشركاً، وورد أن النبي ﷺ كان يسابق على ناقته العضباء، وكان إذا سوبق بها لم تسبق، فعظمت في صدور المتسابقين، ولكن مرة سبقت، فقال ﷺ: «ما رفع العباد من شيء إلا وضع الله منه»[1]... وقال ابن أبي مليكة: قد ندب الشرع إلى تعليم الصبيان الرمي والشقاق(الخصام والجلاد) والصراع وسائر ما يدربهم على حمل السلاح والضرب والكر والفر وتصلية أعضائهم وتعليمهم البطش والحمية والأنفة من العار والفرار.

إذا تقرر ذلك؛ فلا مانع عندنا أن يراد (باللعب) المذكور في هذه الآية أي قسم من أقسام الرياضة المذكورة، وليس يصعب على ذي الطبع السليم إسناد اللعب بالمعنى المذكور ليوسف، لا سيما إذ لاحظنا أنه لم يكن في ذلك

---

(١) صحيح- أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٨٧٢و٦٥٠١) من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-.

الوقت داخلا في عدد الرجال، بل في عداد الغلمان الذين لا بأس لهم بذلك»[١].

١٢/١٤٧- وجوب رعاية الأب لأبنائه.

قال أبو حيان:

«وفي لفظة: ﴿ أَرْسِلْهُ ﴾ دليل على أنه كان يمسكه، ويصحبه دائما»[٢].

١٢/١٤٨- الحفظ يستلزم الرعاية والنصح.

لقد ختم إخوة يوسف حوارهم مع أبيهم في الآية السابقة بقولهم: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾، وفي هذه الآية بقولهم: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾ مما يدل أن الحفظ يقتضي الرعاية والنصح، وإلا؛ فمن ادعى حفظ شيء ولم يرعه أو ينصح له؛ فقد ضيعه.

١٢/١٤٩- إبداء المصلحة للغير بتأمينه وتطمينه من أشد الأمور للتنازل عن الرأي.

قال القاسمي:

«قال الناصر: وكان أشغل الأمرين لقلبه خوفه عليه؛ لأنه مظنة هلاكه، وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالما إليه عما قليل؛ فأمر سهل؛ فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه»[٣].

١٢/١٥٠- الماء الرقراق والهواء الطلق النقي والأماكن الفسيحة من الأجواء الصالحة لممارسة الرياضة:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٢٢-٣٢٥) باختصار.

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٥).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠١).

١٢/١٥١- الأب يرتاح ويفرح لكل ما يعود على أولاده بالخير في دينهم أو أبدانهم.

١٢/١٥٢- الرحلات الترفيهية تقوي الشهية؛ لأنها سبب في الراحة النفسية.

قال ابن عاشور:

«﴿ يَرْتَعْ ﴾ قرأه نافع وأبو جعفر ويعقوب- بياء الغائب وكسر العين-، وقرأه ابن كثير- بنون المتكلم المشارك وكسر العين-، وهو على قراءتي هؤلاء الأربعة مضارع ارتعى وهو افتعال من الرعي للمبالغة فيه.

فهو حقيقه في أكل المواشي والبهائم، واستعير في كلامهم للأكل الكثير؛ لأن الناس إذا خرجوا إلى الرياض والأرياف للّعب والسبق تقوي شهوة الأكل فيهم؛ فيأكلون أكلاً ذريعاً؛ فلذلك شبه أكلهم بأكل الأنعام، وإنما ذكروا ذلك؛ لأنه يسر أباهم أن يكونوا فرحين.

وقرأه أبو عمرو وابن عامر- بنون وسكون العين- وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف- بياء الغائب وسكون العين- وهو على قراءتي هؤلاء الستة مضارع رتع إذا أقام في خصب وسعة من الطعام.

والتحقيق: أن هذا مستعار من رتعت الدّابة إذا أكلت في المرعى حتى شبعت؛ فمفاد المعنى على التأويلين واحد»[1].

١٢/١٥٣- العرب يعرفون الرياضة البدنية ويهتمون بها.

قال العلمي:

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٢٨-٢٢٩)، وانظر -غير مأمور- «روح المعاني» (١٢/ ١٩٣).

«...إن العرب كانوا يعرفون من أنواعها ما لا يقل عن معرفة أبناء اليوم لها، فقد عرفوا منها المنازعة، والجري، والقفز، ورمي الحديد، والصيد، وتسنم الجبال، وحمل الأثقال، والرمي إلى الهدف، ولعب الكرة، والسباحة، وأعمال الفلاحة والصناعة، وحركات الجمباز، والملاكزة، وسرعة المشي، والرمي عن القوي، والقفز إلى شيء ليتعلق به، والحجل على إحدى الرجلين، والمثاقبة بالسيف والرمح، وركوب الخيل والسباق عليها، والخفق باليدين، وركوب الجمال، والطفر، واللعب بالصولجان، واللعب بالطبطاب، والمصارعة، وإشالة الحجر»[١].

١٢/١٥٤- جواز اللعب للكبار كما للصغار بلا نكير ودون استهجان.

قال ابن عاشور:

«واللعب: فعل أو كلام لا يراد منه ما شأنه أن يراد بمثله نحو الجري والقفز والسبق والمراماة، نحو قول امرئ القيس:

فظل العذارى يرتمين بشحمها ....

يقصد منه الاستجمام ودفع السآمة.

وهو مباح في الشرائع كلها إذا لم يصر دأبا، فلا وجه لتساؤل صاحب «الكشاف» عن استجازة يعقوب -عليه السلام- لهم اللعب»[٢].

قال العلمي:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٢٣-٣٢٤).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٢٩).

«إن الكثير من الرجال الكبار يتبارون في العدو والقفز، وهكـذا الجنـود في الثكنات العسكرية، والأهالي في الحقول، والتلاميـذ في المـدارس بـلا نكـير ودون استهجان»[(١)].

١٢/١٥٥- الرياضة هامة بعد الأكل.

قال العلمي:

«...هذا وقد أخروا لفظ اللعب عن الرتع في قولهم لأبيهم؛ لأن أحسن وقت للرياضة البدنية في وقت الصباح بعد تناول لقيمات يسـيرة، وفي المسـاء وقت البرد بعد أن يكون قـد تنـاول طعـام الغـداء، وفي كـلام النـاس: تعـشّ وتمشّى ولو خطوتين»[(٢)].

١٢/١٥٦- تأكيد المقالة بأصناف التوكيد لرفع الإيهام أو الشك:

قال أبو السعود:

«... من أن يناله مكروه، أكدوا مقالتـهم بأصنـاف التـأكيد، مـن إيـراد الجملة إسمية، وتحليتها بأن واللام، وإسناد الحفظ إلى كلهم، وتقديمه لـه علـى الخبر احتيالاً في تحصيل مقصدهم»[(٣)].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٢٥).

(٢) المرجع السابق (١/ ٣٢٢).

(٣) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٥٧).

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

١٣/١٥٧- الحزن أمر فطري.

قال أبو بكر الجزائري:

«جواز الحزن، وأنه لا إثم فيه وفي الحديث: «وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[1]»[2].

١٣/١٥٨- لا ينبغي تلقين الخصم حجته.

قال السمرقندي:

«لا ينبغي أن يلقن الخصم بحجة؛ لأن أخوة يوسف كانوا لا يعلمون أن الذئب يأكل الناس إلى أن قال ذلك يعقوب، وإنما قال ذلك يعقوب؛ لأنه رأى في المنام أن ذئباً كان يعدو على يوسف، فأنجاه بنفسه»[3].

قال ابن كثير:

« فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه»[4].

قال أبو حيان:

«كأن يعقوب بقوله: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ لقنهم ما يقولون من العذر؛ إذا جاؤوا وليس معهم يوسف؛ فلقنوا ذلك، وجعلوه عدة للجواب»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٢٩٨).

(٣) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٣).

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٤٢).

(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٦).

١٣/١٥٩- البلاء موكل بالمنطق.

قال القشيري:

«يحزنني أن تذهبوا به؛ لأني لا أصبر عن رؤيته، ولا أطيق على فرقته...هذا إذا كان الحال سلامته، فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب؟!.

ويقال: لما جرى على لسان يعقوب عليه السلام من حديث الذئب صار كالتلقين لهم، ولو لم يسمعوه ما اهتدوا إلى الذئب»[(١)].

قال الزمخشري:

«اعتذر إليهم بشيئين:

أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة.

والثاني: خوفه من عدوه الذئب إذا أغفلوا عنه برعيهم ولعبهم، وأقل به اهتمامهم، ولم تصدق بحفظه عنايتهم.

وقيل: رأى في النوم أن الذئب قد شدّ على يوسف؛ فكان يحذره؛ فمن ثم قال ذلك؛ فلقنهم العلة، وفي أمثالهم يقال: البلاء موكل بالنطق»[(٢)].

١٣/١٦٠- شدة الشغف بالشيء تجعلك خائفاً عليه ضنيناً به.

قال السعدي: «مجرد ذهابكم يحزنني ويشق علي؛ لأنني لا أقدر على فراقه ولو مدة يسيرة؛ فهذا مانع من إرساله»[(٣)].

---

(١) «لطائف الإشارات» (٣/ ١٧٢).

(٢) «الكشاف» (٢/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٠)، وانظر-لزاماً-: «الكشاف» (٢/ ٢٤٤)، و«محاسن التأويل» (٦/ ٢٠١).

١٣/١٦١- إن أرضهم كانت كثيرة الذئاب[1].

١٣/١٦٢-الذئاب تجترئ على الضعفاء الذين يظهرون الجزع والخوف.

قال ابن عاشور:

«أظهر لهم سبب امتناعه من خروج يوسف -عليه السلام- معهم إلى الريف بأنه يحزنه لبعده عنه أياماً، وبأنه يخشى عليه الذئاب؛ إذ كان يوسف -عليه السلام- حينئذ غلاماً، وكان قد ربي في دعة؛ فلم يكن مرناً بمقاومة الوحوش، والذئاب تجترىء على الذي تحس منه ضعفاً في دفاعها.

قال الربيع بن ضبع الفزاري يشكو ضعف الشيخوخة:

والذئب أخشاه إن مررت به
وحدي وأخشى الرياح والمطرا

وقال الفرزدق يذكر ذئباً:

فقلت لما تكشر ضاحكاً
وقائم سيفي في يدي بمكان

تعش فإن عاهدتني لا تخونني
نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

فذئاب بادية الشام كانت أشد خبثاً من بقية الذئاب، ولعلها كانت كذئاب بلاد الروس .

والعرب يقولون: إن الذئب إذا حورب ودافع عن نفسه حتى عض الإنسان وأسال دمه أنه يضري حين يرى الدم؛ فيستأسد على الإنسان .

---

(١) انظر -غير مأمور-: «فتح القدير» (٣/ ١٠)، و«نظم الدرر» (٤/ ١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ١٨٨).

قال:

فكنــــت كذئــــب الســـــوء حـــين رأى دمـــاً
بصاحبــــه يومـــاً أحـــال علـــى الـــدم

وقد يتجمع السرب من الذئاب؛ فتكون أشد خطراً على الواحد من الناس والصغير»[١].

١٣/١٦٣- الذئب حيوان مفترس قادر على أن يأكل الناس.

قال ابن عطية الأندلسي:

«إنما خاف يعقوب الذئب دون سواه وخصصه؛ لأنه كان الحيوان العادي المنبث في القطر، وروي: أن يعقوب كان رأى في منامه ذئباً يشتد على يوسف»[٢].

١٣/١٦٤- الإقبال على اللعب والمصالح وما يهم قد يوقع في الغفلة[٣].

قال البقاعي:

«غريقون في الغفلة؛ لإقبالكم على ما يهمكم من مصالح الرعي»[٤].

قلنا: ولقد أدرك أعداء الإسلام هذه الحقيقة فأغرقوا المسلمين في الألعاب الملهية المتلاحقة؛ فلا يكاد المرء يفيق أو يقصد سواء الطريق.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٣٠).

(٢) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢٤)، وانظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٤٦).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠١).

(٤) «نظم الدرر» (٤/ ١٥).

ومما يؤكد هذا ما جاء في البروتوكول الثالث عشر من «بروتوكولات حكماء صهيون»:

«... ولكي تبقى الجماهير في ضلال، لا تدري ما وراءها وما أمامها، ولا ما يراد بها؛ فإننا سنعمل على زيادة صرف أذهانها؛ بإنشاء وسائل المباهج، والمسليات، والألعاب الفكهية، وضروب أشكال الرياضة، واللهو، وما به الغذاء لملذاتها وشهواتها، والإكثار من القصور المزوقة، والمباني المزركشة، ثم نجعل الصحف تدعو إلى مباريات فنية ورياضية».

ومن أبرز هذه المباريات الرياضية (كرة القدم) التي أصبحت في هذا الزمان وسيلة لهدر طاقت الأمة، وتبديد أموالها، وإضاعة أوقاتها، ومعولاً يهدم سياج وحدتها، ودونك جملة من أضرارها[1].

«المتأمل في مباريات (كرة القدم) في أنحاء العالم يجد فيها مجموعة من السلبيات والظواهر السيئة، يمكن إجمالها بالآتي:

أولاً: إن كرة القدم أصبحت وسيلة لتفريق الأمة، وإشاعة العداوة والبغضاء بين أفرادها؛ حيث أوجدت التعصب المقيت للفرق الرياضية المختلفة، هذا يشجع فريقاً، وذاك يشجع فريقاً آخر، بل إن أهل البيت الواحد ينقسمون على أنفسهم، هذا يتبع فريقاً، وذاك يتبع فريقاً آخر، ولم يقف الأمر عند حد التشجيع، بل تعداه إلى سخرية أتباع الفريق المنتصر من أتباع المنهزمين، وفي نهاية المطاف يكون هناك الشجار والعراك الذي يدور بين مشجعي الفريقين، وسقوط الجرحى والقتلى بالمئات، من ضحايا كرة القدم!!

---

(١) مأخوذة من رسالة الأخ الفاضل مشهور حسن: «كرة القدم بين المصالح والمفاسد» (ص٢٠ وما بعدها).

ثانياً: الأصل في حض الإسلام على الرياضة، هو أن يباشرها المسلم بنفسه أو مع غيره؛ لتحصل له القوة المطلوبة، أما كرة القدم الآن؛ فإن أهم عنصر مقصود فيها هم المشاهدون المشجعون، الذين يصل عددهم إلى مئات الألوف وأكثر، ولا يستفيدون من كرة القدم شيئاً.

فقل لي بربك، ماذا استفادت هذه الأعداد من حضور المباريات؟! وكم خسرت مجتمعاتهم من هدر للأوقات والطاقات؟! فضلاً عن الشرور التي تصيب بعضهم، وقد تصل إلى الممات، إثر نوبات القلب أو الانتحارات!

أما ما يعتاده كثير من المشاهدين من بذاءة الألسن ووقاحة العبارات، والتخاطب بالفحش، ورديء الكلام، وقذف ولعن لبعضهم وللحكام؛ فهذا مما يعد من الحرام.

والشواهد على ما ذكرت من المباريات الشهيرة لا تعد ولا تحصى.

وهذا ليس أمراً خاصاً بالمشاهدين، وإنما قد يتعداه إلى اللاعبين.

ثالثاً: إن في اللعب بالكرة ضرراً على اللاعبين في بعض الأحايين، فربما سقط أحدهم فتخلعت أعضاؤه، وربما انكسرت رجل أحدهم، أو يده، أو بعض أضلاعه، وربما حصل فيه شجاج في وجهه، أو رأسه، وربما سقط أحدهم فغشي عليه ساعة أو أكثر أو أقل، بل ربما آل الأمر ببعضهم إلى الهلاك، كما قد ذكر لنا عن غير واحد من اللاعبين بها، وما كان هذا شأنه، فاللعب به لا يجوز.

وربما تعاطى بعضهم (المخدرات) أو(المنشطات) ليحسن أداء لعبه، فهذا قد شاع وذاع عن بعض الكفار في الآونة الأخيرة، ممن هو علم من أعلام هذه اللعبة، وكاد بعض المهووسين أن (يُتَيَّم) به، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رابعاً: إن في لعب (كرة القدم) صد للمتفرجين، الذين تصل أعدادهم إلى مئات الألوف، عن ذكر الله، وعن الصلاة ، وهذا أمر معروف عند الناس عامتهم وخاصتهم. وتعاطي ما يصد عن ذكر الله وعن الصلاة حرام.

فكم سمعنا من أناس ممن يتابعون مباريات كأس العالم، أنهم يستيقظون في النصف الأخير من الليل؛ ليشاهدوا المباريات على شاشة (التلفاز)، وتفوتهم صلاة الفجر؟! وكم من المصلين فاتتهم الصلاة في الجماعات، بسبب جلوسهم أمام (الشاشات)؟! والأدهى من ذلك كله ما يقع فيه أولئك النفر ممن يسافرون من قطر إلى قطر، أو يتنقلون من مدينة إلى أخرى، لحضور (مباراة)، وقد تكون في وقت (صلاة الجمعة)، وكنت قد نبهت على جرم هؤلاء في كتابي: «القول المبين في أخطاء المصلين» تحت عنوان: «تخلف آلاف من مشاهدي كرة القدم عن صلاة الجمعة» فقلت ما نصه: «جمهور الكرة الذين يصل عددهم إلى مئات الألوف، يجتمعون في وقت صلاة الجمعة في المدرجات، ويناديهم منادي السماء، ولكن! أنى لهم أن يستجيبوا له، وقد تعطلت عقولهم، وماتت أحاسيسهم، مقابل ماذا؟! مقابل التعب المقيت للفرق الرياضية المختلفة» ثم أسهبت في الكلام على محاذير (كرة القدم)، ثم أوردت أحاديث في الترهيب من ترك صلاة الجمعة، مثل:

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «من ترك الجمعة ثلاث جمع متواليات؛ فقد نبذ الإسلام وراء ظهره»[1].

---

(١) أخرجه أبو يعلى موقوفاً بإسناد صحيح؛ كما في «التلخيص الحبير» (٢/ ٥٣) وغيره.

وعن أبي الجعد الضمري - وكانت له صحبة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «من ترك ثلاث جمع متهاوناً بها؛ طبع الله على قلبه»[(١)].

ومعنى (تهاوناً بها)؛ أي: لقلة الاهتمام بأمرها؛ لأن الاستخفاف بفرائض الله -تعالى- كفر، ونصب على أنه مفعول لأجله أو حال؛ أي: متهاوناً.

فلعل تاركي صلاة الجمعة -من هؤلاء وغيرهم- ينتبهون، ويفيقون من غيهم الذي هم فيه سادرون، وإلا؛ فمصيرهم الطبع على قلوبهم، فلا تغشاها الألطاف، ولا رحمة الله -تعالى-، بل تبقى دنسة وسخة، مستعملة في الآثام والقبائح- والعياذ بالله- إذ الطبع: الختم، فتكون قلوبهم ذات جفاء، لا يصل إليها شي من الخير.

وظاهر الحديث والأثر السابقين: أن من ترك ثلاث جمع تهاوناً- أي بلا عذر- يطبع على قلبه، ويكون من الغافلين والمنافقين، لو كان الترك متفرقاً، وبه قال بعضهم، حتى لو ترك كل سنة جمعة، لطبع على قلبه بعد الثالثة.

ويحتمل أن يكون المراد ثلاث جمع متواليات. ويؤيده أثره ابن عباس السابق.

واعتبار الثلاث إمهال من الله- تعالى- للعبد، ورحمة به؛ لعله يتوب من ذنبه، ويثوب إلى رشده، ويؤدي الجمعة، ولا يتركها بلا عذر.

وأفاد الحديث: أن من وجبت عليه الجمعة، وتركها لغير عذر؛ فهو آثم إثماً كبيراً، يستحق مرتكبه العذاب الأليم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥٠٠)، وأبو داود (١٠٥٢)، والنسائي (٣/ ٨٨)، وأحمد (٣/ ٤٢٤،٤٢٥)، وابن ماجه (١١٢٥) وغيرهم، وهو حديث صحيح.

وذهب بعض أهل العلم- مالك وأحمد والشافعي في الجديد- أن من لزمتهم الجمعة، ولا عذر لهم في التخلف عنها- كمشاهدي «الكرة» ولاعبيها وقت الجمعة هذه الأيام- فلا تصح لهم صلاة الظهر قبل صلاة الإمام، ويلزمهم السعي إن ظنوا أنهم يدركونها؛ لأنها المفروضة عليهم، فإن أدركوها مع الإمام صلوها، وإن فاتتهم فعليهم الظهر، وإن ظنوا أنهم لا يدركونها، انتظروا حتى يتيقنوا أن الإمام قد صلى ثم يصلون الظهر(١).

ودليل ذلك ما قاله عبد الله بن مسعود: «من فاتته الركعتان، فليصل أربعا»(٢).

ويطلب ممن وجبت عليه الجمعة- وتركها لغير عذر- أن يصلي الظهر، ويتصدق بدينار، فإن لم يجد فبنصف دينار.

عن سمرة بن جندب: أن النبي ﷺ قال: «من ترك الجمعة متعمداً، فليتصدق بدينار، فإن لم يجد فبنصف دينار»(٣).

قال بعضهم الأمر هنا للاستحباب؛ لأن الجمعة لها بدل، وهو الظهر.

والظاهر: أن الأمر هنا للوجوب؛ كما هو الأصل فيه، وكون الجمعة لها بدل، لا يدل عل صرفه عن الوجوب؛ لاحتمال أن يكون وجوب الكفارة- مع صلاة الظهر- عقاباً له عن تخلفه عن الجمعة بلا عذر.

---

(١) «الدين الخالص» (٤/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ١٢٦)، والطبراني في «الكبير»، وهو حسن؛ كما في «المجمع» (٢/ ١٩٢)، وله شواهد.

(٣) أخرجه أبو داود في«السنن» رقم (١٠٥٣)، والنسائي في «المجتبى» (٣/ ٨٩)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٨و١٤)، وابن ماجه في «السنن» رقم(١١٢٨)، وهو حسن بمجموع طرقه.

وما أجدر هؤلاء المضيعين لهذه الشعيرة من شعائر الله بالضرب والزجر، ورحم الله ابن الإخوة؛ فإنه قال في حق تارك صلاة الجمعة: «فمن شغل عنها بتثمير مكسبه، أو لها عنها بالإقبال على لهوه ولعبه، فحد بالآلة العُمرية، التي تضع من قدره، وتذيقه وبال أمره، ولا يمنعك من ذي شيبة شيبته، ولا من ذي هيئة هيئته، فإنما هلك الذين من قبلكم إنما كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»[١].

خامساً: إن مسابقات كرة القدم أصبحت معاول هادمة، استخدمها أعداء الأمة الإسلامية، وشجعوا عليها للقضاء على معاني العزة والكرامة في الأمة، حيث بددت الأمة- لأجل الرياضات المختلفة ومنها كرة القدم- أموالاً طائلة، وأضاعت أوقاتاً طويلة[٢]، لو استغلتها الأمة في الأعمال النافعة، والصناعات المفيدة؛ لأصبحت الأمة في مقام الدول المتقدمة في المجالات المختلفة.

بالإضافة إلى أنها شغلت الأمة الإسلامية عن التفكير في جهاد أعدائها، وقضاياها المصيرية الكبرى.

والناظر فيما تنشر المجلات والجرائد يجد أرقاماً مذهلة، من أجور تدفع لقاء انتقال لاعب من فريق إلى آخر، قد تصل إلى عشرات الملايين، فضلاً عن

---

(١) «معالم القربة» (٢٦٥).

(٢) ينبغي أن تحسب هذه الأوقات وفق العلاقة التالية: (الوقت الضائع= مدة المباراة X عدد المشاهدين)، فتظهر لك الساعات المهدورة من وقت الأمة، وهذه الساعات- في حياة المسلمين- هي ساعات تأخرهم، وتقهقرهم، وتأخر نصر الله عنهم، إذا هو قريب منهم، ولكنهم يبعدون عنه بمقدار ما يمكنهم القرب منه في هذه المدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الأموال التي تنفق على المدربين، وعلى الملاعب والدعاية، وكذا ما ينفقه كثير من المتفرجين.

سادسا: في لعب (كرة القدم) كشف للعورات، إذ فيها كشف الأفخاذ، ونظر الناس إليها، ونظر بعضهم فخذ بعض، وهذا لا يجوز؛ لأن الفخذ من العورة، وستر العورة واجب، إلا من الزوجات والإماء؛ لقول النبي ﷺ: «احفظ عورتك؛ إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك»(١).

والأدلة على أن الفخذ من العورة كثيرة، منها:

ما أخرجه مالك وأحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن جرهد الأسلمي -رضي الله عنه-: أن النبي ﷺ مر به وهو كاشف عن فخذه، فقال النبي ﷺ: «غط فخذك؛ فإنها من العورة»(٢).

وما أخرجه أبو داود وغيره عن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكشف فخذك، ولا تنظر إلى فخذ حي ولا ميت»(٣).

إذا علم هذا، فالنظر إلى عورة الآخرين حرام، وهذا هو السائد في مباريات هذه الأيام، إذ لا توجد مباراة إلا وتظهر فيها الفخذ، ولا تحدث عن العورات في (الرياضات النسائية)!! ومنها (كرة القدم)، وقد تظهر

---

(١) الحديث حسن، انظر «الإرواء» رقم (١٨١٠).

(٢) صحيح لغيره- أخرجه البخاري في «صحيحه» (١/ ٤٧٨) تعليقا، ووصله مالك في «الموطأ» (٢/ ١٨٣/ ٢١٢٢- رواية أبي مصعب الزهري)، و (٦٠٨/ ١٤٩٠- رواية سويد بن سعيد)، وأحمد في «المسند» (٣/ ٤٧٨)، وأبو داود في «السنن» رقم (٤٠١٤)، والترمذي في «الجامع» رقم (٢٧٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٨٠)، وابن حبان في «الصحيح» (١٧١٠- الإحسان).

(٣) أخرجه أبو داود في «السنن» رقم(٣١٤٠)و (٤٠١٥)، أحمد في «المسند» (١/ ١٤٦) والحديث صحيح.

(الحسناوات) على (شاشات التلفاز) كدعاية للجهة التي تغطي نفقات (البث) أو غيرها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

سابعاً: ثم إن مسابقات كرة القـدم، أصبحـت وسـيلة لقلـب الموازيـن؛ حيث أصبح البطل في هذا الزمان هو لاعـب الكـرة، لا المجـاهد المدافـع عـن كرامة الأمة وعزتها، بالإضافة إلى بذل الأموال الضخمة للاعبـين، والإسـلام لا يقر قلب الموازن، بل يعرف لكل إنسان قيمته، بلا إفراط ولا تفريط.

ومن العجب أن اللعب بـ (الكرة) قد جعل في زماننا من الفنون!! الـتي تدرس في المدارس، ويعتنى بتعلمه وتعليمه أعظـم ممـا يعتنـى بتعلـم القـرآن، والعلم النافع، وتعليمهما.

وهذا دليل على اشتداد غربة الإسلام في هذا الزمان، ونقص العلم فيـه وظهور الجهل بما بعث الله بـه رسـوله محمـداً ﷺ، حتـى عـاد المعـروف عنـد الأكثرين منكراً، والمنكـر معروفـاً، والسـنة بدعـة، والبدعـة سـنة، وهـذا مـن مصداق ما أخرجه الشيخان عن أنـس مرفوعـاً: «إن مـن أشـراط السـاعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل»[١].

واللعب بالكرة والعناية بها- على النحو الذي نراه- من ظـهور الجـهل بلا شك عند من عقل عن الله ورسوله ﷺ، ومـا أشـبه المفتونـين المهووسـين بـالكرة بـالذين قـال الله -تعـالى- فيـهم: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأنعام: ٧٠].

---

(١) أخرجـه البخـاري في «الصحيـح» رقـم(٨٠، ٨١، ٥٢٣١، ٥٥٧٧، ٧٨٠٨)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٦٧١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن العلوم المفضولة إذا زاحمت العلوم الفاضلة، وأضعفتها؛ فإنها تحرم».

فإذا كان الأمر هكذا في العلوم المفضولة مع العلوم الفاضلة، فكيف باللعب بالكرة إذا زاحم العلوم الفاضلة وأضعفها، كما هو الواقع في زماننا، مع أن اللعب بالكرة ليس بعلم؛ إنما هو لهو ومرح!!

ثامناً: دخول المراهنات وانتشارها على مباريات كرة القدم في كل أقطار أوروبا، وكل قطر فيه فرق، يلعب بعضها مع البعض الآخر، أسبوعياً أو شهرياً حسب الاتفاق.

وهكذا تكون المقامرة قد دخلت كرة القدم، وجعلتها رياضة حراماً، بعد أن كانت جائزة مستحبة.

وعلق علماء الاجتماع الغربيون على ظاهرة مراهنات كرة القدم، وما تؤدي إليه من أحداث شغب وعنف في الملاعب، بأنها تعبير عن فراغ حاد، يعيشه إنسان القرن العشرين، بعد أن طغت المادة عليه، وجعلت قيمة الكسب هي القيمة الأساسية في حياته، يجب أن تتحقق بأي ثمن، وأضافوا بأن المبدأ الأخلاقي الأساسي الذي بنيت عليه الرياضة- وهو تشجيع الفائز وتمني الحظ السعيد للمهزوم في مباراة قادمة- قد انتهى أساساً من القاموس الرياضي؛ ليحل محله تبادل الشتائم، وقذف الطوب والكراسي، وضرب حكام المباريات وحاملي الرايات.

أما خبراء التربية الرياضية البريطانيون؛ فقد طالبوا - أكثر من مرة- بضرورة العدول عن نظام المراهنات، وإلغائه، حتى يمكن القضاء على أحداث الشغب، التي أصبحت سمة ظاهرة في الملاعب البريطانية، ولم تعد مباراة واحدة تمرُّ دون مصاب»أ.هـ.

١٣/١٦٥- حسن ظن الأب بأبنائه.

قال القاسمي:

«خوفه عليه من عدوه الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم، أو قلّ به اهتمامهم، ولم تصدق بحفظه عنايتهم»[١].

١٣/١٦٦- من استرعاه الله رعية ينبغي أن يحافظ عليها.

قال القرطبي:

«أي: في حفظنا أغنامنا؛ أي: إذا كُنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا؛ فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا»[٢].

على الراعي أن يكون قادراً على دفع الذئب عن الغنم وهذا أقل ما يجب عليه؛ وكذلك على الحاكم المسلم أن يحافظ على رعيته؛ كما يحافظ الراعي على غنمه وأشد.

كتب عمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه- لما ولي الخلافة، إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن، -رحمه الله-:

«اعلم يا أمير المؤمنين: أن الله جعل العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف.

والإمام العدل، يا أمير المؤمنين؛ كالراعي الشفيق على إبله، والرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقَرّ.

والإمام العدل، يا أمير المؤمنين؛ كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٤١).

صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدّخر لهم بعد مماته.

والإمام العدل، يا أمير المؤمنين؛ كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم.

والإمام العدل، يا أمير المؤمنين؛ كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده.

والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم[(١)].

١٣/١٦٧- العالم يعرف الجاهل؛ لأنه كان قبل علمه جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم إذ لم يكن قبل جهله عالماً.

قال العلمي:

«ضلل أبناء يعقوب العشرة أباهم؛ لأنهم لم يكونوا يعلمون علمه.

ولكن أباهم قال لهم: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ كيف لا؟ وقد تأكد صحة منامَيْ ولده، وعلم فيه من الله ما علم من اجتبائه وتعليمه وإتمام نعمته عليه، وشيء من هذا لم يصل مضمونه عند إخوته إلى درجة العلم.

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني
أو كنت أجهل ما تقول عذرتكا

---

(١) «العقد الفريد» (١/ ٣٤).

لكــــن جــــهلت مقــــالتي فعذلتــــني

وعلمــــت أنــــك جــــاهل فعذرتكــــا»[١]

١٣/١٦٨- شأن الولد البار أن يتقي ما يحزن أباه.

قال ابن عاشور:

«وإنما ذكر يعقوب - عليه السلام- أن ذهابهم به غداً يحدث به حزناً مستقبلاً؛ ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به؛ لأن شأن البار أن يتقي ما يحزن أباه»[٢].

١٣/١٦٩- الخوف الفطري يطرأ على الإنسان قسراً من حيث لا يشعر.

قال العلمي:

«إن الخوف من شيء ما هو أمر طبيعي، يطرأ على الإنسان قسراً، مع اعتقاده بعدم وقوع مضمونه، وعدم حصول ما يخافه.

انظر إلى أم موسى -عليه السلام-؛ فقد خافت على ولدها موسى بعد أن ألقته في اليمِّ، حسبما نفهمه من قوله -تعالى-: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص:١٠] كان هذا منها بعد أن طمأنها الله -تعالى- وقال لها: ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧]، وقال -تعالى-: ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [طه:٤٠].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٧٤).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٣١).

فنرى أن أم موسى بعدما نهاها الله عن الخوف والحزن، وطمأنها بكلامه، خافت وحزنت؛ وذلك لأن الخوف والحزن أمر طبيعي يطرأ على الإنسان قسراً، من حيث لا يشعر، ولا يكون له فيه اختيار.

وقال -تعالى-: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد:١٣]؛ فالملائكة عباد مكرمون: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ [التحريم:٦]، وهم معصومون، ومن العذاب قطعاً آمنون؛ لدخولهم دخولاً أولياً في قوله -تعالى-: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾ [الأنعام:٨٢] ومع كل هذا فهم ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠].

وقال -تعالى- لموسى -عليه السلام-: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ ﴾ [النمل:١٠]؛ فموسى بعد أن رأى عصاه قد قلبت حية خاف وهو بحضرة الله، وإنما ألقاها بأمر الله؛ فهرب ممتلئاً ذعراً؛ فهذا الخوف أمر طبيعي يعتري المخلوق مع اعتقاده بعدم تأثير ما يخافه؛ فالاعتقاد شيء، وطبع المخلوق شيء آخر.

وقال لموسى: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٣٥ ﴾ [القصص:٣٥] ، ثم قال عن السحرة لما قالوا: ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ -إلى قوله-: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ ﴾ [طه:٦٥-٦٨]؛ فهذا رسول الله وكليمه، كان قد أخبره الله – عز

وجل- بأن فرعون وملأه لا يصلون إليهما، وأنه هو الغالب، وبعد ذلك فهو قد أوجس في نفسه خيفة.

وقال -تعالى- خطاباً للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل:١٢٧]، وقال: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يس:٧٦]، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨] ثم سمعناه تعالى يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام:٣٣] ونهاه عن ذلك، فما هذا إلا لكون الحزن أمراً طبيعياً؟ وكذلك الخوف في قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٣]»[1].

١٣/١٧٠-بقاء الثقة بين المربي والمُربى سبيل إلى الإصلاح.

قال أحمد نوفل:

«اعتذر الوالد عن دعوة أبنائه لأخيهم بعذرين: الحزن على الولد وذهابه من عنده، ثم اعتذر ثانياً بخوف أن يأكله الذئب في ساعة غفلة منهم، وهو لا يتهم إخلاصهم، وتأمل الحكمة وأسلوب التربية العظيم؛ فإنه ليس من الحكمة أن أهدم جسر الثقة بيني وبين من أربي حتى يهدمه هو؛ فيعقوب يعلم من أبنائه يقيناً ما هم عليه من سوء طوية؛ لكنه لا يفاتحهم بذلك حرصاً على بقاء خيط الحياء في نفوس الأبناء موصولاً؛ فإذا انقطع تجرأوا على المعصية أكثر.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٣٥-٣٣٦).

فلينتبه الآباء والأمهات والمدرسون إلى هــذه النقطـة: أن انقطـاع حبـل الحياء بين الكبير والصغير يجعل الحياة لا تطاق»[١].

١٣/١٧١- المضطر معذور؛ لأن فعله أهون الشرين، وأخف الضررين:

قال أحمد نوفل:

«يظهر من مدافعتـهم لكـل مـا يعطـل ذهابـهم بـالولد حرصـهم علـى اصطحابه لحاجة في نفوسهم، وما كـانت تغيـب هـذه النفسـية عـن يعقـوب، ولكنه ليس دائماً نفعل ما نحب ونختار.

بل كثيراً ما تحمل أعمالنا صفة الاضطرار، ثم إنــه خشـي إن لم يرسـله معهم أن تزداد النار اشتعالاً والعداوة عداوة؛ فاختار أهون الشـرين، وأخـف الضررين، أن يرسله مع احتمال الشر أو يبقيه مع تأكد زيادة الشر، ولا نلــوم من يعمل العمل قبل التجربة؛ فإنه لا ذكاء بعد وقوع التجربة»[٢].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٠٩).

(٢) المرجع السابق (ص٣١١).

﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾.

١٤/١٧٢- العدو لا ينال بغيته إلا في لحظة غفلة.

قال الشيخ أبو بكر الجزائري:

«أكل الذئب للإنسان إن أصاب منه غفلة»[١].

١٤/١٧٣- الكثرة والاتحاد من أسباب القوة.

قال الزمخشري:

«إن العصبة جماعة قوية بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب»[٢].

قال أبو حيان:

«وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب»[٣].

١٤/١٧٤- من مكَّن لعدوه استحق الهلاك والخسران.

قال أبو حيان:

«إنهم إذاً لقوم خاسرون؛ أي: هالكون ضعفاً، وخوراً، وعجزاً، أو مستحقون أن يهلكوا؛ لأنهم لا غنى عندهم، ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون بأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار، وأن يقال: خسرهم الله ودمرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون، وقيل: إن لم نقدر على حفظ بعضنا؛ فقد هلكت مواشينا إذاً وخسرنا»[٤].

قال القاسمي:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٩٨).

(٢) «الكشاف» (٢/ ١٤٥).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٧).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٤٧).

«أي: هالكون ضعفاً و جبناً، أو عاجزون أو مستحقون لأن يُدعى عليهم بالخسارة والدمار»[١].

١٤/١٧٥- «من يضيع أخاه، فهو لما سواه من الأموال أشد تضييعاً»[٢].

١٤/١٧٦- التشاغل والإهمال من سبل الاحتيال.

قال الرازي: «فإن قيل : كيف اعتذر إليهم يعقوب -عليه السلام- بعذرين:

أحدهما: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾ [يوسف:١٣] بأنه كان لا يصبر عنه ساعة واحدة.

والثاني: خوفه عليه من الذئب.

فأجابوه عن أحد العذرين دون الآخر.

قلنا: حبه إياه وإيثاره له وعدم صبره على مفارقته هو الذي كان يغيظهم ويؤلمهم؛ فأضربوا عنه صفحاً، ولم يجيبوا عنه»[٣].

قال العلمي:

«لنا على جوابهم لأبيهم ملاحظتين:

فالملاحظة الأولى: أن قولهم ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾...الخ إنما هو جواب عن الشق الثاني من المعذرة التي اعتذر بها أبوهم لهم، وهو قوله: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾، وأما الشق الأول من المعذرة وهو قوله: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾؛ فقد ثقل على طبعهم سماعة، فضاقوا به ذرعاً، ومروا عنه

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠١).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ١٦).

(٣) «مسائل الرازي وأجوبتها» (ص١٤٨).

مرور الكرام، وجعلوه دبر آذانهم. ولماذا؟ لأنه سبب حسدهم له، وهو الذي يغيظهم، فأعاروه آذاناً صماء ولم يعبأوا به، بل سكتوا عنه؛ كأنهم لم يسمعوه، وهذا السكوت يسمى بلسان رجال الحكومات اليوم «التهرب السياسي».

والملاحظة الثانية: أبوهم إنما قال ﴿ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴾، وفي هذه الحال يمكن «للذئب» أن يأكله ولو كانوا مئة عصبة وعصبة، إذ ربما الجيش الغفير بتمامه في حال الغفلة لا يدفع عادية الهاجمين، كما أنه بالعكس في حال اليقظة والحيطة ربما إنسان واحد يقدر أن يدفع ذلك، هكذا أراد أبوهم، وهكذا يقتضي المنطق والعقل، ولكن أولاده أدخلوا عليه «المغالطة الجدلية» في جوابهم»[١].

١٤/١٧٧- النبوة والعلم والتقوى لا تنال بالوراثة.

قال العلمي:

«إنه لا يلزم أن يكون ابن النبي نبياً، بل ولا يقتضي أن يكون ابن النبي تقياً، ولكنه قد يتفق اتفاقاً»[٢].

١٤/١٧٨- الكثرة مؤثرة.

قال العلمي:

«هذا هو المعنى الروحي الذي يؤول إليه كلامهم في جوابهم لأبيهم، وسببه: أنهم لمّا سمعوا جواب أبيهم السلبي ثارت فيهم الحمية، وأوغلوا في إشارات الاستغراب، وقد تلونت وجوههم بلون التعجب، وتذمروا من جواب أبيهم واستهجنوه، واستنكروه، واستكبروه، واستعظموه؛ فاستنصروا

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٤٣).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢٥٤).

جلدهم وقوتهم ذاهبين إلى أن السكوت عند رد الجواب بدعة، مقيمين على فكرتهم، مصرين على مخالفة أبيهم، متغلبين على ذهنه، متسلطين على إرادته، وهكذا ما زالوا يحتالون عليه بكلام يثقب الخردل، ويحط الجندل، وما برحوا يجادلونه جدال هجوم، وأبوهم يجادلهم مدافعة حتى وقع قولهم في نفسه وغلب أخيراً على أمره، تغلبوا عليه وهو واحد، وقد قيل: «ضعيفان يغلبان قوياً» فكيف إذا كانوا جماعة أقوياء؟ فلذلك ولكونهم أمنوه ووعدوه كانت النتيجة أن سمح لهم بأخذه، ورضي بذهابه معهم، وسلم لهم تسليماً، وإن كاد يكون تسليماً اغتصابياً»(١).

١٤/١٧٩- قول الحق قد يراد به الباطل.

إن حكمهم على أنفسهم بالخسارة إن أكل الذئب أخاهم حق، ولكنهم قالوه استدراجاً لأبيهم؛ ليحققوا غرضهم الباطل .

وهكذا أهل الأهواء والبدع دائماً يستدلون بعمومات الشرع وهي حق، وينزلونها على مقاصدهم الباطلة؛ كما فعل الخوارج عندما قالوا: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف:٤٠]، فقال علي -رضي الله عنه-: كلمة حق يراد بها باطل.

قال ابن عاشور:

«وفي هذا عبرة من مقدار إظهار الصلاح مع استبطان الضر والإهلاك»(٢).

١٤/١٨٠- استعمال الأحرف ذات النبرة القوية لحسم الأمر.

---

(١) المرجع نفسه (١/ ٣٤٢).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٣٢).

قال أحمد نوفل :

«ثم عودة في الآية التالية إلى بروز النون بجرسها الظاهر ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ وليس فيها إخفاء واحد، بل يظهر فيها الإظهار بشكل واضح؛ ليحسموا الأمر بهذه النبرة القوية، وهذا الظهور الشديد لذواتهم»[1].

١٤/١٨١- الإنسان اللئيم أعدى من الذئب.

قال عز الدين بن عبد السلام :

«خافهم عليه؛ فكنى عنهم بالذئب»[2].

«لعل يعقوب لم يعن بالذئب سوى إضرار (شمعون) له»[3].

ولله در القائل:

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا

الذئب لا يأكل لحم أخيه
ويأكل بعضنا بعضاً عيانا

١٤/١٨٢- من وصف نفسه بشيء لحقه شيء منه.

قال القشيري:

---

(١) « سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص١٢٠-١٢١)

(٢) «تفسير القرآن» (٢/ ١١١).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٢٧).

«لحق إخوة يوسف- عليه السلام- ما وصفوا به أنفسهم مــن الخســران حيث قالوا: ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾؛ لأن من باع أخا مثــل يوسـف بمثـل ذلـك الثمن حقيق بأن يقال: قد خسرت الصفقة»[١].

(١) «لطائف الإشارات» (٣/ ١٧٣).

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

١٥/١٨٣- لطف الله بيوسف، وإكرامه له بإعلامه إياه أنه سينبئ إخوته بفعلتهم.

قال ابن كثير:

«يقول -تعالى- ذاكراً لطفه ورحمته وإنزاله اليسر في حال العسر إنه أوحي إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييباً لقلبه، وتثبيتاً له؛ إنك لا تحزن مما أنت فيه؛ فإن لك من ذلك فرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويعليك، ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع»[١].

قال السعدي:

«لمّا ذهب إخوة يوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا أن يجعلوه في غيابت الجب؛ كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه؛ فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في الجب، ثم أن الله لطف به ، بأن أوحى إليه بتلك الحال الحرجة»[٢].

قلنا: في هذه الآية يتجلى لطف الله بعباده حيث تتحول المحنة إلى منحة؛ فقد أنزله إخوته إلى الدرك الأسفل من غيابه الجب ولسان حالهم يقول: خذها يا صاحب الأحلام؛ لأننا سنقضي على آمالك وأنت غلام، ونغرز في قلب أبيك السهام.. إنها فعلة قوم لئام.

وما أصدق فيهم مع أخيهم قول القائل:

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٤٣).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٠).

ألا إن إخوانـــــي الذيـــــن عـــــهدتم
أفـــاعي رمـــال لا تقصـــر عـــن الســعي
ظننـــت بـــهم خـــيراً فلمـــا بلوتـــهم
نزلـــت بـــواد منـــهم غـــير ذي زرع

وعند ذلـك أوحـى الله إليـه ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ حينمـا تكـون في مصر قد رفعك الله فتربعت على عرشـها وملكـت خزائنـها وأطـاعك أهلـها وإخوانك مـاثلون أمـامك ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنـك يوسـف لعلـو شـأنك، وذلك قول يوسف -عليه السلام- لهـم ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾؛ فلما أوحى الله إليه ذلك اطمأن قلبـه، وسـكن روعـه، وهدأ باله، وعلم أنه يصنع على عين مولاه..ولسان حاله يقول:

دع الأمـــور تجـــري في مجاريـــها
ولا تبيـــتن إلا خـــالي البـــال
فبـــين طرفـــة عـــين وانقباضـــها
يغـــير الله مـــن حـــال إلى حـــال

قال أحمد نوفل:

«وتأمل هذه الآية لطف الله -عـز وجـل-، كيـف يبتلـي عبـاده ولكنـه لطيف بهم.

وقد يقال: أليس كمال اللطف عدم الابتلاء؟

والجواب الإيماني والعقلي معاً: لا؛ لأن الخلق مخلوقون لحكمة الابتلاء، ولولا البلاء والابتلاء لتأسنت الحياة، ولما عرف المتقدم مـن المتـأخر والسـابق من المبطيء، والمجاهد الصابر من القاعد المتخلف المتخوف؛ فالحيـاة والابتـلاء

قرينـــــان: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ ﴾، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾.

لكن الله الذي يبتلي عباده يلطف بهم حتى في الابتلاء، انظر كيف يطمئن هذا الولد المسكين حتى لا يتقطع قلبه كمداً وحزناً وخوفاً.

ثم لطف آخر هو أنه ما جعل الإخوة يعملون هذا العمل مع يوسف إلا وقد بلغ سن الإدراك والفهم، وبعد أن غرست في قلبه بذرة التوحيد.

ثالث: لطف ثالث أنه أراه الرؤيا التي طمأنته وطمأنت أباه، ثم لطف آخر أكبر كيف أن الله حول البلاء إلى نعماء والضراء إلى سراء والشر إلى خير على غير توقع من أحد وبلا تدبير من أحد. وصدق الله: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾[1]».

١٥/١٨٤- جواز صدور الذنب الكبير من الرجل المؤمن.

قال أبو بكر الجزائري:

«جواز صدور الذنب الكبير من الرجل المؤمن المهيأ للكمال مستقبلاً؛ لأن إخوة يوسف بعد فعلتهم تلك بأخيهم تاب الله عليهم ونجاهم، ومن ألطافه بهم إنه حال بينهم وبين جريمة القتل، ونجا يوسف وهم يعلمون»[2].

١٥/١٨٥- قد يوحى للصغير لحكمة إلهية.

قال القرطبي:

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣١٢-٣١٣).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٠).

«ومن قال: كان صغيراً؛ فلا يبعد في العقل أن يتنبأ الصغير، ويوحى إليه، وقيل: كان وحي إلهام؛ كقوله ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾، وقيل: كان مناما، والأول أظهر -والله أعلم- وأن جبريل جاءه بالوحي»[١].

قال ابن كثير:

«بشرى بأن له من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ونصراً من الله ورفعاً لدرجته»[٢].

قال الزمخشري:

«إنما أوحى إليه؛ ليؤنس في الظلمة والوحشة، ويبشر بما يؤول إليه أمره، ومعناه: لتتخلص مما أنت فيه، ولتحدثن إخوتك بما فعلوا بك»[٣].

قال السعدي:

«ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وأخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض»[٤].

قال الشوكاني:

«وفي هذا دليل على أنه يجوز أن يوحي الله إلى من كان صغيراً، ويعطيه النبوة؛ كما وقع في عيسى ويحيى بن زكريا»[٥].

قال ابن عاشور:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٤٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٣٤).

(٣) «الكشاف» (٢/ ١٤٥).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٠).

(٥) «فتح القدير» (٣/ ١٠).

«وجملة ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ بيان لجملة ﴿ وَأَوْحَيْنَآ ﴾، وأكدت باللام ونون التوكيد لتحقيق مضمونها سواءً كان المراد منها الإخبار عن المستقبل، أو الأمر في الحال.

فعلى الأول: فهذا الوحي يحتمل أن يكون إلهاماً ألقاه الله في نفس يوسف -عليه السلام- حين كيدهم له.

ويحتمل أنه وحي بواسطة الملك؛ إرهاصاً ليوسف -عليه السلام- قبل النبوة رحمة من الله؛ ليزيل عنه كربه؛ فأعلمه بما يدله على أن الله سيخلصه من هذه المصيبة، وتكون له العاقبة على الذين كادوا له ، وإيذان بأنه سيآنسه في وحشة الجب، بالوحي والبشارة، وبأنه سينبئ في المستقبل إخوته بما فعلوا معه؛ كما تؤذن به نون التوكيد إذا اقترنت بالجملة الخبرية، وذلك يستلزم نجاته وتمكنه من إخوته؛ لأن الأنباء بذلك لا يكون إلا في حالة تمكن منهم، وأمن من شرهم»[(١)].

١٥/١٨٦- الوحي قد لا يشعر به أحد.

قال السمرقندي:

«﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أن الله أوحى إليه وهم لا يعرفون».

١٥/١٨٧- الإجماع لا يكون إلا باجتماع الدواعي[(٢)].

قال البقاعي:

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٣٤).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٤).

«أي: كلهم، وأجمع كل واحد منهم؛ بأن عـزم عزماً صادقاً، والإجماع على الفعل العزم عليه باجتماع الدواعي كلها»[١].

١٥/١٨٨- الأنبياء يحكمون بالظاهر.

قال العلمي:

«لم يزل الإخوة العشرة يراجعـون أباهم، ولم يـألوا جـهداً في استنزاله على إرادتهم، حتى أحرجوه؛ فانصاع إليهم، وانساق لمشيئتهم، ونـزل على حكمهم ظنا منه أن ظواهرهـا مـرآة لبواطنـهم؛ فاسترسـل إليـهم استرسالاً، وأرسل يوسف معهم إرسالاً.

جرت حيلتهم هذه عليه من فضلة وعلمه...

مشت حيلتـهم علـى أبيـهم، وجـاز عليـه كذبـهم؛ لأن الأنبيـاء ليسـوا معصومين من تصديق الكاذبين؛ فتصديق الكاذب لا يعد ذنباً، وقـد ثبـت أن النبي ﷺ كان يصدق بعض ما يفتريه المنافقون، حتـى يخبره الله بمـا كـان مـن المصلحة إخباره به منه؛ كما وقع في غزوة تبوك وغيرها، وكما صـدق بعـض أزواجه في القصة المشار إليها في سورة التحريم حتـى أخـبره الله -تعـالى- بـه وبأن من أسر إليها الحديث أفشته، وقد تردد في حديث أهل الإفك، وضـاق صدره به زمناً، حتى نزلت عليه آيات البراءة المكذبة لهم في سورة النور .

وفي صحيح البخاري[٢]: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكـون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، فمن قضيت له مـن حق أخيه؛ فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له من النار».

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ١٦)، وانظر- غير مأمور- «فتح البيان» (٣/ ٣٩٣)

(١) (٥/ ١٠٧-فتح).

نعم، الأنبياء معصومون من التقرير على باطل، وذلك يتوقف على تحقق البطلان، ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة، على أنه هذا القول الذي صدر من أبناء يعقوب ليس هو من قبيل الإخبار المحض، حتى يوصف بالكذب، وإنما هو من قبيل الوعد لأبيهم بالنصح لأخيهم وحفظه، وعداً مبنياً على الرجاء والأمل، وإذاً؛ فلا يوصف بالكذب»[1].

قلنا: فالأنبياء يحكمون بالظاهر ويكلون سرائر العباد إلى رب العباد، «وقد اشتهر بين الأصوليين والفقهاء أن حديث: «أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر»، على أنه مرفوع، وممن ذكر ذلك:

١- أبو بكر بن العربي في «أحكام القرآن» (١/ ١٤٣):

«فإن قيل: هذا يعارضه قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله».

وفي رواية: «إنما أمرت بالظاهر، والله يتولى السرائر».

٢- القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٠١):

«ومحال تغيير حكم البشر في الباطن حكم الله -تعالى- وحكمته لقوله عليه السلام: «إنا معشر الأنبياء إنما نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر»، ويروي: «والله يتولى البواطن».

وفي رواية: «إنما أمرت أن أحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر».

٣- ناصر الدين البيضاوي في «منهاج الوصول إلى معرفة علم الأصول» (ص٢٤٥).

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٤٨-٣٤٩).

٤- السيوطي فيما نقله عنه السندي في حاشيته على «سنن النسائي» (٨/ ٢٣٣) فقال: «قال السيوطي في «حاشيته على أبي داود»: هذا في أول الأمر لما أمر رسول الله ﷺ أن يحكم بالظاهر ويكل سرائر الخلق إلى الله تعالى كسائر الأنبياء».

٥- بل نسبه النووي صراحة لرسول الله ﷺ؛ فقال في «شرح صحيح مسلم» (٧/ ١٦٣):

«معناه: أني أمرت بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، كما قال ﷺ»[1].

---

(١) وهذا ما قرره السخاوي (ص١٦٢) فقال: اشتهر بين الأصوليين والفقهاء، بل وقع في «شرح النووي» في قوله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم» ما نصه:

«معناه: إني أمرت بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر كما قال ﷺ».

وأقره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٢٢)، والقاري في «الأسرار المرفوعة» (٢٤).

واستنكر أبو غدة في تعليقاته على «المصنوع» (ص٥٩) هذه النسبة فقال: «ومما يجب التنبيه عليه هنا: ما وقع للسخاوي -رحمه الله- (وذكره)».

ثم قال: «وقد وقع لقائل هذا على النووي تسرع في فهم عبارة النووي، فكان منه الخطأ والغلط، وإليك نص عبارة النووي (وذكره)».

وقال: ليس فيه نسبة جملة « أمرت أن أحكم بالظاهر...» إلى رسول الله ﷺ، وإنما فيه تفسير بها، غير منسوبة لرسول الله ﷺ، وإنما وقع هذا الوهم لقائله من تسرع في نظره في عبارة النووي، وجعله جملة (كما قال ﷺ) مرتبطة بما قبلها، في حين أنها مرتبطة بما بعدها».

قلنا: سياق كلام النووي صريح في تعلق جملة (كما قال ﷺ) بما قبلها، ولذلك فتوهيم السخاوي والقاري والعجلوني هو الوهم، والله أعلم.

قلنا: هو من كلام الإمام الشافعي في «الأم»[1]؛ كما نبه عليه الحافظ ابن حجر- رحمه الله تعالى- في «موافقة الخبر الخبر» (ق٤٢/ ١) فقال:

«رأيت في «الأم» للشافعي بعد أن أخرج حديث أم سلمة -رضي الله عنها-؛ فأخبر أنه إنما يحكم بالظاهر، وإن أمر السرائر إلى الله، فظن بعض من رأى كلامه: أن هذا حديث آخر، وإنما هو كلام الشافعي استنبطه من الحديث الآخر».

وقال ابن كثير رحمه الله في «تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب» (ص١٧٤):

«هذا الحديث كثيراً ما يلهج به أهل الأصول، ولم أقف له على سند، وسألت عنه الحافظ أبا الحجاج المزي؛ فلم يعرفه».

وقال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث مختصر المنهاج في أصول الفقه»(٧٨):

«لا أصل له، وسئل عنه المزي؛ فأنكره».

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٩٢):

«هذا الحديث استنكره المزي فيما حكاه ابن كثير عنه في «أدلة التنبيه»...وقد ثبت في «تخريج أحاديث المنهاج» للبيضاوي سبب وقوع الوهم من الفقهاء في جعلهم هذا حديثاً مرفوعاً، وأن الشافعي قال في كلام له: وقد أمر الله نبيه بالظاهر، والله يتولى السرائر، وكذا قال ابن عبد البر في «التمهيد»: أجمعوا أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن أمر السرائر إلى الله.

---

(١) ونسبه السيوطي في «الدرر المتناثرة» (ص٥٢) للشافعي في «الرسالة».

وأغرب إسماعيل بن علي بن إبراهيم بن القاسم الجنزوي في كتابه«إدارة الأحكام»[1]؛ فقال:

«إن هذا الحديث ورد في قصة الكندي والحضرمي الذين اختصما في الأرض، فقال المقضي عليه: قضيت علي، والحق لي، فقال ﷺ: «إنما أقضي بالظاهر والله يتولى السرائر».

وقال الزركشي في «المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر» (ص٩٩):

«هذا الحديث اشتهر في كتب الفقه وأصوله، وقد استنكره جماعة من الحفاظ منهم المزي والذهبي وقالوا: لا أصل له، وأفادني شيخنا علاء الدين مغلطاي -رحمه الله- قال: إن الحافظ أبا طاهر إسماعيل بن علي بن إبراهيم بن أبي القاسم الجنزوي رواه في كتابه «إدارة الأحكام» في قصة الكندي والحضرمي اللذين اختصما إلى النبي ﷺ، وأصل حديثهما في «الصحيحين»، فقال المقضي عليه: قضيت علي، والحق لي، فقال رسول الله ﷺ:

«إنما أقضي بالظاهر والله يتولى السرائر».

وقال في «التذكرة في الأحاديث المشتهرة» (ص٧٠-٧١): «هو غير ثابت بهذا اللفظ، ولعله مروي بالمعنى من أحادي صحيحة ذكرتها في الأقضية من «الذهب الإبريز».

وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٧٨):

---

(١) قال الحافظ في «موافقة الخبر الخبر» (ق٥٥/ ١):

«ولم أقف على هذا الكتاب، ولا أدري هل ساق له إسماعيل المذكور إسنادا أم لا؟». ونقل مثل ذلك السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٦٣).

«اشتهر بين الأصوليين والفقهاء... ولا وجود له في كتب الحديث المشهورة، ولا الأجزاء المنثورة، وجزم العراقي بأنه لا أصل له، وكذا أنكره المزي وغيره».

وأقره السيوطي في «الدرر المنتثرة» (ص٥١-٥٢)، والقاري في «المصنوع» (٣٨)، و«الأسرار المرفوعة» (٢٤١-٢٤٢)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٥٨٥)، والسمهودي في «الغماز على اللماز» (٣٨)، وابن الديبع في «تمييز الطيب من الخبيث» (ص٤٠)، والغماري في «الابتهاج في تخريج أحاديث المنهاج» (ص٢٤٥).

وقال الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص٢٠٠):

«يحتج به أهل الأصول، ولا أصل له.

وفي معناه قوله ﷺ يوم بدر: كان ظاهرك علينا».

وقال في «إرشاد الفحول»(ص٢٧٤):

«لا أصل له».

قلت: لا شك أن معناه صحيح، وقد أورد له الحفاظ شواهد كثيرة، منها:

١- عن أم سلمة ترفعه: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق؛ فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم؛ فإنما هي قطعة من النار؛ فليأخذها أو ليتركها»[1]

وترجم عليه النسائي (٨/ ٢٣٣) باب الحكم بالظاهر.

---

(١) أخرجه البخاري(٥/ ١٠٧- فتح) ، ومسلم (١٧١٣).

وقال الحافظ ابن كثير في «تحفة الطالب» (١٧٤): لكن له معنى في الصحيح (وذكر حديث أم سلمة).

٢- عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- في الذهبية التي بعث بها علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- إلى رسول الله ﷺ فقسمها بين أربعة نفر، فقام رجل فقال: اتق الله، فقال: «ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله».

فقال خالد: ألا أضرب عنقه؟

قال: «لا لعله أن يكون يصلي».

فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم»[(١)].

قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٧/ ١٦٣):

«معناه: إني أمرت بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، كما قال ﷺ».

قلنا: أصاب في تفسير معناه، وأخطأ في رفع لفظ ومبناه.

٣- عن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: سمعت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول:

«إن ناسا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرا؛ أمناه

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٦٧- فتح)، ومسلم (١٠٦٤).

وقرَّبناه وليس إلينا من سريرته شيء، الله يحاسب سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً؛ لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة»[١].

وانظر: «المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر» (ص١٠٠)، و«تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب» (ص١٧٤)، و «المقاصد الحسنة» (ص١٦٢)[٢].

١٥/١٨٩- الإنسان فطر على الميل إلى الخير، وأنه إنما يساق إلى الشر بما يعرض له من أسباب المطامع.

قال العلمي:

«فيستدل علماء الأخلاق من ذلك على ما فطر عليه الإنسان من الميل إلى الخير، وإنه إنما يساق إلى الشر بما يعرض له من أسباب المطامع، أو يمارسه من اختلاف المشارب، وإذا أتى شراً؛ فإنما يأتيه في الدفاع عن نفسه أو ماله، وقد يظهر في بعض الأحوال أنه مهاجم متعد، ولو فحصت ضميره، واستطلعت خبايا قلبه؛ لرأيت أساس ذلك التهجم الدفاع عن نفسه، فالأطفال مثال الفطر البشرية الساذجة لا يعرفون الكذب، أو التملق، أو الخداع، يقولون ما يعتقدون، لا يخافون، ولا يحاذرون، ولا سيما إذا ربوا كما ربيّ يوسف على يدي يعقوب، وقد تعلم من أبيه ما يسمح به من سنه أن يتعلمه، سيما طهارة القلب، وسلامة النية، والاتكال على الله -تعالى-»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٥١- فتح).

(٢) «سلسلة الأحاديث التي لا أصل لها» (ص ٣٦-٤٣) للشيخ سليم بن عيد الهلالي.

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٥١).

١٥/١٩٠- صحة نبوة نبينا ﷺ.

قال الشنقيطي:

«قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف:١٠٢]، لم يبين هنا هذا الأمر الذي أجمعوا أمرهم عليه، ولم يبين هنا -أيضا- المراد بمكرهم؛ ولكنه بين في أول هذه السورة الكريمة أن الذي أجمعوا أمرهم عليه هو جعله في غيابة الجب، وأن مكرهم هو ما فعلوه بأبيهم يعقوب وأخيهم يوسف؛ وذلك في قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ -إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٥-١٨]، وقد أشار -تعالى- في هذه الآية الكريمة إلى صحة نبوة نبينا ﷺ؛ لأنه أنزل عليه القرآن، وفصل له هذه القصة، مع أنه ﷺ لم يكن حاضرا لدى أولاد يعقوب حين أجمعوا أمرهم على المكر به، وجعله في غيابة الجب، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك ما عرفه من تلقاء نفسه.

والآيات المشيرة لإثبات رسالته، بدليل إخباره بالقصص الماضية التي لا يمكنه علم حقائقها إلا عن طريق الوحي كثيرة:

كقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران:٤٤].

وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ [القصص:٤٤].

وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ [القصص:٤٥].

وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص:٤٦].

وقوله: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾ [ص:٦٩-٧٠].

وقوله: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود:٤٩] إلى غير ذلك من الآيات .

فهذه الآيات من أوضح الأدلة على أنه ﷺ رسول كريم، وإن كانت المعجزات الباهرة الدالة على ذلك أكثر من الحصر»[1].

١٥/١٩١- «المؤمن في أحلك ظروفه ومهما أحدقت به الأخطار؛ يلتمس الأنس في وحشته من رب العالمين، و يتذرع بالصبر في محنته موقناً بالفرج الموعود من رب العالمين»[2].

١٥/١٩٢-رفع درجات العباد من منافع الابتلاء.

قال أحمد نوفل:

«ولله حكمة جليلة في ابتلاء عبده يعقوب بهذا الذي ابتلاه به، فهو يرفع درجاته عنده»[3].

١٥/١٩٣- أكمل مراتب العبودية أن العبد خالصاً لله.

قال أحمد نوفل:

«وأيضاً؛ فإن الله -تعالى- يحبنا أن نكون خالصين مخلصين له؛ فلما تعلق يعقوب تعلقاً شديداً بيوسف سلبه الله إياه حتى تم ما أراد الله، ثم أعاده إليه،

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٧٢-٧٣).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص١٥).

(٣) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٢٠).

وإبراهيم لما رزق ولد على غير توقع منه وتعلق به، أمره الله أن يذبحه، فلما علم الله خلوص قلب خليله فداه بذبح عظيم»[(١)].

١٥/١٩٤- الابتلاء بداية التمكين للمؤمن.

قال أحمد نوفل:

«المنعطف الأول إلقاء يوسف في الجب، وهو قمة المؤامرة، وهو في الوقت نفسه بداية تحول حاسم في حياة يوسف بالانتقال من حنان الأب إلى حياة الرق»[(٢)].

١٥/١٩٥- طول العهد وتغير الأحوال ينسي.

قال صديق حسن خان:

«والحال أنهم لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف؛ لاعتقادهم هلاكك بإلقائهم لك في غيابة الجب، ولبعد عهدهم بك، ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه، وخلاف ما عهدوك منك، وسيأتي ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار إليه ملك مصر»[(٣)].

وصدق من قال:

اختلاف الليل والنهار ينسي
أذكرا لي الصبا وأيام أنسي

(١) المرجع السابق (ص٣٢٠).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «فتح البيان» (٣/ ٣٩٣)، وانظر: «اللباب في علوم الكتاب» (١١/ ٣٧).

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝١٦ ﴾.

١٦/١٩٦- العين تستحي من العين.

قال أبو بكر الجزائري:

«اختيار الليل للاعتذار دون النهار؛ لأن العين تستحي من العين؛ كما يقال، وكما قيل:

كيف يرجو الحياء منه صديق ... ومكان الحياء منه خراب

يريد: عينيه لا تبصران»[١].

قال البقاعي:

«في ظلمة الليل؛ لئلا يتفرس أبوهم في وجوههم إذا رآها في ضياء النهار ضد ما جاؤوا به من الاعتذار، وقد قيل: لا تطلب الحاجة بالليل فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب، فتتلجلج في الاعتذار»[٢].

قال البغوي:

«جاؤا في ظلمة العشاء؛ ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب»[٣].

١٦/١٩٧- «البكاء ليس دليلاً على الصدق أحياناً؛ لاحتمال أن يكون تصنعاً»[٤].

قال أبو بكر الجزائري:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٠).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ١٧).

(٣) «مختصر البغوي» (١/ ٤٣٣).

(٤) «نظم الدرر» (٤/ ١٧).

«في الآية دليل على أن بكاء المـرء لا يكـون دليـلاً علـى صـدق قولـه؛ لاحتمال أن يكون تصنعاً؛ كما حصل لأولاد يعقوب»[١].

قال القرطبي:

«هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقالـه؛لاحتمـال أن يكون تصنعاً، فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنـهم مـن لا يقـدر، وقـد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى؛ كما قال حكيم:

إذا اشـــــتبكت دمـــــوع في خـــــدود
تبـــين مـــن بكـــى ممـــن تبـــاكى»[٢]

قال ابن عاشور:

«وقد أطلق هنا على البكاء المصطنـع، وهـو: التبـاكي، وإنمـا اصطنعـوا البكاء تمويهاً على أبيهم؛ لئلا يظن بهم أنهم اغتـالوا يوسـف -عليـه السـلام- ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع وجدان موجبه، وفي النـاس عجـائب من التمويه والكيد، ومن الناس من تتأثر أعصابهم بتخيـل الشـيء ومحاكاتـه فيعتريهم ما يعتري الناس بالحقيقة ، وبعض المتظلمين بالباطل يفعلـون ذلـك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيـل، ولا تنـوط بـها حكمـاً، وإنمـا ينـاط الحكم بالبينة.

جاءت امرأة إلى شريح القاضي تخاصم في شيء،وكانت مبطلة؛ فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها؛ فقيل له: أما تراها تبكي؛ فقال:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٤٥).

قد جاء إخوة يوسف -عليه السلام - أباهم عشاءً يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بالحق.

قال ابن العربي:

قال علماؤنا: هذا يدل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله؛ لاحتمال أن يكون تصنعاً، ومن الخلق من لا يقدر على ذلك، ومنهم من يقدر.

قلت: ومن الأمثال: «دموع الفاجر بيديه»، وهذه عبرة في هذه العبرة»[1].

١٦/١٩٨- الجرائم ترتكب غالباً في الليل، وفي الظلام؛ لتكون أدعى للستر، وهروب واختفاء الجاني[2].

١٦/١٩٩- الإنسان إذا تباكى انتهى تباكيه المصطنع ببكاء حقيقي يشعر فيه الحزن.

قال العلمي:

«لأن الإنسان إذا تباكى انتهى تباكيه المصطنع ببكاء حقيقي، وبيان ذلك: أن الأفكار والخواطر التي تمر بأذهاننا يتأثر بها جسمنا، كما بالعكس أن عقلنا يتأثر من جسمنا، فكل عواطفنا تؤثر في أجسامنا، وقد يمكننا استحداث العاطفة بتحريك العضو الخاص بها؛ فإذا تضاحكنا مثلاً وليس هناك ما يضحكنا؛ فإن التضاحك يحدث سروراً عندنا، و ينتهي بنا إلى الضحك الحقيقي، وإذا تباكينا انتهى تباكينا المصنوع ببكاء حقيقي نشعر فيه بالحزن،

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٣٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٤٤) بتصرف.

ومعنى هذا: أن الجسم يؤثر في العقل، هذا هو تحقيق الكلام في هذا المقام الذي غفل عنه المفسرون»[١].

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٦٤).

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

١٧/٢٠٠- دليل على مشروعية السباق على الأقدام في الشريعة وهي سنة بشروط.

قال أبو بكر الجزائري:

«هو: المسابقة، وقيل ننتضل، وهو: نوع من المسابقة، وهو في السهام لا في الأقدام، وفي الآية دليل على مشروعية السباق، وقد سابق النبي ﷺ بين الخيل التي أضمرت من الحفياء وكان أمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق والحفياء تبعد من ثنية الوداع ستة أميال أو سبعة.

أجمع المسلمون أنه لا يجوز الرهان في السباق إلا في الخيل والإبل والنصل، وهي: الرماية بالسهام؛ لإصابة الهدف»[(١)].

قال القرطبي:

«والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو؛ لأنه الآلة في قتال العدو، ودفع الذئب عن الأغنام...

قال ابن العربي:

المسابقة شرعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعون على الحرب، وقد فعلها النبي ﷺ بنفسه وبخيله، وسابق عائشة -رضي الله عنها- على قدميه فسبقها، فلما كبر رسول الله ﷺ سابقها فسبقته، فقال لها: «هذه بتلك»[(٢)].

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٠).

(٢) صحيح- أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٥٠٨-٥٠٩)، وأبو

وسابق سلمة بن الأكوع رجلا لما رجعوا من ذي قرد إلى المدينة؛ فسبقه سلمة[١].

الثانية: روى مالك عن نافع عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي قد أضمرت [من الحفياء] موضع بالمدينة، وكان أمدها ثنية الوداع[٢]، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق[٣]، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها، وهذا الحديث مع صحته في هذا تضمن ثلاثة شروط، فلا يجوز المسابقة بدونها وهي:

أن المسافة لابد أن تكون معلومة.

الثاني: أن تكون الخيل متساوية الأحوال.

الثالث: ألا يسابق المضمر مع غير المضمر في أمد واحد وغاية واحدة.

والخيل التي يجب أن تضمر ويسابق عليها وتقام هذه السنة فيها هي الخيل المعدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن»[٤].

= داود(٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، وأحمد (٦/ ٣٩و١٢٩و١٢و٢٦١و٢٦٤و٢٨٠)، والحميدي في «المسند» (٢٦١)، والطيالسي (١٤٦٢) وغيرهم.

قال شيخنا الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (١/ ٢٥٥/ ١٣١): «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(١) أخرجه مسلم(١٨٠٧).

(٢) بين الحفياء وثنية الوداع ستة أميال أو سبعة انظر«معجم البلدان» (٢/ ٣٧٦)، و«فتح الباري» (٧١٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٠و٢٨٦٨و٢٨٦٩و٢٨٧٠)، ومسلم (١٨٧٠).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٤٥-١٤٦).

قلنا: وقد فصل مسائل المسابقة والمناضلة ابن قيم الجوزية- رحمه الله- في كتابه العجاب «الفروسية» فقد جمع فأوعى، وأشبع فأروى.

١٧/٢٠١- الرد على من زعم أن الإيمان هو التصديق.

قال السمرقندي:

«إن الإيمان يأتي بمعنى التصديق»[١].

قال السعدي:

«اعتذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والرقة الشديدة عليه، ولكن تصديقك إيانا لا يمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي، وكل هذا تأكيد لعذرهم»[٢].

قال ابن عطية الأندلسي:

«أي: بمصدق، ومعنى الكلام : أي لو كنا موصوفين بالصدق، وقيل: المعنى ولو كنت تعتقد ذلك فينا في جميع أقوالنا قديماً لما صدقتنا في هذه النازلة خاصة لما لحقك فيها من الحزن، وذلك من المشقة، ولما تقدم من تهمتك لنا»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «واسم الإيمان والإسلام والنفاق والكفر، هي أعظم من هذا كله، فالنبي ﷺ قد بين المراد بهذه الألفاظ بياناً لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك، فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله

---

(١) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٠).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢٦-٢٢٧).

ورسوله، فإنه شاف كاف، بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة، بل كل من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة في معنى الإيمان، علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول، ويعلم بالاضطرار أن طاعة الله ورسوله من تمام الإيمان وأنه لم يكن يجعل كل من أذنب ذنباً كافراً، ويعلم أنه لو قدر أن قوماً قالوا للنبي ﷺ: نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك، ونقر بألسنتنا بالشهادتين، إلا أنا لا نطيعك في شيء مما أمرت به ونهيت عنه، فلا نصلي ولا نصوم ولا نحج، ولا نصدق الحديث، ولا نؤدي الأمانة، ولا نفي بالعهد، ولا نصل الرحم، ولا نفعل شيئاً من الخير الذي أمرت به، ونشرب الخمر، وننكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر، ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك، ونأخذ أموالهم، بل نقتلك أيضاً ونقاتلك مع أعدائك، هل كان يتوهم عاقل أن النبي ﷺ يقول لهم: أنتم مؤمنون كاملوا الإيمان، وأنتم من أهل شفاعتي يوم القيامة، ويرجى لكم أن لا يدخل أحد منكم النار، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم: أنتم أكفر الناس بما جئت به ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك.

وكذلك كل مسلم يعلم أن شارب الخمر والزاني والقاذف والسارق، لم يكن النبي ﷺ يجعلهم مرتدين يجب قتلهم، بل القرآن والنقل المتواتر عنه يبين أن هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الإسلام، كما ذكر الله في القرآن جلد القاذف والزاني وقطع السارق، وهذا متواتر عن النبي ﷺ، ولو كانوا مرتدين لقتلهم، فكلا القولين مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسول ﷺ.

وأهل البدع إنما دخل عليهم الداخل؛ لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق، وصاروا يبنون دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها، إما في دلالة الألفاظ، وإما في المعاني المعقولة، ولا يتأملون بيان الله ورسوله، وكل

مقدمات تخالف بيان الله ورسوله، فإنها تكون ضلالاً، ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين، وكذلك ذكر في رسالته إلى أبي عبد الرحمن الجرجاني في الرد على المرجئة، وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين، لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها أنه يقول على الله ورسوله، ما لا يعلم، أو غير الحق، وهذا مما حرمه الله ورسوله، وقال تعالى في الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٩]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف:١٦٩]. وهذا من تفسير القرآن بالرأي الذي جاء فيه الحديث: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[1].

مثال ذلك: أن المرجئة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله، أخذوا يتكلمون في مسمى الإيمان والإسلام وغيرهما بطرق ابتدعوها، مثل أن يقولوا: الإيمان في اللغة: هو التصديق، والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها، فيكون مراده بالإيمان التصديق، ثم قالوا: والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان، أو بالقلب، فالأعمال ليست من الإيمان، ثم عمدتهم

---

(١) ضعيف- أخرجه الترمذي (٢٩٥١)، وأحمد (١/ ٢٦٩و٢٩٣و٣٢٣و٣٢٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٧٦٣)،والدارمي (رقم٢٣٢)، وأبو يعلى (٢٣٣٨و٢٧٢١) وغيرهم كثير من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- بسند ضعيف؛ كما فصله شيخنا العلامة الألباني -رحمه الله- في «الضعيفة» (١٧٨٣).

في أن الإيمان هو التصديق: قوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف:١٧]؛ أي: بمصدق لنا.

فيقال لهم : اسم الإيمان قد تكرر ذكره في القرآن والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ، وهو أصل الدين، وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويفرق بين السعداء والأشقياء، ومن يوالي ومن يعادي، والدين كله تابع لهذا، وكل مسلم محتاج إلى معرفة ذلك، أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا كله، ووكله إلى هاتين المقدمتين؟ ومعلوم أن الشاهد الذي استشهدوا به على أن الإيمان: هو التصديق أنه من القرآن، ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبي ﷺ أعظم من تواتر لفظ الكلمة، فإن الإيمان يحتاج إلى معرفته جميع الأمة فينقلونه، بخلاف كلمة من سورة، فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة، فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنياً على مثل هذه المقدمات، ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم وسلكوا السبل، وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، فهذا كلام عام مطلق.

ثم يقال: هاتان المقدمتان كلاهما ممنوعة، فمن الذي قال: إن لفظ الإيمان مرادف للفظ التصديق؟ وهب أن المعنى يصح إذا استعمل في هذا الموضع، فلم قلت: إنه يوجب الترادف؟ ولو قلت: ما أنت بمسلم لنا، ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى، لكن لم قلت: إن هذا هو المراد بلفظ مؤمن؟ وإذا قال الله: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: ولو قال القائل: أتموا الصلاة، ولازموا الصلاة، التزموا الصلاة،افعلوا الصلاة، كان المعنى صحيحاً، لكن لا يدل هذا على معنى: أقيموا فيكون اللفظ يرادف اللفظ، يراد دلالته على ذلك.

ثم يقال: ليس هو مرادفاً له، وذلك من وجوه:

أحدها: أن يقال للمخبر إذا صدقته: صدقه، ولا يقال: آمنه وآمن به، بل يقال: آمن له، كما قال: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت:٢٦]، وقال: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ [يونس:٨٣]، وقال فرعون: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [الشعراء:٤٩]، وقال لنوح: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء:١١١]، وقال -تعالى-: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٦١]، ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٧]، وقال: ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الدخان:٢١].

فإن قيل: فقد يقال: ما أنت بمصدق لنا؟ قيل : اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه إذا ضعف عمله، إما بتأخيره، أو بكونه اسم فاعل، أو مصدراً، أو باجتماعهما، فيقال: فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه، ثم إذا ذكر باسم الفاعل قيل: هو عابد لربه، متق لربه، خائف لربه، وكذلك تقول: فلان يرهب الله، ثم تقول: هو راهب لربه، وإذا ذكرت الفعل وأخرته، تقويه باللام، كقوله: ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٤]، وقد قال: ﴿ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١]؛ فعداه بنفسه، وهناك ذكر اللام، فإن هنا قوله: ﴿ فَإِيَّٰىَ ﴾ أتم من قوله: فلي، وقوله هنالك: ﴿ لِرَبِّهِمْ ﴾ أتم من قوله: ربهم، فإن الضمير المنفصل المنصوب، أكمل من ضمير الجر بالياء، وهناك اسم ظاهر، فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده، ومن هذا قوله: ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف:٤٣]،ويقال:عبرت رؤياه،وكذلك قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الشعراء:٥٥] ، وإنما يقال : غظته، لا يقال: غظت له، ومثله كثير، فقول القائل: ما أنت بمصدق لنا، أدخل فيه اللام، كونه اسم

فاعل وإلا؛ فإنما يقال: صدقته، لا يقال: صدقت له، ولو ذكروا الفعل، لقالوا: ما صدقتنا، وهذا بخلاف لفظ الإيمان، فإنه تعدى إلى الضمير باللام دائماً، لا يقال: آمنته قط، وإنما يقال: آمنت له، كما يقال: أقررت له، فكان تفسيره بلفظ الإقرار، أقرب من تفسيره بلفظ التصديق، مع أن بينهما فرقاً.

الثاني: أنه ليس مرادفاً للفظ التصديق في المعنى، فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال: كذبت، فمن قال: السماء فوقنا، قيل له: صدق، كما يقال: كذب، وأما لفظ الإيمان؛ فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب، لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهدة؛ كقوله: طلعت الشمس وغربت، أنه يقال: آمناه، كما يقال: صدقناه، ولهذا المحدثون والشهود ونحوهم، يقال: صدقناهم، وما يقال: آمنا لهم، فإن الإيمان مشتق من الأمن، فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر، ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ: آمن له، إلا في هذا النوع، والاثنان إذا اشتركا في معرفة الشيء، يقال: صدق أحدهما صاحبه، ولا يقال: آمن له؛ لأنه لم يكن غائباً عنه ائتمنه عليه؛ ولهذا قال: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ ﴾ [العنكبوت:٢٦]، ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون:٤٧]، ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ [طه:٧١]، ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٦١] فيصدقهم فيما أخبروا به مما غاب عنه، وهو مأمون عنده على ذلك، فاللفظ متضمن مع التصديق ومعنى الائتمان والأمانة، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ولهذا قالوا: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف:١٧]؛ أي لا تقر بخبرنا، ولا تثق به، ولا تطمئن إليه، ولو كنا صادقين؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم.

الثالث : أن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب، كلفظ التصديق، فإنه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له: صدقت أو كذبت، ويقال: صدقناه، أو كذبناه، ولا يقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه، ولا يقال: أنت مؤمن له، أو مكذب له، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر، يقال: هو مؤمن أو كافر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق، لكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك، وأخالفك، ولا أوافقك، لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط، بل إذا كان الكفر يكون تكذيباً، ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعاً بلا تكذيب، فلا بد أن يكون الإيمان تصديقاً مع موافقة وموالاة وانقياد، لا يكفي مجرد التصديق، فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمان، كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزء مسمى الكفر، فيجب أن يكون كل مؤمن مسلماً منقاداً للأمر، وهذا هو العمل.

فإن قيل : فالرسول ﷺ فسر الإيمان بما يؤمن به.

قيل : فالرسول ذكر ما يؤمن به، لم يذكر ما يؤمن له، وهو نفسه يجب أن يؤمن به ويؤمن له، فالإيمان به من حيث ثبوته غيب عنا أخبرنا به، وليس كل غيب آمنا به علينا أن نطيعه، وأما ما يجب من الإيمان له؛ فهو الذي يوجب طاعته، والرسول يجب الإيمان به وله، فينبغي أن يعرف هذا، وأيضاً فإن طاعته طاعة لله، وطاعة الله من تمام الإيمان به.

الرابع : أن من الناس من يقول: الإيمان أصله في اللغة من الأمن الذي هو ضد الخوف، فآمن؛ أي : صار داخلاً في الأمن، وأنشدوا...[1]

---

(١) بياض في الأصول كلها.

وأما المقدمة الثانية؛ فيقال: إنه إذا فرض أنه مرادف للتصديق، فقولهم: إن التصديق لا يكون إلا بالقلب أو باللسان، عنه جوابان:

أحدهما: المنع، بل الأفعال تسمى تصديقاً؛ كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناهما السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ذلك ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[1] .

وكذلك قال أهل اللغة وطوائف من السلف والخلف:

قال الجوهري:

والصديق مثال الفسيق: الدائم التصديق، ويكون الذي يصدق قوله بالعمل.

وقال الحسن البصري:

ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكنه ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال.

وهذا مشهور عن الحسن يروي عنه من غير وجه، كما رواه عباس الدوري، حدثنا حجاج، حدثنا أبو عبيدة الناجي، عن الحسن قال: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، من قال حسناً وعمل غير صالح، رد الله عليه قوله، ومن قال حسناً وعمل صالحاً، رفعه العمل، ذلك بأن الله يقول: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠]».

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧/ ٢١) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه-.

رواه ابن بطةٍ من الوجهين[١] .

وقوله: ليس الإيمان بالتمني -يعني: الكلام- وقوله: بالتحلي؛ يعني: أن يصير حلية ظاهرة له، فيظهره من غير حقيقة من قلبه، ومعناه ليس هو ما يظهر من القول، ولا من الحلية الظاهرة، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، فالعمل يصدق أن في القلب إيماناً، وإذا لم يكن عمل، كذب أن في قلبه إيماناً؛ لأن ما في القلب مستلزم للعمل الظاهر، وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم .

وقد روى محمد بن نصر المروزي باسناده[٢]: أن عبد الملك بن مروان، كتب إلى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل، فأجابه عنها:

سألت عن الإيمان، فالإيمان: هو التصديق؛ أن يصدق العبد بالله وملائكته، وما أنزل الله من كتاب، وما أرسل من رسول، وباليوم الآخر.

وسألت عن التصديق، والتصديق: أن يعمل العبد بما صدق به من القرآن، وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه، عرف أنه ذنب، واستغفر الله وتاب منه، ولم يصر عليه، فذلك هو التصديق.

وتسأل عن الدين، فالدين: هو العبادة، فإنك لن تجد رجلاً من أهل دين يترك عبادة أهل دينه، ثم لا يدخل في دين آخر إلا صار لا دين له.

وتسأل عن العبادة، والعبادة هي الطاعة، وذلك أنه من أطاع الله فيما أمره به وفيما نهاه عنه، فقد أتم عبادة الله، ومن أطاع الشيطان في دينه وعمله، فقد عبد الشيطان، ألم تر أن الله قال للذين فرطوا: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ

---

(١) في «الإبانة الكبرى» (٢/ ٨٠٣/ ١٠٩٠و٨٠٥/ ١٠٩٣و١٠٩٤).

(٢) في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣٤٦-٣٤٧/ ٣٤٥) بسند ضعيف؛ فيه علل.

ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس:٦٠] وإنما كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه في دينهم...

وقال أسد بن موسى: حدثنا الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، حدثنا حسان بن عطية: قال: الإيمان في كتاب الله صار إلى العمل، قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، ثم صيرهم إلى العمل فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة:٣] قال: وسمعت الأوزاعي يقول: قال الله -تعالى-: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١١] والإيمان بالله باللسان، والتصديق به العمل.

وقال معمر عن الزهري: كنا نقول: الإسلام بالإقرار، والإيمان بالعمل، والإيمان: قول وعمل قرينان، لا ينفع أحدهما إلا بالآخر، وما من أحد إلا يوزن قوله وعمله، فإن كان عمله أوزن من قوله صعد إلى الله، وإن كان كلامه أوزن من عمله لم يصعد إلى الله.

ورواه أبو عمر الطلمنكي بإسناده المعروف.

وقال معاوية بن عمرو: عن أبي إسحاق الفزاري، عن الأوزاعي قال: لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة.

وكان من مضى من سلفنا، لا يفرقون بين الإيمان والعمل، العمل من الإيمان والإيمان من العمل، وإنما الإيمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها، ويصدقه العمل، فمن آمن بلسانه، وعرف بقلبه، وصدق بعمله؛ فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن قال بلسانه، ولم يعرف بقلبه، ولم يصدق بعمله؛ كان في الآخرة من الخاسرين، وهذا معروف عن غير واحد من

السلف والخلف، أنهم يجعلون العمل مصدقاً للقول، ورووا ذلك عن النبي ﷺ؛ كما رواه معاذ بن أسد، حدثنا الفضيل بن عياض، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: أن أبا ذر -رضي الله عنه- سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «الإيمان: الإقرار والتصديق بالعمل، ثم تلا ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧٧]»[1].

قلت: حديث أبي ذر هذا مروي من غير وجه[2]؛ فإن كان هذا اللفظ هو لفظ الرسول؛ فلا كلام، وإن كانوا رووه بالمعنى، دل على أنه من المعروف في لغتهم أنه يقال: صدّق قوله بعمل، وكذلك قال شيخ الإسلام الهروي: «الإيمان تصديق كله».

---

(١) ضعيف- إسناده ضعيف؛ لأن ليثاً مدلس ومختلط.

وأخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٥٣٩)، والآجري في «الشريعة» (١/ ٢٧٦/ ٢٧٤و٢٧٥)، والحاكم (٢/ ٢٧٢) عن طريق مجاهد عن أبي ذر -رضي الله عنه- مرفوعاً به.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»؛ وتعقبه الذهبي بقوله: «كيف وهو منقطع؟».

وقال ابن كثير في « تفسيره» (١/ ٦٢٥): «وهذا منقطع ؛ فإن مجاهداً لم يدرك أبا ذر؛ فإنه مات قديماً».

قلنا: وهو كما قالا.

(٢) وقد تقدم بعضها، ولعلها يشد بعضها بعضاً؛ فيرتقي إلى درجة الحسن لغيره، وإليه يُشير كلام شيخ الإسلام، والله أعلم.

وكذلك الجواب الثاني: أنه إذا كان أصله التصديق، فهو تصديق مخصوص، كما أن الصلاة دعاء مخصوص، والحج قصد مخصوص، والصيام إمساك مخصوص، وهذا التصديق له لوازم صارت لوازمه داخلة في مسماه عند الإطلاق، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم، ويبقى النزاع لفظيا: هل الإيمان دال على العمل بالتضمن أو باللزوم؟

ومما ينبغي أن يعرف: أن أكثر التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة هو نزاع لفظي[1]، وإلا؛ فالقائلون بأن الإيمان قول من الفقهاء؛ كحماد بن أبي

---

(١) هذه كبوة من شيخ الإسلام -رحمه الله- أعادها في عدة مواطن من كتابه «الإيمان» وتبعه عليها ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- في «شرح العقيدة الطحاوية».

وطار بها المتكلمون -قديماً وحديثاً- فزعموا -أيضاً- أن الخلاف في هذه المسألة لفظي وليس حقيقياً، وصوري وليس جوهرياً؛ كما في «المسامرة شرح المسايرة» لكمال ابن أبي يوسف (ص٣٧٣)، و«النبراس شرح العقائد» للفرهاري (ص٤٠٥)، و«إتحاف السادة المتقين» للزبيدي (٢/ ٢٦١)، و«حاشية الكستلي على النسفية» (ص١٥٨)، و«جوهرة التوحيد» (ص١٢)، و«فيض الباري» للكشميري (١/ ٥٩و٦٣و٦٤)، و«تحفة القاري» (ص٤٨و٥٦) و «قواعد في علوم الحديث» للتهانوي (ص٢٣٥)، و«الإيمان» لمحمد نعيم ياسين (ص١٥١).

إننا لنعجب أشد العجب كيف يكون الخلاف صورياً والنزاع لفظياً وهو يخالف القرآن والسنة أشد المخالفة، ويناقضهما تماماً في مصادمات صريحة ومعارضات واضحة لنصوص الوحيين المصرحة بزيادة الإيمان ونقصانه، وإثبات النفاق ، وأن العمل من الإيمان.

قال الإمام سفيان الثوري -رحمه الله-؛ كما في «صفة المنافق» للفريابي(ص٧٥):

«خلاف ما بيننا وبين المرجئة ثلاث:

يقولون: الإيمان قول لا عمل، ونقول: قول وعمل..

= ونقول: يزيد وينقص، وهم يقولون: إنه لا يزيد ولا ينقص.

ونحن نقول: النفاق، وهم يقولون: لا نفاق».

وكيف يكون صورياً ولفظياً؛ والقولان متغايران: أحدهما ينفي، والآخر يثبت الشيء نفسه.

جمع ضدين في الحال

أقبح ما يأتى به المحال

وكيف يكون غير حقيقي وقول المرجئة يضعف الإيمان ويهون من شأنه؛ فإن الناس إذا علموا: أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأن أهله متساوون، وأن إيمان المنافقين كإيمان السابقين الأولين بل إيمان أفجر الناس كإيمان الملائكة المقربين...فهل ينتظر من أحد الإقبال على الإيمان عملاً وعلماً؟!

وكيف يكون لفظياً وقد كفر بعض ماتريدية الحنفية من قال: إن الإيمان يزيد وينقص وبدّعوه، وحرّموا تزويجه؟!

ولهذا كله صاح المحققون بمدعي أن الخلاف لفظي أو صوري.

قال ذهبي العصر المعلمي اليماني-رحمه الله- في «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» (٢/ ٣٨٥-٣٨٦): «وهذا القول قد كان أبو حنيفة يقوله، لكن يقول الكوثري: إنه مع ذلك مخالف للمرجئة في أصل قولهم، وهو أنه لا يضر مع الإيمان عمل، ولا غرض في النظر في هذا وتتبع الروايات.

بل أقول: تلك الموافقة التي يعترف بها تكفي لتبرير إنكار الأئمة، أما من لم يعرف منهم أن أبا حنيفة وإن وافق المرجئة في ذاك القول فهو مخالف لهم في أصل قولهم؛ فعذره في إنكاره واضح، وأما من عرف مخالف لهم في أصل قولهم؛ فعذره في إنكاره واضح، وأما من عرف؛ فيكفي لإنكار القول أنه مخالف للأدلة كما يأتي، وأنه قد يسمعه من يقتدي بأبي حنيفة ولا يعلم قوله: إن أهل المعاصي يعذبون فيغتر بذلك، وقد يبلغ بعضهم قولاه معاً فلا يلتفتون إلى الثاني، بل يقولون: رأس الأمر الإيمان، فإذا كان إيمان الفجار مساوياً لإيمان الأنبياء والملائكة ففيم العذاب، وقد دلت النصوص على أن =

= المؤمنين لا يعذبون ؟!

ويحملهم ذلك على التهاون بالعمل، يقول أحدهم: لم أعذب نفسي في الدنيا بما لا يزيد في إيماني شيئاً، حسبي أن إيماني مساو لإيمان جبريل ومحمد -عليهما السلام-! ويحملهم ذلك على احتقار الملائكة والأنبياء والصديقين، قائلين: أعظم ما عندهم الإيمان، وأفجر الفجار مساو لهم فيه!

وإذا كان أبو حنيفة كما يقول الكوثري يرى أن الإيمان هو الاعتقاد القلبي الجازم، وأنه لا يزيد ولا ينقص، فقد يبلغ هذا بعض الناس فيقول: إذاً كنت لا أصير مؤمناً إلا بأن يكون يقيني مساوياً ليقين جبريل ومحمد -عليهما السلام- فهذا ما لا يكون، ففيم إذا أعذب نفسي بالأعمال فأجمع عليها عذاب الدنيا وعذاب الآخرة؟!

وبعد؛ فيكفي مبرراً لإنكار ذاك القول مخالفته للنصوص الشرعية».

وقال شيخنا الإمام عبد العزيز بن باز- رحمه الله- في «تعليقاته على الطحاوية» (١/ ٢٦٥- مجموع فتاواه) معلقاً على قول الطحاوي:

«والإيمان، هو: الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان:

« هذا التعريف فيه نظر وقصور، والصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة: أن لإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والأدلة على ذلك من لكتاب والسنة أكثر من أن تحصر، وقد ذكر الشارح ابن أبي العز جملة منها فراجعها إن شئت، وإخراج العمل من الإيمان هو قول المرجئة، وليس الخلاف بينهم وبين أهل السنة فيه لفظياً، بل هو لفظي ومعنوي، ويترتب عليه أحكام كثيرة، يعلمها من تدبر كلام أهل السنة وكلام المرجئة؛ والله المستعان».

وقال شيخنا الإمام المحدث العلامة محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله- في «العقيدة الطحاوية شرح وتعليق» (ص٤٢-٤٣) معلقاً على قول الطحاوي الآنف الذكر:

«قلنا: هذا مذهب الحنفية والماتريدية؛ خلافاً للسلف وجماهير الأئمة؛ كمالك والشافعي وأحمد والأوزاعي- وغيرهم-؛ فإن هؤلاء زادوا على الإقرار والتصديق: =

= العمل بالأركان.

وليس الخلاف بين المذهبين اختلافاً صورياً- كما ذهب إليه الشارح [ابن أبي العز الحنفي] -رحمه الله تعالى-، بحجة أنهم -جميعاً- اتفقوا على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان، وأنه في مشيئة الله؛ إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه! فإن هذا الاتفاق – وإن كان صحيحاً- فإن الحنفية – لو كانوا غير مخالفين للجماهير مخالفة حقيقية- في إنكارهم أن العمل من الإيمان- لاتفقوا معهم على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن زيادته بالطاعة، ونقصه بالمعصية، مع تضافر أدلة الكتاب والسنة والآثار السلفية على ذلك.

ولكن الحنفية أصروا على القول بخلاف تلك الأدلة الصريحة في الزيادة والنقصان، وتكلفوا في تأويلها تكلفاً ظاهراً؛ بل باطلاً، ذكر الشارح(ص٣٨٥) نموذجاً منها، بل حكى عن أبي المعين النسفي -كما في كتابه: «تبصرة الأدلة» (٢/ ٨٠٣)- أنه طعن في صحة حديث «الإيمان بضع وسبعون شعبة...»، مع احتجاج كل أئمة الحديث له، ومنهم البخاري ومسلم في «صحيحهما»! وما ذلك إلا لأنه صريح في مخالفة مذهبهم!

ثم؛ كيف يصح أن يكون الخلاف المذكور صورياً، وهم يجيزون لأفجر واحد منهم أن يقول: إيماني كإيمان أبي بكر الصديق! بل كإيمان الأنبياء والمرسلين، وجبريل وميكائيل- عليهم الصلاة والسلام-؟!

كيف وهم- بناء على مذهبهم هذا- لا يجيزون لأحدهم- مهما كان فاسقاً فاجراً- أن يقول: أنا مؤمن- إن شاء الله – تعالى-، بل يقول: أنا مؤمن حقاً! والله – عز وجل- يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾.

وبناء على ذلك- كله- اشتطوا في تعصبهم؛ فذكروا أن من استثنى في إيمانه؛ فقد كفر! وفرعوا عليه: أنه لا يجوز للحنفي أن يتزوج بالمرأة الشافعية ! وتسامح بعضهم- =

سليمان – وهو أول من قال ذلك، ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم – متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد، وإن قالوا: إن إيمانهم كامل كإيمان جبريل فهم يقولون: إن الإيمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات يكون صاحبه مستحقاً للذم والعقاب؛ كما تقوله الجماعة، ويقولون -أيضاً- بأن من أهل الكبائر من يدخل النار؛ كما تقوله الجماعة، والذين ينفون عن الفاسق اسم الإيمان من أهل السنة متفقون على أنه لا يخلد في النار، فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول، وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد، وأنه يدخل النار منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله إليها، ولا يخلد منهم فيها أحد، ولا يكونون مرتدين مباحي الدماء، ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم في النار؛ كالخوارج،

= زعموا- فأجاز ذلك دون العكس! وعلل ذلك بقوله: تنزيلاً لها منزلة أهل الكتاب!!

وأعرف شخصاً من شيوخ الحنفية خطب ابنته رجل من شيوخ الشافعية، فأبى قائلاً: ...لولا أنك شافعي!

فهل بعد هذا مجال للشك في أن الخلاف حقيقي؟!

ومن شاء التوسع في هذه المسألة فليرجع إلى كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية «الإيمان» فإنه خير ما ألف في هذا الموضوع».

وبهذه الحقيقة صرح بعض محققي الحنفية:

قال الآلوسي -رحمه الله- في «روح المعاني» (٩/ ١٦٧):

«والحق أن الخلاف حقيقي، وأن التصديق يقبل التفاوت.. وما علي إذا خالفت في بعض المسائل مذهب الإمام الأعظم أبا حنيفة -رضي الله تعالى عنه-، للأدلة التي لا تكاد تحصى، فالحق أحق بالإتباع، والتقليد في مثل هذه المسائل من سنن العوام».

والمعتزلة، وقول غلاة المرجئة الذين يقولون: ما نعلم أن أحداً منهم يدخل النار، بل نقف في هذا كله[١] .

وحكي عن بعض غلاة المرجئة[٢] الجزم بالنفي العام، ويقال للخوارج: الذي نفى عن السارق والزاني والشارب وغيرهم الإيمان، هو لم يجعلهم مرتدين عن الإسلام، بل عاقب هذا بالجلد، وهذا بالقطع، ولم يقتل أحداً إلا الزاني المحصن، ولم يقتله قتل المرتد، فإن المرتد يقتل بالسيف بعد الاستتابة، وهذا يرجم بالحجارة بلا استتابة؛ فدل ذلك على أنه وإن نفي عنهم الإيمان، فليسوا عنده مرتدين عن الإسلام مع ظهور ذنوبهم، وليسوا كالمنافقين الذين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فأولئك لم يعاقبهم إلا على ذنب ظاهر .

وبسبب الكلام في مسألة الإيمان تنازع الناس، هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة ؟ أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة، لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الأسماء؟ وهكذا قالوا في اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج: إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي، لكن زاد في أحكامها، ومقصودهم: أن الإيمان هو مجرد التصديق، وذلك يحصل بالقلب واللسان، وذهبت طائفة ثالثة إلى أن

---

(١) وهل قول الغلاة إلا نهاية لما قاله المنحرفون الأولون من المرجئة ممن قالوا: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل..الخ؟

فرحم الله شيخ الإسلام كيف أجمل الكلام في هذا المقام وإن فصله في مواضع أخرى.

(٢) ينظر ما كتبناه وإخواننا في «الأصالة» بعنوان « تنوير الأرجاء».

الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف، فهي بالنسبة إلى اللغة مجاز، وبالنسبة إلى عرف الشارع حقيقة .

والتحقيق: أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها، ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة، كما يستعمل نظائرها؛ كقوله -تعالى-: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ [آل عمران:٩٧] فذكر حجاً خاصاً، وهو حج البيت، وكذلك قوله: ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ ﴾ [البقرة:١٥٨] فلم يكن لفظ الحج متناولاً لكل قصد، بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه من غير تغيير اللغة، والشاعر إذا قال:

وأشهد من عوفٍ حُلولاً كثيرةً
يحجّون سِبَّ الزِّبرقان المزعفرا

كان متكلماً باللغة، وقد قيل لفظه: بحج سب الزبرقان المزعفرا، ومعلوم أن ذلك الحج المخصوص دلت عليه الإضافة، فكذلك الحج المخصوص الذي أمر الله به دلت عليه الإضافة أو التعريف باللام، فإذا قيل: الحج فرض عليك، كانت لام العهد تبين أنه حج البيت، وكذلك الزكاة هي اسم لما تزكوا به النفس، وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها، والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكوا به النفس؛ كما قال -تعالى-:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ [التوبة:١٠٣].

وكذلك ترك الفواحش مما تزكوا به، قال -تعالى-: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور:٢١]، وأصل زكاتها بالتوحيد وإخلاص الدين لله، قال -تعالى-: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝ ﴾ [فصلت:٦-٧].

وهي عند المفسرين: التوحيد.

وقد بين النبي ﷺ مقدار الواجب، وسماها: الزكاة المفروضة، فصار لفظ الزكاة إذا عرف باللام ينصرف إليها لأجل العهد، ومن الأسماء ما يكون أهل العرف نقلوه، وينسبون ذلك إلى الشارع، مثل لفظ التيمم، فإن الله -تعالى- قال:﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ ﴾ [المائدة:٦] فلفظ التيمم استعمل في معناه المعروف في اللغة، فإنه أمر بتيمم الصعيد ثم أمر بمسح الوجوه والأيدي منه، فصار لفظ التيمم في عرف الفقهاء يدخل فيه هذا المسح، وليس هو لغة الشارع، بل الشارع فرّق بين تيمم الصعيد وبين المسح الذي يكون بعده، ولفظ الإيمان أمر به مقيداً بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكذلك لفظ الإسلام بالاستسلام لله رب العالمين، وكذلك لفظ الكفر مقيداً، ولكن لفظ النفاق[1] قد قيل: إنه لم تكن العرب تكلمت به، لكنه مأخوذ من كلامهم، فإن نفق يشبه خرج، و منه نفقت الدابة: إذا ماتت، ومنه نافقاء اليربوع، والنفق في الأرض، قال-تعالى-: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:٣٥]، فالمنافق هو الذي خرج من الإيمان باطناً بعد دخوله فيه ظاهراً، وقيد النفاق بأنه نفاق من الإيمان، ومن الناس من يسمي من خرج عن طاعة الملك منافقاً عليه، لكن النفاق الذي في القرآن هو النفاق على الرسول، فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الأسماء كخطاب الناس بغيرها، وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعاً.

وقد بين الرسول تلك الخصائص، والاسم دل عليها، فلا يقال: إنها منقولة، ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم، بل الاسم إنما استعمل على وجه

---

(١) ينظر كتاب الشيخ محمد موسى نصر «المنافقون في الكتاب والسنة وآثار السلف».

يختص بمراد الشارع، لم يستعمل مطلقاً، وهو إنما قال: ﴿أقيموا الصَّلاة﴾ بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها، فكان التعريف منصرفاً إلى الصلاة التي يعرفونها، لم ينزل لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه، ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة: إنه عام للمعنى اللغوي، أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك، فأقوالهم ضعيفة؛ فإن هذا اللفظ إنما ورد خبراً أو أمراً، فالخبر؛ كقوله: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ ﴾ [العلق:٩-١٠]، وسورة (إقرأ) من أول ما نزل من القرآن، وكان بعض الكفار إما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي ﷺ عن الصلاة وقال: لئن رأيته يصلي لأطأن عنقه، فلما رآه ساجداً رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه[1]، فإذا قيل: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ ﴾ فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ، ولا عموم .

ثم إنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي ﷺ لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم، وكان جبرائيل يؤم النبي ﷺ، والمسلمون يأتمون بالنبي ﷺ، فإذا قيل لهم: ﴿ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ عرفوا أنها تلك الصلاة، وقيل: إنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار، فكانت -أيضاً-، فلم يخاطبوا باسم من هذه الأسماء إلا ومسماه معلوم عندهم، فلا إجمال في ذلك، ولا يتناول كل ما يسمى حجاً ودعاءاً وصوماً، فإن هذا إنما يكون إذا كان اللفظ مطلقاً، وذلك لم يرد.

وكذلك الإيمان والإسلام وقد كان معنى ذلك عندهم من أظهر الأمور، وإنما سأل ﷺ عن ذلك وهم يسمعون وقال: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة بنحوه.

دينكم»[١]؛ ليبين لهم كمال هذه الأسماء وحقائقها التي ينبغي أن تقصد؛ لئلا يقتصروا على أدنى مسمياتها، وهذا كما في الحديث الصحيح أنه قال: «ليس المسكين هذا الطواف الذي تردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له؛ فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافاً»[٢] فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج، وكان ذلك مشهوراً عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال، فيبين النبي ﷺ أن الذي يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته بإعطاء الناس له، والسؤال له بمنزلة الحرفة، وهو وإن كان مسكيناً يستحق من الزكاة إذا لم يعط من غيرها كفايته، فهو إذا وجد من يعطيه كفايته، لم يبق مسكيناً، وإنما المسكين المحتاج الذي لا يسأل ولا يعرف فيعطى، فهذا هو الذي يجب أن يقدم في العطاء، فإنه مسكين قطعاً، وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله، وكذلك قوله: «الإسلام هو الخُمُس»[٣] يريد أن هذا كله واجب داخل في الإسلام، فليس للإنسان أن يكتفي بالإقرار بالشهادتين، وكذلك الإيمان يجب أن يكون على هذا الوجه المفصل، لا يكتفي فيه بالإيمان المجمل، ولهذا وصف الإسلام بهذا.

وقد اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين؛ فهو كافر، وأما الأعمال الأربعة، فاختلفوا في تكفير تاركها، ونحن إذا قلنا: أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب، فإنما نريد به المعاصي؛ كالزنا والشرب، وأما هذه

---

(٢) أخرجه مسلم (٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

(٣) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، بمعناه.

المباني؛ ففي تكفير تاركها نزاع مشهور، وعـن أحمد في ذلـك نـزاع، وإحـدى الروايات عنه: أنه يكفر من ترك واحدة منها، وهو اختيار أبي بكر وطائفة من أصحاب مالك، كابن حبيب، وعنـه روايـة ثانيـة: لا يكفـر إلا بـترك الصلاة والزكاة فقط، ورواية ثالثة: لا يكفر إلا بترك الصلاة، والزكاة إذا قاتل الإمـام عليها، ورابعة: لا يكفر إلا بترك الصلاة، وخامسة: لا يكفر بترك شيء منهن.

وهذه أقوال معروفة للسلف:

قال الحكم بن عتيبة: من ترك الصلاة متعمـداً؛ فقـد كفـر، ومـن تـرك الزكاة متعمداً؛ فقد كفر، ومن ترك الحج متعمداً؛ فقد كفر، ومـن تـرك صـوم رمضان متعمداً؛ فقد كفر.

وقال سعيد بن جبير: من ترك الصلاة متعمدا؛ فقـد كفـر بـالله، ومـن ترك الزكاة متعمداً؛ فقد كفر بالله، ومن ترك صوم رمضان متعمداً؛ فقـد كفـر بالله.

وقال الضحاك: لا ترفع الصلاة إلا بالزكاة.

وقال عبد الله بن مسعود: من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة؛ فـلا صـلاة له. رواهنّ أسد بن موسى.

وقال عبد الله بن عمرو: من شرب الخمر ممسـياً؛ أصبـح مشـركاً، ومـن شربه مصبحاً؛ أمسى مشركاً.

فقيل لإبراهيم النخعي: كيف ذلك؟

قال: لأنه يترك الصلاة.

قال أبو عبد الله الأخنس في «كتابه»: من شرب المسكر؛ فقـد تعـرض لترك الصلاة، ومن ترك الصلاة؛ فقد خرج من الإيمان.

ومما يوضح ذلك أن جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، كان في آخر الأمر بعد فرض الحج، والحج إنما فرض سنة تسع أو عشر.

وقد اتفق الناس على أنه لم يفرض قبل ست من الهجرة، ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يأمر الناس بالإيمان، ولم يبين لهم معناه إلى ذلك الوقت، بل كانوا يعرفون أصل معناه، وهذه المسائل لبسطها موضع آخر.

والمقصود هنا: أن من نفى عنه الرسول اسم الإيمان أو الإسلام، فلا بد أن يكون قد ترك بعض الواجبات فيه وإن بقي بعضها، ولهذا كان الصحابة والسلف يقولون:إنه يكون في العبد إيمان ونفاق.

قال أبو داود السجستاني: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا وكيع، عن الأعمش عن شقيق، عن أبي المقدام، عن أبي يحيى قال:سئل حذيفة عن المنافق.قال: الذي يعرف الإسلام ولا يعمل به.

وقال أبو داود: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري عن حذيفة قال:القلوب أربعة:

قلب أغلف؛ فذلك قلب الكافر، وقلب مصفح؛ وذلك قلب المنافق، وقلب أجرد فيه سراج يزهر؛ فذلك قلب المؤمن، وقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل شجرة يمدها ماء طيب، ومثل النفاق مثل قرحة يمدها قيح ودم، فأيهما غلب عليه غلب».

وقد روي مرفوعاً، وهو في «المسند» مرفوعاً[1].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٨٥) من حديث حذيفة موقوفاً.
وقد روي مرفوعاً من حديث أبي سعيد: أخرجه أحمد (١٧/ ٢٠٨/ ١١١٢٩).
قال شيخنا الألباني -رحمه الله- «والمرفوع إسناده ضعيف، والصحيح موقوف».

وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله -تعالى-: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [آل عمران:١٦٧]؛ فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب، فلما كان يوم أحد، غلب نفاقهم؛ فصاروا إلى الكفر أقرب.

وروى عبد الله بن المبارك، عن عوف بن أبي جميلة، عن عبد الله بن عمرو بن هند، عن علي بن أبي طالب قال:إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب، فكلما ازداد العبد إيماناً ازداد القلب بياضاً، حتى إذا استكمل الإيمان ابيضَّ القلبُ كلُّه، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب ، فكلما ازداد العبد نفاقاً ازداد القلب سواداً، حتى إذا استكمل النفاق اسوَّد القلبُ، وأيم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه أسود(١).

وقال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب؛ كما ينبت الماء البقل رواه أحمد وغيره(٢) .

---

(١) ضعيف- أخرجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (٥٠٤/ ١٤٤٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ١١/ ١٠٣٧٠)، و«الإيمان» (٥/ ٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ١٨٢-١٨٣/ ٣٧-ط الهندية) من طريق عوف الأعرابي عن عبد الله بن عمرو بن هند عن علي به.

وسنده ضعيف؛ لانقطاعه؛ فإن عبد الله بن عمرو بن هند لم يثبت سماعه من علي؛ كما قال الحافظ في «التقريب».

وبه أعله شيخنا -رحمه الله- في تعليقه على كتاب «الإيمان».

(٢) أخرجه البيهقي(١٠/ ٢٢٣) موقوفاً، وهو الذي رجحه الأئمة كابن القيم وابن رجب وأما المرفوع؛ فلا يصح.

وهذا كثير في كلام السلف، يبينون أن القلب قد يكون فيه إيمان ونفاق، والكتاب والسنة يدلان على ذلك، فإن النبي ﷺ ذكر شعب الإيمان، وذكر شعب النفاق، وقال: «من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها»(١) ، وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الإيمان، ولهذا قال: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»(٢)؛ فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار، وإن كان معه كثير من النفاق، فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار، وعلى هذا؛ فقوله للأعراب: ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:١٤]؛ نفي حقيقة دخول الإيمان في قلوبهم، وذلك لا يمنع أن يكون معهم شعبة منه؛ كما نفاه عن الزاني والسارق، ومن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومن لا يأمن جاره بوائقه وغير ذلك، كما تقدم ذكره، فإن في القرآن والحديث ممن نفي عنه الإيمان لترك بعض الواجبات شيء كثير.

وحينئذ فنقول: من قال من السلف: أسلمنا؛ أي: استسلمنا خوف السيف، وقول من قال :هو الإسلام، الجميع صحيح؛ فإن هذا إنما أراد الدخول في الإسلام، والإسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون، فيدخل فيه من كان في قلبه إيمان ونفاق، وقد علم أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، بخلاف المنافق المحض الذي قلبه كله أسود، فهذا هو الذي يكون في الدرك الأسفل من النار، ولهذا كان الصحابة يخشون النفاق على أنفسهم، ولم يخافوا التكذيب لله ورسوله، فإن المؤمن يعلم من نفسه أنه لا يكذب الله

---

(١) البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٣/ ٣٢٥) بنحوه.

ورسوله يقيناً، وهذا مستند من قال: أنا مؤمن حقاً، فإنه أراد بذلك ما يعلمه من نفسه من التصديق الجازم، ولكن الإيمان ليس مجرد التصديق، بل لا بد من أعمال قلبية تستلزم أعمالاً ظاهرة كما تقدم، فحب الله ورسوله من الإيمان، وحب ما أمر الله به وبغض ما نهى عنه، وهذا من أخص الأمور بالإيمان، ولهذا ذكر النبي ﷺ في عدة أحاديث أن: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»[1] فهذا يحب الحسنة ويفرح بها، ويبغض السيئة ويسوؤه فعلها وإن فعلها بشهوة غالبة، وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمان.

ومعلوم أن الزاني حين يزني إنما يزني لحب في نفسه لذلك الفعل، فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة، أو حب الله الذي يغلبها لم يزن؛ ولهذا قال -تعالى- عن يوسف -عليه السلام-: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤] فمن كان مخلصاً لله حق الإخلاص لم يزن، وإنما يزني لخلوه عن ذلك، وهذا هو الإيمان الذي ينزع منه، لم ينزع منه نفس التصديق، ولهذا قيل: هو مسلم وليس بمؤمن، فإن المسلم المستحق للثواب لابد أن يكون مصدقاً، وإلا كان منافقاً، لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الأحوال الإيمانية الواجبة مثل كمال محبة الله ورسوله، ومثل خشية الله والإخلاص له في الأعمال والتوكل عليه، بل يكون الرجل مصدقاً بما جاء به الرسول، وهو مع ذلك يرائي بأعماله، ويكون أهله وماله

---

(١) صحيح- أخرجه الترمذي (٢١٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩٢١٩-٩٢٢٦)، وابن المبارك في «المسند» (٢٤١)، وأحمد في «المسند» (١١٤).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

وصححه ابن حبان والحاكم والذهبي وشيخنا العلامة الألباني.

أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله، وقد خوطب بهذا المؤمنون في آخر الأمر في سورة (براءة) فقيل لهم: ﴿ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة:٢٤] ومعلوم أن كثيراً من المسلمين أو أكثرهم بهذه الصفة.

وقد ثبت أنه لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإنما المؤمن من لم يَرْتَبْ وجاهد بماله ونفسه في سبيل الله، فمن لم تقم بقلبه الأحوال الواجبة في الإيمان؛ فهو الذي نفى عنه الرسول الإيمان وإن كان معه التصديق، والتصديق من الإيمان، ولابد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله، وإلا؛ فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيماناً البتة، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس، وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية.

قال الحميدي: سمعت وكيعاً يقول: أهل السنة يقولون:الإيمان قول وعمل، والمرجئة يقولون: الإيمان قول، والجهمية يقولون: الإيمان المعرفة.

وفي رواية أخرى عنه: وهذا كفر.

قال محمد بن عمر الكلابي: سمعت وكيعاً يقول: الجهمية شر من القدرية.

قال: وقال وكيع: المرجئة: الذين يقولون: الإقرار يجزىء عن العمل، ومن قال هذا؛ فقد هلك، ومن قال: النية تجزىء عن العمل؛ فهو كفر، وهو قول جهم، وكذلك قال أحمد بن حنبل.

ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة، ومن شعائر السنة، وحكى غير واحد الإجماع على ذلك، وقد ذكرنا عن الشافعي -رضي الله عنه- ما ذكره من الإجماع على ذلك قوله في «الأم»: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزيء واحد من الثلاثة إلا بالآخر.

وذكر ابن أبي حاتم في «مناقبه» سمعت حرملة يقول: اجتمع حفص الفرد ومصلاق الأباضي عند الشافعي في دار الجروي، فتناظرا معه في الإيمان، فاحتج مصلاق في الزيادة والنقصان، واحتج حفص الفرد في أن الإيمان قول، فعلا حفص الفرد على مصلاق وقوي عليه، وضعف مصلاق، فحمي الشافعي وتقلد المسألة على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص؛ فطحن حفصاً الفرد، وقطعه.

وروى أبو عمر الطلمنكي بإسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمال قال: أملى علينا إسحاق بن راهويه: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، لا شك أن ذلك كما وصفنا، وإنما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة، وآحاد أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين، وهلم جراً على ذلك، وكذلك بعد التابعين من أهل العلم على شيء واحد لا يختلفون فيه، وكذلك في عهد الأوزاعي بالشام، وسفيان الثوري بالعراق، ومالك بن أنس بالحجاز، ومعمر باليمن، على ما فسرنا وبينا، أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقال إسحاق: من ترك الصلاة متعمداً حتى ذهب وقتها، الظهر إلى المغرب، والمغرب إلى نصف الليل، فإنه كافر بالله العظيم، يستتاب ثلاثة أيام، فإن لم يرجع، وقال:تركها لا يكون كفراً،ضربت عنقه؛ يعني: تاركها، وقائل ذلك، وأما إذا صلى وقال ذلك، فهذه مسألة اجتهاد، قال : واتبعهم على ما

وصفنا من بعدهم من عصرنا هذا أهل العلم، إلا مـن بـاين الجماعـة، واتبـع الأهواء المختلفة، فأولئك قوم لا يعبأ الله بهم لما باينوا الجماعة.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام الإمـام، ولـه كتـاب مصنـف في الإيمـان، قال: هذه تسمية من كان يقول: الإيمان قول وعمل؛ يزيد وينقص.

من أهل مكة: عبيد بن عمير الليثي، عطاء بن أبي رباح، مجاهد بن جبر، ابن أبي مليكة، عمرو بن دينار، ابن أبي نجيح، عبيد الله بن عمر، عبـدالله بـن عمرو بن عثمان، عبد الملك بن جريج، نافع بن جبير، داود بـن عبـد الرحمـن العطار، عبد الله بن رجاء.

ومن أهل المدينة:محمد بن شهاب، ربيعة بن أبي عبد الرحمن، أبو حازم؛ الأعـرج، سـعد بـن إبراهيـم بـن عبـد الرحمـن بـن عـوف، يحيـى بـن سـعيد الأنصاري، هشام بن عروة بن الزبير،عبد الله بـن عمـر العمـري، مـالك بـن أنس، محمد بن أبي ذئب، سليمان بن بلال، عبد العزيز بن عبـد الله – يعـني: الماجشون –، عبد العزيز بن أبي حازم .

ومن أهل اليمن : طاوس اليماني، وهب بـن منبـه، معمـر بـن راشـد، عبدالرازق بن همام .

ومن أهل مصر والشام : مكحول، الأوزاعي، سـعيد بـن عبـد العزيـز، الوليد بن مسلم، يونس بن يزيد الأيلي، يزيد بن أبي حبيب، يزيد بن شـريح، سعيد بن أبي أيوب، الليث بن سـعد، عبـد الله بـن أبـي جعفـر، معاويـة بـن صالح، حيوة بن شريح، عبد الله بن وهب.

وممن سكن العواصم وغيرها من الجزيرة : ميمون بن مهران، يحيـى بـن عبد الكريم، معقل بن عبيد الله، عبيد الله بن عمـرو الرقـي، عبـد الملـك بـن مالك ،المعافى بن عمران، محمد بن سلمة الحراني، أبو إسحاق الفزاري، مخلد

بن الحسين، علي بن بكار، يوسف بن أسباط، عطاء بن مسلم، محمد بن كثير، الهيثم بن جميل.

ومن أهل الكوفة: علقمة، الأسود بن يزيد، أبو وائل، سعيد بن جبير، الربيع بن خثيم، عامر الشعبي، إبراهيم النخعي، الحكم بن عتيبة، طلحة بن مصرف، منصور بن المعتمر، سلمة بن كهيل، مغيرة الضبي، عطاء بن السائب، إسماعيل بن أبي خالد، أبو حيان، يحيى بن سعيد، سليمان بن مهران الأعمش، يزيد بن أبي زياد، سفيان بن سعيد الثوري، سفيان بن عيينة، الفضيل بن عياض، أبو المقدام، ثابت بن العجلان، ابن شبرمة، ابن أبي ليلى، زهير، شريك بن عبد الله، الحسن بن صالح، حفص بن غياث، أبو بكر بن عياش، أبو الأحوص، وكيع بن الجراح، عبد الله بن نمير، أبو أسامة، عبد الله ابن إدريس، زيد بن الحباب، الحسين بن علي الجعفي، محمد بن بشر العبدي، يحيى بن آدم، ومحمد، ويعلى، وعمرو بن عبيد.

ومن أهل البصرة: الحسن بن أبي الحسن، محمد بن سيرين، قتادة بن دعامة، بكر بن عبد الله المزني، أيوب السختياني، يونس بن عبيد، عبد الله بن عون، سليمان التيمي، هشام بن حسان الدستوائي، شعبة بن الحجاج، حماد بن سلمة، حماد بن زيد، أبو الأشهب، يزيد بن إبراهيم، أبو عوانة، وهيب بن خالد، عبد الوارث بن سعيد، معتمر بن سليمان التيمي، يحيى بن سعيد القطان، عبد الرحمن بن مهدي، بشر بن المفضل، يزيد بن زريع، المؤمل بن إسماعيل، خالد بن الحارث، معاذ بن معاذ، أبو عبد الرحمن المقري.

ومن أهل واسط : هشيم بن بشير، خالد بن عبد الله، علي بن عاصم، يزيد بن هارون، صالح بن عمر، عاصم بن علي.

ومن أهل المشرق : الضحاك بن مزاحم، أبو حمزة، نصر بن عمران، عبد الله بن المبارك، النضر بن شميل، جرير بن عبد الحميد الضبي.

قال أبو عبيد: هؤلاء جميعاً يقولون: الإيمان قول وعمل؛ يزيد وينقص، وهو قول أهل السنة المعمول به عندنا.

قلنا: ذكر من الكوفيين من قال ذلك أكثر مما ذكر من غيرهم؛ لأن الإرجاء في أهل الكوفة كان أولاً فيهم أكثر، وكان أول من قاله حماد بن أبي سليمان، فاحتاج علماؤها أن يظهروا إنكار ذلك، فكثر منهم من قال ذلك، كما أن التجهم وتعطيل الصفات لما كان ابتداء حدوثه من خراسان، كثر من علماء خراسان ذلك الوقت من الإنكار على الجهمية ما لم يوجد قط لمن لم تكن هذه البدعة في بلده ولا سمع بها؛ كما جاء في حديث: «إن لله عند كل بدعة يكاد بها الإسلام وأهله من يتكلم بعلامات الإسلام، فاغتنموا تلك المجالس، فإن الرحمة تنزل على أهلها»[1] أو كما قال.

وإذا كان من قول السلف: إن الإنسان يكون فيه إيمان ونفاق، فكذلك في قولهم: إنه يكون فيه إيمان وكفر، ليس هو الكفر الذي ينقل عن الملة؛ كما قال ابن عباس وأصحابه في قوله -تعالى-: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ١٠٠)، والشجري في «الأمالي» (٢/ ٣٠٧) من طريق عبد الغفار المدني، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً به.

قلنا: إسناده ضعيف؛ فيه عبد الغفار المدني؛ وهو مجهول.

قال العقيلي: «مجهول بالنقل، حديثه غير محفوظ، ولا يعرف إلا به».

وقال الذهبي في «الميزان»: «لا يعرف ، وكأنه أبو مريم، وخبره موضوع».

وتعقبه شيخنا الألباني -رحمه الله- في «الضعيفة» (٢/ ٢٦٠-٢٦١): «اسم أبي مريم: عبد الغفار بن القاسم الأنصاري، صرح غير واحد بأنه كان يضع الحديث، ولكنه معدود في أهل الكوفة، وهذا مدني».

فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] قالوا: كفر لا ينقل عن الملة، وقد اتبعهم على ذلك أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة .

قال الإمام محمد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة»[١]: اختلف الناس في تفسير حديث جبريل هذا، فقال طائفة من أصحابنا: قول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله» وما ذكر معه كلام جامع مختصر له غور، وقد أوهمت المرجئة في تفسيره، فتأولوه على غير تأويله؛ قلة معرفة منهم بلسان العرب، وغور كلام النبي ﷺ الذي أعطي جوامع الكلم وفواتحه، واختصر له الحديث اختصاراً ﷺ ، أما قوله: «الإيمان أن تؤمن بالله»؛ فأن توحده وتصدق به بالقلب واللسان وتخضع له ولأمره بإعطاء العزم للأداء لما أمر، مجانباً للاستنكاف والاستكبار والمعاندة، فإذا فعلت ذلك، لزمت محابه ﷺ، واجتنبت مساخطه، وأما قوله: «وملائكته»؛ فأن تؤمن بمن سمى الله لك منهم في كتابه، وتؤمن بأن لله ملائكة سواهم، لا يعرف أساميهم وعددهم إلا الذي خلقهم.

وأما قوله: «وكتبه»؛ فأن تؤمن بما سمى الله من كتبه في كتابه من التوراة والإنجيل والزبور خاصة، وتؤمن بأن لله سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الذي أنزلها، وتؤمن بالفرقان، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الكتب، إيمانك بغيره من الكتب إقرارك به بالقلب واللسان، وإيمانك بالفرقان إقرارك به واتباعك ما فيه .

وأما قوله: «ورسله»؛ فأن تؤمن بما سمى الله في كتابه من رسله، وتؤمن بأن لله سواهم رسلاً وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم، وتؤمن بمحمد ﷺ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، إيمانك بسائر الرسل

---

(١) المسمى: «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣٩٢-٣٩٤).

إقرارك بهم، وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه واتباعك ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به، أديت الفرائض، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ووقفت عند الشبهات، وسارعت في الخيرات.

وأما قوله: «واليوم الآخر»؛ فأن تؤمن بالبعث بعد الموت، والحساب والميزان، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وبكل ما وصف الله به يوم القيامة.

وأما قوله: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»؛ فأن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولا تقل: لولا كذا وكذا؛ لكان كذا وكذا، ولو كان كذا وكذا لم يكن كذا وكذا.

قال: فهذا هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر»[1].

١٧/٢٠٢- الكذب لا يخلو من دليل على بطلانه.

قال البقاعي:

«ولما علموا أنه لا يصدقهم من وجوه منها:

ما هو عليه من صحة الفراسة لنور القلب، وقوة الحدس.

ومنها: أن الكذب في نفسه لا يخلو عن دليل على بطلانه.

ومنها: أن المرتاب يكاد يعرب عن نفسه»[2].

١٧/٢٠٣- صحة الفراسة والتوسم.

قال البقاعي:

---

(١) «الإيمان» (ص٢٧٤-٢٩٧).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ١٧).

«دليل على صحة الفراسة لنور القلب وقوة الحدس عند يعقوب -عليه السلام-»[1].

١٧/٢٠٤- من دخل مداخل الشبهات اتهم.

قال ابن كثير:

«يقولون: نحن نعلم أنك لا تصدقنا، والحالة هذه لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب؛ فأكله الذئب؟ فأنت معذور في تكذيبك لنا، ولغرابة ما وقع وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا»[2].

١٧/٢٠٥- حيلة الكذاب عذر بارد.

قال العلمي:

«لقد تمركز إخوة يوسف على معذرتهم التي قدموها لأبيهم؛ لأنها تكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة وإن كانت كالثوب الشفاف ينم عما وراءه، وكل أحد يدرك لأول نظرة أنها حيلة مصطنعة؛ فهي في ظهور فسادها كحيلة بعض الفقهاء في الربا التي يسمونها العينة، وقد قيل: إياك والعينة؛ فإنها لعينة.

نعم لقد انتحلوا هذا العذر، وصمموا على حكايته لأبيهم سواء أصادفوا منه إصغاء وقبولا أم لا، مع أن الشيء الذي اتخذوه عذرا ضعيف في

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٧).

(٢) «مختصر ابن كثير» (٢/ ٢٤٣).

العقل جداً، ولكن ماذا يعملون؟ وهم لا يجدون شيئاً يلجأون إليه سواه، ولابد للكذاب من بارد العذر»[١].

١٧/٢٠٦- «تناقض المجرم في دعواه؛ حيث زعموا تركه وهم أخذوه ليلعب»[٢].

قال العلمي:

«وهاهنا لنا عليهم ملاحظة؛ كما لا بد أن يكون لاحظها عليهم أبوهم -عليه السلام- وهي: أنهم كانوا قالوا: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾ [يوسف:١٢]؛ فإنهم الآن لم يفوا بهذا الوعد، ولم يقوموا بما قالوا؛ فإنهم بدلوا يوسف عن الرتع واللعب بالحراسة، فقد جعلوه كحارس لأمتعتهم، وتركوه وحده، ولم يكونوا له من الحافظين، وبهذا يكونوا قد تناقضوا، ولم يتجاوب أول كلامهم وآخره»[٣].

وقال أحمد نوفل:

«وتأمل كم ثوب حجتهم خلق، وهل يستر من سوءة كذبهم شيئاً؟

لقد وعدتم أن يكون الذي يلعب هو الولد؛ فلعبتم أنتم يا كبار وتركتموه، ووعدتم بحراسته فلم تخلفوا يا عصبة عنده أحداً يحرسه بل تركتموه يحرس المتاع، فما عدا مما بدا؟

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٧١-٣٧٢).

(٢) «المنار» (١٢/ ٢٦٦).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٧٣).

وتأمل كيف أعادوا نفس قولة أبيهم: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ [يوسف:١٣] فقالوا: ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ [يوسف:١٧]؛ إن الأمر مكشوف مفضوح...إن حيلتهم شفافة تنم عما وراءهم، وما أشبه حالهم بحال النعامة يظنون أنهم إن أقنعوا أنفسهم سيقنعون الناس، ولماذا لم يأكل الذئب شاه من الغنم بل أكل الولد»[1].

١٧/٢٠٧- الصادق على الحقيقة من صدق قلباً ولساناً وجارحه؛ فلا ينطوي قلبه على كذب ولا ينطق لسانه بكذب.

وصدق من قال:

لي حيلة فيمن ينم ... وليس في الكذب حيله

من كان يخلق ما ... يقول فحيلتي فيه قليله

قال العلمي:

«يقولون: ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ يرحم الله هؤلاء آباء الأسباط، فإنهم ما كانوا صادقين في بكائهم ولا في قولهم: إنهم ذهبوا يستبقون وقد تركوا يوسف عند متاعهم، ولا في قولهم: إن الذئب أكله، فكل ذلك كذب، كما أن الدم الذي جاؤوا به على قميصه كان كذباً؛ فروايتهم هذه التي مثلوها كاذبة من الرأس للعقب ومن الجذر للفرع.

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣١٧).

الصادق عند الاطلاق، والصادق على الحقيقة من صدق قلباً ولساناً وجارحة؛ فلا ينطوي قلبه على كذب، ولا يعمل أعمال كذب، بل يكون في كل أفعاله وأقواله ظاهراً وباطناً على حق، ولكن الجماعة لم يكونوا في شيء من هذا، فالقلب واللسان ليسا بصادقين، وعمل جارحة اليد وهو تلويث القميص بالدم ليس بصادق، وعمل جارحة العين وهو البكاء ليس بصادق.

هم يقولون لأبيهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾، وهم إنما يعبرون بذلك عن إحساس أبيهم، عجبت لهم، يعلمون أن ما قالوا كذب سحاق، وافتراء حَنْبَريت، ويدّعون الصدق! كما قال الشاعر:

ومن البلية أن يسمى صادقاً
من وصفه الأولى كذوب ناري
غفران ربك قلما فعل الفتى
ما ليس محوجة إلى استغفار»[1].

١٧/٢٠٨- «العاصي ينتحل الكذب، ويبغي به التأثير على الناس، ولكنه يعلم أنه كاذب، ولا يصدق نفسه ولو صدّقه الناس»[2].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٧٥).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص١٥).

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

١٨/٢٠٩- من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه.

قال أحمد نوفل:

«الآن يواجه الإخوة اختبار الذي كانوا رسموه وأمّلوه، ومقدار نجاح خطتهم التي خططوا ومكرهم الذي مكروه..هل يصلون إلى بغيته، ويبلغون أي طلبتهم من خلو وجه أبيهم، لقد ظنوا أن يوسف إن غاب عن العين سيغيب عن القلب، وما دروا أنه بهذا التغييب عن العين هيجوا كل ذرة في القلب ليتضاعف فيها حب يوسف.

وكانوا يريدون خلو وجه أبيهم، فما خلا لهم منه إلا الاستياء والبغض.. فلم يستفد الإخوة شيئاً، وليتهم حافظوا على منزلتهم الأولى، إنهم لم يستفيدوا سوى أنهم ظلموا أخاهم وباءوا بإثمه وعقوا أباهم وادخلوا عليه الهم والقلق.

وهذه نتيجة كل فعل يدلي فيه الشيطان الإنسان بغرور، حتى إذا صار في قرارة البئر قطع به الحبل.

إن الذي سقط في تجربة البئر هم الإخوة، وأن الذي ارتفع حين سقط في البئر هو يوسف»[(١)].

١٨/٢١٠- الاستدلال بلوازم الجريمة على كذبها وافتعالها.

قال القرطبي:

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣١٦).

«لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي: سلامة القميص من التنييب، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص، ويسلم القميص من التخريق، ولما تأمل يعقوب -عليه السلام- القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص؟ قاله ابن عباس وغيره»[1].

١٨/٢١١- يجب إعمال الإمارات في مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها.

قال القرطبي:

«استدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الإمارات في مسائل من الفقه؛ كالقسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب – عليه السلام- استدل على كذبهم بصحة القميص، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الإمارات والعلامات إذا تعارضت؛ فما ترجح منها قضي بجانبه الترجيح، وهي قوة التهمة ولا خلاف بالحكم بها؛ قاله ابن العربي»[2].

قال القاسمي:

«وفي «الإكليل» استنبط من هذا الحكم بالإمارات والنظر إلى التهمة حيث قال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ [يوسف:١٨]»[3].

١٨/٢١٢- أن الإنسان وإن كان نبياً يخلق أولاً على طبع البشرية.

قال القاسمي:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٤٩).

(٢) المرجع السابق (٩/ ١٥٠).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٤).

«وأن الإنسان وإن كان نبياً يخلق أولاً على طبع البشرية، وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل، وأن القدر كائن وأن الحذر لا يغني من القدر»[١].

١٨/٢١٣- التلبس بالصبر لا يكون إلا بمعونة الله -تعالى-.

قال البغوي: «أي: استعين بالله على الصبر على ما تكذبون»[٢].

قلنا: لهذا قال موسى -عليه السلام- ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨].

١٨/٢١٤- «وأن الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه»[٣].

قال القاسمي:

«فصبر أجمل، والصبر قوة للنفس على احتمال الآلام؛ كالمصائب إذا عرضت، والجميل منه هو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ولا جزع، رضا بقضاء الله، ووقوفاً مع مقتضى العبودية»[٤].

١٨/٢١٥- من وسد إليه أمر ينبغي أن يكون أهلاً له.

لو صحت دعوى إخوة يوسف أنهم تركوه عند متاعهم يحرسها؛ فإنها دعوى ضعيفة؛ لأن يوسف -عليه السلام- صغير لا يستطيع دفع الأذى عن

---

(١) المرجع السابق (٦/ ٢٠٥).

(٢) «مختصر معالم التنزيل» (١/ ٤٣٤).

(٣) «زاد المسير» (٤/ ١٩٣)، و«مختصر معالم التنزيل» (١/ ٤٣٤)، و«أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٠).

(٤) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٥)، وانظر «تفسير السمرقندي»(٢/ ١٥٤).

نفسه بله متاعهم، ولذلك فقولهم ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ خجة عليهم.

قال صديق حسن خان: «﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ الفاء للتعقيب؛ أي: أكله عقب ذلك، وقد اعتذروا إليه بما خافه سابقاً عليه، ورب كلمة تقول لصاحبها دعني»[١].

١٨/٢١٦- الدواعي النفسية تدعو إلى إظهار الجزع وهي قوية.

قال القاسمي:

«قال الرازي: لأن الدواعي النفسانية تدعو إلى إظهار الجزع، وهي قوية، والدواعي الروحانية تدعو إلى الصبر والرضا؛ فكأنهما في تحارب وتجالد فما لم تحصل إعانته- تعالى- لم تحصل الغلبة؛ فقوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾»[٢].

قلنا: وهذا من باب قرن الربوبية بالألوهية، وهكذا غالب السياقات القرآنية.

١٨/٢١٧-النفس تسول وتزين وتسهل حتى الأمور العظام.

قال العلمي:

«لفظة ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ لطيفة لينة، ولكن المعنى الذي فيها جارح؛ فهو كما يقول بعض المعاصرين في نظيره: «الكلام أنثى، والمعنى ذكر» يقال: سولت له نفسه كذا : زينت وسهلت، وسول له الشيطان: أغواه، من

---

(١) «فتح البيان» (٣/ ٣٩٤).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٥-٢٠٦).

«السَّوَل» محركة، وهو الاسترخاء، وقد سَوِل كَفَرِح، والأسول: من في أسفله استرخاء، وسَوَّل له: سهل له ركوب العظائم، ومن غرائب الاتفاق أن هذه المادة لم تسند في كتاب الله إلا لثلاثة:

١- للسامري الوثني، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾.

٢- لأخوة يوسف العشرة، وذلك في قول يعقوب لهم:
﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾.

٣- للشيطان، في قوله -تعالى-: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

ونرى أباهم قال لهم: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ فكأنه كان يرى أنهم عملوا معه مكيدة ولابدّ، ولكن كان لا يراها إلا إجمالاً؛ لأنها لم تتعين عنده صورتها، إذ اشتبه في نظره شكلها واختلط، وغمّ عليه أمرها واستعجم.

والتنكير في «أمراً» إما للتعظيم والتفخيم؛ كأنه يقول: أمراً عظيماً ارتكبتموه في يوسف، وهوّنته عليكم نفوسكم، أمراً ذا بال، أمراً من نوع الدهاء والخبّ، أمراً فيه دسيسة ومكر .

أو للإبهام؛ فكأنه يقول: أمراً من الأمور المستورة، أمراً تحت طي الكتمان، أمراً لا يعلمه إلا أنتم ويوسف»[١].

١٨/٢١٨- جواز الاعتراض ولو بظن إن لم يرض الصنيع[٢].

١٨/٢١٩-الأنبياء هداة لا جبارون وأدلة خير لا قاهرون.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٠٧-٤٠٩).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٣).

قال العلمي:

«وأني بهذه المناسبة- والشي بالشيء يذكر- ذاكراً للقراء الكرام انتقاداً كان ورد علي من بعض«دعاة النصرانية» وهو قوله: (إننا نحن المسيحيين[١] كاليهود جميعاً لا نقول بنبوة يعقوب، ولعمرنا لو كان نبياً ورسولاً كما تقولون أيها المسلمون الأعزاء لكان على الأقل أثر الهداية والطاعة والتقوى في أولاده العشرة الصلبيين).

هذه ملاحظة ذلك البروتستانتي، وأما الفقير؛ فإنني أجبته بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين، وما عليهم إلا تبليغ دين الله وإقامته، وليس لهم من الأمر شيء، ولا يملكون لأحدهم ضراً ولا نفعاً، وليس عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة، فلا يهدون فعلاً من أحبوا ولا من كان من أقاربهم، ولا يغنون عنه من الله شيئاً، وإن كان أقرب الناس إليهم في النسب وأحبهم إليهم في المعاملة الدنيوية؛ فالأنبياء هداة لا جبارون، وأدلة خير لا قاهرون، هذه قاعدة التوحيد الهادمة لقاعدة الوثنية، بالفصل بين ما هو لله وما هو لرسله، وأما قاعدة المسيحيين[١] -بعد ابتداعهم في الدين اعتباراً من تاريخ مقررات بيزنطية- فهي كقاعدة وثنية العرب من إتخاذ أولياء من العباد كالمسيح وأمه وسائر كبار رجال الدين، يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده في شؤون الخلق والإيجاد والإشقاء والإسعاد والسلب والإمداد، لا في مجرد التبليغ والإرشاد، قياساً على ما يعهدون من الأقربين والمقربين عند الملوك

(١) بل النصارى الحيارى.

المستبدين»[١].

١٨/٢٢٠- بنو إسرائيل أهل حيل وغدر ومكر.

قال العلمي:

«قص الله علينا ما أجراه بنو إسرائيل من أبيهم، وبعضهم على بعض؛ لنكون على بصيرة من أعمالهم معنا، وعلى حذر من حيلهم علينا؛ لأنهم إذا كانوا يفعلون هذه الأفعال مع أصولهم وحواشيهم الأقربين فماذا عسى أن تكون أعمالهم مع من لم يكن من عنصرهم؟!

وأقرب الشواهد على حيلهم، ودهائهم ما أجروه من الكيد للنبي ﷺ في الحجاز، بل كانوا يكيدون في جميع بقاع الأرض غير الإسلامية، حتى ما كان بكيدهم وختلهم من هدم صروح البابوات والملوك المستعبدين لهم في أوربا، وإدالة الحكومات المدنية من حكم الكنيسة، وقد كادوا ولا يزالون يكيدون لهدم نفوذ الديانة النصرانية من دول أوروبا، باسم الحرية والمدنية، كما أنهم بكيدهم جعلوا الدولة الفرنسية ككرة اللعب في أيديهم، إذ أخذوا يسعون في إزالة سلطة الكنيسة عنها، وحملها على عقوقها، بعدما كانت فرنسة تدعى «بنت الكنيسة البكر» ثم حملوها على الظلم الجائر القبيح في الجزائر؛ مع أنها الدولة التي تفاخر الأمم بالعدل والمساواة والمدنية، وقد كانت لهم يد في الانقلاب العثماني، وتداخلوا كثيراً مع «الاتحاديين» من العثمانيين، ثم أيام الحرب العالمية تداخلوا مع الحكومة الإنجليزية وساعدوها بالمال؛ ليكون لهم وطن قومي في «بيت المقدس»، ويقيموا فيه «ملك إسرائيل»، ويجعلوا «المسجد الأقصى» معبداً خاصاً لهم.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٩٧).

والخلاصة: إن شأن هؤلاء الناس الدهاء، والحيل، والمحال دائماً وأينما وجدوا، وعلى كل من عداهم!

لذا علينا أن نأخذ من هذه الأعمال موعظة تنفعنا اليوم في معاملتنا مع الصهيونيين في فلسطين! وهي أنه إذا لم يوجد من هؤلاء الإخوة العشرة رحمة وعطف لأبيهم وأخيهم، بل إذا لم يسلم أبوهم وأخوهم من شرورهم، فكيف أن نسلم نحن العرب اليوم من كيدهم؟!»[١].

قلنا: هذا التوسم العِلْمي من الشيخ العِلَمِي- رحمه الله- كان قبل استيلاء أبناء الأفاعي على فلسطين وإقامة دويلة المسخ والخبث في الأرض المباركة بثلاثة عقود. ثم وقع ما حذر منه؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا يدل دلالة واضحة ويقيم الحجة القاطعة أن سبيل المجرمين وأعداء المسلمين قد فصلها الله في كتابه لتستبين ويعلمها المتوسمون، فيكونوا كالنذير العريان الذي لا يكذب أهله.

١٨/٢٢١- انتفاء الخير فساد الفطرة.

قال العلمي:

«إن من فسدت فطرته حتى صار لا خير فيه لأبيه وأخيه لا يرجى منه خيراً للبعداء والأبعدين، ويميناً أن من لا خير فيه لأصله وحاشيته الأقربين فلا خير فيه لأبناء عمه الأبعدين»[٢].

---

(١) المرجع السابق (١/ ٣٩٥-٣٩٦).

(٢) المرجع السابق (١/ ٣٩٧).

قلنا: لقد كرر الشيخ العلمي وصف اليهود بـ «أبناء العم» وهـذا علـى افتراض أن اليهود من نسل الأسباط بني إسـرائيل، ولكـن المعـاصرين منـهم؛ فهم شذاذ الآفاق؛ من كل قطر حفنة، ومن كل بلد جماعة.

فما علاقة يهود الفلاشا ببني إسرائيل؟!

وما علاقة يهود السكناج ببني إسرائيل؟!

وبخاصة أن اليهودية تثبت عندهم من جهة الأم لا جهة الأب فهل هـذا يثبت به نسب حتى يقال: إنهم أبناء عم العرب؟!

١٨/٢٢٢- المسلم إذا وقع في مصيبة التمس لنفسه تعليلاً يريح باله.

قال العلمي:

«رأى يعقوب -عليه السلام- نفسه وقع في شبه مصيبة؛ فالتمس لنفسـه تعليلاً يريح باله علـى ولـده، والمرء ميـال إلى التمـاس مثـل ذلـك التعليـل، والناس يتفاوتون في مقدرتهم على ذلـك؛ فبعضـهم إذا وقـع في مصيبـة هـان عليه تطبيب عواطفـه علـى تلـك المصيبـة؛ فيجعـل لنفسـه مخرجـاً مـن سـوء عواقبها، ومنهم من يزيده الافتكار قلقاً، ولكنــه لا يلبـث وإن طـال قلقـه أن يصل إلى حل يتوكأ عليه، ريثما يـرى مـا يـأتي بـه القـدر، ومـن هـذا القبيـل يعقوب -عليه السلام- سيما ومعرفته بمواعيد الله له في ولده، ومرمـى رؤيـاه قد خفف عليه وطأة تلك النازلة»[١].

١٨/٢٢٣- «المؤمن الحق يقظ القلـب لا ينخـدع بمـا يسـمع مـن أكـاذيب الفجور وأقاويل البهتان»[٢].

---

(١) المرجع السابق نفسه (١/ ٤٠٢).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص١٦).

١٨/٢٢٤- «عند وقوع النوائب يلجأ المؤمن إلى أعظم سلاح يتسلح به في مواجهة المصائب ألا؛ وهو: الصبر الجميل»[١].

١٨/٢٢٥- «أن المؤمن يعلم أن المصيبة من الله -تعالى- فيرضى بها ويسلم لها»[٢].

١٨/٢٢٦- في القميص ثلاث آيات[٣]:

١- حين جاؤوا عليه بدم كذب.

٢- حين قُدَّ من دبر.

٣- وحين ألقي على وجه أبيه؛ فارتد بصيراً.

قلنا: وهذا يؤكد أن القميص له شأن في هذه القصة.

قال العلمي:

«لم يذكر لفظ القميص في كتاب الله - تعالى- إلا في هذه السورة والغريب أنه ذكر فيها في ستة مواضع، من مواضع القصة المهمة، الأمر الذي يحيل إلينا أن القميص ركن من أركان هذه القصة»[٤].

١٨/٢٢٧- أثر الإيمان بالله على النفس الإنسانية:

قال أحمد نوفل:

«الإيمان بالله له أكبر الأثر في النفس الإنسانية، فهو يمدها بالعزاء عند حلول المصائب، ويهبها الطمأنينة؛ لتصمد بها أمام ما يصادفه من كوارث

---

(١) المرجع السابق (ص١٦).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٣٢٣).

(٣) «النكت والعيون» (٣/ ١٥)، و«نظم الدرر» (٤/ ١٧).

(٤) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٩٨).

وأهوال.

وهذا ما يتمثل لنا في تصرفات يعقوب في سلسلة من تاريخ حياته، وفي توجيهه لأولاده:

صبر يعقوب حين تلقى نبأ فقدان يوسف، وإيمانه العميق بلطف العناية الإلهية مستسلماً لها بثقة ويقين.

ثم تلقيه الصدمة القاسية الثانية، وهي: استرقاق ولده؛ فهذه المصيبة ذكرته بيوسف، ففاضت أحزانه؛ فعندما لامه أهله على استرساله في الحزن نراه يقول لهم: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ هذه الجملة تتركز فيها أعمق معاني الإيمان والصمود أمام المصائب التي تذهب عادة بصواب الإنسان، أو تؤدي به إلى الانهيار؛ فيعقوب يقول لهم: إنما أشكو بثي؛ أي: همي العظيم إلى الله، وهو الرحيم القادر على كشف غمي، ولا أشكو إلى العباد الذين لا حول لهم ولا قوة أمام تصاريف القدر.

وأخيراً نرى يعقوب بصورة المؤمن المتفائل بالأمل عندما يوصي أولاده بالبحث عن يوسف وأخيه؛ فيقول لهم: ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ يجدد يعقوب بهذه الآية نفسية المؤمن بأنه لا ييأس من رحمة الله؛ فاليأس كفر بنعمة الحياة وخالقها؛ لأنه يشل حياة الإنسان وإرادته، ويجعله عاجزاً عن السير في ركابها، بينما الإيمان عدو اليأس اللدود؛ إذ هو الأمل والرجاء برحمة الله مهما ادلهمت الخطوب واكفهر الزمان؛ فإن مع العسر يسراً، وإن وراء الضيق فرجاً»[١].

١٨/٢٢٨- معدن الإنسان وأثره في التربية.

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٦٠٨-٦٠٩).

قال أحمد نوفل:

«قد يكون مَنْ هو في بيت النبوة على نفسية جاهلية ضعيفة، وهذا يقفنا على قيمة المعدن الإنساني في جدوى التربية»[(١)].

قلنا: لذا قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن؛ فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[(٢)].

وصدق من قال:

شـــيم الألى أنـــا منـــهم
والأصـــل تتبعـــه الفـــروع

١٨/٢٢٩- أدلة الجريمة دائماً ضعيفة.

قال عبد الحميد كحيل :

«لقد قدموا لأبيهم براهين على صدقهم:

الأول: البكاء.

والثاني: تلويث القميص بالدم.

أما البكاء؛ فلا يخفى اصطناعه على ذي فطنة كيعقوب إذ ليست النائحة كالثكلى.

وأما الدم؛ فهو أبلغ في الدلالة على كذب صانعيه؛إذ لا بد أن يكون ثمة فرق كبير بين الدم الموضوع باليد على القميص وبين آثار الدم المتخلف فيه من أكل الذئب.

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٦٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٦٣٨/ ١٦٠) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

على أنهم كانوا أثناء اعتذارهم مريبين، ويكاد المريب أن يقول: خذوني، ألم يقولوا: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾.

ومن هذا الذي يصطنعون له الحيل ويختلقون له المعاذير ؟ إنه رسول الله مستنير البصيرة، ناضج الفكر؛ فلا تجوز عليه الغفلة»[١].

١٨/٢٣٠- أدلة الجرم دائماً ضده للمتأمل.

قال محمد رشيد رضا:

«المراد من هذه الجملة الفذة في بلاغتها أنهم جاؤوا بقميصه ملطخاً ظاهره بدم غير دم يوسف يدّعون أنه دمه؛ ليشهد لهم بصدقهم؛ فكان دليلاً على كذبهم؛ فنكر الدم، ووصفه باسم الكذب مبالغة في ظهور كذبهم في دعوى أنه دمه حتى كان هو الكذب بعينه؛ فالعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة؛ كما يقولون شاهد عدل وقال: ﴿ عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ ﴾ ليصور أنه موضوع على ظاهره وضعاً متكلفاً»[٢].

١٨/٢٣١- الدعاوى الصادقة تقوم على بينات واضحات.

قال أبو المظفر السمعاني:

«وفيه معنى آخر: وهو أن معنى قوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾: أنك لا تصدقنا؛ لأنه لا دليل لنا على صدقنا، وإن كنا صادقين عند الله»[٣].

وصدق الشاعر إذ قال:

---

(١) «يوسف عليه السلام» (ص٣٩).

(٢) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٦٧).

(٣) «تفسير القرآن» (٣/ ١٥).

والدعـــــــاوى إذ لم يقيمـــــوا عليـــــــها
بينـــــــات أبنائــــــها أدعيـــــــاء

١٨/٢٣٢- حقيقة الصبر، ومراتبه:

قال الفخر الرّازي:

«عن الحسن أنه سئل النبي ﷺ عن قوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾؛ فقال: «صبر لا شكوى فيه؛ فمن بث لم يصبر»[١].

ويدل عليه من القرآن قوله- تعالى-: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

وقال مجاهد: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾: أي: من غير جزع.

وقال الثوري: من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك.

وههنا بحث وهو: أن الصبر على قضاء الله -تعالى- واجب؛ فأما الصبر على ظلم الظالمين ومكر الماكرين؛ فغير واجب، بل الواجب إزالته لا سيما في الضرر العائد إلى الغير.

وههنا أن إخوة يوسف لمّا ظهر كذبهم وخيانتهم فلِمَ صبر يعقوب على ذلك؟ ولِمَ لم يبالغ في التفتيش والبحث سعياً منه في تخليص يوسف -عليه السلام- عن البلية والشدة إن كان في الأحياء وفي إقامة القصاص إن صح أنهم قتلوه؛ فثبت أن الصبر في هذا المقام مذموم.

---

(١) إسناده ضعيف؛ لإرساله؛ وانظر - لزاماً- «عدة الصابرين» لابن قيم الجوزية (١٥٩) بتحقيق الشيخ سليم الهلالي.

ومما يقوي السؤال إنه كان يعلم بأنه حي سليم؛ لأنه قال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ والظاهر أنه إنما قال هذا الكلام من الوحي وإذا كان عالماً بأنه حي سليم فكان الواجب أن يسعى في طلبه، وأيضاً أن يعقوب -عليه السلام- كان رجلاً عظيم القدر في نفسه وكان من بيت عظيم شريف وأهل علم كانوا يعرفونه ويعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ في الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التلبيس، فما السبب في أنه -عليه السلام- مع شدة رغبته في حضور يوسف -عليه السلام- ونهاية حبه له لم يطلبه مع أن طلبه كان من الواجبات؛ فثبت أن هذا الصبر في هذا المقام مذموم شرعاً عقلاً.

والجواب عنه: أن يقال: إنه -سبحانه وتعالى- منعه عن الطلب تشديداً للمحنة عليه، وتغليظاً للأمر عليه، و-أيضاً- لعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده أقوياء وأنهم لا يمكنونه من الطلب والتفحص، وأنه لو بالغ في البحث فربما أقدموا على إيذائه وقتله، و-أيضاً- لعله -عليه السلام- علم أن الله -تعالى- يصون يوسف عن البلاء والمحنة، وأن أمره سيعظم بالآخرة.

ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده وما رضي بإلقائهم في ألسنة الناس، وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأب في العذاب الشديد؛ لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم، وإن انتقم؛ فإنه يحترق قلبه على الولد الذي ينتقم منه، فلما وقع يعقوب -عليه السلام- في هذه البلية رأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر إلى الله -تعالى- بالكلية»[١].

١٨/٢٣٣- التفويض يكون بعد نفاد الأسباب.

---

(١) «تفسير الفخر الرازي» (٩/ ١٠٦-١٠٧).

قال ابن عاشور:

«وإنما فوض يعقوب -عليه السلام- الأمر إلى الله، ولم يسع للكشف عن مصير يوسف -عليه السلام-؛ لأنه تعذر ذلك عليه؛ لكبر سِنّه، ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك.

وقد صاروا هم الساعين في البعد بينه وبين يوسف -عليه السلام-؛ فأيس من استطاعته الكشف عن يوسف-عليه السلام-بدونهم، ألا ترى أنه لما وجد منهم فرصة قال: ﴿ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾»[1].

١٨/٢٣٤- الاقتصار في معرفة المراد من أقصر السبل.

قال البقاعي:

«...فكأنه قيل: هل صدقهم؟ فقيل: لا؛ لأن العادة في مثله أنه لا يأكله كله، فلا بد أن يبقي منه شيء يعرف أنه هو، ولو كان كذلك لأتوا به تبرئة لساحتهم، وليدفنوه في جبانتهم مع بقية أسلافهم، وقد كان قادراً على مطالبتهم بذلك، ولكنه علم أنهم ما قالوا ذلك إلا بعد عزم صادق على أمور لا تطاق؛ فخاف من أن يفتح بالبحث من الشرور أكثر مما جاؤوا به من المحذور؛ بدليل قوله بعد ذلك: ﴿ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ونحو ذلك»[2].

١٨/٢٣٥- الدّعي يضخم الأحداث ويقلب الأمور ليصدقه الناس.

قول يعقوب -عليه السلام- لأبنائه: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ في غاية البلاغة؛ لأنه كان متأكداً من كذبهم، وواثقاً أنهم ألحقوا بأخيهم الضر، وأنهم ضخموا الحدث وقلبوا الأمور؛ ليصدقهم -عليه السلام-.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٤٠).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ١٨).

وكلمة: ﴿ تَصِفُون ﴾ ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم للدلالة على المبالغة في الكذب والبهت.

قال -تعالى-: ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [النحل:٦٢].

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ [النحل:١١٦].

وقال -تعالى-: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨].

وقال -تعالى-: ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:٧٧].

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:١٨].

وقال -تعالى-: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء:١١٢].

وقال- تعالى-: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام:١٠٠].

وقال -تعالى-: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٢].

وقال -تعالى-: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٦].

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الصافات:١٥٨-١٥٩].

وقال -تعالى-: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الصافات:١٨٠].

وقـــال -تعـــالى-: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢ ﴾ [الزخرف:٨٢].

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

١٩/٢٣٦- «جواز الفرح بما يسر والإعلان عنه»[١].

١٩/٢٣٧- «جواز الاحتياط لأمر الدين والدنيا»[٢].

١٩/٢٣٨- النداء في هذه الأشياء التي لا تجيب هو تنبيه المخاطبين.

قال القاسمي:

«قال الزجاج: معنى النداء في هذه الأشياء التي لا تجيب هو تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة؛ فإذا قلت :يا عجباه؛ فكأنك قلت: اعجبوا»[٣].

١٩/٢٣٩- الأشياء الثمينة يكتمها صاحبها.

وذلك لما رأى السيارة الغلام وعلموا حسنه وجماله وتأكدوا من قيمته أخفوه عن غيرهم حتى لا يشاركهم غيرهم.

قال السمعاني:

«وقوله: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ [يوسف:١٩] معناه: أن الوارد ومن كان معه أسروه بضاعة عن أهل الرفقة مخافة أن يطلبوا المشاركة فيه»[٤].

١٩/٢٤٠- تسلية النبي ﷺ عما يجري عليه من الكفار.

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ إن كانت

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٣)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٥٢).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٣).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٦)، وانظر «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٥٤).

(٤) «تفسير القرآن» (٣/ ١٧)، وانظر: «فتح البيان» (٣/ ٣٩٦)، و«أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٢)، و«تفسير القرآن العظيم» (ص٦٨٢).

الضمائر لإخوة يوسف ففي ذلك توعد، وإن كانت الضمائر للواردين؛ ففي ذلك تنبيه على إرادة الله -تعالى- ليوسف، وسوق الأقدار بناء حاله...

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ عما يجري عليه من جهة قريش؛ أي: العاقبة للمتقين هي المراعاة والمنتظر»[١].

١٩/٢٤١-«أن الله محيط علمه وقدرته وبالغ العلم بكل عمل»[٢].

١٩/٢٤٢- «أنه متى كان الله مع إنسان ارتفع من مقر الأسماك إلى منازل الأفلاك خرقاً للعادة»[٣].

١٩/٢٤٣- فرج الله قريب، وسائله لا يخيب.

قال ابن كثير:

«يخبر -تعالى- عن قصة يوسف حين وضع في الجب أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به؛ فجاءت سيارة؛ أي: مسافرون»[٤].

قال القاسمي:

«ومن الفوائد: أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب، وأنه ينتظر للشدة»[٥].

١٩/٢٤٤- مصائب قوم عند قوم فوائد.

قال أحمد نوفل:

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢٩)، وانظر - غير مأمور-: «تفسير القرآن العظيم» (ص٦٨٢).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ١٩).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٢٥٤).

(٤) «البداية والنهاية» (١/ ٢٠٢).

(٥) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٧).

«كان الأمر كما توقع الإخوة، وسار الأمر لا كما توقعوا الأمر، والسيارة هي الصحبة والرفقة والقافلة والركب، والوارد هو الذي يرد ليستقي للقوم.

فأدلى الساقي دلوه لينشل الماء؛ فإذا به يصادف ما لم يكن في الحسبان؛ مفاجأة سارة للساقي هذا الغلام، ومفاجأة محزنة جداً لأبيه فقده، فوائد قوم عند قوم مصائب»[١].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٢٤).

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠ ﴾.

٢٠/٢٤٥- جواز إطلاق لفظ الشراء على البيع[1].

٢٠/٢٤٦- ذكر العدد دليل القلة.

قال الزمخشري:

«قليلة تُعَدّ عّداً، ولا توزن؛ لأنهم كانوا لا يَزِنُون إلا ما بلغ الأوقية، وهي: الأربعون، ويعدّون ما دونها.

وقيل: للقليلة معدودة؛ لأن الكثير يمتنع من عدِّها؛ لكثرتها»[2].

قال القاسمي:

«كناية عن القليل؛ لأن الكثير يوزن عندهم»[3].

٢٠/٢٤٧- هل يجوز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير وهل يكون البيع لازماً؟.

قال القرطبي:

«في هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير، ويكون البيع لازماً؛ ولهذا قال مالك: لو باع درة ذات خطر عظيم بدرهم، ثم قال: لم أعلم أنها درة، وحسبتها مخشلبة؛ لزمه البيع، ولم يلتفت إلى

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٣)، و«الكشاف» (٢/ ٢٤٧).

(٢) «الكشاف» (٢/ ٢٤٧).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٧)، و«نظم الدرر» (٤/ ٢٣)، و«مختصر معالم التنزيل» (١/ ٤٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٣٠)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٥).

قوله»[١].

قلنا: في هذا خلاف بين أهل العلم، والراجح- عندنا- عدم صحة البيع؛ إذا كان فيه غرر وجهالة وغبن، والله أعلم.

٢٠/٢٤٨- الزهد انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه[٢].

٢٠/٢٤٩- البشرى قد يعقبها الحزن والعزة قد يعقبها الذلة.

قال القاسمي:

«وإن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن في خاطره، وأن الشيء الخطير قد يعرض فيه ما يهونه، وأن البشرى قد يعقبها الحزن، والعزة قد يعقبها الذلة، وبالعكس»[٣].

٢٠/٢٥٠- أسواق الرقيق سنة قديمة عند جميع الأمم قبل الإسلام.

قال العلمي:

«وما فعلته السيارة من أخذ يوسف معهم كرقيق سنة قديمة عند جميع الأمم، فقد كان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر؛ فيخطفون الأطفال والغلمان، ويحملونهم إلى الآفاق، يتجرون ببيعهم، كما كانوا يتجرون ببيع الغلمان البيض من أهل إسبانيا وغيرها»[٤].

وقال -أيضاً-:

«كان يوجد قديماً في الممالك الكبيرة كمصر أسواق تسمى «أسواق

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٥٧).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ١٩٧).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٧).

(٤) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤١٨).

الرقيق» يأتون فيها بالرقيق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود من الجواري والغلمان على اختلاف القدود واللغات والأسنان، يستجلبونهم من أقاصي بلاد الترك والروم والكرج والخزر وطبرستان وخراسان والسند والمغرب والبربر والحبش، يأتي بهم النخاسون أولاً، إما بطريق الغزو أو بطريق الشراء من والديهم أو بعض أقاربهم بثمن زهيد، ثم يبيعونهم لتجار الرقيق هؤلاء التجار يسوقونهم كالأنعام إلى «سوق الرقيق» مشدودي الأيدي بعضهم ببعض بالأمراس ليبيعونهم بدورهم أيضاً، وهذه «السوق» هي سوق عمومية يجتمع إليه الناس من أقاصي البلاد ، لشراء الرقيق أو اشترائه أو للمبادلة والمقايضة، وحول هذه السوق سور، بعضه من الخشب، وبعضه من الأحجار، فيدخل التجار السوق مع الرقيق، ويقفلون بابه، وحينئذ يحلون أيدي الأرقاء من الأمراس، ويجعلون الذكور في جهة، والإناث من جهة، وربما أفردوا من يكون صغير السن جميلاً، فيخصونهم بجهة على حدة، فيأتي المشترون فينظرون إليهم ويفحصونهم، يأمرونهم بفتح أفواههم، فتفحص أسنانهم ورائحة حنكهم، وينظرون في عيونهم وآذانهم وأنوفهم، وأيديهم وأرجلهم، ويسومونهم، ومتى تمت صفقة البيع، أخذوا العبد واستخدموه فيما يشاؤون؛ من رعي غنم أو حرث أو زرع أو غرس، أو خدمة في بيت، إلى غير ذلك، وكان تجار الرقيق قديماً إذا وقفوا على جارية جميلة أو غلام، أنفذوا بعض السماسرة إلى دار الحاكم أو الأمير أو فلان الثري، يسعون في ترويج تلك السلع، وكثيراً ما يكون الوسيط بالسمسرة بعض المقربين من بطانة الحاكم أو الأمير، ممن يحبون الكسب من هذا السبيل، ولعل وقوع

يوسف بيد «عزيز مصر» المدعو «فوطيفار» كان ببعض هذه الوسائط»[1].

٢٠/٢٥١- ثمن الحر حرام مهما كان باهظا؛ لأن الحرية لا تقدر بثمن[2].

٢٠/٢٥٢- كل حرام بخسا؛ لأنه لا بركة فيه.

قال البغوي:

«وسمي الحرام نجسا؛ لأنه منجوس البركة»[3].

٢٠/٢٥٣- الإنسان لا يكتسب قيمته الحقيقة بموازين الأرض بل يكتسبها بموازين السماء.

قال ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين، تنبو عنه أعين الناس؛ لو أقسم على الله لأبره»[4].

فإذا أهين الحر أو أذل الكريم أو بيع السيد؛ فلا يعني ذلك سلبه قيمته الحقيقة عند الله.

وغدا يتمايز الناس بأقدارهم الحقيقة يوم الحساب، يوم يوزن كل امرئ عمله وتقواه، كما قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣].

٢٠/٢٥٤- الشيء الخطير قد يعرض فيه ما يهونه.

قال ابن عادل:

«اعلم أنه -تعالى- وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث:

---

(١) المرجع السابق (١/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٢) انظر «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٧)، و«فتح البيان» (٣/ ٣٩٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٥٥).

(٣) «مختصر معالم التنزيل» (١/ ٤٣٤).

(٤) أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ١٥٦/ ٦٧٤)، و الحاكم (٤/ ٣٢٨) من حديث أبي هريرة به.

قلنا: وسنده ضعيف؛ لانقطاعه، وقد أخرجه مسلم (٢٦٢٢و٢٨٥٤) من طريق آخر عن أبي هريرة مختصرا.

وله شاهد من حديث أنس بن مالك به: أخرجه الطحاوي (٢/ ١٥٩/ ٦٨٠) وغيره بسند حسن.

إحداها: كونه بخساً.

الثاني: قوله: ﴿ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٍ ﴾.

الثالث: إن الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين»[١].

قلنا: وهذا كله يدل على أن يوسف -عليه السلام- قد عرض له ما جعله يهون عليهم.

٢٠/٢٥٥- من زهد في شيء باعه بأبخس الأثمان.

قال محمد رشيد رضا:

«وكان هؤلاء الذين باعوه من الراغبين عنه، الذين يبغون الخلاص منه؛ لئلا يظهر من يطالبهم به؛ لأنه حر، والثمن لم يكن مقصوداً لهم، ولهذا قنعوا بالبخس منه»[٢].

٢٠/٢٥٦- الملتقط للشيء متهاون به.

قال العلمي:

«﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾: ممن يرغب عما في يده؛ فيبيعه بما طف من الثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، لا يبالي بم باعه، ولأنه يخاف أن يعرف له مستحق ينتزعه من يده، فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن»[٣].

وقال -أيضاً-:

---

(١) «اللباب في علوم الكتاب» (١١/ ٥٠-٥١)، وانظر «مفاتح الغيب» (٩/ ١١٠-١١١).

(٢) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٧١).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٢١).

وقال -أيضاً-:

«الاسترقاق قبل الإسلام وفي الإسلام:

قضي على البشر أن يستعبد بعضاً من قديم الزمان، فلم تخل أمة من الاسترقاق، حتى في شريعة موسى -عليه السلام-، وليس هذا فقط، بل كان الناس يخطف بعضهم بعضاً للتجارة ، فكانوا متى التقطوا شخصاً غريباً استسأسروه واسترقوه، وقد عومل الرقيق في سائر الشعوب بضروب من القسوة، تنفطر منها الإنسانية، وهكذا قضت المسيحية البولصية، بإبقاء أحوال الأرقاء على ما كانت عليه من قبل، إذ لم يرد في المسيحية كلمة واحدة عن تحرير الرقيق، إنما الذي ورد فيها، هو أمر الأرقاء أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب والرعدة، كما يطيعون المسيح -عليه السلام-، وأن يبالغوا بحسن القيام بخدمة ساداتهم تمجيداً لتعاليم المسيح.

وهكذا بقي هذا الحال، إلى أيام الإسلام، فلما أتى الإسلام، رق لحال الأرقاء، كما كان شأنه لجميع الضعفاء... وغلق أبواب الظلم والعدوان، ثم أمر بالإحسان إلى الأرقاء، وبمعاملتهم بالرفق واللين، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ -إلى أن يقول- ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء:٣٦] ورغبّ في العتق، وجعل بين المعتق والعتيق ولاء ومودة، وإن شئتم اقرأوا قوله تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ [البلد:١١-١٨] فالله -تعالى-، أول ما قال في هذه الآية ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾، أهم ما تقتحم به العقبة وذكر بعدها الإيمان، مع الصبر والمرحمة.

وتعليمهم ... هذا وقد أمر الله -تعالى- بتزويجهم فقال: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ... إلى غير ذلك، من القواعد العادلة، التي لم تأت بها شريعة قط وليس هذا هو كل ما جعله الإسلام مساعدة لأولئك الضعفاء، بل جعل تحرير الرقاب كفارة لكثير مما يقع من الإنسان ، مخالفاً للدين، حتى في أبسط المسائل كالحنث في الأيمان: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [المائدة:٨٩]، وليس هذا فقط، بل أمر بجمع الأموال- الزكاة- من الأغنياء وصرف جزء منها من تحرير الرقاب: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [التوبة:٦٠] وكرر حث ذوو اليسار على ذلك، المرة بعد المرة: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [البقرة:١٧٧] إلى غير ذلك مما يطول شرحه، فإذن نسأل أهل الإنصاف ونقول: أليس ما أتى به القرآن والدين الإسلامي منذ قرون، هو ما تفتخر به المدينة الحديثة وتتيه به إعجاباً؟!

استفاد الرقيق عند المسلمين.

لقد جاء في كتاب للأستاذ الكريم الشيخ عبد القادر المغربي الدمشقي قوله: «ليس الغرض هو الاسترقاق عندنا، مجرد استغلال الأرقاء والانتفاع بخدمتهم كما ينتفع بالدابة، وإنما الغرض نفع الرقيق نفسه، ونفع البشرية،

بخدمتهم كما ينتفع بالدابة، وإنما الغرض نفع الرقيق نفسه، ونفع البشرية، بنشر تعاليم الإسلام بين أبنائها، فإننا نأخذ الأرقاء في الحرب أسرى وندخلهم بيوتنا، ونمزجهم بعائلاتنا، كي يتخلقوا بأخلاقنا؛ فيدخلوا أخيراً في ديننا، ويكثر بهم سواد أمتنا، وربما كان ثلث المسلمين اليوم، هم من سلالة أولئك الأباء، الذين دخلوا في الإسلام عن طرق الرق...

استرقاق الشعوب في أوروبا وأمريكا.

وجاء في كتاب لأمير البيان الأستاذ شكيب ارسلان ما نصه:

«وإذا قيل: إن الرق قد وجد في الإسلام، فالجواب: أنه لم يوجد فضيلة حث عليها الإسلام بصريح القرآن، ومتواتر السنة أكثر من تحرير الرقيق، على أن النصرانية لم تنكر الرق؛ كما ظهر من كلام بولس.

وإن كانوا في أوروبا قد اتفقوا مؤخراً على إلغاء الرق؛ فلا يجوز أن ننسى أن الشعب الروسي إلى زمان الامبراطور بولس كان رقيقاً لأمرائه، وأن النبيل إذا باع قرية يملكها، يبيعها مع الأهالي الذين فيها، لا يملكون لأنفسهم أمراً، بل كان حكمهم حكم الحيوانات التي في القرية؟ هذا كان شأن الأمة الروسية، منذ ١٥٠سنة لا زيادة، ولا يجوز أن ننسى أن الفرنسيين بعد أن تمكنوا من طرد المسلمين من جنوبي فرنسا، استعبدوا البقية التي بقيت من المسلمين واغتصبوا أملاكهم، واستعملوهم خولاً وخدماً مدة طويلة، حتى اندمجوا في غمار الأمة الفرنسية وتنوسيت أصولهم، ولا يجوز أن ننسى الحرب التي قامت في أميركا من سنة (١٨٦٣م) إلى سنة (١٨٦٦م) من أجل تحرير العبيد، وأن الأميركيين سكان جنوبي الولايات المتحدة، حاربوا سكان شماليها مدة سنوات من أجل إصرارهم على استعباد السود».

حكم الاسترقاق الشائع عند بعض المسلمين قديماً وحديثاً في الشرع.

وأما حكم الاسترقاق الذي كان شائعاً في العصور السابقة؛ فهو غير

الجراكسة اللواتي كن يبعن في الأستانة جهراً من عصر قديم إلى ما قبل الدستور العثماني، وكلهن حرائر من بنات المسلمين الأحرار، ومع هذا كنت ترى العلماء ساكتين عن بيعهن والاستمتاع بهن بغير عقد نكاح، وذلك من أعظم المنكرات، حتى لو سألت عن حكم المسألة بعد شرحها له لأفتاك بأن هذه الاسترقاق محرم إجماعاً وربما قال لك: وإن مستحل ذلك يكفر؛ لأنه لا يعذر بالجهل[1]، وعلل ذلك بما يعللون به مثله، وهو أنه مجمع عليه، معلوم في الدين علماً يشبه الضروري.

وكما كان يوجد هذا في الأستانة، فهو قد يوجد في الحجاز -أيضاً-، أعني: أنه كان يوجد في عاصمة الإسلام المدنية، فكذا كان يوجد في عاصمة الإسلام الدينية، والمسؤول عن هذه الفعلة الشنعاء والغلطة القبيحة هم العلماء والأمراء الذين كانوا معاصرين إذ ذاك...

زعم دعاة المسيحية: بأن ما قام به الأوربيون في الزمن الأخير، من «تحرير الرقيق» هو من آثار دينهم فيهم، ولكن الحقيقة إن ذلك نتيجة الإشارات الرمزية، التي وردت في القرآن، وشجرة مكبرة ناجمة عن النواة التي غرسها القرآن، في حقل حياة الإسلام، وإلا؛ فلماذا قضوا القرون العديدة، في استعباد الناس، على أشنع الأحوال؟! وقد علمت فيما مر أقوال رؤساء النصرانية في حق الأرقاء، وأين هي من أقوال القرآن والأحاديث؟ وأين هذا من ذاك؟ ولِمَ لم يهتم الدين المسيحي[2] بشأن العبيد، ويعطف عليهم، كما

---

(١) هذا على سبيل حكاية مذهب القائل، وإلا؛ فالجهل عذر ومانع دون التكفير.

(١) بل النصراني.

من ذاك؟ ولِمَ لم يهتم الدين المسيحي[١] بشأن العبيد، ويعطف عليهم، كما عطف عليهم الإسلام؟ لِمَ لم يأمر باستعمال الرفق بهم واللين معهم ولو بجملة واحدة؟

سيقولون: إنه لم يأت ليسن شرائع، أو ينسخ ما كان موجوداً منها- ونقول في تفنيد جوابهم: لِمَ حرم الطلاق والتزويج بالمطلقة والتعدد في الزوجات؟ أما يمكنه كان أن ينهى الناس من استعمال القسوة على الأقل مع أولئك الضعفاء؟

هذا، والحق يقال: إن ما أتى به الإسلام في شأن الرقيق لم يأت بمثله دين على وجه البسيطة، وإن «تحرير الرقيق» الذي اتفق عليه ملوك أوروبا، كان الإسلام قرره قبلهم؛ لأن الرقيق الموجود اليوم ليس هو مضروباً عليه الرق، في حرب دينية ، حتى يوافق عليه الإسلام، بل هو من قبيل الاختطاف كما وقع مع يوسف -عليه السلام-، وهذا النوع لا يقول به الإسلام، ولو كان المسلمون في درجة الأوروبيين مدنية وعلماً وقوة، لكانوا أولى من ملوك أوروبا، في إظهار ما يعتقدون من تحريره، ولأنه في عقيدتهم ليس رقيقاً شرعياً...»[٢].

قال أبو السعود:

«﴿ وَكَانُواْ فِيهِ ﴾؛أي: البائعون، ﴿ فِيهِ ﴾ في يوسف ﴿ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم؛ فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس، وسبب ذلك: أنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، أو غير واثق بأمره،

---

(١) بل النصراني.

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٢٧-٤٣٣).

يخاف أن يظهر له مستحق؛ فينتزعه منه؛ فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن، ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من إخوته على ما حكي[1] وهم غير

---

(٢) قال أحمد نوفل في «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٢٥): «وما قيل في التوراة ونقله بعض المفسرين: أن الذي باع يوسف هم أخوته؛ فهذا:

أولاً: لا ينسجم مع النص، واستبشار الوارد بلقيا الغلام،

ثم ثانياً: إن إخوة يوسف حين خططوا قالوا: يلتقطه ولم يكن وارداً بيعه.

ثم ثالثاً: إن كانوا يريدون بيعه فلماذا يلقونه في الجب؟

إن كثيراً من الأقوال تنقلها بعض التفاسير من أسف دون رويّة وإعمال فكر».

وقال العلمي في «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٢٥-٤٢٦): «الضمير في ﴿ شَرَوْهُ ﴾ هل هو عائد على إخوته، أو عائد على السيارة؟ في الأمر قولان:

الأول: مروي عن ابن عباس -رضي الله عنه- ومعناه: أن إخوة يوسف باعوه للسيارة، وأصل ذلك في سفر التكوين(٣٧:٢٨) وليس من مصدر آخر لهذا القول غير توراة اليهود التي بين أيديهم، ولا يوجد حديث صحيح في هذا الموضوع يؤيد رواية التوراة أو يضعفها.

والقول الثاني يتبين من ظاهر الآية:

أ- إن الضمير في ﴿ شَرَوْهُ ﴾ عائد على السيارة، لأنها أقرب مذكور، وإنما أعاد الضمير عليها مذكراً؛ لأنها بمعنى الجمع أو القفل أو الرجال المسافرين، ومما يؤيد رجوع ضمير ﴿ شَرَوْهُ ﴾ للسيارة، رجوع الضمائر قبله إليها في قوله:﴿ فَأَرْسَلُواْ ﴾ وقوله: ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ فعود الضمائر مرة على السيارة، ومرة على الإخوة، يوجب تعقيداً في التركيب، وبالنتيجة يجب المشي مع الظاهر، وإهمال هذه الرواية عن ابن عباس، والله أعلم.

ب- إن الله -تعالى- يقول: ﴿ وَشَرَوْهُ ، وَ ٱشْتَرَىٰهُ ﴾؛ فإذن الصفقة واحدة لا ثاني لها.

ج- إن الله -تعالى- علم أنه سيأتي قوم يفهمون غلطاً تبعاً لتوراة اليهود،

راغبين في شراه خشية ذهاب مالهم لما طن في آذانهم من الإباق والعدول عن صيغة الافتعال المنبئة عن الاتخاذ لما مر من أن أخذهم إنما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء وفيه متعلق بالزاهدين ، إن جعل اللام للتعريف وبيان لما زهدوا فيه إن جعلت موصولة كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقيل: زهدوا فيه؛ لأن ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول»[(١)].

٢٠/٢٥٧- وجوب الإيمان بظاهر التنزيل عند ورود المشكل ووجود المبهم

قال الطبري:

«إن الله -تعالى ذكره- أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب، ولا خبر من الرسول ﷺ، وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا الجهل به دخول ضر فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض، وما عداه؛ فموضوع عنا تكلف علمه»[(٢)].

٢٠/٢٥٨- مجاورة الأعداد المتألبين ومخالطة الخصماء المتناوئين غدر بالنفس.

= فيقولون: إن الذين شروه هم إخوته، شروه للسيارة، وبالطبع اشترته منهم السيارة وكانت صفقة هذه المضايقة في فلسطين، فلأجل دفع أو رفع هذا التوهم، أقحم الله - تعالى- لفظ ﴿ مِن مِّصْرَ ﴾، ليدلنا على أن الحادثة واحدة، لم يشر ولم يشتر إلا مرة واحدة، فالشارون هم جماعة السيارة، والمشتري هو عزيز مصر، والحادثة لم تكن في فلسطين بل في الديار المصرية، فهذه قرائن ثلاث تدلنا على صحة، بل تعين ما فهمنا - والحمد لله- وتبعد أو تحيل ما فهمه المفسرون، وإن عزوه لابن عباس.

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٦١-٢٦٢).

(٢) «جامع البيان» (١٢/ ١٠٢-١٠٣).

قال العلمي:

«ولم يطلق يوسف لنفسه العنان في بيان ترجمة حاله الشخصية والعائلية، إذ رأى أن لا فائدة له من ذلك؛ لأنهم أعراب أو مديانيون أو كنعانيون، لا يهتمون بأمر يعقوب ولا إسحاق، ولا يقدروا هذه الأسرة الإسرائيلية حق قدرها، ولا يتعرفون إليها، ولأنه يعلم أنه لو سعى في رجوعه لأبيه لعامله إخوته بما هو أشد وأنكى، وربما قضوا على حياته، ففضل البراح والبعد عن البيئة التي تجمعه بإخوته، وفضل الغربة على الإقامة في الوطن، إذا كان فيه تخوّف على النفس والحياة، كالقائل:

ربَّ هجر يكون من خوف هجر
وفراق يكون خوف فراق

أو كالقائل:

لا تصبون إلى وطن
فيه تضام وتمتهن
وارحل عن الدار التي
تُعْلي الوهاد على القُنَن
واربأ بنفس أن تقيم
بحيث يخشاك الدرن
وجب البلاد فأيّها
أرضاك فاختره وطن

أو كالقائل:

وإن نبت بك أوطان نشأت بها
فارحل فكل بلاد الله أوطان

وإن جفـــاك أخ قـــد كنـــت تألفـــه
فـــاطلب ســـواه فكـــم في الأرض إخـــوان

وعلى ذلك ذهب يوسف معهم ساكتاً ساكناً واجماً، تنطق دموعه بما صمت عنه لسانه، يعالج الداء بالداء، ويفر من هم إلى هم، ومن قضاء إلى قضاء، فقاموا راحلين به للديار المصرية، وكأني به حينما صار بين حدود فلسطين وحدود مصر التفت شمالاً؛ فرأى فلسطين ماثلة أمامه، فألقى عليها نظرة واجمة، ثم قال:

إن مجاورة الأعداء المتألبين، ومخالطة الخصماء المناوئين، غدر بالنفس حتى ولو كان الوطن طيباً والعيش نضراً، فكيف والوطن بادية، ومدار معيشتنا رعي الغنم، وإن العاقل لهو حقيق أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه، ولواحق المحذور، وإلى ما يدفع المخوف لاستجلاب المحبوب، وإن معاشرة الحسدة والمصاحب لهم لهو كراكب البحر، إن هو سلم من الغرق، لم يسلم من المخاوف، وإننا لنرى أن الدواب قد خصت في طبائعها بتوقي المكروه، واكتساب ما فيه المنفعة ، ولذلك لم نرها تورد أنفسها مورداً فيه بوارها وهلكتها، وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها، مالت بطبائعها التي ركبت فيها شحاً بأنفسها وصيانة لها إلى النفور والتباعد عنه»[١].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤١٥-٤١٧).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

٢١/٢٥٩- لا إثم على من باشر بيع أو شراء أو خدمة أو استعمال ولم يعلم أنه كان على غير الشرع.

٢١/٢٦٠- العبرة في القصص القرآني الأحداث ومواعظها لا الأسماء والأماكن.

قال محمد رشيد رضا:

«لم يبين القرآن اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر، ولا منصبه، ولا اسم امرأته؛ لأن القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ وإنما قصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب»[(١)].

٢١/٢٦١- الأولاد نعمة من الله؛ فينبغي رعايتها.

«الأولاد نعمة من الله، أنعم بها، وكلّف الوالدين بشكرها ورعايتها وحفظهما؛ لتكون ثروة لهم في الأولى، وذخراً في الآخرة؛ ولذلك فإن الأقل منهم من اعتنى بذلك، وأعطاه حظاً وافراً من الجهد، ويتم ذلك بربط الولد بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وسير السلف الصالحين؛ لينمو في ظلال الإسلام في كل مراحله، ويتعود على الطاعة في كل أطواره، وتتكون له شخصية متوازنة متكاملة.

ولقد اشتمل المنهج الإسلامي على مقومات ذلك كله بحيث يجزم الناظر أنه لا مثيل له في دين من الأديان أو نظام من النظم: قديمها وحديثها.

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٧٢).

واعلم أن الأولاد هتاف البقاء الكامن في فطـرة الإنسان؛ فـهذا زكريـا -عليه الصلاة والسلام- وَهَنَ عظمُه واشتعل رأسه شـيباً هتـف عندمـا شَعرَ بالكبر هذا الهتاف الصادق: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ ﴾ [مريم:٢-٦].

ومهما ملك العبد من الدنيا؛ فإن ذلك كلـه لا يغنيـه عـن الولـد؛ فـهذا فرعون مصر وعزيزها ملك كل منهما أرض مصر وأنهارها وقصورهـا، ومـع ذلك احتاج كل منهما إلى الولـد، وتدبـر قـول امـرأة فرعـون عندمـا أوتيـت بموسى -عليه السلام-؛ كما أخـبر الله عنـها: ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [القصص:٩].

وتأمل قـول عزيـز مصـر لامرأتـه؛ كمـا أخـبر الله عنـه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [يوسف:٢١].

ولذلك كـان عـز الدنيـا وزينتـها بالمـال والولـد: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝ ﴾ [الكهف:٤٦].

فقد رعا الإسلام الطفل رعايـة امتـازت بالاهتمـام بـه في كـل مراحـل

حياته: جنيناً، ورضيعاً، وصبياً، وشاباً، ورجلاً، ولبت احتياجاته الفطرية باعتباره عنصراً بحاجة إلى خدمة وعناية، ونظمت حقوقه، وراعت حالاته، وذلك أن الإنسان بفطرته يحب الأُنس ولا يمسك ذلك إلا نموذج من الإنسان نفسه يراها فيه، ويكمل به ذاته وآماله، من أجل ذلك نادى زكريا نداءه الخالد: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٩].

ولكي يتحقق ذلك كله؛ فالولد بحاجة إلى من يقوم على تنشئته ورعايته وتعاهده بالتغذية الطيبة، وإلى توفير الجو الملائم من التعامل والتعاطف والعناية بالتربية الصالحة.

ولذلك؛ فالمربي الناجح ينبغي أن يفقه أحكام تربية الأولاد؛ ليكون عمله ناجحاً، وسعيه رابحاً، وبخاصة أن المربي مركز القدوة التربوية، ينظر إليه الجيل على أنه مربيه وموجهه»[(١)].

قلنا: لذلك كله أمر عزيز مصر إمرأته بإكرام يوسف -عليه السلام-.

٢١/٢٦٢- «بيان جواز التبني في شريعة من قبلنا وقد نسخ في الإسلام»[(٢)].

قال السمرقندي: «يقول نتبناه؛ فيكون ابناً».

قال ابن عطية الأندلسي:

«أي: نتبناه، وكان فيما يقال: لا ولد له»[(٣)].

---

(١) من مقدمة الشيخ سليم الهلالي لـ «تحفة الودود بأحكام المولود» (٥-٧).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٣).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٣١).

قال العلمي:

«عبارة ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ ظاهرة في أن التبني كان مشروعاً عند المصريين، كما كان عند العرب قبل الإسلام، وفي صدر منه، ثم نهى عنه الإسلام وحرمه، قال -تعالى-: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ [الأحزاب:٤-٥].

فالآية تنص على أنه كان يوجد عند العرب شيئان: الأول الظهار، والثاني التبني، والقرآن يقول لك: إن قلباً واحداً لا يمكن أن يتصور أن أنثى واحدة هي في آن واحد زوجة وأم لشخص ما، لأنه تناقض؛ وكذا يستحيل أن يتصور القلب الواحد أن غلاماً هو عبد وابن في آن واحد؛ لأنه تناقض أيضاً، وبناء عليه؛ فهذا القول إنما هو قول لساني لا قلبي؛ أي: لا يمكن للإنسان أن يعتقده بقلبه، إذ لا يجمع في القلب بين المتناقضين، نعم؛ لو كان للإنسان قلبان، لأمكن أن يعتقد كل قلب بعقيدة تضاد العقيدة الأخرى، فقوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ ليس معناه: أن العرب كانوا يعتقدون هذه العقيدة..لا.. وإنما يؤتى بها القول في بدء الكلام، إذا كان بعده شيء متناقض لا يمكن أن يدخل في العقل الواحد»[1].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٥٣-٤٥٤).

٢١/٢٦٣- بيان الحكمة في الأمر أو النهي يحرك قناعات المخاطبين

قال أحمد نوفل:

«ولاحظ أن وصية العزيز لزوجته جاءت معللة بالحكمة حتى يحرك دواعي الإستجابة لديها.

وهذا منهج في القرآن متبع، لا يأمرنا الله بأمر إلا ويذكر لنا حِكَمَه؛ فاتخذوه منهجاً حتى يتحرك الناس بقناعات وليس حركة آلية»[(١)].

٢١/٢٦٤- ذوو البيوتات يسلمون قيادة البيت للمرأة؛ فتحدث المصائب المشؤومة الخطيرة.

قال العلمي:

«إن تسليم سياسة الخدم والعبيد لسيدة البيت هو أساس التعب والبلاء.. وهكذا يخطيء ذوو البيوتات الكبيرة في إباحتهم اختلاط خدمهم وعبيدهم لا سيما البيض بنسائهم إذ هو أمر مخالف للدين والشرف والمروءة، رضوا بهذا التعبير أم غضبوا؛ فرضاؤهم شرف، وغضبهم شرف!»[(٢)]

قلنا: لقد توسع كثير من المسلمين وبخاصة في البلاد المترفة باستخدام الخدم واستخدام الخادمات في هذه الأيام، وترك الحبل للجميع على الغارب- إلا من رحم الله- وما خبر امرأة العزيز عن أسماعنا ببعيد وبخاصة أننا نسمع قصصاً من تلك البلاد أغرب من الخيال. نعوذ بالله من الضلال.

٢١/٢٦٥- «معرفة تعبير الرؤيا كرامة لمن علمه الله ذلك»[(٣)].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٢٧).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٥٢).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٣).

٢١/٢٦٦- «من غالب الله غلب، ولا يقدر أحد أن يرد أمر الله»[١].

قال ابن الجوزي:

«﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ ﴾ في هاء الكناية قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى الله؛ فالمعنى: أنه غالب على ما أراد من قضائه، وهذا معنى قول ابن عباس .

والثاني: أنها ترجع إلى يوسف؛ فالمعنى:غالب على أمر يوسف حتى يبلغه ما أراده له، وهذا معنى قول مقاتل، وقال بعضهم: والله غالب على أمره حيث أمر يعقوب يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته؛ فعلموا بها، ثم أراد يعقوب أن لا يكيدوه فكادوه، ثم أراد إخوة يوسف قتله فلم يقدر لهم، ثم أرادوا أن يلتقطه بعض السيارة؛ فيندرس أمره؛ فعلا أمره، ثم باعوه؛ ليكون مملوكاً؛ فغلب أمره حتى ملك، وأرادوا أن يعطفوا أباهم ثم أرادوا أن يغدروا يعقوب بالبكاء والدم الذي ألقوه على القميص فلم يخف عليه، ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين؛ فنسوا ذنبهم إلى أن أقروا به بعد سنين فقالوا: ﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾، ثم أرادوا أن يمحوا محبته من قلب أبيه فازدادت»[٢].

قال السمرقندي:

«إذا أمر بشيء لا يقدر أحد أن يرد أمر الله -تعالى- إذا أراد بأحد من خلقه، ويقال: والله -تعالى- غالب على أمره؛ يعني: فيتم أمر يوسف الذي

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٣)، و«مختصر تفسير البغوي» (١/ ٤٣٥).

(٢) «زاد الميسر» (٤/ ١٩٩).

هو كائن»[١].

قال ابن عاشور:

«وأمر الله: هو ما قدره وأراده، فمن سعى إلى عمل يخالف ما أراده الله فحاله كحال المنازع على أن يحقق الأمر الذي أراده ويمنع حول مراد الله - تعالى- ولا يكون إلا ما أراده الله تعالى فشأن الله -تعالى-، كحال الغالب لمنازعته.

والمعنى: والله متمم ما قدره، ولذلك عقبه بالاستدراك بقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ استدراكاً على ما يقتضيه هذا الحكم من كونه حقيقة ثابتة شأنها أن لا تجهل؛ لأن عليها شواهد من أحوال الحدثان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك مع ظهوره»[٢].

٢١/٢٦٧- وجود يوسف - عليه السلام- في بيت العزيز هيأه لملك مصر.

قال أحمد نوفل:

«وأما وجه الخير في هذا المقام؛ فأن يكون في ذا البيت الذي تتوفر له فيه كل أسباب الراحة والرغد وهناءة العيش والنعيم، ثم كل أسباب التعليم، وأن يكون قريباً من مراكز صناعة القرار في مصر، فيتعلم الشيء الكثير من أحوال البلد وعقلية الإدارة والتركيبة السياسية والاجتماعية والإمكانات الاقتصادية، ويكون بالجملة في موقف مشرف يطلع منه على كل ما يجري في المجتمع المصري، بعكس ما لو عاش في قاع المجتمع المصري... أو في صعيده أو

---

(١) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٦).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٤٧-٢٤٨).

ريفه»[١].

٢١/٢٦٨- التمكين في الأرض يسبقه التمكين في القلوب.

وقال ابن عاشور:

«والتمكين في الأرض هنا مراد به ابتداؤه وتقدير أول أجزائه. فيوسف - عليه السلام- بحلوله محل العناية من عزيز مصر قد خط له مستقبل تمكينه من الأرض بالوجه الأتم الذي أشير له بقوله -تعالى- بعد: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾»[٢].

قال العلمي:

«وقعت جملة ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ في هذه السورة مرتين:

فقيلت فيه أولاً، باعتبار وجوده في بيت العزيز وكيلاً عنه في أشغاله ومحبوباً منه جد الحب.

وقيلت ثانياً: باعتبار وجوده في البلاط ناظر مالية، ومحبوباً جد الحب من الملك؛ لأن نفس العبد من نفس سيده، فكان يوسف يتجول في مستعمرات سيده، ويأمر الزراع وينهاهم، ويحل ويربط، على حساب سيده (العزيز) وبهمته ونفوذه.

وأما هذا التمكين؛ فقد كان عاماً في المملكة الهكسوسية، وبطريق الأصالة، لذلك أتبعه بقوله -تعالى-: ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ لأنه هو بذاته

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٢٧).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٤٧).

صار «العزيز في مصر» مع «وزارة المالية» ومع الوكالة المطلقة عن الريان، وهاهنا نكتة يجب الانتباه إليها، هي: أن التمكين الأول كان ناشئاً عن إلقاء الله محبة يوسف في قلب «عزيز مصر»، وأما التمكين الثاني؛ فكان ناجماً عن إلقاء الله محبة يوسف في قلب «مليك مصر»؛ فالأول تمهيد للثاني، والثاني أقوى وأمتن من الأول، واسع جداً وأطلق حرية، وإن شئت قلت: إن التمكين الأول نواة لشجرة التمكين الثاني، وأول الغيث قطر ثم ينهمل»[(١)].

٢١/٢٦٩- لا أحد يعلم الغيب إلا الله -تعالى-.

قال البغوي:

«إن الله مستول على أمر يوسف بالتدبير والحياطة لا يكله إلى أحد حتى يبلغه منتهى علمه فيه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما الله به صانع»[(٢)].

قال أحمد نوفل:

«ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١].

غالب سبحانه على أمره في نجاة يوسف، والإخوة كانوا يريدون قتله.

وغالب على أمره بأن جعل يوسف عزيزاً، وكان التجار قد باعوه عبداً رقيقاً.

وغالب على أمره بإنجاز ما وعد عبده بتعليمه.

وغالب على أمره بإيصاله إلى أعلى الدرجات التي قدرها الله -تعالى- دون أن يشعر أحد أو يخطط لها الوصول أو يرتب له. إنها الإرادة النافذة،

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) «مختصر معالم التنزيل» (١/ ٤٣٥).

والكلمة الماضية، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

جعلنا الله -تعالى- من القليل الذين يعلمون، وهدى الكثير حتى يعلموا ويوقنوا أن الأمر كله لله وليس للأسباب من دون الله ويتعلقون بها ويتوسلون ويستعينون، ولا يلجأون إلى الله. وإنما جعل الناس كذلك أنهم يرون الأسباب تعمل وتؤثر ولا يرون يد الله تنقل الناس وتهيىء الأسباب، ولما لم يرزقوا القدرة على الاستشفاف، ولا العلم بالوقائع التي يجريها الله في خلقه، وكانت نظرتهم ضيقة، وحصيلتهم قاصرة، حبسوا أنفسهم في زنزانة الأسباب وكانوا لا يعلمون.

وقد وردت هذه القضية قضية كون أكثر الناس لا يعلمون، وردت في القرآن في عشرين مرة، وتكررها يدلك على خطرها حتى لا يجرف السيل الإنسان فتنتقل الجهالة إليه»[1].

٢١/٢٧٠- إكرام الضيف والنزيل.

قال البقاعي:

«موضع مقامه، وذلك أعظم من الأمر بإكرامه نفسه؛ فالمعنى: أكرميه إكراماً عظيماً بحيث يكون ممن يكرم كل ما لابسه لأجله، ليرغب في المقام عندنا»[2].

قال القاسمي:

«اجعلي مقامه حسناً مرضياً، والمثوى: محل الثواء، وهو الإقامة.

قال الشهاب: وإكرام مثواه كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه؛ لأن

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٣٢).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٢٤).

من أكرم المحل بإحسان الأسرة، واتخاذ الفراش ونحوه؛ فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به»[(١)].

٢١/٢٧١- علم الفراسة ليس مكتسباً؛ بل يهبه الله لمن يشاء من عباده.

قال السمرقندي:

«قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين قال لامرأته: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾، وبنت شعيب التي قالت: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾، وأبو بكر -رضي الله عنه- حين تفرس في عمر، وولاه بعده»[(٢)].

قال ابن عطية الأندلسي:

«قال القاضي أبو محمد: وفراسة العزيز إنما كانت في نفس نجابة يوسف»[(٣)].

٢١/٢٧٢- البيئة الطاهرة تكمل الفطرة السليمة.

قال محمد رشيد رضا:

«وأما العزيز؛ فكان ذكياً صادق الفراسة؛ فاستدل من كمال خلق يوسف وخلقه، وذكائه وحسن خلاله، على أن حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته، خير متمم لحسن استعداده الفطري، إذ لا يفسد أخلاق الأذكياء إلا البيئة الفاسدة وسوء القدوة»[(٤)].

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٨).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٦).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٣١).

(٤) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٧٢).

٢١/٢٧٣- مصر دار علم واستبصار بحيث من أقام فيها ترقى واستنار.

قال العلمي:

«لأن مصر هي دار العلم والاستبصار بحيث من أقام بها ترقى واستنار قلبه وحصل ما لم يحصله في مثل فلسطين»[١].

٢١/٢٧٤- بيان أن العلم نوعان: كسبي ووهبي.

قال العلمي:

«وغني عن البيان أن العلم نوعان، كسبي ووهبي: فالكسبي يتوسل إليه بما يقرؤه الإنسان في الكتب السماوية، وما يؤثر عن الأنبياء، وما يسمعه من آثار أصحاب الأنبياء، وكذا من علماء الأمصار، وما يستفيد من دقائق اللغة وأساليبها، ومن علوم الكون، وشؤون البشر؛ وسنن الله في الخلق، وأما الوهبي؛ فيكون بزيادة الفهم في أسباب العلم الكسبي، وعلو المدارك في ينابيع هذا العلم»[٢].

وقال: «والعلم علمان: علم لدني يحصل بمحض فضل الله على العبد، لكن بسبب إخلاصه وتقواه، وعلم كسبي وهو ما يكون بالسهر والتعب، وإلى هذا القسم الثاني يشير بعضهم بقوله:

لو كان نور العلم يدرك بالمنى

ما كان يبقى في البرية جاهل

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٣٤).

(٢) المرجع السابق (١/ ٤٦٠).

اجـــــهد ولا تكســــل ولا تـــــك غـــــافلاً

فندامـــــة العقبـــــى لمـــــن يتكاســـــل»[١]

٢١/٢٧٥- جهل أكثر الناس بأن أمر الله كله بيد الله -تعالى- وحده.

قال العلمي:

«جهل أكثر الناس أن الأمر كله بيد الله:

أولاً: أكثر الناس في كل عصر ومصر لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله -تعالى- وحده.

ثانياً: أكثر الناس لا يعلمون؛ أي: لا يدركون حكمته في خلقه،وتلطفه وفعله لما يريد، أو لا يعلمون ما الله به صانع.

ثالثاً: وردت هذه الفقرة في القرآن إحدى عشرة مرة، ووردت بصيغة ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تسع مرات، والجملة عشرون مرة، أنزلها الله من السماء تنفي العلم عن أكثرية الناس من وثنيين ويهود ونصارى ومسلمين»[٢].

٢١/٢٧٦- «عندما لا يكون للإنسان دين يهتدي به في توجيه أعماله وتحديد مراميه؛ فإنه ينطلق في سلوكه من النفعية المادية لا من أجل ابتغاء مرضاة الله -سبحانه وتعالى-»[٣].

٢١/٢٧٧- «المؤمن الذي يتعرض للمحن ويصبر احتساباً لوجه الله ويكل أمره إلى الله ويستمد في يقينه بنصر الله له وللمستضعفين في الأرض لا بد أن

---

(١) المرجع نفسه (١/ ٤٦٥).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١ / ٤٦٣-٤٦٤).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص١٨).

يأتيه الفرج ويفوز بخير العاقبة ويمكّن الله له في الأرض ويبدله عزاً بعد ذل وأمناً بعد خوف»[(١)].

٢١/٢٧٨- «بيان أن قدر الله واقع لا محالة؛ فإن أراد الله شيئاً؛ فلن يحول دون وقوعه حائل، والله هو الذي يهيء الظروف لكي يتحقق ما يريد»[(٢)].

٢١/٢٧٩- الارتحال من إقليم لإقليم أكبر في شأنه زيادة العلم ونمو مادته.

قال العلمي:

«لا يسع أحدٌ أن ينكر أن الارتحال من إقليم لإقليم أكبر، والانتقال من بلد لبلد أعظم من شأنه زيادة العلم ونمو مادته، خصوصاً إذا كان الإقليم أو البلد الذي ذهب إليه متحضراً وراقياً أكثر فأكثر ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة:٩٧]...

ولذلك سن الشارع لنا السياحة واستشراف أحوال الأمم، وتعرف نواميس الخليقة والعمران، والنظر في الكون، وتنور أسباب الكائنات، حتى قال عن السياحة لأجل النظر في عواقب الأمم: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٧].

وقال عن السياحة لأجل النظر في تبدلات الدول والشعوب والمواليد: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ﴾ [العنكبوت:٢٠].

---

(١) المرجع السابق (ص ١٨).

(٢) المرجع نفسه (ص١٨).

وقال عن السياحة لأجل العلم والحج وصلة الرحم والجهاد: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ [التوبة:١١٢].

وقال -تعالى- عن السياحة لأجل التعقل واستخراج النتائج من الأقيسة: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦] تشير هذه الآية إلى أن السياحة تكسب الإنسان تعقلاً وفهماً وإدراكاً، أكثر وأكثر جداً مما لو بقي في بيته وبلده، فالسياحة تزيد في سعة المدارك، وتشرُفُ بالإنسان أسرار العالم، وعلى نواميس العمران والخراب في الأمم، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب، وتجعل للإنسان فكرة عامة على معنى الحياة على أقدار محسوسة، فيحصل ما يسمونه: الترقي في الهيئة الاجتماعية»[١].

٢١/٢٨٠- ضرورة أن نبني مواقفنا في الحياة على الحقائق لا على الأوهام والتهيؤات التي لا صلة لها بالواقع:

قال أحمد نوفل:

«ضرورة أن نبني مواقفنا في الحياة على الحقائق لا على الأوهام والتهيؤات التي لا صلة لها بالواقع، وهذا ما حدث مع إخوة يوسف»[٢].

٢١/٢٨١- مصر مرتع الأحداث، وفلسطين مدرج الطفولة.

قال أحمد نوفل:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (٦٠١).

«فمصر إذاً هي المسرح الرئيس لقصة يوسف وفيها تجري أغلب الأحداث؛ بل هي المكان الوحيد في القصة الذي سمى باسمه تحديداً، وأما فلسطين مسرح طفولة يوسف؛ فلم تذكر بالنص الصريح.

ومصر هي أكثر مكان ذكراً في القرآن، ولعل في هذا الماحاً إلى ما ادخر الله لها من دور إذ هي كنانة الله[(١)]؛ ولا تكون مصر بهذه المثابة وبهذه المكانة القيادية إلا بالإسلام، ولذا حرص أعداء هذه الأمة على إبعاد مصر عن إسلامها، وفكّ ارتباطها بدينها، وعزلتها عن جسم أمتها»[(٢)].

٢١/٢٨٢- التمكين لا يكون مرة واحدة، بل على مراحل وفترات:

قال ابن كثير:

«﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾؛ أي: هو عالم بما تمالأ عليه إخوته وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم، ومع هذا لا يغيره -تعالى- لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور ينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف»[(٣)].

---

(١) لا يصح في ذلك شيء عن النبي ﷺ.

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٥٤).

(٣) «البداية والنهاية» (١/ ٢٠٢).

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

٢٢/٢٨٣- الأشد استكمال العقل وتمام الخلق[١].

قال ابن كثير:

«﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد، وهو: حد الأربعين الذي يوحي الله فيه إلى عباده النبيين -عليهم الصلاة والسلام- من رب العالمين»[٢].

وقال الشوكاني:

«والأشد: هو وقت استكمال القوة -ثم يكون بعد ذلك النقصان...»[٣].

قال ابن عطية الأندلسي:

«والأشد: استكمال القوة وتناهي البأس»[٤].

٢٢/٢٨٤- «بلوغ الأشد يبتدئ بانتهاء الصبا والدخول في البلوغ»[٥].

٢٢/٢٨٥- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

---

(١) «مسائل الرازي» (ص١٤٨).

(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٠٣).

(٣) «فتح القدير» (٣/ ١٤).

(٤) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٣١).

(٥) «أيسر التفاسير» (٣/ ٦٠٣).

قال أحمد نوفل:

«الإحسان: تكشف لنا الآية الكريمة عن سُنَّةِ الله في أصحابه أن يكرمهم بالحكمة والعلم، وأركان الإحسان ثلاثة: الإيمان الصحيح، والأعمال الصحيحة، والآداب والأخلاق الفاضلة.

والإحسان ليس له جزاء إلا الإحسان: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝ ﴾ [الرحمن:٦٠] والجزاء في الدنيا والآخرة[١].

وقال ابن عاشور:

وفي ذكر ﴿ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إيماء إلى أن إحسانه هو سبب جزائه بتلك النعمة[٢]

وقال العلمي:

وإنما قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تنبيهاً على أنه كان محسناً في عمله، متقياً في عنفوان شبابه، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء إحسانه[٣].

٢٢/٢٨٦- حسن الجزاء مشروط بحسن القصد والعمل.

قال الشوكاني:

«ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزي المحسنين، فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه»، وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به، وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أولياً.

قال الطبري:

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٣٦).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢/ ٢٤٨).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٦٤).

هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن، فالمراد به محمد ﷺ، يقول الله - تعالى-: كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكّن لك في الأرض .

والأولى: ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره؛ فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبري»[١].

٢٢/٢٨٧- الجزاء عام في كل مؤمن أحسن، فبقدر إحسان العبد يكون جزاء الرب له.

قال أبو بكر الجزائري:

«هذا الجزاء عام في كل مؤمن أحسن؛ فبقدر إحسان العبد يكون جزاء الرب له، فالخطاب يتناول يوسف ومحمد ﷺ ويتناول غيرهما؛ لأن القرآن كتاب هداية؛ فعمومه لا يخصص بالواحد والاثنين»[٢].

٢٢/٢٨٨- تأتي النبوة بمعنى الحكمة أو العلم أو الرحمة أو البينة[٣].

قال القرطبي:

«قيل: جعلناه المستولي على الحكم؛ فكان يحكم في سلطان الملك؛ أي: وآتيناه علماً بالحكم، وقال مجاهد: العقل، والفهم، والنبوة ، وقيل: الحكم: النبوة، والعلم: علم الدين، وقيل: علم الرؤيا، ومن قال أوتي النبوة صبياً قال: لمّا بلغ أشده زدناه فهماً وعلماً»[٤].

---

(١) «فتح القدير» (٣/ ١٤).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٣).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٤٥).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٦٢).

قال البغوي:

«فالحكم: النبوة، والعلم: الفقه في الدين، وقيل: حكماً؛ يعني: إصابة في القول، وعلما بتأويل الرؤيا، وقيل: الفرق بين الحكيم والعالم: أن العالم هو الذي يعلم الأشياء، والحكيم الذي يعمل بما يوجبه العلم»(١).

٢٢/٢٨٩- العلم النافع من ثمرات الإحسان:

قال السعدي:

«في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علما نافعا.

ودل هذا على أن يوسف في مقام الإحسان؛ فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة»(٢).

٢٢/٢٩٠- علة العلل في ارتقاء الإنسان أو انحطاطه هي العلم أو الجهل.

قال العلمي:

«ثم أوتي يوسف «العلم» الذي هو نور العقول، وحياة النفوس، وحسبنا في تعريف فضله قوله -تعالى- خطابا لخاتم الأنبياء ﷺ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤].

والعلم خير من المال؛ لأنك أنت تحرس المال، ولكن العلم يحرسك، والمال بلا علم صائر للزوال:

إذا لم يكن علم يزان به الفتى
فمال الفتى جهل عظيم يشينه

---

(١) «مختصر معالم التنزيل» (١/ ٤٣٥).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥١).

لعمــــــرك إن المــــــال داعيــــــة الهــــــوى
إذا هــــــو لم يصحــــــب بعلــــــم يصونــــــه

يمكن رفع الإنسان وخفضه في كل وقت، والآلة الرافعـة والخافضـة لـه هي العلم أو الجهل، وعلة العلل في ارتقاء الإنسـان وانحطاطـه هـي العلـم أو الجهل، وما عدا ذلك؛ فأسباب ثانوية، والعلم هو أهم سلاح تسلح به يوسف للانتصار على العزيز وامرأته، ثم للرقي إلى البلاط الملكي، ثم للانتصار علـى إخوته، فبعلمه وهو «فرد» انتصر عليـهم وهـم «عصبـة»، هـو فـزع إلى القـوة العلمية، وهم فزعوا إلى القوة الجسمية، والجاهل ولو [كان] قوياً بالجسم مع العالم ولو [كان] ضعيفاً بالبدن؛ كالأعزل مع المدجج بالسلاح.

وبعد؛ فيظهر لنا أن إيتاء الله يوسف - وهو في بدء سن الرشد- الحكمـة والعلم، هو من قبل الإرهاص لنبوته المزمعة أن تصـير، فـهو بإيتائـه «الحكـم» يكون قد ملك نفسه وهواه، وبإيتائه «العلم» يكون قد انتقل من دور التقليـد لدور معرفة الحقائق كما هي»[1].

٢٢/٢٩١- المحسن لم يؤت ما أوتيه مجاناً ولا محاباة، بل لسـابق إحسـانه في أقواله وأعماله ونواياه وسرائره.

قال العلمي:

«فما اشتملت عليه الآيات الكريمة هو قوام الإحسان الـذي وصـف بـه يوسف -عليه السلام-، ولذا كـان خليقـاً بمـا أنعـم الله عليـه مـن الوسـامين المرصعين، وهما وساما «الحكم» و«العلم» مكافأة له على إحسانه.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٧١).

وفي قوله -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تقريظ ليوسف، بأنه لم يؤت ما أوتيه مجاناً أو محاباةً، لا، لا ؛ بل لسابق إحسانه في أقواله وأعماله ونواياه وسرائره ؛ أي: أنه -تعالى- وجه عليه وسامي «الحكم» و«العلم»؛ لأنه محسن؛ فهو قمن بذلك، وهكذا هو -تعالى- يجزي سائر المحسنين»[١].

٢٢/٢٩٢- «يمنح الله المحسن هدىً وعلماً وبصيرة، والمحسن: هو الذي يحسن كل شيء، يحسن في القول والعمل، ويحسن في الخلق والتفكير»[٢].

٢٢/٢٩٣- الجزاء على السبب لا على النسب.

قال العلمي:

«... لم يقل: وكذلك نجزي أولاد الأنبياء، أو يقل: وكذلك نجزي ذوي البيوتات العريقة في المجد، بل جعل هذه المجازاة أثرا من آثار إحسان يوسف في أعماله وأقواله وأفكاره وسيره وسيرته؛ لأن الله -تعالى- لا ينظر للأنساب والأحساب ولكنه ينظر إلى الأعمال والنوايا، فالمرء بأعماله لا بآماله، وبسببه، لا بنسبه، وبطي لسانه لا بطيلسانه، وبأصغريه قلبه ولسانه وبجنانه، لا بجنانه»[٣].

٢٢/٢٩٤- العلماء هم ساسة الأمة.

قال أحمد نوفل:

---

(١) «المرجع السابق» (١/ ٤٧٧).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص١٨).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٧٤-٤٧٥).

«والإشارة إلى تعليم يوسف في أكثر من موطن يدلنا على أهمية العلم، والجد في تحصيله، وأن العلم أساس الملك؛ فقبل أن يسلم الله - عز وجل - مقاليد الناس في مصر ليوسف زوده بالعلم وأهّله بالعلم؛ كما أنه -سبحانه- قبل أن يسلم آدم مقاليد الخلافة في الأرض زوّده بالعلم، ولا حظ العلاقة بين تأويل الأحاديث التي تعنى استشفاف المستقبل واستشراف الآتي وعلاقة هذا بالسياسة التي تحتاج إلى بعد نظر؛ نسأل الله أن يعلمنا منه علماً، وأن يعيننا على تحصيل العلم، وإن يرزقنا مع العلم العمل، ومع العمل الإخلاص، ومع كل ذلك القبول»[١].

٢٢/٢٩٥- اقتران الحكمة العملية بالمعارف النظرية العلمية.

قال أحمد نوفل:

«والحكم بمعنى الحكمة، أو بمعنى نفاذ الكلمة والتأثير في الناس.

قال الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبابه آتاه الله الحكمة في اكتهاله؛ أخذاً لهذه الفائدة من هذه الآية الكريمة .

وأصل الحكم الإلزام والمنعة، والحكم ملكة في النفس بها يقدر الإنسان أن يحكم نفسه بحيث يلزمها الطاعات، ويمنعها من المعاصي، وهو كذلك القدرة على وضع الشيء في نصابه، وصواب الفهم ودقته، والرأي السديد الصائب، والحل الموفق للمعضلات؛ كل ذلك - والله أعلم - من معاني الحكم والحكمة.

والحكمة عملية وفكرية .

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٣١-٣٣٢).

وقد ورد الحكم والعلم في قصة داود وسليمان، وفي قصة موسى، وفي قصة لوط بالإضافة إلى ما هنا .

والحكمة شيء والمعلومات شيء آخر، وإن كانت الحكمة تستقي من كل معرفة ومعلومات يحصلها الإنسان، وإن كانت الحكمة في الأساس تنبع من الدين...

وقدمت الحكمة على العلم؛ لأنها التي تجعل الانتفاع بالعلم ممكناً، ورب عالم محتاج للحكمة، ورب عارف بالحكم تنقصه معرفة الحكم، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ على قلة المعلومات في عصرهم كانوا قمماً في العلم والفقه في الدين؛ لأنهم أوتوا الحكمة»[1].

٢٢/٢٩٦- الحكم ينشأ عن العلم والدين.

قال العلمي:

«وأذكر أنه اعتفاني أحد الطلبة يوماً من الأيام، فاستفتاني قائلاً: نرى الله -جل جلاله- قد أتبع كلمة «الحكم» بكلمة «العلم» في كتابه الكريم أربع مرات، كما قال -تعالى- في شأن يوسف: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾ وقال -تعالى- في شأن لوط: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ [الأنبياء:٧٤]، وقال تعالى: في شأن موسى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾ [القصص:١٤] وقال تعالى في شأن داود وابنه سليمان: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾ [الأنبياء:٧٩].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٣٤-٣٣٥).

قال: فلماذا نراه -تعالى- يذكر العلم بعد الحكم حينما يذكرهما معاً مدحاً وثناء على أنبيائه الكرام -عليهم الصلاة والسلام-؟.

فأفتيته بقولي: إن الله -تعالى- علم أنه سيوجد أناس في مستقبل الأيام يسمون (بالفلاسفة) يقولون: إن الحكم فرع عن العلم، فمتى كان الإنسان عليماً كان حكيماً؛ لأن علمه يحكمه ويمنعه من ارتكاب مالا ينبغي، ويدفعه لعمل ما ينبغي.. وقد قالوا: إن الدين إنما تقصد به منفعة العامة فقط، أما العلماء؛ ففي غنى عنه بعلمهم.

وقلت له: فلذلك سبق الله -تعالى- وذكر العلم بعد الحكم؛ ليشير إلى أنه ليس الحكم ينشأ عن العلم، ولكن عن الدين، فلا غنى لأحد مطلقاً عن الدين، سواء أكان عالماً أم جاهلاً، نعم يوجد قبل الحكم العلم يقال له: علم الشريعة أو علم الفقه، ويوجد بعد الحكم علم يقال له: علم اللدني، ويقال لأولهما: كسبي ولثانيهما: وهبي، وليس الفقه بمعنى معرفة الأحكام هو المراد من كلمة «علم» في هذه الآيات، بل المراد منها العلم اللدني الوهبي، وتسبب العلم الوهبي عن الحكم ظاهر، بخلاف تسبب الحكم عن العلم الكسبي الذي هو الفقه...

فظهر مما قررنا أن لفظ «الحكم» هنا مرادف للفظ الحكمة، لا فرق بينهما أبداً، يقال: «الصمت حكم»؛ أي: حكمة على حدّ ما في قول المتنبي:

إن بعضاً من القريض هراء
ليس شيئاً وبعضه أحكام

فأحكام: جمع حكم مراداً منه الحكمة، ومعنى ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾: أنعمنا عليه برتبتين: رتبة: «حكيم»، ورتبة «عليم» بل وحققناه بذلك، فكان يتصرف في كل أموره بحكمة ودراية»[١].

٢٢/٢٩٧- إذا أراد الله -تعالى- أمرًا ؛ قيض له أسباباً :

قال ابن كثير:

«﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾؛ أي: فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾؛ أي: إذا أراد شيئاً؛ فإنه يقيض له أسباباً، وأموراً لا يهتدي إليها العباد؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد وهو حد الأربعين الذي يوحي الله فيه إلى عباده النبيين -عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين-»[٢].

٢٢/٢٩٨- أثر الإيمان في رسوخ العلم والانتفاع به.

قال الفخر الرازي:

«الحكم والحكمة أصلهما حبس النفس عن هواها ومنعها مما يشينها؛ فالمراد من الحكم: الحكمة العملية، والمراد من العلم: الحكمة النظرية.

وإنما قدم الحكمة العملية هنا على النظرية؛ لأن أصحاب الرياضيات يشتغلون بالحكمة العملية، ثم يترقون منها إلى الحكمة النظرية، وأما أصحاب الأفكار العقلية والأنظار الروحانية؛ فإنهم يصلون إلى الحكمة النظرية -أولاً-

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٦٨-٤٦٩).

(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٠٣).

ثم ينزلون منها إلى الحكمة العملية، وطريقة يوسف -عليه السلام- هو الأول؛ لأنه صبر على البلاء والمحنة؛ ففتح الله عليه أبواب المكاشفات؛ فلـهذا السـبب قال: ﴿ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾»[1].

---

(١) «تفسير الرازي» (٩/ ١١٤).

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

٢٣/٢٩٩- الجماع لا يكون إلا في خلوة وستر.

إن عملية الجماع ترخي على مثلها الستور وتسد النوافذ وتقام من حولها الدعائم والجدران، ولذلك قامت امرأة العزيز بإرخاء الستور وتغليق الأبواب، خوفاً أن يدخل عليهم أحد أو أن يبغتهم زوجها على حين غرة.

٢٣/٣٠٠- المرأة هي التي تبدأ بالتحرش بالرجل.

لقد بدأت امرأة العزيز بالتحرش وتطاولت بالمراودة وهاجت؛ فغلقت الأبواب؛ مما يدل أن المرأة هي الباعث على الزنى المحرك للشهوة.

ومما يؤكد هذا -أيضاً- تقديم ذكر الزانية على الزاني في قوله -تعالى-: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ ﴾ [النور:٢].

قال ابن عاشور:

«وتقدم ذكر «الزانية» على «الزاني» للاهتمام بالحكم؛ لأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل وبمساعفتها يحصل الزنى، ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنى تمكيناً، فتقديم المرأة في الذكر؛ لأنه أشد في تحذيرها»[١].

٢٣/٣٠١- تكميل يوسف- عليه السلام- لمراتب الصبر.

قال السعدي:

«ومنها تكميل يوسف -صلوات الله وسلامه عليه- لمراتب الصبر:

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٨/ ١٤٦).

الصبر الاضطراري: وهو صبره على أذية إخوته، وما ترتب عليها من بعده عن أبويه، وصبره في السجن بضع سنين.

والصبر الاختياري: صبره على مراودة سيدته امرأة العزيز مع وجود الدواعي القوية من جمالها، وعلو منصبها، وكونها هي التي راودته عن نفسه، وغلقت الأبواب وهو في غاية الشباب، وليس عنده من قرابته ومعارفه الأصليين أحد.

ومع هذه الأمور ، ومع قدرة الشهوة، منعه الإيمان الصادق والإخلاص الكامل من مواقعة المحذور.

وهذا هو المراد بقوله: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف:٢٤].

فهو برهان الإيمان الذي يغلب جميع القوى النفسية، فكان هو مقدم السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وهو رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال:إني أخاف الله. ثم بعد ذلك راودته المرأة ، واستعانت عليه بالنسوة اللاتي قطعن أيديهن فلم تحدثه نفسه، ولم يزل الإيمان ملازماً له في أحواله، حتى قال بعدما توعدته بقولها: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف:٣٢-٣٣].

فاختار السجن على مواقعة المحذور؛ ومع ذلك فلم يتكل على نفسه، بل استغاث بربه أن يصرف عنه شرهن، فاستجاب له ربه؛ فصرف عنه كيدهن، إنه هو السميع العليم.

وكما أنه كمل مراتب الصبر؛ فقد كمل مراتب العدل والإحسان للرعية حين تولى خزائن البلاد المصرية، وكمل مراتب العفو والكرم، حين قال له

إخوته: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢ ﴾ [يوسف:٩١-٩٢].

فارتقى ﷺ إلى أعلى مقامات الفضل والخير، والصدق والكمال، ونشر الله له الثناء بين العالمين»[١].

٢٣/٣٠٢- كمال الإنسان في ضبط إراداته ومقاومة هواه.

قال محمد رشيد رضا:

«وجملة القول: إن أعظم مزايا البشر في قوة الإرادة، فلولاها لكان الإنسان كالحيوان الأعجم عبد الطبيعة، ولذلك كان المراودة احتيالا لتحويل الإرادة وجعلها خاضعة للمراود، وإنما يظفر من كانت إرادته أقوى. وفوق ذلك عناية الله...

وتوجيه النفس إلى الشيء أو عنه هو صاحب السلطان الأعلى على الإرادة، وتربية الإرادة هي أصل التخلق بالفضائل والتخلي عن الرذائل. وسالك طريق الحق يسمى: مريدا، والوصول إلى غاية المراد لا يكون على كماله إلا لأصحاب الإيمان اليقيني الوجداني، ومن ذاق عرف، ومن حرم انحرف»[٢].

٢٣/٣٠٣- استعمال المراودة يكون بين الرجال والنساء.

قال ابن عطية:

«الملاطفة في السوق إلى غرض وأكثر استعمال هذه اللفظة إنما هو في هذا المعنى الذي هو بين الرجال والنساء، ويشبه أن يكون من راد يرود إذا

---

(١) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف- عليه السلام-»(ص٣٦).

(٢) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٨٢-٢٨٣).

تقدم لاختبار الأرض والمراعي؛ فكأن المراود يختبر أبداً بأقواله وتلطفه حال المراود من الإجابة والامتناع»[١].

٢٣/٣٠٤- الأصل في الأعراض الستر وعدم التصريح.

قال أبو حيان:

«ولم يصرح باسمها ولا بامرأة العزيز ستراً على الحرم»[٢].

٢٣/٣٠٥- فخامة قصور الملوك وترفهم.

قال القرطبي:

«﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ غلّق للكثير، ولا يقال: غَلَّق الباب، وأغلق يقع للكثير والقليل؛ كما قال الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء:

ما زلت أغلق أبواباً وأفتحها ... حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

يقال: إنها كانت سبعة أبواب غلقتها ثم دعته لنفسها»[٣].

قال العلمي:

«والأبواب هذه، هي كما جرت العادة من القديم إلى الآن أن يكون لقصور الأمراء والكبراء عدة أبوب ونوافذ من الجهات الأربع، أو أن يكون لكل قصر أبواب متتابعة بعضها وراء بعض خارجة وداخلة ووسطى، وقد جرى «أبو حيان» في «البحر» على الاحتمال الأول إذ قال: «هي أبواب ليست على الترتيب باباً باباً بل هي في جهات مختلفة، وكلها منافذ للبيت

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٣٢).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٥٦).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٦٣).

الذي كانا فيه»، وقد قلنا: شأن بيوت الأمراء والكبراء أن يكون للقصر الواحد عدة أبواب في عدة نواح للدخول والخروج، كما يكون فيها عدد من النوافذ لتبادل الهواء ودخول النور»[(١)].

٢٣/٣٠٦- «الخلوة والجمال والعزوبة والمنصب من أكثر الدواعي للفتنة»[(٢)].

قال العلمي:

«نعلم حق العلم أن الذي سهل على زليخا (امرأة العزيز) مراودة عبدها العبراني (يوسف) إنما هو المخالطة والخلوة، ولولا ذلك لما حصل شيء مما ذكر.

قيل لأعرابية: لم زنيت بعبدك، ولم تزن بحر، وما أغراك به؟ قالت: طول السواد، وقرب الوساد.

فما يمرق السهم من الرمية كمروق السيدة للباطل ولمذاكرة عبدها الذي تختلي به بلا رقيب ولا ملاحظ، بخلاف ما إذا لم تكن هناك مخالطة ولا خلوة، فإن وصولها لهذا الأمر لبعيد جداً.

فاختلاط الرجل بالمرأة فما إذا كان (مثلاً) زائراً أو خادماً كما هنا هو اختلاط محفوف بالمخاوف.

وبدعة الاختلاط، أو بالأحرى بدعة المفاوضات السرية الدنيئة، موجودة (غالباً) في الطبقات العليا من الناس، وإنما قلنا(غالباً)؛ لأننا نعرف أنه يوجد في الطبقة العليا من هن أعف وأشرف من كل من عداهن، وحكم

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٩٥).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٥١).

الطبقات الدنيا كحكم العليا، وأما الطبقات الوسطى؛ فهن أبعد عن أمثال هذه البدعة من الطبقتين.

وكما كان الاختلاط والخلوة من أسباب سهولة المراودة في العصور القديمة فهو من سموم العصور الحاضرة الحمقاء، ومن دواعي السفور والخلاعة والاستهتار.

وقد أثبت كتاب أوربا وكاتباتها: أن سبب سقوط أكثر النساء عندهم هو اختلاط المرأة بالرجل في البيوت والمعامل والمخازن والأسواق وغيرها من أبواب الحياة.

ولذلك جاءت الشريعة المحمدية بالحجاب الحقيقي الشرعي، وهو يتجلى في كل ما يمنع الفتنة، قال -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٩]، وقال -تعالى-: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور:٣١]، ومعلوم أن يوسف لم يكن مملوكا لمرأة العزيز، بل لسيدها، ولم يكن من غير أولي الإربة، بل من أصحابها.

هذا وإن الشرع الشريف، يحرم الخلوة بالمرأة الأجنبيـة، كذلـك مكالمتـها للأجنبي مع الخلوة دون الملأ، وأما مكالمة المرأة للرجال في المـلأ؛ فجـائزة كمـا كان يقع ذلك من نساء النبي ﷺ مع الأجانب، وهن اللاتي أمـرن بالمبالغـة في الحجاب، وقد ورد: أن النبي ﷺ كان يكلم إحدى أزواجه «زينب»[١] في باب المسجد؛ فمر رجلان، فأسـرعا في المشـي، فقـال لهمـا: «علـى رسـلكما، إنـها فلانة»[٢] ؛ ففي هذا تنبيه للمسلمين إلى أنه لا يجـوز للرجـل أن يخلـو بـأمرأة، مهما كان صالحا هذا في الشريعة الإسلامية»[٣].

٢٣/٣٠٧- عصمة الله للعبد من أعظم موانع ارتكاب الفواحش.

قال السعدي:

«فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهـذا مـن أعظـم الظلـم، والظالم لا يفلح، والحاصل: أنه جعل الموانـع لـه مـن هـذا الفعـل تقـوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الـذي لا يفلـح مـن تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبـه يقتضـي منـه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر.

والجامع لذلك كله: أن الله صرف عنه السوء والفحشاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختـارهم واختصـهم لنفسـه،

---

(١) كذا قال، وهو خطأ محض، والصواب: أنها صفية بنـت حيـي بـن أخطـب - رضي الله عنها-؛ كما في الحديث.

(٢) صحيح- أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٠٣٥)، ومسـلم في «صحيحـه» (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حيي.

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٩١-٤٩٣).

وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم المكاره، ما كانوا به من خيار خلقه»[١].

٢٣/٣٠٨- الاعتصام واللجوء ينبغي أن يكون لله وحده.

قال البقاعي:

« ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: ألزم حصن الذي له صفات الكمال، وهو محيط بكل شيء علما وقدرة، وملجأه الذي ينبغي الاعتصام به واللجأ إليه»[٢].

٢٣/٣٠٩- مجازاة المحسن بالإساءة ظلم[٣].

قال البقاعي:

«أي: عريقون في الظلم-وهو وضع الشيء في غير موضعه- الذين صرت في عدادهم على تقدير الفعل؛ فيا له من دليل على إحسانه وحكمه وعلمه؛ فإنه لما رأى المقام الدحض بادر إلى الاعتصام من بيده ملكوت كل شيء، ثم استحضر إحسانه إليه، الموجب للشكر عليه، المباعد عن الهفوات، ثم مقام الظلم وما يوجب لصاحبه من الحزن بعدم الفلاح»[٤].

٢٣/٣١٠- الواجب عند الدعوة إلى المعصية الاستعاذة بالله من ذلك.

قال القاسمي:

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٥٢).

(٢) « نظم الدرر» (٤/ ٣٠).

(٣) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٧).

(٤) «نظم الدرر» (٤/ ٢٩).

«إن الواجب عند الدعاء إلى المعصية الاستعاذة بالله من ذلك؛ ليعصمه منها، ويدخل فيه دعاء الشيطان ودعاء شياطين الإنس ودعاء هوى النفس»[١].

٢٣/٣١١- دواعي ترك القبيح.

قال البقاعي:

«يجوز ترك القبيح لقبحه، ورعاية حق غيره، وخشية العار، أو الفقر، أو الخوف، ونحو ذلك، ولا يقال :التشريك غير مفيد في كونه تاركاً للقبيح، وأنه لا يثاب»[٢].

قال العلمي:

«إن ما يبعد الإنسان عن الفحش والمخالطة المحرمة، هو إما سبب صحي يبين الخطر الهائل في هذا الفعل. أو سبب ديني، يدعو إلى الائتمار بأمر الله والانتهاء بنهيه والخوف من ناره وغضبه، والرجاء في جنته ورضوانه. أو سب أدبي، يدعو إلى المحافظة على المروءة والشرف، وحسن السمعة وكرم المحتد، ومراعاة الأمانة.

وظاهر أن الذي منع يوسف الصديق عليه السلام هو السببان الآخران، الديني والأدبي؛ فلهذا عصم نفسه بعصمة الله -تعالى- إياه»[٣].

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢١١).

(٢) «نظم الدرر».

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٠٠).

٢٣/٣١٢- «لزوم حسن المكافأة للجميل وأن من أخل بالمكافأة عليه كان ظالما»[١].

٢٣/٣١٣- معرفة الإحسان واجب لشيئين: المعصية، والظلم[٢].

٢٣/٣١٤- الزنا بالمتزوجة ظلم للزوج.

قال شيخ الإسلام:

«وهذا مذهب فقهاء الحديث وأكثر السلف، وفي المسألتين نزاع ليس هذا موضعه؛ إذ المقصود: أن الزاني بامرأة غيره ظالم للزوج، وللزوج حق عنده.

ولهذا ذكر النبي ﷺ أن من زنى بامرأة المجاهد؛ فإنه يمكن يوم القيامة من حسناته يأخذ منها ما شاء.

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك»... قال: «أن تزاني بحليلة جارك»[٣]؛ فذكر الزنا بحليلة الجار؛ فعلم أن للزوج حقا في ذلك، وكان ظلم الجار أعظم للحاجة إلى المجاورة»[٤].

٢٣/٣١٥- وجوب إبعاد المردان والمخنثين والمماليك من البيوت.

قال العلمي:

«لا بد لسائل يسأل عن الحكمة في ذكر حديث المراودة:

---

(١) «محاسن التأويل»(٢١١)، و «زاد المسير» (٤/ ٢٠٣).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٤) «دقائق التفسير» (٣/ ٢٦٥-٢٦٦).

فنقول: إن في ذلكم هي العبرة للقارئين؛ ليحتاطوا لأنفسهم؛ فلا يقتنوا في بيوتهم الفتيان والمماليك، وإذا اقتنوهم لم يسوغوا لهم الخلوة بنسائهم؛ فإنهم إن يفعلوا هكذا يمزقون أعراضهم بأيديهم، ولا يحسبون أنهم يحسنون صنعا، إذ ليس كل فتى هو يوسف، وليس كل مملوك كهذا «الملك الكريم».

كما أن الحكمة في ذكر حديث المراودة الصادر من امرأة العزيز، وذكر تهتك النسوة المصريات، وعشقهن ليوسف واستغراقهن في جماله، وتقطيعهن أيديهن، وتغزلهن في محاسنه، هو للذم في أهله بصورة تبغضه وتنفر عنه، وتوجب الانتهاء عما نهى الله ، والبغض لما يبغضه، وتبين سوء عاقبة أهله، ثم تبين عفة يوسف وطهارته، وحسن عاقبة المتعففين، وسوء عاقبة الساقطين، هذا وقد قص الله علينا في القرآن قصص الأنبياء والمتقين وقصص الفجار والكافرين؛ لنعتبر بالأمرين، فنحب الأولين وسبيلهم، ونقتدي بهم، ونبغض الآخرين وسبيلهم، ونجتنب فعالهم.

والحكمة -أيضا- في ذكر قصة المراودة هي تعليم الإناث أن عاقبة مراودة الشابات للشبان إنما هي الخزي والعار وسوء السمعة، وأنها مهما اجتهدت في قلب الحقيقة وستر الفحشاء ، فلا بد أن الله- تعالى- يظهر الحق ويدافع عن الأبرياء الأعفاء، وأن الأنثى الساقطة قد يكون أبوها أو أخوها أو غيرهما من أهلها من المقاومين لها، كما اتفق أن الرجل الشاهد من أهل زليخا كان من أعظم المقاومين لها، وكذا زوجها العزيز، وكذلك صديقاتها النسوة المصريات، وأن العاقبة للأعفاء الطاهرين.

وفيه -أيضا- تعليم أن سقوط المرأة أو محاولتها السقوط ربما يسبب نزول محنة بزوجها... فظهر أن في قراءة هذه القصة أو هذه السورة فائدة كبيرة للرجال والنساء.

وأما ما يرويه بعض المفسرين من حديث: «لا تعلموهن سورة يوسف؛ علموهن سورة النور»؛ فهو من الموضوعات[١].

وماذا يقول من يروي مثل هذه الأخبار الموضوعة في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [يوسف:٢] هل هذا التعقل خاص بالرجال؟!

وما يقول في قوله تعالى-: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف:٣]؛ فهل أحسن القصص هذا مخصوص بالرجال ؟!

وماذا يقول في قوله -تعالى-: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]؟ فهل هذه العبرة هي منحة ومزية للرجال فقط؟!

وما القصد من قوله -تعالى-: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [يوسف:١٠٢]؟ فهل القصد نوحيه إليك لتبلغه للرجال فقط وتكتمه عن النساء أو تبلغه للجميع؛ كما هو مقتضى عموم قوله -تعالى-: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة:٦٧]؟

وهل القرآن نازل لأجل الرجال فقط أو لهم وللنساء؟

وهل تبليغ الرسول لما أنزل من ربه خاص بناس دون ناس ، وبشيء من القرآن دون شيء؟

سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

(١) وهو كما قال.

وإذا كنا منهيين عن تعليم نسائنا سورة يوسف لما فيها من ذكر قصة امرأة العزيز، فلم لا ننهى عن كل قصة يوسف مع إخوته لما فيها من ذكر قطع الرحم والعقوق والختل ...إلخ وإلخ.

فالخلاصة: أن رواية النهي عن تعليم النساء سورة يوسف هي كاذبة، محضة وفرية على الله ورسوله ﷺ، والله أعلم»[1].

٢٣/٣١٦- المراودة فيها مخادعة.

قال محمد رشيد رضا:

«﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ﴾ على الأمر مراودة ورِوادًا من باب قاتل طلبت منه فعله، وكأن في المراودة معنى المخادعة؛ لأن المراود يتلطف في طلبه تلطف المخادع ويحرص حرصه»[2].

قال العلمي:

«لم تقع هذه المادة «المراودة» في القرآن الكريم إلا في موضع الإحتيال والدهاء، فحينا استعملت في مفاوضة ﴿ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ﴾ ليوسف الصديق، كما هنا، وحينا استعملت لدى مفاوضة أبناء يعقوب لأبيهم في إرسال بنيامين معهم لمصر عند رحلتهم الثانية، وذلك في قولهم: ﴿ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ ﴾ [يوسف:٦١]، وحينا استعملت في مفاوضة السدوميين لنبي الله لوط بشأن ضيوفه الملائكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٨٩-٤٩١).

(٢) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٧٥-٢٧٦).

أَعْيُنَهُمْ ﴾ [القمر:٣٧]؛ فهذه مواضع ثلاثة وردت فيها هـذه المـادة ، ولم تـرد في غيرها، وكلها من نوع التحيل والاستدراج كما قلنا»[١].

٢٣/٣١٧- حكمة عظيمة من العفاف والتقوى وعصمة الأنبياء قبل النبوة من الكبائر.

قال ابن عاشور:

«وقد تعرضت الآيات لتقرير ثبات يوسف- عليه السلام- على العفاف والوفاء وكرم الخلق»[٢].

٢٣/٣١٨- «عندما يتعرض المؤمن لوساوس شـيطانية عليـه أن يذكـر الله قبل كـل شـيء، ويتعـوذ بـه، ويلتجـأ إلى حصنـه، ولا ينسـاق وراء وسوسـة الشيطان بأي حال من الأحوال، مهما زين له الشيطان سوء عمل أو خلـق أو سوء تفكير، وإلا كان من الظالمين لأنفسهم و الظالمين لغيرهم»[٣].

٢٣/٣١٩- العفاف والتنزه عن الفحشاء من الأسباب الموجبة للظلال.

قال ابن كثير:

«يذكر -تعالى- ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف -عليه السـلام- عن نفسه، وطلبها مـا لا يليـق بحالـه ومقامـه، وهـي في غايـة الجمـال والمـال والمنصـب والشـباب، وكيـف غلقـت الأبـواب عليـها وعليـه، وتـهيأت لــه، وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها وأفخـر لباسـها، وهـي مـع هـذا كلـه امـرأة العزيز.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٩١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٤٩).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص١٩).

وهذا كله مع أن يوسف -عليه السلام- شاب بديع الجمال والبهاء إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء؛ فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء؛ فهو سيد السادة النجباء السبعة الأتقياء المذكورين في «الصحيحين» عن خاتم الأنبياء ﷺ في قوله: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله[1]»[2].

٢٣/٣٢٠- ابتذال المرأة وعرضها نفسها يورثها المهانة والذلة والصغار.

قال محمد رشيد رضا:

«إن المرأة إذا ابتذلت نفسها؛ فبذلتها للرجل بذلا تحول ذلها عليه مهانة وذلاً؛ فإنه يحتقرها وتتحول رغبته فيها رغبة عنها، وكلما تمنعت عليه ازداد لها حباً وشوقاً إليها؛ كما قال الشاعر:

منعت شيئاً فأكثرت الولوع به
أحب شيء إلى الإنسان ما منعا»[3]

٢٣/٣٢١- بيان الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة والحذر من المحبة التي تخشى ضررها.

قال أحمد نوفل:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٠٣).

(٣) «المنار» (١٢/ ٢٩٨-٢٩٩).

«..خطر الاختلاط على الحياة الأخلاقية، وخاصة إذا كان متكررا ولوقت طويل، ومن هنا قال النبيﷺ: «الحمو الموت»[1]، والعادات الاجتماعية تستهجن أن يرد الأخ عن بيت أخيه إذا لم يكن هو فيه.والحق أحق من العادات بالاتباع، ورضا الله أحق أن يحرص عليه. ومن ترك من أحكام دينه شيئاً دفع ثمن الترك غالياً.

وكم شدد النبي ﷺ في تحريم الخلوة»[2].

٢٣/٣٢٢- مراقبة لا تغيب.

قال عبد الحميد كحيل:

«وفي قول يوسف لها: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴾؛ لفت لنظرها إلى أن البيت وإن خلا من الرقباء؛ فإن عليهما رقيباً لا يغيب، وهو الله -سبحانه وتعالى- الذي يجب أن تخافه وتخشى غضبه وعقابه ؛ لأنه هو العليم السميع البصير»[3].

٢٣/٣٢٣-الإيمان عز والمعصية ذل.

قال أحمد نوفل:

«لقد كانت تظن أن مراودتها إياه منة منها وتكرم عليه، وكانت تظنه لا يلبث إن علم بميلها أن يطير فرحاً؛ لأن مستواه الاجتماعي دون مستواها، وهي لا تتصور أن امرأة ذات منصب وجمال تبدأ رجلاً فتعرض نفسها عليه

---

(١) صحيح- أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢١٧٢) من حديث عقبة بن عامر الجهني -رضي الله عنه-.

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٣٨).

(٣) «نظرات في التفسير» (ص٥١).

ثم يقول: إني أخاف الله. ولكن كان الذي ما توقعت، وما كان الذي توقعت. لقد استعصم كمحارب في قمة جبل شاهق لا يطاول، وواحد في أسفل الجبل يريد أن يصله برمية حجر، أو بمد اليد.

وتأمل كيف يرفع الإيمان الناس وكيف تحط المعصية صاحبها وتزله وتذله وتمرغه في الرغام.

ولله -عز وجل- في ذكر هذا الخبر حكمة بليغة، وقد يخطر ببال أحد أنه لو خلا القرآن من هذا المشهد. ومعاذ الله وحاش لله أن يكون في كتاب الله ما يقبل الرفع أو الحذف.

هذه هي واقعة القرآن، أوليست الحياة الإنسانية فيها هذا الدافع القوي؟ بلى. فلا بد من عرض مشهد مرب يكون قدوة للناس في الاستعصام والاستمساك أمام إغراء المعصية ووسوسة الشيطان وقوة الدافع الداخلي.

وبعد هذا، هل في المشهد القرآني إلا ما يربي بكل كلمة فيه، مع أنه يعرض حالة من أشد حالات الإنسان أسفافا وترد، وانتبه للعاقبة، ولا يقصر نظرك عنها»[١].

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٣٧).

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

٢٤/٣٢٤- الهم همان: هم خطرات، وهم إصرار.

قال ابن قيم الجوزية:

«وقد ذكر الله -سبحانه وتعالى- عن يوسف الصديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون؛ فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره:

فإنه ﷺ كان شابا والشباب مركب الشهوة.

وكان عزبا ليس عنده ما يعوضه.

وكان غريبا عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به؛ فيسقط من عيونهم؛ فإذا تغرب زال هذا المانع.

وكان في صورة المملوك، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر.

وكانت المرأة ذات منصب وجمال والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك.

وكانت هي المطالبة؛ فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التي يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره.

وكانت في محل سلطانها، وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة.

ومع هذا كله عفه الله، ولم يطعها، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله، فإن قيل: فقد هم بها؟!

قيل: عنه جوابان:

أحدهما: أنه لم يهم بها لولا أن رأى برهان ربه لهم، هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني: وهو الصواب: أن همه كان هم خطرات؛ فتركه لله؛ فأثابه الله عليه، وهمها كان هم إصرار بذلت معه جهدها؛ فلم تصل إليه؛ فلم يستو الهمان.

قال الإمام أحمد بن حنبل -رضي الله عنه-: الهم همان: هم خطرات وهم إصرار؛ فهم الخطرات لا يؤاخذ به، وهم الإصرار يؤاخذ به»[١].

قال شيخ الإسلام:

فإن الله -تعالى- قال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ ﴾؛ فقد أخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء فلم يفعل سوءا ولا فحشاء، فإن ما صرف الله عنه انصرف عنه.

ولو كان يوسف قد أذنب؛ لتاب، فإن الله لم يذكر ذنب نبي إلا مع التوبة، ولم يذكر عن يوسف توبة؛ فعلم أنه لم يذنب في هذه القضية أصلا، والله أعلم[٢].

إنما أخبر عنه بأنه هم، وقد ترك لله؛ فهو مما أثابه الله عليه.

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه -تبارك وتعالى- قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك؛ فمن هم بحسنة ولم يعلمها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هم بها؛ فعملها كتبها

---

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٤٥-٤٤٦).

(٢) قارن بـ «الفتاوى»: (١٥/ ١٤٩)، (١٧/ ٣٠-٣١)، «منهاج السنة» (١٢/ ٤١١).

الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة»[١].

فقد أخبر ﷺ في الحديث الصحيح: أن من هم بسيئة؛ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة.

وفي الحديث الآخر قال: «يقول الله: اكتبوها له حسنة إنما تركها من جرائي»[٢]؛ أي: من أجلي.

فالعبد إذا هم بالسيئة وتركها لله كان تركها لله حسنة كاملة، ولم يكن عليه إثم بذلك الهم.

فيوسف الصديق لم يفعل قط سيئة، بل هم وترك ما هم به؛ لما رأى برهان ربه، فكتب الله له حسنة كاملة.

وبرهان ربه ما تبين له به ما يوجب الترك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾ [الأعراف:٢٠١-٢٠٢].

فالشيطان إذا زين المعصية يجعل في القلب ظلمة، ويضعف نور الإيمان، ولهذا سماه: طائفا؛ أي: يطيف بالقلب مثل ما يطيف الخيال بالنائم، ويغيب عن القلب حينئذ من أمر الله ونهيه، ووعده ووعيده ما يناقض ذلك، فإذا كان العبد متقيا لله أمده الله تعالى بنور الإيمان؛ فذكر ما في الذنب من عذاب الله وسخطه، وما يفوته به من كرامة الله وثوابه.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (٢٠٧).

(٢) رواه مسلم (٢٠٥) عن أبي هريرة -رضي الله عنه-.

والبرهان ببصيرة القلب، فيوسف الصديق أبصر برهان ربه بقلبه؛ فترك ما هم به.

وأما ما يذكر أنه تمثل له يعقوب في صورة جبريل، وأنه عض يده، أو أن جبريل أو يعقوب مسح على ظهره أو...؛ فكل هذا لا يجوز لأحد أن يصدق بشيء منه، بل هذا مما يعلم كذبه من وجوه متعددة؛ فإن من لم ينتبه إلا بهذا يكون من أفجر الناس، فكيف يقال لمن وصفه الله بالعفة والتقوى ما لا يوصف به من هو أفجر الناس.

قال -تعالى-: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

وما ذكر يقتضي أنه لم يصرف عنه إلا؛ الجماع، وإلا فقد فعل مقدماته وحرص عليه، وهذا كالفاعل، ولو حصل لمشرك دون هذا لامتنع من الفاحشة بدون ذلك، بخلاف امتناع يوسف، مع كمال الدواعي؛ فإن هذا لا يعرف لغيره، فإن التي راودته سيدته التي تملكه، وقد استعانت عليه بعد ذلك بالنساء وحبسوه على ذلك بضع سنين، وهو شاب غريب، وزوجها لم ينهها ولم يعاقبها، ولم ينصر يوسف عليها، وهو في بلد غربة ليس هنالك أهله الذين يستحي منهم، بل لو أتاها لم يعلم أحد من الناس.

وما يذكر من حكاية مسلم بن يسار[1] أنه رأى يوسف. قال: «أنا يوسف الذي هممت، وأنت مسلم الذي لم تهم!»[2]؛ فمسلم رآه بحسب

---

(١) مسلم بن يسار البصري، نزيل مكة، أبو عبد الله الفقيه، ثقة عابد المتوفى سنة (١٠٠هـ).

(٢) ذكر شيخ الإسلام هذه القصة في «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٤٤-١٤٥)
=

حاله، وفيه دليل عل صلاح مسلم، وإلا؛ فأين حال هذا من حال يوسف؟! تلك امرأة بدوية ظلمته في برية ولا حكم لها عليه، وهو شيخ كثير العبادة، فدواعي الزنا منصرفة عنه، وموانعه موجودة، بخلاف يوسف؛ فإن دواعي البشرية كانت تامة في حقه موجودة، وصوارف السوء كانت منتفية، وإنما صرف عنه السوء والفحشاء بإخلاصه، وترك ما هم به لما رأى برهان ربه.

= فقال: «إن أعرابية دعته إلى نفسها، وهما في البادية؛ فامتنع وبكى، وجاء أخوه وهو يبكي؛ فبكى، وبكت المرأة وذهبت، فنام فرأى يوسف في منامه، وقال: أنا يوسف الذي هممت وأنت مسلم الذي لم تهم!

فقد يظن من يسمع هذه الحكاية: أن حال مسلم كان أكمل، وهذا جهل لوجهين:

أحدهما: أن مسلما لم يكن تحت حكم المرأة المراودة، ولا لها عليه حكم، ولا لها عليه قدرة أن تكذب عليه، وتستعين بالنسوة وتحبسه، وزوجها لا يعنيه، ولا أحد غير زوجها يعينه على العصمة؛ بل مسلم لما بكى ذهبت تلك المرأة ، ولو استعصمت لكان صراخه منها أو خوفها من الناس يصرفها عنه. وأين هذا مما ابتلي به يوسف -عليه الصلاة والسلام-؟!

الثاني: أن الهم من يوسف لما تركه لله كان له به حسنة، ولا نقص عليه، وثبت في «الصحيحين» من حديث السبعة الذين يظلهم الله...: «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين» وهذا لمجرد الدعوة، فكيف بالمراودة والاستعانة والحبس؟

ومعلوم: أنها كانت ذات منصب، وقد ذكر أنها كانت ذات جمال؛ وهذا هو الظاهر... وأما البدوية الداعية؛ فلا ريب أنها دون ذلك، ورؤياه في المنام وقوله: أنا يوسف... غايته أن يكون بمنزلة أن يقول له يوسف في اليقظة، وإذا قال هذا: كان هذا خيرا له ومدحا وثناء، وتواضعا من يوسف، وإذا تواضع الكبير مع من دونه لم تسقط منزلته».

وهمه الذي تركه كتب له به حسنات كاملة، ولو تساوت القضيتان لكان هو أفضل، فكيف وبينهما من الفرقان ما لا يخفى إلا على العميان.

وكثير من المؤمنين يطلب منه الفاحشة، ويراوده من يراوده ويمتنع، لكن لا تجتمع معه هذه الأمور ولا يكون معهودا هذا الضمير، ولا يصبر على حبس بضع سنين يختار ذلك على فعل ما طلب منه في خلوة عن الوطء لم يمتنع عن مقدماته، ويوسف صرف الله عنه السوء والفحشاء فلم يفعل كبيرة ولا صغيرة، ولا أمرته نفسه بسوء، بل امرأة العزيز هي التي كانت نفسها أمارة بالسوء،فإنها راودته، وقدت القميص، وكذبت عليه، واستعانت بالنساء ثم حبسته، ولهذا قالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف:٥١-٥٢] أي: في مغيبته عني»[١].

٢٤/٣٢٥- البرهان من الله يقي العبد السوء في جميع الأمور.

قال ابن كثير:

«أي: كما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه؛ كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره»[٢].

٢٤/٣٢٦- الهروب من الفاحشة والفتنة أمر ممدوح.

قال السعدي:

«ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة وذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب، ليتخلص ويهرب من الفتنة؛ فبادرت إليه وتعلقت بثوبه؛ فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال ألفيا

---

(١) «شرح حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» (ص٤٠-٤٥).

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/٢٤٦).

سيدها؛ أي: زوجها لدى الباب، فرأى أمرا شق عليه؛ فبادرت إلى الكذب، وادعت أن المراودة قد كانت من يوسف»[١].

٢٤/٣٢٧- دليل على العصمة للأنبياء وبراءة يوسف.

قال القاسمي:

«فاتضح: أن لا شبهة فيها على عصمة يوسف -عليه السلام-؛ فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس وخواطر الشهوة الجبلية، ولكنهم معصومون من طاعتها والانقياد إليها، ولو لم توجد عندهم دواع جبلية؛ لكانوا إما ملائكة، أو عالما آخر، ولما كانوا مأجورين على ترك المناهي؛ لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعا، والعنين لا يؤجر ويثاب على ترك الزنى؛ لأن الأجر لا يكون إلا على عمل والترك بغير داعية ليس عملا. وأما الترك مع الداعية؛ فهو كف النفس عما تتشوف إليه؛ فهو عمل نفسي.

وحقيقة عصمة الأنبياء؛ هي: نزاهتهم وبعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التي بعثوا لتزكية الناس منها؛ لئلا يكونوا قدوة سيئة مفسدين للأخلاق والآداب وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع، وليس معناها: أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشري»[٢].

قال الشوكاني:

«مجرد الهم لا ينافي العصمة؛ فإنها قد وقعت العصمة عن الوقوع في المعصية؛ وذلك المطلوب»[٣].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٥٢).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢١٤).

(٣) «فتح القدير» (٣/ ١٨).

قال أبو حيان:

«ومساق الآيات التي في هذه السورة مما يدل على العصمة وبراءة يوسف -عليه السلام - من كل ما يشين»(١).

قال ابن الجوزي:

«واحتج القاضي بقوله: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴾ وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ ﴾ وكل ذلك إخبار ببراءة ساحته من العزيمة على المعصية.

فإن قيل: فقد سوى القرآن بين الهمين فلم فرقتم؟

فالجواب: أن الاستواء وقع في بداية الهمة ثم ترقت همتها إلى العزيمة بدليل مراودتها واستلقائها بين يديه، ولم تتعد همته مقامها، بل نزلت عن رتبتها وانحل معقودها بدليل هربه منها، وقوله: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ وعلى هذا؛ تكون همته مجرد خاطر لم يخرج إلى العزم.

ولا يصح ما يروى عن المفسرين: أنه حل السراويل، وقعد منها مقعد الرجل؛ فإنه لو كان هذا، دل على العزم، والأنبياء معصومين من العزم على الزنى»(٢).

٢٤/٣٢٨- المخلص معصوم من الذنوب والفواحش.

قال العلمي:

«إخلاص يوسف لله وإخلاص الله ليوسف: هذا هو حجر الزاوية في عفة يوسف وطهارته، فيوسف كان من عباد الله الذين قال فيهم: ﴿ وَعِبَادُ

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٥٨).

(٢) «زاد المسير» (٤/ ٢٠٥).

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٣-٦٨] ، وكان يوسف من عباد الله الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢] وكان يوسف من عباد الله الذين ورد فيهم: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص:٨٢-٨٣].

ويوسف بانصرافه عن الزنى والقتل تم فيه قوله -تعالى-: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] وبإعراضه عن مراودة امرأة العزيز إياه وقولها له: «هيت لك» تم فيه قوله- تعالى-: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢] وبرؤيته برهان ربه والعلم بمقتضى ذلك البرهان تم فيه قوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان:٧٣].

وهنا تتمة للكلام مهمة جدا، وهي أن كلمة «مخلصين» في القرآن الكريم تقرأ بالفتح والكسر؛ بمعنى: أن الإنسان لما أخلص دينه لله أخلصه الله لطاعته، ومن خواص الإخلاص أنه لا يعلمه ملك؛ فيكتبه، ولا عدو؛ فيفسده، ولا يعجب به صاحبه؛ فيعطله. فامرأة العزيز كانت مشركة، فوقعت مع تزوجها فيما وقعت عنه من السوء، وأما يوسف -عليه السلام-؛ فمع عزوبيته ومراودتها له واستعانتها عليه بالنسوة، وتهديدها له بالحبس، فقد

عصم نفسه، فعصمه الله بإخلاصه لله»[١].

٢٤/٣٢٩- الإخلاص منجي من الكربات والمعاصي.

قال القرطبي:

«وتأويلها: الذين أخلصهم الله لرسالته، وقد كان يوسف ﷺ بهاتين الصفتين؛ لأنه كان مخلصا في طاعة الله-تعالى-، مستخلصا لرسالة الله -تعالى-»[٢].

قال زهير كحالة:

«إذا استعان المؤمن بربه، وأخلص الرجوع إليه، واستحضر عظمة الله في قلبه؛ فإن الله -تبارك وتعالى- يصرف عنه السوء والفحشاء، ويرد عنه كيد الشيطان»[٣].

قلنا: مما يؤكد هذا الكلام حديث أصحاب الغار المتفق على صحته حيث نجوا بصدقهم وإخلاصهم.

٢٤/٣٣٠- «بيان حسن عاقبة المتقين، وسوء عاقبة الساقطين؛ لنعتبر بالأمرين»[٤].

٢٤/٣٣١- المرأة إن لم تنل مآربها وتحقق غايتها من الرجل كادت له.

قال محمد رشيد رضا:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥١٧-٥١٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٧٠).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٢٠).

(٤) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٤٨٩).

« هذا ما أثار في نفس هـذه المرأة المفتونـة بطبيعـة الحـال، وشـرعت في تنفيذه أو كادت بأن همت بالبطش به في ثورة غضبها وهو انتقام معـهود مـن مثلها وممن دونها في كل زمـان ومكـان، وأكـثر بمـا ترويـه لنـا قضايـا المحـاكم وصحف الأخبار، وكاد يرد صيالها ويدفعه بمثله، وهو قوله -تعالى-: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه مـا هـو مصداق قوله -تعـالى-: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ وهـو إمـا النبـوة الـتي تلـي الحكم والعلم اللذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الأشد،وشاهده قوله -تعـالى-: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾، وإمـا معجزتـها؛ كما قال -تعالى- لموسى في آيـتي العصـا واليـد: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾، وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا وهي مراقبتـه لله -تعـالى- ورؤيـة ربـه متجليا له ناظرا إليه، وفاقا لما قاله أخوه محمد خاتم النبيين في تفسير الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك»[1]؛ فيوسف قد رأى هذا البرهان في نفسه لا صورة أبيه متمثلة في سقف الدار! ولا صورة سيده العزيز في الجدار، ولا صورة ملك يعظه بآيات من القرآن! وأمثال هذه الصـور الـتي رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير المأثور بما لا يدل عليه دليل مـن اللغـة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع، ولم يرو في خبر مرفوع إلى النبي ﷺ في الصحـاح ولا فيما دونها.

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

وما قلناه هو المتبادر من اللغة، ووقائع القصة، ومقتضى ما وصف الله به يوسف في هذا السياق وغيره من السورة»[١].

٢٤/٣٣٢- السوء هو كل ما يغم الإنسان.

قال العلمي:

«والسوء: هو كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية من فوات مال، وفقد حميم، وفعل قبيح، وهو في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [النحل:٢٧] بمعنى الغم، وفي قوله -تعالى-: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣] بمعنى القبيح، فالسوء كل عمل قبيح يسوء فاعله إذا كان عاقلا سليم الفطرة كريم النفس أو يسوء الناس.

والفحشاء: هي الفحش والفاحشة ألفاظ ثلاثة معناها واحد، وهو كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال...

فإذا تقرر هذا؛ فحاصل المعنى لنصرف عنه ما يغمه ويحزنه، وكل أمر قبيح، وكل ما يتجاوز الحد في القبح، أو لنصرف عنه الصغيرة والكبيرة، أو لنصرف عنه الكبيرة والكبرى من المعاصي أو لعله أراد لنصرف عنه ما يسوءه، وهو: خيانته لسيده، والفحشاء وهو: قتله لسيدته، أو السوء ما لا حد فيه، وهو قتله لسيدته دفاعا عن عرضه، والفحشاء ما فيه حد وهو الزنى، أو نصرف عنه السوء، وهو: مقدمات الفاحشة من التقبيل، والضم ونحو ذلك، والفحشاء وهي:الزنى أو القتل، أو السوء وهو: الزنى، والفحشاء هي القتل، وهذا الأخير هو الأقرب عندنا بدليل قوله -تعالى-: ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٧٨-٢٧٩).

﴿سُوٓءًا﴾؛ أي: زنـى، و ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ أي: زنـى، و ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: الزنى؛ فكلمة سوء في هذه الآيات الثلاث في هذه السورة مستعملة في الزنى، فليكن لفظ «السوء» في قوله: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ مرادا منه الزنى، وإذا ثبت هذا فالفحشاء هي القتل الذي كان حاوله يوسف ثم رأى غيره أحسن منه وهو الفرار، ومع كل هذا فنحن لا نمنع أن يسمى كلا فعلي الزنى والقتل سوءا وفاحشة . هذا ما فهمته وذكرته لكم والله -تعالى- أعلم»[1].

٢٤/٣٣٣- «المرأة فتنة كبرى في حياة الرجال؛ فعلى المؤمن أن يحذر من الوقوع في حبائل النساء، ويتقي الله حق تقاته؛ فلا يمدن عينيه إلى محرم، ولا يخلون بأجنبية، ولا يرسلن فكره نحو امرأة تحرم عليه»[2].

٢٤/٣٣٤- «يصطفي الله من عباده من يشاء ممن عرجوا على معارج الكمال؛ فأداموا الطاعات؛ وتحلوا بكريم الأخلاق، وأرطبوا ألسنتهم بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، وامتلأت قلوبهم بخشية الله وتقواه؛ فاستخلصهم الله لنفسه، وأفاء عليهم آلائه، وصرف عنهم معاصيه، ووقاهم شر سخطه وغضبه»[3].

٢٤/٣٣٥- بيان الراجح في هم يوسف -عليه السلام-.

قال الشنقيطي:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥١٥-٥١٧) باختصار.

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٢٠).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٢٠).

«قوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ الآية.

ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه؛ ولكن القرآن العظيم بين براءته- عليه الصلاة والسلام -من الوقوع فيما لا ينبغي حيث بين شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته؛ وشهادة الله له بذلك، واعتراف إبليس به.

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم : يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود.

أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية؛ فذكره -تعالى- في قوله: ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ الآية.

وأما اعتراف المرأة بذلك؛ ففي قولها للنسوة: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾، وقولها: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:٥١].

وأما اعتراف زوج المرأة؛ ففي قوله: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف:٢٨-٢٩].

وأما اعتراف الشهود بذلك؛ ففي قوله: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [يوسف:٢٦] الآية.

وأما شهادة الله -جل وعلا- ببراءته؛ ففي قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤].

قال الفخر الرازي في «تفسيره»: «قد شهد الله -تعالى- في هذه الآية الكريمة على طهارته أربع مرات:

أولها: ﴿ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة.

والثاني: قوله: ﴿ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ ﴾؛ أي: وكذلك لنصرف عنه الفحشاء.

والثالث: قوله ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ مع أنه -تعالى- قال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ ﴾.

والرابع: قوله ﴿ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾، وفيه قراءتان: قراءة باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول.

فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص.

ووروده باسم المفعول يدل على أن الله -تعالى- استلخصه لنفسه، واصطفاه لحضرته.

وعلى كلا الوجهين: فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه».

ويؤيد ذلك قوله-تعالى-: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

وإما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته؛ ففي قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ولا شك أن يوسف من المخلصين؛ كما صرح -تعالى- به في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾؛ فظهرت دلالة القرآن من جهات متعددة على براءته مما لا ينبغي.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ما نصه:

«وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف -عليه السلام- هذه الفضيحة، إن كانوا من أتباع دين الله -تعالى- فليقبلوا شهادة الله -تعالى- على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته، ولعلهم يقولون: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس، إلى أن تخرجنا عليه؛ فزدنا في السفاهة عليه؛ كما قال الخوارزمي:

وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى
بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده
طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

فثبت بهذه الدلائل : أن يوسف -عليه السلام- بريء مما يقول هؤلاء الجهال».

ولا يخفى ما فيه من قلة الأدب مع من قال تلك المقالة من الصحابة وعلماء السلف الصالح ! وعذر الرازي في ذلك هو اعتقاده أن ذلك لم يثبت عن أحد من علماء السلف الصالح .

وسترى في آخر هذا المبحث أقوال العلماء في هذه المسألة- إن شاء الله تعالى-.

فإن قيل : قد بينتم دلالة القرآن على براءته -عليه السلام- مما لا ينبغي في الآيات المتقدمة، ولكن ماذا تقولون في قوله -تعالى-: ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن المراد بهم يوسف بها خاطر قلبي صرف عنه وازع التقوى.

وقال بعضهم: هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لا معصية فيه؛ لأنه أمر جبلي لا يتعلق به التكليف؛ كما في الحديث عنه ﷺ: أنه كان يقسم بين نسائه؛ فيعدل ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك»[١]؛ يعني: ميل القلب الطبيعي .

ومثال هذا: ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم.

وقد قال ﷺ: «ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة»[٢]؛ لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفا من الله، وامتثالا لأمره؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ ﴾ [النازعات: ٤٠].

وهم بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد، كهم يوسف هذا، بدليل قوله: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾؛ لأن قوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ يدل على أن ذلك الهم ليس معصية؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله لذلك العاصي إغراء على المعصية.

والعرب تطلق الهم وتريد به: المحبة والشهوة؛ فيقول الإنسان فيما لا يحبه ولا يشتهيه : هذا ما يهمني، ويقول فيما يحبه ويشتهيه: هذا أهم الأشياء إلي، بخلاف هم إمرأة العزيز؛ فإنه هم عزم وتصميم، بدليل أنها شقت قميصه

---

(١) إسناده ضعيف؛ كما في «إرواء الغليل» (٧/ ٨١/ ٢٠١٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٨-١٣١).

من دبر، وهو هارب عنها، ولم يمنعها من الوقـوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه.

ومثل هذا التصميم على المعصية : معصية يؤاخذ بـها صاحبـها؛ بدليل الحديث الثابت في الصحيح عنه ﷺ من حديث أبي بكرة: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصا على قتل صاحبه»[1]؛ فصرح ﷺ بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار.

وأما تأويلهم هم يوسف بأنه قارب الهم ولم يهم بالفعل؛ كقول العرب: قتلته لو لم أخف الله؛ أي : قاربت أن أقتله ؛ كما قاله الزمخشري .

وتأويل الهم بأنه هم بضربها ، أو هم بدفعها عن نفسه؛ فكل ذلك غير ظاهر، بل بعيد من الظاهر، ولا دليل عليه .

والجواب الثاني - هو اختيار أبي حيان -: أن يوسف لم يقع منه هم أصلا، بل هو منفي عنه لوجود البرهان .

قلنا: هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره وهو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب : أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾؛ أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه، فالأول: دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب؛ لأن جواب الشروط وجواب «لولا» لا يتقدم، ولكن يكون المذكور قبله دليلا عليه كالآية المذكورة، وكقوله: ﴿ قُلْ هَاتُواْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة.

بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل:٦٤]؛ أي: إن كنتم صادقين؛ فهاتوا برهانكم.

وعلى هذا القول: فمعنى الآية، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه؛ أي: لولا أن رآه هم بها، فما قبل «لولا» هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة.

ونظير ذلك قوله -تعالى-: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ [القصص:١٠] فما قبل «لولا» دليل الجواب؛ أي: لولا أن ربطنا على قلبها؛ لكادت تبدي به.

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب «لولا»، وتقديم الجواب في سائر الشروط، وعلى هذا القول يكون جواب « لولا» في قوله: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ هو ما قبله من قوله: ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ،وإلى جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون، ومن أعلام البصريين : أبو العباس المبرد، وأبو زيد الأنصاري.

وقال الشيخ أبو حيان في «البحر المحيط» ما نصه:

«والذي أختاره أن يوسف -عليه السلام- لم يقع منه هم بها ألبتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان؛ كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، ولا نقول : إن جواب «لولا» متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك ، بل صريح أدوات الشروط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد.

بل نقول: إن جواب «لولا» محذوف لدلالة ما قبله عليه، كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت؛ فيقدرونه إن فعلت

فأنت ظالم، ولا يدل قوله: أنت ظالم على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل، وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فكان وجود الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم، ولا التفات إلى قول الزجاج: ولو كان الكلام: ولهم بها كان بعيدا، فكيف مع سقوط اللام ؟لأنه يوهم أن قوله: ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ هو جواب «لولا» ونحن لم نقل بذلك، وإنما هو دليل الجواب وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب؛ فاللام ليست بلازمة؛ لجواز أن يأتي جواب «لولا» إذا كان بصيغة الماضي باللام، وبغير لام تقول: لولا زيد لأكرمتك، ولولا زيدا أكرمتك.

فمن ذهب إلى أن قوله: ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ نفس الجواب لم يبعد ولا التفات لقول ابن عطية: إن قول من قال: إن الكلام قد تم في قوله: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ وإن جواب «لولا» في قوله ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ وإن المعنى: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، فلم يهم يوسف -عليه السلام- .

قال: وهذا قول يرده لسان العرب وأقوال السلف».

أما قوله: يرده لسان العرب؛ فليس كما ذكر، وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب؛ قال الله -تعالى-: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ فقوله: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾: إما أن يتخرج على أنه الجواب على ما ذهب إليه ذلك القائل، وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها؛ لكادت تبدي به .

وأما أقوال السلف: فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يتناقض بعضها بعضا، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين فضلا عن المقطوع لهم بالعصمة .

والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب؛ لأنهم قدروا جواب «لولا» محذوفا ولا يدل عليه دليل: لأنهم لم يقدروا لهم بها، ولا يدل كلام العرب إلا على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط؛ لأن ما قبل الشرط دليل عليه .أ.هـ

وقد قدمنا: أن هذا القول هو أجرى الأقوال على لغة العرب، وإن زعم بعض العلماء خلاف ذلك .

فبهذين الجوابين نعلم أن يوسف -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- بريء من الوقوع فيما لا ينبغي، وأنه إما أن يكون لم يقع منه هم أصلا بناء على أن الهم معلق بأداة الامتناع التي هي «لولا» على انتفاء رؤية البرهان، وقد رأى البرهان؛ فانتفى المعلق عليه، وبانتفائه ينتفي المعلق الذي هو همه بها؛ كما تقدم إيضاحه في كلام أبي حيان.

وإما أن يكون همه خاطرا قلبيا صرف عنه وازع التقوى، أو هو الشهوة والميل الغريزي المزموم بالتقوى؛ كما أوضحناه.

فبهذا يتضح لك أن قوله: ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ لا يعارض ما قدمنا من الآيات على براءة يوسف من الوقوع فيما لا ينبغي»[١].

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٥٦-٦٢).

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

٢٥/٣٣٦- ينبغي الاجتهاد والهرب من الفتن أخذا بالأسباب وإيثارا للنجاة (١).

قال ابن الجوزي:

«يعني: يوسف والمرأة تبادرا إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه، وأراد يوسف أن يسبق ليفتح الباب ويخرج، وأرادت هي إن سبقت إمساك الباب؛ لئلا يخرج، فأدركته، فتعلقت بقميصه من خلفه؛ فجذبته إليها، فقدت قميصه من دبر؛ أي : قطعته من خلفه؛ لأنه كان هو الهارب وهي الطالبة له»(٢).

٢٥/٣٣٧- ضرب وبكى وسبق واشتكى.

إن امرأة العزيز وهي تطارد يوسف الصديق الفار بدينه الخارج من باب الدار خوفا من العار والنار، ثم وهي تشكيه لزوجها (فوطفيار) يصدق عليها مثل معروف في بلاد الشام- حرسها الله- «ضربني وبكى وسبقني واشتكى».

وإلى هذا المعنى يشير العلمي حيث قال:

«﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾؛ أي تسابق يوسف وزليخا الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار؛ لأنها ضايقته وضغطت على حريته، وشددت عليه وأحرجته، ولما كانت شدة الضغط تولد الانفجار ولما كان الإحراج يؤدي إلى الإخراج، نفر منها؛ فأسرع يريد الباب ليخرج، وأسرعت

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٢١).

(٢) «زاد المسير» (٤/ ٢١٠-٢١١).

وراءه لتمنعه الخروج، ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ اجتذبته من خلفه؛ فانقد؛ أي: انشق قميصه حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه، وما كان منه إلا أن نزعه عن جسمه ليسهل عليه التخلص منها؛ فأخذته ملفوفا في يدها ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ وصادفا بعلها فوطيفار ﴿ لَدَا ٱلْبَابِۚ ﴾ مقبلا يريد أن يدخل. وقيل: كان جالسا مع ابن عم المرأة فما تصورت إلا كأنها أفاقت من سبات، وقد رجعت إليها حواسها، فراعها ذلك، والتمست مخرجا أرادت أن تلهب به عليه سيدها ﴿ قَالَتْ ﴾ بلسان المشتكي المظلوم: الله أكبر، ما هذا؟ «إن البغاث بأرضنا يستنسر»، الله أكبر «حاميها حراميها» جئنا بالعبيد لكي يحرسونا فإذا هم الخائنون»[1].

٢٥/٣٣٨- من كان غريمه القاضي فلمن يشتكي.

لقد ضربت امرأة العزيز وبكت واستبقت الباب فلما وجدت زوجها اشتكت ثم تحولت بحركة بهلوانية من متظلم إلى قاض.

قال ابن عاشور:

«...لأن السامع يسأل: ماذا حدث عند مفاجأة سيدها وهم في تلك الحالة.

وابتدرته بالكلام إمعانا في البهتان بحيث لم تتلعثم، تخيل له أنها على الحق، وأفرغت الكلام في قالب كلي ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها؛ فلا يسع المخاطب إلا الإقرار لها.

ولعلها كانت تخشى أن تكون محبة العزيز ليوسف- عليه السلام- مانعة له من عقابه، فأفرغت كلامها في قالب كلي. وكانت تريد بذلك أن لا يشعر

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥١٩).

زوجها بأنها تهوى غير سيدها، وأن تخيف يوسف- عليه السلام- من كيدها لئلا يمتنع منها مرة أخرى.

ورددت يوسف- عليه السلام- بين صنفين من العقاب، وهما: السجن؛ أي: الحبس. وكان الحبس عقابا قديما في ذلك العصر، واستمر إلى زمن موسى- عليه السلام- ، فقد قال فرعون لموسى- عليه السلام- ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ وإما العذاب؛ فهو أنواع...»[1].

٢٥/٣٣٩- الحق والباطل دائما في صراع وسباق.

إن قوله -تعالى-: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ إشارة إلى تكلفهما السبق؛ فكل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب، فالمتسابقان اثنان والمسار واحد ولكن الهدف مختلف.

قال العلمي:

«فولى وجهه شطر الباب، فر هاربا وللنجاة طالبا، فلطمت يدا بيد وضربت صدرها، وما عتمت أن لحقته، فذهبا يتسابقان نحو الباب، وهما بين هارب وطالب، طريد هارب، وصائد طالب، تسابقا تسابقا يتمنى المصور أن يراه؛ فيرسمه، لكي يرسم صورة الطهارة والعفة في ذلك الشاب الشريف، ويرسم صورة الخيانة والدناءة في تلك المرأة الساقطة.

هو يستبق لباب الجنة، وهي تستبق لباب جهنم.

هو يستبق لباب الطهارة، وهي تستبق لباب الدنس.

هو يستبق لباب الشرف والعلو، وهي تستبق لباب الدناءة والانحطاط.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٥٦-٢٥٧).

كل منهما يريد الباب، ولكن لأمرين مختلفين. كل منهما يريد الباب، وهو عمل في ظاهره واحد، ولكنه في باطنه مختلف أيما اختلاف، صورة هذا العمل واحدة، ولكن الروح مختلفة: هو استبق الباب؛ ليخرج منه، وهي استبقت الباب لتمنعه من الخروج.

هو استبق الباب؛ ليفتحه، وهي استبقت الباب؛ لتسده في وجهه.

هو استبق الباب؛ ليفر بدينه ومروءته، وهي استبقت الباب؛ لتهدم دينها ومروءتها»[1].

٢٥/٣٤٠- بيان منزلة الزوج من المرأة.

قال أحمد نوفل:

﴿ وَأَلْفَيَا ﴾: وجدا، ﴿ سَيِّدَهَا ﴾: زوجها، وفي هذا بيان منزلة الزوج من المرأة.

ليست المرأة أمة ولا عبدة حتى لا يسيء الفهم بعضهم، وهل وجود سيد يأمر؛ فيطاع، وينهى؛ فينزجر الناس، هل وجوده استعباد أم تنظيم لحياة العباد؟

هذه منزلة الزوج، فلا يسيئن استخدام صلاحياته، ولا يتعسفن. ويظن نفسه إلها جبارا في الأرض، وظالما جلادا لهذه المرأة، وليس كذلك إمعة لا يحرك ساكنا، ينقاد لاهواء وشهوات زوجته ومطالبها ومطامحها التي لا تنتهي، حتى لو قطعت صلته بالله أو بأرحامه، ولو جرته إلى حافة الإفلاس...

إن الحياة الزوجية شركة بين عاقلين متزنين ملتزمين بأحكام الدين، ومدير هذه المؤسسة الرجل، والمنفذ الفعلي المرأة، وليست الحياة الزوجية

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٢٠-٥٢١).

حلبة صراع، ومناكفة بين نديين متربص كل منهما بالآخر، انها ساعتئذ الجحيم بعينه»[١].

٢٥/٣٤١- القد يفيد القطع والشق، وأكثر استعماله فيما كان طولا[٢].

قال أبو حيان:

«والقد: القطع والشق، وأكثر استعماله فيما كان طولا قال:

تقد السلوقي المضاعف نسجه

وتوقد بالصفاح نار الحباحب

والقطع: يستعمل فيما كان عرضا»[٣].

قال ابن عطية:

«والقد: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا، «والقطع» يستعمل فيما كان عرضا»[٤].

٢٥/٣٤٢- المبادرة إلى الحيل؛ لتبرئة النفس من الريبة من المكر والكذب.

قال أبو حيان:

«بادرت أن جاءت بحيلة جمعت فيها بين تبرئة ساحتها من الريبة وغضبها على يوسف وتخويفه طمعا في مواقعتها خيفة من مكرها كرها لما آيست أن يواقعها طوعا؛ ألا ترى إلى قولها: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ ﴾، ولم تصرح باسم يوسف بل أتت بلفظ عام وهو قولها: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ ﴾ وهو

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٦٨-٣٦٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٧١).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٦٠).

(٤) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٣٥).

أبلغ في التخويف، وما: الظاهر أنها نافية، ويجوز أن تكون استفهامية؛ أي: أي شيء جزاؤه إلا السجن ؟ وبدأت بالسجن إبقاء على محبوبها، ثم ترقت إلى العذاب الأليم؛ قيل: هو الضرب بالسوط. وقولها ﴿ مَا جَزَآءُ ﴾؛ أي: أن الذنب ثابت متقرر في حقه، وأتت بلفظ ﴿ سُوٓءٍ ﴾؛ أي : بما يسوء، وليس نصا في معصية كبرى، إذ يحتمل خطابه لها بما يسوؤها أو ضربه إياها، وقولها: ﴿ إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ ﴾ يدل على عظم موقع السجن من ذوي الأقدار حيث قرنته بالعذاب الأليم»[١].

قال السعدي:

«ولم تقل: «من فعل بأهلك سوءا» تبرئة لها وتبرئة له -أيضا- من الفعل»[٢].

٢٥/٣٤٣- «إطلاق لفظ سيدي على الزوج؛ ولأن القبط يسمون الزوج: سيدا»[٣].

قال الشوكاني:

«وعنى بالسيد: الزوج؛ لأن القبط يسمون الزوج: سيدا، وإنما لم يقل سيده؛ لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحا، فلم يكن سيدا له»[٤].

قال أبو حيان:

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٦٠).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٣).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٤٧).

(٤) «فتح القدير» (٣/ ١٨).

«والمرأة تقول لبعلها: سيدي، ولم يضف إليهما ؛لأن قطفير ليس سيد يوسف على الحقيقة»[1].

قال ابن عطية:

«والسيد: الزوج؛ قاله زيد بن ثابت، ومجاهد. فيروى أنهما وجدا العزيز ورجلا من قرابة زليخا عند الباب الذي استبقا إليه؛ قاله السدي»[2].

٢٥/٣٤٤- من أراد السوء والفحشاء؛ فعليه جزاء أو عقاب أو سجن.

قال أبو بكر الجزائري:

«ووجد زوجها عند الباب جالسا حال هروبه منها، وهي تجري وراءه، حتى انتهيا إلى الباب، وإذا بالعزيز جالس عنده؛ فخافت المعرة على نفسها، فبادرت بالاعتذار قائلة: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ ﴾؛ أي: يوما أو يومين، أو عذاب أليم، يكون جزاءا له، كأن يضرب ضربا مبرحا»[3].

٢٥/٣٤٥- إطلاق لفظ«الأهل» على الزوجة.

قال العلمي:

«المراد بكلمة «الأهل» في قولها: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ ﴾ : الزوجة؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ فأهله هنا هي زوجته «صفورة»، وقوله -تعالى- للنبي ﷺ: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران:١٢١] أراد من أهله عائشة -رضي الله عنها-؛ لأن غدوه إلى أحد كان من حجرتها، وقوله -تعالى- عن إبراهيم عليه

---

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٦٠).

(٥) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٣٥).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٥ -٦٠٦).

السلام: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾ [الذاريات:٢٦] أراد من أهله هنا: سارا وهاجر خاصة... فالأهل ههنا في هذه الآيات الأربع إنما هم الزوجات»[١].

٢٥/٣٤٦- «أن الدبر من الخلف، وهو: الناحية الخلفية منه»[٢].

قال البقاعي:

«﴿ مِن دُبُرٍ ﴾؛ أي: الناحية الخلف منه، وانقطعت منه قطعة؛ فبقيت في يدها»[٣].

قال القاسمي:

«أي اجتذبته من خلفه؛ فانقد؛ أي: انشق قميصه»[٤].

٢٥/٣٤٧- طبائع النساء متشابهة قديما وحديثا.

لما مرض رسول الله ﷺ -مرضه الذي مات فيه- قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فقيل له: إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد، فأعادوا له، فأعاد الثالثة فقال: «إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر؛ فليصل بالناس»[٥].

٢٥/٣٤٨- من سجايا الكرام الستر والتنزه عن الفحشاء.

قال البقاعي:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٢٩).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٢١).

(٣) «نظم الدرر» (٤/ ٣٢).

(٤) «محاسن التأويل» (٦/ ٢١٦).

(٥) أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨/ ٩٤).

«والجزاء مقابله العمل بما هو حقه هذا كان حالها عند المفاجأة، وأما هو -عليه الصلاة و السلام-؛ فجرى على سجايا الكرام بأن سكت سترا عليها، وتنزها عن ذكر الفحشاء»[١].

٢٥/٣٤٩- امرأة العزيز كانت متيقنة: أن زوجها لا يخالف لها قولا، ولا يعارض لها رغبة.

قال عبد الحميد كحيل:

«رفعت لزوجها الشكوى وأصدرت الحكم على يوسف، وفي هذا دليل على وثوقها بأن زوجها لا يخالف لها أمرا، و لا يعارض لها رغبة؛ فاتهمت يوسف بأنه أراد بها سوءا؛ أي: فاحشة، وطلبت معاقبته بالسجن، أو تعذيبه عذابا يؤلمه، وكأنها خافت أن يبيعه سيده أو يقتله؛ فحددت نوع الجزاء حرصا على الإبقاء على حياته، ودليلا تقدمه نفسها عن غير وعي على أنها ما زالت تحبه وما زالت تطمع فيه، وسجنه أو تعذيبه قد يخضعه لها»[٢].

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٣٢).

(٢) «نظرات في التفسير» (ص٥٧).

﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

٢٦/٣٥٠- مشروعية الدفاع عن النفس ولو بما يسيء إلى الخصم[1].

قال عبد الحميد كحيل:

«لم يسبقها يوسف بالكلام؛ لأن الكريم لا يسرع بكشف أستار الناس، ولكنه ما اتهمته زوراً وبهتاناً اضطر إلى الدفاع عن نفسه إظهاراً للحقيقة»[2].

٢٦/٣٥١- ليس للفاسق حرمة.

قال القشيري:

«أفصح يوسف -عليه السلام- بجرمها؛ إذ ليس للفاسق حرمه يجب حفظها»[3].

٢٦/٣٥٢- مشروعية القياس واعتبار العرف والعادة والقرائن ما لم تخالف شرعاً.

قال القرطبي:

«في الآية دليل على القياس والاعتبار والعمل بالعرف والعادة؛ لما ذكر من قد القميص مقبلاً ومدبراً، وهذا أمر انفرد به المالكية في كتبهم، وذلك أن القميص إذا جبذ من خلف تمزق من تلك الجهة، وإذا جبذ من قدام تمزق من تلك الجهة، وهذا هو الأغلب»[4].

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٧).

(٢) «نظرات في التفسير» (ص٥٨).

(٣) «اللطائف والإشارات»(٣/ ١٨١).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٧١).

قال ابن قيم الجوزية:

«وقد حكى الله -سبحانه- في كتابه عن شاهد الذي شهد من أهل امرأة العزيز، وحكم بالقرائن الظاهرة على براءة يوسف -عليه السلام- وكذب المرأة بقوله: ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٢٦-٢٨]، وسمى الله - سبحانه- ذلك آية وهي أبلغ من البينة، فقال: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ ﴾ [يوسف:٣٥]، وحكى سبحانه ذلك مقررا له غير منكر، وذلك يدل على رضاه به»[1].

قال الشنقيطي:

«يفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين ، وكذب الآخر؛ لأن ذكر الله لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف يدل على أن الحكم بمثل ذلك حق وصواب؛ لأن كون القميص مشقوقا من جهة دبره دليل واضح على أنه هارب عنها، وهي تنوشه من خلفه، ولكنه -تعالى- بين في موضع آخر أن محل العمل بالقرينة ما لم تعارضها قرينة أقوى منها؛ فإن عارضتها قرينة أقوى منها أبطلتها ، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾؛ لأن أولاد يعقوب لما جعلوا يوسف في غيابت الجب؛ جعلوا على قميصه دم سخلة؛ ليكون وجود الدم على قميصه قرينة على صدقهم في دعواهم أنه أكله الذئب.

---

(١) «بدائع التفسير»(٢/ ٤٥١).

ولا شك أن الدم قرينة على افتراس الذئب له، ولكن يعقوب أبطل قرينتهم هذه بقرينة أقوى منها ، وهي عدم شق القميص، فقال:سبحان الله ! متى كان الذئب حليما كيسا يقتل يوسف ولا يشق قميصه، ولذا صرح بتكذيبه لهم في قوله: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

وهذه الآيات المذكورة أصل في الحكم بالقرائن.

ومن أمثلة الحكم بالقرينة : الرجل يتزوج المرأة من غير أن يراها سابقا؛ فتزفها إليه ولائد لا يثبت بشهادتهن أن هذه هي فلانة التي وقع عليها العقد؛ فيجوز له جماعها من غير احتياج إلى بينة تشهد على عينها أنها هي التي وقع العقد عليها؛ اعتمادا على قرينة النكاح.

وكالرجل ينزل ضيفا عند قوم، فتأتيه الوليدة أو الغلام بالطعام؛ فيجوز له الأكل من غير احتياج إلى ما يثبت إذن مالك الطعام له في الأكل؛ اعتمادا على القرينة.

وكقول مالك ومن وافقه: إن من شم في فيه ريح الخمر يحد حد الشارب؛ اعتمادا على القرينة؛ لأن وجود ريحها في فيه قرينة على أنه شربها، وكمسائل اللوث وغير ذلك.

وقد قدمنا في سورة المائدة صحة الاحتجاج بمثل هذه القرائن، وأوضحنا بالأدلة القرآنية: أن التحقيق أن شرع من قبلنا الثابت بشرعنا شرع لنا، إلا بدليل على النسخ غاية الإيضاح والعلم عند الله -تعالى-.

وقال القرطبي: في تفسير قوله -تعالى-: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾.

استدل الفقهاء بهذه الآيــة في إعمـال الأمـارات في مسـائل مـن الفقـه؛ كالقسامة وغيرها .

وأجمعوا على أن يعقوب -عليه السـلام- اسـتدل علـى كذبـهم بصحـة القميص.

وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعـارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة، ولا خلاف في الحكم بها، قاله ابن العربي».أ.هـ[١].

قال العلمي:

«أخذوا مما فعله هذا الرجل (الشـاهد) أن للحـاكم أو الـوالي أن يحكـم بالقرائن التي يظهر فيها الحق، وأن يستدل بالأمارات، ولا يقف عند خصوص البينات والإقرارات.

اختصم رجلان إلى «أياس» قاضي البصرة، في قطيفتين حمراء وخضـراء، فقال أحدهم: دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي، ثم جاء هذا ووضع قطيفته بجنب قطيفتي، ثم دخل واغتسل، فخرج قبلي، وأخـذ قطيفـتي فتبعتـه، فزعم أنها قطيفته؛ فقال أياس: ألك بينة؟ قال: لا، قال: ائتونـي بمشـط، فـأتى به، فسرح رأس هذا ثم هذا، فخرج مـن رأس أحدهمـا صـوف أحمـر، ومـن رأس الآخر صوف أخضر، فقضـي بـالأخضر لصـاحب الأخضـر، وبـالأحمر لصاحب الأحمر.

ولا تنس في هذا الموضع حكايـة نـبي الله سـليمان -عليـه السـلام- مـع المرأتين اللتين ادعتا الولـد، فحكـم بـه داود -عليـه السـلام- للكـبرى، فقـال

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٦٩-٧١).

سليمان: «ائتوني بالسكين أشقه بينهما» فسمحت الكبرى بذلك، قالت الصغرى: «لا تفعل رحمك الله، هو ابنها[1]» فاستدل برضى الكبرى بشقه وامتناع الصغرى من الرضا بذلك على أنها أمه، وأن الحامل لها على الامتناع من الدعوى ما قام بقلبها من الشفقة والرحمة التي وضعها الله في قلب الأم، فاتضحت هذه القرينة عنده حتى قدمها على إقرارها، فإنه حكم به لها مع قولها: هو ابنها.

وههنا في هذه السورة الكريمة نرى ذلك «الشاهد» من أهل أمرأة العزيز توصل بقد القميص إلى تميز الصادق منهما من الكاذب، وهذا «لوث» في دعوى «العرض» وقد حكم به.

وقد يكون «اللوث» في دعوى «المال» فيحكم بموجبه، وهذا مذكور في سورة المائدة في دعوى المال، في قصة شهادة أهل الذمة على المسلمين، في الوصية في السفر، في قوله -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [المائدة:١٠٦].

وقد يكون «اللوث» في «الدماء» فقد حكم النبي ﷺ بموجب اللوث في القسامة، وجوز للمدعين أن يحلفوا خمسين يمينا ويستحقوا دم القتيل.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢٧).

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- والصحابة معه برجم المرأة التي ظهر بها حمل، ولا زوج لها ولا سيد، وحكم عمر وابن مسعود بوجوب الحد برائحة الخمر من فم الرجل، أو قيئه خمرا اعتمادا على القرينة، ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون «بالقطع» إذا وجد المال المسروق مع المتهم، وهذه القرينة أقوى من البينة والإقرار.

وهل يشك أحد رأى قتيلا يتشحط في دمه، وآخر قائم على رأسه بالسكين أنه قتله؟ ولا سيما إذا عرف بعداوته، وكذلك إذا رأينا رجلا مكشوف الرأس وليس ذلك عادته، وآخر هاربا قدامه، بيده عمامة، وعلى رأسه عمامة، حكمنا بالعمامة التي بيد الهارب قطعا، وجزمنا بأنها يد ظالمة غاصبة، بالقرينة الظاهرة، التي هي أقوى بكثير من البينة والاعتراف.

وهل للقضاء «بالنكول» إلا رجوع إلى مجرد القرينة الظاهرة، التي علمنا بها ظاهرا أنه لولا صدق المدعي عليه دعواه باليمين؟ فلما نكل عنها، كان نكوله قرينة ظاهرة دالة على صدق المدعي، فتقدمت على أصل براءة الذمة.

وبالجملة؛ فإن ما قاله وما حكم به ذلك «الشاهد» هو من قبيل الاعتماد على «الأمارة» وهنا تقوم مقام البينة، وله نظائر كثيرة...

وعلى الإجمال «فالبينة» اسم لكل ما يبين الحق ويظهره، من خصها بالشاهدين، لم يعرف مسماها حقه، ولم تأت «البينة» قط في القرآن الكريم مرادا بها الشاهدان، وإنما أتت مرادا بها الحجة والدليل والبرهان، وكذلك قول النبي ﷺ: «البينة على المدعي»[1] المراد به أن عليه ما يصحح دعواه

---

(١) صحيح- أخرجه البيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٢٥٢)، وغيره من حديث عبد الله بن عباس به. وصححه شيخنا -رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٨/ ٢٦٦).

ليحكم له، والشاهدان من البينة، ولا ريب أن غيرهما من أنواع البينة قد يكون أقوى منهما كدلالة «الحال» على صدق المدعي، فإنها أقوى من دلالة إخبار الشاهد، والبينة والدلالة والحجة والبرهان والآية والتبصرة والعلامة والأمارة والسلطان والمستند والقرينة ألفاظ متقاربة المعنى، فالشارع لم يلغ القرآئن والأمارات ودلائل الأحوال، بل من استقرأ الشرع في مصادره وموارده، وجده شاهدا لها بالاعتبار، مرتبا عليها الأحكام، وقد مدح الله -سبحانه- الفراسة وأهلها في مواضع من كتابه، فقال -تعالى-: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:٧٥]، وهم المتفرسون الآخذون بالسيماء، وهي: العلامة، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [محمد:٣٠]، وقال -تعالى-: ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [البقرة:٢٧٣].

وقد ذكر الفقهاء: أن الدعوى إن كانت من قبيل تهمة، وهي أن يدعي إنسان على إنسان فعل محرم، مثل قتل أو قطع طريق أو سرقة أو غير ذلك من العدوان الذي يتعذر عليه إقامة البينة عليه في غالب الأحوال، فهذا القسم إن أقام عليه المدعي حجة شرعية فذاك... وإلا؛ فالقول قول المدعي عليه بيمينه، لما روى مسلم في «صحيحه» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعطى الناس بدعواهم، لادعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه»[1].

---

(١) «الطرق الحكمية» لابن القيم.

فلهذا وحيث أن يوسف رفض الدعوى عليه رفضا مجردا من اليمين، وأن المرة المدعية لم تأت ببينة تثبت دعواها، احتيج إلى الاستناد إلى أمارة تؤيد واحدا من المدعي والمدعى عليه، فقيل: إن كان..وإن كان...

وهذا من قبيل نصيب العلامة على الحق المشروع، وقد نصب الله -سبحانه- على الحق الموجود والمشروع علامات وأمارات تدل عليه وتبينه، قال -تعالى-: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝ ﴾ [النحل:١٥-١٦]، ونصب على القبلة علامات وأدلة...

ونصب على الإيمان علامات وأدلة.

وقد نصب -تعالى- الآيات دالة عليه وعلى وحدانيته وأسمائه وصفاته، فكذلك هي دالة على عدله وأحكامه، والآية مستلزمة لمدلولها، لا تنفك عنه فحيث وجد الملزوم وجد لزومه، فإذا وجدت آية الحق ثبت الحق، لم يتخلف ثبوته عن آيته وأمارته، والحكم بغيره يكون حكما بالباطل...

ولولا العلامة التي اتخذها «الشاهد» دليلا على التميز بين المحق والمبطل ههنا لحكم على يوسف، أو على الأقل لكان حال يوسف مشكوكا فيه»[١].

٢٦/٣٥٣- للحق والصدق أمارات يعرف بها.

قال السعدي:

«ولكن الله -تعالى- جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه قد يعلمها العباد، وقد لا يعلمونها؛ فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٤٤-٥٤٩).

منهما تبرئة لنبيه وصفيه يوسف -عليه السلام-؛ فبعث شاهدا من أهل بيتها؛ ليشهد بقرينة من وجدت معه؛ فهو الصادق»[١].

٢٦/٣٥٤- من شأن المحب إيثار المحبوب.

قال القرطبي:

«قال العلماء: لما برأت نفسها، لم تكن صادقة في حبه، لأن من شأن المحب إيثار المحبوب»[٢].

٢٦/٣٥٥- لسان الحال أبلغ من لسان المقال[٣].

٢٦/٣٥٦- أن الأهل أعظم في الشهادة[٤].

٢٦/٣٥٧- تقديم إمارة الصدق مما يحبه الخصم؛ فهو في الظاهر اهتمام به، وفي الحقيقة تقرير لكذبه.

قال البقاعي:

«وقدم إمارة صدقها؛ لأنه مما يحبه سيدها، فهو في الظاهر اهتمام بها، وفي الحقيقة تقرير لكذبها مرتين الأولى باللزوم والثانيةِ بالمطابقة»[٥].

٢٦/٣٥٨- «ينبغي للمؤمن أن لا يسكت على باطل ولا يرضى بتوجيه تهمة لبريء؛ فالساكت عن الحق شيطان أخرس»[٦].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٢).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٧٢).

(٣) المصدر نفسه (٩/ ١٧٢).

(٤) «نظم الدرر» (٤/ ٣٣).

(٥) المصدر نفسه (٤/ ٣٣).

(٦) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٢١).

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

٢٧/٣٥٩- «القد من الدبر دليل على إدباره عنها، ومن القبل دليل على إقباله عليها بوجهه»[(١)].

٢٧/٣٦٠- أن الشاهد لا ينبغي أن يقصد الفضيحة بل الإنصاف بين الخصمين:

قال القاسمي:

«ومن اللطائف ما قيل :إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر؛ فنصبه إمارة لصدقه وكذبها، ثم ذكر القسم الآخر وهو قده من قبل على علم بأنه لم ينقد من قبل حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة وقصد الفضيحة وينصفهما جميعا؛ فيذكر إمارة على صدقها المعلوم نفيه، كما ذكر إمارة على صدقه المعلوم وجوده، ومن هنا قدم أمارة على صدقها على إمارة صدقه في الذكر إزاحة للتهمة، ووثوقا بأن الأمارة الثانية هي الواقعة؛ فلا يضره تأخيرها، وهذه اللطيفة بعينها -والله أعلم-»[(٢)].

٢٧/٣٦١- «لا ينفع الخصم إزاحة التهمة عنه كما لا يضره تأخير الحجة عنه»[(٣)].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٢)، و«مسائل الرازي» (ص١٤٩)، وانظر «الكشاف» (٢/ ٢٥٢).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢١٦).

(٣) المرجع السابق (٦/ ٢١٦).

٢٧/٣٦٢- يسمى الرجل شاهدا من حيث دل على الشهادة بنية وحكمة وعلم وإن لم ير الواقعة.

قال العلمي:

«﴿ وَشَهِدَ ﴾ بمعنى أخبر، كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ [يوسف:٨١]، وشاهد حاضر، كما في: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج:٢٨]، ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا ﴾ [النور:٢]، ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ [النمل:٤٩]، يقولون: «صلينا صلاة الشاهد» وهي صلاة المغرب، لأنها لا تقصر، بل يصليها الغائب كما يصليها الشاهد؛ أي: الحاضر.

إذا تقرر هذا فيجوز أن يكون بعض أهل امرأة العزيز كان في الدار، فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف والانتصار لهذا العبد المظلوم. فكل من أخبر بشيء؛ فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بلفظ «أشهد» فلا يشترط في صحة الشهادة ذكر لفظ أشهد، بل متى قال الشاهد: رأيت كيت وكيت، أو سمعت أو نحو ذلك، كانت منه شهادة، ولا يتوقف إطلاق لفظ الشهادة لغة ولا شرعا على قول «أشهد»، قال -تعالى-: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ ﴾ [الأنعام:١٥٠]، ويشهدون: يخبرون، فلا تشهد معهم: فلا تخبر كإخبارهم؛ أي: لا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم، لأنه إذا سلم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم، وكان واحدا منهم، وقال -تعالى-: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ ﴾ [النساء:١٦٦]، ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه، إخباره بإثبات صحته، ولكن هذا الإخبار ليس كلاميا، بل فعليا بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعوى بالدلائل المحسوسة المشاهدة، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ

﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزخرف:٨٦]؛ أي: أخبر بالحق؛ وهو: توحيد الله، وهو يعلم ما يخبر به عن بصيرة.

ويجوز أن يكون معنى وشهد شاهد: وحكم حاكم، والنكتة في العدول عن جملة «حكم حاكم» إلى جملة «شهد شاهد» الإشارة إلى أن هذه الأمارة هي قائمة مقام «الشاهد»؛ فكأنها شهادة، لأن معنى قول النبي ﷺ: «البينة على المدعي»: إن عليه أن يظهر ما يبين صحة دعواه، فإذ ظهر صدقه بطريق من طرق الأمارات والعلامات والقرائن حكم له»[(١)].

٢٧/٣٦٣- «القضاء بشهادة الحال فقط جائز»[(٢)].

٢٧/٣٦٤- عدم جواز الدفاع عن الخائن والمجرم، وتحريم المحاماة عن المجرمين والدفاع عن الخائنين.

قال العلمي:

«نحن لا يسعنا إلا أن نقدم لهذا الشاهد كل شكر وثناء يليقان بعدالته وإنصافه؛ حيث تكلم بما أوجبه عليه ضميره، ولم يراع قرابته لزليخا ، ولم يدلس؛ لأنه صهر العزيز، بل نطق بما أوحاه إليه الإنصاف قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾؛ فلا يجوز للمحامي أو للحاكم أن يخاصم البرءاء لأجل الخائنين قال -تعالى-: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ۝١٠٧﴾ [النساء:١٠٧]»[(٣)].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٣٩-٥٤٠).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٩).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٤٢-٥٤٣).

٢٧/٣٦٥- أن البينة ما يبين الحق من قول وفعل ووصف؛ كما جعل الصحابة -رضي الله عنهم- الحبل علامة وآية على الزنا.

قال العلمي:

«إذ البينة ما يبين الحق من قول وفعل ووصف، وجعل الصحابة -رضي الله عنهم- الحبل علامة وآية على الزنا، فحدوا به المرأة، وإن لم تقر، ولم يشهد عليها أربعة، بل جعلوا الحبل أصدق من الشهادة، وجعلوا رائحة الخمر وقيئه لها آية، وعلامة على شربها، بمنزلة الإقرار والشاهدين.

وجعل النبي ﷺ كثرة المال وقصر مدة إنفاقه آية وعلامة على كذب المدعي أنه ذهب في النفقة والنوائب في قصة حيي بن أخطب، واعتبر العلامة في السيف وظهور أثر الدم به في الحكم بالسلب لأحد المتداعيين، فنزل الأثر منزلة البينة، وجعل الحيض علامة على براءة الرحم من الحمل...»[(١)].

---

(١) المرجع السابق (١/ ٥٤٩).

﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

٢٨/٣٦٦- يحتج بالأمارات والعلامات فيما لا تحضره البينات.

قال القاسمي:

«يحتج بالآية من يرى الحكم بالأمارات والعلامات فيما لا تضره البينات، كاللقطة، والسرقة، والوديعة، ومعاقد الحيطان، والسقوف، وشبهها»[١].

٢٨/٣٦٧- تعليم للملوك ومن دونهم أن ينزلوا على حكم القضاة.

قال العلمي:

«وفي هذه الآية تعليم للملوك ومن دونهم أن ينزلوا على حكم القضاة ويعملوا بقضائهم؛ كما فعل العزيز إذ نزل على حكم ذلك الحاكم (الشاهد)»[٢].

٢٨/٣٦٨- من الفراسة الاستدلال بالأمارات وشواهد الحال.

قال العلمي:

«ما أشبه هذا الشاهد في فراسته بالنبي سليمان -عليه السلام- وعمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، والقاضي إياس بن معاوية، والقاضي شريح، والقاضي أبي حازم، وغيرهم من حكام العرب وحكمائهم؛ فجميع هؤلاء مع مشاركة سواهم في العلم والحكمة قد اختصوا بالفهم وامتازوا بالاستدلال بالأمارات وشواهد الحال وهذا الذي

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢١٧).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٥٣).

فات كثيرا من الحكام الجامدين؛ فأضاعوا كثيرا من الحقوق، وأحيوا كثيرا من الباطل»[١].

٢٨/٣٦٩- الحكم لا يكون إلا من بعد الرؤية العينية والاستماع للشهود والنظر في الأدلة.

٢٨/٣٧٠- «أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان»[٢].

قال القرطبي:

«وإنما قال ﴿ عَظِيمٌ ﴾ لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن»[٣].

قال الشنقيطي:

«قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ هذه الآية الكريمة إذا ضمت لها آية أخرى حصل بذلك بيان لأن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، والآية المذكورة هي قوله: ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾؛ لأن قوله في النساء: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾، وقوله في الشيطان: ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ يدل على أن كيدهن أعظم من كيده».

قال القرطبي:

«قال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان؛ لأن الله -تعالى- يقول: ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾، وقال: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾»[٤].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٤٤).
(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٧).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٧٥).
(٤) إسناده موضوع؛ فيه علتان:

وقال الأديب الحسن بن آيه الحسنى الشنقيطي:

مـــا اســـــتعظم الإلـــــه كيـــــد هنـــــه
إلا لأنـــــــهن هـــــــن هنـــــــــه»[1]

٢٨/٣٧١- رب محنة في وسطها منحة.

قال العلمي:

«إن في مصيبة يوسف بقد قميصه فائدة له كبرى، وهي براءته مما نسب إليه، ورب محنة في وسطها منحة:

مـــــن عـــــرف الله أزال التهمـــــة
وقـــــال كـــــل فعلـــــه لحكمـــــه»[2]

٢٨/٣٧٢- الكيد والمكر من صفات الضعفاء ولا يكون ناتجا عن عقل وحكمة وإنما هي حيل الثعالب.

قال العلمي:

«الكيد والتقلب والرياء والنفاق والخداع والخيانة والمكر والتدابير الخفية والألغاز المجهولة كل هذه الصفات المشتركة بين الرجل والمرأة، غير أن المرأة لما كانت أضعف من الرجل، رأت نفسها مضطرة إلى الالتجاء لهذه الصفات

= الأولى: يحيى بن أبي كثير؛ وهو مدلس، وقد عنعنه.

الثانية: مقاتل، وهو مقاتل بن سليمان البلخي.

قال ابن حجر في «التقريب»: «كذبوه وهجروه ورمي بالتجسيم».

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٧٢).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٥٦).

أكثر من الرجل، القوي الجبار القاهر، فلذلك اشتهرت النساء بهذه المعاني أكثر من الرجال، ويوجد الختل والمكر في النساء عموما، وفي «اليهود» من الرجال وغيرهم خصوصا، وسببه الذل والمسكنة؛ لأن الرجال ظلموا المرأة وأهانوها وأذلوها، وكذا حال «اليهود» بين الناس، من حين هاجروا من العراق إلى سورية وفلسطين؛ فعاشوا غرباء بين تلك الأمم المتوثنة، ثم من حين أن عاشوا بمصر بعد يوسف، فأذلهم الفراعنة وسخروهم وذبحوا أبنائهم واستحيوا نساءهم، ثم - بعد رجوعهم لسورية وفلسطين - من حين أن استولى عليهم الكلدان فالفرس فاليونان فالرومان»[1].

٢٨/٣٧٣- المرأة أضعف من الرجل؛ فلذلك تلجأ للتسلح بالتدابير الخفية من كيد ومكر.

قال العلمي:

«يريد بقوله: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾؛ إنه من كيدك، ولكنه عبر بصيغة الجماعة؛ ليشير إلى أن الكيد طبيعة مدفونة في قلب جميع النساء، فجل النساء في الخدعة والمحال كزليخا، وزليخا في الختل والحيلة صورة صادقة لجل النساء.

وبعبارة أخرى : هو لا يصف ما جال في نفس امرأته فحسب ، وما حاك في صدرها فقط، من ختل وخب، إنما هو يصف العادة الطبيعية لكل امرأة ، يخبر بالحال النفسية لكل أنثى، فهو يمثل النوع بأن ديدنه كما ذكر؛ فالكيد هو خلق عريق فيهن:

ولا تحسبن هندا لها الغدر وحدها
سجية نفس كل غانية هند

(١)«مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٥٧-٥٥٨).

وبعبارة ثالثة: لم يقع الكيد إلا من واحدة، ولكن لما كان الكيد من نفسية «الجنس اللطيف» نسبة لذلك الجنس، ونظيره قوله ﷺ: «إنكن لأنتن صواحب يوسف»[1]؛ يريد: أن الإلحاح والمكر من نفسية هذا الجنس النسائي.

قال ﷺ لحفصة إذ كانت قالت له عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك، لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر؛ فليصل بالناس؛ فلم يقبل ﷺ، ثم قالت له ذلك حفصة، فلم يقبل، وإذ رآهن قد ألححن، قال ذلك.

هذا وإن سبب اتصاف المرأة بالكيد أكثر من الرجل، هو أنها لما أضلت حريتها في ظلمات الأجيال الماضية، وفقدت استقلالها وعزها، وأدركها العجز عن تناول ما ترغب إليه بالطرق المسنونة، بسبب ظلم الرجل لها، اضطرت إلى استعمال الحيلة، وأخذت تعامل الرجل - وهو سيدها وولي أمرها- كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه، ونمت فيها ملكة المكر إلى غاية ليس وراءها منزع، فأصبحت ممثلة ماهرة، ومشخصة قادرة، تظهر في المظاهر المتضادة، والألوان المختلفة، في كل حال بحسبها، وذلك لا عن عقل وحكمة، وإنما هي حيل الثعالب، وعذرها في ذلك أنها ليست حرة مع ولي أمرها، من أب أو زوج مثلا .

الكيد موجود في الرجال والنساء، إلا أن النساء ألطف كيدا، وأنفذ حيلة، ولهن في ذلك نيقة ورفق، وبذلك يغلبن الرجال، ومنه قوله -تعالى-:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٤)، ومسلم (٤١٨/ ٩٤و٩٥) من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝﴾ [الفلق:٤]، والقصريات من بينهن معهن من البوائق ما ليس مع غيرهن»[1].

٢٨/٣٧٤- المرأة أرق من الرجل من حيث الدماثة واللطف ورقة العواطف.

قال العلمي:

«ثم إذا استعرضت الرجل والمرأة في ملاعب الميسر تجد أن الرجل يأخذ من هذه البلية القسط الأوفر، والبلاء الأعظم، ولا ينال المرأة منها إلا جزء صغير، إذا فالمرأة أبعد من الرجل عن المخازي الفتاكة بالهيئة الاجتماعية والمنهكة للأجساد والأرواح، الدافعة للناس - بين يأسهم ورجائهم - إلى اقتراف السرقة والقتل.

ولننظر إلى الرجل والمرأة من حيث الدماثة واللطف ورقة العواطف والشعور والحنان؛ فهذه الأخلاق تفضل فيها المرأة الرجل.

ولا أحسبك إلا مسلما لي في هذا الاعتقاد على طول الخط...فوق ما اتصفت به من تلك الأخلاق وتفوقها فيها؛ فهي مخصصة للقيام بعبء عظيم، من أعباء هذه الحياة، إذا لم تقل أعظمها، وهو الحمل والولادة والرضاع وتربية الأطفال التربية الأولية .

نعم لا ننكر أن الرجل يفضل المرأة بأشياء هي جوهرية وذات قيمة؛ كالعقل الثابت في مقابلة عاطفتها المضطربة، والقيام بالواجبات الاقتصادية والسعي، والإنفاق في مقابلة كونها لا تقوم بشيء من ذلك، والدفاع عن الوطن والشرف والمال في مقابلة كونها ليس فيها أهلية لذلك، والثبات على

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٥٨-٥٥٩).

المبدأ في مقابلة تناقضـها في أعمالها وأقوالها، فبهذه الأشياء وأمثالها فضل الرجل المرأة»[١].

٢٨/٣٧٥- «على المؤمن أن يتأنى في إصدار حكمه، ولا يقضي إلا بعد أن يستقصي الحقائق، ويسمع إلى كافة الأطراف معتمدا أرجح الأدلة وأقوى البراهين»[٢] .

---

(١) «مؤتمر سورة يوسف»(١/ ٥٦١-٥٦٢).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف»(١/ ٢١).

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

٢٩/٣٧٦- بيان ضعف الغيرة في أصحاب القصور والطبقات المترفة.

قال القرطبي:

«وقيل: إن القائل ليوسف. أعرض، ولها: استغفري؛ زوجها الملك، وفيه قولان:

أحدهما : أنه لم يكن غيورا؛ فلذلك كان ساكنا، وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود.

والثاني: أن الله -تعالى- سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كفى بادرته وعفا عنها»[١].

٢٩/٣٧٧- وجوب الاستغفار من الذنب وأن الكبيرة لا تخرج المؤمن عن الإيمان خلافا للمعتزلة والخوارج[٢].

قال السعدي:

«فأمر يوسف بالإعراض وأمرها بالاستغفار والتوبة»[٣].

٢٩/٣٧٨- استحباب الستر على المسيء وكراهية إشاعة الذنوب بين الناس[٤].

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٧٥).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٥).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٢).

(٤) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٠٦) و«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٢٢).

قال السعدي:

«أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد طلبا للستر على أهله»[(١)].

٢٩/٣٧٩- بيان تغليب المذكر على المؤنث في اللغة.

قال البغوي:

«من المذنبين، وقيل: إن هذا من قول الشاهد ليوسف ولراعيل، وأراد بقوله ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾؛ أي: سلي زوجك أن لا يعاقبك ويصفح عنك ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ من المذنبين حتى راودت شابا عن نفسه وخنت زوجك؛ فلما استعصم كذبت عليه.

وإنما قال: ﴿ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ ولم يقل من الخاطئات؛ لأنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد به الخبر عمن يفعل ذلك تقديره: من القوم الخاطئين؛ كقوله -تعالى-: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾ [التحريم:١٢] بيان قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ [النمل:٤٣][(٢)]».

قال القاسمي:

«أي: من جملة القوم المعتمدين، يقال: خطيء إذا أذنب متعمدا، وأخطأ إذا فعله من غير تعمد، ولهذا يقال:أصاب الخطأ وأخطأ الصواب؛ فأصاب الصواب، وإيثار جمع السالم تغليبا للذكور على الإناث، ودل هذا على أن العزيز كان رجلا حليما إذ اكتفى من مؤاخذتها بهذا المقدار»[(٣)].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٢).

(٢) «مختصر معالم التنزيل» (١/ ٤٣٧).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢١٨).

٢٩/٣٨٠- هم الملوك هو المحافظة على الظواهر.

٢٩/٣٨١-الاستغفار أمان في أن لا تقع عقوبة من الناس ولا عذاب من الله.

قال البقاعي:

«﴿ وَٱسْتَغْفِرِى ﴾؛ أي: اطلبي الغفران ﴿ لِذَنۢبِكِ ﴾ في أن لا يحصل لك عقوبة مني ولا من الله، واستأنف بيان ما أشار إليه بقوله : ﴿ إِنَّكِ كُنتِ ﴾ ؛ أي: كونا جبليا ﴿ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾؛ أي: العريقين في الخطأ بغاية القوة، يقال: خطيء يخطأ إذا أذنب متعمدا»[١].

٢٩/٣٨٢- فساد أخلاق الرجل مدعاة لفساد أهل بيته.

قال العلمي -رحمه الله-:

«حقا إن العوامل التي تفسد المرأة، وتحول أخلاقها هذا التحول المشئوم ترجع كلها إلى تحول أخلاق الرجل؛ فإذا صار هو فاسقا؛ فلا ينتظر أن تكون هي العفيفة، وإذا هو هدم المسجد؛ فلا يعقل أن تبني هي المأذنة، وإذا كان هو متهتكا؛ فلا يمكن أن تبقى هي حيية مصونة؛ هذه هي القاعدة الاجتماعية (الغالبة) وما خرج عنها؛ فهو شاذ وقليل ما هم»[٢].

٢٩/٣٨٣- المعاصي أنواع.

قال العلمي:

«المعاصي ثلاثة أنواع:

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٣٣).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٧٢).

نوع فيه الحد؛ كالزنا والسرقة وشرب الخمر، ونوع فيه الكفارة وذلك، كالجماع في الإحرام وفي نهار رمضان والحنث في اليمين، ونوع لا حد فيه ولا كفارة، بل فيه التعزير، وذلك؛ كسرقة ما لا قطع فيه، واليمين الغموس، والنظر إلى الأجنبية بشهوة، ومحاولة ارتكاب الفاحشة وأخذه في أسبابها وإقامة الدعوى الباطلة على أهل الفضل والدين كما وقع من امرأة العزيز لما راودت يوسف، ثم لما افترت عليه؛ فهذا النوع الثالث فيه التعزير فقط والتعزير أنواع:

منها التشهير وتغيير الهيئة.

ومنها: الضرب.

ومنها: الحبس.

ومنها: الربط.

ومنها: النفي[1]».

٢٩/٣٨٤- المعصية تعرف في وجه العاصي وكلامه وما أسر من سريرة إلا ألبسه الله من رداءها.

٢٩/٣٨٥- كل ابن آدم خطاء ولكن الله -تعالى وتبارك- شرع لنا باب التوبة والاستغفار لمغفرة الذنوب وتكفير السيئات[2].

٢٩/٣٨٦- عبر ودروس لكبراء هذا العصر.

قال محمد بهجة البيطار:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٧٦).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٢٢).

«إن في هذه القصة لأعظم عبرة لأمـراء هـذا العصـر ووزرائـه وسـادته وكبرائه ومجانه واعفائه من رجاله ونسائه؛ فإن امرأة العزيز الـتي كـانت تـراود فتاها عن نفسه لم تكن من قبل غوية ولا كانت امرأة عاديـة، ولكنـها ابتليـت بحب هذا الشاب الفاتن الذي وضعه العزيز في قصره، وخلى بينه وبين أهلـه، فأذلت نفسها له بمراودته عن نفسه، فاستعصم وأبى وآثر مرضـاة ربـه؛ فشـاع في مصر دورها وقصورها ذلها له وإباؤه عليها»[١].

٢٩/٣٨٧- قد يكون كتمان بعض الأمور هو الأليق.

قال ابن كثير:

«﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾؛ أي: هذا الذي جرى من مكرك أنت راودته عـن نفسـه ثـم اتهمتـه بالباطل ثم ضرب بعلها عن هـذا صفحا فقـال: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾؛ أي: لا تذكره لأحد؛ لأن كتمـان مثـل هـذه الأمـور هـو الأليـق والأحسـن، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها، والتوبـة إلى ربـها؛ فـإن العبـد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه»[٢].

---

(١) «مقدمة محمد بهجة البيطار لتفسير المنار لسورة يوسف» (ص ٣).

(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٠٤).

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ ﴾.

٣٠/٣٨٨- «بيان طبيعة الإنسان في حب الاطلاع وتتبع الأخبار وخاصة عند النساء»[(١)].

٣٠/٣٨٩- فتى الزوج هو غلام المرأة.

قال ابن عاشور:

«وإضافته إلى ضمير «امرأة العزيز»؛ لأنه غلام زوجها؛ فهو غلام لها بالتبع ما دامت زوجة لمالكه»[(٢)].

٣٠/٣٩٠- الخادم ضعيف أمام سيده.

٣٠/٣٩١- تسمية العبد فتى.

قال العلمي:

«إن هذ الأدب الذي كان يمشي عليه المصريون الأقدمون في تسمية العبد «فتى» هو نعم الأدب، ففي الحديث الشريف: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي»[(٣)].

والفتى من الناس: الشاب، ويستعار للمملوك أو التابع أو الخادم أو المستخدم للحكومة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ [الكهف:٦٠]؛ لأن يوشع بن نون كان تابعا لموسى -عليهما السلام-، وقال -تعالى-: ﴿ وَدَخَلَ

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٠).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٦٠)

(٣) صحيح- أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٥٥٢)، ومسلم في «صحيحه» (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف:٣٦]؛ لأن رئيس السقاة المسمى «نبو» ورئيس الخبازين المدعو «مجلث»، كانا مستخدمين في حكومة الهكسوس، وقال -تعالى-: ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ﴾ [يوسف:٦٢]؛ لأن هؤلاء -أيضا- مستخدمين عند يوسف أيام عمالته بمصر»[1].

٣٠/٣٩٢- ضعف النساء أمام الرجال وعدم قدرتهن على التحمل كالرجال[2].

٣٠/٣٩٣- إن الحب والعشق غير المشروع خطأ ظاهر عن طريق الرشد والصواب بل وضلال مبين.

قال الزمخشري:

«خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد، والشغاف: حجاب القلب، وقيل: جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب.

قال النابغة:

وقد حال هم ذلك والج
مكتن الشغاف تبتغيه الأصابع»[3]

قال البغوي:

«أي: خطأ ظاهر. وقيل: إنها تركت ما يكون على امتثالها من العفاف والستر»[4].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٨٧).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٠).

(٣) «الكشاف» (٢/ ٢٥٣).

(٤) «مختصر معالم التنزيل» (١/ ٤٣٨).

قال القاسمي:

«أي خطأ عن طريق الرشد والصواب، واقتحام الرؤيـة؛ للإشـعار بـأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤية وعلـم مـع التلويـح إلى تنزهـهن عـن مثـل ذلك»[١].

٣٠/٣٩٤- الفساد الأخلاقي يقع في مثل هذه الأوساط الراقية والقصور.

٣٠/٣٩٥- بيان إضافة المرأة إلى زوجها كامرأة فرعون وامرأة لوط وامـرأة العزيز[٢].

٣٠/٣٩٦- كلما عظمت البلدة كان أهلها أعقل وأقرب إلى الحكمة.

قال البقاعي:

«إن جماعة من النساء لما شاع الحديث، ولما كـانت البلـدة كلـها عظمـت كان أهلها أعقل وأقرب إلى الحكمة»[٣].

٣٠/٣٩٧- إن النفس إلى سماع أخبار أولي الأخطار أميل[٤].

٣٠/٣٩٨- كل سر جاوز الاثنين شاع.

قال العلمي:

«انتقل الخبر لقصور الأميرات بواسطة بعض الخـدم والجـواري، ووقـع هذا النبأ موقعا سيئا، ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ جماعة من النساء ﴿ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ وهي «صوعن» عاصمة المملكة العمليقية الهكسوسية، -قلن بلسان المكر: ﴿ ٱمْرَأَتُ

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢١٩).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٣٤).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٣٤).

(٤) المصدر نفسه (٤/ ٣٤).

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ فوطيار -والعزيز -في اصطلاح المصريين من قديم وحديث- هو: نائب الملك ﴿تُرَٰوِدُ﴾ تخاتل ﴿فَتَىٰهَا﴾ عبدها العبراني يوسف ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ليقترب منها؛ لأنه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد، والشغاف: حجاب القلب، وقيل: جليدة رقيقة يقال لها: لسان القلب، وقد اصطلح عليها اليوم بأنها جليدة رقيقة تبطن جوف القلب، فيمينا ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في خطأ وبعد عن طريق الصواب -وقد وجهوا إليها هذا النقد مبطنا بالزراية-»[1].

٣٠/٣٩٩- إن هذا جزاء كل زوج يتساهل في حفظ زوجته مما يخاف منه العار.

قال العلمي:

«هذا ويحتمل أنهن أردن من هذه الإضافة ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ نسبة العار والعيب للعزيز، بإضافة هذه المرأة الساقطة إليه، نسبنها له لا لأهلها؛ لأنه هو السبب فيما حدث، فهو الملوم دون سواه من أهلها، ولذلك لا يجب نسبتها لواحد من أهلها، ولكن لزوجها.

إن التهاون الذي يبدو من الزوج في شأن زوجته، قد يكون له سوء مغبة، ليس في جانب الزوجة فقط، أو في جانبها وأهلها فحسب، بل إن سوء المغبة قد يلحق الزوج، لاسيما إذا كان هو المتسبب.

انظر يا رعاك الله إلى هؤلاء النسوة المصريات عندما أردن ذكر زليخا بالإقذاع لم يسمينها باسمها الشخصي بأن يقلن: زليخا تراود فتاها عن نفسه،

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٨١).

بل نسبنها إلى زوجها قائلات: ﴿ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ وتناسين اسم أبيها وأسرتها، كأنها حواء ثانية، خلقت من ضلع من أضلاع زوجها اليسرى؛ فهو لها وهو عصبتها.

فلماذا يا ترى هذه النسبة؟

قلنا: إنها للإشارة لنسبة العار والعيب للعزيز نفسه بنسبة هذه الساقطة إليه.

ولماذا هذا يا ترى؟

قلنا: لأنه هو الذي تسبب فهذا جزاء كل زوج يتساهل في حفظ زوجته مما يخاف منه العار.

نحن لا نلوم عزيز مصر في إطلاق يد فتاة في سائر أموره الاقتصادية ورؤيته الصادر منها والوارد إليها ورؤيته سائر أحوال البيت ولكن ما هو عذره في السماح لزوجته زليخا أن تدخل على فتاه في غرفته الخاصة به وبأشغاله ؟ وما هو عذره في أمره ليوسف أن يدخل القصر في أي وقت شاء لرؤية بعض اللوازم سواء أكانت العزيزة زليخا في القصر أم لا؟ لا فرق في ذلك حتى ولو كان هناك خلوة فلا منع ولا حظر أصلاً وهل يجمع بين النار والحطب»[1] .

٤٠٠/٣٠- يجب علينا المحافظة على صواحبنا وبناتنا كل حين؛ لأنه ليس كل الفتيان كيوسف معصومين.

قال العلمي:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٨٦-٥٨٧).

«نعم صادف هذا العبد من حيث لا يعلم العزيز ذو دين وشرف وعصمه ولماذا؟ لأنه يوسف وكفى! ولكن ليس كل الفتيان يوسف؛ فإذا يجب علينا المحافظة على صواحبنا وبناتنا كل حين؛ والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين»[1].

٣٠/٤٠١- إن الفضائح لا تخفيها جدران ولا تردها ستور وعلى مجتمع المسلمين أن لا يتناقل الفضائح ويشيع الفاحشة؛ لئلا يكون ذلك سببا في نشرها والترويج لها والتشجيع عليها[2].

٣٠/٤٠٢- لا تكون المحبة إلا وأتيح لها لسان عذول يعبر عنها.

قال القشيري:

«إن الهوى لا ينكتم ولا تكون المحبة إلا أتيح لها لسان عذول فلما تحققت محبتها ليوسف بسطت النسوة فيها لسان الملامة»[3].

٣٠/٤٠٣- التغني بالشعارات والفضائل والمثل شيء والتطبيق شيء آخر.

قال أحمد نوفل:

«وهذا الذي يقلنه لا يدل على أخلاقية وشرف، فقد يروي الناس مثل هذه الأخبار مع تمنيها أن يتاح لهم مثلها، وقد يكون كلامهن من حب الغيرة أو حب الانتقام.

ووصفهن للمرأة بأنها في ضلال مبين لا يدل -أيضا- على أنهن على هدى، فمفهومهن للضلال غير المفهوم الذي نعرف، وحتى لو كان الذي

---

(١) المرجع السابق (١/ ٥٨٧).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (١/ ٢٣).

(٣) «اللطائف والإشارات» (٣/ ١٨٢).

نعرف؛ فإن التغني بالشعارات والمبادىء والفضائل والمُثل شيء والتطبيق شيء آخر»[1].

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (٣٧٧).

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

٣١/٤٠٤- مكر نساء مصر ليرين يوسف.

قال ابن القيم:

«فإن قيل: فما كان مكر النسوة اللاتي مكرن به، وسمعت به امرأة العزيز، فإن الله -سبحانه- لم يقصه في كتابه؟

قيل: بلى، قد أشار إليه بقوله: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف:٣٠].

وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر:

أحدها: قولهن: ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا ﴾ ولم يسموها باسمها، بل ذكروا بالوصف الذي ينادي عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل، فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

الثاني: أن زوجها عزيز مصر، ورئيسها، وكبيرها وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذي تراوده مملوك لا حر، وذلك أبلغ من القبح.

الرابع: أنه فتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف من طلب ذلك من الأجنبي البعيد.

الخامس: أنها هي المراودة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها.

السابع: أن في ضمن هذا أنه أعف منها وأبر وأوفى، حيث كانت هي المراودة الطالبة وهو الممتنع عفافاً وكرماً وحياء، وهذا غاية الذمّ لها.

الثامن: أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع، حالاً واستقبالاً، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها. وفرق بين قولك: فلان أضاف ضيفاً، وفلان يقري الضيف، ويطعم الطعام، ويحمل الكل؛ فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته.

التاسع: قولهن: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ؛أي: إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح؛ فنسبن الاستقباح إليهن، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضاً على الهوى، ولا يكدن يرين لك قبيحاً، كما يساعد الرجال بعضهم بعضاً على ذلك، فحيث استقبحن منها ذلك كان هذا دليلاً على أنه من أقبح الأمور، وأنه مما لا ينبغي أن تساعد عليه ولا يحسن معاونتها عليه.

العاشر: أنهن جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها، ولا في طلبها، أما العشق المفرط؛ فقولهن: ﴿ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا ﴾ والمراودة: الطلب مرة بعد مرة، فنسبوها إلى شدة العشق، وشدة الحرص على الفاحشة. فلما سمعت بهذا المكر منه هيأت لهن مكراً أبلغ منه، فهيأت لهن متكأ، ثم أرسلت إليهن فجمعتهن وخبأت يوسف عليه السلام عنهن»[1].

٣١/٤٠٥- استعارة المكر بدل الغيبة لشبهها له في الخفاء والسوء.

قال القاسمي:

---

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٧٠-٤٧١)

«أي: اغتيابهن وسوء قالتهن. استعير «المكر» لـ«الغيبة» لشبهها له في الإخفاء. أو «المكر» على حقيقته وكن قلن ذلك لتريهن يوسف»[1].

قال الإمام الشوكاني:

«أي: بغيبتهن إياها سميت الغيبة مكراً؛ لاشتراكهما في الإخفاء، وقيل: أردن أن يتوسلن بذلك رؤية يوسف؛ فلهذا سمي قولهن مكراً، وقيل: إنها أسرّت إليهن؛ فأفشين سرّها؛ فسمي ذلك مكراً»[2].

قال العلمي:

«وقد سميت الغيبة مكراً، باعتبار أساسها ومنشأها؛ لأن الغيبة التي هي من هذا القبيل المذكور هنا، إنما تنشأ عن اختلاس أسرار الناس، واستطلاع ما يدور في البيوت من الحوادث بواسطة البحث والتنقيب مع الجواري والعجائز. ونحوهن، وهذا مكر بمن يبحث عنه، وينقب عن أحوالهم وخفاياهم، ولا ريب أن هذا أمر منكر، لما فيه من عدم احترام تلك الأسرار، وعدم الأعضاء على استطلاعها وتجسسها، عملاً بالآداب العامة.

ووجه ثان في تسمية هذه الغيبة مكراً: وهو أنهن كن يتمنين يوسف ويشتهينه لأنفسهن؛ لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء، تقول بلسانها ما ليس في قلبها، والله أعلم بما تكنه، ولذلك لم يسمه غيبة بل مكراً، فهن بقولهن: ﴿ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ ﴾ يتمنين أن تكون الأسباب قد سهلت لهن مثل هذه المراودة، وبقولهن ﴿ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ ﴾ يشتهين أن يكون هذا الشغف لقلوبهن، ولما قلن: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ أردن أنها في هداية ظاهرة

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢١٩).

(٢) «فتح القدير» (٣/ ٢١).

حيث اهتدت لمحبة هذا الشاب الوحيد في صباحته، عديم النظر في ملاحته، فملاحظتهن على امرأة العزيز، ملاحظة غبطة وغيرة، ملاحظة لا يقصد منها معنى آخر، يعرفنه وتعرفه امرأة العزيز ويعلمه الله الخبير، الذي سمى هذه الغيبة «مكراً».

ووجه ثالث: كن قلن ما قلن تحت تأثير عاطفة «المكر» بدليل أنهن لمنها وهن غائبات عنها، ولم ينصحنها وجهاً لوجه، وإلا؛ فهن لو أردن النصح لاجتمعن بها وقدّمن لها ما يعود عليها بالغناء، فسماه «مكراً»؛ لأنه من قبيل التحكك بشخصية المرأة وتنقصها، وليس من قبيل العظة والنصيحة التي تكون بالمواجهة.

ووجه رابع: سميت هذه الغيبة «مكراً»؛ لأنها طعن لم يركز على مستندات قوية؛ لأن هذا الذي وقع منهن، وإن استند على إخبار الوصائف أو القهرمانات أو العجائز، إلا أنه غير جائز، إذ يجب أولاً التثبيت والتبين، لأنه يغلب على هؤلاء المخبرات الفسق والفساد والكذب، وقد قال -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات:٦] ويجب على العاقل أن يظن بإخوانه وأخواته ظناً حسناً، كما قال -تعالى-: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النور:١٢]؛ لأنه ليس من دليل يصدقه، والأصل في الرجال والنساء العدالة، والسلامة من الطعون، وحيث لم يقم عند هؤلاء النسوة - على تلويث تلك المرأة- دليل مقنع، كان الواجب عليهن حسن الظن بها، ورد ذلك الإخبار السّيِّئ، قال -

تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢]، ويقول النبي ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»(١)، والإنسان ينهى عن تلقي مثل هذا، كما قال -تعالى-: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾ [النور:١٥-١٦] وقال -تعالى-: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء:٣٦].

وكان يجب على هؤلاء النسوة المصريات: أن يسكتن حين سمعن هذا الخبر السيِّئ، كما قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [النور:١٩] وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة، أو يخبر لها حسداً أو بغضاً، وكأن الذي هوّن على هؤلاء النسوة القبطيات أن يصدقن خبر هؤلاء المخبرات، أن امرأة العزيز كانت من المشركات، وأن مراودة أهل التوثن الناس عن أنفسهم، أمر معهود وقريب جداً، بل قد عهد مراراً من أهل الشرك والوقوع في الفاحشة، وذلك لأن الزنا والشرك أخوان، قلما يوجد إلا ومعه زنا، وقلما يوجد زنا إلا ومعه شرك كما يعلم ذلك من الاطلاع على تواريخ الأمم العتيقة»(٢).

قلنا: ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية قولُه -تعالى-: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) «مؤتمر تفسير سور يوسف» (١/ ٥٩٤-٥٩٦).

٣١/٤٠٦- أن لا حرج للقوم في الاتكاء إذا قعدوا إلا عند الطعام.

قال ابن الجوزي:

«والأصل في هذا أن من دعوته ليطعم أعددت له التكأه للمقام والطمأنينة؛ فسمي الطعام متكأً على الاستعارة.

قال الأزهري: إنما قيل للطعام متكأً؛ لأن القوم إذا قعدوا على الطعام اتكأوا، ونهيت هذه الأمة عن ذلك»(١).

قال القرطبي:

«أي: هيأت لهن مجالس يتكئن عليها»(٢).

٣١/٤٠٧- إباحة ما يعد في المجالس من مفارش ومخاد وطعام وغير ذلك.

قال ابن كثير:

«قال ابن عباس: هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه»(٣).

٣١/٤٠٨- الترف في القصور يكون عظيماً.

٣١/٤٠٩- كيد النساء لبعضهن.

قال ابن قيم الجوزية:

«فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهن مكراً أبلغ منه، فهيأت لهن متكأ، ثم أرسلت إليهن، فجمعتهن، وخبأت يوسف -عليه السلام- عنهن... وأخرجته عليهن فجأة، فلم يرعهن إلا وأحسن خلق الله وأجمله قد طلع

---

(١) «زاد المسير» (٤/ ٢١٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٧٨).

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٤٨).

عليهن بغتة، فراعهن ذلك المنظر البهي، وفي أيديهن مدى يقطعن بها ما يأكلنه؛ فدهشن حتى قطعن أيديهن وهن لا يشعرن...

فقابلت مكرهن القولي، بهذا المكر الفعلي، وكانت هذه من النساء غاية في المكر»[1].

٣١/٤١٠- الامتثال هو دأب المؤمن في كل مالا معصية فيه.

قال البقاعي:

«فامتثل له ما أمرته به كما هو دأبه معها في كل ما لا معصية فيه وبادر الخروج عليهن»[2].

قال أبو حيان:

«التهويل على يوسف بمكرها إذ خرج على نساء مجتمعات في أيديهن الخناجر توهمه أنهن يثبن عليه؛ فيكون يحذر مكرها دائما، ولعله يجيبها إلى مرادها على زعمها ذلك، ويوسف قد عصمه الله من كل ما تريده به من السوء»[3].

٣١/٤١١- ركز في الطباع نسبة كل معنى فائق إلى الملائكة من الحسن والعفة وغيرها[4].

قال الشوكاني:

«ثم لما نفين عنه البشرية لهذه العلة، أثبتن له الملكية، وإن كن لا يعرفن

---

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٧١-٤٧٢).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٣٤).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٦٨).

(٤) «نظم الدرر» (٤/ ٣٥).

الملائكة، لكنه قد تقرر في الطباع أنهم على شكل فوق شكل البشر في الذات والصفات، وأنهم فائقون في كل شيء؛ كما تقرر أن الشياطين على العكس من ذلك...»[1].

قال الزمخشري:

«نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه لما عليه محاسن الصور، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم؛ وذلك لأن الله -عز وجل- ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك، كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من الملائكة»[2].

قال القاسمي:

«أي: تنزيهاً له -سبحانه- عن صفات النقص والعجز، وتعجباً من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع، وإنما نفين عنه البشرية لغرابة جماله، وأثبتن له الملكية على نهج القصر بناء على ما ركز في الطباع أن أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما»[3].

---

(١) «فتح القدير» (٣/ ٢٢).

(٢) «الكشاف» (٢/ ٢٥٤).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٢٠).

٣١/٤١٢- «أن الحب قد يعود على صاحبه بالضرر والامتحان والبلاء»[(١)].

قال السعدي:

«فإن يوسف -بسبب جماله- حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض؛ فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته»[(٢)].

٣١/٤١٣- اقتضت حكمة الله أن يكون الأنبياء على حسن خُلُق وجمال خلق إعانة لهم على قبول دعوتهم واجتماع الناس إليهم.

قال الفخر الرازي:

قوله: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ فيه وجهان:

الوجه الأول: وهو المشهور: أن المقصود منه اثبات الحسن العظيم له قالوا: لأنه تعالى ركز في الطباع أن لا حي أحسن من الملك كما ركز فيها أن لا حي أقبح من الشيطان، ولذلك قال تعالى في صفة جهنم: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات:٦٥]، وذلك لما ذكرنا أنه تقرر في الطباع أن أقبح الأحياء هو الشيطان؛ فكذا ههنا تقرر في الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك؛ فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف -عليه السلام- بالحسن لا جرم شبهنه بالملك.

الوجه الثاني: وهو الأقرب عندي أن المشهور عند الجمهور أن الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة وجواذب الغضب ونوازع الوهم والخيال؛

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٦٥).

فطعامهم توحيد الله -تعالى-، وشرابهم الثناء على الله -تعالى-، ثم إن النسوة لما رأين يوسف -عليه السلام- لم يلتفت إليهن ألبتة ورأين ما عليه هيبة النبوة وهيبة الرسالة وسيما الطهارة قلن: إنا ما رأينا فيه أثراً من أثر الشهوة ولا شيئا من البشرية ولا صفة من الإنسانية؛ فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغروزة في البشر، وقد ترقى عن حد الإنسانية ودخل في الملكية.

فإن قالوا: فإن المراد كما ذكرتم فكيف يتمهد عذر تلك المرأة عند النسوة؟

فالجواب قد سبق، والله أعلم»[1].

٣١/٤١٤- إخبار أن نبي الله يوسف كان قد أعطي من الجمال والحسن الفائق ما يدهش عند رؤيته.

قال ابن كثير:

«وما نرى من لوم بعد هذا الذي رأين؛ لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريبًا منه؛ فإنه -عليه السلام- كان قد أعطي شطر الحسن؛ كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مرَّ بيوسف -عليه السلام- في السماء الثالثة قال: «فإذا هو قد أعطي شطر الحسن[2]»[3].

قال السعدي:

«وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آية للناظرين وعبرة للمتأملين؛ فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر وأعجبهن

---

(١) «تفسير الفخر الرازي» (٩/ ١٣١).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢) من حديث أنس -رضي الله عنه-.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٤٨).

غاية العجب، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز شيء كثير - أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة -فقالت - معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾؛ أي: امتنع وهي مقيمة على مراودته لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقاً ومحبة وشوقاً لوصاله وتوقاً»[١].

٣١/٤١٥- أن من شغل قلبه بشيء إذا أصيب لم يجد الألم ولا يشعر به.

قال الإمام القرطبي:

«بالمدى حتى بلغت السكاكين إلى العظم؛ قاله وهب بن منبه.

وقال سعيد بن جبير: لم يخرج عليهن حتى زينته؛ فخرج عليهن فجأة؛ فدهشن فيه، وتحيرن لحسن وجهه وزينته وما عليه؛ فجعلن يقطعن أيديهن ويحسبن أنهن يقطعن الأترج»[٢].

قال الإمام البغوي:

«ولم يجدن الألم لشغل قلوبهن بيوسف»[٣].

٣١/٤١٦- التأثر صفة أهل الابتداء في الأمر.

قال القشيري:

«أرادت أن يغلب عليهن استحقاق الملامة، وتنفي عن نفسها أن تكون لها أهلاً، ففعلت بهن ما عملت، فلما رأينه تغيرن وتحيرن ونطقن بخلاف

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٥٢).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٧٩).

(٣) «مختصر معالم التنزيل» (١/ ٤٣٨).

التمييز، فقلن: ما هذا بشرا، وقد كان بشراً، وقلن: إن هذا إلا ملك كريم، ولم يكن ملكاً.

قوله: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ أثرت رؤيتهن له فيهن؛ فقطعن أيديهن، ولم يشعرن، وضعفن بذلك عندها، فقالت: ألم أقل لَكُنَّ: أنتن لم تتمالكن حتى قطعتن أيديكن، فكيف بي وهو في منزلي؟!.

وإنما أثرت رؤيته فيهن ولم تؤثر في امرأه العزيز بحيث تفعل من التقطيع ما فعل؛ لأن التغيير صفة أهل الابتداء في الأمر؛ فإذا دام المعنى زال التغيير، قال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- لمن رآه يبكي وهو قريب العهد في الإسلام:هكذا كنا حتى قست القلوب»[١].

٣١/٤١٧- أن قاتل الشرف أخس من قاتل النفس؛ لأنه يحول الاحتقار إلى الأسرة جميعاً.

قال العلمي:

«مسكينة هذه المرأة ، فقد تتابعت في عمايتها، ولجّت في غلوائها، وإن مراودة سيدة مثلها لعبد من عبدانها، وشغف قرينة عزيز مصر بالإغرام بخادم من خدامها، أمران مستهجنان جداً وكل واحد منهما منفرداً، خليق أن يشين بسمعتها، فكيف وقد اجتمعا! إن هذا ليس فعل الحرائر، ولا أهل المروءة والدين، فتباً له من عمل، يورث العار والشنار، ويخفض الرأس، ويُغمض الأبصار.

إن هذه المرأة قتلت شرفها، وقاتل الشرف أخس من قاتل النفس؛ لأن قاتل النفس يحول احتقار الجمهور إلى ذاته فقط. أما قاتل الشرف؛ فيحول

---

(١) «اللطائف والإشارات» (٣/ ١٨٢-١٨٣).

ذلك الاحتقار إلى الأسرة جميعها، هي كانت سابقًا قرينة العزيز، ولكنها اليوم قرينة الذل والصغار، لتسقط وتنزل إلى أسفل سافلين، ونحن لم يصدر منا هذا الحكم مجازفة أو عن تقليد، بل عن علم ورأي، وإننا بحمد الله متنزهات مترفعات عن أمثال ما هذه المرأة عليه من السقوط والانحطاط، وإلى الملتقى إن كابرت.

هذا مرمى كلامهن، ومعناه الروحي، قلن هذا الكلام بلهجة الإنكار والانتقاد والتلوم عليها وكن في هذا القول ماكرات أولا «ومغتابات ثانيا»[(١)].

٣١/٤١٨- أن النساء كثيرا ما تنحرف فطرتهن في الرجل فتعجبهن بعض الملامح .

٣١/٤١٩- أن المرأة قد لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها وتفخر عليهن.

٣١/٤٢٠- أن المكر إذا لم يكن على وجه النصيحة والنهي عن المنكر فهو على وجه الشماتة والتعيير.

قال السمرقندي:

«يعني: سمعت زليخا بمقالتهن وإنما سمي قولهن مكر والله أعلم؛ لأن قولهن لم يكن على وجه النصيحة والنهي عن المنكر، ولكن كان على وجه الشماتة والتعيير»[(٢)].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٥٩٠).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٥٩).

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

٣٢/٤٢١- إظهار العذر وقبوله لا يبرر الإصرار على الشيء إن كان منهياً عنه.

٣٢/٤٢٢- احتمال المشقة في ذات الله والصبر على النوائب وانتظار الفرج.

قال أبو حيان:

«﴿ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾.

قال ابن عطية: معناه طلب العصمة وتمسك بها وعصاني.

قال الزمخشري: والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد؛ كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها»[١].

٣٢/٤٢٣- بيان أن طلب العصمة لا يدل على حصولها وإنما هي فضل من الله لمن يشاء.

قال أبو حيان:

«ولما في الآخر من احتمال المشقة في ذات الله والصبر على النوائب وانتظار الفرج والحضور مع الله -تعالى- في كل وقت داعيا له في تخليصه أثره، ثم ناط العصمة بالله واستسلم لله كعادة الأنبياء والصالحين، وإنه -تعالى- لا يصرف السوء إلا هو»[٢].

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٢).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٢٧٣).

٣٢/٤٢٤ - بينة على استنزال المرأة لزوجها ومطاوعته لها مع المخالفة تجعل زمام أمره بيدها.

قال أبو حيان:

«وفي سجنهم ليوسف دليل على مكيدة النساء واستنزال المرأة لزوجها ومطاوعته لها وعشقه لها وجعله زمام أمره بيدها هذا مع ظهور خيانتها وبراءة يوسف»(١).

٣٢/٤٢٥- جرت عادة بعض العشاق أن يبوح بسره لبعض خلصائه.

قال العلمي:

«جرت عادة بعض العشاق أن يبوح بسره لبعض خلصائه، ولكن مقتصراً على ما يجوز ذكره شرعاً ومروءة، امتثالاً لقول القائل:

لا تخف ما فعلت بك الأشواق
واشرح هواك فكلنا عشاق

إنما هذه المرأة زادت في القحة، فنفضت لهن جملة حالها، فذكرت ما الأفضل عدم التصريح به، إذ ينبغي لمن ابتلي بشيء من هذه المعاصي أن يستتر بستر الله»(٢).

٣٢/٤٢٦- المفاسد العاجلة والآجلة لعشق الصور.

قال ابن قيم الجوزية:

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٦٢٤).

«ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة، وإن كانت أضعاف ما يذكره ذاكر؛ فإنه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال، وفسد ثغر التوحيد..

والله -سبحانه وتعالى- إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهما اللوطية والنساء؛ فأخبر عن عشق إمرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادت به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي أبلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبّره الله، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة، وذلك لوجوه:

أحدهما: ما ركبه الله -سبحانه- في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيرًا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلا، بل يحمد كما في كتاب «الزهد»[1] للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية

---

(١) الحديث- دون الزيادة-؛ ثابت صحيح:

فقد رواه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٢٨و١٩٩و٢٨٥)، والنسائي في «سننه» (٣٩٣٩)، وفي «عشرة النساء» (رقم ١و٢)، والحاكم (٢/ ١٦٠)، وأبو يعلى (٣٤٨٢) و(٣٥٣٠)، والبيهقي (٧/ ٧٨) من طرق عن ثابت عن أنس.

وقد حسن إسناده الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٣/ ١١٦). وانظر: «المقاصد الحسنة» (ص٢٩٩) للسخاوي، و«زاد المعاد» (٤/ ٢٥٠) للمصنف.

وأما قوله في آخره: «... أصبر على الطعام والشراب ولا أصبر عليهن» فزيادة ضعيفة جدًا، لأن يوسف بن عطية الصفار متروك.

الصفار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي ﷺ: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن».

الثاني: أن يوسف -عليه السلام- كان شابا، وشهوة الشاب وحدته أقوى.

الثالث: أنه كان عزبا ليس له زوجة ولا سرية تكسر ثورة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه، وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية؛ فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامناعها؛ لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحبا، كما قال الشاعر:

وزادني كلفا في الحب أن منعت

أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة؛ فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ويضمحل عند إبائها وامتناعها.

وأخبرني بعض القضاة إن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإبائها، بحيث لا يعاوده.

ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امناعه ونفارة، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد؛ فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها؛ بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي المطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكا لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقا على الطلب، وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة(١) من أشراف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: «قرب الوساد وطول السواد»؛ تعني: قرب وساد الرجل من وسادتي، وطول السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال؛ فأرته إياهن وشكت حالها إليهن؛ لتستعين بهن عليه، فاستعان هو بالله عليهن فقال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف:٣٣].

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه؛ إذ هو تهديد من يغلب على الظن ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما، ويبعد كلاً منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾، وللمرأة: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ

(١) هي هند بنت الحسن؛ كما في «أعلام النساء» (٥/ ٢٣١).

ٱلْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف:٢٩]، وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرة.

مع هذه الدواعي كلها؛ فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف:٣٣]، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه»[1].

٣٢/٤٢٧- عدم صبر النساء على حفظ الأسرار.

قال العلمي:

«كانت سمعت أن النسوة وقفن على حادثتها، ثم دعتهن فرأت اندهاشهن بتقطيع أيديهن ، وحكمن على يوسف بأنه ليس من نوع البشر، بل من نوع الملائكة، فعلمت من هذا أنهن صرن شريكات لها في حبه، ولا بد أن يكن قد عذرنها في شغفها به، وأخيرا رأت أن تلك الجلسة السرية، انتقلت من جلسة ضيافة إلى جلسة غرامية، وهي قديما تعرف أن المصدور يرتاح لبث شكواه لمن يخفف عنه، لذا رأت أن سلسلة هذه الأشياء تصلح أن تشكل سببا يسوغ اعترافها بالحب أمام هؤلاء النسوة ، فصارت عواطفها تتراوح بين الاعتراف بما كان صدر منها ، وبين البقاء على التكتم.

وأخيرا فضلت أن تبوح لهن بما كان، وقد اعترفت لهن بذلك؛ لأن النساء أقل صبرا على حفظ أسرارهن وأسرار سواهن من الرجال، ذلك بما فطرن عليه من ضعف المزاج، وخصوصا فيما يتعلق بالحب وأسبابه ونتائجه،

---

(١) «الجواب الكافي» (ص ٣١٩-٣٢٢).

ويغلب أن يكون إفشاؤهن السر على سبيل المسارة، والإنسان إذا أعجزه أمر، أحس بميل شديد على مكاشفة بعض أخصائه به، فامرأة العزيز لما أعياها أمر يوسف ، أرادت أن تكاشف به هؤلاء السيدات، لعل أن يكون عندهن ما يسهل عليها الوصول لغرضها منه»[1].

٣٢/٤٢٨- إنما هو اعتراف فاسقة لفواسق لا تترتب عليه فائدة دينية أبداً.

قال العلمي:

«إن قولها للنسوة: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ هو اعتراف منها بالخطيئة، ولكن ليس اعترافاً توصلاً للتوبة، وإنما هو اعتراف فاسقة لفواسق، لا تترتب عليه فائدة دينية أبداً»[2].

٣٢/٤٢٩- بيان أن قلب الجاهل من وراء لسانه؛ فإن همّ بالكلام تكلم له وعليه[3].

٣٢/٤٣٠- بيان أنه لا تؤاخ الفاجر؛ فإنه يزين لك فعله ويحب لو أنك مثله[4].

٣٢/٤٣١- لا يجد المؤمن معتصماً يعتصم به عند تعرضه للفتن على اختلاف أنواعها خيراً له من حصن رب العالمين؛ فهو وحده معتصمه الوحيد[5].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٦٢٤-٦٢٥).

(٢) المرجع السابق (١/ ٦٢٥).

(٣) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٣٣٥).

(٤) المصدر السابق (٤/ ٢٢٥).

(٥) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٢٤).

٣٢/٤٣٢- الصغار والذل كله في المعصية، والعزة كلها في تمام العبودية لله -تعالى-:

قال أحمد نوفل :

«وغاب عنها أشياء كثيرة وقيم أساس مهمة: إن الصغار والذل كله في المعصية، وإن العزة كلها والحرية بتمامها في تمام العبودية له سبحانه... ولو كان صاحب هذه العبودية ملقى به في قعر سجن أو بئر طوي أو قعر دوي.

والآية فيها قسمان: ولقد ولئن، واجتماعهما في قول امرأة العزيز ينبىء عن تصميمها على ما هي ماضية فيه من نية فاسدة ومكر سيىء»[١].

٣٢/٤٣٣- من أسباب فساد الحضارة وسقوط الدول.

قال التهامي نقرة:

«يدل تهديدها إياه على ثقتها بسلطانها على زوجها رغم علمه بأمرها، واستعظامه لكيدها، شأنه في ذلك شأن المترفين العاجزين عن صد زوجاتهم، وإن لنساء الأكابر في الأمصار التي أفسدتها الحضارة كيداً وخداعاً.

كما أن هذه المشاهد تلقي الأضواء على نفسية المرأة المترفة ذات المنصب الرفيع وما لجمالها من سلطان تفرضه على زوجها حتى لتملك منه القيادة في المواطن التي تتأجج في مثلها قلوب الرجال غيرة وحمية»[٢].

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٣٨٢).

(٢) «سيكولوجية القصة» (ص ٤٠٤-٤٠٥)، وانظر «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٩٩).

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

٣٣/٤٣٤- إيثار السجن على معصية الله -تعالى- من مظاهر الصديقية[١].

٣٣/٤٣٥- دخول السجن ليس دائماً دليلاً على أنه بيت المجرمين والمنحرفين إذ دخله صفيّ الله -تعالى- يوسف -عليه السلام- [٢].

٣٣/٤٣٦- دخول السجن قد يكون بداية أحداث ظاهرها محرق وباطنها مشرق[٣].

٣٣/٤٣٧- استعمال القرآن لفظ الجمع ﴿ يَدْعُونَنِيٓ ﴾ دلالة على اشتراكهن جميعاً في المراودة [٤].

٣٣/٤٣٨- قبح الجهل وذمه أن أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون منه -تعالى-.

قال القرطبي:

«أي ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال، ودل هذا على أن أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله، ودلّ -أيضاً- على قبح الجهل والذم لصاحبه»[٥].

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٠).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤١).

(٥) «الجامع أحكام القرآن» (٩/ ١٨٥).

٣٣/٤٣٩- الجهل بالله -تعالى- وأسمائه وصفاته وشرعه هو سبب كل جريمة ومعصية.

قال أبو بكر الجزائري:

«الجهل بالله -تعالى- وبأسمائه وصفاته ووعده ووعيده وشرعه هو سبب كل الجرائم في الأرض»[(١)].

٣٣/٤٤٠- إنه إذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا وفقهه في الدين وبصره عيوبه[(٢)].

٣٣/٤٤١- اختيار أخف الضررين قاعدة شرعية عمل بها الأولون وتحمل أخف الضررين لدفع ما هو أشد منه[(٣)].

قال البقاعي:

«لما علم من سوء عاقبة المعصية بعد سرعة انقضاء اللذة وهذه العبارة تدل على غاية البغض لموافقتها، فإن السجن لا يتصور حبه عادة، وإنما المعنى: أنه لو كان يتصور الميل إليه كان ميلي إليه أكثر لكنه لا يتصور الميل إليه؛ لأنه شر محض ومع ذلك؛ فأنا أوثره على ما دعونني إليه ؛لأنه أخف الضررين.

والحاصل: أنه أطلق المحبة على ما يضادها في هذا السياق من البغض بدلالة الالتزام؛ فكأنه قيل: السجن أقل بغضا إلى ما تدعونني إليه وذلك هو

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٠).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ١٩٧). بتحقيق أخينا الشيخ مشهور حسن سلمان.

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٩٧).

ضد أحب الذي معناه أكثر حباً، ولكن حولت العبارة ليكون كدعوى الشيء مقروناً بالدليل، وذلك أنه لما فوضل في المحبة بين شيئين أحدهما مقطوع ببغضه فهم، قطعاً أن المراد إنما هو أن بغض هذا البغيض دون بغض المفضول، فعلم قطعاً أن ذلك الذي يظن حبه أبغض من هذا المقطوع ببغضه، وكذا كل ما فوضل بينهما في وصف يمنع من حمله على الحقيقة كون المفضل متحققاً لضده والله الموفق»[(١)].

٣٣/٤٤٢- سرعة انقضاء اللذة يقابله طول سوء عاقبة المعصية[(٢)].

٣٣/٤٤٣- بيان أن العاقل يحتفظ بكلامه إلى حين الحاجة.

قال العلمي:

«نتعلم من كتاب الله -تعالى- أن يوسف في تلك الحفلة النسائية السابقة كان ساكتاً، لم يتبادل الحديث لامع النسوة المدعوات ولا مع امرأة العزيز صاحبة الدعوة، ونعلم أن ذاك السكوت زاده رفعة في أعينهن، وزاده هيبة في قلوبهن، فالصمت يرفع منزلة صاحبه، وكثرة اللفظ تقلل من مهابته، وهذا في مبادلة الحديث بين رجل ورجل، فكيف والجليسات في تلك الحفلة إناث لا يليق بذي المروءة مثل يوسف أن يتبسط في الكلام معهن، ولكن يصمت عن محادثتهن؛ فلذلك وحيث أن العاقل يحتفظ بكلامه إلى حين الحاجة، بقي يوسف ساكتاً، حتى سمع إنذار امرأة العزيز إياه؛ فأوجس منها خيفة، وخشي أن تصيبه من ختلها دائرة؛ لأنها تقول وتفعل، وكابد في نفسه ألماً ممضاً، لا تستشف مكانه من أعماق قلبه، غير عين واحدة، وهي عين الله -تعالى-،

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٣٥-٣٦).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٣٥).

ففزع إلى مولاه ورفع بصره إلى السماء، وشخص لجهة العلو، وقال وفي صوته غنة الضراعة والذل: يا رباه، يا من يجيب المضطر إذا دعاه{ رب السجن أحب إلي مما تدعونني إليه}»[(١)].

٣٣/٤٤٤- بيان أن الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله[(٢)].

٣٣/٤٤٥- أن لسان العاقل من وراء قلبه فإذا أراد الكلام تفكر، فإن كان له قال وإن كان عليه أمسك[(٣)].

٣٣/٤٤٦- تسمية المعصية جهلاً:

قال قتادة: أجمع أصحاب محمد ﷺ أن كل من عصى الله؛ فهو جاهل.

والعرب تسمي الفحش والبذاءة: جهلاً، وقيل:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والاستهزاء -أيضاً- يعد من الجهل، ومنه قول موسى لقومه:

﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة:٦٧][(٤)].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف»(١/ ٦٣١/ ٦٣٢).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٣٧٧).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٣٣٥).

(٤) «تنقيح الإفادة من مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٣) للأخ سليم الهلالي.

٣٣/٤٤٧-لا يعتد المؤمن بإيمانه إلى درجة الغرور وإنما يكل أمره إلى الله ويستمد منه العون في مواجهة الخطوب والصمود أمام الفتن ويسأله الصبر عليها[١].

«﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي ﴾؛ يعني: إن وكلتني إلى نفسي فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني بحولك وقوتك ولهذا ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾»[٢].

٣٣/٤٤٨- بيان أن يوسف -عليه السلام- اختار السجن على المعصية فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين.

٣٣/٤٤٩- إنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرأ من حوله وقوته[٣].

٣٣/٤٥٠- عندما تستقيم في يد المؤمن موازين الحق يؤثر شقاء الدنيا مع رضاء الله على سعادة الدنيا مع غضب الله؛ فلا يقرب معصية ولا يرتكب إثماً[٤].

٣٣/٤٥١- أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر.

قال السعدي:

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (١/ ٢٥).

(٢) «قصص الأنبياء وأخبار الماضين» (ص١٩٨).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٧).

(٥) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٢٥).

«ومنها أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير. وينهيانه عن الشر، وإن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس وإن كان معصية ضاراً لصاحبه»[١].

٣٣/٤٥٢- العدالة مقلوبة والشعوب مغلوبة في ظل الأوضاع الجاهلية.

قال أحمد نوفل:

«في الأوضاع الجاهلية المقلوبة المنكوسة يضطهد البريء ويبرأ المتهم»[٢].

٣٣/٤٥٣-لا طاقة للعبد في المدافعة إلا بالالتجاء إلى ألطاف الله -تعالى-.

قال أبو السعود:

«وهذا فزع منه -عليه السلام- والتجاء إلى ألطاف الله -تعالى- جرياً على سنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله -تعالى- وسلب القوى والقدر عن أنفسهم مبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أنه لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث: أدركني وإلا هلكت»[٣].

٣٣/٤٥٤- الفرق بين العذاب البدني وبين العذاب الروحي النفسي:

قال عبد الحميد كحيل:

«لقد فاضل الشاب بين السجن والصبوة؛ ففضل لديه السجن على ما فيه من عذاب؛ لأن السجن بدني والوقوع في الفاحشة عذاب نفسي، والأول موقوت، والثاني ندم يلح على نفسه ما بقي فيه نفس، وهو في السجن

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٧).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٦٠٢)

(٣) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٧٤).

مظلوم، وفي المعصية يكون ظالماً، والسجن مجال لتذكـر الله، وهـو في السـجن سيد نفسه، وخارجه يدعى ليكون عبد شهواته»[(١)].

٣٣/٤٥٥- الإتيان بأفضل التفضيل على غير بابه لاختـلاف الجنـس بـين المتفاضلين:

قال أبو حيان:

«وأحب: ليست على بابها من التفضيل ؛ لأنه لم يحبب إليـه مـا يدعونـه إليه قط، وإنما هذان شران فآثر أحدهمـا علـى الآخـر، وإن كـان في أحدهمـا مشقة وفي الآخر لذة»[(٢)].

٣٣/٤٥٦- الإنسان لا ينصرف عن المعصية إلاّ بصارف.

قال الفخر الرازي:

«﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أمـل إليـهن، يقـال: صبـا إلى اللـهو يصبـو إذا مـال، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الإنسان لا ينصـرف عـن المعصيـة إلا إذا صرفه الله -تعالى- عنها»[(٣)].

٣٣/٤٥٧- المكروه إذا كان يستعقب سعادات عظيمة فهو ممدوح.

قال الفخر الرازي :

«السجن غاية المكروهية وما دعونه إليه في غاية المطلوبية، فكيـف قـال: المشقة أحب إليّ من اللذة؟

---

(١) «يوسف في القرآن» (ص٣٢).

(٢) «البحر المحيط» (٥/ ٣٠٦).

(٣) «تفسير الفخر الرازي» (٩/ ١٣٤-١٣٥).

الجواب: أن تلك اللذة كانت تستعقب آلاماً عظيمة وهي الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة، وذلك المكروه وهو اختيار السجن كان يستعقب سعادات عظيمة وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة؛ فلهذا السبب قال: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾»[١].

٣٣/٤٥٨- فضل الإيمان الكامل.

قال السعدي:

«ومنها: فضل الإيمان الكامل، واليقين، والطمأنينة بالله وبذكره حيث اتصف بها يوسف -عليه الصلاة والسلام-؛ فأوجبت له الثبات في أموره كلها، والاشتغال فيما هو بصدده من وظائفه الحاضرة، وهو في أحواله وتنقلاته مطمئن القلب ثابت النفس ليس عنده قلق لبعده عن أبيه وأحبابه، مع ما يعلمه من شدة الشوق والحب المفرط بينه وبين والديه، خصوصاً أبوه يعقوب، وهو يعلم المكان الذي هو فيه ويتمكن من مراسلته، ولكن اقتضت حكمة الله أن لا يحصل اللقاء إلا في تلك الحال التي اشتدت مشقتها، وعظمت شدتها، فأعانه الله وأيده بروح منه، وهذا من أجل ثمرات الإيمان»[٢].

(١) «المصدر السابق» (٩/ ١٣٤).

(٢) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف -عليه السلام-» (ص٣٤).

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾.

٣٤/٤٥٩- أن الله يجيب دعوة المتضرعين إليه والمضطرين بما يصلحهم.

قال القاسمي:

«﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾؛ أي: أجاب له دعاءه ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ ﴾ أي: أيده بالتأييد القدسي، فصرفه إلى جناب القدس ودفع عنه بذلك كيدهن ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾؛ أي: الدعاء، المتضرعين إليه ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾؛ أي: بما يصلحهم»[(١)].

قال أبو حيان:

«وذكر استجابة الله له ولم يتقدم لفظ دعاء؛ لأن قوله: وإلا تصرف عني، فيه معنى طلب الصرف والدعاء، وكأنه قال: رب اصرف عني كيدهن فصرف عنه كيدهن؛ أي: حال بينه وبين المعصية. إنه هو السميع لدعاء الملتجين إليه، العليم بأحوالهم وما انطوت عليه نياتهم»[(٢)].

٣٤/٤٦٠- «أن الله هو الذي يسمع ويعلم، يسمع الكيد والدعاء، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء»[(٣)].

٣٤/٤٦١- التعبير بالاستجابة تقتضي تقدم الدعاء عليها.

قال العلمي:

«(فـ) لم يكن إلا بمقدار ما صعدت الدعوة إلى السماء كشرر النار، وخرقت الحجب، حتى ﴿ ٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ وإنما عبر بالاستجابة التي

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٢١).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٣).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٢٥).

تقتضي تقدم الدعاء عليها؛ لأن قوله: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ -سبحانه- ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم»[١].

٣٤/٤٦٢- بيان أن الثناء على الكريم يحمله على الإحسان والاستجابة.

قال العلمي:

«دعا يوسف مولاه، باستكانة وضراعة، فصعدت كلمته من قلبه الطاهر، تتطاير إلى الأجواء العليا، حتى قرعت صفحة السماء، فسمعت الملائكة رنينها، وعرضتها على ربه (وهو أعلم) فاستجاب له ربه دعاءه.

والدعاء قد يكون صريحاً، مثل «اصرف» و«لتصرف»، وقد يكون بالثناء والمدح، كما هنا؛ لأن قوله: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ثناء يتضمن الدعاء، وعلى ذلك قول الفقهاء: «دعاء الثناء» وهو: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّكَ، ولا إله غيرك»[٢] و«دعاء الافتتاح» وهو: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض، حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٦٤١)

(٢) صحيح- أخرجه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، والنسائي في «المجتبى» (٢/ ١٣٢)، و«الكبرى» (رقم (٩٧٢و٩٧٣)، وابن ماجه (٨٠٤) في آخرين من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- بسند حسن.

وله شاهد من حديث عائشة -رضي الله عنها- به: أخرجه أبو داود (٧٧٦) وغيره بسند صحيح.

ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين»[١]، ومنه حديث: «أفضل دعاء قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»[٢]، وسبب تسمية هذا كله ونحوه دعاء، أن الثناء على الكريم يحمله على الإحسان؛ كما قال الشاعر:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني
حباؤك إن شيمتك الحباء
إذا أثنى عليك المرء يوماً
كفاه من تعرضه الثناء»[٣]

٣٤/٤٦٣- سرعان ما يستجيب الله للمخلصين من عباده بدون أدنى تأخير وفي أسرع ما يكون.

قال العلمي:

«دعا يوسف ربه، فما هو إلا أن لفظ آخر كلمة، حتى استجاب له فوراً، وفي أسرع ما يكون، بدون أدنى تأخير، وسرعان ما يستجيب الله للمخلصين من عباده!

فقال الله له: لبيك، قريباً دعوت، فصرف عنه كيدهن حسبما طلب، وحجز بينه وبين حبّهنّ على ما رغب، وأطفأ الله نارهن التي كن أوقدنها،

---

(١) صحيح- وهو جزء من حديث علي بن أبي طالب الطويل في دعاء الاستفتاح، وهو في «صحيح مسلم» (٧٧١).

(٢) صحيح- كما في «الصحيحة» (١٥٠٣).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/٦٤٢-٦٤٣).

لاستمالة هذا الصديق الكريم، فأحس يوسف حينئذ كأنه ألقى عن ظهره حملاً ثقيلاً، ومن ذلك الحين صار يستهزىء بكل حيلهن، ولقد قيل: «من يهرب من أمام الحب هو الظافر».

دعا يوسف ربه، فأحس بانبساط نفسه، وارتاح ضميره، وشعر كأن الأخطار قد زالت عنه، (وقد ألقى اتكاله على الله)، ومثل هذه الراحة لا يشعر بها غير أهل الإيمان الوطيد، فإن أحدهم إذا أحدقت به مصائب العالم تحملها بالصبر وأذهب آثارها بالدعاء والتوجه إلى الله -تعالى-، كما كان نبينا ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[١].

إلى هنا انتهت حادثة تجربة يوسف، وخروجه من تلك التجربة، شريفاً طاهراً ناصع الجبين، فاطمأن حينئذ وطاب نفساً، وقال في نفسه:أحمد الله على ما حفني بلطفه، فإن ما تَشْرَه إليه نفوس الناس لا يساوي شيئاً في جانب روح الأبد وراحته»[٢].

٣٤/٤٦٤- ينبغي للمسلم أن يكون أخوف من أن يمنع الدعاء أخوف منه من أن يمنع الإجابة[٣].

٣٤/٤٦٥- بيان أنه يلزم مع الدعاء من البر ما يلزم الطعام من الملح[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٢٣٢٩٩) من حديث حذيفة -رضي الله عنه-. وحسنه شيخنا الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٦٤٣-٦٤٤).

(٣) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٣٧٨)

(٤) المصدر السابق (٤/ ٣٧٨).

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

٣٥/٤٦٦- إصرار النفس على حب الانتقام حتى بعد رؤية الآيات والشواهد ظلم.

قال القاسمي:

« ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾، أي: ظهر للعزيز وأهله ﴿ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ أي: الشواهد على براءته ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾؛ أي: إلى مدة يرون رأيهم فيها»[١].

٣٥/٤٦٧- المؤمن يتقلب في أحوال بين لطف في عنف ونعمة في نقمة ويسر في عسر ورجاء في يأس.

قال البقاعي:

«قال الإمام فخر الدين الرازي في كتاب «اللوامع»: وعلى الجملة؛ فكل أحوال يوسف -عليه السلام- لطف في عنف، ونعمة في طي بلية ونقمة، ويسر في عسر، ورجاء في يأس، وخلاص بعد لات مناص، وسائق القدر ربما يسوق القدر إلى المقدور بعنف وربما يسوقه بلطف، والقهر والعنف أحمد عاقبة وأقل تبعة .أ.هـ.

ولما ذكر السجن وكان سبباً ظاهراً في الإهانة شرع سبحانه يقص من أمره فيه ما حاصله أنه جعله سبب الكرامة ، كل ذلك بياناً للغلبة على الأمر والاتصاف بصفات القهر مع ما في ذلك من بيان تحقق ما تقدم به الوعد الوفي ليوسف -عليه السلام- وغير ذلك من الحكم»[٢].

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٢١).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٣٧).

٣٥/٤٦٨- الحين مدة غير معلومة قد تكون زمناً أو شهراً أو سنيناً أو دهراً.

قال القرطبي:

«أي: مدة غير معلومة؛ قاله كثير من المفسرين»(١).

قال ابن عطية:

«والحين في كلام العرب وفي هذه الآية الوقت من الزمن غير محدود يقع للقليل والكثير»(٢).

٣٥/٤٦٩- إسناد الفعل إلى الجماعة دليل على المشاورة والإجماع على سجنه -عليه السلام-.

قال ابن عطية:

«والساجن الملك وحده من حيث كان في الأمر تشاور»(٣).

٣٥/٤٧٠- السجن للبريء ظلم وبلوى وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى.

٣٥/٤٧١- بيان وجوب حفظ سمعة البيوت.

٣٥/٤٧٢- بيان أن السياسة لها قلب ولكن ليس فيها شيء من الانصاف والرحمة.

قال العلمي:

«أي: سجناً مؤقتاً؛ روعيت فيه مصلحتهم الشخصية بينما يسكت عن

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٨٧).

(٢) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٣).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٢).

زليخا الحب والغرام، أو لبينما تموت السيرة السيئة، أو حتى يثبت عند الناس أن الجاني هو يوسف -عليه السلام- لا غير، وقد سجن كما أرادوا وأراد لهم ظلمهم واستبدادهم؛ لأن السياسة لها قلب وليس فيها شيء من الإنصاف»[1].

٣٥/٤٧٣- أن الظلم ليس له حدود يعرف بها، والاستبداد ليس له غاية يقف عندها.

قال العلمي:

«لندع نساء مصر وقصتهن، ونشرع في الإفصاح عن الفكرة الجديدة التي طرأت للعزيز وذويه:

إن المسألة منذ الآن ستنتقل لدور آخر، وتتطور تطوراً مدهشاً؛ لأن العزيز قنع قناعة تامة ببراءة يوسف، وكان هو وقريب زوجته من أنصار هذا الصديق الكريم؛ فكان مقتضى ذلك أن لا تمس كرامته بشيء، ولعمري إن هذا العمل الجديد من العزيز بعد أن اتضحت الحقيقة لهو منكر جداً، غير أنه افتكر أن المصلحة تقتضي سجن يوسف ، لكي يقول من سمع بالحادث أنه سجن لأن المراودة كانت منه؛ ولأن سجن يوسف يفرق بينه وبين زوجته زليخا التي وصل حبها له لدرجة قصوى، وبهذا يستريح؛ فلا تشتغل أفكاره فيها وفيه، فلهذين الوجهين أراد العزيز أن يمسك بالحبل من طرفيه، فأقدم على سجنه.

نعم أيها السادة لم يكد يوسف يتوسم الراحة، ويحيي الأمل، بالخلاص من المكاره، والابتعاد عن حوادث الزمان، حتى بغت بإدخاله في السجن،

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٦٤٥-٦٤٦).

وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ولو شاء ربك ما فعلوه.

خلص يوسف من تهمة امرأة العزيز إياه، ثم خلص من فتنة النسوة المصريات ودعا ربه أن يمنع عنه كيد النساء فلبى طلبه، فهو بعد ذلك كان يحسب أنه قد ذللت كل عقبة في سبيل راحته، ولم يكن يخطر له على بال أنه سيدعى يوماً إلى السجن بعدما تبرأت ساحته، ولكن الظلم ليس له حدود تعرف، وأعمال الاستبداد ليس لها غاية تقف عندها، وما هو إلا أن تلقى تلك المفاجأة المستغربة التي تستفز النفوس بهدوء وسكينة شأن كل عاقل كريم، أو شأن كل غريب ضعيف بين حكام ظلمة لا يراعون خالقاً ولا ضميراً»[1].

٣٥/٤٧٤- أن دخول السجن يكون بسبب الطاعة أو المعصية ؛ لأن سجن يوسف كان بسبب رفضه للزنا؛ وسجن الإمام أحمد أيام المعتصم كذلك طاعة لله.[2]

٣٥/٤٧٥- بيان أنه ما من يوم يمضي إلا والذي بعده شر منه.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٦٤٦-٦٤٧).

(٢) وانظر المرجع السابق (١/ ٦٥٤).

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

٣٦/٤٧٦- تعبير الرؤيا تابع لصفاء الروح وقوة فراسة وهي في يوسف علم لدني خاص [(١)].

٣٦/٤٧٧- «جواز تسمية العنب خمراً؛ لأنه يصنع منه غالباً»[(٢)].

قال القرطبي:

«أي: عنباً بلغة عمان؛ قاله الضحاك، وقرأ ابن مسعود ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ عِنَبًا ﴾، وقال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب؛ فقال له: ما معك ؟ قال: خمر»[(٣)].

قال أبو حيان:

«وسمي العنب خمراً باعتبار ما يؤول إليه»[(٤)].

٣٦/٤٧٨- من كان من أمره ظهور صلاحه وإحسانه يجعله موضع ثقة وتتجه إليه الأنظار[(٥)].

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٢).

(٢) «الكشاف» (٢/ ٢٥٥) و«مختصر تفسير البغوي» (١/ ٤٤٠)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٧٥).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٩٠)، وانظر «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦١).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٥).

(٥) «السمرقندي» (٢/ ١٦١).

قال ابن عطية:

«استمال الناس فيه بحسن حديثه وفضله ونبله وكان يسلي حزينهم ويعود مريضهم ويسأل لفقيرهم ويندبهم إلى الخير»(١).

٣٦/٤٧٩- معه تدل على المصاحبة والمعية واستحداثها.

قال أبو حيان:

«و«مع» تدل على الصحبة واستحداثها؛ فدل على أنهم سجنوا في ساعة واحدة»(٢).

٣٦/٤٨٠- «جواز التقرب بإحسان الرجل الصالح في طلب الحاجة منه»(٣).

قال السعدي:

«أي: من أهل الإحسان إلى الخلق؛ فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا؛ كما أحسنت إلى غيرنا فتوسلا ليوسف بإحسانه»(٤).

٣٦/٤٨١- «إطلاق لفظة المحسنين تشمل الصادقين والموحدين والعلماء»(٥).

٣٦/٤٨٢- كل من كان من أهل الأصالة يسر بأن يقر بالفضل لأهل الفضل ويعترف بالإحسان لأهل الإحسان.

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٣).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٥).

(٣) بشرط كون هذه الأمور في مقدوره.

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٣).

(٥) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦١).

قال العلمي:

«الاعتراف بإحسان يوسف: كل من كان من أهل الأصالة يسر بأن يقر بالفضل لأهل الفضل، ويعترف بالإحسان لأهل الإحسان، كما وقع من هذين الرئيسين.

فيظهر أنهما كانا كبيري النفس، أصيلي المحتد، وهذا بخلاف طائفة من الناس ساءت سريرتهم، وسفلت طباعهم، وصغرت نفوسهم، فهؤلاء ينكرون فضل الفضلاء، ويجحدون إحسان المحسنين، بل قد تحملهم الكبرياء على إيقاع الأذى بمن أحسن إليهم، لا سيما إذا كان هؤلاء المحسن إليهم ممن ولدوا في الفاقة وخفض العيش، وساعدتهم الأقدار على الارتقاء، فربما حدثتهم نفسهم الأمارة بإنكار إحسان المحسنين إليهم بإيذائهم بل بإهلاكهم»[1].

٣٦/٤٨٣- أن الخمر عامة ما يعصر عصراً أو ينبذ نبيذاً أو يقطر تقطيراً أو من غيره.

قال العلمي:

«قول رئيس السقاة: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ ﴾ لا يدل على أن الخمر هي مما يعصر فقط ، بل إنما يدل على أنهم كانوا يستعملون هذا النوع ، فلا ينافي أن الخمر قد تكون مما ينبذ نبيذاً أو يقطر تقطيراً، فاتخاذ المصريين الخمر من العصير، لا ينافي اتخاذها من غيره، وليس في كلام رئيس السقاة ما يدل على الحصر، دع ما يمكن أن يقال: إن هذا القول محكي عن أعجمي في بيان ما رآه في نومه، مما هو معهود في بلاده، فليس بحجة في لغة العرب ولا في

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٦٧٢).

صناعتهم وصناعة غيرهم للخمر، وبالأولى لا يكون حجةً في الشرع ، فالخمر لغة وشرعاً أعم مما يتخذ من العصير»[١].

٣٦/٤٨٤- أن ملوك مصر الأقدمين ما كانوا يشترون الخمر التي يشربونها من الأسواق أو الحانات بل كانوا يصنعونها ويعصرونها ويتخذون خدماً لعملها.

قال العلمي:

«يظهر أن ملوك مصر الأقدمين ما كانوا يشترون الخمر التي يشربونها من الأسواق أو الحانات، بل كانوا يتخذون خدماً أخصائيين لعملها خصيصاً لهم، ويرى علماء الآثار في جدران قبور المصريين صور رجال يقطفون العنب ويفرطون من العناقيد حبه، ويجعلون العصير في دنان من فخار يضعونها في المخازن»[٢].

٣٦/٤٨٥- بيان أن الخمر ربما كانت حلالاً عند المصريين والرعاة في زمن يوسف حتى كان الملك يشربها علناً بلا نكير.

قال العلمي:

«إن قال قائل: هل كانت الخمر حلالاً عند هؤلاء المصريين والرعاة حتى كان الملك يشربها علناً بلا نكير!

قلنا: إن الخمر محرمة بألسنة جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- على جميع الشعوب والأمم، فالمصريين والرعاة وغيرهم كانوا يشربونها في حال أنها محرمة عليهم، ويحتمل أن المحرم عليهم هو القدر المسكر فقط، وأن

---

(١) المرجع السابق (١/ ٦٧٠).

(٢) المرجع السابق (١/ ٦٦٥).

ما دون القدر المسكر حلال، وهو ظاهر كتب العهدين الموجودة اليوم عند اليهود والنصارى، فلما كان من حكمة الله -تعالى- سير أمور البشر كلها على سنن الترقي التدريجي، الذي مقتضاه أن يكون الآخر أكمل مما قبله، أكمل الله دينه العام بإنزال القرآن الحاوي تحريم الخمر مطلقاً، لما فيها من الضرر الذاتي»[١].

٣٦/٤٨٦- يجب على العبد عبودية الله في الرخاء كما عليه عبوديته له في الشدة .

قال السعدي:

«ومنها: أنه كما على العبد عبودية الله في الرخاء؛ فعليه عبودية في الشدة: فيوسف -عليه السلام- لم يزل يدعو إلى الله فلما دخل السجن استمر على ذلك ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك»[٢].

٣٦/٤٨٧- الشخصية الموهوبة تثير حسد الآخرين:

قال أحمد نوفل:

«فشخصيته الموهوبة هي التي أثارت حسد الأخوة حتى دبروا ما دبروا؛ وشخصيته هي أساس إعجاب أبيه وتعلقه به ثم حزنه عليه حين فارقه، وشخصيته هي التي جذبت إليه قلب العزيز وتأمل فيه خيراً وهو يقول لامرأته: ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ ﴾ وهو الذي تعلق به فؤاد امرأة العزيز حتى درجة فقد التوازن ثم النسوة من بعد، هو الذي شد إليه انتباه وإعجاب السجينين، ثم إعجاب الملك.

---

(١) المرجع السابق(١/ ٦٦٩-٦٧٠).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٧).

وبهذه الشخصية القوية صمد في السجن، وجلّى في إدارة دفّة الحكم في قطر عظيم كمصر.. وضبط الأمور في يسر وسلاسة بلا عنت على الناس ولا رهق ولا بطش ولا عسف، وزاد الإنتاجية..كل ذلك من اقتناع الناس بقوة الشخصية التي تواجههم وتمتعه -عليه السلام- بالكفاءات والمواهب العظيمة»[1].

٣٦/٤٨٨- بركات الصحبة.

قال القشيري:

«لصحبة السجن أثر يظهر ولو بعد حين؛ فإن يوسف -عليه السلام- لما قال لصاحبه: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ اذكرني عند ربك؛ فأنساه الشيطان ذكر ربه؛ فبقي يوسف في السجن زماناً، ثم إن خلاصه كان على لسانه حيث قال: ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ وقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ فالصحبة تعطي بركاتها وإن كانت تبطي»[2].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (١٣٢).

(٢) «اللطائف والإشارات» (٣/ ١٨٤).

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

٣٧/٤٨٩- فليقل خيراً أو ليصمت.

قال العلمي:

«الأدوار التي سكت فيها يوسف والأدوار التي تكلم فيها: نعلم أنه كان أتى على يوسف منذ غيابه عن والده ثلاثة أدوار:

الدور الأول: أخذ السيارة إياه لمصر كسلعة تجارية.

الدور الثاني: حالة الخدمة والعبودية للعزيز، ونراه في هذين الدورين ساكتاً، لم يهتف بشي من مدح شخصه، ولم يقرظ أهله بشيء من أنواع التقريظ، ذلك؛ لأنه لم يجد داعياً لذلك، ولكنه الآن وقد انتقل إلى الدورالثالث: دور الاعتقال في أعماق السجون، مع المجرمين، متهماً بجريرة الفحشاء؛ فقد رأى من اللازب اللازم أن يهتف بشيء من الثناء على شخصه، وأن يقرظ أسرته وأصوله بعض التقريظ، شأن كل واحد، ذوت زهرة فخره في نظر الناس وتصوح عن فضله في أعينهم، وابتدى بثلبه، وشرع في النيل منه، والغض عنه؛ فإنه عندئذ يبين فضل نفسه بنفسه بقدر ما تستدعي الحاجة، وتطلب المصلحة ويستند على أثيل منبتة، وكرم أصله، ويأوي إلى سياج من شرف المحتد، قد ضربه من حوله، فلله در هذا الصديق، ما أحكمه في الحالتين: حال السكوت وحال التكلم»[1].

٣٧/٤٩٠- كل شيء له تأويل وتعبير.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٦٨٢-٦٨٣).

لقد وضع الصديق -عليه السلام- أول قاعدة في علم التعبير وأنه ما من شيء إلا وله تأويل؛ فقال: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾.

قال العلمي:

«قبل كل شيء إنني أشكر الله على أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه من أي نوع كان مما يرزق عادة إلا نبأتكما بما يؤول ويصير إليه ولو فرض أنكما رأيتما مناماً قبل أن يحدث لكما مصداقه وعاقبته يقظة، فأنا مستعد أن أخبركما عنه قبل وقوعه وحدوثه، وهذا الذي أذكر أني أعلمه في عبارة الرؤيا هو مما علمني إياه ربي فعلمته، فهو شيء استفدته من قبل السماء، لا من قبل الأرض.

وأتى بكلمة ﴿ تُرْزَقَانِهِۦ ﴾ وذكر ﴿ طَعَامٌ ﴾ في سياق النفي؛ لإفادة العموم؛ كأنه يقول:

إن علمي بتأويل الرؤى عام، وليس مقصوراً على تأويل طعام دون طعام، بل إني قدير على تفسير أي رؤيا كانت، في أي طعام يكون مما يرزق عادة، فكل نوع من أنواع الأطعمة التي ترزق إذا رآه الإنسان في منامه أقدر أن أفسره، فأنا قدير على تعبير رؤيا طعام الخمر، ورؤيا طعام الخبز، كما أنني قدير على تفسير ما عداهما من صنوف الطعام عموماً»[١].

٣٧/٤٩١- من وصف نفسه لقبول علمه والإرشاد إلى الائتمام به لا يكون من باب التزكية للنفس[٢].

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٦٧٧-٦٧٨).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٦).

قال البقاعي:

«فعلى كل ذي علم إذا احتاج إلى سؤاله أحد أن يقدم على جوابه نصحه بما هو الأهم له، ويصف له نفسه بما يرغبه في قبول علمه إن كان الحال محتاجاً إلى ذلك، ولا يكون ذلك من باب التزكية بل من الإرشاد إلى الائتمام به بما يقرب إلى الله، فيكون له مثل أجره»(١).

قال القاسمي:

«قال الزمخشري: لما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترض ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة؛ إذا استفتاه واحد منهم: أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وواجب عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه: أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم؛ فوصفه نفسه بما هو بصدده -وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به وفي الدين- لم يكن من باب التزكية»أ.هـ(٢).

قال العلمي:

«بدأ يوسف -عليه السلام- في هذه الآية والتي بعدها يذكر للفتيين شيئاً من ترجمة حياته الشخصية والعائلية والدينية، بساطاً وتمهيداً للعظة التي أزمع على إلقائها عليهما، فكأنه جرى في كلامه على ما يسمونه بسياسة المراحل؛

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٣٩).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٢٧)، وانظر: «الكشاف» (٢/ ٢٥٦).

أي: التقدم مرحلة مرحلة، ومن كلامه ظهر له أمران:

١- أن هذا السجين بعدما كان في أعينهما مجهول الأصل، غامض النسب إذاً هو شريف عريق من أهل البيوتات الدينية الكبيرة.

٢- أن هذا السجين بعدما كان في نظرهما مجرماً، ظهر أنه هـاد مرشد وأعظم معلم للخير.

ولم يكن تعبير الرؤيا ليهم يوسف أكثر مما يهمه الوعظ والتعليم عند سنوح الفرصة، فلذا ابتدأ بما هو أهم في نظره، وكأنه -عليه السلام- رام أجراً على تعبيره رؤييهما، ولكن ما هو هذا الأجر يا ترى؟ ليس هو ديناراً ولا درهماً ولا شيئاً ما من الأمور المادية، ولكنه إصـغاء رئيس السقاة ورئيس الخبازين لتعليمه ووعظه.

وهذه طريقة لطيفة، على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى وواجب عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم، فوصف نفسه بما هو بصدده، وكان غرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين، لم يكن من باب التزكية.

ثم إن ما عمله يوسف -عليه السلام- يذكرنا اليوم بما يفعله أصحاب المستشفيات أو المدارس التبشـيرية، فـإنهم يعـالجون المرضـى، ويعلمون التلاميذ ليس في مقابلة أجرة من دينار أو درهم، ولكن هذه الأجرة هي إصغاءهم للكرز [١] الديني، الأمر الذي يشجعنا نحن أن نعمل مثل هذا العمل [٢].

---

(١) الكرز: هو الوعظ والإرشاد الديني عند النصارى.

(٢) ليس اتباعاً لسنن اليهود والنصارى، وإنما لأن اقتناص الفرص عندما تكون

ويدعونا أن نفترص الفرص كلما لاحت لأجل أن ندعو الجحدة للإيمان، ونرشد العصاة للطريق القديم»[١].

٣٧/٤٩٢- التبشير قبل التفسير.

قدّم يوسف -عليه السلام- التبشير قبل تفسير الرؤيا حتى تتهيأ النفوس لما سيلقى عليه، وتقبل ما أمرت به.

قال القشيري:

«قدّم على الجواب ما اقترحه عليهما من كلمة التوحيد»[٢].

٣٧/٤٩٣- أن الأنبياء قد يطلعهم الله على شيء من الغيب.

قال الإمام الشوكاني:

«وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه بل جعله -عليه السلام- مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما بياناً لعلو مرتبته في العلم وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين.

فهو كقول عيسى -عليه السلام- ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ ﴾ إنما قال يوسف -عليه السلام- لهما بهذا ليحصل الانقياد منهما له فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر»[٣].

قال ابن عطية:

«فعلى هذا إنما أعلمهم بأنه يعلم مغيبات لا تعلق لها برؤيا وقصد

= النفوس مهيأة من صلب ديننا الحنيف؛ فتدبر.

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٦٧٦-٦٧٧).

(٢) «اللطائف والإشارات» (٣/ ١٨٥).

(٣) « فتح القدير »(٣/ ٢٦).

بذلك أحد الوجهين المتقدمين، وهذا على ما روي من أنه نبيء في السجن؛ فإخباره كإخبار عيسى -عليه السلام-»[١].

٣٧/٤٩٤- الفضل كله لله وحده لا شريك له.

لقد نسب يوسف الصديق تعليمه إلى الله، وهذا من كمال علمه وأدبه وفضله أن نسب الفضل كله لله وحده لا شريك له، ولم يدع أنه صاحب ذلك أو أن هذا العلم من لدن نفسه أو معلومات اكتسبها بكده وجهده بل قال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾.

٣٧/٤٩٥- فضل من علم وعلم.

ينبغي على داعي الله أن يعلم الناس ما علمه الله، فإن شكر العلم ونشره وزكاته بثه بين العباد، ولذلك قال رسول الله ﷺ:«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[٢].

وقال ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم؛ كمثل غيث أصاب أرضا؛ فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ، والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به؛ فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[٣].

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٤).

(٢) أخرجه البخاري(٩/ ٦٦) من حديث عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وانظر كتاب «فضائل القرآن وحملته من السنة المطهرة» للشيخ محمد موسى نصر.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٦٠) ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه-.

٤٩٦/٣٧- عدم الإيمان بالله واليوم الآخر مصدر كل الشرور والأضرار كما بالمقابل أن الإيمان بالله واليوم الآخر هو مصدر كل خير ونفع.

قال العلمي:

«عدم الإيمان بالله واليوم الآخر هو مصدر كل الشرور والأضرار؛ كما بالمقابلة أن الإيمان بالله واليوم الآخر، هو مصدر كل خير ونفع، قال-تعالى-: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة:٢٢]، وقال -تعالى-: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ﴾ [الطلاق:٢]، وقال -تعالى-: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال -تعالى-: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ ﴾ [الممتحنة:٦]، وقال -تعالى-: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ﴾ [البقرة:٢٢٨] وقال -تعالى-: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا

تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [البقرة:٢٣٢]، وقال -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [النساء:٥٩]، وقال -تعالى-: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۖ ﴾ [النور:٢]»[1].

٣٧/٤٩٧- تأويل الرؤيا يكون بعلم لا من التكهن والتنجيم.

قال القاسمي:

«أي: ذلك التأويل والأخبار بالمغيبات ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ ؛أي: بالوحي والالهام لا من التكهن والتنجيم»[2].

٣٧/٤٩٨- توجيه لأهل العلم إذا استفتاه أحد أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً ثم يفتيه[3].

قال العلمي:

«ونرى أنه قد افترص فرصة سؤالهما له، فحوّل مجرى الحديث إلى عظتهما، وأخذت جمل الوعظ تنسال على شفتيه.

آنس منهما إرتياحاً؛ فأحب أن يطيل معهما الحديث، جرياً على رأي من قال:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٦٩٤-٦٩٥).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٢٣).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٦)، و «الكشاف» (٢/ ٢٥٦).

وقـــد وجـــدت مكـــان القـــول ذا ســـعة
فـــإن وجـــدت لســـاناً قـــائلاً فَقُـــلِ

اقتحم هذه الفرصة لإرشادهما، لأنه رجل ديني، وأهل الدين يكرسـون حياتهم لاستتابة المجرمين وأصحاب الذنوب، حتـى إنـهم ليطوفـون السـجون ويتعرفون إلى المسجونين، ويتوددون إليهم، ويعظونـهم ويدعونـهم إلى الحـق، ويحرضونهم على التوبة، فما أتاه يوسف هو من أهله في محله.

سألاه فَعَوَّل على اغتنام السانحة، لعله يستطيع التسلط علـى أفكارهمـا، فكاشفهما بأنه هو على عقيدة التوحيـد، خلافـاً للمصريـين ونحوهـم ووفاقـاً لعائلته الكريمة.

أتى في هذه الآية والآيات الأربع التي بعدها بحديث ذي شجون، منه ما يتعلق بترجمة شخصه، ومنه ما يتعلق بترجمة أصوله، ومنه ما له علاقة بالدعوة الدينية والوعظ والإرشاد، ومنه ما هو جواب على سؤالهما»[١].

٣٧/٤٩٩ - بيان وجوب نسبة الفضل والمنة لله -تعالى-.

قال الشوكاني:

«ثم يبين لهما أن ذلك الذي ناله من هذه التربية العليـة والعلـوم الجمـة هو بسبب ترك الملة التي لا يؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملـة الأنبيـاء من آبائه»[٢].

٣٧/٥٠٠ - هجر طريق الكفر والشرك وسلوك طريق الأنبياء والمرسلين.

قال ابن كثير:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٦٨٠-٦٨١).

(٢) «فتح القدير»(٣/ ٢٦).

«ويقول هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-»(١).

٣٧/٥٠١ - الأخذ في حديث آخر تنسية للمريض (المحتضر) الموت وطمعاً في إيمانه ليأخذ بحظه من الإيمان فسلم له آخرته.

قال أبو حيان:

«لما علم من تعبير منامه رأى الخبز أنها تؤذن بقتله أخذ في غير الحديث تنسية لهما أمر المنام وطماعية في إيمانهم ليأخذ المقتول بحظه من الإيمان وتسلم له آخرته؛ فقال لهما معلناً بعظيم علمه للتعبير؛ إنه لا يجيئكما طعام في يومكما تريان أنكما رزقتماه إلا أعلمتكما بتأويل ذلك الطعام أي بما يؤول إليه أمره في اليقظة قبل أن يظهر ذلك التأويل الذي أعلمكما به»(٢).

٣٧/٥٠٢ - أنبياء الله ورسله كلهم حكماء لطفاء أصحاب أخلاق كريمة وأدب.

٣٧/٥٠٣- «على الداعية الذي يتألف قلوب الناس في الشدة أو في الرخاء ألا يبخل عليهم بإظهار قدرته وتسخير مواهبه لخدمتهم ولا سيما إذا كان مسجوناً في قضية إيمانية»(٣).

٣٧/٥٠٤- إن علم التعبير من العلوم الشرعية وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه وأنه داخل في الفتوى.

قال السعدي:

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٥٠).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٦).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٢٧).

«ومنها: فضيلة العلم علم الأحكام والشرع وعلم تعبير الرؤيا وعلم التدبير والتربية وأنه أفضل من الصورة الظاهرة ولو بلغت في الحسن جمال يوسف؛ فإن يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض؛ فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه وأن تعبير الرؤيا داخل في الفتوى»[1].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٨).

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

٣٨/٥٠٥- ذكر السلف الصالح في الحق يزيد دليل الحق تمكناً.

قال ابن عاشور:

«وذكر آباءه تعليماً بفضلهم، وإظهاراً لسابقية الصلاح فيه، وأنه متسلسل من آبائه، وقد عقله من أول نشأته ثم تأيد بما علّمه ربه؛ فحصل له بذلك الشرف العظامي والشرف العصامي، ولذلك قال النبي ﷺ لما سئل عن أكرم الناس: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي»[(١)].

ومثل هذه السلسلة في النبوءة لم يجتمع لأحد غير يوسف -عليه السلام- إذا كان المراد بالنبوة أكملها وهو الرسالة، أو إذا كان إخوة يوسف -عليه السلام- غير أنبياء على رأي فريق من العلماء.

وأراد باتباع ملة آبائه اتباعها في أصولها قبل أن يعطى النبوءة إذ كان فيما أوحي إليه زيادة على ما أوحي به إلى آبائه من تعبير الرؤيا والاقتصاد، أو أن نبوءته كانت بوحي مثل ما أوحي به إلى آبائه؛ كقوله -تعالى-: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى: ١٣].

---

(١) صحيح- أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٣٥٣)، ومسلم في «صحيحه» (٢٥٢٦) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

وذكر السلف الصالح في الحق يزيد دليل الحق تمكناً، وذكر ضدهم في الباطل لقصد عدم الحجة بهم بمجردهم؛ كما في قوله الآتي: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾»[1].

٣٨/٥٠٦- التخلية قبل التحلية.

ذكر يوسف -عليه السلام- التخلي عن الشرك وترك ملة قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر في نهاية الآية السابقة ثم ذكر التحلي بالتوحيد الذي هو ملة إبراهيم عليه السلام.

٣٨/٥٠٧- أعظم نعمة على العبد التوحيد.

أعظم نعم الله على العباد أن يوفقهم للتوحيد، فهو حق الله على العبيد وذلك باتباعها والثناء على مجديها.

قال العلمي:

«ووجه كون التوحيد من فضل الله: أنه -تعالى- نصب الأدلة التي ينظر فيها الإنسان، ويستدل بها، ثم لطف بمن لطف حتى توفق للتوحيد»[2].

٣٨/٥٠٨- «وصف نفسه وآباءه بالتوحيد ترغيباً في الدعوة من حكمة الدعوة والداعية»[3].

٣٨/٥٠٩- أن التوحيد نعمة عظيمة أكثر الناس في غفلة عن شكرها.

قال القرطبي -رحمه الله-:

«وقيل: ذلك من فضل الله علينا إذ جعلنا أنبياء وعلى الناس إذ جعلنا

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٠١).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٥).

الرسل إليهم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ على نعمة التوحيد والإيمان»[١].

٣٨/٥١٠ - عصمة الأنبياء من الزنى وعصمتهم من الشرك.

قال القرطبي -رحمه الله-:

قوله -تعالى-: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ لأنهم أنبياء على الحق ﴿ مَا كَانَ ﴾ ؛أي: ما ينبغي ﴿ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ من: للتأكيد؛ كقولك ما جاءني من أحد، وقوله -تعالى-: ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ إشارة إلى عصمته من الزنى ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ؛أي: على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك»[٢].

٣٨/٥١١- «وجوب البراءة من الشرك وأهله»[٣].

٣٨/٥١٢- «إطلاق لفظ الآباء على الجدود إذ كل واحد هو أب لمن بعده»[٤].

قال محمد رشيد رضا:

«وبين أسماءهم من الأب الأعلى إلى الأدنى ﴿ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا، وبيّن أساس ملتهم التي

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٩١).

(٢) المرجع السابق (٩/ ١٩١).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٢).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٦١٢).

اتبعها وراثة وتلقيناً؛ فكانت يقيناً له ولهم ووجداناً»[1].

٣٨/٥١٣- تحريم الشرك ولو كان صغيراً أو حقيراً صنماً أو ملكاً أو جنياً أو غير ذلك.

قال القاسمي:

«وزيادة «من» في المفعول أعني «من شيء» لتأكيد العموم؛ أي: لا نشرك به شيئاً من الأشياء قليلاً أو حقيراً صنماً أو ملكاً أو جنياً أو غير ذلك»[2].

٣٨/٥١٤- بيان أن الشاكرين لنعم الله قليل.

قال أبو حيان:

«وقوله: ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾؛ أي: لا يشكرون فضل الله ولا يتنبهون، وقيل: ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾؛ لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدل بها، وقد نصب مثل ذلك لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يشكرون اتباعاً لأهوائهم؛ فيبقون كافرين غير شاكرين»[3].

٣٨/٥١٥- تظافر دليل العقل والنقل من أن شكر المنعم واجب.

قال البقاعي:

«والفضل: النفع الزائد على مقدار الواجب؛ فكل عطاء الله فضل، فإنه لا واجب عليه؛ فكان لذلك واجباً على كل أحد إخلاص التوحيد له شكراً

---

(١) «تفسير المنار» (١٢/ ٣٠٧).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٢٤).

(٣) «البحر المحيط» (٢٧٧-٢٧٨).

على فضله لما تضافر عليه دليلاً العقل والنقل من أن شكر المنعم واجب»[1].

٣٨/٥١٦- ذكر نفي الشرك يدل على وجوده ونفي الشكر يدل على إثباته ووجوبه.

قال البقاعي:

«﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فضله بإخلاص العمل له، ويشكرون به إكراهاً لفطرهم الأولى؛ فالآية من الاحتباك: ذكر نفي الشرك أولاً يدل على وجوده ثانياً، وذكر نفي الشكر ثانياً يدل على حذف إثباته أولاً»[2].

٣٨/٥١٧- «الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر المشرع لعباده؛ فيجب عليهم أن يعبدوه حقاً ولا يشركوا به شيئاً»[3].

٣٨/٥١٨- من اتبع واقتدى بالمرسلين؛ فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدي به في الخير وداعياً إلى سبيل الرشاد.

قال ابن كثير:

«وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين؛ فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدي به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد»[4].

٣٨/٥١٩- «إشارة إلى وحدة الملة التي كان عليها إبراهيم وإسحاق ويعقوب -عليهم السلام- وهي ملة التوحيد التي كان عليها الأنبياء

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٤٠).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٤٠-٤١).

(٣) «مجلة الأصالة» (عدد ١٧).

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٥٠).

أجمعون»[١].

٣٨/٥٢٠- التوحيد اتباع لا تقليد.

لقد اتبع يوسف الصديق ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، وكذلك آباؤه: إسحاق كان تابعاً لإبراهيم، ويعقوب تابعاً لإسحاق وإن كانوا أنبياء يوحى إليهم مما يدل دلالة واضحة أن التوحيد اتباع يقوم على الدليل والبرهان.

٣٨/٥٢١- «الدعاة إلى الله يتميزون بصفات عالية وبأخلاق كريمة ويقتدون بسيد الأنام محمد ﷺ الذي دعاه كتاب الله إلى الإقتداء بالرسل الكرام -عليهم الصلاة والسلام- الذين جسدوا الدعوة إلى الله قولاً وعملاً وخلقاً وفكراً وسلوكاً»[٢].

٣٨/٥٢٢- «على الداعية إلى الله أن يتمسك بالقرآن الكريم، يقتبس من أنواره ، ويستخرج درره،ويلتزم بأحكامه ، ويترسم خطى دعائه، فإنه حبل الله المتين الذي لا تنقضي عجائبه»[٣].

٣٨/٥٢٣- «لا يكتفي الداعية بأن يدل الناس على الخالق، وإنما يسعى بكل جهد ممكن أن يجعلهم يعترفون بنعمة الله عليهم ويوقظ فيهم حافز الشكر على هذه النعمة ضماناً لاستمرارها ولزيادتها؛ كما قال -تعالى-:

---

(١) «مجلة الأصالة» (عدد١١/ ١٧).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥)، وانظر «من معالم المنهج النبوي في الدعوة إلى الله» للشيخ محمد موسى نصر.

(٣) المرجع السابق (ص ٦).

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧]»[1].

٣٨/٥٢٤- الدعوة إلى التوحيد أمر لا بد منه، وأن الشرك لا هوادة في إنكاره ولا مداهنة في محاربته؛ فلا يجوز لمسلم أن يحابي ويداهن وهذا يبين مكانة العقيدة وعظم شأنها عند الله وعند أنبيائه ورسله.

٣٨/٥٢٥- وجوب الإيمان بالرسل تفصيلاً، ومنهم يوسف- عليه السلام-.

قال أحمد نوفل:

«ذكره الله -تعالى- في مجموعة الرسل الذي يجب الإيمان بهم تفصيلاً، وأثنى عليه ووصفه بالعفة والنزاهة، كما أثنى عليه رسول الله ﷺ بقوله: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[2]»[3].

٣٨/٥٢٦- تحقيق التوحيد لا يكون إلا أن يكون العبد شاكراً لمولاه.

قال أبو السعود:

«﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾؛ أي: لا يوحدون؛ فإن التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر لله -عز وجل- على النعمة، وإنما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع إلى الناس لزيادة توضيح وبيان ولقطع توهم رجوعه إلى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس، وقيل: ذلك التوحيد من فضل الله علينا، حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٧).

(٢) مضى تخريجه (ص ٨٤).

(٣) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص١٣١).

على الحق، وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس -أيضاً- ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتباعاً لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين، ولك أن تقول: ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولاً ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد التي مهدها في الأنفس والآفاق، وقد أعطى سائر الناس -أيضاً- مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون؛ أي: لا يصرفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خلقت هي له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والأنفسية والعملية والنقلية»(١).

٣٨/٥٢٧- الطريق إلى الكمالات، والسبيل للفوز بالكرامات.

قال أبو السعود:

«﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾؛ يعني: أنه إنما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام، ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد، وإنما قاله -عليه السلام- ترغيباً لصاحبيه في الإيمان والتوحيد وتنفيراً لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال، وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه؛ لأن التخلية متقدمة على التحلية»(٢).

٣٨/٥٢٨- استعمال النفي بمعنى النهي.

قال العلمي:

«﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ هو نفي بمعنى النهي؛ أي: لننته عن الشرك.

ويوجد في القرآن من هذا الأسلوب الشيء الكثير، وإليكم بعض

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٧٨).

(٢) «تفسير أبي السعود»(٤/ ٢٧٧).

الشواهد:

١- قوله -تعالى-: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ ﴾ [البقرة:١١٤]؛ أي: لا ينبغي للمؤمنين أن يمكنوا هؤلاء من دخول مساجدهم، إذ ما كان لهم في حكم الله وشرعه أن يدخلوها إلا خائفين، فهذا النفي كناية عن نهي المؤمنين من أن يُمَكِّنوا أحداً من إلحاق الأذى بمساجدهم.

٢- قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب:٥٣]؛ أي: لا يباح لكم ذلكم، فهو نفي للإباحية، أو نهي بمعنى لا تؤذوا... إلخ.

٣- قوله -تعالى-: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة:٧٩]؛ أي: لا يجوز لهم مسه بغير طهر، أو هو نهي في المعنى؛ أي: لا يمسسه إلا المطهرون.

٤- قوله -تعالى-: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١]؛ أي: لم يكن ليجعل من أحكام شريعته، ما يلزم المسلمين بالخنوع والإنقياد لأحكام الكافرين، ولا يوجب عليهم السكون والطمأنينة لسلطانهم؛ لأنه يريد أن تكون كلمة الذين كفروا هي السفلى وكلمته هي العليا، أو هو محمول على النهي، والمعنى: لا تجعلوا أيها المؤمنين سبيلاً عليكم للكافرين، قال -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾ [النساء:٥٩]، فكلمة «منكم» صريحة في أنه ليس للمؤمنين أن يطيعوا أولي الأمر من غير أنفسهم إلا أن يتقوا منهم تقاة، إلى غير ذلك من الشواهد

والأمثال القرآنية»[١].

٣٨/٥٢٩- الشرك محرم كثيره وقليله.

لقد قرر يوسف أنه لا ينبغي للعبد أن يشرك بربه شيئاً قل أو كثر؛ لأن الشرك ظلم عظيم، ولذلك فلن يغفر الله لمن أشرك به.

قال الله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:٤٨]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء:١١٦].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٠٧-٧٠٨).

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾.

٣٩/٥٣٠- جواز تسمية السجين بصاحب السجن لطول إقامته معه.

قال الشوكاني:

«جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامها فيه، وقيل: المراد يا صاحبي السجن؛ لأن السجن ليس بمصحوب فيه وإن ذلك من باب يا سارق الليلة، وعلى الأول يكون من باب قوله: أصحاب الجنة وأصحاب النار»[١].

قال القرطبي:

«أي: يا ساكني السجن، وذكر الصحبة؛ لطول مقامهما فيه؛ كقولك: أصحاب الجنة وأصحاب النار»[٢].

٣٩/٥٣١- الموافقة في الأحوال صلة وثيقة.

قال ابن عاشور:

«وعبر عنهما بوصف الصحبة في السجن... للإيذان بما حدث من صلة المماثلة في الضراء الإلف في الوحشة؛ فإن الموافقة في الأحوال صلة تقوم مقام صلة القرابة أو تفوقها»[٣].

٣٩/٥٣٢- «وجوب اغتنام الفرص للدعوة إلى الله -تعالى-»[٤].

٣٩/٥٣٣- الآلهة لا تتفرق.

---

(١) «فتح القدير» (٣/ ٢٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٩٢).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٧٤).

(٤) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٥).

قال القرطبي:

«وقيل: أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدد الإلهة؛ لتفرقوا في الإرادة، ولعلا بعضهم على بعض، وبيَّن أنها إذا تفرقت لم تكن آلهة»[1].

٣٩/٥٣٤- تفرق الآلهة يفرق البشر.

قال القاسمي:

«قال بعضهم: دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالباً بالاعتقاد جاء هادياً لوجه الحسن فيه، وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم، وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى، أما اعتقاد جميعهم بإله واحد؛ فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه، وفي ذلك نظام أخوتهم وهي قاعدة سعادتهم»[2].

٣٩/٥٣٥- العبودية لله واحة أمن واستقرار.

«إن العبد الموحد الذي يخضع لرب واحد، وهو علم ما يطلبه منه، ويكلفه به مستريح مستقر ينعم براحة الاستقامة والأمن واليقين، وتجمع الطاقة، ووحدة التوجه، ووضوح الطريق؛ لأنه على منهج واضح صريح.

والقلب المعبد للإله الحق يقطع الرحلة إلى غايته على هدى؛ لأنه يعرف مصدراً واحداً للخلق والرزق، ومصدراً واحداً للنفع والضر، ومصدراً واحداً للمنح والمنع، فيستمد منه وحده، ويعتصم بحبل واحد يشد عروته.. فيخدم

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٩٢).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٢٥).

سيداً واحداً يعرف ماذا يرضيه؛ فيفعله، وماذا يغضبه؛ فيتقيه.

أما العبد المشرك؛ فهو معذب مقلقل مضطرب لا يستقر على حال، ولا يهنأ له بال، ولا يعرف له مآل؛ لأنه يخضع لسادة متشاكسين يخاصم بعضهم بعضاً، وهو بينهم موزع، لكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكليف، وهو بينهم حيران؛ لأنه لا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتعارضة المتشاكسة، التي تمزقه وتفرقه.

إن من يتخذ من دون الله أنداداً يحبهم كحب الله يعبد آلهة متعارضة متشاكسة؛ فمنهم من يعبد الهوى فكلما هوي شيئاً ركبه، وكلما هوي شيئاً أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى، ولذلك ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع؛ كما قال -تعالى-: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال -تعالى-: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤].

ومنهم من يعبد الشيطان؛ كما قال -تعالى-: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس:٦٠-٦٢].

وقال الله -تعالى- حاكياً عن خليله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾

[مريم:٤٤].

والمعبودات الباطلة كثيرة؛ كما قال رسول الله ﷺ: «تعس[١] عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة[٢]، والخميصة[٣]؛ إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يَرضَ»[٤].

وفي رواية: «تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»[٥].

وفي رواية: «إن أعطى رضي وإن لم يعط لم يف»[٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

«فسماه النبي ﷺ: عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر ما فيه؛ دعاء وخبراً وهو قوله: «تعس وانتكس، وإذا شيك؛ فلا انتقش».

والنقش، إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش: ما يخرج به الشوكة.

وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه، ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال.

وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي وإذا منع سخط، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا

---

(١) هلك وبعد.

(٢) كساء له خملُ.

(٣) ثوب خزّ أو صوف مُعَلَّم، ولا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعَلَّمةً.

(٤) أخرجه البخاري(٦/ ٨١و١١/ ٢٣-فتح) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٥) عند البخاري (٦/ ٨١-فتح)، وابن ماجه (٤١٣٦).

(٦) عند ابن ماجه (٤١٣٥).

هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ [التوبة:٥٨]، فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله.

وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه، وإن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة، هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده، فالقلب عبده.

ولهذا يقال:

العبد حرٌّ ما قنع
والحر عبد ما طمع

وقال القائل:

أطعت مطامعي فاستعبدتني
ولو أني قنعت لكنت حراً

ويقال: الطمع غلّ في العنق، وقيد في الرِّجْلِ، فإذا زال الغلّ من العنق زال القيد من الرِّجْلِ.

ويروى عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال:

«الطمع فقر، واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه».

وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه، فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه، ولا يطمع فيه، ولا يبقى قلبه فقيراً إليه، ولا إلى من يفعله.

وأما إذا طمع في أمره من الأمور ورجاه، فإن قلبه يتعلق به، فيصير فقيراً إلى حصوله، وإلى من يظن أنه سبب في حصوله، وهذا في المال والجاه

والصور وغير ذلك»[١].

ولقد ضرب الله مثلاً للعبد الموحد والعبد المشرك ما قدمنا معناه، فقال -عز وجل-: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٢٩].

هل يستويان مثلاً؟

إنهما لا يستويان؛ فالعبد الموحد في راحة وأمان، والعبد المشرك في قلق حيران.

العبد المؤمن في استقرار، والعبد المشرك نهب للأفكار، وصيد للأشرار.

العبد الموحد في استقامة، والعبد المشرك في ندامة.

إذن: ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾.

الله الواحد القهار خير من الأرباب الباطلة المتفرقة، والأهواء المتعارضة، والآلهة الزائفة القاصرة، والمناهج الأرضية العرجاء.

الله الواحد القهار خير ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً بل ضره أقرب من نفعه.

الله الواحد القهار خير ممن يريد استعباد الخلق لمصلحته وهواه.

الله الواحد القهار خير من الأرباب الأرضية التي تغتصب سلطان الله تحت تأثير الوهم والخرافة والأسطورة أو تحت تأثير القهر والخداع والدعاية.

ويضرب الله مثلاً لهذه الأرباب المتفرقة لتقريب الحقيقة الكبرى التي غفلوا عنها: ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ

---

(١) «العبودية» (ص٨٥-٨٨).

مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [النحل:٧٥].

إنهم لا يسوون بين المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف، فكيف يسوون بين رب العباد وبين شيء ممن خلق..أفلا يعقلون؟!

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل:٧٦].

رجل ضعيف بليد أبكم لا يدري شيئاً، ولا يأت بخير، بل هو عالة على سيده في كل حركاته وتوجيهاته... ورجل قوي متكلم بالعدل آمر بالخير عامل مستقيم على صراط مستقيم... هل يسوي عاقل بين الأول والثاني؟! فكيف يمكن التسوية بين حجر أو صنم أو وثن أو مخلوق وبين الله سبحانه العليم الحليم الهادي إلى صراط مستقيم.

وأيم الله ما شقت البشرية قط شقاءها إلا بتعدد الأرباب وتفرقهم، واختلاف المناهج وتلونها، وتوزع العباد بين أهواء الأرباب الباطلة وأوهام المناهج الزائلة.

وهنا يهجم سؤال على الفطرة في أعماقها فيهزها ويشدها، ويوقظها، ويحل وثاقها، وهو قول الله -تعالى- حاكياً عن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لقومه بعد أن أقام حجة الله عليهم: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنعام:٨١].

فيأتي الجواب: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ

ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ [الأنعام:٨٢]»[1].

٣٩/٥٣٦- أن الشرع جاء مبيناً للواقع في أن معرفة الله بصفاته حسنة في نفسها.

قال القاسمي:

«فالشرع جاء مبيناً للواقع في معرفة الله بصفاته حسنة في نفسها؛ فهو ليس محدث الحسن»[2].

٣٩/٥٣٧- تقرير الحقائق التاريخية بديانة القبط الوثنية.

قال العلمي:

«كان المصريون القدماء، ومنهم المعاصرون ليوسف -عليه السلام- من أهل« التثليث» ولكن ليس لهم« ثالوث» واحد، بل كل مقاطعة تعبد«ثالوثاً» وكان أصحاب هيكل« منفيس» يعتقدون بثالوث مزكب من «الله» قبل كل شيء، ثم«الكلمة» ومعهما «روح القدس» ولهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة، وهم واحد بالذات، وعنهم صدرت القوة الأبدية، قال«داون» في كتابه «خرافات التوراة»: «لا ريب أن تسمية الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس «كلمة» هو من أصل وثني مصري، دخل في غيره من الديانات كالمسيحية، و«أبولو» المدفون في بلدة «دهلي» في الهند يدعى «الكلمة»، وفي علم اللاهوت الإسكندري الذي كان يعلمه القسيس «بلاتو» قبل المسيح بسنين عديدة، «الكلمة هي الإله الثاني» وتدعى -أيضاً-: «ابن الله البكر»؛ فالمصريون

---

(١) «مدارج العبودية من هدي خير البرية»: الشيخ سليم بن عيد الهلالي (ص١٣١-١٣٨).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٢٥).

يقولون بلاهوت الكلمة، وأن كل شيء صار بواسطتها، وأنها «منبثقة» من الله، وأنها هي الله، وكان «بلاتو» عارفاً بهذه العقيدة الوثنية، وكذلك «أرسطو» وغيرهما، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي بقرون؛ كذا قاله «بونويك» في كتابه «عقائد قدماء المصريين»، وهو أشبه شيء بما في مفتتح إنجيل« يوحنا» بلا فرق، ولكن اعتقاد مبشري المسيحيين« مقدس» واعتقاد قدماء المصريين «نجس»!!!»[1].

وقال ابن عاشور:

«وكانت ديانة القبط في سائر العصور التي حفظها التاريخ وشهدت بها الآثار ديانة شرك؛ أي: تعدد الآلهة.

وبالرغم على ما يحاوله بعض المؤرخين المصريين والإفرنج من إثبات اعتراف القبط بإله واحد، وتأويلهم لهم تعدد الآلهة بأنها رموز للعناصر؛ فإنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا إلا أن هذا الإله هو معطي التصرف للآلهة الأخرى.

وذلك هو شأن سائر أديان الشرك، فإن الشرك ينشأ عن مثل ذلك الخيال، فيصبح تعدد آلهة.

والأمم الجاهلة تتخيل هذه الاعتقادات من تخيلات نظام ملوكها وسلاطينها، وهو: النظام الإقطاعي القديم.

نعم إن القبط بنوا تعدد الآلهة على تعدد القوى والعناصر وبعض الكواكب ذات القوى، ومثلهم الإغريق، فهم في ذلك أحسن حالاً من مشركي العرب الذين ألّهوا الحجارة، وقصارى ما قسموه في عبادتها أن

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٢٨-٧٢٩).

جعلوا بعضها آلهة لبعض القبائل؛ كما قال الشاعر:

وفـــــرّت ثقيـــــف إلى لاتـــــها

وأحسن حالاً من الصابئة الكلدان والأشوريين الذين جعلوا الآلهة رموزاً للنجوم والكواكب.

وكانت آلهة القبط نحواً من ثلاثين رباً أكبرها عندهم آمون رُعْ، ومن أعظم آلهتهم ثلاثة أخر وهي: أوزوريس، وأزيس، وهوروس؛ فالله بلاغة القرآن إذ عبر عن تعددها بالتفرق فقال: ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾»[1].

٣٩/٥٣٨- ينبغي مخاطبة الناس على قدر عقولهم.

قال ابن عاشور:

«وأراد بالكلام الذي كلمهما به تقريرهما بإبطال دينهما، فالاستفهام تقريري.

وقد رتب لهما الاستدلال بوجه خطابي قريب من أفهام العامة، إذ فرض لهما إلهاً واحداً متفرداً بالإلهية كما هو ملته التي أخبرهم بها. وفرض لهما آلهة متفرقين كل إله منهم إنما يتصرف في أشياء معينة من أنواع الموجودات تحت سلطانه لا يعدوها إلى ما هو من نطاق سلطان غيره منهم، وذلك حال ملة القبط.

ثم فرض لهما مفاضلة بين مجموع الحالين حال الإله المنفرد بالإلهية والأحوال المتفرقة للآلهة المتعددين؛ ليصل بذلك إلى إقناعهما بأن حال المنفرد بالإلهية أعظم وأغنى، فيرجعان عن اعتقاد تعدد الآلهة.

وليس المراد من هذا الاستدلال وجود الحالين في الألهية والمفاضلة بين

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٧٥-٢٧٦).

أصحاب هذين الحالين لأن المخاطبين لا يؤمنون بوجود الإله الواحد.

هذا إذا حمل لفظ ﴿ خَيْرٌ ﴾ على ظاهر المتعارف منه، وهو: التفضيل بين مشتركات في صفة.

ويجوز أن يكون ﴿ خَيْرٌ ﴾ مستعملاً في معنى الخير عند العقل؛ أي: الرجحان والقبول.

والمعنى: اعتقاد وجود أرباب متفرقين أرجح أم اعتقاد أنه لا يوجد إلا إله واحد؛ ليستنزل بذلك طائر نظرهما واستدلالهما حتى ينجلي لهما فساد اعتقاد تعدد الآلهة ، إذ يتبين لهما أن أرباباً متفرقين لا يخلو حالهم من تطرق الفساد والخلل في تصرفهم، كما يومىء إليه وصف التفرق بالنسبة للتعدد، ووصف القهار بالنسبة للوحدانية»[١].

٣٩/٥٣٩ - مشروعية الاستفتاء في كل مشكل من الأمور[٢].

قال الشوكاني:

«وهو ما رأياه وقصاه عليه، يقال: استفتاه إذا طلب منه بيان حكم شيء سأله عنه مما أشكل عليه، وهما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما من الرؤيا»[٣].

٣٩/٥٤٠ - توحيد الربوبية لا ينقذ من الكفر إلا إذا كان معه توحيد العبادة.

قال الشنقيطي:

---

(١) المرجع السابق(١٢/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٥).

(٣) «فتح القدير» (٣/ ٢٨).

«قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

قال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعامر الشعبي ، وأكثر المفسرين : إن معنى هذه الآية أن أكثر الناس، وهم الكفار ما كانوا يؤمنون بالله بتوحيدهم له في ربوبيته إلا وهم مشركون به غيره في عبادته .

فالمراد بإيمانهم: اعترافهم بأنه ربهم الذي هو خالقهم ومدبر شئونهم، والمراد بشركهم: عبادتهم غيره معه، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً؛ كقوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١]، وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف:٩]، وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت:٦١] وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٣]، وقوله: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩] إلى غير ذلك من الآيات .

ومع هذا؛ فإنهم قالوا: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص:٥].

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن توحيد الربوبية لا ينقذ من الكفر إلا إذا كان معه توحيد العبادة؛ أي: عبادة الله وحده لا شريك له، ويدل لذلك قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف:١٠٦].

وفي هذه الآية الكريمة إشكال: وهو أن المقرر في علم البلاغة أن الحال قيد لعاملها وصف لصاحبها وعليه؛ فإن عامل هذه الجملة الحالية الذي هو يؤمن مقيد بها، فيصير المعنى تقييد إيمانهم بكونهم مشركين، وهو مشكل لما بين الإيمان والشرك من المنافاة.

قال مقيده -عفا الله عنه-:

لم أر من شفى الغليل في هذا الإشكال، والذي يظهر لي -والله تعالى أعلم- أن هذا الإيمان المقيد بحال الشرك إنما هو إيمان لغوي لا شرعي؛ لأن من يعبد مع الله غيره لا يصدق عليه اسم الإيمان ألبتة شرعاً، أما الإيمان اللغوي؛ فهو يشمل كل تصديق، فتصديق الكافر بأن الله هو الخالق الرازق يصدق عليه اسم الإيمان لغة مع كفره بالله، ولا يصدق عليه اسم الإيمان شرعاً.

وإذا حققت ذلك علمت أن الإيمان اللغوي يجامع الشرك؛ فلا إشكال في تقييده به، وكذلك الإسلام الموجود دون الإيمان في قوله -تعالى-: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:١٤] فهو الإسلام اللغوي؛ لأن الإسلام الشرعي لا يوجد ممن لم يدخل الإيمان في قلبه، والعلم عند الله -تعالى-.

وقال بعض العلماء: «نزلت آية ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ في قول الكفار في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو

لك تملكه وما ملك» وهو راجع إلى ما ذكرنا»[١].

٣٩/٥٤١- على الداعية أن يدخل بحذر ولين خطوة خطوة في بيان فساد الاعتقاد والشرك والإفصاح عن عقيدته.

٣٩/٥٤٢- تقرير التوحيد على طريق أحاديث السابقين[٢].

٣٩/٥٤٣- على الداعية أن لا يفتر عن تعليم الناس وإرشادهم في كل حين وفي أي مكان.

قال العلمي:

«نتعلم من هذه الآية: أن الرجل المصلح المرشد ينبغي أن لا يفتر عن تعليم الناس وإرشادهم في كل حين، وفي أي مكان، وعلى أي حال، من عسر أو يسر، من ضيق أو فرج، من سرور أو حزن؛ فهذا النبي يوسف الصديق قام بالنصح والإرشاد وهو في سجنه ، قياماً بحق الإنسانية، ووفاء بواجب الدين، نصح ولم تعقه ضيقة السجن، ولا زور التهمة عن أن يقشع عن الناس سحب الضلال، ويصقل قلوب العامة بصقال العلم، ويجلوها بجلاء المنطق والحكمة، فكان بذلك من المحسنين، فليقم العلماء والمرشدون إلى انتشال الأميين من وهدة الجهل، وليرفعوهم إلى سماء الفضيلة، وليعمموا العلم بين أفراد الأمة»[٣].

٣٩/٥٤٤- ينبغي على العالم ألا يبخل بعلمه ولو كان غريباً في الوطن.

قال العلمي:

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٧٤-٧٥).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٥).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٢٢).

«كما نتعلم من كلام السيد الصديق درساً آخر، وهو: أنه ينبغي للعالم المرشد أن لا يبخل برشده وهدايته على أحد مطلقاً حتى ولو كان غريباً في الوطن أو الجنسية ، فقد نصح -عليه السلام- للمصريين ، وهو غريب عن وطنهم وعن جنسيتهم ، فلا ينبغي للعالم إذا وجد في بلد غير بلده أو بين أقوام ليسوا من جنسه ، أن لا يقرأ درس الوعظ والإرشاد ، ولا يقوم بهداية العباد ، بل عليه ذلك اقتداء بهذا النبي الصديق وباقي الأنبياء الكرام ، الذين لم يقتصروا في هدايتهم وإرشادهم على أهل وطنهم ، وذوي جنسيتهم بل عمموا العلم للجميع»[1].

٣٩/٥٤٥- أن الدعوة إلى الحق تكون بالدليل والبرهان.

قال العلمي:

«نتعلم من هذه الآية مع ما قبلها وما بعدها: أن الدعوة إلى الحق لا تكون بالسيف والسنان، ولكن بالدليل والبرهان؛ وذلك كما قال -تعالى-: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، وقال -تعالى-: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١ ﴾ [النساء:٨٠]، وقال -تعالى-: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى:٤٨]، وقال -تعالى-: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٢٢).

عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٤]، و قال -تعالى-: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة:١٢٩]، وقال -تعالى-: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنعام:٦٦]، وقال -تعالى-: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر:٤١]، وقال -تعالى-: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان:٤٣]، وقال -تعالى-: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود:٢٨]، وقال -تعالى-: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون:١-٦]، وقال -تعالى-: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [يونس:٤١]، وقال -تعالى-: ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الشورى:١٥]؛ فمعنى قوله: ﴿ لَا حُجَّةَ ﴾ لا خصومة؛ لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به؛ فلا حاجة إلى المحاجة، وهو على نية مضاف؛ أي: لا إيراد حجة، وقال -تعالى-: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وسبب نزول هذه الآية ما رواه أبو داود والنسائي وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس قال :« كانت المرأة تكون مقلاة؛ أي: لا يعيش لها ولد، فتجعل على نفسها إن عاش لها أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم

من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا»؛ فأنزل الله: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾.

وأخرج ابن جرير من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس قال: نزلت ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف، يقال له: الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلماً، فقال النبي ﷺ: «ألا استَكْرِهْهُما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية»؛ فأنزل الله الآية[1].

وفي بعض التفاسير أنه حاول إكراههما، فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟».

ولابن جرير عدة روايات في نذر النساء في الجاهلية تهويد أولادهم ليعيشوا، وأن المسلمين بعد الإسلام أرادوا إكراه من لهم من الأولاد على دين أهل الكتاب على الإسلام؛ فنزلت الآية، فكانت فصل ما بينهم.

وفي رواية له عن سعيد بن جبير: أن النبي ﷺ قال: عندما أنزلت: «قد خير الله أصحابكم، فإن اختاروكم؛ فهم منكم، وإن اختاروهم؛ فهم منهم».

لقد نقض «بنو النضير»، عهد النبي ﷺ؛ فكادوا له، وهموا باغتياله مرتين، وهم بجواره في ضواحي المدينة، فلم يكن له بد من إجلائهم عن المدينة، فحاصرهم حتى أجلاهم، فخرجوا مغلوبين على أمرهم، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه بإكراه أولادهم المتهودين على الإسلام، ومنعهم من الخروج مع اليهود؛ فذلك أول يوم خطر فيه على بال المسلمين الإكراه على الإسلام، وهو اليوم الذي نزل فيه قوله -تعالى-: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[2].

---

(١) انظر تخريج هذه الأحاديث في كتابنا: «الاستيعاب في بيان الأسباب».

(٢) لا شك أن الدعوة إلى الله تكون بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن للتي هي أقوم، ولكن من وقف عقبة كؤوداً في وجهه الحق وحاول دفعه؛ فإن =

وقبل أن نختم هذا الموضوع نريد أن نذكر قوله -تعالى-: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:٢٠]؛ فهذه الآية نص قاطع في حصر وظيفة الرسول بالبلاغ عن الله»[١].

٣٩/٥٤٦- أنه يبدأ بالأهم فالأهم، فإذا سئل المفتي وكان السائل في حاجة أشد لغير ما سأل عنه أنه ينبغي لـه أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله.

قال السعدي:

«ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم وإنه إذا سئل المفتي وكان السائل في حاجة أشد لغير ما سأل عنه أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله؛ فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه؛ فإن يوسف لما سأله الفتيان عن الرؤيا قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له»[٢].

٣٩/٥٤٧- الداعية إلى الله نموذج للإنسان المؤمن المتفاعل مع دعوته، الناهض بتكاليف دينه، القابس من نور ربه، والمشع على الناس بهداية رب العالمين[٣].

٣٩/٥٤٨- «ينبغي لكل واحد منكم أن يكون نهّازاً للفرص لبث عظاته

= شفاءه في السيف والسنان حتى يكون الدين كله لله وحده، والله المستعان.

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٨٦-٧٨٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٧-٣٨).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥).

ونصائحه وإرشاده في أنفس الناس وإذا لم تعرض له فرصة خلقها»[١].

٣٩/٥٤٩- التوحيد حق الله على العبيد، فإن العباد وحدوه؛ فقد عدلوا ونجوا، وإذ أشركوا؛ فقد ظلموا وهلكوا[٢].

٣٩/٥٥٠ - الدعوة إلى التوحيد، وذم عبادة ما سوى الله -عز وجل-.

قال ابن كثير:

«﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾؛ أي: بأن هدانا لهذا ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾؛ أي: بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو في فطرتهم مركوز وفي جبلتهم مغروز ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله -عز وجل- وَصَغَّر أمر الأوثان وَحَقَّرَها وضعَّف أمرَها؛ فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾؛ أي: وحده لا شريك له ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾؛ أي: المستقيم والصراط القويم، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمة له منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول؛ فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلب منه»[٣].

---

(١) «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النجار (ص١٤٠).

(٢) «مجلة الأصالة» (عدد١١/ ٢٠).

(٣) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

٣٩/٥٥١- الدعوة إلى التوحيد هي سبيل المرسلين جميعاً في الإصلاح.

قال الدكتور ربيع بن هادي المدخلي:

«عاش هذا النبي الكريم -عليه السلام- في القصور وعرف مفاسد الحكم والحكام عن كثب، وذاق من ويلاتهم كيداً وظلماً واضطهاداً وسجناً وعاش بين ظهراني أمة وثنية تعبد الأصنام والأبقار والكواكب فمن أين ينطلق للإصلاح؟ ومن أين تكون نقطة البداية؟!

هل يبدأ في الدعوة إلى الله وهو مسجون ظلماً ويشاركه في السجن مظلومون مثله من إثارتهم وتهييجهم على الحكام الظلمة المستبدين؟! وهذا منطلق سياسي لا شك فيه، والفرصة متاحة أمامه أو يبدأ بالدعوة من حيث انطلق آباؤه الكرام وعلى رأسهم إبراهيم خليل الله وإمام الدعاة إلى توحيد الله ومن حيث انطلق جميع رسل الله؟! لا شك أن طريق الإصلاح الوحيد في كل زمان ومكان هو طريق الدعوة إلى العقيدة والتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده.

إذن؛ فليبدأ يوسف من هذا المنطلق: مقتدياً بآبائه الكرام ومعتزاً بعقيدتهم، ومحقراً ومندداً بسخف المشركين واتخاذهم أرباباً من دون الله من الأصنام والأبقار والكواكب.

وبعد هذا البيان والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك يؤكد دعوته وحجته بقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1] ثم يفسر هذه الحاكمية بتوحيد الله وعبادته

---

(١) قال د. ربيع بن هادي المدخلي في حاشية «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» (٦٤-٦٥): «هذه الآية قاعدة أساسية من قواعد التوحيد؛ كما بين ذلك على لسان يوسف -عليه السلام-، ومن المؤسف جداً أن ترى كثيراً من دعاة الإصلاح السياسيين =

وحده ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾.

ويقول عن التوحيد: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ويصل يوسف -عليه السلام- إلى أعلى منصب في هذه الدولة وهو يدعو إلى توحيد الله، ويقيم على دعوته ونبوته البينات، قال -تعالى- في بيان هذه الأمور: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف:٥٤-٥٥].

وقال شاكراً لمولاه:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف:١٠١].

وقال الله في بيان دعوته وذلك على لسان آل فرعون:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر:٣٤].

= قد ابتعدوا بتفسيرها جداً عن مدلولها الأساسي إخلاص العبادة لله وحده إلى مدلول سياسي، وهو إقامة الدولة التي يزعمون أنها ستطبق شريعة الله في الأرض بالنيابة عنه وبالغوا في هذا الاتجاه حتى أنسوا الناس المعنى الأصيل للآية، ولا يفهمون منها إلا المعنى الجديد، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وهكذا عاملوا كل أو معظم آيات التوحيد».

من فقه سيرة يوسف -عليه السلام- التي عرضتها علينا هذه الآيات الكريمة: أن الدعوة إلى التوحيد أمر لا بد منه، وأن الشرك لا هوادة ولا مداهنة في محاربته؛ فلا يجوز السكوت عنه مهما كانت ظروف الداعية إلى الله، بل لا يجوز لمسلم إطلاقاً أن يحابي ويداهن في أمره، وهذا يبين مكانة العقيدة، وعظم شأنها عند الله وعند أنبيائه ورسله، وأن الفرق والبون شاسع جداً بينها وبين فروع الإسلام.

فلا يجوز أن يكون المسلم خصوصاً الداعية[أن يتولى منصباً يخل بالعقيدة أو يتنافى معها أو] أن يكون كاهناً من الكهنة المشركين أو سادناً لأصنامهم، فإن فعل ذلك كان من المشركين الضالين.

أما الجانب التشريعي؛ فإن قامت دولة الإسلام فلا بد من تطبيق شريعة الله، وإلا ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ والكفر حينئذ على ما فصله علماء الإسلام من الصحابة وغيرهم قد يكون كفراً أكبر إذا كان يحتقر شرع الله ويستحل الحكم بغيره، وقد يكون كفراً أصغر إذا كان يعظم شريعة الله ولا يستحل الحكم بغيرها لكن غلبه هواه؛ فحكم بغير ما أنزل الله.

أما إذا كانت دولة الإسلام غير قائمة؛ فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها وللمسلم أن يتبوأ منصباً في دولة غير مسلمة شريطة أن يقوم بالعدل وأن لا يطيعهم في معصية الله، ولا يحكم بغير ما أنزل الله كما فعل نبي الله يوسف، تبوأ منصب النيابة عن ملك كافر وما كان يحكم بشريعته ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ وكان يقوم بالعدل بين الرعية، ويدعوهم إلى توحيد الله.

وفي هذا ردّ حاسم على من يهون من أمر عقيدة التوحيد، ويجامل ويداجي في قضية الشرك الذي ملأ الدنيا، وينظر إلى دعاة التوحيد وأعداء

الشرك بعين الاحتقار والازدراء ويربأ بنفسه ويشمخ بأنفه أن يهبط إلى مستوى دعاة التوحيد- وهو من دهاة السياسة وما أثقل على سمعه وقلبه أن يسمع أو يقول كلمة توحيد أو شرك.

لقد أوقع هذا النوع من الدعاة أنفسهم في هوّة سحيقة في حين يظنون أنهم في أعلى القمم الشامخة.

وهل يفلح قوم هذا موقفهم من دعوة الأنبياء إلا أن يتوبوا عمّا هم فيه إلى الله توبة نصوحاً»[١].

٣٩/٥٥٢- التوحيد أولاً[٢] وآخراً.

قال العلمي:

«سبب اقتصار يوسف على دعوة صاحبي السجن إلى التوحيد فقط.

الدعوة إلى إصلاح العقائد، ووضع التوحيد محل التوثن: أمر مهم يقصد منه نقل النفوس من ملة إلى ملة، ومعلوم أن تحويل النفوس من عقيدة إلى أخرى صعب جداً على الداعي وعلى المدعو، ولذلك سأل موسى -عليه السلام- ربه أن يشرك معه في الرسالة شقيقه هارون، فقال: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾ [طه:٢٩-٣٢] وبعث عيسى -عليه السلام- إلى أهل أنطاكية برجلين اثنين ليدعوهم إلى الإيمان، فقابلوهما بعناد وتكذيب، فأضاف إليهما ثالثاً يؤيد بعثتهما، قال -تعالى-: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا

---

(١) «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» (ص٦٤-٦٧).

(٢) انظر كتاب شيخنا الإمام الألباني: « التوحيد أولاً يا دعاة الإسلام» طبع جمعية دار البر- دبي.

﴿ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾، إذ أرسلنا إليهم اثنين ليدعواهم إلى الإيمان، فقابلوهما بعناد وتكذيب، فأضاف إليهما ثالثاً يؤيد بعثتهما، قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يس:١٣-١٤]، وبالنظر إلى صعوبة ذلك وأهميته جداً اقتصر يوسف على دعوة صاحبي السجن إلى التوحيد، وأما الإرشاد إلى أحكام الدين العملية- مثلاً- فهو أيسر من إصلاح العقائد ووضع الإيمان موضع الجحود، أو وضع التوحيد موضع التوثن، على أن التوحيد هو الأساس، فيجب البدء بالدعوة إليه أولاً»[1].

٣٩/٥٥٣- المعبود بحق عزيز قهار.

قال العلمي:

«... تعليقاً على قوله ﴿ ٱلْقَهَّارُ ﴾، بخلاف هؤلاء الأرباب التي من دون الله؛ فهي مقهورة وضعيفة، ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت:٤١]؛ فمثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله، مثل العنكبوت تتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل يبني بيتاً بآجر وجبص أو ينحته من صخر، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً، بيت العنكبوت، كذلك أصعب الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً، عبادة الأوثان، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٣٧-٧٣٨).

هذه الكلمة ﴿ ٱلْقَهَّارُ ﴾ تشير إلى أن الرب الإله المعبود لا يجوز أن يكون ذليلاً مقهوراً، بل يجب أن يكــون عزيـزاً غلابـاً، لأن المؤمـن يجـب أن يكـون عزيزاً، فبالأولى يجب أن يكون معبوده عزيزاً»[1].

(١) المرجع السابق (٢/ ٧٤٦).

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

٤٠/٥٥٤- بيان أن المشركين في كل زمان ومكان ما يتبعون في عبادة غير الله إلا أهوائهم[١].

قال ابن قيم الجوزية:

«وإنما عبدوا مسمياتها، والجواب: إنه كما قلتم.

إنما عبدوا المسميات، ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة كاللات والعزى وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة؛ فإنهم سموها: آلهة، وعبدوها؛ لاعتقادهم حقيقة الآلهية لها، وليس لها من الآلهية إلا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى، فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها، وهذا كمن سمى قشور البصل لحماً وأكلها، فيقال: ما أكلت من اللحم إلا مسماه، وكمن سمى التراب خبزاً وأكله، يقال: ما أكلت إلا اسم الخبز بل هذا النفي أبلغ في آلهتهم؛ فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه، وما الحكمة ثم إلا مجرد الأسم؛ فتأمل هذه الفائدة الشريفة في كلامه -تعالى-»[٢].

٤٠/٥٥٥- التنديد بالشرك والمشركين وتسفيه أحلامهم لعبادتهم أسماء لا مسميات لها[٣].

قال أبو حيان:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٥/ ١٩٣).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ١٩-٢٠).

(٣) «أيسر التفاسير» (٥/ ١٩٣)، و«محاسن التأويل» (٦/ ٢٢٦).

«ومعنى {إلا أسماء}: أي: ألفاظاً أحدثتموها أنتم وأباؤكم؛ فهي فارغة لا مسميات تحتها وتقدم تفسير مثل هذه الجملة في الأعراف ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾؛ أي: ليس لكم ولا لأصنامكم حكم ما الحكم في العبادة والدين إلا لله، ثم بين ما حكم به فقال: ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾»[1].

قال البقاعي:

«أي: ذوات أوجدتم لها أسماء ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ لا معاني لها؛ لأنه لا أرواح لها فضلاً عن أن تتحقق بمعنى ما سميتموها به من الإلهية، وإن كان لها أرواح؛ فهي منتف عنها خاصة الإلهية وهي الكمال المطلق الذي يستلزم إحاطة العلم والقدرة»[2].

قال الزمخشري:

«يعني أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية، ثم طفقتم تعبدونها؛ فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها ومعنى»[3].

قال العلمي:

«رمى يوسف صاحبيه وغيرهما من المصريين بحجر واحد، فقال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ بصيغة الجمع، أو يقال: هو لم يرد التحكك بشخصية واحد منهما. ولكنه أراد الانتقاد على عمل عام أطبقت عليه الأمة المصرية، وهو عبادتها لغير الله -تعالى-، والمخاطبان يدخلان في كلامه دخولاً أولياً، رآهم استعبدوا

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٨).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٤٢).

(٣) «الكشاف» (٢/ ٢٥٧).

للأهواء، وخضعوا للأوهام، وحصروا عقولهم في مضايق الخرافات؛ فنعى عليهم سذاجتهم.

تعرض للطعن في دينهم، ولم يبال بما يعلمه من أن كل من تعرض لدين قوم وجد المقاومة الشديدة من الأفراد، ثم من الجماعات، ثم من الدولة نفسها التي يمثلها الملك وبلاطه، لم يبال بذلك؛ لأنه يجب على الإنسان الصدع بالأمر الديني، والجهر بالدعوة الدينية على كل حال، شأن أنبياء الله وهداة دينه»[١].

٤٠/٥٥٦- الدليل الذي يجب اتباعه وينبغي تعظيمه هو ما كان من عند الله في الكتاب والسنة، وأما استحسان البشر؛ فلا يلزم أحد أن يعتني به إلا إذا وافق الدليل والبرهان.

٤٠/٥٥٧- لا حكم في شيء إلا بحكم الله- تعالى-[٢].

قال أبو بكر الجزائري:

«لا حكم في شيء إلا بحكم الله -تعالى-»[٣].

قال القاسمي:

«﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾؛ أي: حجة تدل على صحتها ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ ﴾؛ أي: في أمر العبادة والدين ﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾؛ لأنه مالك وهو لم يحكم بعبادتها؛ لأنه ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾؛ لأن العبادة غاية التذلل؛ فلا

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٤٨-٧٤٩).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٨).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٥).

يستحقها إلا من له غاية العظمة»[(١)].

قال ابن كثير:

«أي: حجة ولا برهان. ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه»[(٢)].

٤٠/٥٥٨- أن الحق ما أحقه الله والباطل ما أبطله، والدين ما شرعه[(٣)].

قال البقاعي:

«أي: الذي لا عوج فيه؛ فيأتيه الخلل من جهة عوجه، والظاهر أمره لمن كان له قلب»[(٤)].

إن قضية الحكم والشريعة والتقاضي ينبغي أن تكون للّه وحده، لا للأهواء المتقلبة، أو المصالح المضطربة، أو للعرف الذي يصطلح عليه جيل أو أجيال، ولا يرجع إلى أصل ثابت في شرع اللّه، وهذا من المعلوم ضرورة في مسائل الإيمان؛ لأنه يقوم على جملة اعتبارات منها:

١- أنها تنبني على الإقرار بربوبية اللّه:

فهو الخالق الذي خلق كل شيء، وله ملك السماوات والأرض وما بينهما: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:٥٤].

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٢٦).

(٢) «مختصر ابن كثير» (٢/ ٢٥٠).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٥).

(٤) «نظم الدرر» (٤/ ٤٢).

وهو الرازق؛ فهل يملك أحدٌ يرزق نفسه أو غيره: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝ ﴾ [الذاريات:٥٧-٥٨]؟

وهذا يقتضي أن يكون الحكم له وحده لا شريك له؛ لأن موجبات العبودية -أعني: الخلق والرزق- تستلزم أن يعبد اللَّه وحده، وأن يكون الحكم للَّه وحده: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [يوسف:٤٠].

٢- الأفضلية المقطوع بها لدين اللَّه على قوانين البشر، هذه الأفضلية التي يشير إليها قوله -تعالى-: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ ﴾ [المائدة:٥٠].

٣- من المعلوم بداهة لذوي العقول السليمة وأولي الفطر المستقيمة: أن الصنعة لا تجعل لنفسها بنفسها قانوناً تسير عليه وتتحرك إليه، وإنما الذي يضع لها ما لها هو صانعها الذي ابتدعها وأبدعها؛ ولذلك فمن الجهل أن يتصور الإنسان أنه بمقدوره أن يجعل لنفسه سنناً يسير عليها لا تحيد، ولا يأتيها النقص من أطرافها، أو يتولد الخلل من أنصافها، أو لا يكون العجز من أكبر أوصافها، ومن ذلك؛ فلا بد من الرجوع إلى شرع اللَّه الذي خلق الإنسان، ويعلم ما يصلح الإنسان وما يصلح عليه حاله: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ ﴾ [الملك:١٤].

٤- من قدّر الشريعة حق قَدْرها علم أن مبناها على الحِكَم ومصالح العباد في الدنيا والآخرة؛ فهي عدل اللَّه بين عباده، ورحمته في خلقه؛ فمن استقام عليها نال حياة القلوب، وظفر بقرة العيون، واعتصم بالعروة الوثقى؛

لأنها العصمة من كلِّ شرٍّ، والسبب في كلِّ خير، وكلُّ نقص في العالم؛ فسببه من إضاعتها.

وعجبي لا ينقضي من قوم هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا لا يرون تمام الترقي إلا في العيش على فُتات موائد الكفار وعبدة الأصنام؛ لظنهم أنهم بلغوا الغاية القصوى في التمدن والترقي، وتناسى هؤلاء أن هؤلاء الكفار قَصَرُوا نظرهم على الدنيا؛ فهي أكبر همهم، ومبلغ علمهم: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝ ﴾ [الروم:٦-٧].

هؤلاء يؤذون أنفسهم وأمتهم؛ لأنهم بدّلوا نعمة اللَّه نكراً، وأحلوا قومهم أخس المنازل؛ فينبغي الأخذ على أيديهم بالتي هي أحسن للتي هي أقوم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝ ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

إن اللَّه -تبارك وتعالى- لم يُحوجنا إلى شيء من الكتب الإلهية السابقة، بل نَحَلَنَا كتاباً مفصلاً لكل شيء على علم من اللَّه -تبارك وتعالى- فكيف يُحوجنا إلى شيء من قوانين البشر وأوضاعهم وأحوالهم وسياساتهم؟! حاشا للَّه ومعاذ اللَّه.

وهذا من كمال أمة الإسلام وفضلها على من قبلها من الأمم؛ فإنها لكمال نبيها وكمال شريعتها لا تحتاج إلى أمر خارج عن كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، فهما عصمة الناس، وقوام العالم، وقطب السعادة في الدنيا والآخرة... فهل من مُدَّكِر؟.

٤٠/٥٥٩- إن هذا الدين دين الحق والعدل والاستقامة من أخذ به لا

يضل أبداً[(١)].

قال ابن كثير:

«أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه»[(٢)].

من يستطيع أن يدّعي أنه أعلم من اللّه بحال الناس، أو أحكم من اللّه في تدبير شؤونهم، أو يدّعي أن أحوالاً وحاجات جرت في حياتهم، وكان اللّه - سبحانه- لا يعلمها وهو يُحْكِم شريعته ويتم نعمته، أو كان عالماً بها ولكنه لم يشرعها؟ وهذا يشير إليه قول اللّه -عز وجل-: ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:١٤٠]، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم:٦٤].

لأن شواهد أفضلية دين اللّه على قوانين البشر لا يحصيها عدّ، ولا يحصرها حدّ، ولكنها تتكشف على مر العصور وكر الدهور، ويضل اللّه الظالمين، ويفعل اللّه ما يشاء.

ومن ذلك:

١- أن دين اللّه شامل متكامل يَنْتَظِمُ جميع أحوال الناس ويُنَظِّمُها، ويتناول بالتنظيم والتوجيه والرعاية كلّ جوانب حياتهم في كل صورها وأشكالها وألوانها، فهو لم يدع شاردة ولا واردة في حياة البشر إلا أحصاها، وأودعها في إمام مبين.

وهذه الحقيقة يدركها حتى أعداء اللّه؛ فقد قالت يهود لسلمان -رضي اللّه عنه-: لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة.

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٢٤) «وأيسر التفاسير» (٢/ ١٧٦).

(٢) «مختصر ابن كثير » (٢/ ٢٥٠).

وقال -تعالى-: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام:١١٤].

٢- وهو دين يقوم على علم الله الذي خلق هذا الكائن البشري، وخلق هذا الكون الذي يعيش فيه؛ فشرع له منهجاً ربانياً إن اختاره الإنسان سلك طريق العبودية التي استقام عليها هذا الكون.

٣- وهو دين متناسق مع سنن الله في الوجود؛ لأنه دين ارتضاه من خلق هذا الكون: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران:٨٣].

٤- وهو الدين الذي يتحرر به الإنسان من العبودية لغير الله.

ففي كلّ مناهج البشر يتعبد الناسَ الناسُ، ويعبدُ الناسُ الناسَ، أما في دين الله؛ فيخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

إن حكم الجاهلية ركام من أهواء البشر وعجزهم وقصورهم، سواء أكان الذي يشرع فرداً لجماعة، أم طبقة لسائر الطبقات، أم جميع الطبقات وجميع القطاعات لأنفسهم؛ لأنه أهواء الناس الذين لا يتجردون من الأهواء أبداً؛ ولأنه جهل الناس الذين لا يتجردون من الجهل أبداً؛ ولذلك فإن الحكم بغير ما أنزل الله شر وشقاء، وفساد وضنك لا ريب فيه.

ومن أصدق من الله قيلاً: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠].

٥٦٠/٤٠- أن الأصنام والأنداد مجرد أسماء لا معنى لها ولا ضرر منها ولا نفع فيها.

قال القرطبي:

«من تلقاء أنفسكم، وقيل: عنى بالأسماء المسميات؛ أي: ما تعبدون إلا

أصناماً ليس لها من الإلهية شيء إلا الاسم؛ لأنها جمادات»[١].

٤٠/٥٦١- على الداعية أن يبذل كل جهد ممكن في زعزعة ثقة المشركين بآلهتهم و إضعاف قوة تمسكهم بدينهم وإزالة كل أثر للشرك في معتقدهم.

٤٠/٥٦٢- كل من عبد غير الله ودعا غير الله فقد جعل لله نداً من غير برهان ولا سلطان.

٤٠/٥٦٣- عدم العلم يوجد الاضطراب، وعدم النفع بالعقل يوجد الوقوع في الشرك.

قال البقاعي:

«أي: ليس لهم علم، لأنهم لا ينتفعون بعقولهم؛ فكأنهم في عداد البهائم العجم؛ فلأجل ذلك هم لا يفردون الله بالعبادة»[٢].

٤٠/٥٦٤- أن الحكم بالشرع والتحاكم إليه من أقسام توحيد العبودية أو الألوهية، وهو ما يسميه بعضهم[٣]: توحيد الحاكمية؛ حيث جعلوه قسماً مستقلاً من أنواع التوحيد الثلاثة وهذا خلاف ما عليه السلف وأتباعهم قديماً وحديثاً.

٤٠/٥٦٥- العاقل المهتدي لا يتبع في الأمور التعبدية إلا ما أنزل الله به حجة عن طريق الرسول ﷺ؛ فلا يتبع في عبادته عادة ولو كانت مألوفة ولا تقليداً، ولو كان سائداً؛ لأن هذا شأن المبتدعين الذين يدعون النصوص الشرعية ويقحمون على الدين ما لم يرد به نصاً شرعياً.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٩٢).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٤٢).

(٣) كالحزبين من الأخوان والقطبيين ومن شاكلهم.

فمن فعل ذلك فقد وقع في المحدثات، كما قال الرسول ﷺ يقول: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»(١).

٤٠/٥٦٦- كل تسمية لا دليل عليها من النقل السماوي؛ فلا تكون من أصول الإيمان ولا من نتائج البرهان.

قال محمد رشيد رضا:

«﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ أي: بتسميتها أرباباً على أحد من رسله ﴿ مِن سُلْطَٰنٍ ﴾؛ أي: أي نوع من أنواع البرهان والحجة؛ فيقال أنكم تتبعونه بالمعنى الذي أراده -تعالى- منه تعبداً له وحده وطاعة لرسله فيكون اتباعها أو تعظيمها غير مناف لتوحيده؛ كاستلام الحجر الأسود عند الطواف بالكعبة المعظمة مع الاعتقاد بأنه حجر لا ينفع ولا يضر، كما ثبت في الحديث؛ فهي تسمية لا دليل عليها من النقل السماوي؛ فتكون من أصول الإيمان، ولا دليل عليها من العقل فتكون من نتائج البرهان»(٢).

٤٠/٥٦٧- أنه لا بد أن يسبق الإيمان بالله وحده الكفر بكل ما سواه، ولهذا كلمة التوحيد مشتملة على هذين المعنيين فـ «لا إله» كفر بجميع الآلهة و «إلا الله» إثبات الإيمان بالله وحده إلهاً (٣).

٤٠/٥٦٨- يجب على المسلم أن يعلم أن الاعتراف بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لا يغني عنه شيئاً حتى يعلم أنه لا إله إلا الله ويعمل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣٠٨).

(٣) «الأصالة» (عدد١١/ ١٨).

بمقتضاها[1].

٥٦٩/٤٠- يوسف -عليه السلام- يعرف الناس آنذاك الدين والعبادة.

قال أحمد نوفل:

«وتأمل تعريف يوسف للدين والعبادة، وهو: ما يجهله المصريون - في ذلك الوقت - فجعل الحاكمية لله هي صورة العبادة العملية الاجتماعية، وهذا هو الدين القويم الصحيح، وهذا هو التدين الحق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الصورة من الدين والتدين، وإنما الذي عندهم خليط الجاهلية والشرك وبقايا قيم سماوية وهنت آثارها في النفوس، وبهت دورها في المجتمع، وصار السلوك العملي في واد والمعرفة النظرية -إن وجدت - في واد آخر.

وما أشبه وضعهم بأحوال مجتمع الجاهلية* الذي واجهه النبي محمد ﷺ؛ فقد كانت فيه كلمات الدين تسمع فهم يحلفون بالله ويتسمون بأسماء تنتسب له مثل عبد الله، ويعظمون بيته ويحجونه، ويعرفون -نظرياً- الحلال والحرام...إلخ»[2].

---

(١) «الأصالة» (عدد١١/ ٢٢).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٧١).

* قلنا: هذا الكلام خطير ولعله مأخوذ من ضلالات سيد قطب في الظلال والذي أكثره ضلال إذا فيه تكفير للمجتمعات الإسلامية ووصفها بالجاهلية بل تفضيل الجاهلية الأولى عليها وكلامه غفر الله له رد عليه العلماء وليس هذا مقام بيان كشفه وانظر ما كتبه الشيخ ربيع بن هادي المدخلي -حفظه الله- في ذلك، والحاصل أن الحزبيين يرددون هذا الكلام الخطير كثيراً وهو أصل انحراف لجماعات التكفيرية المعاصرة.

٤٠/٥٧٠- حكم القرآن بالأحكام الرديئة على الأكثرية الساحقة من الناس.

قال العلمي:

«نقرأ في القرآن المجيد، فنجده دائماً يحكم على الأكثرية الساحقة من الناس بالأحكام الرديئة، كالجهل والكفر إلى الفسق والشرك إلى الإعراض والغدر والجدل ونحو ذلك، وهاكم بعض الشواهد على ذلك:

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٦]، ﴿ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة:٧١]، ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحج:١٨]، ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ ﴾ [النساء:١١٤]، ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة:٣٢]، ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٢]، ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة:٦٨]، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾ [المائدة:٧٧]، ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة:٨٠]، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١١٩]، ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩]، ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ ﴾ [التوبة:٣٤]، ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم:٣٦]، ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ [يس:٦٢]، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [ص:٢٤]، ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣]، ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء:٨٩]، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٧]، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا

يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام:١١٦]، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف:٧٨]، ﴿ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [المائدة:٩٦] ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّا ﴾ [يونس:٣٦]، ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف:١٠٦]، ﴿ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤١]، ﴿ فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [فصلت:٤]، ﴿ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٢] ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴾ [الأنعام:١١١]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

حكم القرآن بالأحكام الحسنة على القليل من الناس

كما إننا في القرآن الكريم، فنجد بصورة مطردة إنما ينسب الطاعة والإيمان والعلم والشكر والفقه وما أشبه ذلك من المحامد للقليل من الناس، وإليك البيان: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [هود:٤٠]، قيل كانوا ثمانين نفراً ﴿ مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ ﴾ [الكهف:٢٢]، ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ ﴾ [ص:٢٤]، ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ ﴾ [البقرة:٢٤٦] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ [البقرة:٢٤٩]، ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ [المائدة:١٣]، ﴿ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء:٦٢]، ﴿ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:١٨]، ﴿ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الفتح:١٥] إلى غير ذلك من آيات الكتاب الكريم، والحالة الطبيعية تؤيد كل ما ورد من هذه النصوص، فإن أهل الشر أكثر جداً وجداً أكثر من أهل الخير في كل مصر وعصر وكل كوخ وقصر»[1].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف»(٢/ ٧٦٣-٧٦٥).

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾.

٤١/٥٧١- الاتفاق في الحال لا يقتضي الاجتماع في المآل.

قال القشيري:

«اشترى في السؤال واشترى في الحكم وفي دخول السجن، ولكن تباينا في المآل، واحد صلب، وواحد قرب ووهب... فمن مرفوع فوق السماك مطلعة، ومن مدفون تحت التراب مضجعه»(١).

٤١/٥٧٢- الرب تطلق على صاحب الشيء أو السيد(٢).

قال البقاعي:

«أي: سيده الذي في خدمته»(٣).

قال أبو بكر الجزائري:

«إطلاق لفظ الرب على السيد كان عند من قبلنا أما نحن أمة الإسلام فقد نهينا(٤) عن ذلك»(٥).

٤١/٥٧٣- «بيان تسمية الشيء الثاني بالآخر في القرآن».

---

(١) «اللطائف والإشارات» (٣/ ١٨٦).

(٢) «زاد المسير» (٤/ ٢٢٧).

(٣) «نظم الدرر» (٤/ ٤٣).

(٤) روى مسلم في «صحيحه» (٢٢٤٩/ ١٥) قوله ﷺ: «لا يقل أحدكم: اسق ربك، اطعم ربك، وضئ ربك، ولا يقل أحدكم: ربي، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي أو أمتي، وليقل: فتاي، فتاتي، غلامي».

(٥) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٥).

٤١/٥٧٤- جواز ابهام ما يسوء السائل عند سؤاله الرؤيا والشيء.

قال البقاعي:

«ولما كان في الجواب ما يسوء الخباز، أبهم؛ ليجوِّز كل واحد أنه الفائز؛ فإن ألجأه إلى التعيين كان ذلك عذراً له في الخروج عن الأليق»(١).

٤١/٥٧٥- «إن كل نعيم زائل إلا نعيم أهل الجنة وكل غم زائل إلا غم أهل النار»(٢).

﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾.

٤١/٥٧٦- ذهبت مثلاً لفض النزاع وقطع الخلاف.

٤١/٥٧٧- ينبغي بذل العلم ونشره بلا تأخر ولا شرط.

قال ابن كثير:

«فبذل يوسف -عليه السلام- ما عنده من الغلم بلا تأخر ولا شرط ولا طلب الخروج سريعاً، بل أجابهم إلى ما سألوه، وعبَّر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب»(٣).

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٤٣).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٣٦٤).

(٣) «البداية والنهاية» (١-٢/ ٢٠٩).

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

٤٢/٥٧٨- «قد يأتي الظن بمعنى اليقين في القرآن»[١].

قال ابن عطية:

«وقوله: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ ﴾ الآية «الظن» هاهنا -بمعنى اليقين؛ لأن ما تقدم من قوله: ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ يلزم ذلك وهو يقين فيما لم يخرج بعد إلى الوجود»[٢].

قال القرطبي:

قوله -تعالى-: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيقن، وفي قول أكثر المفسرين، وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين، قال: إنما ظن يوسف نجاته؛ لأن العابر يظن ظناً، وربك يخلق ما يشاء، والأول: أصح وأشبه، وأن ما قاله للفتيان في تعبير الرؤيا كان عن وحي، وإنما يكون ظناً في حكم الناس، وأما في حق الأنبياء؛ فإن حكمهم حق كيفما وقع»[٣].

قال القاسمي:

«والظن بمعنى العلم واليقين ورد كثيراً، والتعبير به إرخاء العنان وتأدب مع الله -تعالى-، وقيل: الظن: بمعناه المعروف بناءً على تأويل يوسف بطريق الاجتهاد والحكم بقضاء الأمر اجتهادي أيضاً، والأول أنسب بالسياق»[٤].

---

(١) «زاد المسير» (٤/ ٢٢٧).

(٢) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٦).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٩٤).

(٤) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٢٨).

قال الطاهر بن عاشور:

«وفيما حكاه القرآن عن حال سجنهم ما ينبيء على أن السجن لم يكن مضبوطاً بسجل يذكر فيه أسماء المساجين، وأسباب سجنهم، والمدة المسجون إليها، ولا كان من وزعة السجون، ولا ممن فوقهم من يتعهد أسباب السجن، ويفتقد أمر المساجين، ويرفع إلى الملك في يوم من الأسبوع أو من العام.

وهذا من الإهمال والتهاون بحقوق الناس، وقد أبطله الإسلام؛ فإن من الشريعة أن ينظر القاضي أول ما ينظر فيه كل يوم أمر المساجين»[1].

٤٢/٥٧٩- استبشار يوسف ببراءة ساقي الملك.

في طلب يوسف الصديق من ساقي الملك أن يذكر مظلمته عند الملك دليل على استبشار ببراءة ساقي الملك وخروجه من السجن؛ لأمرين:

الأول: أنه وجد في سجنه صاحباً مظلوماً مثله تبرأت ساحته؛ فكان براءة ساقي الملك مقدمة لبراءة يوسف -عليه السلام- وقرب انتهاء معاناته وآلامه، والعامة تقول: «إن مطرت بلاد بشر بلاداً».

الآخر: أنه وجد من يوصل أمره إلى الملك الذي لا يعلم عن مظلمته شيئاً؛ لأن أمور السجن لم تكن منضبطة.

٤١/٥٨٠- إهمال الحكومات الظالمة حقوق الناس.

قول يوسف الصديق لساقي الملك: ﴿ ٱذۡكُرۡنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ دليل على أن هذه الملك لا يعلم من أمر رعيته إلا النزر اليسير، فقصة يوسف مع امرأة العزيز شاع خبرها في المدينة ولم يعلم بها الملك، وسجن مظلوماً ولم يدر بحاله الملك.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٧٩).

٤٢/٥٨١- جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة .

قال القاسمي:

«دلت الآية على جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة وإن كان مشركاً، وقد جاء ذلك في قوله -تعالى-: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ وقوله حكاية عن عيسى: ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وفي الحديث: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»[١] وجليّ أن ذلك من نظام الكون والعمران البشرى ولذلك ميز الإنسان بالنطق»[٢].

قال أبو حيان:

«﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾؛ أي: بعلمي ومكانتي وما أنا عليه مما آتاني الله، أو اذكرني بمظلمتي وما امتحنت به بغير حق، وهذا من يوسف على سبيل الاستعانة والتعاون في تفريج كربه وجعله بإذن الله وتقديره سبباً للخلاص؛ كما جاء عن عيسى -عليه السلام- ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، وكما كان الرسول يطلب من يحرسه، والذي أختاره: أن يوسف إنما قال لساقي الملك: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ليتوصل إلى هدايته وإيمانه بالله؛ كما توصل إلى إيضاح الحق للساقي ورفيقه»[٣].

قال السعدي:

«ومنها: أنه لا بأس بالاستعانة بالمخلوق في الأمور العادية التي يقدر عليها بفعله أو قوله وإخباره؛ كما قال يوسف للذي ظن أنه ناج منهما:

---

(١) صحيح- أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة به.

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٢٨).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٩).

﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾»[(١)].

٤٢/٥٨٢- طروء الغفلة والنسيان من النبي والعالم والداعية وغيرهم.

قال أبو بكر الجزائري:

«غفلة يوسف -عليه السلام- بإقباله على الفتى وقوله له: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ناسياً مولاه الحق ووليه الذي أنجاه من القتل وغيابت الجب وفتنة النساء جعلته يحبس في السجن سبع سنين»[(٢)].

قال الشوكاني:

«ويكون المعنى: فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن ورجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقي الملك، وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء. وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف، ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله -سبحانه-، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون؛ فإذا نسيت فذكروني»[(٣)] ورجح -أيضاً- بأن النسيان ليس بذنب فلو كان الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وأجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك، وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله

---

(١) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف -عليه السلام-» (ص٤٤).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/٦١٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-.

-سبحانه-»[1].

٤٢/٥٨٣- بيان الأخذ بالأسباب للنجاة من البلاء والفتن إيثاراً للعافية.

قال القرطبي:

«في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلاً؛ فإن الأمور بيد مسببها، ولكنه جعلها سلسلة وركب بعضها على بعض؛ فتحريكها سنة، والتعويل على المنتهى يقين»[2].

قال ابن كثير:

«﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

يخبر- تعالى- أن يوسف قال للذي ظنه ناجياً منهما -وهو الساقي-:

﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾؛ يعني؛ اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك.

وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب»[3].

٤٢/٥٨٤- «أن الشيطان لا يترك ابن آدم ويحرص على نسيانه الخير»[4].

قال أبو حيان:

«وإنساء الشيطان له بما يوسوس إليه من اشتغاله حتى يذهل عما قال له

---

(١) «فتح القدير» (٣/ ٢٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٩٨).

(٣) «قصص الأنبياء» لابن كثير (ص٢٩٨- بتحقيق سليم الهلالي).

(٤) «فتح القدير» (٣/ ٢٩).

يوسف لما أراد الله بيوسف من إجزال أجره بطول مقامه في السجن»[١].

٤٢/٥٨٥- البضع من ثلاث إلى تسع.

قال ابن كثير[٢]:

«والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل: إلى السبع، وقيل: إلى الخمس، وقيل: ما دون العشرة؛ حكاها الثعلبي. ويقال: بضع نسوة وبضعة رجال. ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر؛ قال: وإنما يقال: نيف! وقال الله -تعالى-: ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾.

وقال -تعالى-: ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ وهذا رد لقوله[٣].

قال الفراء: ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين، ولا يقال: بضع ومائة، وبضع وألف.

خالف الجوهري[٤] فيما زاد على بضعة عشر، فمنع أن يقل: بضعة وعشرون.. إلى تسعين.

وفي «الصحيح»: «الإيمان بضع وستون شعبة (وفي رواية: وسبعون شعبة)؛ أعلاها قول كلمة لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨٠).

(٢) «قصص الأنبياء» لابن كثير (ص٦٩٦-٢٩٧- بتحقيق سليم الهلالي).

(٣) ويؤيد رد الإمام ابن كثير -رحمه الله- على الفراء -رحمه الله- ما صح عن رسول الله ﷺ: «البضع ما بين الثلاث إلى تسع»؛ صححه شيخنا في « صحيح الجامع» (٢٨٨٧).

(٤) «الصحاح» (٣/ ١١٨٦).

الطريق»[1]».

قال البقاعي:

«وحقيقة البضع من ثلاث إلى التسع»[2].

٤٢/٥٨٦- بيان جواز نسبة النسيان إلى الشيطان.

قال القرطبي:

«يدل ذلك على جواز نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر وهذا بين؛ فتأملوه»[3].

٤٢/٥٨٧- جواز طلب ذكر المحاسن عند الغير مظنه النفع بها والاستفادة منه[4].

قال ابن عطية:

«ومعنى الآية: قال يوسف لساقي الملك حين علم أنه سيعود إلى حالته الأولى مع الملك: اذكرني عند الملك، فيحتمل أن يريد أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق، أو يذكره بهما»[5].

٤٢/٥٨٨- أن جميع الأسباب إنما أثرها بإذن الله ومشيئته.

قال البقاعي:

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٤٤).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٩٨).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٧٩).

(٥) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٧).

«ليعلم أن جميع الأسباب إنما أثرها بالله -تعالى-»[(١)].

٤٢/٥٨٩- احتياج الإنسان للوساطة في قضاء حاجته أو رفع الظلم عادة قديمة.

قال العلمي:

«احتياج الإنسان للواسطة في قضاء حاجته أو رفع الظلم عنه عادة قديمة، وفي الغالب لا تكون إلا إذا كانت الحكومات ظالمة مستبدة، لا يعمل فيها بموجب الشرائع والأنظمة، ولكن بالرأي الفردي وبحسب الشهوة، وهذه الحال السيئة كما كانت في تلك الحكومات المصرية الهكسوسية، فهي سائدة في جميع الأمم، بنسب تتفاوت تبعاً للتربية والأخلاق.

وأذكر أنه مرة سألني سائل فقال: «إن الشريعة كما حصرت العبادة في الله -تعالى- فقد حصرت الاستعانة فيه -أيضاً-، إذ ورد: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾.

فكما أمرنا -تعالى -أن لا نعبد غيره ، لأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فكذلك أمرنا أن لا نستعين بغيره - أيضاً- فأجبته:

إن كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب، التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤداة إليه، وعلى انتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه ، وقد مكن الله -تعالى- الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب ، وحجب عنه البعض الآخر ، فيجب علينا أن نقوم بما في

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٤٤).

استطاعتنا من ذلك ، ونبذل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حـول وقـوة، وأن نتعاون ، ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك ، ثم نفـوض الأمـر فيمـا وراء كسبنا إلى القادر على كل شيء، ونلجأ إليه وحـده ، ونطلـب المعونـة المتممـة للعمل والموصلة لثمرته منه -سبحانه- دون سواه، إذ لا يقـدر علـى مـا وراء الأسباب الممنوحـة لكـل البشـر علـى السـواء إلا مسـبب الأسـباب ورب الأرباب، فقول يوسف ههنا: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ هو من قبيل الاستعانة بالأسباب التي نصبها الله -تعالى-، وجعلها بتوفيقـه ذريعـة للمقصـود، وهـذا الضرب لا مانع منه، كما قال -تعالى-: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾.

ولنضرب لذلك مثلاً: الزارع يبذل جهده في الحرث والغـرس وتسـميد الأرض وريها، يفعل ذلك بنفسه ويستعين بالله -تعالى- على إتمام ذلـك بمنـع الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية، وإشراق الشمس وإنزال المطر الكافي، على سبيل التعاقب بين الشمس والمطر بمقدار اللزوم فالاستعانة بـالعبد علـى القسم الأول جائزة طبعاً وشرعاً، و أما الاستعانة على القسم الثاني؛ فإنما هي بالله وحده»[1].

٤٢/٥٩٠- «فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها وأشد مـن المصيبـة سوء الخلق منها»[2].

٤٢/٥٩١- « من ابتغى الفرج من عند غـير الله عوقـب بذلـك، والتوكـل على الله وطلب الفرج منه يعجل به الله».

٤٢/٥٩٢- «النسيان ليس ذنباً يعاقب عليه الله -تعالى- ».

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٨١-٧٨٢).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٢٣١).

قال محمد رشيد رضا:

«النسيان ليس ذنباً يعاقب الله عليه، وقد قال -تعالى- لخاتم النبيين: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾؛ يعني: الذين أمره بالإعراض عنهم إذا رآهم يخوضون في آيات الله»[١].

٤٢/٥٩٣- من نزلت به شدة فنسي الله حينها وذكر غيره عاقبه الله بنسيانه كما حدث مع يوسف فكان نسيانه سبباً لطول مكثه في السجن.

قال محمد رشيد رضا:

«عطف النسيان على ما قاله للساقي بالفاء؛ يدل على وقوعه عقبه، ومفهومه أنه كان ذاكراً لله -تعالى- قبله إلى أن قاله، فلو كان قوله ذنباً عوقب عليه؛ لوجب أن يعطف عليه بجملة حالية بأن يقال: وقد أنساه الشيطان ذكر ربه - أي في تلك الحالة- فلم يذكره بقلبه ولا بلسانه؛ فاستحق عقابه -تعالى- بإطالة مكثه على خلاف ما أراده من ملك مصر وحده»[٢].

٤٢/٥٩٤- إذا عول العبد في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة والشدة.

قال الفخر الرازي:

«والذي جربته من أول عمري إلى آخره: أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة والشدة والرزية، وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه؛ فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣١٤-٣١٥).

(٢) المرجع السابق (١٢/ ٣١٣-٣١٤).

الوقت الذي بلغت فيه السابع والخمسين؛ فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله -تعالى- وإحسانه، ومن الناس من رجح القول الثاني؛ لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل أولى من صرفها إلى يوسف الصديق، ولأن الاستعانة بالعباد في التخلص من الظلم جائزة»[1].

٤٢/٥٩٥- بصيرة لمن عرف إلى أين مصيره.

اختلف علماء التفسير في الضمير في قوله تعالى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ على قولين:

الأول: أنه عائد على يوسف -عليه السلام-؛ أي: أنساه الشيطان ذكر الله -سبحانه تعالى-؛ فقال لساقي الملك- حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بالمخلوق؛ فعوقب باللبث في السجن بضع سنين.

الثاني: أنه عائد على ساقي الملك الناجي، فهو الناسي؛ أي: أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف لربه.

قلنا: والصواب القول الثاني للوجوه الآتية:

١- الضمير في لغة العرب يعود إلى أقرب مذكور ما لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك.

٢- أن يوسف -عليه السلام- لم ينس ذكر ربه بل كان دائماً ذاكراً له.

---

(١) «تفسير الفخر الرازي» (٩/ ١٤٨-١٤٩).

٣- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ دليل واضح وبرهان لائح على أن ساقي الملك هو الناسي، ولذلك لما رأى الملك رؤياه وعجز جلساؤه عن تعبيرها تذكر ساقي الملك الناسي يوسف -عليه السلام-؛ فولى وجهه نحو السجن يسأل يوسف عن تعبيرها؛ فالمراد أن ساقي الملك عندئذ تذكر يوسف وقد كان قبل ذلك ناسياً لوصية يوسف له عند الخروج من السجن.

٤- أن الحديث المروي في حمل النسيان على يوسف لا يصح، بل هو واه جداً. قال ابن كثير[1] - رحمه الله-:

«وقوله: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾؛ أي: فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف- عليه السلام-؛ قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو الصواب، وهو منصوص أهل الكتاب.

﴿ فَلَبِثَ ﴾: يوسف ﴿ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾:

ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾: عائد على يوسف؛ فقد ضعف ما قاله، وإن كان قد روي عن ابن عباس وعكرمة.

والحديث الذي رواه ابن جرير[2] في هذا الموضع ضعيف من كل وجه،

---

(١) في «قصص الأنبياء» لابن كثير (ص٢٩٧-٢٩٨- بتحقيق سليم الهلالي).

(٢) ضعيف جداً- أخرجه ابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١٢/ ١٣٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ١٩٩/ ١١٩٤٠) من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم يقل يوسف الكلمة التي قالها؛ ما لبث في السجن طول ما لبث» بإسناد ضعيف جداً؛ كما قال ابن كثير -رحمه الله-، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٢): «وفيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي، وهو متروك».

تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي، وهو متروك. ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل، ولا هاهنا بطريق الأولى والأحرى، والله أعلم.

فأما قول ابن حبان «صحيحه»- عند ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن ما لبث-: أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحي، حدثنا مسدد بن مسرهد، حدثنا خالد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾؛ ما لبث في السجن ما لبث، ورحم الله لوطاً، إن كان ليأوي إلى ركن شديد إذ قال لقومه: ﴿ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾. قال: «فما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه»[(١)].

فإنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها، والذي في «الصحيحين» يشهد بغلطها، والله أعلم».

---

(١) منكر؛ دون الشطر المتعلق بلوط -عليه السلام- أخرجه ابن حبان (١٨٦٧)، وضعفه بهذا اللفظ شيخنا في «الصحيحة» (٤/ ٤٨٣-٤٨٤)، وإن خالف ابن كثير في علة الحديث.

وأما الشواهد المرسلة؛ فلا تقوى هذا السند الواهي.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٩٧): «وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما، وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن».

وأما شطره المتعلق بلوط -عليه السلام- ﷺ فتشهد له الروايات الصحيحة وانظر -لزاماً-: «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (ص٢٠٧-٢٠٨- بتحقيق سليم الهلالي).

وإلى هذا ذهب أئمة التفسير وفحول التأويل.

قال ابن كثير:

«والصواب أن الضمير في قوله: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ عائد على الناجي؛ كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد»[1].

وقد فصّل شيخ الإسلام هذا المقام تفصيلاً حسناً فقال: «وقال تعالى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾: قيل: أنسى يوسف ذكر ربه لما قال: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾.

وقيل: بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه، وهذا هو الصواب؛ فإنه مطابق لقوله: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ قال -تعالى-: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ والضمير يعود إلى القريب، إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك، ولأن يوسف لم ينس ربه؛ بل كان ذاكراً لربه.

وقد دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه، وقال لهما: ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠].

وقال لهما قبل ذلك: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ ؛أي: في الرؤيا ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ﴾ ؛ يعني: التأويل ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٩٧)

إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ فبذا يذكر ربه -عز وجل-؛ فإن هذا مما علمه ربه؛ لأنه ترك ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله، وإن كانوا مقرين بالصانع ولا يؤمنون بــالآخرة، واتبع ملـة آبائـه أئمـة المؤمنين- الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره- إبراهيم وإســحاق ويعقـوب؛ فذكر ربه ثم دعاهما إلى الإيمان بربه.

ثم بعد هذا عبر الرؤيـا فقـال: ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ ﴾ الآية، ثم لـما قضـى تـأويل الرؤيـا: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ فكيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه؟ وإنما أنسى الشيطان الناجي ذكر ربه؛ أي: الذكـر المضـاف إلى ربـه والمنسـوب إليه، وهو أن يذكر عنده يوسف.

والذين قالوا ذلك القول، قـالوا: كـان الأولى أن يتوكـل علـى الله، ولا يقول اذكرني عند ربك. فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين.

فيقال: ليس في قوله: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ما يناقض التوكل؛ بل قد قال يوسف: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ ﴾ كما أن قول أبيه: ﴿ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ ﴾ لم يناقض توكلـه؛ بـل قـال: ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

وأيضاً؛ فيوسف قد شهد الله له أنه من عبـاده المخلصـين، والمخلـص لا

يكون مخلصاً مع توكله على غير الله، فإن ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركاً لا في عبادته ولا توكله، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾؛ فكيف يتوكل عليه في أفعال عباده؟!

وقوله: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ مثل قوله لربه: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾؛ فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضاً للتوكل، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه، فكيف يكون قوله للفتى: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ مناقضاً للتوكل وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به؛ ليعلم حاله؛ ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس.

ولهذا بعد أن طلب ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ قال: ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ فيوسف يذكر ربه في هذه الحال، كما ذكره في تلك. ويقول: ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ فلم يكن في قوله له: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ترك الواجب، ولا فعل لمحرم، حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا ظلماً له، مع علمهم ببراءته من الذنب.

قال الله -تعالى-: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾ ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه؛ ليتم بذلك صبره وتقواه، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال؛ ولهذا قال: ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعاً من السجن لم

يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس...

و«المقصود»: أن يوسف لم يفعل ذنبا ذكره الله عنه، وهو -سبحانه- لا يذكر من الأنبياء ذنبا إلا ذكر استغفارا منه، ولم يذكر عن يوسف استغفارا من هذه الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفار من مقدمات الفاحشة؛ فعلم أنه لم يفعل ذنبا في هذا ولا هذا؛ بل هم هما تركه لله؛ فأثيب عليه حسنة، كما قد بسط هذا في موضعه.

وأما ما يكفره الابتلاء من السيئات؛ فذلك جوزي به صاحبه بالمصائب المكفرة؛ كما في قوله ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا هم ولا حزن، ولا غم ولا أذى؛ إلا كفر الله به خطاياه»[1]، ولما أنزل الله -تعالى- هذه الآية ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله! جاءت قاصمة الظهر، وأينا لم يعمل سوءا؟ فقال: «ألست تحزن ألست تنصب؟ ألست تصيبك اللأوى؟ فذلك مما تجزون به»[2].

فتبين أن قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: نسي الفتى ذكر ربه أن يذكر هذا لربه ونسي ذكر يوسف ربه، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول، ويوسف قد ذكر ربه، ونسي الفتى ذكر يوسف ربه، وأنساه الشيطان أن يذكر ربه؛ هذا الذكر الخاص؛ فإنه وإن كان يسق ربه خمرا فقد لا يخطر هذا الذكر بقلبه، وأنساه الشيطان تذكير ربه، واذكار ربه لما قال: ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ أمره بإذكار ربه فأنساه الشيطان إذكار ربه، فإذكار ربه أن يجعله ذاكرا؛ فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكرا ليوسف، والذكر هو

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة -رضي الله عنهما-.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٤٨/ ٣٠٣٩)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١/ ٣٦/ ٧-منتخب)، وأبو يعلى في «مسنده» (١/ ٢٩-٣٠/ ٢١) وغيرهم كثير بسند ضعيف؛ لكن الحديث صحيح المعنى بشواهده الكثيرة، وانظر: «عجالة الرغب المتمني» (١/ ٤٤٥-٤٤٦/ ٣٩٣).

مصدر، وهو اسم فقد يضف من جهة كونه اسماً؛ فيعم هذا كلـه؛ أي: أنسـاه الذكر المتعلق بربه، والمضاف إليه.

ومما يبين أن الذي نسي ربه هـو الفتـى لا يوسـف بعـد ذلـك: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ وقوله: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ دليل على أنه كان نسي فادَّكر[1].

وقال العلمي:

«نسيان الفتى الناجي ذكر يوسـف للملـك وأسـبابه: هـذا ولم يكـن إلا مسافة الطريق حتى أنسى الشيطان الساقي أن يذكـر يوسـف للملـك، بدليـل قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾؛ فـإن الإذكـار إنمـا يكـون بعد النسيان، هذا هو الصواب، ولا يجوز لأحد أن يقول غـيره، إلا أن يكـون قد اعتزل العقل والذوق، بحيث هو لا يعرفهما، وهما لا يعرفانه.

وإنما نسي الشرابي ذكر يوسف للملك، لوسوسة الشيطان إليه بما شـغله عن ذكراه له، حتى ذهب عنه زوال عن قلبه ذكـره، فقربـه مـن الملـك أنسـاه بوعده السابق، وقصر الملك أنساه السجن، وأيام السعادة أنسته أيـام الشـقاء، وأصحابه في البلاط أنسوه صاحبه في حبسه، وحالة السعة والعز جعلته ينسي حالة الضيق والذل، وبعبارة أخرى فرحه بالولائم الـتي كـانت تقـام لـه بعـد خروجه، وبأهله وذويه، وحصوله على منزلته الأولى عند الملك، أصبح شـغله الشاغل، هذه هي الوسائط التي استعملها الشيطان، حتى غفل (الشرابي) عن يوسف، ولكون هذه الأشياء وما إليها هي آلات للشيطان نسب الإنساء إليـه،

---

(١) «دقائق التفسير» (٣/ ٢٥٩-٢٦٣).

ولو أن يوسف -عليه السلام- استقبل من أمره ما استدبر، لما كان قدم للشرابي رجاءه ولكن لا يعلم الغيب إلا الله -عز وجل-.

وهذا النوع من النسيان معهود، وليس ببدع ولا مستبعد، بل هو كثير في تاريخ الأصدقاء، فكأي من يصحبك حال شدته وضيقه، ينساك يوم الرخاء والفرج، بل كثيراً ما ينسي الناس خالقهم في أيام الرغد والرخاء، فلا عجب من أن ينسي (الساقي المصري) (يوسف العبراني) العبد السجين:

وكثيراً من الأولاد لا يذكرون أتعاب والديهم عليهم في صغره، والأصدقاء ينسون أصدقاءهم متى أسندت لعهدتهم عمالة ما، كما أن كثيراً من الأصحاب الفقراء إذا اغتنوا وأيسروا نسوا من كان يألفهم في المنزل الخشن، ونرى كثيراً من أهل الأمراض متى صحوا وشفوا ينسون طبيبهم، كما نرى متعلمين متى تعلموا وأخذوا الشهادات نسوا أساتذتهم، إلى آخر ما هنالك من الضروب والأشكال وقد قال الله -تعالى-: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق:٦-٧]، وقال -تعالى-: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ ﴾ [عبس:١٧]، ثم إن أنس لا أنسى من الأسباب الأساسية لنسيان (الشرابي) ذكر (يوسف) للملك، معاطاته شرب الخمر، فإنَّ شربه، كما يعمل تأثيراً سيئاً في الأخلاق والصحة والإجرام وفي المال وفي قوة الإنتاج، فكذلك يسبب ضعف الذاكرة عند الإنسان ، وكم ظهرت للعقلاء هذه المضار، وكم هالهم أن تكون المسكرات سبباً لإصابات الجنون.

وهذا وإن الفاء في قوله: (فأنساه) ليست تفريعية بمعنى أن الإنساء كان نتيجة عن كون يوسف استعان بغير الله في كشف ما كان فيه، بل هي عاطفية خلافاً للمفسرين، إذا المعنى على ما نفهم أنه حصل أنِ يوسف قال كذا وكذا، ثم فوراً حصل أن الشرابي نسي ما تكلم به معه، هذا هو المعنى اللائق

بمقام يوسف -عليه السلام-، والمناسب للواقع، لا أقل ولا أكثر، فكن لما ذكرناه من الحافظين، وإياك من أن تعرج ههنا على كلام المفسرين»[١].

وقال محمد رشيد رضا:

«﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾؛ أي: أنسى الساقي تذكر ربه، وهو: أن يذكر يوسف عنده على حد ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ منسياً مظلوماً، والفاء على هذا للسببية، وهو المتبادر من السياق، والجاري على نظام الأسباب، ويؤيده قوله -تعالى الآتي قريباً- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾؛ أي: تذكر، إلا أن هذا الاستعمال يحتاج إلى حذف وتقدير. ووجهوه بأنه أضاف المصدر إليه لملابسته له، أو أنه على تقديرك ذكر إخبار ربه، فحذف المضاف وهو كثير، كما أن الإضافة لأدنى ملابسة كثير في كلامهم.

وقيل: أن المعنى: أن أنسي يوسف ذكر ربه، وهو: الله -عز وجل-؛ فعاقبه الله -تعالى- بإبقائه في السجن بضع سنين. وقالوا: إن ذنبه الذي استحق عليه هذا العقاب أنه توسل إلى الملك لإخراجه، ولم يتوكل على الله -عز وجل-، وجاؤا عليه بروايات لا يقبل في مثلها إلا الصحيح المرفوع أو المتواتر منه؛ لأنها تتضمن الطعن في نبي مرسل، ولكن قبلها على علاتها الجمهور كعادتهم، وهو خلاف الظاهر من وجوه:

الأول: عطف الإنساء على ما قاله للساقي بالفاء يدل على وقوعه عقبه، ومفهومه أنه كان ذاكراً لله -تعالى- قبله إلى أن قاله، فلو كان قوله ذنباً

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٧٦-٧٧٧).

عوقب عليه؛ لوجب أن يعطف عليه بجملة حالية بأن يقال: وقد أنساه الشيطان ذكر ربه- أي في تلك الحال- فلم يذكره بقلبه ولا بلسانه، فاستحق عقابه تعالى بإطالة مكثه على خلاف ما أراده من ملك مصر وحده.

الثاني: أن اللائق بمقامه أن لا يقول ذلك القول إلا من باب مراعاة سنة الله -تعالى- في الأسباب والمسببات؛ كما وقع بالفعل؛ فأنه ما خرج من السجن إلا بأمر الملك، وما أمر الملك بإخراجه إلا بعد أن أخبره الساقي خبره، وما آتاه ربه من العلم بتأويل الرؤى وبغير ذلك مما وصاه به يوسف، فإذا كان قد وصاه بذلك ملاحظاً أنه من سنن الله في عباده متذكراً ذلك وهو اللائق به، فلا يعقل أن يعاقبه ربه -تعالى- عليه، وعطف الإنساء بالفاء يدل على وقوعه بعد تلك الوصية؛ فلا تكون هي ذنباً ولا مقترنة بذنب؛ فيستحق عليها العقاب.

الثالث: إذا قيل: سلمنا أنه كان ذاكراً لربه عندما أوصى الساقي ما أوصاه به، ولكنه نسيه عقب الوصية وأنكل عليها وحدها.

قلنا: إن زعمتم أنه نسي ذلك في الحال واستمر ذلك النسيان مدة ذلك العقاب وهو بضع سنين أو تتمتها كنتم قد اتهمتم هذا النبي الكريم تهمة فظيعة لا تليق بأضعف المؤمنين إيماناً، ولا يد عليها دليل، بل يبطلها وصف الله له بأنه من المحسنين ومن عباده المخلصين المصطفين، وبأنه غالب على أمره، وأنه صرف عنه السوء والفحشاء، وكيد النساء.

وإن زعمتم أن الشيطان أنساه ذكر ربه برهة قليلة عقب تلك الوصية ثم عاد إلى ما كان عليه من مراقبته له -عز وجل- وذكره، فهذا النسيان القليل لا يستحق هذا العقاب الطويل، ولم يعصم من مثله نبي من الأنبياء؛ كما يعلم من الوجهين الرابع والخامس.

الرابع: جاء في نصوص التنزيل في خطاب الشيطان ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ

لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢]، وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠١] فالتذكر بعد النسيان القليل من شأن أهل التقوى.

الخامس: إن النسيان ليس ذنبا يعاقب الله -تعالى- عليه، وقد قال -تعالى- لخاتم النبيين: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨]؛ يعني: الذين أمره بالإعراض عنهم إذا رآهم يخوضون في آيات الله.

السادس: إنهم ما قالوا هذا إلا لأنهم رووا فيها حديثا مرفوعا على قلة جرأة الرواة على الأحاديث المرفوعة المسندة في التفسير، وهو ما أخرجه ابن جرير الطبري في تفسير الآية عن سفيان بن وكيع عن عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله»[1] ، ونقول: إن هذا الحديث باطل؛ قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث ضعيف جدا: سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي أضعف منه أيضا. وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما. وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبل المرسل مِن حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وأقول أولا: إن ما قاله في هذين الراويين للحديث هو أهون ما قيل فيهما ومنه أنهما كانا يكذبان.

---

(١) انظر ما تقدم (ص ٥٠٠).

وثانياً: إنه يعني بقوله: «ههنا»: الطعن في نبي مرسل بأنه كان يبتغي الفرج من عند غير الله، وهو الجدير بأن لا تحجبه الأسباب الظاهرة عن واضعها ومسخرها وخالقها عز وجل. ويعني بقوله: «لو قبل المرسل من حيث هو» ما هو الصحيح عند علماء الأصول وهو عدم الاحتجاج بالمراسيل، وسنتكلم على المراسيل في التفسير في الكلام الإجمالي عن روايات هذه السورة وأمثالها في الخلاصة الإجمالية لتفسيرها إن شاء الله -تعالى-، وما رواه الكلبي وغيره عن وهب ابن منبه وكعب الأحبار من خطاب الله تعالى وخطاب جبريل ليوسف وتوبيخه على الاستشفاع بآدمي مثله؛ فهي من موضوعات الراوي والمروي عنهما -جزاهم الله ما يستحقون-؛ فتبين بهذا أن التفسير المأثور في الآية باطل رواية ودراية وعقيدة ولغة وأدباً»[1].

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣١٣-٣١٥).

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

٥٩٦/٤٣- من دقائق الإعجاز العلمي القرآني.

قال الطاهر بن عاشور:

«والتعريف في ﴿ ٱلْمَلِكُ ﴾ للعهد؛ أي: ملك مصر. وسماه القرآن هنا ملكاً ولم يسمه فرعون؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكاً لمصر أيام حكمها (الهكسوس)، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة؛ أي: البدو. وقد ملكوا بمصر من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٥٢٥، قبل ميلاد المسيح- عليه السلام-. وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط، إذا كانت عائلات القبط قد بقي حكم في مصر العليا في مدينة (طيبة) كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ ﴾. وكان ملكهم في تلك المدة ضعيفاً لأن السيادة كانت لملوك مصر السفلى. ويقدر المؤرخون أن ملك مصر السفلى في زمن يوسف- عليه السلام- كان في مدة العائلة السابعة عشرة.

فالتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر في زمن موسى- عليه السلام- بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي. وقد وقع في التوراة إذا عبر فيها عن ملك مصر في زمن يوسف -عليه السلام- فرعون وما هو بفرعون؛ لأن أمته ما كانت تتكلم بالقبطية وإنما كانت لغتهم كنعانية قريبة من الآرامية والعربية، فيكون زمن يوسف -عليه السلام- في آخر أزمان ملوك الرعاة على اختلاف شديد في

ذلك»[١].

وقال العلمي:

«عبر القرآن الكريم على كبير مصر الذي كان في عهد يوسف بلفظ «ملك» ولم يعبر بلفظ «فرعون»؛ لأن هذا الملك «الملك الريان» لم يكن من «القبط» بل كان من البدو الغرباء المحتقرين المكروهين في نظرهم، وقد كان في اصطلاح المصريين الأقباط أن لا يطلقوا كلمة «فرعون» إلا على من كان مستولياً على مصر استيلاء شرعياً وكان مصرياً قحاً، وليس دخيلاً أو مستعمراً، وعلى هذا جرت عادة كتاب الله أن يراعي الاصطلاحات المعروفة عند أهلها، وهو ما فهمته في توجيه تسمية حاكم مصر في زمن يوسف بلفظ «ملك» في خمسة مواضع من هذه السورة الكريمة، منها ما جاء في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها، ومنها قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ وقوله: ﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ وقوله: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾؛ فهذه خمسة مواضع أطلق الله فيها على حاكم مصر بصورة متمادية لقب «ملك» لا لقب «فرعون» ولكنه في سائر السور سمى ملوك مصر الوطنيين« فراعنة» جرياً على اصطلاح «القبط»؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ [القصص:٨]، وقوله -تعالى-: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨] وقوله -تعالى-: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم:١١].

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٠).

وبعد كل ذلك نعلم غلط جميع المؤرخين من أهل التاريخ القديم والحديث العرب واليهود والنصارى، وكذا المفسرين والمحدثين، في تسميتهم «ملك مصر» في زمن يوسف باسم «فرعون»؛ لأنه مخالف للواقع، ولاصطلاح أهل ذلك الزمن، ولكتاب الله -تعالى-، وقد تبع التوراة في هذه التسمية جمهور المفسرين والمؤرخين، أو كأن المسلمين أخذوا تسمية الرعاة بالفراعنة عمن دخل في الإسلام من أهل الكتاب، فقلدوهم في ذلك، حتى اتصل بالمفسرين، والناس - كما قال ابن تيمية- أسراب طير يتبع بعضهم بعضاً، وليعذرني القارىء الكريم في مخالفتي لجميع من ذكر، فالهدهد رد على سليمان...

وعندنا أن هذا من جملة البراهين على أن القرآن وحي يوحى، وليس من تأليف البشر؛ لأنه لو كان كذلك، لاتبع القرآن ما هو المشهور عند أهل الكتاب، المتداول على ألسنتهم، المكتوب في أسفارهم، من تسمية«ملك مصر» في زمن يوسف باسم(فرعون) كما هو كذلك في توراتهم وغيرها من كتب اليهود المقدسة عندهم»[(١)].

٤٣/٥٩٧- «جواز أن الرؤيا الصالحة قد يراها الكافر والفاسق»[(٢)].

٤٣/٥٩٨- إذا أراد الله تفريج كربة أحد جعل لذلك سبباً.

قال القرطبي:

«قوله -تعالى-: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ لما دنا فرج يوسف- عليه السلام- رأى الملك رؤياه؛ فنزل جبريل -عليه السلام-

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٩٤-٧٩٦).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٢١٧).

فسلم على يوسف وبشره بالفرج، وقال: إن الله مخرجك من سجنك، وممكن لك في الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك؛ وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي: كيت وكيت، وتأويلها: كذا كذا؛ فما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج؛ فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف؛ بلاء وشدة، وجعلها آخرا؛ بشرى ورحمة»[(١)].

قال السعدي:

«لما أراد الله -تعالى- أن يخرج يوسف من السجن أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة التي تأويلها يتناول جميع الأمة؛ ليكون تأويلها على يد يوسف؛ فيظهر من فضله ويبين من عمله ما يكون له رفعة في الدارين»[(٢)].

٤٣/٥٩٩- إن الملك إذا حزبه أمر هرع إلى بطانته ومساعديه و أشراف قومه.

قال القرطبي:

«فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر وأشراف قومه؛ فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ ﴾ فقص عليهم فقال القوم: ﴿ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ﴾ قال ابن جريج: قال لي عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا»[(٣)].

قال أحمد نوفل:

«ولقد عرض الملك رؤياه على مستشاريه، وقد يكون من بينهم عرافون

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٩٨).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٦).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٩٩).

وكهنة وسحرة وكان هؤلاء يشكلون مجلس الملـوك؛ يستشـيرونهم إذا حزبـت الأمور واكفهرت، ومن الطبيعي أن يهرع الملك إلى المـلأ الذيـن هـم حاشـيته وبطانته وكهنته يعرض عليهم رؤياه حتى يعبروها له»[١].

٤٣/٦٠٠- «الملأ هم أشراف القوم وأعيانه والبطانة المقربون»[٢].

قال أبو حيان:

«والملأ: أشراف دولته وأعيانهم الذين يحضرون عند الملك»[٣].

٤٣/٦٠١- معجزة كل نبي في زمانه تناسب أهل ذلك الزمان.

قال ابن كثير:

«كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان:

فذكروا أن موسى- عليه السلام- كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه، وكانوا سحرة أذكياء، فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب، ولـما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيـده الله وأجـرى الخـارق علـى يديه تصديقاً له؛ أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا.

وهكذا عيسى ابن مريـم ؛ بعـث في زمـن الطبائعيـة الحكمـاء، فأرسـل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنى لحكيم إبراء الأكمـه- الـذي هو أسوأ حالاً من الأعمـى- والأبـرص والمجـذوم ومـن بـه مـرض مزمـن؟! وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟ هذا- مما يعلم كـل

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٠٢).

(٢) «المصدر نفسه».

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨١).

أحد- معجزة دالة على صدق منْ قامت به وعلى قدرة من أرسله.

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين؛ بعث في زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلفظه معجز، تحدي بـه الإنـس والجـن أن لا يـأتوا بمثلـه أو بعشر سور من مثله أو بسورة، وقطـع بأنـهم لا يقـدرون لا في الحـال ولا في الاستقبال»[1].

قلنا: ومن ذلك معجزة يوسف -عليه السلام- كانت تعبير الرؤيا؛ فـإن القبط اشتهروا بذلك في ذلك الزمان.

قال ابن عاشور:

«وكان تعبير الرؤيا مما يشـتغلون بـه، وكـان الكهنـة منـهم يعدونـه مـن علومهم ولهم قواعد في حل رموز ما يراه النائم. وقد وجـدت في آثـار القبـط أوراق من البردي فيها ضوابط وقواعد لتعبير الـرؤى، فـإن اسـتفتاء صـاحبي السجن يوسف -عليـه السـلام- في رؤييـهما ينبـيء بـأن ذلـك شـائع فيـهم، وسؤال الملك أهل ملئه تعبير رؤياه ينبيء عن احتواء ذلك الملأ على من يظـن بهم علم تعبير الرؤيا، ولا يخلو ملأ الملك من حضور كهان من شـأنهم تعبـير الرؤيا»[2].

وقال محمد رشيد رضا:

«... ولكن قدماء المصريين كانوا يعنون بها»[3].

---

(١) «قصص الأنبياء» لابن كثير (ص ٧١٢ -بتحقيق سليم الهلالي).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨١).

(٣) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣١٨).

٤٣/٦٠٢- احتياج الملوك للعلماء.

قال العلمي:

«نتعلم من قول الريان للملأ الذين هم الكهنة والكتبة والحكماء: أن الملوك مهما كانوا من ذوي الأيد والشدة، لا يستغنون عن أهل العلم، يستنيرون بنور علومهم، في دياجي الحوادث، فكم من ملك بنى القلاع والحصون، وقاد الجيوش، واستكثر من السلاح والكراع، وأوغل في الفتح ودوخ البلاد، واستعبد الأمم، وعاش في الغبطة والسرور، ومع كل هذا لم يستغن عن سؤال العلماء، والاستفادة من معارفهم، فقول «الريان بن الوليد» ههنا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ ﴾ قول يتضمن احتياج الملوك للعلماء وكفى بهذا شرفاً للعلم وأهله»[١].

٤٣/٦٠٣- يغلب على الحلم أن يرى ولا يسمع.

قال العلمي:

«تعليقاً على قوله: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ ﴾ قلما يحلم الإنسان حلماً تحتوي مادته على لغة وكلام، وإنما الأكثر أن يرى الحلم ولا يسمع، وهو لذلك يسمى «رؤياً» فنحن في معظم أحلامنا خرس لا نتكلم وإنما نرى فقط... ويوجد في هذه السورة خمسة مرائي:

الأولى: رؤيا يوسف أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له.

والثانية: رؤيا رئيس السقاة أنه يعصر خمراً.

والثالثة: رؤيا رئيس الخبازين أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه.

والرابعة والخامسة: ورؤيا الملك البقرات ثم رؤياه السنابل، وكل ذلك رؤياه،

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٧٩٦-٧٩٧).

لم تحتو مادته على لغة وكلام، ولكن على شيء منظور، نعم في ذلك أفكار مجسمة ، وتجسيم الأفكار هو الأصل في الرموز.

ففي الرؤيا الأولى، علو يوسف وشرفه مجسم في ذاته المسجود لها، وخضوع إخوته مجسم في ذوات إخوته الساجدين.

وأما في الرؤيا الثانية؛ فرجوع رئيس السقاة إلى رتبته عند الملك هو مجسم في عصر الخمر للملك.

وأما في الرؤيا الثالثة؛ فصلب رئيس الخبازين هو مجسم في الخبز المعلق فوق رأسه.

وأما في رؤيتي الملك؛ فالخصب مجسم في أشخاص البقرات السمان والسنابل الخضر، والجدب مجسم في أشخاص البقرات العجاف والسنابل اليابسات، فالأفكار والآراء تتجسم للرائي في الحلم أشخاصاً أو أشياء»[1].

٤٣/٦٠٤- إمكان رؤية حلمين في نوم واحد.

قال العلمي:

عندي كلمة لا بد من التصريح بها، وهي أن بعضهم سئل: هل يمكن أن يرى الإنسان في منامه حلمين من مراد واحد يتكرران في ليلة واحدة: فأجاب بأن هذا من الممكن، بل من المرجح، لأن الإنسان يحلم بما يشغل باله، فإذا كان هذا الشاغل قوياً تكرر حدوثه، بل إذا تذكرنا حلمي مليك مصر وهما من نوع واحد وفي ليلة واحدة، قلنا: إنه واقع وثابت»[2].

٤٣/٦٠٥- ارتباط الثروة الحيوانية بالثروة الزراعية.

---

(١) «المرجع السابق» (٢/ ٧٩٦-٧٩٧).

(٢) «المرجع نفسه» (٢/ ٧٩٩).

قال أحمد نوفل:

«وقد يخطر بالبال سؤال: أما يكفي أن تكون الرؤيا مشتملة على أحد الصنفين فقط السبع بقرات أو السبع سنبلات.

والجواب -والله أعلم-: أن هذا التعدد إما للتأكيد، وإما أن الإشارة بالسبع بقرات إلى الثروة الحيوانية، وبالسبع سنبلات إلى الثروة الزراعية، ومعلوم مقدار ارتباط الثروة الزراعية بالثروة الحيوانية خاصة في تلك المجتمعات في ذلك الزمن»[١].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٠٢).

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝﴾.

٤٤/٦٠٦- «أن الحق لا يعرف بالكثرة بدليل عجز الكثرة عن تأويل رؤيا الملك».

٤٤/٦٠٧- دور البطانة في توجيه الحاكم.

عن أبي سعيد وأبي هريرة -رضي الله عنهما-: أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله»[1].

قال أحمد نوفل:

«... وقد يكونون عرفوا تأويلها لكنهم خشوا أن يقولوا الحقيقة، وأرادوا أن يطمئنوا الملك ولو طمأنة خادعة على حساب الحقيقة ومصلحة الملك ومصلحة الأمة...

وهنا نقول: إن البطانة لكل حاكم دورها مهم خطير جداً أن تكون ناصحة جريئة في قول ما تعتقد أنه الحق ولا تخشى، ولا تقول الذي يرضي عنها الحاكم مؤقتاً معجلاً ولو جنت على الأمة وعليه وعلى نفسها»[2].

٤٤/٦٠٨- الرؤيا أنواع: منها أهاويل الشيطان ومنها ما هو من النفس ومنها ما هو من الله.

قال أبو بكر الجزائري:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ١٦٤-١٦٥).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٠٣).

«الرؤى نوعان: حلم من الشيطان ورؤيا من الرحمن»[1].

قال أبو حيان:

«وأضغاث جمع ضغث؛ أي: تخاليط أحلام، وهي ما يكون حديث النفس أو وسوسة الشيطان أو مزاج، وأصله: أخلاط النبات، استعير للأحلام، وجمعوا الأحلام وأن رؤياه واحدة؛ إما باعتبار متعلقاتها إذ هي أشياء، وإما باعتبار جواز ذلك كما تقول فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرساً واحداً تعليقاً بالجنس، وإما بكونه قص عليهم مع هذه الرؤيا غيرها، والأحلام جمع حلم»[2].

٤٤/٦٠٩- إظهار فضل العالم على أقرانه إنما يكون عند عجزهم وقدرته على ما عجزوا عنه.

قال السعدي:

«وهذا -أيضاً- من لطف الله بيوسف -عليه السلام-؛ فإنه لو عبرها ابتداء قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم؛ فعجزوا عن الجواب وكان الملك مهتماً لها غاية فعبرها يوسف؛ فوقعت عندهم موقعاً عظيماً.

هذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شيء؛ فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى -عليهم السلام-

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٧).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨١).

فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدا ﷺ؛ فيقول: أنا لها، أنا لها؛ فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، فسبحان من خفيت ألطافه ودقت في إيصال البر والإحسان إلى خواص أصفيائه وأوليائه»(١).

٦١٠/٤٤- من شروط الرؤيا الصادقة أن تكون واضحة غير مختلطة.

قال القرطبي:

«﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ قال الزجاج: المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له؛ لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل، وقيل: نفوا عن أنفسهم علم التعبير.

والأضغاث على هذا الجماعات: من الرؤيا التي منها صحيحة ومنها باطلة؛ و لهذا قال الساقي: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾؛ فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل؛ لا أنهم ادعوا لا تأويل لها.

وقيل: إنهم لم يقصدوا تفسيرا، وإنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله، وعلى هذا -أيضا-؛ فعندهم علم .

«والأحلام»: جمع حلم، والحلم -بالضم- ما يراه النائم، تقول منه: حلم بالفتح واحتلم، وتقول: حلمت بكذا وحلمته قال:

فحلمتها وبنو رفيدة دونها ... لا يبعدن خيالها المحلوم

أصله الأناة، ومنه الحلم ضد الطيش؛ فقيل لما يرى في النوم: حلم؛ لأن

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٦-١٧).

النوم حاله أناة وسكون ودعة»[١].

وقال أبو السعود:

«﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾؛ أي: تخاليطها، جمع ضغث، وهو في الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحزم، ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان وتراها في المنام.

والأحلام: جمع حلم، وهي: الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها، والإضافة على معنى من؛ أي: هي أضغاث من أحلام، أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤول إليها ويعتنى بأمرها، وجمعوها ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ وهي رؤيا واحدة مبالغة في وصفها بالبطلان، أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات والسنابل»، ثم قال: «فتأمل حسن موقع الأضغاث مع السنابل، فلله در شأن التنزيل»[٢].

٦١١/٤٤- الرؤيا على أول ما تعبر.

قال القرطبي:

«وفي الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أول ما تعبر؛ لأن القوم قالوا: ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ ولم تقع كذلك؛ فإن يوسف فسرها على سني الجدب والخصب، فكان كما عبر، وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر؛ فإن عبرت وقعت»[٣].

قلنا: كذا قال -رحمه الله- والقول المردود عليه هو قول المعصوم ﷺ:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٠).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٨١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠١).

«إن الرؤيا تقع على ما تعبر، ومثل ذلك مثل رجل رفع رجله؛ فهو ينتظر متى يضعها، فإذا رأى أحدكم؛ فلا يحدث بها إلا ناصحاً أو عالماً»[١].

قال شيخنا الإمام العلامة الألباني -رحمه الله- في «السلسلة الصحيحة» (١٢٠) معلقاً على حديث «الرؤيا على رجل طائر...».

«والحديث صريح بأن الرؤيا تقع على مثل ما تعبر، ولذلك أرشدنا رسول الله ﷺ إلى أن لا نقصها إلا على ناصح أو عالم؛ لأن المفروض أن يختار أحسن المعاني في تأويلها ، فتقع على وفق ذلك، لكن مما لا ريب فيه أن ذلك مقيد بما إذا كان التعبير مما تحتمله الرؤيا ، ولو على وجه، وليس خطأ محضاً، وإلا ؛ فلا تأثير له حينئذ. والله أعلم.

وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام البخاري في كتاب التعبير من «صحيحه» بقوله (٤/ ٣٦٢): «باب من لم ير الرؤيا لأول عابر إذا لم يصب».

ثم ساق حديث الرجل الذي رأى في المنام ظله، وعبرها أبو بكر الصديق، ثم قال: فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت! أصبت أم أخطأت؟ قال النبي ﷺ: «أصبت بعضاً، وأخطأت بعضاً».

ولذلك فكلام القرطبي مردود من وجوه:

الأول: أنه في مقابل النصوص الصحيحة الصريحة، وما كان كذلك؛ فهو رد على صاحبه.

الثاني: أنه استنباط خطأ وفهم مغلوط للآية ؛ فإن الملأ لم يعبروا الرؤيا، وقولهم: ﴿ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ﴾ لا يعد تأويلاً، ولذلك قالوا: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴾.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩١) بإسناد صحيح على شرط البخاري.

الثالث: أن الذي عبر رؤيا الملك هو يوسف -عليه السلام- لا الملأ.

الرابع: أن قول الملأ لو كان تأويلاً؛ فهو خطأ محض، وهو على هذا الوجه لا تأثيراً له، والله أعلم.

٦١٢/ ٤٤- أن الأحلام المختلطة لا تأويل لها، وهي: ما يكون من حديث النفس[1].

قال الزمخشري:

«﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ :تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان، وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحزم، الواحد ضغث؛ فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنى من؛ أي: أضغاث من أحلام، والمعنى هي أضغاث أحلام؛ فإن قلت: ما هو إلا حلم واحد فلم قالوا أضغاث أحلام فجمعوا؟

قلت: هو كما تقول فلان يركب الخيل، ويلبس عمائم الخز، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً، وماله إلا عمامة فردة؛ تزيّداً في الوصف، فهؤلاء- أيضاً – تزّيدوا في وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه أضغاث أحلام، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة خاصة؛ فيقولوا: ليس لها عندنا تأويل؛ فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم، وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام في شيء»[2].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٠).

(٢) «الكشاف» (٢/ ٢٥٨)، وانظر -لزاماً-:« محاسن التأويل» (٩/ ٣٥٤٦- ٣٥٤٧).

قال السمرقندي:

«يعني: ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل، وقال أهل اللغة: كل رؤيا لا تأويل لها؛ فهي أضغاث أحلام ؛أي: أباطيل الأحلام، وإحداها: ضغث»[1].

٤٤/٦١٣- أنه ينبغي أن لا يهجم على علم التأويل؛ لأن ذلك من الاجتراء حيث أنه علم التأويل من شعب النبوة.

٤٤/٦١٤- أن الذين يُمنحون هذا العلم قلة جداً من بين الآلاف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٤٤/٦١٥- «قد يرى الإنسان رؤى وأحلاماً؛ فإن كان ما يراه قابلاً للتأويل؛ فليسأل عنه من يقدرون على تأويله .أما إن كان ما يراه حلماً من الشيطان؛ فليتجاوز عنه، ولا يذكره لأحد»[2].

---

(١) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦٣).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٠).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

٦١٦/٤٥- عند جهنية الخبر اليقين.

قال ابن عاشور:

«وابتداء كلامه بضميره وجعله مسنداً إليه وخبره فعلي؛ لقصد استجلاب تعجب الملك من أن يكون الساقي ينبىء بتأويل رؤيا عوصت على علماء بلاط الملك، مع إفادة تقوّي الحكم، وهو إنباؤه إياكم بتأويلها؛ لأن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في سياق الإثبات يفيد التقوّي، وإسناد الإنباء إليه مجاز عقلي؛ لأنه سبب الإنباء، ولذلك قال: ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾. وفي ذلك ما يستفز الملك إلى أن يأذن له بالذهاب إلى حيث يريد؛ ليأتي بنبأ التأويل، إذ لا يجوز لمثله أن يغادر مجلس الملك دون إذن. وقد كان موقناً بأنه يجد يوسف- عليه السلام- في السجن أنه كان سجن الخاصة؛ فكان ما يحدث فيه من إطلاق أو موت يبلغ مسامع الملك وشيعته»[1].

٦١٧/٤٥- قد يطلق لفظ الأمة على جماعة غير العاقلين.

قال القرطبي:

«والأمة: الجماعة الكثيرة من الناس.

قال الأخفش:

---

(١) «التحرير والتحرير» (١٢/ ٢٨٣).

هو في اللفظ واحد، وفي المعنى جمع، وكل جنس من الحيوان أمة، وفي الحديث: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها[١]» [٢].

٦١٨/٤٥- «ويطلق لفظ الأمة على الفترة والمدة من الزمن وغيره»[٣]

قال السمرقندي:

«ثم تستعمل الأمة في الأشياء المختلفة، يقال للإمام: أمة؛ كقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل:١٢٠]؛ لأنه سبب للاجتماع، ويسمى الدين أمة؛ كقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف:٢٢]؛ أي: على الدين؛ لأن القوم يجتمعون على دين واحد، فيقام ذلك اللفظ مقامه، ويسمى الحين أمة؛ كقوله: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف:٤٥] وكقوله: ﴿ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [هود:٨] إنما سمي الحين أمة؛ لأن الأمة من الناس ينقرضون في حين؛ فيقام الأمة مقام الحين»[٤].

وقال ابن عاشور:

«ومعنى ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ : بعد زمن مضى على نسيانه وصاية يوسف - عليه السلام-.

والأمة: أطلقت هنا على المدة الطويلة، وأصل إطلاق الأمة على المدة الطويلة هو أنها زمن ينقرض في مثله جيل، والجيل يسمى أمة، كما في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠] على قول من حمله

---

(١) «صحيح الجامع الصغير» (٤١٠٢).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠١).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٥٢).

(٤) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦٤).

على الصحابة، وإطلاقه في هذه الآية مبالغة في زمن نسيان الساقي»[١].

٤٥/٦١٩- «ويطلق لفظ الأمة على الملة والعقيدة والتقليد الأعمى»[٢].

قال أبو بكر الجزائري:

«﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف:٢٢]: أنهم لا حجة لهم إلا التقليد الأعمى لآبائهم»[٣].

٤٥/٦٢٠- ثمار الإحسان تظهر على أصحابها كما يقال: من ثمارهم تعرفونهم.

قال العلمي:

«نتعلم من هذه الآية أنه ما دل مليك مصر على يوسف الصديق، وعرفه بفضله إلا ذلك المصري (رئيس السقاة) لما سبق أنه سمع منه الحكمة والفوائد الجليلة، مع ما عهد إليه يوسف من ذكره لمليكه، فأثمر عنده الإحسان ووفى بالوعد، وإن طال بعد طول العهد»[٤].

٤٥/٦٢١- سجن يوسف -عليه السلام- في موضع على النيل قرب ثمانية أميال منه على جبل مرتفع[٥].

قال ابن عطية:

«ويرسم الناس اليوم سجن يوسف في موضع على النيل بينه وبين

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٧٣).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦٤).

(٣) «أيسر التفاسير» (٤/ ٦٣٢).

(٤) «مؤتمر تفسير يوسف» (٢/ ٨٠٨).

(٥) يسمى -الآن- سجن القلعة في جبل المقطم.

الفسطاط ثمانية أميال»[1].

قال محمد رشيد رضا:

« ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ إليه أو إلى السجن فهو فيه، وروي عن ابن عباس: أن السجن كان خارج البلد، وفي خطط المقريزي: قال القضاعي: سجن يوسف ببوصير من عمل الجيزة، أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان»[2].

٤٥/٦٢٢- «عندما تواجه الأمة مشاكل حيوية؛ فعلى العلماء المتخصصين أن يضعوا الحلول الصحيحة لهذه المشكلات، ويخططوا لها تخطيطاً سليماً»[3].

٤٥/٦٢٣- إذا أراد الله أمراً هيأ له الأسباب؛ وفتّح إليه الأبواب.

قال أحمد نوفل:

«وعندما يأذن الله -تعالى- بانفراج الأزمة عن عبده، بعد هذه السنوات التي شاء الله أن يربيه فيها على تحمل المشقات والصعاب وعلى الإحساس بآلام الأمة ومعاناة أصحاب المعاناة، حتى إذا استلم الدفة كان شاعراً بهم مدركاً لآلامهم عاملاً على تخفيف معاناتهم..

أقول: عندما أذن الله بالفرج هيأ الأسباب حيث حرّكت رؤيا الملك ذاكرة الساقي، زمان كان لموضوع مثل هذا الموضوع، ولا لحادثة مثل حادثة الساقي مع يوسف، وما كان لها أن تنسي لولا الحكمة العظيمة، وإذا كان

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٩).

(٢) « تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣١٨).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣١).

نسي والعهد قريب، أفيذكر الآن والعهد بعيد؟ ...إنها الحكمة.

لقد أثارت الرؤيا ما كان دفن من عـهد بيوسـف، فـهتف السـاقي: مـن دبت فيه حياة بعد موت: أنا أنبئكم بتأويلـه، وتـأمل الثقـة: ﴿ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم ﴾؛ فهو قاطع جازم بأنه سيعود بالتفسير، فقط أرسـلوه، ويطـوي السـياق الزمـن والمسافة وإذ بنا من بلاط الملك ننتقل إلى حيث يوسف يقبـع في السـجن كـل هذه السنين، وما نالت السنون من معنوياته شيئاً»[١].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٠٥-٤٠٦).

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

٤٦/٦٢٤- سل مجرباً.

انطلق الساقي يعدو في ذهابه حتى كاد يخرج من إهابه واثقاً أنه سيأتي بالخبر اليقين؛ لأنه جرّب صدق يوسف ورأى صحة تعبيره، وقد قيل: سل مجرباً ولا تسل حكيماً.

قال العلمي:

«ولما أتاه قال له يا: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ البليغ في الصدق، لقد تعودنا أن نسمع حديثك، وفتواك الصحيحة، التي ذقت أحوالها وتعرفت صدقها في تأويل رؤياي ورؤيا صاحبي حيث قد جاءت كما أولت لنا، فنرجوك الآن ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ ﴾ وإن أمكنك أن تكون الفتيا في هذه الجلسة فذاك هو المطلوب حيث الحاجة ماسة والمسألة مستعجلة... ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ وهم الملك وحاشيته ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ التأويل أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك»[1].

٤٦/٦٢٥- جواز وصف الإنسان بما فيه من غير إطراء.

قال أبو بكر الجزائري:

«جواز وصف الإنسان بما فيه من غير إطراء؛ كقوله:﴿ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾»[2].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٠٩-٨١٠).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٧).

٤٦/٦٢٦- ينبغي إعذار الإنسان، وعدم لومه وتعنيفه ولو سبب حرجاً لغيره.

قال السعدي:

«﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴾ إلى يوسف؛ لأسأله عنها؛ فأرسلوه؛ فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه بل استمع ما يسأله عنه وأجابه عن ذلك»(١).

قال العلمي:

«كان الشرابي يتوقع أن يوسف سيذّكره بما كان رغب إليه فيه، ويعاتبه على عدم قيامه به، ولكن يوسف -عليه السلام- لم يفعل؛ إما ترفعاً عنه، أو كرم أخلاق منه»(٢).

٤٦/٦٢٧- الصّديق كل من آمن بالله ورسله أو عرف بكثرة صدقه.

قال السمرقندي:

«والصديق كثير الصدق؛ يعني: أيها الصادق فيما عبرت لنا»(٣).

قال ابن عطية:

«المعنى: فجاء الرسول -وهو الساقي- إلى يوسف؛ فقال له: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ -وسماه صديقاً من حيث كان جرّب صدقه في غير شيء- وهو بناء مبالغة من الصدق»(٤).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٧).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨١٢).

(٣) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦٤).

(٤) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٩).

قال العلمي:

«الصديق من غلب عليه الصدق وعرف به، كالسكير لمن غلب عليه السكر، هذا إذا لوحظ أخذه من الصدق، كما هنا، وقد يلاحظ في موضع آخر أخذه من التصديق، وهو المبالغة في تصديق الأنبياء وكمال الإيمان بهم، وذلك كما في لقب «الصديق» لأبي بكر -رضي الله عنه-، ومن إطلاق «الصديق» بالمعنى الأول، قوله -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم:٤١]، وقوله -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ [مريم:٥٦]، ومن قبيل إطلاق الصديق بالمعنى الثاني قوله -تعالى-: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ ﴾ [المائدة:٧٥] بدليل: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا ﴾ [التحريم:١٢].

ويطلق الصديق على كل من آمن بالله والرسل؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ ﴾ [الحديد:١٩] فمن هذه الآيات الكريمة نعلم أن كلمة «صديق» أطلقت في كتاب الله -تعالى- على إدريس وإبراهيم ويوسف، بمعنى، ثم على مريم وكل مؤمن بالله والرسل بمعنى آخر.

هذه كلمة ولنا كلمة أخرى، وهي أن الصديق رتبة من أربع رتب رسمية، ولقب من ألقاب أربعة سماوية، وهي نبي، صديق، شهيد، وصالح وهؤلاء الأربعة هم المنعم عليهم في قوله -تعالى-: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:٧] والدليل على ذلك كله قوله -تعالى-: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

﴿ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩]»[١].

وقال ابن عاشور:

«والصديق: أصله صفة مبالغة مشتقة من الصدق، كما تقدم عند قوله -تعالى-: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ في سورة العقود، وغلب استعمال وصف الصديق استعمال اللقب الجامع الكمال، واستقامة السلوك في طاعة الله -تعالى-؛ لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوي صدقه في الوفاء بعهد الدين.

وأحسن ما رأيت في هذا المعنى كلمة الراغب الأصفهاني في «مفردات القرآن» قال: «الصديقون هم دون الأنبياء».

وهذا ما يشهد به استعمال القرآن في آيات كثيرة مثل قوله: ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾، ومنه ما لقب النبي ﷺ أبا بكر بالصديق في قوله في حديث رجف جبل أحد «اسكن أحد؛ فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[٢]. من أجل ذلك أجمع أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم علي بن أبي طالب على أن أبا بكر -رضي الله عنه- أفضل الأمة بعد النبي ﷺ.

وقد جمع الله هذا الوصف مع صفة النبوة في قوله: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم:٥٦]»[٣].

٤٦/٥٢٨- بيان وجوب الأدب والتوقير مع الأنبياء وورثتهم.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨١٤-٨١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٥) من حديث أنس -رضي الله عنه-.

(٣) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٤).

قال العلمي:

«قال علماؤنا: يجب الأدب مع النبي ﷺ في حين خطابه، أخذاً من قوله -تعالى-: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ [النور:٦٣]؛ فلا يجوز أن يخاطب يا محمد أو يا أحمد ، ولكن بلقب الرسول والنبي ونحوهما مما فيه احترام له -عليه السلام-، ولو قيل: يا محمد خاتم النبيين مثلاً جاز، لأنه وإن كان نداء باسمه، لكنه قد أتبع بلقب احترام.

ولقد التزم «الشرابي» الآن هذا الأدب مع يوسف -عليه السلام- حيث أتبع لفظ العلم بلفظ اللقب»[(١)].

٤٦/٦٢٩- إن الكريم يلين إذا استعطف واللئيم يقسو إذا ألطف[(٢)].

٤٦/٦٣٠- بيان أن العالم المفتي مثل السراج من مر به اقتبس منه[(٣)].

٤٦/٦٣١- الصدق جماع الأخلاق ومعدن الفضائل وأساس التقوى من أخذ به؛ فقد أخذ بحظ وافر من الخير[(٤)].

٤٦/٦٣٢- يوسف -عليه السلام- ذكر اسمه في ستة وعشرين آية من القرآن الكريم وقد وصفه الله بالصديق وهو من أشهر أنبياء بني إسرائيل»[(٥)].

٤٦/٦٣٣- يوسف -عليه السلام- نال وصف الصديق من صدقه البالغ، وتأويله الصحيح لرؤيا السجينين.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨١٥).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٤٥١). بتحقيق الأخ مشهور حسن سلمان

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤٧٧).

(٤) «مجلة الأصالة» (عدد١٧/ ٤٩).

(٥) «مجلة الأصالة» (عدد١٧/ ١٠٢).

قال أحمد نوفل:

«وصف يوسف بالصديق الذي انطلقت من لسان الساقي صار من الأوصاف الملازمة لاسم يوسف -عليه السلام- فلا يترجم له في الغالب إلا مقترناً الاسم والوصف: يوسف الصديق. وإنما حاز هذا الوصف من صدقه البالغ وتأويله الصحيح لرؤيا السجينين»[1].

٤٦/٦٣٤- تعبير الرؤيا كان سبباً ظاهراً في نجاة يوسف الصديق.

قال أحمد نوفل:

«تبدو الرؤيا سهلة واضحة لا تحتاج إلى شديد إعمال الذهن، ولكن الله -عز وجل- ادخر تفهيمها لعبده يوسف حتى تكون هذه المسألة سبباً ظاهراً في خروج يوسف»[2].

٤٦/٦٣٥- الوصف بالإفتاء أكمل من الوصف بالإنباء.

قال أحمد نوفل:

«عبر الساقي هنا بقوله: افتنا، وأول مرة قال له الفتيان: نبئنا بتأويله، وفي قوله: افتنا مزيد من التكريم والاحترام ليوسف -عليه السلام-؛ إذ فيه نعت له بوصف الإفتاء الذي هو يتضمن الإنباء وزيادة نعت للمتصف له بالكرم، إذ مادة الفتيا والفتوة تلتقيان، والفتوة النجدة والكرم.

ووصف في المرة الأولى بمجرد الإنباء دون الإفتاء؛ لأنهم ظنوا فيه العلم وتوسموه فيه، وصدق ما توسموه وزيادة؛ فزادوا على وصفه بالإنباء؛

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٤٠٧).

(٢) المرجع السابق (ص ٤٠٨).

فوصفوه بالإفتاء»[١].

٤٦/٦٣٦- العلم يجلب احترام الخلق للعالم.

قال أحمد نوفل:

«ذكر يوسف باسمه هنا ولم يذكر في المرة الأولى باسمه عندما طلب منه السجينان تفسير رؤييهما أول مرة.

وفي هذا لفتة أن يوسف -عليه السلام- قد شق لنفسه بذلك التأويل وبعقله السديد ورأيه الراجح، شق له طريقاً إلى قلوب الناس واحترامهم»[٢].

٤٦/٦٣٧- حسن السؤال يوصل إلى المقصود.

قال العلمي:

«مما يستحق الذكر أن رئيس السقاة لم يبين ليوسف من هو الذي رأى هذه الرؤيا، وتتميماً لهذا التستر، تجده ذيل استفتاءه بقوله: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ عبر بهذا بدلاً من أن يقول: أفتنا في رؤيا رآها الملك وهي كيت وكيت، ثم يذيل سؤاله بأن يقول: لعلي أرجع إلى الملك لعله يعلم، فما هي النكتة يا ترى في ذلك؟

وعندنا أن الداعي لذلك هو: أن رئيس السقاة خاف من يوسف لو علم أن الحلم هو حلم الملك أن لا يؤوله إلا بعد خروجه من السجن، ووقوفه أمام الملك، مشترطاً ذلك توصلاً لخروجه من معتقله؛ فلما ظن ذلك، وهو حريص على تأويل الحلم، وحريص -أيضاً- أن يسمع الملك تأويل حلمه من

---

(١) المرجع نفسه (ص ٤٠٨).

(٢) المرجع السابق نفسه (ص ٤٠٧).

فم يوسف، بل من فمه؛ لينال حظه عند الملك بذلك؛ فلهذا ستر الحالم ودحر تفصيل الواقعة دحرا»[١].

٤٧/٦٣٨- وجوب الاستعداد وأخذ الحيطة وإعداد العدة للطوارئ.

قوله: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾؛ أي: ما يجب أن يعملوا بعد العلم به، فيأخذوا أهبتهم واستعدادهم؛ فرجوعه إلى الناس مما يشعر أن الأمر لا يختص بالملك بل بالملك والملأ والرعية.

قال ابن عاشور:

«والمراد بالناس بعضهم؛ كقوله -تعالى-: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾.

والناس هنا هم الملك وأهل مجلسه؛ لأن تأويل تلك الرؤيا يهمهم جميعا»[٢].

وقال أحمد نوفل:

«...والظاهر لعلهم يعلمون تأويل هذه الرؤيا، فيعدون لها أهبتها، ويحذرون الحذر المطلوب»[٣].

وقال:

«قوله: ﴿ أَفۡتِنَا ﴾، وفي آخر الطلب: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾، ولم يقل: أفت الملك ولعلي أرجع إلى الملك، يحتمل أكثر من تفسير، فمع إحسان الظن بالساقي؛ فهي تحتمل أن قضية الرؤيا التي قصها على

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨١٣)

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٥).

(٣) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٠٧).

يوسف أكبر من أن تكون مسألة شخصية تخص الملك، وإنما هي كما تنبأ الساقي تعم الشعب وتتعلق بمستقبله ومصالحه ولذلك عمم، فقال: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾»[1].

٤٦/٦٣٩- تنبيه لكل نبيه.

زعم بعض المصنفين في تفسير سورة يوسف: أن الساقي كان حريصا على الشهرة ويخطط لمآربه الخاصة!! لأنه زعم أنه سيأول الرؤيا ولم ينسب الرؤيا للملك!!!

وهذا توهم ليس له قوائم، ويدل سياق القرآن على خلافه من وجوه:

الأول: يوجد بين قوله: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴾ وقوله: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ إيجاز لطيف مقبول معهود، فقد حذف من الكلام ذكر إرساله ومشيه ووصوله؛ إذا لا غرض فيه من القصة، وهذا من بديع الإعجاز، وهو ضرب من الإعجاز ونظائره في القرآن الكريم كثيرة نحو خمسمائة موضع أو تزيد[2].

الثاني: قوله: ﴿ فَأَرۡسِلُونِ ﴾ دليل على أنه يريد أن يسأل ويستفتي من عنده علم ذلك، ولو كان هو مدعيا لذلك فما حاجته إلى الذهاب ثم الإياب، ومن ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان!

الثالث: أن الملك طلب حضور يوسف لديه ليكون خالصا له، وهذا أبلغ دليل أن الساقي أخبر الملك أن صاحب التأويل هو يوسف الصديق.

---

(١) المرجع السابق (ص ٤٠٨).

(٢) وانظر: «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨١٥-٨١٧)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٤).

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

٦٤٠/٤٧- في حالة الطوارئ يجب استنفار كل طاقات الشعب.

قال أحمد نوفل:

«وبادر يوسف ليفسر الرؤيا وحسب، ولكن يرسم خطة علمية تستغرق القطر كله والشعب المصري كله: ﴿ تَزْرَعُونَ ﴾، وتستغرق سنين بطولها: ﴿ سَبْعَ سِنِينَ ﴾، والسؤال الذي قد ينشأ عند سماع كلامه: أليس الشعب المصري يزرع، فما الجديد في كلام يوسف؟ إن الجديد في مقدار التعبئة وتجنيد الطاقات وحشد القوى، ثم فرق آخر في نسبة تشغيل طاقة كل فرد.

وإن في كل فرد فينا طاقات ضخمة لو يكتشفها، ثم ينظمها ويجندها لقضية من القضايا، ضمن خطة عامة تستغرق الأمة بكاملها. ونذكر كيف أن النبي ﷺ وصحابته الكرام أنجزوا حفر الخندق على طول المدينة وباتساع ما لا يقل عن ثلاثة أمتار وبعمق مناسب لا نتصوره يقل عن مترين. كل ذلك في غضون أيام لم تصل أسبوعين.

هذا هو التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة للوقت، ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد في الأمة، وهذا الذي كان يخطط له يوسف وعبر عنه بكلمة تزرعون.

وإن الذي يخطط له يوسف باختصار هو مضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك؛ لأن الأزمات والظروف الاستثنائية تحتاج إلى سلوك استثنائي، ولئن كان سلوك الناس في الأزمات عين سلوكهم في الظروف العادية:

استرخاء وبطالة؛ فإن هــذه الأمـة تكـون في حـال خطـير يحتـاج إلى عـلاج.. ومعالج خبير»[١].

٤٧/٦٤١- المجتمع المصري مجتمع زراعي.

قال ابن عاشور:

«عبر الرؤيا بجميع ما دلت عليه؛ فالبقرات لسنين الزراعـة، لأن البقـرة تتخذ للإثمار. والسمن: رمز للخصب. والعجف: رمز للقحط. والسـنبلات: رمز للأقوات؛ فالسنبلات الخضر رمز لطعـام ينتفـع بـه، وكونـها سـبعا رمـز للانتفاع به في السبع السنين، فكل سنبلة رمز لطعام سـنة، فذلـك يقتاتونـه في تلك السنين جديدا.

والسنبلات اليابسات رمز لما يدخر، وكونها سبعا رمز لادخارها في سبع سنين؛ لأن البقرات العجاف أكلت البقرات السمان ، وتأويل ذلـك: أن سـني الجدب أتت على ما أثمرته سنوات الخصب.

وقولـه: ﴿ تَزْرَعُونَ ﴾ خـبر عمـا يكـون مـن عملـهم، وذلـك أن الـزرع عادتهم، فذكره إياه تمهيد للكلام الآتي ولذلك قيده بـ ﴿ دَأَبًا ﴾»[٢].

قال العلمي:

«أصل الدأب مصـدر دأب في العمـل إذا كـدح فيـه واجتـهد؛ وعليـه؛ فمعناه: تجدون في هذا الأمر، وتصرفون فيه عنايتكم، وتفرغون فيه مجـهودكم، وقد يوضع موضع ما عليه الإنسان من شـأنه وحالـه، فيكـون بمعنـى: العـادة والديدن، وحينئذ تفيد المادة الـدوام والاسـتمرار؛ أي: تزرعـون سـبع سـنين،

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٠٨-٤٠٩).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٦).

على حسب عادتكم وشأنكم وسابق عملكم، قال -تعالى-: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ [آل عمران:١١]، وقال: ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [غافر:٣١]؛ أي: مثل عادتهم الجارية المستمرة الدائمة، ويجوز أن يكون لفظ ﴿ دَأَبًا ﴾ هنا ظرفا زمانيا، بمعنى دائما؛ لأن الدائب هو الدائم، والمعنى: دائما في كل مدة السبع سنين؛ كما قال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم:٣٣]؛ أي: يدأبا في سيرهما، ويجدان على مدى الأيام.

والحاصل إن لكلمة ﴿ دَأَبًا ﴾ ثلاثة معان في اللغة:

المعنى الأول: الجد والتعب.

والمعنى الثاني: الشأن والعادة.

والمعنى الثالث: السوق الشديد.

والمعنى الثالث يرجع للمعنيين الأولين؛ لأن شأن أهل مصر وعوائدهم المعروفة عنهم في الزراعة، هو الجد والتعب فيها والسوق الشديد.

فالمصريون أول من عني بالزراعة، كما ذكره المؤرخون؛ وبالنتيجة، فكل واحد من المعاني الثلاثة للكلمة ﴿ دَأَبًا ﴾ يرمي إلى التوصية بالنشاط والعناية في واجبات زراعتهم لمدة السنين السبع، وهذا أمر لازم وضروري جدا؛ لأن الاتكال على الطبيعة وحدها لا يكفي»[١].

٤٧/٦٤٢- بقاء القمح في سنبله يمنع تسوسه ويبقى سليما أطول مدة.

قال محمد رشيد رضا:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٢٤).

«﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾؛ أي: فكل ما حصدتم منه في كل زرعة؛ فاتركوه؛ أي: ادخروه في سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة إليه»(١).

وقال القرطبي:

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ قيل: لئلا يتسوس، وليكون أبقى، وهكذا الأمر في ديار مصر»(٢).

وقال ابن عاشور:

«وأشار إلى إبقاء ما فضل عن أقواتهم في سنبله؛ ليكون أسلم له من إصابة السوس الذي يصيب الحب إذا تراكم بعضه على بعض؛ فإذا كان في سنبله دفع عنه السوس»(٣).

٦٤٣/٤٧- مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية والأخروية، وهذا فضل من الله ورحمته.

قال القرطبي:

«هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور؛ فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئا منها؛ فهو مفسدة، ودفعه مصلحة؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله -تعالى- وعبادته الموصلتين إلى السعادة

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣١٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٣).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٧).

الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله -عز وجل- ورحمة رحم بها عباده، من غير وجوب عليه، ولا استحقاق؛ هذا مذهب كافة المحقّقين من أهل السنة أجمعين؛ وبسطه في أصول الفقه»(١).

٦٤٤/٤٧- بيان معجزات الأنبياء وأن لكل نبي معجزة خاصة.

٦٤٥/٤٧- تكون الإشارة في الأمر بالرأي النافع والصواب.

قال البقاعي:

«قال أبو حيان: أشار برأي نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل»(٢).

٦٤٦/٤٧- أن أرض مصر أرض زراعة منذ عهدها الأول(٣).

٦٤٧/٤٧- كمال يوسف في حسن تعبير الرؤى شيء عظيم(٤).

٦٤٨/٤٧- أقسام الرؤى الصادقة.

قال العلمي:

«قد علم من تعبير يوسف لحلمي «الملك» وحلمي «الشرابي» و«الخباز»: أن الأحلام الصحيحة على ثلاثة أقسام:

منها: ما يَسُرُّ حتماً، نظير حلم رئيس السقاة السابق.

ومنها: ما يسوء صاحبه قطعاً، وليس له رد ولا فيه حيلة، ومثاله ما رآه رئيس الخبازين.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٣)، وانظر: «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٨).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٥٢).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٩).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٦١٩).

ومنها: ما يدعو إلى السرور. وربما خيف منه إذا لم تستعمل فيه الحكمة، ويفعل فيه ما يلطفه، مثل حلمي «الملك» المذكورين؛ فهو كما قلنا: لا يدعو إلى الفرح والاطمئنان، ولا يرتاح له القلب، لكن إذا وفق فيه الإنسان لاستعمال الحكمة وسلوك سبيل الاقتصاد وتدبير هذا الحادث الهام تلطفت هذه النازلة، فما رآه «الملك» هو من قبيل القضاء السماوي الذي يمكن تخفيفه بالألطاف الإلهية، على يد عبيده الحكماء، أهل البصرة والبصيرة، على حسب ما أشار إليه يوسف عليه السلام»[١].

٤٧/٦٤٩- ترغيب الناس في التحرك والتكسب بانبعاث ذاتي لا بأمر خارجي.

قال أحمد نوفل:

«قوله ﴿ تَزْرَعُونَ ﴾ خبر يراد به الأمر، وهذا في القرآن كثير، ومن مراميه أنه يريد الناس أن يتحركوا بانبعاث ذاتي لا بأمر خارجي»[٢].

٤٧/٦٥٠- غالباً ما يكون الوعظ والدعاء في المشاهدة دون المغايبة.

قال أحمد نوفل:

«لم يقدم الدعوة إلى الله على تعبير هذه الرؤيا كما فعل في المرة الأولى؛ لأن هذا السائل هو الذي دعاه في المرة الأولى؛ فإما أنه قد قبل، وإما أنه لم

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٢٣).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٤٢٦)، وانظر «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣١٩).

يقبل؛ فلا داعي للإعادة وصاحب الرؤيا الثانية كان الملك وكان غائباً والوعظ والدعاء لا يكون إلا في المشاهدة دون المغايبة»(١).

٤٧/٦٥١- يوسف -عليه السلام- كان عالماً بطريقة تسييس الناس وتحصيل منافعهم.

قال أحمد نوفل:

«ومما أعان يوسف على كسب احترام الشعب أنه تقدم -لأول مرة- ببرنامج عمل محدد واضح، وأنه حذرهم من أخطار المستقبل إن لم يتداركوا أنفسهم، وأعانه كذلك سمعة طيبة نقية بلغت القاصي والداني.

كل ذلك كفل ليوسف نجاحاً باهراً وجعل منه الإداري الذي لا يبارى. بعد التخطيط للإنتاج، هناك التخطيط الذي لا يقل أهمية: التخطيط للتخزين وللاستهلاك ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾.

فائدتان نأخذهما من النص:

أولاهما: التخزين في السنابل، وهذا يحفظ القمح من التسوس والفساد.

ثم فائدة أخرى: في تقنين الاستهلاك أو ما يعبر عنه بلغة العصر: التموين بالبطاقات»(٢).

٤٧/٦٥٢- أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه.

قال السعدي :

---

(١) المرجع السابق (ص٤٢٦).

(٢) المرجع السابق نفسه (ص ١٤٠).

«ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده في دينه ودنياه؛ فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده؛ فإن يوسف -عليه السلام- لم يقتصر على تعبير الرؤيا للملك بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع وكثرة جبايته»(١).

٤٧/٦٥٣- الاقتصاد نصف العيش.

قال ابن عاشور:

«وأشار عليهم بتقليل ما يأكلون في سنوات الخصب لادخار ما فضل عن ذلك لزمن الشدة؛ فقال: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾»(٢).

قال محمد رشيد رضا:

« ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ في كل سنة من هذه السنين مع مراعاة القصد والاكتفاء بما يسد حاجة الجوع؛ فإن الناس يقنعون في سني الخصب والرخاء بالقليل»(٣).

قلنا: والاقتصاد في العيش وعدم الإسراف والتبذير محمود في شريعة الإسلام؛ قال الله -تعالى-: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف:٣١].

وقال -عز وجل-: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان:٦٧].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٨).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٧).

(٣) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣١٩)

وقال جل شـأنه: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء:٢٩].

وقال ﷺ: «ثلاث منجيات وثلاث مهلكات: أما المنجيات؛ فتقوى الله في السر والعلن، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى...»[1].

(١) حسن؛ كما في «الصحيحة» (١٨٠٢).

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

٤٨/٦٥٤- بيان صحة رؤيا الكافر وأنه قد يرى ما هو حق.

قال القرطبي:

«هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها تخرج على حسب ما رأى، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن؛ فكيف إذا كانت آية لنبي، ومعجزة لرسول، وتصديقاً لمصطفىً للتبليغ، وحجة للواسطة بين الله -جل جلاله- وبين العباد»[١].

قال أبو بكر الجزائري:

«وفي هذه دليل على رؤيا الكافر، وأنه قد يرى ما هو الحق، وذلك بتدبير الله -تعالى-»[٢].

٤٨/٦٥٥- جواز ادخار الطعام لحين الحاجة إليه.

٤٨/٦٥٦- «إقرار لقاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»[٣].

٤٨/٦٥٧- بيان عدم كتم العلم، وبيانه في الحال، ولو ممن ظلمك أو أساء إليك.

قال العلمي:

«... أجابهم يوسف على الفور، ولم يشترط أن يخرجوه لقاء ذلك؛ لأنه كريم، وشأن الكريم: عدم الإبطاء والإخلاص في الإعطاء... أفتاه يوسف مع

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٤).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٩).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٦١٨).

أنه كان عهد إليه بتوسطه عند مليك مصر ولم يفعل، وإنما بسط له التدبير اللازم وكيفية تلطيف هذه الأزمة التي ستحل بالمصريين، مع أن المصريين هم الذين سجنوه ظلماً؛ لأن النصيحة من الإيمان، وكاتم العلم ملعون، ولأن الذي سجنه إنما هو واحد، وكذلك الذي نسي أن يذكر حال يوسف ومظلمته للملك إنما هو - أيضاً- واحد، فكيف يبخل يوسف بالعلم وحسن التدبير بذنب رجل أو رجلين؟»[١].

٤٨/٦٥٨- «أن أحسن العلماء علماً من أحسن تقدير معاشه ومعاده تقديراً لا يفسد عليه واحد منهما بصلاح الآخر»[٢].

٤٨/٦٥٩- سنو يوسف عذب الله بها المخالفين لنبيه وصفيه محمد ﷺ وهي من جملة العذاب الذي يرسله الله على من شاء من خلقه.

وكان الرسول ﷺ يدعو؛ فيقول في دعائه: «اللهم انج الوليد بن الوليد وسلمه بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين، اللهم شدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»[٣].

٤٨/٦٦٠- الصدق لا يأتي إلا بخير.

قال أحمد نوفل:

«صدق يوسف في تعبير رؤيا السجينين ووقوع الأمر على وفق ما قال؛ جعل لكلامه احتراماً ومهابة، ولو جامل بحجة الحرص على معنويات

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨١٩-٨٢٠).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٤٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥).

السجينين لخسر هذا الاعتبار؛ فالصدق لا يأتي إلا بخير، ولا يكون من نتائجه إلا الخير، وإن بدا مرّاً في أول الأمر»[(١)].

٤٨/٦٦١- الرائد لا يكذب قومه.

قال العلمي:

«أضاف يوسف إلى قوله السابق قوله: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ سنون ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ جمع شديدة ﴿ يَأْكُلْنَ ﴾؛ أي: يأكلن أهلهن ﴿ مَا ﴾ كنتم ﴿ قَدَّمْتُمْ ﴾ وادخرتم ﴿ لَهُنَّ ﴾ وهو الذي تركتموه في سنبله سابقاً ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ تحرزون وتخبئون لأجل بذر الأراضي في العام الخامس عشر.

ففي هذه الآية تابع يوسف -عليه السلام- تعبير رؤيا الملك بقوله: تأتي بعد سني الخصب السبع السابقة سنون سبع شداد ما بين حمر، وبين بيض، تجدب فيها الأرض، ويقل ماؤها، وتغور عيونها، ويذوي نبتها، وييبس شجرها، فلا وابل ولا طل، ولا رش ولا رذاذ.

سنون سبع شداد تأتي باللازبة، ويعم الناس فيها العُدْم.

سبع شداد حالقة، حارقة، تأتي على الزرع والضرع، ويحتبس فيها القطر، ويجف النيل، ويسوء أثرها في الإنسان والحيوان، أرض جرز وغمام جهام.

سبع سنون شداد، يجر فيها الشجر، وتهلك الأموال، وتنقطع السبل ولا يرى في السماء قزعة.

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ١٠٥).

سبع شداد، يأتين على الأخضر واليابس، ويهلكن الحرث والنسل، ويضعضعن الإنسان والحيوان، حتى كأنه يخيل للإنسان أن مواد الأرض المتبخرة، اصطدم بعضها ببعض، فتدافع وفتح فيها فوهات، فخرج لهبها ونارها، من ههنا وههنا، فحرق كل ما سيلاقيه من نبات وشجر وحيوان!.

سبع شداد هي البقرات السبع العجاف والسنابل السبع اليابسات، كما أن السنين السابقة، هي البقرات السبع السمان، والسنابل السبع الخضرات.

سبع شداد ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ ويذهب أدراج الرياح كأنه ما كان إلا قليلاً مما تضعون في الحصن الحصين الذي لا يوصل إلى جوفه تحرزون فيه أو تخبئون أو تخزنون أو تدخرون لبذر الزراعة وللإعالة أيام الشتاء.

وبذلك تكونون قد تخلصتم من كابوس الجوع وبراثن الحُمام؛ فإن عملتم بما أوضحت لكم؛ كفيتم شر هذه السنين الأوازم، ولا يكون هذا إلا بواسطة مرشد يهديكم سواء السبيل، وعبقري يصلح من شؤون حاصلات الأرض.

تكلم يوسف -عليه السلام- بهذا الكلام والسكوت سائد في تلك الجلسة لا يبدأ أحدهم بكلام، ولا ينطق بنت شفة، ولكنهم كانوا يتطاولون بأعناقهم لاستماع فتوى يوسف وعبارته رؤيا جلالة الملك، وإرشاده لهم ماذا يعملون؟.

ولقد اعتقدوا أن فتواه هذه ليست مستندة لمراجعة أسفار تعبير الأحلام، ولا لتعليم أحد من الناس، ولكنها صوت من أصوات السماء، فتقبلوه بكل إخلاص، وعندما أرادوا الذهاب قال له مندوب الملك: بورك في بطن حواك، وثدي سقاك، وحجر طواك، لقد أحسنت سابقاً ولاحقاً؛ فلك الشكر مرتين، كما تفضلت اثنتين.

وحاصل القول: إن يوسف -عليه السلام- علمهم أن يقتصدوا من السنين الأولى ويدخروا الحبوب للسنين الجديدة عملاً بقول الناس: «خبأ درهمك الأبيض ليومك الأسود»، فيكون يوسف لفت فكرهم للاقتصاد، وهكذا فنحن نرى أن «للاقتصاد» اليوم شأناً من شؤون اليهود حتى في حال اليسر فضلاً عن العسر.

وبعد؛ فهل كان تدبير يوسف -عليه السلام- رافعاً للشدة من أصلها، بحيث لم يلحقهم في هذه السنين جوع أبداً، أو يا ترى إنما كان تدبيره عليه السلام مصلحاً ومخففاً فقط من شدة وطأة الجوع؟

لا بد كان الشق الثاني، بدليل حديث البخاري: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف»[١].

٤٨/٦٦٢- التحريض على الاستكثار من الادخار.

قال ابن عاشور:

«وأطلق الأكل في قوله: ﴿ يَأْكُلْنَ ﴾ على الإفناء، كالذي في قوله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾. وإسناده بهذا الإطلاق إلى السنين؛ لأنهن زمن وقوع الفناء.

والإحصان: الإحراز والادخار؛ أي: الوضع في الحصن، وهو المطمور، والمعنى: أن تلك السنين المجدبة يفنى فيها ما ادخر لها إلا قليلاً منه يبقى في الأهراء. وهذا تحريض على استكثار الادخار»[٢].

٤٧/٦٦٣- جواز الاحتفاظ بالفائض، وأنه مبدأ اقتصادي هام ومفيد.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٢٥-٨٢٧).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٧).

قال القرطبي:

﴿ مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾؛ أي: مما تحبسون لتزرعوا؛ لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات.

وقال أبو عبيدة: تحرزون، وقال قتادة: ﴿ تُحْصِنُونَ ﴾ :تدخرون، والمعنى واحد، وهو يدل على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة(١).

قال أبو بكر الجزائري:

«الاحتفاظ بالفائض في الصوامع وغيرها مبدأ اقتصادي هام ومفيد»(٢).

٤٨/٦٦٤- لن يغلب عسر يسرين.

بدأ تأويل يوسف لرؤيا الملك بذكر يسر وهو: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾، ثم ذكر العسر وهو: ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾، ثم ختم بيسر هو: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

ومثله قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الانشراح: ٥-٦].

ورحم الله القائل: لن يغلب عسر يسرين.

ولله در القائل:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٤).

وانظر تفصيل المسألة: «موسوعة المناهي الشرعية» (٢/ ١٩٣) لسليم الهلالي.

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦١٩).

عســـــى فـــــرج يــــأتي بـــــه الله إنــــــه
لــــــه كـــــل يـــــوم في خليقتـــــــه أمر

عســـــى مــــا تـــرى أن لا يــــدوم وأن تــــرى
لــــه فرجـــــاً ممــــا ألح بــــه الدهــــــر

إذا اشـــــتد عســــر خـــــارج يســـــراً فإنـــــه
قضـــــى الله أن العســــر يتبعـــــه اليســـــر

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

٦٦٥/٤٩- «أن الغيث هو: المطر، وأنه رحمة وبركة من الله ورزق حسن»[١].

قال السمرقندي:

«يعني: يمطر الناس، والغيث: المطر، ويقال: هو من الإغاثة؛ يعني: يغاثون بسعة الرزق»[٢].

قال الزمخشري:

«من الغوث أو من الغيث، يقال: غيثت البلاد إذا مطرت، ومنه قول الأعرابية: غثنا ما شئنا»[٣].

قال القرطبي:

«من الإغاثة أو الغوث، غَوَّث الرجل قال: واغوثاه، والاسم: الغوث والغُوات والغَوَاث، واستغاثني فلان؛ فأغثته، والاسم الغِياث صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها، والغيث: المطر، وقد غاث الغيث الأرض؛ أي: أصابها، وغاث الله البلاد يغيثها غيثاً، وغيثت الأرض تغاث غيثاً؛ فهي أرض مغيثة ومغيوثة، فمعنى ﴿ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ : يمطرون»[٤].

قال البقاعي:

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٥١).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦٤).

(٣) «الكشاف» (٢/ ٢٦٠).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٥).

﴿ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ من الغيث، وهو: المطر، أو الغوث، وهو: الفرج؛ ففي الأول: يجوز بناءه من ثلاثي أو رباعي يقال: غاث الله الأرض وأغاثها: أمطرها، وفي الثاني: هو من رباعي خاصة، يقال: استغاث به؛ فأغاثه من الغوث، وهو واوي، ومعناه: النفع الذي يأتي على شدة حاجته بنفي المضرة، والغيث يأتي وهو المطر الذي يأتي في وقت الحاجة»[١].

قال محمد رشيد رضا:

«﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾؛ أي: فيه يغيثهم الله -تعالى- من الشدة أتم الإغاثة وأوسعها وهي تشمل جميع أنواع المعونة بعد الشدة، يقال: غاثه غوثاً وغواثاً (بالفتح) وأغاثه إغاثة إذا أغاثه ونجاه، وغوث الرجل: قال: واغوثاه واستغاث ربه: استنصر وسأله الغوث، ويجوز أن يكون من الغيث وهو المطر؛ إذ يقال: غاث الله البلاد غيثاً، وغياثاً، إذا أنزل فيها المطر، والأول أعم وهو المتبادر هنا، ولا يقال: إن الثاني لا يصح؛ لأن خصب مصر يكون بفيضان النيل لا بالمطر؛ فإن فيضانه لا يكون إلا من المطر الذي يمده في مجاريه من بلاد السودان فاعتراض بعض المستشرقين من الإفرنج، وزعمه: أن الكلمة من الغيث، وأنها غير جائزة؛ جهل زينّه لهم الشيطان تلذذاً بالاعتراض على لغة القرآن»[٢].

٤٩/٦٦٦- استحباب التبشير بالخير ولو سبقه شدة وبلاء.

قال أبو حيان:

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٥٣).

(٢) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣٢٠).

«ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بمجيء العام الثامن مباركاً خصيباً كثير الخير عزير النعم، وذلك من جهة الوحي، وعن قتادة: زاده الله علم سنة، والذي من جهة الوحي هو التفصيل بحال العام؛ بأنه فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، وإلا؛ فمعلوم بانتهاء السبع الشداد مجيء الخصب»[1].

قال ابن كثير:

«ثم بشّرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك: ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾؛ أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت وسكر ونحوه»[2].

قال ابن عاشور:

«وأما قوله: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾؛ فهو بشارة وإدخال لمسرة الأمل بعد الكلام المؤيس، وهو لازم انتهاء مدة الشدة، ومن سنن الله -تعالى- في حصول اليسر بعد العسر»[3].

وقال العلمي:

«قضى يوسف بكلامه بقوله: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ ﴾ خصيب مريع ﴿ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ الفلاحون- من الغوث أو من الغيث، والغيث المطر، وغاث الغيث الأرض أصابها، وغاث الله البلاد، وبابهما باع وغيث الأرض تغاث غيثاً، فهي أرض مغيثة ومغيوثة-، ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ العنب

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨٦).

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٥٢).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٧).

والزيتون والسمسم ونحو ذلك بَشَّرَهم يوسف بعد فراغه من تأويل حلمي الملك بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم، وذلك من جهة الوحي أو من جهة الفهم والذكاء، إذ من المعلوم أن السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب: اشتدي أزمة تنفرجي، وإن مع العسر يسراً، ومعلوم أن السماء كانت في سني الجدب ضغطت بشدة، على السحاب الذي هو إسفنجة المطر، فلذلك ولكون شدة الضغط تولد الانفجار، علم طبعاً أن السنة الخامسة عشر هي عام خير وخير عام»[(١)].

٤٩/٦٦٧- أن الله يغيث الناس ويفرج عنهم برحمته وفضله ولو شاء لأعنتهم وشق عليهم بحقه وعدله.

قال ابن عطية:

«جائز أن يكون من الغيث، وهو قول ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسرين؛ أي: يمطرون، وجائز أن يكون من أغاثهم الله إذا فرج عنهم، ومنه الغوث وهو: الفرج»[(٢)].

وقال أبو حيان:

«يغاث: يحتمل أن يكون من الغوث وهو الفرج، يقال: أغاثهم الله فرج عنهم، ويحتمل أن يكون من الغيث تقول: غيثت البلاد إذا أمطرت، ومنه قول الأعرابية غثنا ما شئنا»[(٣)].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٢٧).

(٢) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٥١).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨٣).

٤٩/٦٦٨- أن الزيادة في الفتوى للاستفادة منها بياناً وإعلاماً على العلم والمعرفة والفضل.

قال القرطبي:

«قال قتادة: زاده الله علم سنة لم يسألوه عنها؛ إظهاراً لفضله، وإعلاماً لمكانته من العلم وبمعرفته»[١].

٤٩/٦٦٩- بيان المنة على الفريقين من غائب محكي عنه، وحاضر مخاطب بما يكون منه.

قال محمد رشيد رضا:

«﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ ما شأنه أن يعصر من الأدهان التي يأتدمون بها ويستصبحون كالزيت من الزيتون والقرطم وغيره، والسيرج من السمسم وغير ذلك، والأشربة من القصب والنخيل والعنب.

والمراد أن هذا العام عظيم الخصب والإقبال، يكون للناس فيه كل ما يبغون من النعمة والإتراف، والإنباء بهذا زائد على تأويل الرؤيا لجواز أن يكون العام الأول بعد سني الشدة والجدب دون ذلك، فهذا التخصيص والتفصيل لم يعرفه يوسف إلا بوحي من الله -عز وجل- لا مقابل له في رؤيا الملك ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل، وقرأ حمزة والكسائي تعصرون بالخطاب: كتزرعون وتحصنون، وقراءة الجمهور عطف على يغاث الناس، وفائدة القراءتين، بيان المنة على الفريقين من غائب محكي عنه، وحاضر مخاطب بما يكون منه»[٢].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣٢٠).

٤٩/٦٧٠- خطة يوسفية تقوم على تخطيط دقيق وترتيب محكم وخبير خرّيت ورجاء بالله كبير.

لقد اشتملت خطة يوسف- عليه السلام- للوصول بالشعب المصري إلى بر الأمان على كل عناصر النجاح:

١- التخطيط الدقيق، وعناصره:

أ- طويل الأمد لمدة خمسة عشر عاماً.

ب- تنفيذه على مراحل: تزرعون سبع سنين دأباً، ثم يأتي بعد ذلك سبع شداد، ثم يأتي من بعد ذلك عام يغاث فيه الناس.

ت- زيادة الإنتاجية في المرحلة الأولى للوصول إلى أعلى مستويات الأداء وباستخدام أقل ما يمكن من الموارد. واستخدام كل طاقات الموجودة بزيادة نسبة التشغيل والفعالية.

ث- تحديد الأهداف واستشراف المستقبل.

٢- الترتيب المحكم، ودعائمه:

أ- الإنتاج والإدخار وترشيد الاستهلاك.

ب- حفظ المقادير الزائدة بطرق علمية لكي لا يفسدها السوس والرطوبة.

ت- إعادة استثمار المدخرات.

ث- التوازن بين الإنتاج والاستهلاك والادخار.

٣- الخبير الخريت.

وهو ما سيأتي تفصيله وتأصيله في قوله: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥].

٤- رجاء بالله كبير.

وهو ما تضمنه بث الأمل في النفوس.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

٥٠/٦٧١- رغبة الملوك في رؤية من يرشدهم ويحذرهم ويبشرهم وينصح لهم.

٥٠/٦٧٢- التحلي بالصبر حتى يظهر النصر.

قال ابن عاشور:

«وجعل طريق تقرير براءته مفتتحة بالسؤال عن الخبر لإعادة ذكره من أوله، فمعنى ﴿ فَسْـَٔلْهُ ﴾ بلغ إليه سؤالاً من قبلي.

وهذه حكمة عظيمة تحق بأن يؤتس بها، وهي تطلب المسجون باطلاً راجعه إلى التحلي بالصبر حتى يظهر النصر.

وقال النبي ﷺ: «لو لبثت ما لبث يوسف في السجن؛ لأجبت الداعي»[١]؛ أي: داعي الملك، وهو الرسول الذي في قوله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ ﴾؛ أي: لما راجعت الملك.

فهذه إحدى الآيات والعبر التي أشار إليها قوله -تعالى-: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾»[٢].

٥٠/٦٧٣- جواز عدم الخروج من السجن حتى تثبت البراءة.

قال القرطبي:

---

(١) سيأتي تخريجه (ص٩٥٢)..

(٢) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٨).

«وقوله -تعالى-: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾؛ أي: فذهب الرسول؛ فأخبر الملك؛ فقال: ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾؛أي: يأمره بالخروج قال: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾؛ أي: حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؛ فأبى أن يخرج إلا أن تصح براءته عند الملك مما قذف به، وأنه حبس بلا جرم.

وروى الترمذي[١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ولو لبثت في السجن ما لبث؛ ثم جاءني الرسول أجبت»، ثم قرأ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ الآية -قال-: «ورحمة الله على لوط لقد كان يؤي إلى ركن شديد، إذ قال لقومه: ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾؛ فما بعث الله بعده نبياً إلا في ذروة قومه».

وروى البخاري[٢] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف؛ لأجبت الداعي، ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾».

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابراً حليماً، ولو لبثت في السجن ما لبثه أجبت الداعي، ولم ألتمس العذر»[٣].

---

(١) برقم (٣١١٦)، وصححه شيخنا الإمام الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦١٧).

(٢) (٤٦٩٤).

(٣) انظر «السلسلة الصحيحة» (١٩٤٥).

وروى نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك في كتاب التفسير من «صحيح البخاري»[١]، وليس لابن القاسم في الديوان غيره .

وفي رواية الطبري[٢]: «يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلي؛ لخرجت سريعاً إن كان لحليماً ذا أناة».

وقال ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب»[٣].

قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف -عليه السلام- أناة وصبراً وطلباً لبراءة ساحته، وذلك أنه -فيما يروى- خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبه ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً؛ فيراه الناس بتلك العين أبداً، ويقولون: هذا الذي راود امرأة مولاه؛ فأراد يوسف -عليه السلام- أن يبين براءته ويحقق منزلته من العفة والخير، وحينئذ يخرج للأحظاء والمنزلة، فلهذا قال للرسول: «ارجع إلى ربك، وقل له: ما بال النسوة»[٤].

٦٧٤/٥٠- من حسن الأدب والعشرة التلويح في شؤون النساء لا التصريح.

---

(١) تقدم آنفاً.

(٢) «جامع البيان» (١٢/ ١٣٩)؛ وضعف إسناده شيخنا الإمام الألباني-رحمه الله- في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٤٨٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٢/ ٣٢٣)، وحسنه شيخنا في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٥٨٩-٥٩٠).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٦-٢٠٧).

قال القرطبي:

«قوله -تعالى-: ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ ذكر النساء جملة ليدخل فيهن امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح وذلك حسن عشرة وأدب، وفي الكلام محذوف؛ أي: فاسأله أن يتعرّف ما بال النسوة.

قال ابن عباس: فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز- وكان قد مات العزيز- فدعاهن»[1].

قال العلمي:

«لم يقل يوسف: ما بال امرأة العزيز، بل قال: ﴿ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ تأدباً معها، وحفظاً لما رأى منها من معروف وإكرام مثوى، عندما كان في بيتها وتحت يدها؛ لأنه كريم ابن كريم ابن كريم ابن كريم، لم يسعه -عليه السلام- إلا أن يحفظ غض نظره عن ذكرها كرامة لمركزها، قال الشاعر:

ما وهب الله لامرئ هبة ... أفضل من عقله ومن أدبه

هما كمال الفتى فإن فقدا ... ففقده للحياة أحسن به»[2]

٥٠/٦٧٥- جواز تسميته ملكاً ولو كان كافراً.

قال القاسمي:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٧).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٣٦).

«قال في «الإكليل» هذه الآية من أصول التعبير، وفيها -أيضاً- صحة رؤيا الكفار، وجواز تسميته ملكاً»[١].

٥٠/٦٧٦- يجب حمل الناس على الأحزم من الأمور وعدم تفويت فرصة الفرج.

قال القرطبي:

«يقول: لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معرضة؛ لأن يقتدي الناس بها إلى يوم القيامة؛ فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور؛ وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة؛ التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ربما نتج له البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف -عليه السلام- أمن من ذلك بعلمه من الله، فغيره من الناس لا يأمن من ذلك؛ فالحالة التي ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف -عليه السلام- صبر عظيم وجلد»[٢].

٥٠/٦٧٧- دليل على أن السعي في براءة العرض حسن بل واجب.

قال أبو حيان:

« إنما تأنى وتثبت في إجابة الملك وقدم سؤال النسوة؛ لتظهر براءة ساحته عما سجن فيه؛ لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه، ولئلا يقولوا: ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويكشف سره، وفيه دليل

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٣٣).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٧).

على أن الاجتهاد في نفي التهم واجبة وجوب إبقاء الوقوف في مواقفها»[١].

قال العلمي:

«الذي سهل على يوسف عدم المبادرة إلى امتثال أمر الملك بالخروج إليه، والذهاب عنده: أنه تصور في كرم أخلاق الملك أنه سيعذره ويغتفر له ذلك أمام حرصه على براءة عرضه، وفي سبيل اجتهاده على حسن سمعته.

وقد ذكروا أن الاجتهاد في نفي التهم واجب، فقد أخرج مسلم من رواية أنس: أن رسول ﷺ كان مع إحدى نسائه؛ فمر به رجل، فدعاه وقال: «هذه زوجتي»؛ فقال: يا رسول الله من كنت أظن به فلم أكن أظن بك، فقال رسول الله: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[٢]؛ وكأنه لهذا كان الزمخشري -رحمه الله- وكان ساقط الرجل- قد أثبت عند القضاة أن رجله لم تقطع في جناية ولا في فساد بل سقطت من ثلج أصابها في بعض الأسفار، وكان -رحمه الله- يظهر مكتوب القضاة في كل بلد دخله خوفا من تهمة السوء»[٣].

قال البقاعي:

«وأنا لا أخرج من السجن حتى يعلم ربك ما خفي عنه من أمرهن الذي علمه ربي؛ لتظهر براءتي على رؤوس الأشهاد مما وصموني به من السجن الذي من شأنه أن لا يكون إلا عن جرم، وإن لم تظهر براءتي لم ينقطع عني كلام الحاسدين، ويوشك أن يسعوا في حط منزلتي عند الملك،

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨٧)، وانظر «محاسن التأويل» (٦/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٠٥)، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حيي -رضي الله عنها-.

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٣٨).

ولئلا يقولوا: ما لبث هذا في السجن إلا لذنب عظيم؛ فيكون في ذلك نوع من العار لا يخفى، وفي هذا دليل على أن السعي في براءة العرض حسن بل واجب»(١).

قال الشوكاني:

«قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف أناة وصبراً وطلباً لبراءة ساحته، وذلك أنه خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه؛ فيراه الناس بتلك العين؛ يقولون: هذا الذي راود امرأة العزيز»(٢).

قال ابن عاشور:

«وقد أبى يوسف -عليه السلام- الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته مما رمي به في بيت العزيز؛ لأن ذلك قد بلغ الملك لا محالة؛ لئلا يكون تبريزه في التعبير الموجب لإطلاقه من السجن كالشفيع فيه فيبقى حديث قرفه بما قرف به فاشياً في الناس؛ فيتسلق به الحاسدون إلى انتقاص شأنه عند الملك يوماً ما؛ فإن تبرئة العرض من التهم الباطلة مقصد شرعي، وليكون حضوره لدى الملك مرموقاً بعين لا تنظر إليه بشائبة نقص»(٣).

قال السعدي:

«ومنها: أن الإنسان إذا وجهت له تهمة هو بريء منها لا يلام على طلب الطرق والوسائل التي يحصل بها الوضوح والبيان العام للناس؛ كما فعل يوسف -عليه السلام- مع طول مكثه لما جاءه الرسول يستدعيه

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٥٤).

(٢) «فتح القدير» (٣/ ٣٣).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٨).

للحضور عند الملك، قال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ إلى آخر الآية. حيث بان لكل أحد براءته التامة التي لا شبهة فيها، فلم يخرج من السجن لمواجهة الملك إلا في حالة براءته، وهيبته، ورفعته، وتعظيم منهم لعلمه وفضله، ونزاهته، -عليه السلام-»[1].

٥٠/٦٧٨- بيان فضيلة الحلم والأناة وعدم العجلة في الأمور الأخرى.

قال أبو حيان:

«وكان هذا الفعل من يوسف أناة وصبراً وطلباً لبراءة الساحة»[2].

وقال الشوكاني:

«ولقد أعطي -عليه السلام- من الحلم والصبر والأناة ما تضيق الأذهان عن تصوره»[3].

قال السعدي:

«وأمره بالحضور عند الملك امتنع عن المبادرة إلى الخروج حتى تتبين براءته التامة وهذا من صبره وعقله التام»[4].

قال أبو بكر الجزائري:

«فضيلة الحلم والأناة وعدم التسرع في الأمور»[5].

---

(١) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف-عليه السلام-» (ص٤٥).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨٧).

(٣) «فتح القدير» (٣/ ٣٣).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٨).

(٥) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢١).

٥٠/٦٧٩- ينبغي للمسلم أن يضع حدّاً لمثـل هـذه الفتنـة حتـى لا تطـل برأسها من جديد فالشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[١].

٥٠/٦٨٠- «ثبوت براءة الصديق المتهم خير له من خروجه مـن السـجن والعذاب».

قال العلمي:

جعل يوسف براءتـه في المقـام الأول، وخروجـه مـن السـجن في المقـام الثاني، فلم يكن طلب الملك له والإفراج عنه ليهمـه. بمقـدار مـا يهمـه بـراءة ساحته مما ألصق به من العار»[٢].

قال ابن عاشور:

«والسؤال مستعمل في التنبيه دون طلب الفهم، لأن السائل عالم بـالأمر المسؤول عنه، وإنما يريد السائل حث المسؤول عـن علـم الخبر، وقريـب منـه قوله -تعالى-: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ ﴾»[٣]

٥٠/٦٨١- من وسائل تقرير الجاني واعترافه.

قال ابن عاشور:

«وجعل السؤال عن النسـوة اللاتـي قطعـن أيديـهن دون امـرأة العزيـز تسهيلاً للكشف عن أمرهـا؛ لأن ذكرهـا مـع مكانـة زوجـها مـن الملـك ربمـا يصرف الملك عن الكشف رعياً للعزيز، ولأن حديث المتكأ شاع بـين النـاس، وأصبحت قضية يوسف- عليه السلام- مشهورة بذلك اليوم، كما تقدم عنـد

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٢).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٣٦).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٨٩).

قولـه -تعـالى-: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾، ولأن النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيز بأنها راودت يوسف- عليه السلام- عن نفسه؛ فلا جرم كـان طلـب الكشـف عـن أولئك النسـوة منتهى الحكمة في البحث، وغاية الإيجاز في الخطاب»[1].

قال العلمي:

«وقال يوسف للمندوب: سل الملك: ما بال النسوة؛ أي: ما حـالهن ولم يقل: سله أن يفتـش عـن شـأنهن؛ لأن السـؤال مما يـهيج الإنسـان، ويحركـه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يـورد عليـه السـؤال ليجـد في التفتيـش عـن حقيقة القصة، وأراد قص الحديث، حتى يتبين له براءته بيانـاً مكشـوفاً يتمـيز فيه الحق من الباطل»[2].

وقال أحمد نوفل:

«فلما جاء الرسول وعرض عليه طلب الملك رده قائلاً: إنـه لـن يخـرج حتى يفتح ملف قضيته من جديد، ويحقق في موضوعـه؛ فيعـرف الجـاني مـن البريء، ويا لها من مفاجأة!

أية شخصية هذه: أن يُطْلَب للملك؛ لينعم عليه؛ فلا يجيب؟ وأية ثقة في النفس هذه الثقة: إن الرجال معادن فعلاً... إنـه لا يريـد أن يخـرج بمنّـة أحـد، ولكن يريد أن يخرج ببراءته وبحقه.

ولذلك طلب يوسف أن يسأل الملك النسوة اللاتـي قطعـن أيديـهن ولم يذكر امرأة العزيز وفاءً كما قلنا لمن عاش في بيته سـنين، ثـم إن ذكـره تقطيـع

---

(١) المرجع السابق (١٢/ ٢٨٩).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٣٧).

الأيدي فيه من الإثارة للملك وفيه حافز جديد يجعله يهتم بالموضوع، بالإضافة إلى ما تكون عنده من حوافز سابقة.

إن طريقة كلامه ورفضه الخروج ليلقي في النفس ابتداء أنه بريء، ولكن لا بد من تحقيق»[1].

٥٠/٦٨٢- العلماء أغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك أغنياء عن العلماء بالملك.

قال العلمي:

«باحتياج مليك مصر -وهو على أريكة ملكه- إلى يوسف- وهو في معتقله - ظهر جلياً: أن العلماء أغنياء عن الملوك بالعلم، وليس الملوك بأغنياء عنهم بملكهم.

قال الشاعر:

إن الأكابر يحكمون على الورى
وعلى الأكابر تحكم العلماء»[2]

٥٠/٦٨٣- التأني من الرحمن والعجلة من الشيطان.

قال محمد رشيد رضا:

«وفي هذا التريث والسؤال فوائد جليلة في أخلاق يوسف -عليه السلام- وعقله وأدبه في سؤاله:

منها: دلالته على صبره وأناته، وجدير بمن لقي ما لقي من الشدائد أن يكون صبوراً حليماً، فكيف إذا كان نبياً وارثاً لإبراهيم الذي وصفه الله

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٣٠).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١٢/ ٣٢١-٣٢٢).

بالأواه الحليم؟ وفي حديث أبي هريرة في «المسند» و«الصحيحين» مرفوعاً: «ولو لبث في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»، وفي لفظ لأحمد: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر»، وأما ما رواه عبد الرزاق عن عكرمة في تعجب النبي من صبره وكرمه وكونه لو كان مكانه لما أول لهم الرؤيا حتى يشترط عليهم أن يخرجوه من السجن، ولو أتاه الرسول لبادرهم الباب...؛ فهو مرسل لا يحتج به[١].

ومنها: عزة نفسه وحفظ كرامتها إذا لم يرض أن يكون متهماً بالباطل حتى يُظهر براءَتَه ونزاهَتَه.

ومنها: وجوبُ الدفاعِ عن النفس، وإبطالِ التهمِ التي تخل بالشرف كوجوب اجتناب مواقفها.

ومنها: مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء من الطعن على النسوة، وترك أمر التحقيق إلى الملك يسألهن ما بالهن قطعن أيديهن، وينظر ما يجبن به.

ومنها: أنه لم يذكر سيدته معهن وهي أصل الفتنة وفاء لزوجها ورحمة بها؛ لأن أمر شغفها به كان وجداناً قاهراً لها، وإنما اتهمها أولاً عند وقوفه موقف التهمة لدى سيدها وطعنها فيه دفاعاً عن نفسه، فهو لم يكن له بد منه»[٢].

قال العلمي:

«إن لعدم خروج يوسف من السجن دواعي عديدة منها:

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٢)المرجع السابق (١٢/ ٢٨٩).

١- أنه لم يرض المثول بين يدي الملك وأمره بين بين، وحاله غامض وعاقبته مجهولة، ومجال الغض منه واسع؛ فلذا أبى أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة عنه بالكلية.

٢- أنه بهذا العمل لا يقدر أحد بعد خروجه من السجن أن يلطخه تلك الرذيلة، وأن يتوصل بها إلى الطعن فيه.

٣- أن الإنسان الذي بقي في سجنه بضع سنين، إذا طلبه الملك وأمر بخروجه، فالظاهر أن لا بد أن يياد بالخروج، فحيث لم يخرج، عرف منه أنه في نهاية التعقل، وأعلى درجات الصبر والثبات، وذلك يصير سبباً لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم، ولأن يحكم بأن كل ما كان يقال فيه كذب وبهتان.

٤- أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من أولئك النسوة يدل -أيضاً- على شدة طهارته، ووثوقه بكسب الدعوى، وبعبارة أصح: وثوقه بالبراءة، إذ لو كان ملوثاً بوجه ما؛ لكان يخاف من ذكر ما سبق، ولا يريد أن يخطر ذلك على بال.

٥- كان يوسف يخشى أن يخرج وينال من الملك حظوة وتقريباً، ويسكت عن أمر تلويثه؛ فيراه الناس بتلك العين، يقولون: هذه الذي كان راود امرأة العزيز عن نفسها، انظروا له كيف صار من أهل البلاط، انظروا له كيف صار مقرباً من حضرة الملك»[1].

٥٠/٦٨٤- لصاحب الحق مقالاً.

قال العلمي:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٤٠-٨٤١)

«لم يخش من النسوة أن يكتمن الحقيقة عندما قال: {ما بال النسوة} بما لا يحب، كما رمته إحداهن من قبل؛ لأنه:

١- رأى الحالة اليوم لا تساعد على إنكار الواقع، فقد آن لسلطان الحق أن يغلب سلطان الباطل.

٢- هو قد ظن فيهن خيراً، واعتمد على شرفهن قائلاً في نفسه: إن لهن ضميراً سوف لا يتصامن عن ندائه.

٣- لأنه كان يعتمد على الشاهد من أهل امرأة العزيز .

٤- كان يستأنس بكون هؤلاء النسوة قد سمعن بآذانهن اعتراف امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه فاستعصم.

٥- كان يعتمد -أيضاً- على شرف (عزيز مصر) الذي كان قنع قناعة تامة ببراءة يوسف، وحصر التهمة في زوجه، ولذا قال عنه: إن ربي بكيدهن عليم، وإنما كان حبسه يوسف حبساً إدارياً؛ لأجل إبعاده عن زوجته.

٦- اعتمد على توجه نظر مليك مصر عليه، وتمكنه من محبته، وثقته بعلمه ودرايته، ويوسف يعلم أن كل من توجهت عليه أنظار الملوك هابه الناس، وأعظمته الرعية، وأكبره الموظفون الذين هم تحت ذلك السلطان القاهر، فصار بذلك أميناً من مكر هؤلاء لسيدات، نساء المستخدمين بمعية الملك»[1].

٦٨٥/٥٠- قذف البريء يعود عليه بالخير عندما تظهر براءته.

قال العلمي:

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٨٤١-٨٤٢).

«نسمع الملك يقول هنا: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾، وسنسمعه يقول بعدئذ: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾، فالطلب الثاني أرقى من الطلب الأول، وسببه: أن الطلب الأول كان مبنياً على علمه بعلم يوسف وفهمه فقط، وأما الطلب الثاني؛ فكان مبنياً على ذلك وعلى تيقن الملك بسلامة يوسف من الجريرة، وبعبارة أخرى كان ظهر للملك أولاً تحلية يوسف فحسب، ولكن بعده ظهر له -أيضاً- تحليته، ولا ريب أن التخلية مع التحلية، أهم من التحلية وحدها، وهكذا جرت السنة في قذف البريء خيراً يعود عليه عندما تظهر براءته؛ كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: ٣٣]»[١].

٥٠/٦٨٦- على الباغي تدور الدوائر.

قال العلمي:

«لا ريب أن العزيز وذويه كانوا أرادوا بسجن يوسف القضاء على تهمة المرأة بتوجيه التهمة إليه، ولكن نتيجة السجن خرجت معكوسة؛ لأن سجنه سببُ تَعَرُّفِهِ إلى الساقي؛ فتقدم إليه بأن يذكره عند الملك، ولما رأى الملك رؤياه، ذكر الساقي يوسف؛ فحمل إليه تلك الرؤيا؛ فأوَّلها يوسف، فنتج عن ذلك طلب الملك إياه؛ فلم يرد أن يخرج إلا بعد التحقيق، فكانت النتيجة حصر التهمة في «المرأة» وبراءته مما نمي إليه، فكان «العزيز» بحبس يوسف كمن رمى الوقود في النار ليخمدها، أو كمن حول الضرب إلى سقف جاره،

---

(١) المرجع نفسه (٢/ ٨٤٣-٨٤٤).

فإذا الضرب في سواد داره، ولا غرابة في ذلك، ففي المثل السائر: «على الباغي تدور الدوائر»[١].

٥٠/٦٨٧- من أسرار التأويل وإعجاز التنزيل.

قال أحمد نوفل:

«هذه هي الآية الخمسون في السورة، وتأمل هذه الظاهرة أن هذه الآية تأتي في منتصف قصة يوسف بالضبط فإن القصة استغرقت مائة آية، وكأن حياته مقسومة إلى قسمين قسم الشدة تعرضت له الخمسون آية الأولى، وقسم الرخاء والانفراج تعرضت له الخمسون الأخيرة من الآن فصاعداً»[٢].

٥٠/٦٨٨- تكميل لكل نبيل.

١- قال العلمي:

«هذا؛ وأما ما يذكره المفسرون من حديث يشم منه الانتقاد على عمل يوسف، وعدم تحبيذه، فعلى فرض صحته؛ فهو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد!! وعصمة يوسف -عليه السلام-، حتى من الغلط في عدم مبادرته للخروج عقيدة من العقائد، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن، وعلى كل حال؛ فلنا بل علينا أن نفوض الأمر في الحديث الذي يحتوي طعن في نبي إلى الله -تعالى-»[٣].

قلنا: الحديث صحيح، وقد تجاوز القنطرة؛ بإخراج الشيخين له في «صحيحهما» اللذين تلقتهما الأمة بالقبول.

---

(١) المرجع نفسه (٢/ ٨٤٤).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٢٩).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٣٦).

ورد خبر الآحاد إذا كان في العقائد باطل لا يقوم على أثارة من علم، ومن شاء بسط المسألة؛ فلينظر كتاب «الأدلة والشواهد في وجوب الأخذ بخبر الواحد في الأحكام والعقائد» لسليم الهلالي.

٢- رجح بعض المفسرين أن مراد يوسف -عليه السلام- بقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ هو عزيز مصر بدلالة قوله: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

وهذا الترجيح مرجوح من وجوه:

١- أن الذي يعلم كيدهن هو الذي صرف عنه كيدهن وهو الله -سبحانه وتعالى-؛ كما في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف:٣٣-٣٤].

فلو كان المراد بربه عزيز مصر؛ فإن عزيز مصر هو الذي سجنه وأطاع امرأته، ولكن المراد هو الله -سبحانه وتعالى-؛ فتدبر.

٢- أن كلمة «رب» للدلالة على العزيز أو الملك هي اصطلاح قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويوسف ترك ملتهم بل دعاهم إلى توحيد رب الأرباب؛ كما في قوله: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ولما كان هذا المقام مقام اعتراف بالفضل؛ فإن أعظم الفضل هو التوحيد الذي استعصم به يوسف، فنجاه الله من الكربات والظلمات؛ فتأمل.

٣- أن النص القرآني لم يذكر العزيز في مقام الشهادة ولم يشر إليه القرآن بعد سجن يوسف لا من قريب أو بعيد؛ فحمل الكلام عليه غير سديد.

٤- أن أعظم الأدلة على براءة يوسف هو اعتراف النسوة؛ ولذلك قال الرسول الملك: ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ وعزيز مصر لم يكن شاهداً على هذه الواقعة، وإنما الشاهد هو الله من فوق سبع سماوات، وهو الذي صرف عنه كيدهن، وهو الذي يصرف قلوبهن؛ للاعتراف بنزاهته وطهارته وعفة نفسه؛ كما سيأتي في الآيات القادمة -إن شاء الله-.

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

٦٨٩/٥١- أن براءته كانت معلومة عند كل من علم القصة.

قال أبو حيان:

«حاش لله تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها»[١].

قال البقاعي:

«دليل على أن براءته كانت متحققة عند كل من علم القصة»[٢].

٦٩٠/٥١- الإقرار أولى من الشهادة.

قال القرطبي:

«وهذا القول منها-وإن لم يكن سأل عنه- إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه؛ فجمع الله -تعالى- ليوسف -لإظهار صدقه- الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفساً ظنٌّ، ولا يخالطها شكٌّ»[٣].

٦٩١/٥١- الخطب يكون في الشأن والأمر الذين فيهما خطر.

قال أبو حيان:

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨٨).

(٢) « نظم الدرر» (٤/ ٥٧).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٨).

«الخطب: الشأن والأمر الذي فيه خطر، ويجمع على خطوب، قال الشاعر:

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه

بمدرك أطراف الخطوب ولا آل»[1]

٥١/٦٩٢- مواجهة المجرم بالأدلة الدامغة تحاصره؛ فيعترف.

فالملك لم يسأل النسوة: هل راودتن يوسف عن نفسه، بل ألقى التهمة مباشرة؛ فهو مقتنع بما حدث عالم به، وهذا أسلوب يزعزع نفسية المجرم؛ فيجعله ينهار، ويقر بالتهمة؛ فلا يروغ ولا يزوغ.

٥١/٦٩٣- المكر لا ينفك عن المرأة.

إن جواب النسوة ليس هو الجواب المتوقع على سؤال الملك، بل قلن من مكرهن في جوابهن إذا سألن عما عملن من السوء؛ فحدن عنه، وأجبن بنفي السوء عن يوسف -عليه الصلاة والسلام-.

وهذا من مكرهن وحسن تدبيرهن حيث ظهرت براءة أنفسهن جملة، وأوقعن امرأة العزيز في ضرورة الاعتراف؛ فالأدلة تحاصرها؛ فما عليها إلا الإقرار وتبرئة يوسف -عليه السلام-.

٥١/٦٩٤- الحق لا بد أن يعلو ويظهر.

قال محمد رشيد رضا:

«﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ظهر بعد خفائه وانحسرت رغوة الباطل عن محضه، وهو تكرار من حصة إذا قطع منه حصة بعد حصة -بالكسر-، وهي: النصيب لكل شريك في شيء، مثل كبكب

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٨٣).

وكفكف الشيء إذا كبه وكفه مرة بعد أخرى، فهي تقول: إن الحق في هذه القضية كان في رأي الذين بلغهم موزع التبعة بيننا معشر النسوة وبين يوسف، لكل منا حصة، بقدر ما عرض فيها من شبهة، والآن قد ظهر الحق في جانب واحد لا خفاء فيه ولا شبهة عليه، فإن كان هو عواذلي شهدن بنفي السوء عنه، وهي شهادة نفي، فشهادتي على نفسي شهادة إثبات؟ ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ وهو لم يراودني، بل استعصم وأعرض عني ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فيما اتهمني به من قبل، وحمله أدبه الأعلى ووفاؤه الأسمى -لمن أكرم مثواه وأحسن إليه- على السكوت عنه إلى الآن، ونحن جزيناه بالسيئة على الإحسان، وقد أقر الخصم وارتفع النزاع»[(١)].

٥١/٦٩٥- الاعتراف بالخطأ فضيلة.

قال العلمي:

«إن هذه المرأة زليخا قد تناست منزلتها وتغافلت عن عظمتها، ونطقت بكلمة الاعتراف، والاعتراف بالخطأ فضيلة كما تعملون، وهو خير من التمادي فيه، ونظن أن هذه المرأة لو لم تعترف، ثم أتت بشهود زور، ممن لهم علاقة محسوبية؛ لطالت ذيول الحادثة وتشعبت كثيراً، لا سيما لو ظهر فيما بعد أنها مبطلة في تقديم أولئك الشهود؛ فتكون العاقبة أدهى وأمر، ولكن الله هداها للاعتراف؛ فبقيت الحادثة مختصرة وقاصرة على ما حكاه القرآن الكريم...»[(٢)].

٥١/٦٩٦- عوامل وأسباب ساهمت في عودة امرأة العزيز إلى رشدها.

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٥٤).

قال أحمد نوفل :

«ومن عوامل عودةِ وَعْيِها ويقظةِ وُجْدَانِها مواجهتُها بالحقيقة بلا أمل في المراوغة، بعد أن سدت كل منافذ التنصل والتهرب من خلال سؤال الملك؛ بل اتهامه المباشر الذي لا يبحث عن نفيه أو إثباته بل يسأل عن أسبابه؛ فالجريمة ثابتة وإنما السؤال عن دوافعها: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ ﴾.

ومثلها ومثلهن في ذلك مثل من كان فاراً من وجه العدالة، فلما أطبق عليه بالأدلة وحوصر من كل جانب اعترف، وأكثر، بأن بادر إلى التوبة من كل الماضي الذي لم يجده السير في دروبه إلا أن أورده هذا المورد الوبيل والعاقبة الوخيمة.

ولعل من المؤثرات تقريعها الدائم ولومها ولمزها والهمسات التي لاحقتها من كل جانب؛ فجعلتها فوق مرارة الفشل تواجه مرارة التشفي والتعليقات الساخرة والنبذ الاجتماعي، مما سارع في عودتها إلى رشدها»[١].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (٢٠٨-٢٠٩).

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

٥٢/٦٩٧- بيان أن الله لا بد أن يقيم سبباً لظهور الخيانة وإن اجتهد الخائن في التعمية.

قال البقاعي:

«﴿ كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾؛ أي: العريقين في الخيانة، بل لا بد أن يقيم سبباً لظهور الخيانة وإن اجتهد الخائن في التعمية.

والخيانة: مخالفة الحق بنقض العهد العام، وضدها الأمانة، والغدر: نقضه خاصاً.

والمعنى: أني لما كنت بريئاً سدد الله أمري، وجعل عاقبتي إلى خير كبير وبراءة تامة، ولما كان غيري خائناً، أنطقه الله بالإقرار بها»[1].

٥٢/٦٩٨- من تمام الاعتذار أن يقترن باعتراف.

قال الإمام ابن القيم:

«﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ قيل: هذا من تمام الاعتذار قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ :أي: قولي هذا وإقراري ببراءته ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ ﴾ بالكذب عليه في غيبته، وإن خنته في وجهه في أول الأمر؛ فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرىء نفسها؛ وهي ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾.

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٥٨) .

فتأمل ما أعجب هذه المرأة! أقرت بالحق، واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده، وإلا؛ فهو عرضة للشر»[١].

٥٢/٦٩٩- «على المؤمن أن يعصم نفسه من الانزلاق في طريق السوء؛ لأن النفس البشرية تأمر صاحبها بالسوء ما لم يجاهدها ويوجهها إلى مرضاة الله -تعالى-»[٢].

٥٢/٧٠٠- «الخيانة من موانع الاهتداء».

٥٢/٧٠١- الإيمان ينقي السريرة وينوِّر البصيرة.

تدبر هذه الكلمات التي تصرح بها امرأة العزيز دفاعاً عن يوسف الصديق، وإمعاناً في إظهار طهره وبراءته وعفته... فما الذي جعلها تتحول من خصم عنيد يهدد يوسف أن لم يفعل ما يريد ليكونن من المسجونين المطرودين... وإذا به ينقلب إلى مدافع شديد عن طهارة الصديق -عليه السلام-.

ناهيك أن عادة البشر الإساءة في الغيب.. أما هذه المرأة؛ فقد قلبت الموازين، وعكست كل التوقعات، وضربت رقماً قياسياً في شهادة الحق وقوله والاعتراف به.

فما الذي حوّل اتجاهها وحدّد مسارها إلى الحق علماً وشهادة ودفاعاً... إنه الإيمان طهَّر سريرتها ونور بصيرتها وأعادها إلى البيضاء النقية بعد جهل

---

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٤٧).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٣).

وشرود وعنود وعماية... فسبحان من بيده قلوب العباد يقلبها كيف شاء، فيا مقلب القلوب صرِّف قلوبنا إلى طاعتك.

٥٢/٧٠٢- فائدة.

قال محمد رشيد رضا:

«﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾؛ أي: ذلك الإقرار بالحق له، والشهادة بالصدق الذي علمته منه: ليعلم الآن -إذ يبلغه عني- أني لم أخنه بالغيب عنه منذ سجن إلى الآن بالنيل من أمانته، أو الطعن في شرفه وعفته، بل صرحت لجماعة النسوة بأني راودته فاستعصم وهو شاهد، وها أنا ذا أقر بهذا أمام الملك وملائه وهو غائب، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ من النساء والرجال، بل تكون عاقبة كيدهن الفضيحة والنكال، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا، وسجناه فبرأه وفضح مكرنا، حتى شهدنا له في هذا المقام السامي على أنفسنا، وهذا تعليل آخر لإقرارها.

ثم إنها على تبرئة نفسها من خيانته بالغيب اعترفت في الآية التالية بأنها لا تبرئ نفسها من الكيد له بالسجن، وأن ذلك كان من هوى النفس الإمارة بالسوء؛ لأن المراد منه تذليله لها، وحمله على طاعتها.

وفيها وجه آخر: وهو أنها تقول: ذلك الذي حصل أقررت به؛ ليعلم زوجي أني لم أخنه بالفعل فيما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا، وأن كل ما وقع أنني راودت هذا الشاب الفاتن الذي وضعه في بيتي، وخلى بينه وبيني، فاستعصم وامتنع، فبقي عرضه؛ أي: الزوج مصوناً، وشرفه محفوظاً، ولئن برأت يوسف من الإثم فما أبرئ منه نفسي؛ فإن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، وسيأتي أن من رحمته -تعالى- ببعض الأنفس صرفها عن الأمر السوء وهو أعلى الدرجات، ومنها حفظه إياها من طاعة الأمر بوازع

منها، وهي دون ما قبلها، ومنها عدم تيسر عمل السوء، لها بامتناع من يتوقف عليه ذلك العمل على حد: إن من المعصية ألا تجد.

هذا هو المتبادر من نظم الآيتين المناسب للمقام بغير تكلف، ولكن ذهب الجمهور إتباعاً للروايات الخادعة إلى أنها حكاية عن يوسف -عليه السلام- يقول: ذلك الذي كان مني إذا امتنعت من إجابة الملك، واقترحت عليه التحقيق في قضية النسوة؛ ليعلم العزيز من التحقيق أني لم أخنه في زوجه بالغيب إلخ، وأنه صرح بعد ذلك بأنه لا يبرئ نفسه من باب التواضع وهضم النفس، وهذا المعنى يتبرأ منه السياق والنظم ومرجع الضمير. ومن العجب أن ابن جرير اقتصر عليه، ولكن قال العماد ابن كثير على كثرة اعتماده عليه مرجحاً للقول الأول: وهذا هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام، وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية -رحمه الله- فأفرده بتصنيف على حدة أ.هـ

وشيخ الإسلام ابن تيمية من أعلم المحدثين بنقد الروايات؛ فهو ما نصر هذا القول إلا وقد فند روايات القول الآخر»[1].

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٣٢٣-٣٢٤).

﴿ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

٥٣/٧٠٣- كراهة تزكية النفس.

قال القرطبي:

«﴿ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ﴾؛ لأن تزكية النفس مذمومة قال -تعالى-: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾»(١).

قال أبو حيان:

«فقالت: وما أبرئ نفسي من الزلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾: أراد الجنس؛ أي: هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل على ما فيه من الشهوات»(٢).

قال القاسمي:

«﴿ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ﴾؛ أي: لا أنزهها من الزلل ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها؛ فإن النفس البشرية تأمر بالسوء وتحمل عليه بما فيها من الشهوات إلا ما رحم الله من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المساوئ»(٣).

٥٣/٧٠٤- ميل الرجل للمرأة ميل فطري وغريزي.

قال القاسمي:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٠).

(٢) « البحر المحيط» (٦/ ٢٨٩).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٣٨).

«ما ركب الله -سبحانه- في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام؛ حتى إن كثيراً من الناس يصبر على الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً بل يحمد»[1].

٥٣/٧٠٥- فضيلة الصدق وقول الحق ولو كان على النفس[2].

٥٣/٧٠٦- أن رحمة الله هي التي تصرف السوء.

قال أبو حيان:

«وذكر ابن عطية أنه قول الجمهور؛ أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة»[3].

قال الإمام الشوكاني:

«أي: إلا من رحم من النفوس؛ فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء، أو إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها، وقيل: الاستثناء منقطع؛ والمعنى : لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن أن تكون أمارة بالسوء»[4].

٥٣/٧٠٧- من رحمه الله حفظه من السوء.

قال العلمي:

«قوله: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾؛ فرحمة الله تبعد النفس عن أمرها بالسوء، كما أنها تقرب للإنسان العصمة: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾،

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٣٩)، و« بدائع التفسير» (٢/ ٤٤٨).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢١).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٩٠).

(٤) «فتح القدير» (٣/ ٣٥).

وتنفي عن الناس الاختلاف: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾، وتمنع العذاب يوم القيام عن الإنسان: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ [الدخان:٤١-٤٢]، ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝ ﴾ [الأنعام:١٥-١٦]، ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ ﴾ [غافر:٩] إلى غير لك من فضائل الرحمة ومزاياها»(١).

٥٣/٧٠٨- «فضل هضم النفس باتهامها بالنقص والتقصير»(٢).

٥٣/٧٠٩- ليس كل نفس أمارة بالسوء.

قال شيخ الإسلام:

«إن في الكلام المحكي الذي أقره الله -تعالى-: ﴿ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾، وهذا يدل على أنه ليس كل نفس أمارة بالسوء، بل ما رحم ربي ليس فيه النفس الأمارة بالسوء.

وقد ذكر طائفة من الناس أن النفس لها ثلاثة أحوال:

تكون أمارة بالسوء.

ثم تكون لوامة؛ أي: تفعل الذنب، ثم تلوم عليه أو تتلوم؛ فتتردد بين الذنب والتوبة.

ثم تصير مطمئنة.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٦٥).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٤).

والمقصود هنا: أن ما رحم ربي من النفوس ليست بأمارة، وإذا كانت منقسمة إلى مرحومة وأمارة؛ فقد علمنا قطعاً أن نفس امرأة العزيز من النفوس الأمارة بالسوء؛ لأنها أمرت بذلك مرة بعد مرة وراودت، وافترت واستعانت بالنسوة، وسجنت، وهذا من أعظم ما يكون من الأمر بالسوء.

أما يوسف -عليه السلام-؛ فإن لم تكن نفسه من النفوس المرحومة من أن تكون أمارة؛ فما في الأنفس مرحوم؛ فإن من تدبر قصة يوسف -عليه السلام- علم أن الذي رحم به وصرف عنه السوء والفحشاء من أعظم ما يكون، ولولا ذلك؛ لما ذكره الله في القرآن وجعله عبرة، وما من أحد من الصالحين الكبار والصغار إلا ونفسه- إذا ابتليت بمثل هذه الدواعي- أبعد ما أن تكون مرحومة؛ من نفس يوسف.

وعلى هذا التقدير؛ فإن لم تكن نفس يوسف مرحومة؛ فما في النفوس مرحومة، فإذاً كل النفوس أمارة بالسوء، وهو خلاف القرآن»[١].

٥٣/٧١٠- إذا وقع المرء في المعصية بسبب إطاعته لنفسه الأمارة بالسوء؛ فعليه أن يبادر إلى التوبة؛ فيندم على ما فعل، ويكف عن المعصية، ويعقد العزم على أن لا يعود إليها، وبذلك يغفر الله له ويتوب عليه ويرحمه[٢].

٥٣/٧١١- المؤمن لا يزكي نفسه ويرد الأمر إلى ربه.

قال الإمام ابن قيم الجوزية:

«وهذا من تمام معرفته ﷺ بربه ونفسه؛ فإنه لما أظهر نزاهته وبراءته مما قذف به أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرؤها؛ فإنها أمارة بالسوء،

---

(١) «دقائق التفسير» (٣/ ٢٧٧).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٤).

ولكن رحمة ربه وفضله هو الـذي عصمه، فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته»[١].

٥٣/٧١٢- تربية النفوس لا يكون إلا باستحضار معنى الربوبية والإلوهية.

قال أبو السعود:

«﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ عظيم المغفرة لما يعتري النفوس بموجب طباعها ومبالغ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك وإيثار الإظهار في مقام الإظهار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادئ المغفرة والرحمة»[٢].

٥٣/٧١٣- امرأة العزيز تتهم نفسها وتبرئ عرضها.

قال شيخ الإسلام:

«وقوله: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ ؛ فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن حيث قال -تعالى-: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ

---

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٤٧).

(٢) « تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٨٦).

ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ فهذا كله كلام امرأة العزيز ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه. ولكن ما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾؛ أي: لم اخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته. فحينئذ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ وقد قال كثير من المفسرين: إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدل على نقيضه، وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع»[١].

وقال ابن قيم الجوزية:

«فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ ﴾.

قيل: هذا قد قاله جماعة من المفسرين، وخالفهم في ذلك آخرون أجل منهم وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف -عليه السلام-.

والصواب معهم لوجوه:

أحدها: أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ

---

(١) «دقائق التفسير» (٣/ ٢٧٣).

لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۞ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ﴾.

ومن جعله من قوله؛ فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقول في مثل «لا» يحذف لئلا يوقع في اللبس؛ فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعاً.

الثاني: أن يوسف -عليه السلام- لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ والسياق صريح في ذلك؛ فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ﴾ [يوسف:٥٠]؛ فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن، وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته- ولم يمكنهن إلا قول الحق- فقال النسوة: ﴿ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾.

و﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:٥١].

فإن قيل: لكن قوله: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۞ ﴾ [يوسف:٥٢] الأحسن أن يكون من كلام يوسف -عليه السلام-؛ أي إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله؛ ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. ثم إنه ﷺ قال: ﴿ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ ﴾ [يوسف:٥٣]، وهذا من تمام معرفته ﷺ بربه ونفسه، فإنه لما ظهرت براءته ونزاهته مما قذف به؛ أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها؛ فإنها أمارة بالسوء لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته.

قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفة؛ فالصواب أنه من تمام كلامها؛ فإن الضمائر كلها في نسق واحد يدل عليه وهو قول النسوة: ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ وقول امرأة العزيز: ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾؛ فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر ثم اتصل بها قوله: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ؛ فهذا هو المذكور أولاً بعينه، فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه، ويضمر فيه قول لا دليل عليه.

قيل: فما معنى قولها: ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ؟

قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف؛ فقالت: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي: قولي هذا وإقراري ببراءته ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ ﴾ بالكذب عليه في غيبته وإن خنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾.. ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أمارة بالسوء، فتأمل ما أعجب هذه المرأة! أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده، وإلا؛ فهو عرضة للشر.

فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف -عليه السلام- لفظاً ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك؛ فإن القوم كانوا يقرون بالرب -سبحانه وتعالى- وبحقه، وإن أشركوا معه غيره، ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف:٢٩]»[١].

---

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٤٦-٤٤٨).

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

٥٤/٧١٤- بيان فضل العلم وشرفه إذ به رفع الملك يوسف إلى حضرته وهو رفيع[(١)].

قلنا: وهذا مقتضى قول الله -تعالى-: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ ﴾ [المجادلة: ١١].

٥٤/٧١٥- المرء مخبوء تحت لسانه.

قال ابن عطية الأندلسي:

«فدل ذلك على أنه رأى من كلامه وحسن منطقه ما صدق به الخبر أو أربى عليه؛ إذ المرء مخبوء تحت لسانه، ثم لما زاول الأعمال مشى الأقدمية حتى ولاه خطة العزيز»[(٢)].

قال أبو حيان:

«فلما كلمه والظاهر أن الفاعل بكلمه هو ضمير الملك؛ أي: فلما كلمه الملك ورأى حسن جوابه ومحاورته، ويحتمل أن يكون الفاعل ضمير يوسف أي: فلما كلم يوسف الملك، ورأى الملك حسن منطقه بما صدق به الخبر، والمرء مخبوء تحت لسانه»[(٣)].

قال ابن عاشور:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢١).

(٢) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٥٥).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢٩١).

والمقصود من جملة ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ إفادة أن يوسف- عليه السلام- كلم الملك كلاماً أعجب الملك بما فيه من حكمة وأدب؛ ولذلك فجملة ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ جواب «لما». والقائل هو الملك لا محالة.

والمكين: صفة مشبهة من مكُن- بضم الكاف- إذا صار ذا مكانة، وهي المرتبة العظيمة، وهي مشتقة من المكان.

والأمين: فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مأمون على شيء؛ أي: موثوق به في حفظه.

وترتب هذا القول على تكليمه إياه دال على أن يوسف- عليه السلام- كلم الملك كلام حكيم أديب؛ فلما رأى حسن منطقه وبلاغه قوله وأصالة رأيه رآه أهلاً لثقته وتقريبه منه»[(١)].

قال أبو بكر الجزائري:

«تحقيق الكلمة القائلة: المرء مخبوء تحت لسانه»[(٢)].

٥٤/٧١٦- الوصف بالأمانة هو الأبلغ في الإكرام.

قال أبو حيان:

«والوصف بالأمانة هو الأبلغ في الإكرام»[(٣)].

قال ابن عاشور:

«وهذه الصيغة تولية جامعة لكل ما يحتاج إليه ولي الأمر من الخصال؛ لأن المكانة تقتضي العلم والقدرة؛ إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد

---

(١) «التحرير والتنوير» (٧/١٣).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٤).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢١٩).

إليه، وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير؛ والأمانة تستدعي الحكمة والعدالة، إذ بالحكمة يؤثر الأفعال الصالحة ويترك الشهوات الباطلة، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلها.

وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنه يريد الاستعانة به في أمور مملكته، وبأن يقترح عليه ما يرجو من خير؛ فلذلك أجابه بقوله: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾»(١).

٥٤/٧١٧- أن الملوك الأقدمين كانوا يقدرون الناس بحسب مناقبهم ومواهبهم.

قال العلمي:

«سمع الملك الريان كلام يوسف؛ فوقع في نفسه وأكبره، وعلم أنه يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة؛ تختلف صورتها عن صورة الأسمال الحقيرة التي عليه، وأنه كان لا يليق بصاحب هذه النفس أن يسجن بضعة أيام، فضلاً عن بضع سنين.

وقد جرت عادة الناس في الحكم على جلسائهم لأول وهلة أنهم يقدرونهم بما يظهر من لباسهم وحلاهم، ثم بأسمائهم وأنسابهم، وما يحملون من رتب و أوسمة، فإذا اختبروهم قدروهم بمواهبهم وقواهم، ونرى ملك مصر ههنا إنما قدر يوسف وأجله بما رزقه الله من مواهبه السامية، وأفكاره الثاقبة؛ كما قال أفلاطون لجليس له: «تكلم لأعرفك»؛ فلذلك ولما كلمه يوسف قال له: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾»(٢).

---

(١) «المرجع السابق» (١٣/ ٨).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٨٨٠).

٥٤/٧١٨- على الداعية أن يستوثق لنفسه ويضمن لها الحماية والأمان كمقدمة للعمل على نشر الدعوة[1].

٥٤/٧١٩- الناس معادن؛ فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.

قال أحمد نوفل:

«ويرسل الملك بعد سماع هذه الشهادة رسوله مرة ثانية إلى يوسف لا ليأتيه به فقط، وإنما ليستخلصه لنفسه وليقتطعه من بين الناس؛ ليكون مستشاره والعقل المفكر إلى جواره، فأحرى بمثل هذا العقل والخلق أن يكون صاحبهما أقرب المقربين إلى الملك.

وإن هذا الموقف من الملك ليدل على خلق نبيل عند الملك -أيضاً-، فإنه لا يعجب بالأمانة إلا أمين ولا بالرجولة إلا رجل ولا بالشجاعة إلا شجاع ولو كان ذا نفس أنانية صغيرة لحسد يوسف ولخشي شخصيته على شخصيته ولكان أبعده، وخسر طاقة ضخمة تستطيع أن تقود سفينة أمة إلى بر السلامة.

لكن هذا الموقف بجوار أنه شهادة ليوسف؛ فهو شهادة للملك نفسه.

فلما جاء يوسف -الآن- بعد أن لم يعد مانع يمنع من خروجه، ولن تشير إليه الأصابع والعيون همزاً ولمزاً وغمزاً، ولن تطلق من حوله الشائعات، بعد أن أعلن على الملأ نقاء صفحته يستطيع الآن أن يخرج مرفوع الرأس...فإن تسلّم مركزاً تسلّمه بهذا الرصيد من الثقة الشعبية، وبهذا الرصيد من الأخلاقية.

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٤).

وأن الرصيد الأخلاقـي المسـؤول مـن أهـم عوامـل نجاحـه، ومـن قـرأ كتابات كبار العسكريين الغربيين مثل مونتجمري يجد أنه يقـول: إن مـن أهـم أسباب نجاح القائد العسكري السمعة الأخلاقية الطيبة، والرصيد الإيماني»[1].

(١) « سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٤٦-٤٤٧).

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾.

٥٥/٧٢٠- الوظيفة تكليف وليست تشريفاً.

قال البهي الخولي:

«ولعل لنا في قصة يوسف -عليه السلام- درساً يعلمنا الدستور الذي تطلب به الوظائف والمناصب؛ فهي تطلب بالعزة لا بالذلة، وتطلب لأداء واجب وسداد ثغرة، لا حشراً بدون موجب؛ وإسرافاً في المال العام، وتطلب بحق الكفاءة والموهبة الصالحة لا بحق المحسوبية ووساطة الوسطاء.

ألا تراه -عليه السلام- يقول إثباتاً لكفاءته في غير زهو طبعاً: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾.

ولقد أخذ يوسف حظه من الملك، فدفع الله به شدة عن الناس، وكشف غماً وكروباً كثيرة، فكانت مصر في أشد أيام قحطها وجدبها، بمنجاة من خطر المجاعة المهلكة.. أما هو؛ فلم يفتنه المنصب عن ربه، ولم يعلق الترف بذرة من قلبه، وظلت بصيرته تهفو إلى ما عنده من مقامات الإحسان، فيناجي ربه بمعنى مناجاة سليمان: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ ...﴾»[(١)].

٥٥/٧٢١- التمكين في الأرض من ثمرات الإحسان.

قال أحمد نوفل:

«قوله -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ إن من ثمرات

---

(١) «تذكرة الدعاة» (ص٢٤٤-٢٤٥).

الإحسان في الدنيا التمكين للمحسنين في الأرض مع إدخار أجرهم كاملاً يوم القيامة»(١).

٥٥/٧٢٢- بلاد مصر أرض خير، وهي خزانة الأرض بكثرة خيراتها ووفرة ثمارها.

قال القرطبي:

«قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾.

قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس يقول: مصر خزانة الأرض»(٢).

٥٥/٧٢٣-الاستعداد للبلاء قبل وقوعه.

قال السعدي:

«ومن ذلك: أن يوسف -عليه السلام- جمع لهم بين تعبير الرؤيا، وبين ما ينبغي لهم أن يفعلوه ويدبروه في سنين الخصب؛ للاستعداد لسنين الجدب، وحين قال له الملك: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف:٥٤]؛ أي: تتمكن من أمور المملكة وتدابيرها، مفوض إليه الأمور لأمانته وكفاءته وكمال الثقة به، فالملك هو الذي ابتدأ توليته وتفويض الأمور إليه، وهو الذي اقترح أن يكون على خزائن الأرض، وجبايتها وتصريفها لأجل عموم المصلحة؛ ولهذا قال: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾؛ أي: أحفظ الحاصلات والغلات، وأعلم كيفية تصريفها وتدبيرها؛ فحينئذ أعتني في سنين الخصب بالمزروعات الهائلة، وجباها في مخازنها، وفي سنبلها، وأجتهد في

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص١٤٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٣).

الاقتصاد في أكلهم أيام السنين الخصيبة لتتوفر الغلال ، ويكون لها النفع العام. فحين جاءت السنون المجدبات وعم الجدب للأقطار المصرية وما جاورها من الأقطار ، وفني ما عند الناس جعلوا يقصدون مصر من كل جهة، جعل يكيل لهم كيل العدل والاقتصاد بحسب الحاجة، لا يزيد كل واحد على حمل البعير خوفاً من ألا يحتاجه المحتكرون ويحصل الضرر على المحتاجين المعوزين. ولهذا من جملة ما عالج إخوة يوسف أباهم لإرسال بنيامين معهم أن قالوا: ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾؛ أي: إذا كان معنا حصل لنا زيادة كيل بعير؛ لأن عائلة يعقوب كثيرون؛ يحتاجون إلى ميرة كثيرة، فحصل لهذه الأعمال الجليلة على يد يوسف نفع للخلق عظيم، وإزالة ضرورات ، ودفع حاجات، وتهوين للشدات والكربات»[1].

٥٥/٧٢٤- جواز إباحة عمل الفاضل للرجل الكافر شرط أن يعلم أنه يفوض إليه من فعل لا يعارض فيه[2].

قال ابن عطية:

«قال بعض أهل التأويل: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه ما لا يعارض فيه؛ فيصلح منه

---

(١) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف-عليه السلام-» (ص٤٦).

(٢) أما إذا كان عمله بحسب اختيار الكافر وفجوره يستعين به على معصية الله؛ فلا يجوز.

قلنا: وليس في ذلك حجة للمجوِّزين دخول المجالس النيابية في الدول التي لا تحكم شريعة الله -تعالى-؛ لأنهم لا يستطيعون تغيير شيء من الواقع .

ما شاء وأما أن عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره؛ فلا يجوز له ذلك»[١].

قال القرطبي:

«قال بعض أهل العلم: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطان الكافر بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه؛ فيصلح منه ما شاء، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره؛ فلا يجوز ذلك.

وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز، والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه، والله أعلم»[٢].

قال أبو حيان:

«وعلى جواز عمل الرجل الصالح للرجل الفاجر بما يقتضيه الشرع والعدل لا بما يختاره ويشتهيه مما لا يستسيغه الشرع، وإنما طلب يوسف هذه الولاية ليتوصل إلى إمضاء حكم الله وإقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد»[٣].

٥٥/٧٢٥- جواز طلب الإنسان عملاً يعلم أنه له أهلاً.

قال القرطبي:

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٥٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٥).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٢١٩).

«ودلت الآية -أيضاً- على جواز أن يطلب الإنسان عملاً يكون له أهلاً؛ فإن قيل: فقد روى مسلم[١] عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله ﷺ:« يا عبد الرحمن! لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها».

وعن أبي بردة قال: قال أبو موسى : أقبلت إلى النبي ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما مما سأل العمل، والنبي ﷺ يستاك فقال: «ما تقول يا أبا موسى -أو يا عبد الله بن قيس-؟»، قال: قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما وما شعرت أنهما يطلبان العمل. قال: وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت، فقال: «لن -أو لا- نستعمل على عملنا من أراده» وذكر الحديث؛ أخرجه مسلم[٢] -أيضاً- وغيره.

فالجواب:

أولاً: أن يوسف -عليه السلام- إنما طلب الولاية؛ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم؛ فرأى أن ذلك فرض متعين عليه، فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم لو علم الإنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه، لتعين ذلك عليه ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك؛ كما

---

(١) في «صحيحه» برقم (١٦٥٢).

قلنا: وهو عند البخاري -أيضاً- (٦٦٢٢).

(٢) في «صحيحه» برقم (١٧٣٣/ ١٥).

قلنا: وفاته هنا -أيضاً- عزوه إلى «صحيح البخاري» (٦٩٢٣)؛ فليستدرك عليه.

قال يوسف -عليه السلام-، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها، وعلم بذلك؛ فالأولى ألا يطلب لقوله -عليه السلام- لعبد الرحمن: «لا تسأل الإمارة».

وأيضاً؛ فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه؛ فيهلك، وهذا معنى قوله -عليه السلام-:«وكل إليها»، ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها؛ فرَّ منها، ثم إنه إن ابتلي بها؛ فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: «أعين عليه»[1].

قال الشوكاني:

«وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان -أن يرفع منار الحق، ويهدم ما أمكنه من الباطل- طلب ذلك لنفسه، ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي لها ترغيباً فيما يرومه وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك؛ بإلقاء مقاليد الأمور إليه، وجعلها منوطة به، ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن نبينا ﷺ من النهي عن طلب الولاية والمنع من تولية من طلبها أو حرص عليها»[2].

قال ابن عاشور:

«وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره؛ لأن ذلك من النصح للأمة، وخاصة إذا لم يكن ممن يتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمة.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٥-٢١٦).

(٢) «فتح القدير» (٣/ ٣٥).

وقد علم يوسف -عليه السلام- أنه أفضل الناس هنالك؟ لأنه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر؛ فهو لإيمانه بالله يبث أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب- عليهم السلام-.

فلا يعارض هذا ما جاء في «صحيح مسلم»: عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله- ﷺ-: «يا عبد الرحمن! لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»[1]؛ لأن عبد الرحمن بن سمرة لم يكن منفرداً بالفضل من بين أمثاله ولا راجحاً على جميعهم.

ومن هذه الآية أخذ فقهاء المذهب جواز طلب القضاء لمن يعلم أنه أهل، وأنه إن لم يول ضاعت الحقوق.

قال المازري: «يجب على من هو أهل الاجتهاد والعدالة السعي في طلب القضاء إن علم إن لم يله ضاعت الحقوق، أو وليه من لا يحل أن يولى، وكذلك إن كان وليه من لا تحل توليته ولا سبيل لعزله إلا بطلب أهله».

وقال ابن مرزوق: لم أقف على هذا لأحد من قدماء أهل المذهب غير المازري.

وقال عياض في «كتاب الإمارة»؛ أي: من «شرح صحيح مسلم»: ما ظاهره الاتفاق على جواز الطلب في هذه الحالة، وظاهر كلام ابن رشد في «المقدمات» حرمة الطلب مطلقاً.

---

(١) مضى تخريجه (ص ٦٠٨).

قال ابن مرزوق: وإنما رأيت مثل ما نقل المازري أو قريبا منه للغزالي في «الوجيز»[١].

٥٥/٧٢٦- الولاية لا تنال بالنسب والجمال، وإنما بالحفظ والعلم.

قال القرطبي:

«إنه لم يقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[٢]، ولا قال: إني جميل مليح، وإنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾؛ فسألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال»[٣].

قال ابن عاشور:

«واقتراح يوسف- عليه السلام- ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعمل في المصالح، ولذلك لم يسأل مالا لنفسه ولا عرضا من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة؛ ليحفظ الأموال، ويعدل في توزيعها، ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالها.

وعلل طلبه ذلك بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ المفيد تعليل ما قبلها لوقوع (إن) في صدر الجملة؛ فإنه علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بله كلتيهما، وهما:

الحفظ لما يليه.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٩-١٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٥٦٥).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٦).

والعلم بتدبير ما يتولاه.

ليعلم الملك أن مكانته لديه وائتمانه إياه قد صادفا محلهما وأهلهما، وأنه حقيق بهما؛ لأنه متصف بما يفي بواجبهما، وذلك صفة الحفظ المحقق للائتمان، وصفة العلم المحقق للمكانة. وفي هذا تعريف بفضله؛ ليهتدي الناس إلى اتباعه، وهذا من قبيل الحسبة.

وشبه ابن عطية بمقام يوسف- عليه السلام- هذا مقام أبي بكر- رضي الله عنه- في دخوله في الخلافة مع نهيه المستشير له من الأنصار من أن يتأمر على اثنين.

قلت: وهو تشبيه رشيق، إذ كلاهما صدّيق»(١).

٧٢٧/٥٥- إنه إذا لم يكن للولاية أقدر من العالم كان ذلك فرضاً عليه.

قال القرطبي:

«إنه رأى ذلك فرضاً متعيناً عليه؛ لأنه لم يكن هناك غيره وهو الأظهر، والله أعلم»(٢).

قال القاسمي:

«ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم في مقامه في ذلك؛ فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا»(٣).

٧٢٨/٥٥- إنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل للحاجة إليه.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٨-٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٧).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٤٣).

قال القرطبي:

«ودلت الآية -أيضاً- على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل .

قال الماوردي: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع منه فيما سواه؛ لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه؛ لما سبق من حاله، ولما يرجو من الظفر بأهله».[1]

قال ابن كثير:

«مدح نفسه، ويجوز للرجل إذا جهل أمره للحاجة، وذكر أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾؛ أي: خازن أمين ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه»[2].

قال السعدي:

«ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل؛ إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب؛ لقول يوسف: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾»[3].

٥٥/٧٢٩- أن الأمانة والكفاية هما بغية الملوك ممن يولونه.

قال أبو حيان:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٧).

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٥٤).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٨-٣٩).

«ولني خزائن أرضك؛ إني حفيظ أحفظ ما تستحفظه، عليم بوجوه التصرف، وصف نفسه بالأمانة والكفاءة وهما مقصود الملوك ممن يولونه؛ إذ هما يعمان وجوه التثقيف والحياطة، لا خلل معهما لقائل.

وقيل: حفيظ للحساب، عليم بالألسن.

وقيل: حفيظ لما استودعتني، عليم بسني الجوع، وهذا التخصيص لا وجه له»[١].

قال القاسمي:

«﴿ حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾؛ أي: أمين أحفظ ما تستحفظه، عالم بوجوه التصرف فيه، قال الزمخشري: وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه»[٢].

٥٥/٧٣٠- جواز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يصدع بالحق ويهدم ما أمكنه من الباطل.

قال الشوكاني:

«وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق ويهدم ما أمكنه من الباطل طلب ذلك لنفسه»[٣].

٥٥/٧٣١- «على الداعي ألا يكتفي في تبليغ دعوته بمجرد الوعظ، بل عليه أن يؤيد هذا الأسلوب الوعظي بالوصول إلى مركز القوة؛ كي يستطيع

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٩١).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٤٣).

(٣) «فتح القدير» (٣/ ٣٥).

تبليغ الدعوة من خلال هذا المركز بفاعلية مؤثرة؛ فإن الله يـزع بالسلطان ما يزع بالقرآن»[١].

قلنا: لكن ذلك لا يتوصل إليه بالانقلابات والتفجيرات والمظاهرات والمسيرات والاعتصامات والتهييج على الحكام وتكفيرهم، بل بمناصحتهم بالحكمة والرفق، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وإعانتهم على الحق والدعاء لهم، وهذا هو منهج السلف في معاملة الحكام لا كما يريد التكفيريون والحزبيون أن يعيدوها جذعة!!.

٥٥/٧٣٢- لا يجوز لمسلم- خصوصاً الداعية- أن يتولى منصباً يخل بالعقيدة أو يتنافى معها أو يكون كاهناً من الكهنة المشركين.

قال الشيخ ربيع بن هادي المدخلي:

«فلا يجوز أن يكون المسلم -خصوصاً الداعية- أن يتولى منصباً يخل بالعقيدة، أو يتنافى معها، أو أن يكون كاهناً من الكهنة المشركي،ن أو سادناً لأصنامهم؛ فإن فعل ذلك؛ كان من المشركين الضالين»[٢].

٥٥/٧٣٣- للمسلم أن يتبوأ منصباً في دولة غير مسلمة شريطة:

١- أن يقوم بالعدل.

٢- أن لا يطيعهم في معصية.

٣- أن لا يحكم في غير ما أنزل الله؛ كما فعل يوسف -عليه السلام-.

قال الشيخ ربيع بن هادي المدخلي:

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٥).

(٢) «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» (ص٦٦).

«أما إذا كانت دولة الإسلام غير قائمة؛ فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وللمسلم أن يتبوأ منصباً في دولة غير مسلمة شريطة أن يقوم بالعدل، ولا يطيعهم في معصية الله، ولا يحكم بغير ما أنزل الله؛ كما فعل نبي الله يوسف تبوأ منصب النيابة عن ملك كافر، وما كان يحكم بشريعته ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾، وكان يقوم بالعدل بين الرعية يدعوهم إلى التوحيد»[1].

٥٥/٧٤٣- لا تذم الولاية إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق العباد.

قال السعدي:

﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ وكذلك لا تذم الولاية إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق العباد، وأنه لا بأس بطلبها؛ إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجوداً غيره مثله أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة حق الله، فبهذه الأمور ينهى عن طلبها والتعرض لها»[2].

٥٥/٧٣٥- لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين:

قال طنطاوي جوهري:

«قال علماء الأخلاق والحكماء: لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين، هادين لهم شريطة معلومة، وأخلاق معهودة، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدى

---

(١) «المرجع السابق» (ص ٦٧).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٩).

لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال إذ قد حاز الملك والنبوة، ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها؛ وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة؛ لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبيهاً للمتعلمين ليعلموا أن تلك القصص، وقد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغني به ومجرد اللهو واللعب.

وأهم شروط الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

١- العفة عن الشهوة: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾.

٢- الحلم عند الغضب؛ ليضبط نفسه: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ ﴾.

٣- وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾.

٤- ثقته بنفسه: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾.

٥- قوة الذاكرة: ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾.

٦- جودة المصورة وقوة المخيلة: ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ ﴾.

٧- استعداد للعلم: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.

٨- شفقته على الضعفاء: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ﴾.

٩- العفو مع القدرة: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾.

١٠- إكرام العشيرة: ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

١١- قوة البيان والفصاحة: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾.

١٢- حسن التدبير: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾.

تالله ما أجمل القرآن وما أبهج العلم»[(١)].

٥٥/٧٣٦- المؤمن يوازن بين الدنيا والآخرة دون إفراط أو تفريط.

قال العلمي:

«السعي في الدنيا وطرق الشرف والمجد، هو من تعاليم الأديان الحقة، المطابقة لروح المدينة الحقيقية، وفي مقدمة هذه الأديان: الإسلام... نعم إن دين الإسلام هو دين علم وعمل، دين جهاد ونشاط، دين روحي ومادي معاً، وبعبارة أخرى دين إيجابي، بعكس بعض الأديان الأخرى؛ كالدين الهندوسي مثلاً، الذي هو سلبي محض، يأمر بإنكار الذات التام، ويحض على الابتعاد عن كل ما في الدنيا من رزق ومتاع وأسباب شرف ومجد، بحيث أن من أراد العمل بأوامر ذلك الدين- بالحرف الواحد- لزمه ترك الدنيا والتنسك في صومعة؛ ولكن دين الإسلام يمكننا العمل بأوامره تماماً، دون أن يحوجنا ذلك إلى الابتعاد عن العالم ، وما فيه مباح اللذة والتمتع بكل ما تحت الكلمة من أكل وشرب ولباس وأساس ورياش ومجد وشرف.

وأما تعليم الزهد والرهبانية وترك الدنيا؛ فإنما هو من الزوائد التي أدخلها بعض رجال الدين من العجم، ومن متمشيخة العرب الذين لم يفقهوا حقيقة الدين، فأدخلوا عليه ما ليس فيه؛ فمسخوه مسخاً، وشوهوه تشويهاً، وأما الطريقة التي كان عليه الفاروق الأكبر -رضي الله عنه-؛ فإنما هي حالة نفسية، رضيها لنفسه بنفسه، وألزم فيها نفسه، ولم يلزم بها غيره، ومع ذلك؛ فهو -رضي الله عنه- إنما زهد في الملبس والمآكل، ولكنه فيما يتعلق بالمجد

---

(١) «الجواهر في تفسير القرآن» (٧/ ٧٦-٧٧).

والشرف وبعد الصيت، فقد وصل لغاية لا غاية بعدهـا، بحيث قهر كسرى فارس، وقيصر الروم. ووضع رجله فوق رؤوس كل العتاة المتجبرين، وهو الذي كان إذا رأى رجلاً جالساً في المسجد بعد أداء الفريضة يضربه بالدرة؛ ليخرج لمعاطاة أسباب المعاش، وكان يقول: إني ليعجبني الرجل، حتى إذا علمت أنه ليس له عمل سقط من عيني.

إذا كان الإنسان خُلِق قادراً على استخدام الطبيعة في مصلحته، فإنه عليه أن لا يني في ذلك؛ لأن به ترتبط رفاهيته وراحته، وإذا كان ينبغي للقادر على الشغل أن يحمل الفأس ويقطع بها الصخور، أو يقلب بها الأرض- أفلا ينبغي لمن فيه أهلية للوظيفة أن يرشح نفسه لها، ليقوم بواجبات نفسه وأهل وطنه؟ وإذا كان الله يقول: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ فهل يجوز أن ينكر على يوسف الصديق أن يتطلب بعض منافع ما في الأرض؟...حاشا...

وهل من العبث تسمية الله -تعالى- المال خيراً في قوله -تعالى-: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

وأما قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ فالعبادة هي طاعة الله في كل ما أمر، والانتهاء عما عنه نهى وزجر، والله يقول: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص:٧٧]، ويقول: ﴿ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، ويقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك:١٥]، والإنسان مكلف أن يعمل بكل أوامر الله -تعالى-، سواء كانت أوامر دنيوية، أو أوامر أخروية، ذلك لأجل خدمة الجسم والروح، وكل من

اتبع شقاً من ذلك وترك شقاً، يكون محشوراً في زمرة الذين يبكتون بقول الله: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٨٥]»[1].

(١) «مؤتمر سورة يوسف» (٢/ ٨٩٢-٨٩٣).

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

٥٦/٧٣٧- جواز استعمال الحيلة في التوصل إلى الأمر المباح [١].

قال القرطبي:

«...وقال الكيا الطبري قوله -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾؛ دليل على إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح؛ وما فيه الغبطة والصلاح، واستخراج الحقوق، ومثله قوله -تعالى-: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص:٤٤] وحديث أبي سعيد الخدري في عامل خيبر[٢]، والذي أداه من التمر إلى رسول الله ﷺ وما قاله»[٣].

٥٦/٧٣٨- أن التقي الأمين لا يضيع سعيه؛ بل يحسن عاقبته، ويعلي منزلته في الدنيا والآخرة.

قال العز بن عبد السلام:

«﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ في الآخرة أو كلاهما في الدنيا أو كلاهما في الآخرة، ونال يوسف ذلك ثواباً على بلواه، أو تفضلاً من الله -تعالى-، وثوابه باق في الآخرة بحاله»[٤].

قال القاسمي:

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٢٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٠١و٢٢٠٢).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢١٧).

(٤) «تفسير سلطان العلماء» (٢/ ١٢٨).

«قال بعضهم: إن من أمعن النظر في قصة يوسف- عليه السلام- علم يقيناً أن التقي الأمين لا يضيع الله سعيه بل يحسن عاقبته ويعلي منزلته في الدنيا والآخرة، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ولا يخاف صروفه ونوائبه؛ فإن يوسف -عليه السلام- لما لم يخش للنوائب وعيداً، ولا للتجارب تهديداً، ولم يخف للسجن ظلماً وشراً، ولا للتنكيل به ألماً وضراً، بل ألقى توكله على الرب، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب؛ نال بطهارته وتقواه تاج الفخر، ولسان الصدق طول أيام الدهر، ولها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام، بل ادخرت لنا مثالاً نقتفي أثره عند طروء التجارب، وملاذاً نعوذ به في المحن والمصائب، ومقتدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار، وننهج منهاجه في التقوى وطيب الإزار؛ فننال في الدنيا سمة المجد، ونفوز في الآخرة بدار الخلد»[1].

قال العلمي:

«﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾، ولو كان من الدهريين والماديين، ولا نضيع أجر المحسنين، ولو كان من الجاحدين والوثنيين؛ لأن هذا إنما يكون في الدنيا؛ فكل من أتقن عمله وأحسنه، أصيب برحمة الله من الأرباح العظيمة، وكل من أحسن عمله؛ أخذ الأجرة من إقبال الناس على مصنوعاته، وتوجههم على ما يصدر من معمله، وكلما زاد إتقاناً وإحساناً؛ زادت الناس فيه ثقة، وزاد ربحه وشاع صيته، وجمل ذكره؛ وإنا لنأسف إذا غض الجمهور من الشرقيين عن إحسان أعمالهم وصناعاتهم وعلومهم وكتبهم ومطابعهم ومعاملهم، حتى لو شرعوا في إحسان شيء في البدء لم يثبتوا على ذلك دواماً،

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٤٢).

فتراهم بعد قليل من الزمن يغيرون مصنوعاتهم ويدخلون فيها الغش، فتتغير قلوب المشترين عنهم وينفرون منهم ويعاملون سواهم، ومع الأسف إنا نرى الذين فازوا بذلك هم الغربيون، فوفى الله بعدله للشرقيين حظهم من التأخر، ووفى الله بفضله للغربيين حظهم من التقدم، فإنه -سبحانه- لا يضيع أجر المحسنين لأعمالهم، سواء أكانوا شرقيين أم غربيين، وفي ذلك عبرة للمعتبرين.

لا نضيع في الدنيا أجر المحسنين، الذين يقصدون بعملهم وجه الله...؛ لأن الذي يبتغي الآخرة لا يفوته حظ الدنيا، وإن مثله مثل الزارع الذي يبذر حبه في الأرض، ويعمرها ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب، ثم هي لا محالة نابت فيها ألوان العشب مع ناضر الزرع.

إن قال قائل: ما هذا الإحسان الذي عمله يوسف حتى استحق أن يمكن في الأرض بحيث يتبوأ منها حيث يشاء.

قلنا: إننا نعلم منه إباءه عن مواتاة تلك المرأة الساقطة، وحفظه لمعروف سيده معه، وقيامه بالدعوة إلى التوحيد، وهو في سجنه، إلى غير ذلك من أنواع إحساناته التي يعلمها الله تعالى وسيثيبه عليها في الآخرة بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

نتعلم من هذه الكلمة الفاذة الجامعة: ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أن مبدأ التبادل مرعي شرعاً، فقد أمرنا الله بالصلاة والصوم والزكاة، ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة، وقال: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن:٦٠]

ونتعلم من هذه الآية الشريفة -أيضاً- أن الله -تعالى- يثيب العبد على صالح عمله في الدنيا والآخرة جميعاً؛ لأنه -تعالى- جعل تمكينه ليوسف في

الأرض من ثوابه إياه في الدنيا على إحسانه، ثم الثواب التام يكـون في الـدار الخالدة؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ [يوسف: ٥٧].

ولا نضيع أجر المحسنين، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن كلام الله -تعالى- ههنا مطلق، ولكن الأجر في الدنيا مطرد في الأمم، إضافي غير مطرد في الأفراد، وأما في الآخرة؛ فالأجر حقيقي مطرد للجميع، ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٧]، و ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة:٧-٨] وهذا هو الدستور وكل ما أوهم خلافه مؤول»[١].

٥٦/٧٣٩- المتابعة والإشراف من عناصر النجاح.

قال ابن عاشور:

«وقوله: ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ كناية عن تصرفه في جميع مملكة مصر؛ فهو عند حلوله بمكان من المملكة لو شاء أن يحل بغيره لفعل، فجملة «يتبوأ» يجوز أن تكون حالاً من «يوسف»، ويجوز أن تكون بياناً لجملة ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿ حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ -بياء الغيبة-، وقرأ ابن كثير: ﴿ حَيْثُ نشاء﴾ -بنون العظمة-؛ أي: حيث يشاء الله؛ أي: حيث نأمره أو نلهمه. والمعنى متحد؛ لأنه لا شاءه إلا ما شاءه الله»[٢].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩١٥-٩١٧).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ١٠).

قال أحمد نوفل:

«أما قوله: ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾؛ فيشير إلى تقلبه فيها معززاً، ويشير إلى متابعة الأحوال المصرية على الطبيعة، والزيارات الميدانية للأقاليم؛ لأنا بالتجربة البشرية نرى وبالمشاهدات ندرك، أنه لا تنفع خطة ليس وراءها متابعة ولا شخصية متابعة»[١].

٥٦/٧٤٠- فضيلة الإحسان في المعتقد والقول والعمل[٢].

٥٦/٧٤١- أن الله يخص بعض عباده بما لم يخص به الآخر؛ لحكمة بالغة يعلمها الله؛ خصوصاً إن كان من أهل الإحسان والتقوى.

٥٦/٧٤٢- عندما يتحقق الخير للحاكم والمحكوم وللداعية والمدعو فالفضل كله يعود لله، ولا يجوز أن ينسب الفضل لأحد منهم مهما بلغت درجة مهارته أو حدة ذكائه أو سعة علمه[٣].

٥٦/٧٤٣- مشيئة الإنسان تابعة لمشيئة الله -تعالى-.

قال أحمد نوفل:

«والسورة تصور مدى نفاد إرادة الله الخيرة ضد إرادة الإنسان في تدبير السوء ومكائد الهلاك، عندما يريد كل منهما أمراً مناقضاً للآخر»[٤].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٥٧).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٤).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٦).

(٤) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٦١٢).

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

٥٧/٧٤٤- أن الآخرة ثوابها خير من ثواب الدنيا المنقطع، وهذا للمؤمنين المتقين[(١)].

قال القاسمي:

«أي: ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين، إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، وأن ما يدخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يخولون به في الدنيا من التمكين في الأرض والجاه والثروة والملك»[(٢)].

٥٧/٧٤٥- أن الله يكرم عباده في الدنيا غير ما ادخره لهم في الآخرة من جزاء آخر.

قال السمرقندي:

«لا نبطل ثواب الموحدين حتى نوفيه جزاءه في الدنيا، ومع ذلك له ثواب في الآخرة؛ فذلك قوله -تعالى-: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾؛ يعني: ثواب الآخرة أفضل مما أعطي في الدنيا ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ أي: صدقوا بوحدانية الله -تعالى-»[(٣)].

قال أبو حيان:

«المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة»[(٤)].

---

(١) «تفسير سلطان العلماء» (٢/ ١٢٨).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٤٥).

(٣) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦٦).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٢٩٢).

٥٧/٧٤٦- فضيلة الإيمان والتقوى[١].

٥٧/٧٤٧- من كان محسناً في دنياه؛ بالتزام أوامر الله والتقرب إليه بالطاعات، وإتقان العمل وإخلاص الوجه واليد واللسان لله؛ أصابته رحمة الله وثوابه في الدنيا؛ كما يصيبانه في الآخرة [٢].

٥٧/٧٤٨- أن الله واسع الجود والكرم يجود على عبده المؤمن بخير الدنيا والآخرة.

قال السعدي:

«ومنها: أن الله واسع الجود والكرم يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة؛ وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه ويشوقها لثواب الله؛ ولا يدعها تحزن إذا رأت زينة أهل الدنيا ولذاتها؛ وهي غير قادرة عليها؛ بل يسليها بثواب الله في الآخرة، وفضله العظيم؛ لقوله -تعالى-: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾»[٣].

٥٧/٧٤٩- الإحسان يتضمن الإيمان والثبات على التقوى.

قال أبو السعود:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٤).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٦).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٩).

«﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ تنبيهاً على أن المراد بالإحسان: إنما هو الإيمان والثبات على التقوى المستفاد من جمع صيغتي الماضي والمستقبل»[1].

٥٧/٧٥٠- يوسف- عليه السلام- كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون.

قال الفخر الرازي:

«لاشك أن المراد من قوله: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ ﴾ شرح حال يوسف -عليه السلام-، فوجب أن يصدق في حقه أنه من الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهذا تنصيص من الله -عز وجل- على أنه في الزمان السابق من المتقين، وليس ههنا زمان سابق ليوسف -عليه السلام- يحتاج إلى بيان أنه كان فيه من المتقين، إلا ذلك الوقت الذي قال الله فيه: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ فكان هذا شهادة من الله -تعالى- على أنه -عليه السلام- كان في ذلك الوقت من المتقين، -وأيضاً- قوله: ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ شهادة من الله -تعالى- على أنه -عليه السلام- كان من المحسنين، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾؛ فثبت خسران من يقول: إنه كان من الأخسرين المذنبين، ولا شك أن من لم يقل بقوله -سبحانه وتعالى- مع هذه التأكيدات كان من الأخسرين»[2].

٥٨/٧٥١- عجيب تدبير الله -تعالى- لولاية يوسف -عليه السلام-.

قال ابن عاشور:

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٨٧).

(٢) «تفسير الفخر الرازي» (٩/ ١٦٨).

«وجملة ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ إلى آخرها تذييل لمناسبة عمومه لخصوص ما أصاب يوسف -عليه السلام- من الرحمة في أحواله في الدنيا، وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أعطيه من النعم وشرف المنزلة جزاء لها في الدنيا؛ لأن الله لا يضيع أجر المحسنين. ولأجره في الآخرة خير من ذلك له ولكل من آمن واتقى.

والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي وفي جانب التقوى بصيغة المضارع؛ لأن الإيمان عقد القلب الجازم؛ فهو حاصل دفعة واحدة، وأما التقوى؛ فهي متجددة بتجدد أسباب الأمر والنهي، واختلاف الأعمال والأزمان»(١).

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ١١).

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

٥٨/٧٥٢- قد ينكر الرجل صاحبه بسبب تغير الحال وطول العهد وقد يفعل ذلك عن مكر ودهاء.

قال القرطبي:

«﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾؛ لأنهم خلَّفوه صبياً، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة مع طول المدة وهي أربعون سنة؛ وقيل: أنكروه؛ لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر، وقيل: رأوه لابساً حريراً، وفي عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاج، وقد تزيا بزي فرعون مصر، ويوسف رآهم على ما كان عهدهم في الملبس والحلية، ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه وقيل: أنكروه لأمر خارق؛ امتحاناً امتحن الله به يعقوب»[(١)].

٥٨/٧٥٣- اهتمام المظلوم بظالمه ومعرفته به أشد وأدق من اهتمام الظالم بمن ظلمه؛ لذلك عرفهم يوسف ولم يعرفوه، ومنه قول الناس: «الأسى ما ينتسى».

٥٨/٧٥٤- من حسن تدبير الأمير والحاكم إدخال أجناس الناس عليه حتى من أساء إليه في الماضي القريب أو البعيد.

٥٨/٧٥٥- كل من أنكر شيئاً ولم يعرفه؛ فهو جاهل به.

٥٨/٧٥٦- قد يتظاهر الظالم أو المعتدي بإنكار كل ما يعين على إدانته وإقامة الدلائل والشواهد عليه.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢٠).

٥٨/٧٥٧- من حسن أخلاق يوسف -وهو النبي-: أنه عرف إخوته وتذكر إساءتهم له، لكنه لم يعنفهم ولم يعاتبهم.

قال ابن كثير:

«يخبر -تعالى- عن قدوم إخوة يوسف -عليه السلام- إلى الديار المصرية يمتارون طعاماً، وذلك بعد إتيان سني الجدب و عمومها على سائر البلاد والعباد، وكان يوسف -عليه السلام- إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية ديناً ودنيا؛ فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف -عليه السلام- من المكانة والعظمة؛ فلهذا عرفهم وهم له منكرون»[1].

٥٨/٧٥٨- سنوا ت الجدب عمت البلاد وأرهقت العباد.

إن مجيء إخوة يوسف -عليه السلام- من بلاد فلسطين إلى مصر يدل دون شرح أو مقدمات عن أحوال البلاد المجاورة لمصر، وأنها نزلت بها فاقة، واجتاحتها نازلة، فابتلوا بنقص في الأرزاق والثمرات وأصابهم الجوع.

قال ابن عاشور:

«وكان مجيء إخوة يوسف- عليه السلام- إلى مصر للميرة عند حلول القحط بأرض مصر وما جاورها من بلاد فلسطين منازل آل يوسف -عليه السلام-»[2].

٥٨/٧٥٩- القيادي الناجح يكون حاضراً في كل زمان ومكان.

---

(١) « البداية والنهاية » (٢/ ٢١١) .

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ١١).

إن جلوس يوسف -عليه السلام- للناس يعني أنه يتابع الأمور ويراقب الأحوال ويدقق الأموال؛ فالحضور من مؤهلات القيادي الناجح، وهو ميزة لا مثل لها.

قال ابن عاشور:

«ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره، ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات؛ لأن بها حياة الأمة»[١].

٥٨/٧٦٠- الصلات الاقتصادية بين مصر وفلسطين.

قال العلمي:

«نتعلم من هذه الآية، ومن سابق قوله: ﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٌ ﴾ ومن لاحق ﴿ وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ ﴾ أنه كان يوجد اتصال اقتصادي بين فلسطين ومصر»[٢].

---

(١) المرجع السابق (١٣/ ١٢).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٣١).

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

٥٩/٧٦١- إن إيفاء الكيل والميزان لا يكون إلا بتمامه وعدم بخسه.

قال ابن الجوزي:

«﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ ﴾ ؛ أي: أتمه ولا أبخسه»(١).

قال القرطبي:

«﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ ﴾؛ أي: أتمه ولا أبخسه، وأزيدكم حمل بعير لأخيكم»(٢).

٥٩/٧٦٢- بيان أن الترغيب يؤنس النفس ويستميلها، وأن له أثره عليها(٣).

٥٩/٧٦٣-إكرام الضيف والعناية به، وأنها من سنن المرسلين.

قال العز بن عبد السلام :

«﴿ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ المضيفين من النزل، وهو: الطعام، أو خير من نزلتم عليه من المنزل: وهو الدار»(٤).

قال القرطبي:

«فيه وجهان:

أحدهما: أنه خير المضيفين؛ لأنه أحسن ضيافتهم؛ قاله مجاهد.

---

(١) «زاد المسير» (٤/ ٢٤٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢١).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٥٨).

(٤) «تفسير سلطان العلماء» (٢/ ١٢٩).

الثاني: وهو محتمل أي خير من نزلتم عليه من المأمونين.

وهو على التأويل الأول مأخوذ من النزل: وهو الطعام، وعلى الثاني من المنزل: وهو الدار»[١].

قال القاسمي:

«أي: المضيفين، وقوله ذلك تحريض لهم على الإتيان به لا امتنان»[٢].

قال السعدي:

«ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين وإكرام الضيف؛ لقول يوسف لإخوته: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾»[٣].

٥٩/٧٦٤- على المؤمن إذا مكنته الأقدار من الاجتماع بمن أساء إليه أن يتسع صدره ويمهد الطريق أمامهم للانتفاع من الخيرات التي وضعها الله بين يديه وحسن الصفات التي أنعم الله بها عليه[٤].

٥٩/٧٦٥- تعمية يوسف أمره على إخوته.

قال ابن عاشور:

«وقوله: ﴿ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم ﴾ يقتضي وقوع حديث منهم عن أن لهم أخاً من أبيهم لم يحضر معهم، وإلا لكان إنباء يوسف -عليه السلام- لهم بهذا يشعرهم أنه يكلمهم عارفاً بهم وهو لا يريد أن يكشف ذلك لهم»[٥].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢٢).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٤٦).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٩).

(٤) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٧).

(٥) «التحرير والتنوير» (١٣/ ١٢-١٣).

٧٦٦/٥٩- برهان قرآني أن يوسف وإخوته أبناء علات.

قول: ﴿ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡ ﴾ يدل دلالة مطلقة أن يوسف وأخاه (بنيامين) أشقاء بينما يوسف وباقي إخوته أبناء علات.

٧٦٧/٥٩- إذا لم تغلب فاخلب.

قال العلمي:

«يقولون في المثل: «إذا لم تغلب فاخلب»؛ فيوسف -عليه السلام- لما لم يستحسن قهر إخوته على إتيانهم ببنيامين؛ سلك مسلك المصايدة والزلفى؛ تذرعاً منه لمجيئهم به»[1].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٤٣).

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ ﴾

٦٠/٧٦٨- وأن الترهيب مما يحث النفس على الاهتمام بالأمر .

٦٠/٧٦٩- الشرط أملك عليك أم لك.

اشترط يوسف -عليه السلام- مجيء أخيه؛ فإن لم يأت؛ فلا كيل لكم حين تأتون مصر ثانية، بل ولا تقربوها مرة أخرى؛ فأنتم مخيرون بين الميرة ودخول بلادي وبين عدم ذلك... لا تنسوا شرطي عليكم؛ فالشرط أملك عليك أم لك.

والشيء بالشيء يذكر: أتذكر أنه كان دفع رجلان إلى امرأة مائة دينار وديعة، وقالا لها: «لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه» فلبثا ما شاء الله أن يلبثا، ثم جاء أحدهما فقال: «إن صاحبي قد مات، فادفعي إليّ الدنانير»، فأبت، وقالت: «إنكما قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه، فلست بدافعتها إليك»، فثقل عليها بأهلها وجيرانها حتى دفعتها إليه، ثم لبثت ما شاء الله أن تلبث، فجاء الآخر فقال: «ادفعي إلي الدنانير»، فقالت: «إن صاحبك جاءني فزعم أنك قد مِتّ، فدفعتها إليه»- فقال: «إنه لعب عليك وذهب هارباً»، فاختصما إلى القاضي؛ فعرف أنهما قد مكرا بها، فقال: «أليس قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه؟» قال: بلى، قال: «إن مالكما موجود عندها، فاذهب فجيء بصاحبك حسب شرطكما، حتى تدفعه إليكما، فإن الشرط أملك»، وهكذا يوسف -عليه السلام- إذا رجع إخوته إليه بدون بنيامين وأرادوا الميرة يقول لهم: «قد اشترطت عليكم أن تأتوني بأخ لكم من أبيكم ، ولم تفعلوا، فليس لكم عندي ميرة حتى تأتوني به»[١].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٤٩) بتصرف.

﴿ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾.

٦١/٧٧٠- فيه بيان على عزة المطلب وصعوبة المنال فيكون ترقباً إلى الوعد بتحصيله بعد المراودة.

قال القاسمي :

«﴿ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾؛ أي: سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده ونجتهد في ذلك، وفيه: تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله - قاله أبو السعود- ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ ؛ أي: ذلك، يعنون: المراودة أو الإتيان به؛ فيكون ترقباً إلى الوعد بتحصيله بعد المراودة»[١].

٦١/٧٧١- على الحاكم المسلم أن لا يدخر وسعاً في تأليف قلوب الناس بكل وسيلة ممكنة سواء في مجال الترغيب الذي يستتبع منح الخير أو الترهيب الذي يستتبع منع الخير[٢].

٦١/٧٧٢- إذا أردت أن تطاع فسل المستطاع.

قال العلمي:

«حينما طلب يوسف من إخوته تلك الطلبة، وهي ضرورة إتيانهم بأخ لهم من أبيهم عند مجيئهم لمصر للمرة الثانية، وحينما أفهمهم نتيجة عدم إتيانهم به، خاطبوه قائلين له باعتباره أنه عزيز مصر: أيها العزيز، لقد رغبت في أمر كؤود المطلب وعر الملتمس؛ فإن أخانا هذا الذي ترغب في مجيئه، أصغر أولاد أبينا الشيخ وابن شيخوخته، وقد اتخذه أكبر مُعزّ له بعد أخ له مفقود، فالإتيان به إن لم يكن متعذراً؛ فهو متعسر، فلو قلنا لك: لسنا هناك،

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٤٧).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٧).

لأن الأمر ليس بيدنا، بل بيد أبيـه الشيخ كنا صادقين، وإن قلنا لـك: «إذا أردت أن تطاع، فمر بما يستطاع» وإن هذا الأمر ليس إلينا كنا معذورين، ومع ذلك فقد أذنا لك وسمعنا وأطعنا»(١).

٦١/٧٧٣- الوعد يكون على سبيل التحقيق لا التعليق.

قال ابن عاشور:

«وعد بأن يبذلوا قصارى جهدهم في الإتيان بأخيـهم وإشـعار بصعوبـة ذلك. فمعنى ﴿ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ ﴾ سنحاول أن لا يشح به...

وجملة: ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ عطف على الوعد بتحقيـق الموعـود بـه، فـهو فعل ما أمرهم به، وأكدوا ذلك بالجملة الاسمية وحرف التأكيد»(٢).

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٥٠-٩٥١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ١٤).

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

٦٢/٧٧٤- الصبر الفاتح لما أغلق.

هذا التدبير من يوسف - عليه السلام- سيكون له - إن شاء الله- أثر كبير؛ فكما وضع خطة طويلة الأمد لإنقاذ مصر من المجاعة رسم أخرى لاستنقاذ أخيه من المأساة ونفذها على مراحل مما يدل على بعد نظره واستشرافه للمستقبل وصبره على مشقة الانتظار ....ولكنه يعلم بما علمه الله أن الصبر الفاتح لما أغلق... إنه يعرف كيف يفتح باب الحركة وكيف يدير المعركة...!

٦٢/٧٧٥- بيان أثر الإيمان في السلوك وإنه يحملهم على رد البضاعة ولا يستحلون إمساكها.

قال أبو بكر الجزائري:

«أثر الإيمان في السلوك؛ إذ عرف يوسف أن إخوته لا يستحلون أكل مال بغير حقه؛ فجعل الدراهم في رحالهم؛ ليرجعوا بها، ومعهم أخوهم الذي يريد إحضاره»(١).

٦٢/٧٧٦- بيان كرم يوسف -عليه السلام- في رد البضاعة؛ ليكون أدعى لهم على الإتيان به لا على الامتنان.

قال ابن الجوزي:

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٦).

«استقبح أخذ الثمن من والده وإخوته مع حاجتهم إليـه؛ فـرده عليـهم من حيث لا يعلمون سبب رده تكريماً وتفضلاً»(١).

قال القشيري:

«جعل بضاعتهم في رحالهم -في باب الكرم- أتم لو وهبها لهم جهراً»(٢).

٦٢/٧٧٧- الحازم من جميع الترهيب والترحيب والشدة والترغيب.

لقد كان يوسف -عليه السلام- حازماً مع إخوته؛ ليعلموا أن المسألة لا تقبل المساومة أو المماطلة، ولكنه كان رفيقاً؛ فوضع لهم حوافز كثيرة لتغريـهم بالعودة والإياب... إنهم سـيتذكرون إحسـانه وإكرامـه ويـزدادون بـه إعجابـاً عندما يرون بضاعتهم ردّت إليهم، ولله در القائل: ليس من رسول كالدرهم.

وقال آخر:

والنـــاس أكـــبر مـــن أن يمدحـــوا رجـــلاً
حتـــى يـــروا عنـــده آثـــار إحســـان

٦٢/٧٧٨- سـعي يوسـف -عليـه السـلام- في إحضـار أخيـه بـالقول والفعل.

لم يكتف يوسف -عليه السلام- بالقول الذي شرحه لإخوانه بـل قرنـه بالعمل الجدي والفعل الفوري؛ فوضع فتيانه بضاعتهم في رحـالهم؛ لأن هـذه المنفعة المادية ستكون حجر المغناطيس الذي سيرجع بهم إلى مصر مصطحبـين أخاه الحبيب.

---

(١) «زاد المسير» (٤/ ٢٥٠).

(٢) «اللطائف والإشارات» (٣/ ١٩٢).

٦٢/٧٧٩- لم يبادر إلى تعريفهم بنفسه والتعجيل بإدخال السرور إلى أبيه لما يأتي من الحكم البالغة والتدبير المتين.

قال البقاعي:

«﴿ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ أي: ليكون حالهم حال من يرجع إلينا إذا عرفوها لردها أو للميرة بها إن لم يكن عندهم غيرها أو طمعاً في مثل هذا، وإنما لم يبادروا إلى تعريفهم بنفسه والتعجيل بإدخال السرور، لأن ذلك غير ممكن عادة؛ لما يأتي من الحكم البالغة والتدبير المتين»[1].

٦٢/٧٨٠- على الحاكم المسلم الذي يستعمل الحيلة في كسب محبة الناس له ويسخر في سبيل ذلك ذكاءه ومكره: أن يعتمد على الله لبلوغ غايته وتحقيق هدفه؛ فإنه لا يفلح المكر ولا ينفع من جانب المؤمن إلا بتوفيق من رب العالمين[2].

٦٢/٧٨١- نبه الله -تعالى- برد بضاعتهم إليهم على أن أعمال العباد تعود إليهم يثابون على الطاعات ويعاقبون على المعاصي.

٦٢/٧٨٢- فائدة في تفنيد تأويلات فاسدة وآراء كاسدة.

قال العلمي:

«كيف جاز ليوسف التصرف بأموال الخزينة المصرية؟

سألني سائل قائلاً: كيف جاز ليوسف -عليه السلام- أن يتصرف بأموال الخزينة المصرية مع أنه لم يكن سوى موظف يجب عليه أن يشتغل في مأموريته بأمانه.

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ٦٨).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٨).

فأجبته بقولي:

أولاً: لناظر بيت المال أن يصرف شيئاً من الخراج في سبيل المصالح العامة التي منها مساعدة الغرباء المحتاجين، ولعل إخوة يوسف منهم.

وثانياً: كانت المساعدات التي أداها يوسف لمصر، والخدمات التي خدم بها أهلها، بمثابة خميرة تثبت له وجه التصرف في أموال الخزينة بما شاء وكيف أراد، فإنه لو كان مستأجراً على ذلك لاستحق الشيء الكثير من واردات سني الخصب.

ثالثاً: يقول الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠ ﴾ [التوبة:٦٠] وربما كان إخوة يوسف فقراء أو مساكين؛ ولا ينافيه أنهم أتوا للميرة على دواب لهم، لأنهم كانوا يحتاجون للدواب للركوب عليها في روحاتهم وجيئاتهم، لأنهم من الرحل ساكني الخيام، فهي نظير آلة الجهاد للمجاهد، وكتب العلم للعالم، وآلة الصناعة للصانع، ودواب السفر لمن يعيش بالمكاراة، والضرب في الأرض، وكالسفينة للملاح، قال تعالى على لسان العبد الصالح: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ [الكهف:٧٩]؛ فهذه السفينة كانت ملكاً لهم، وملكهم لها لم يخرجهم عن المسكنة، لما عرفت من أن الآلات التي تقوم بها المعيشة مستثناة، وربما يوسف -عليه السلام- قد أعطاهم فضتهم وميرتهم؛ لأنه اعتبرهم من «المؤلفة قلوبهم» أعني بذلك تأليف قلوبهم للرجوع بأخيه بنيامين، كما قال: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف:٦٢] هذا مذهب له واجتهاد منه، لا يجوز لنا أن

نعترض عليه فيه لا سيما وأن له شرعة ومنهاجاً غير شرعتنا ومنهاجنا، والله أعلم.

وههنا شيء دقيق وهو أنه يظهر من قرائن الأحوال أن يوسف -عليه السلام- كان متمتعاً بما يشبه الاستقلال الإداري، فكان يتصرف فيما عهد به إليه تصرفا مطلقاً، زيادة عن بقية مأموري الدولة، فكان يوسف متفوقاً على باقي وكلاء الملك، لأنه كان هو «العزيز» القابض على ناصية المال، وهو الوكيل الأعظم والصدر الأعلى.

وأما ما أجاب به فريق من المفسرين بما مرماه: أن يوسف -عليه السلام- موحد يشتغل في أموال قوم وثنيين، فيجوز له أن يأخذ منها ما وصلت إليه يده؛ فهو جواب غير صحيح؛ لأنه إنما يجوز أكل مال الحربي في داره، والحادثة التي ههنا لم تتوفر فيها هذه القيود:

أولاً: لأن «الريان» ليس حربياً ليوسف.

ثانياً: ليس من عقد فاسد جرى بين يوسف والريان.

ثالثاً: إن يوسف -عليه السلام- وكيل عن الملك الريان، والوكيل مؤتمن، لا سيما وقد وضع فيه الريان ثقته وقال له: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾؛ فيجب أن يكون الريان أميناً لدى يوسف كما كان يوسف أميناً لديه، كما هو مقتضى الشهامة والمروءة؛ فافهم ذلك ولا تكن من الغافلين»[1].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٥٤-٩٥٥).

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

٦٣/٧٨٣- صاحب الحاجة قد يؤثر نفسه على غيره لشدة حاجته ولهفته.

قال أحمد نوفل:

«وأنظر وتأمل أنهم بدأوا أباهم من حين عودتهم والحديد ساخن، بدأوه بإخبار الخبر الذي عندهم من منع الكيل، ولقد أخبروا بالخبر قبل أن يفتحوا متاعهم من شدة اهتمامهم بإيصال الخبر..

ولاحظ الصيغة التي أخرجوا بها الكلام..إن القرآن ببعض الإشارات اللغوية يحلل نفسيات شخصيات قصصه، وبشيء من التقديم والتأخير وشيء من الحروف يستطيع وهو كلام الخبير أن يصور لك العالم النفسي أدق تصوير، ويأتيك يه منكشفا أتم انكشاف...ظاهراً كل الظهور.

أقول: لاحظ الصيغة كيف جاءت باتة قاطعة: ﴿ مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ ﴾، ولم يخرجوا الكلام بصو, ة جواب شرط متأخر مثلاً: إن لم ترسل معنا أخانا فسيمنع منا الكيل بعد هذه المرة.. إن الكلام الأحير يدل عل نفس هادئة تنقل قضيتها في بحبوحة وسعة... ولكن كلام القرآن يصور نفوساً حرى تتلظى بين نارين... نار عدم القدرة على العودة إلى مصر إلا بأخيهم.. ونار نبش الماضي بطلب أخيهم من والدهم. أرأيت كيف نقل لك القرآن الكريم العالم النفسي في كلمات.. ولو غير القرآن ينقل لنا هذه القصة لاحتاجت إلى مجلدات.. وما كانت وفت ولا أغنت... وهيهات»[١]

٦٣/٧٨٤- بيان حرص الإنسان على ما ينفعه من أمور المعاش.

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٦٩).

٦٣/٧٨٥- ينبغي للإنسان الذي يعهد إليه بمهمة أن يقدم ضمانات لحفظ النفس أولاً وحفظ المال ثانياً [١].

٦٣/٧٨٦- على المرء الذي ينقل حديثاً أو يخبر عن حادث أن لا يزيد فيه ولا ينقص منه كيلا يكون ذلك سبباً في وضع التقديرات الخاطئة بناء على حديثه أو خبره.

٦٣/٧٨٧- استخدام المستقبل بصيغة الماضي للدلالة على حتمية الوقوع.

قال أحمد نوفل:

«﴿ مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ هذا للمستقبل، ولكنهم أخرجوه بصيغة الماضي؛ ليؤكدوا المنع»[٢].

قلنا: ويدل على هذا قوله -تعالى-: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل:١].

فعبر عن المستقبل بصيغة الماضي للدلالة على حتمية الوقوع والجزم به... ولو كان أتى فكيف يستعجل به؛ فتدبر.

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٨).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٧١).

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

٦٤/٧٨٨- بيان مدى توكل يعقوب -عليه السلام- على الله وثقته بـه -عز وجل- ومعرفته بأسمائه وصفاته وكيف لا وهو أحـد أنبيـاء الله ورسـله- عليهم السلام-[١].

٦٤/٧٨٩- لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

٦٤/٧٩٠- ترجيح المصلحة العامة على الخاصة.

قال ابن عطية:

«قوله: ﴿ هَلْ ﴾ توقيف وتقرير وتألم يعقوب -عليه السـلام- مـن فرقـة بنيامين، ولم يصـرح بمنعـهم مـن حملـه لما رأى في ذلـك مـن المصلحـة، لكنـه أعلمهم بقلة طمأنينته إليهم، وأنه يخاف عليه من كيدهم؛ ولكن ظاهر أمرهـم أنهم كانوا نبؤوا وانتقلت حالهم فلم يخف كمثل ما خـاف علـى يوسـف مـن قبل لكن أعلم بأن في نفسه شيئاً ثـم استسـلم لله -تعـالى- بخـلاف عبارتـه في قصة يوسف»[٢].

قال القاسمي:

«﴿ قَالَ ﴾ أي: يعقوب -عليه السلام- لهم ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾؛ أي: من قبله يوسف؛ يعـني: هـل أقـدر أن آخـذ عليكم العهد والميثاق أكثر مما أخذت عليكم في يوسف وقد قلتـم: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٩).

(٢) «المحرر الوجيز» (٦/ ٢٥٨).

لَحَـٰفِظُونَ ﴾ ثم ختنتم بضمانكم ؟فما يؤمنني من مثل ذلك؟ فلا أثق بكم ولا بحفظكم وإنما أفوض الأمر إلى الله ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ﴾؛ أي: منكم ومن كل أحد ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾؛ أي: أرحم من والديه وإخوته؛ فأرجو أن يرحمني بحفظه، وهذا ميل منه إلى الإذن في إرساله معهم؛ لما رأى فيه من المصلحة»[1].

٦٤/٧٩١- إن سوء الظن مع وجود القرائن الظاهرة الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم.

قال السعدي:

«ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدّالة عليه غير ممنوع ولا محرم؛ فإن يعقوب قال لأولاده بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة ثم قال لهم بعد ما أتوه وزعموا أن الذئب أكله ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ وقال لهم في الأخ الآخر ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ ثم لما احتبسه يوسف عنده وجاء في الأخيرة وأن لم يكونوا مفرطين فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج»[2].

٦٤/٧٩٢- طبيعة بني إسرائيل الغدر والخيانة.

قال العلمي:

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٤٨).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن»(٤/ ٣٩).

«قص الله علينا ما دار هنا من المقالات بين يعقوب -عليه السلام- وأولاده؛ لكي يكشف لنا بعض غرائز بني إسرائيل، كيف لم يأتمنهم أبوهم على أخيهم الأصغر؛ حيث سبق أنهم خانوا الأمانة لما ذهبوا بأخيهم الصغير قاس أبوهم حادثة بنيامين التي ربما تقع على حادثة يوسف التي وقعت فعلاً.

وقص الله علينا ذلك؛ لنقيس نحن حاضر أحوال سلائلهم على ماضيه، ولنكون على حذر تام من اليهود اليوم...خصوصاً الصهيونيين منهم؛ عافانا الله تعالى من شرورهم»[١].

٦٤/٧٩٣- عذاب النفس أشد من ألم السياط.

قال أحمد نوفل:

«ولقد جاء الرد من أبيهم ساخناً متوقعاً على شكل استفهام استهجاني تعجبي، ولم يقل لهم: هل سيكون فعلكم معه إلا كفعلهم مع أخيه من قبل، ولكن هو ينفي ما قبل هذا، إنه ينفي الخطوة الأولى أصلاً: ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ ﴾ إن الائتمان غير وارد وبالتالي الاقتدار على الفعل غير وارد من باب أولى.

وإن لكلماته لوقع السياط على ظهورهم، وهم لذلك أهل... والذي يعذبهم أكثر أنهم الآن صادقون ولا يستطيعون إقناع بصدقهم، مثلهم كمثل الذي كذب مرة حين أخبر عن ذئب واحد عدا على غنمه، فلما عدا الذئب حقيقة فاستصرخ الناس لم يصدقوه»[٢].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٦٦).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٧٢).

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ ﴾.

٦٥/٧٩٤- المسلم الذي يخاف الله يأبى أن يُبقي في حوزته أية أموال تأتيه من غير أسباب التمليك المشروعة بل يردها إلى مصدرها[١].

٦٥/٧٩٥- القيام على مصالح الأهل من طعام ورعاية.

قال البغوي:

«﴿ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا ﴾؛ أي: نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم، يقال: مار أهله يمير ميراً: إذا حمل إليهم الطعام من بلد آخر، ومثله امتار يمتار امتياراً»[٢].

قال ابن الجوزي:

«﴿ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا ﴾؛ أي: نجلب لهم الطعام. قال ابن قتيبة: يقال: مار أهله يميرهم ميراً وهو مائر لأهله: إذا حمل إليهم أقواتهم من غير بلده»[٣].

٦٥/٧٩٦- أولى الأمور بالنجاح كثرة التكرار والإلحاح.

قال العلمي:

«وهكذا لم يزالوا يجادلون أباهم جدال طلب وهو يجادلهم جدال امتناع، ولكنهم أظهروا من ضعفهم مع أبيهم قوة، أثروا عليه بها، وأولى الأمور بالنجاح التكرار والإلحاح، كما كانوا أثروا عليه حينما أرادوا أخذ يوسف منذ

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٣٩)

(٢) «مختصر تفسير البغوي» (١/ ٤٤٦).

(٣) «زاد المسير» (٤/ ٢٥٢).

٢٣ سنة، لكن نيتهم في هذه المرة كانت صالحة، وبالنتيجة وأخيراً: اجتهد إخوة بنيامين حتى أحرجوا أباهم وأعارهم أذناً صاغية، واستنام لكلامهم، وركن إليهم، وغلب على أمره، وسمح بإنفاذ بنيامين معهم، لكن بشروط سلك فيها معهم سبيل الاحتياط»(١).

٧٩٧/٦٥- من روائع النظم القرآني المعجز.

قال ابن عاشور:

«وجملة ﴿ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا ﴾ مبينة لجملة ﴿ مَا نَبۡغِيۖ ﴾ على الاحتمالين. وإنما علموا أنها ردت إليهم بقرينة وضعها في العدل بعد وضع الطعام وهم قد كانوا دفعوها إلى الكيالين، أو بقرينة ما شاهدوا في يوسف -عليه السلام- من العطف عليهم، والوعد بالخير إن هم أتوا بأخيهم إذ قال لهم: ﴿ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴾.

وجملة ﴿ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا ﴾؛ لأنها في قوة هذا ثمن ما نحتاجه من الميرة صار إلينا ونمير به أهلنا؛ أي: نأتيهم بالميرة.

والميرة- بكسر الميم بعدها ياء ساكنة-: هي الطعام المجلوب.

وجملة ﴿ وَنَحۡفَظُ أَخَانَا ﴾ معطوفة على جملة: ﴿ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا ﴾، لأن المير يقتضي ارتحالاً للجلب، وكانوا سألوا أباهم أن يكون أخوهم رفيقاً لهم في الارتحال المذكور، فكانت المناسبة بين جملة: ﴿ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا ﴾ وجملة ﴿ وَنَحۡفَظُ أَخَانَا ﴾ بهذا الاعتبار، فذكروا ذلك تطميناً لخاطر فيهم.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٦٨).

وجملة: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ زيادة في إظهار حرصهم على سلامة أخيهم؛ لأن في سلامته فائدة لهم بازدياد كيل بعير؛ لأن يوسف -عليه السلام- لا يعطي الممتارَ أكثر من حمل بعير من الطعام، فإذا كان أخوهم معهم أعطاه حمل بعير في عدد الإخوة. وبه تظهر المناسبة بين هذه الجملة والتي قبلها.

وهذه الجملة مرتبة ترتيباً بديعاً؛ لأن بعضها متولد عن بعض»[(١)].

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ١٧-١٨).

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

٦٦/٧٩٨- جواز أخذ العهد في الأمور الهامة، ولو على أقرب الناس؛ كالأنبياء مثلاً [١].

٦٦/٧٩٩- الموثق الرباني: وهو ما كان بأسمائه -تعالى-؛ لكونه إذن سبحانه فيه وأمر بالوثوق به.

قال البقاعي:

«﴿ مَوْثِقًا ﴾ وهو العقد المؤكد.

ولما كان مراده موثقاً ربانياً، وكان الموثق الرباني - وهو ما كان بأسمائه -تعالى-؛ لكونه أذن -سبحانه- فيه وأمر بالوثوق به - كأنه منه، قال: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: الملك الأعظم بأيمان عظيمة»[٢].

٦٦/٨٠٠- المصائب تحمل العقلاء على التعقل والتيقظ والاحتياط في المرات القادمة.

قال البقاعي:

«كل ذلك زيادة في التوثيق لما حصل له من المصيبة بيوسف -عليه السلام- وإن كان الاعتماد في حفظه إنما هو على الله، وهذا من باب اعقلها وتوكل؛ فأجابوه إلى جميع ما سأل»[٣].

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٩).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٧٠).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٧٠).

٦٦/٨٠١- جواز الحمالة بالعين الوثيقة بالنفس، على أن تكون في المال ولا تكون في حد أو تعزير.

قال القرطبي:

«وهذه الآية أصل الحمالة[١] بالعين والوثيقة بالنفس، وقد اختلف العلماء في ذلك؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هي جائزة إذا كان المتحمل به مالاً، وقد ضعف الشافعي الحمالة بالوجه في المال، وله قول كقول مالك، وقال عثمان البَتيّ: إذا تكفل بنفس في قصاص أو جراح؛ فإنه إن لم يجيء به لزمه الدية وَأَرْش الجراح، وكانت له في مال الجاني إذ لا قصاص على الكفيل، فهذه ثلاثة أقوال في الحمالة بالوجه، والصواب تفرقة مالك في ذلك، وأنها تكون في المال ولا تكون في حد أو تعزير»[٢].

٦٦/٨٠٢- لا يخاطر المؤمن بنفس أو مال، ولكنه يحيطه بأقصى ما يستطيع من سياج الحماية والصيانة، وذلك بربطه بعهد الله وميثاقه[٣].

٦٦/٨٠٣- في المجتمع المسلم لا يبرم عهد ولا يعقد عهد إلا ويشهد الله عليه ويوكل به[٤].

٦٦/٨٠٤- الأقدار لها أحكام، والرب -تعالى- يقدر ما يشاء.

قال ابن كثير:

---

(١) الكفالة.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢٥).

(٣و٤) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٤٠).

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أكد المواثيق، وقرر العهود، واحتاط لنفسه في ولده، ولن يغني حذر من قدر، ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة لما بعث الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكام، والرب -تعالى- يقدر ما يشاء، ويختار ما يريد، ويحكم ما يشاء، وهو الحكيم العليم»[1].

٨٠٥/٦٦- وجوب التعلم من درس الماضي.

قال العلمي:

«للماضي دروس تعلم الإنسان أموراً لم يكن في البال أن يتمسك بها، هو بهذه الدروس يدرس ما في جعبة الدهر من خفايا وأسرار، فيحرص على اجتناب كل مضر منها، وتقديم كل نافع مفيد، وترانا لا نذهب بعيداً للاستدلال على صحة ما نقول، فهذا صفي الله إسرائيل[2] هو اليوم غيره، قبل (٢٢سنة)، ومن ينكر أن هذا الصفي الكريم كان قبل (٢٢ سنة)، قد استرسل مع أولاده، لحسن ظنه فيهم، حتى جاؤوه وأثروا عليه ذلك التأثير المغناطيسي، وسحبوا ولده المحبوب- يوسف- من حضنه، وأسلموه لحضن الجب؟.. لا يستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة أبداً، كان أبوهم أمس هكذا، ولكنه اليوم يخافهم كما يخاف الثعالب والثعالي، فهو بين أمس واليوم قد تغير فكره في أولاده، وشرع يسلك معهم سبيل الحيطة، فلذلك لم يرد أن يلبي طلبتهم، بأخذهم بنيامين لمصر، إلا بعد اللتيا والتي، وبعد استيثاقه منهم

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٢١٢).

(٢) هو لقب نبي الله يعقوب عليه السلام.

بالأيمان المحرجة، فهكذا ينبغي لنا نحن أن نكـون مـع النـاس المشتبه فيـهم، لا سيما سلائل هؤلاء الآباء؛ أعني يهود اليوم»[١].

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف»(٢/ ٩٧٥-٩٧٦).

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

٦٧/٨٠٦- حذرهم لا يغني من قضاء الله من شيء.

قال السمرقندي:

«﴿ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾؛ يعني: من سكك متفرقة ومن طرق شتى؛ لكي لا يظن بكم أحد أنكم جواسيس، ويقال: خاف يعقوب عليهم العين بجمالهم وقوتهم، وهم كلهم بنو رجل واحد.

فإن قيل: أليس هذا بمنزلة الطيرة؛ وقد نهي عن الطيرة؟

قيل له: لا، ولكن أمر العين حق وروي عن رسول الله ﷺ أنه كان يرقي من العين، ويتعوذ منها للحسن والحسين.

ثم قال: ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؛ يعني: من قضاء الله ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ ﴾؛ يعني: القضاء ﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ إن شاء أصابكم العين، وإن شاء لم يصبكم ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾؛ يعني: فوضت أمري وأمركم إليه ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾؛ يعني: فليثق الواثقون، قوله -تعالى-: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ من السكك المتفرقة ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾؛ يعني: حذرهم لا يغني من قضاء الله من شيء؛ يعني: العين لو قدرت أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون؛ كما تصيبهم وهم مجتمعون»[١].

---

(١) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦٩).

قال ابن الجوزي:

«قوله -تعالى-: ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾؛ أي: لن أدفع عنكم شيئاً قضاه الله؛ فإنه إن شاء أهلككم متفرقين، ومصداقه في الآية التي بعدها»[1].

قال ابن كثير:

«يقول -تعالى- إخباراً عن يعقوب -عليه السلام-: أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم إلى مصر أن لا يدخلوا من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة؛ فإنه كما قال ابن عباس والسدي وغير واحد: خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء؛ فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه، وقوله: ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾؛ أي: أن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع»[2].

٦٧/٨٠٧- وجوب التوكل على الله -تعالى- وحده وإمضاء العمل الذي تعين، وتفويض أمر ما يحدث لله -تعالى-[3].

قال العلمي:

١- «إن سر التوكل وحقيقته، هو: اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفع الإنسان قوله: توكلت على الله مع اعتماده على غيره، وركونه إليه

---

(١) «زاد المسير» (٢/ ١٦٩).

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٥٦).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٩).

وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق شيء، فقول العبد: توكلت على الله مع اعتماد قلبه على غيره، هو مثل قوله: تبت إلى الله وهو مُصِرّ على معصيته مرتكب لها، كذلك توكل العبد على الله مع عدم أخذه بالأسباب هو مثل من يتعاطى عبادة فاسدة كمن يصلي بلا وضوء مثلاً.

٢- نعلم من قوله:﴿ لَا تَدْخُلُواْ ﴾ ... ﴿ وَٱدْخُلُواْ ﴾ ... ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾... أن يعقوب-عليه السلام- فضل التحرز والحيطة، ومع ذلك فقد ألقى حبل اتكاله على الله؛ فجمع بهذا بين الأخذ بالأسباب والتوكل، وكلام يعقوب يشير إلى أنه لا منافاة بين الأخذ بالأسباب والتوكل؛ لأن التوكل ليس هو إلا الثقة -بالله تعالى- والاعتماد عليه، والاعتقاد أن الأمر منه وإليه، ولو مع الأخذ بالأسباب، وما قاله يعقوب -عليه السلام- هو على حد قول فخر الكائنات[١]: «اعقلها وتوكل»[٢]؛ أشار إلى أن عقل الناقة لا ينافي التوكل، وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»[٣]؛ فأثبت للطير توكلاً مع ذكره أنها تغدو وتروح.

وبعد؛ فترانا في هذا المقام لا نقف عند هذا الكلام، فنقول: غني عن البيان أن يعقوب -عليه السلام- هو نبي كريم، وطبعاً يعلم كما يعلم كل مؤمن أن لا شيء يجري في هذه الحياة بدون قضاء الله وسماحه، ولكنه يدرك

---

(١) هو محمد رسول الله ﷺ.

(٢) حسن- كما فصله أخونا الشيخ سليم الهلالي في تحقيقه لـ «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة الدنيوري (ص٦٠٤-٦٠٥).

(٣) صحيح- أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وأحمد (١/ ٣٠و٥٢)، وغيرهم كثير من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وصححه شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (٣١٠).

مع ذلك أن سعيه في أسباب الحيطة والسلامة من الوقوع فيما يكره، هو فرض من فروض الدين، فنفسية يعقوب أرقى من نفسية كل من يستسلم للقضاء والقدر، ولا يأخذ في أسباب السلامة على قدر الإمكان، وماذا عسى أن يكون مبلغ علم الناس، عند علم يعقوب؟ وماذا عسى أن يكون مبلغ إيمان الناس عند إيمان يعقوب؟ وماذا عسى أن يكون مبلغ ثقة الناس بالله، عند ثقة يعقوب؟ ولكنه هو الأخذ بالأسباب المفروض على كل مسلم ومسلمة.

إن الغربيين هم أتباع ديانات، يعلم فيها بالقضاء والقدر، كما يعرف ذلك تماماً من توراتهم وزبورهم وإنجيلهم ، وسائر أسفار الأنبياء التي بأيديهم، ولكنهم مع ذلك يدركون أن نشاطهم وابتعادهم عن طرق الشر، وتعاونهم ومثابرتهم كل ذلك عندهم فرض من فروض النجاح، حتى ولو كان الأمر الذي يزاولونه بسيطاً لا يحتاج لتحفظات جدية، ولا إلى أيد كثيرة.

قد يجوز أن يكون هذا الموقف المختلف، الذي يقفه كل فريق منا ومنهم بإزاء ما ندعوه «قضاء وقدراً» هو من أسباب نجاح الغرب، وتأخرنا نحن أهل الشرق.

وقد يجوز -أيضاً- أن يكون سبب خذلان مشروعاتنا الاقتصادية، وشركاتنا التجارية، وفقدان المؤسسات النافعة، من بين ظهرانينا هو نتيجة هذا الاتكال على «القضاء والقدر» ليقدم لنا ما نطلب، ويتحفنا بما نحتاج إليه، والأمر لو وقف عند هذا الحد؛ لهان الخطر، وقلنا: إن الشرقيين شعب له ثقة بالله، واتكال على قضائه وقدره، والله -سبحانه وتعالى- لا يخيب من يقصده، ولا من يتكل عليه، ولكن المصيبة في أن هذا الشيء تأصل في عقولنا، وتوسعت فيه نفوسنا، وتشعبت منه أفكارنا، فتيبسنا وجمدنا، وضرب علينا الكسل قبابه، ونصب علينا الفشل خيامه، حتى أن الإكثار من ذكره القضاء

والقدر أصبح عادة متمكنة من نفوسنا، وغدا ذلك شعاراً لنا عند كل عمل أردنا مزاولته، فصار لنا ذلك بمثابة طابع لنا نحن الشرقيين، نطبع به كل عمل من صنع أيدينا، أو هو العلامة المسجلة لكل عمل أردنا أن نعمله، أو هو العقبة الكؤود التي إن لم تمنعنا من الإقدام على جلائل الأعمال، منعتنا من المثابرة والإتمام.

٣- أرشد يعقوب أولاده لاستعمال أسباب الحذر، ثم أشار إلى أن هذه الأسباب ليست أسباباً كاملة، ولا مغنية عن حكم الله شيئاً.. والناس في هذا الباب ثلاثة أنواع:

النوع الأول: متسبب صرف، قد قصر نظره على السبب وقوته وضعفه، وهؤلاء هم المنكرون لوجود الصانع المختار، من قبيل الماديين والطبيعيين والدهريين، وظاهر أنهم من أهل الإلحاد، الذي ليس وراءه إلحاد.

النوع الثاني: اتكالي صرف معرض عن الأسباب والوسائط، والآلات والأعمال، لا يريد أن يفتكر ولا يتحرك، ولا يعمل عملاً ما ، اتكالاً منه على القضاء والقدر، واعتماداً على ما سبق في العلم أزلاً، وإن شيئاً من هذا لا يتحول ولا يتحور، ولا يزيد ولا ينقص، وإن العمل وعدمه سيان، والحركة والسكون أخوان، وظاهر أن هؤلاء أهل جمود وكسل وجهالة، غالطون في تصوراتهم من حيث لا يشعرون أو يشعرون، وهم بهذا مخالفون لشرائع الله وأوامره جميعاً، يحتج عليهم ويشربون، ويحكم عليهم بأنهم عصاة ضالون، وهم للجنون أقرب منهم للعقل، ولو كان الناس كلهم على شاكلتهم، لما أتى قرن واحد وعلى وجه الأرض إنسان، وأشرف منهم الطير والحيوان.

النوع الثالث: من يثق بالله -تعالى-، ويعتمد عليه، ويعتقد أن الأمر منه وإليه، مع أخذ بالأسباب، ودأبه على العمل بجد ونشاط؛ وظاهر أن هؤلاء

أتقياء أهل الإيمان، وهم أهل التوكل المشروع، وهذا ما جرى عليه يعقوب -عليه السلام- في وصيته لأولاده كما ترى.

٤- لينظر القارئ اللبيب قول هذا النبي الكريم: ﴿ لَا تَدْخُلُوا ﴾، مع قوله:﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾، مع مدح الله له بقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ يجد أن الاحتراس من الأمور الضارة يمدح الله عليه من فعله، ويسلم له دعواه التوكل، فليسمع هذا جهلة المتصولحين، الذين لا يفهمون التوكل إلا بأنه معاداة الأسباب وإهمالها، وليعلموا أن الله ورسله يكذبونهم، وأكبر رد على من يستهين بالأسباب قوله -تعالى-: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ فإن الله -تعالى- لم يقل: ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ إلا بعد قوله ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ منضماً إلى إسلام الوجه لله، وكذا قوله -تعالى-: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك:١٥] وقال -تعالى-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء:٧١] وقال -تعالى-: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة:١٩٧] وقال -تعالى- خطاباً لنبيه لوط -عليه السلام-: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ [هود:٨١] وقال -تعالى- خطاباً لنبيه موسى -عليه السلام-: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ [الدخان:٢٣]، وقال -تعالى-: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ [الجمعة:١٠]، وقال -تعالى-: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٨]، وقال -تعالى-: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

[التوبة:١٠٥]، إلى غير ذلك الآيات التي تحض على مطلق عمل دنيوي وأخروي.

التوكل محله القلب، والعلم بالأسباب محله الأعضاء والجوارح، والإنسان مسوق للعمل بمقتضى فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكل من خالف ذلك؛ فهو فاسد الفطرة مبدل لخلق الله.

إذا الإنسان توكل فقط، ولم يستعد للأمر ، ويأخذ له أهبته بحسب سنة الله في الأسباب والمسببات يقع في الحسرة والندم عندما يخيب ويفوته غرضه، فيكون ملوماً شرعاً وعقلاً؛ كما قال -تعالى- في الإسراف في المال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ وقال -تعالى- خطاباً لفخر الوجود: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ قرن أمره بالتوكل بنهيه عن إطاعة من لا يوثق بقوله؛ لأنه يغش ولا ينصح، وقال -تعالى-: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾، قرن الأمر بالتوكل بالمشاورة، وكل ذلك من اتخاذ الأسباب سلباً وإيجاباً.

وبالجملة؛ ضل اثنان خير منهما ثالثهما، الأول لا يريد أن يعرف النواميس، والثاني يريد أن لا يعرف سواها، فيا قاتل الله الإفراط والتفريط»[1].

٨٠٨/٦٧- الخوف من العين يلزم منه أخذ الحذر والحيطة، وهذا من القدر؛ كما أن الإصابة بالعين من القدر الكوني.

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٩).

قال أبو بكر الجزائري:

«لا بأس بتخوف المؤمن من إصابة العين، وأخذ الحيطة للوقاية منها، مع اعتقاد أن ذلك لا يغني من الله شيئاً، وأن الحكم لله وحده في خلقه لا شريك له في ذلك»[1].

٦٧/٨٠٩- «إن الكثرة والجمال من أسباب الإصابة بالعين».

٦٧/٨١٠- إن الحاكم هو الله وحده.

٦٧/٨١١- بالتوكل يحصل كل مطلوب ويدفع كل مرهوب.

٦٧/٨١٢- تحريم الحكم بغير ما أنزل الله.

٦٧/٨١٣- هذا الاحتياط من باب الأخذ بالأسباب المأمور بها؛ لأنها من القدر لا من باب التحرز من القدر.

٦٧/٨١٤- لا يجوز للأب أن يخلي قلبه من الرحمة بأبنائه والشفقة عليهم والحرص على سلامتهم[2].

٦٧/٨١٥- حاجة العبد إلى حسن هداية وإرشاد إلى التوكل.

قال أبو السعود:

«﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ جمع بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مقيداً بالواو، وعطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله -عز وجل- على فعل نفسه وبإلقاء سببية فعله؛ لكونه نبياً لفعل غيره من المقتدين به، فيدخل فيهم بنوه دخولاً أولياً، وفيه مالا يخفى

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٢٩).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٤١).

من حسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكل فيما هم بصدده على الله -عز وجل- غير مغترين بما وصاهم به من التدبير»(١).

قال ابن عاشور:

«وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدباً مع واضع الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال؛ فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها.

وهذا سر القدر كما أشار إليه قول النبي ﷺ: «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»(٢) ، وفي الأثر: «إذا أراد الله أمراً يسر أسبابه»، قال الله -تعالى-: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ ﴾ [الإسراء:١٩]. ذلك أن شأن الأسباب أن تحصل عنده مسبباتها. وقد يتخلف ذلك بمعارضة أسباب أخرى مضادة لتلك الأسباب حاصلة في وقت واحد، أو لكون السبب الواحد قد يكون سبباً لأشياء متضادة باعتبارات؛ فيخطىء تعاطي السبب في مصادفة المسبب المقصود. ولولا نظام الأسباب ومراعاتها لصار المجتمع البشري هملاً وهمجاً»(٣).

وقال -أيضاً-: «وجملة ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ في موضع البيان لجملة ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾؛ ليبين لهم أن وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله هو معنى التوكل

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٥-٤٩٤٧و٤٩٤٩و٦٢١٧و٦٦٠٥و٧٥٥٢) ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

فأخرجه مسلم (٢٦٤٨) من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-.

(٣) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٢١-٢٢).

الذي يضل في فهمه كثير من الناس اقتصاراً وإنكاراً. ولذلك أتى بجملة ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أمراً لهم ولغيرهم على معنى أنه واجب الحاضرين والغائبين، وأن مقامه لا يختص بالصديقين، بل هو واجب كل مؤمن كامل الإيمان لا يخلط إيمانه بأخطاء الجاهليات»[1].

٦٧/٨١٦- الإيمان بالقدر والأخذ بأسباب الحذر.

قال أبو السعود:

«﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم ﴾؛ أي: لا أنفعكم، ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾؛ أي: شيئاً مما قضى عليكم؛ فإن الحذر لا يمنع القدر، ولم يرد به -عليه السلام- إلغاء الحذر بالمرة، كيف لا وقد قال عز قائلاً: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾، وقال: ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾، بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد ولا محالة؛ بل هو تدبير في الجملة وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير، وأن ذلك ليس بمدافعة القدر بل هو استعانة بالله -تعالى- وهرب منه إليه»[2].

٦٧/٨١٧- المبطل قد يمتطي الحق ترويجاً لباطله [صدقك وهو كذوب]

قال العلمي:

«سألني طالب علم صغير: إن هذه الجملة التي نطق بها يعقوب: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ هي كانت شعاراً للخوارج الذين خرجوا على علي -رضي الله عنه-، فكيف كانوا على باطل، وهذه الجملة شعارهم؟

---

(١) المرجع السابق (١٣/ ٢٣-٢٤).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٩٢).

... فتبسمت لسؤاله وشكرته عليه لحداثة سنة، وقلت له: يا ولدي، هذه الجملة كلمة أريد بها باطل، أريد بها الخروج على علـي؛ حيث حكم وهو على حق؛ فكان الخوارج يقولون: «لا حكم إلا لله»[1].

٨١٨/٦٧- لا ينفع حذر من قدر؛ فالأمر كله والقضاء لله -تعالى-.

قال القرطبي:

«قولـه -تعـالى-: «﴿ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ ﴾؛ أي: من شيء أحذره عليكم؛ أي: لا ينفع الحذر مع القدر ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ ﴾؛ أي: الأمر والقضـاء. ﴿ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ ﴾ ؛أي: اعتمـدت ووثقـت. ﴿ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾»[2].

قال القاسمي:

«فاقتدوا به في الاحتياط في تعاطي الأسباب مع اعتقاد أنه لا أثر لها إلا أن أمضاها الواحد القهار، وأنه جدير بأن يكون ما يأمر بـه معنيـاً ؛ لأنـه من أمر الله؛ فلو كان شيء يغني من قدر الله لأغنى ما أشار إليه»[3].

قال العلمي تعليقاً على قوله: ﴿ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ ﴾:

أولاً: «نتذكر ههنا نادرة، هي أنه نزلت قافلة بقرية، فأووا إلى دار خربة فاستكنوا فيها من الرياح والأمطـار، واستوقدوا نـارهم، وسـووا معيشتهم، وكان في تلك الدار حائط مائل قد أشرف على الوقوع، فقال رجل منـهم: يـا

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٩٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢٨).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٥٢).

هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط، ولا يدخلن أحد في هذه البقعة، فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل، وبات خارجاً عنهم، ولم يقرب ذلك المكان، فأصبح الجميع في عافية، وحملوا على دوابهم ، فبينما هم كذلك، إذ دخل الرجل إلى الدار لحاجة، فخر عليه الحائط، فمات لوقته، ولم يغن حذره من قدر الله من شيء!!

ثانياً: يحكي أن عضد الدولة بن بويه، نظم شعراً، جاء فيه قوله في صفة نفسه:

عضد الدولة وابن ركنها
ملك الأملاك غلاب القدر

ثم أصيب بعد بشيء من الخبل والوسواس وفساد المزاج، فكان لا ينطلق لسانه إلا بقوله -تعالى-: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحاقة:٢٨و٢٩]»[1].

٨١٩/٦٧- فوائد مجتمعة تحت وصية يعقوب -عليه السلام- لأولاده أن يدخلوا من أبواب متفرقة:

أ- لا يثير أي تحفظ من أي أحد من أهل مصر؛ إذا رأوا هذا الجيش من الرجال مجتمعين.

ب- ليبحث كل منهم في الوجه والباب الذي يمضي منه؛ لعله يصادف ضالة يعقوب ولعل إحساساً داخلياً يهتف في أعماقه أن ابنه يوسف في هذا الوجه من الدنيا؛ ولذلك قال لأبنائه بعد قليل: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٨٨).

مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ مع أنهم عائدون إلى مصر؛ فهو يرجح بثاقب فكره وبعميق إحساسه أن ابنه ربما كان في مصر[1].

ت- إخفاء كونهم جماعة واحدة[2].

ث- الغرباء يسترعون انتباه الآخرين[3].

ج- تحميلهم المسؤولية وتقوية شعورهم بذلك؛ لأن المسؤولية الفردية تذوب في الكيان الجماعي، بينما يكبر الشعور بالمسؤولية إذا كانوا آحاداً[4].

ح- خوفاً من العين والحسد.

خ- سرعة وصولهم إلى حاجتهم.

د- الاستعانة على قضاء حوائجهم بالكتمان.

٦٧/٨٢٠- سعة مصر ومدائنها.

قال ابن عاشور:

«والأبواب: أبواب المدينة، وكانت مدينة (منفيس) من أعظم مدن العالم؛ فهي ذات أبواب»[5].

قال العلمي:

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٨٠)، و«اللطائف والإشارات» (٣/ ١٩٤).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٢١).

(٣) المرجع نفسه (١٣/ ٢٠).

(٤) «حاشية اللطائف والإشارات» (٣/ ١٩٤).

(٥) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٢٠).

«﴿ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ ﴾ قيل هي أبواب «الفرما» وكان لها أربعة أبواب، قيل: هي في محل «بور سعيد» اليوم، أو هي في محل البحر جهة «بور سعيد»، وقال بعضهم: «الفرما» بالتحريك والقصر مدينة على الساحل من ناحية مصر، وبعبارة أخرى: حصن على ضفة البحر، وهي بعد «العريش»، وقيل: إنها مدينة قديمة بين «العريش» و«الفسطاط» قرب «قطية» وشرقي «تنيس» على ساحل البحر، على يمين القاصد لمصر، بينها وبين بحر القلزم، وكان أحمد بن المدبر قد أراد هدم أبواب الفرما، وكانت من حجارة شرقي حصن الفرما، فخرج أهل الفرما ومنعوه من ذلك، وقالوا: إن هذه الأبواب هي التي ذكرت في كتاب الله، حين قال يعقوب لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾ فتركها، قالوا: وكان عمرو بن العاص فتحها عنوة سنة (١٨هـ) في خلافة عمر -رضي الله عنه- إذ سار عمرو بن العاص بالمسلمين لفتح مصر، فوصل«رفح» ثم« العريش» ثم« الفرما»»[1].

٦٧/٨٢١- أبناء يعقوب -عليه السلام- يعرفون طرق المدينة.

قال ابن عاشور:الى هنا وصلت

«ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة، فلم يخش ضلالهم فيها، وعلم أن (بنيامين) يكون في صحبة أحد إخوته؛ لئلا يضل في المدينة»[2].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٨٧-٩٨٨).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٢١).

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

٨٢٢/٦٨- بيان فضل العلم وأهله[1].

قال البقاعي:

«﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾؛ أي: يعقوب -عليه السلام- مع أمره لبنيه بذلك ﴿ لَذُو عِلْمٍ ﴾؛ أي: معرفة بالحكمين: حكم التكليف وحكم التقدير واطلاع على الكونين عظيم ﴿ لِّمَا ﴾؛ أي: للذي ﴿ عَلَّمْنَٰهُ ﴾ إياه من أصول الدين وفروعه، ويجوز أن يكون المعنى: لذو علم لأجل تعليمنا إياه»[2].

وقال العلمي:

«﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ ﴾ أي فهم ومعرفة ﴿ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ أي يفهم الذي علمناه إياه، ومنه أمره لأولاده بالحذر، وأن لا يدخلوا من باب واحد بناء على وجوب الأخذ بالأسباب، وإنه مع ذلك كان يعتقد أن الحذر لا يدفع القدر، وكان يعرف أن ليس للتدبير حظ من التأثير، فنعما ذلك الصفي الكريم أو معنى قوله: ﴿ لَذُو عِلْمٍ ﴾، ذو عمل، لأن العلم التصديقي الأذعاني المتعلق بالمنافع والمضار يوجب العمل ونقل البخاري[3] عن قتادة: أن العلم هنا العمل، ولذلك فسره بقوله: «عامل بما علم»، ووجهه: أن من فهم معلوماً

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٢).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٧٤).

(٣) في «صحيحه» (٨/ ٣٥٧- «فتح»).

من المعلومات حق الهم أشربته روحه، وخالط لحمه ودمه: ووصل من قلبه إلى سويدائه، وكان إحدى غرائزه، فلا يرى له بدأ من العمل به، رضي أم أبى، فإذا أصبح العلم هو العلم لأن أثره اللازم له لزوم الظل للشاخص أو لزوم حركة الخاتم لحركة الإصبع، ولذلك قالوا: آية فهم المعلوم تأثر العالم به وظهوره في حركاته وسكناته وترقرقه في شمائله، ترقرق اللبن السائغ في جسم الرضيع.

العلم علمان: نظريات وعمليات، والعلم لا يتحقق أو لا يتأكد إلا بالعمليات فلا يقال: فلان نجار، إلا بعد أن يكون- عقب النظريات- قد عمل صندوقاً أو خزانة مثلاً، وكذا لا يقال فلان حداد، إلا بعد أن يكون قد عمل مفتاحاً أو سكيناً مثلاً، وهكذا لا يقال: فلان طبيب، بمجرد نواله الشهادة، ما لم يكن قد ابتدأ في تطبيب المرضى بالفعل؛ وعندنا أن جملة ﴿ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ ﴾ تحتمل تخريجاً ثالثاً، وهو أن اللام في قوله« لما» للتعليل و«ما» موصول حرفي والمعنى لأجل تعليمنا إياه، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما علمه يعقوب من الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل، فالقبض منهم غفلة عن ذلك، وجمهرة الناس هم من ذوي الغبن والنوْك[1]»[2].

(١) الحمق.

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٩٣-٩٩٤).

٦٨/٨٢٣- من فضائل طاعة الأب.

لقد دخل أبناء يعقوب- عليه السلام- من حيث أمرهم أبوهم... وطاعة الأب لا تخلو من فائدة.

قال ابن عاشور:

«وجملة: ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ معترضة في آخر الكلام؛ أي: وما أغني عنكم بوصيتي هذه شيئاً. و ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ متعلق بـ ﴿ أُغْنِى ﴾؛ أي: لا يكون ما أمرتكم به مغنياً غناء مبتدئاً من عند الله بل هو الأدب والوقوف عند ما أمر الله، فإن صادف ما قدره؛ فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدره؛ حصلت فائدة امتثال أوامره، واقتناع النفس بعدم التفريط»[1]

٦٨/٨٢٤- مشروعية التوقي من العين.

قال السعدي:

«ومنها: أن استعمال الأسباب الواقية من العين أو غيرها غير ممنوع، بل جائز، أو مستحب بحسب حاله، وإن كانت جميع الأمور بقضاء الله وقدره، لكن الأسباب الواقية أو الدافعة من قضاء الله وقدره بشرط أن يفعلها العبد، وهو معتمد على مسببها؛ لأن يعقوب -عليه السلام- حين أراد أن يوصي بنيه لما أرسل بنيامين معهم، قال: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٢١).

وأخبر -تعالى- أنهم امتثلوا أمر أبيهم، وأن هذا الأمر لم يغن شيئاً إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، وهي شفقة الوالد على أولاده، والشريعة جاءت بإثبات الأسباب النافعة الدينية والدنيوية، والحث عليها، مع الاستعانة بالله ؛ كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله[١]»[٢].

قال القرطبي:

« فيكون فيها دليل على التحرز من العين، والعين حق، وقد قال رسول الله ﷺ:« إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر»[٣].

وفي تعوذه -عليه السلام-: «أعوذ من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامَّة»[٤] ما يدل على ذلك.

وروى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف؛ أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبو سهل بن حنيف بالخرّار، فنزع جبّة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال:وكان سهل رجلاً أبيض حسن الجلد، قال: فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء! فوعك سهل مكانه واشتد وعْكه، فأتى رسول الله ﷺ فأخبر أن سهلاً وُعِك، وأنه غير رائح معك يا رسول الله، فأتاه رسول الله ﷺ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر؛ فقال رسول الله ﷺ: «علام يقتل أحدكم أخاه؟! ألا برَّكت؟ إن العين حق، توضأ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) وغيره من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف-عليه السلام-» (ص٤٩-٥٠).

(٣) «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٢٥٠/ ١٢٤٩).

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه (٣٣٧١)، و«خلق أفعال العباد» (٤٥٤-٤٥٦) من حديث ابن عباس به.

له»[١]؛ فتوضأ عامر، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس، وفي رواية: «اغتسل»، فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره في قدح ثم صب عليه، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس*.

وركب سعد بن أبي وقاص يوماً فنظرت إليه امرأة، فقالت: إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكَشْحين؛ فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغسلت له.

ففي هذين الحديثين أن العين حق، وأنها تقتل؛ كما قال النبي ﷺ، وهذا قول علماء الأمّة، ومذهب أهل السنة؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمّة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود؛ فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أدخلته القِدر»[٢].

٨٢٥/٦٨- قد يصل خطر العين إلى درجة القتل والموت.

٨٢٦/٦٨- إنما العلم بالتعلم والجهل هو الأكثر في الناس.

٨٢٧/٦٨- العين لا تضر بنفسها إلا بإذن الله ومشيئته [٣].

قال القرطبي:

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٣٨/ ١- رواية يحيى الليثي)، و(٢/ ١١٦/ ١٩٧٢- رواية أبي مصعب)، والنسائي في «السنن الكبرى»، كما في «تحفة الإشراف» (١/ ٦٦) وغيرهما كثير.

وسنده صحيح؛ كما قال شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (٦/ ١/ ١٤٩).

وانظر: «عجالة الراغب المتمني» (١/ ٢٦٤/ ٢٠٦)

* وانظر كتاب محمد موسى نصر «علام يقتل أحدكم أخاه» ذم الحسد والحاسدين ففيه بسط واسع للمسألة.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٣) «نظم الدرر» (٤/ ٧٤).

«...ولكن ذلك بمشيئة الله -تعالى-؛ كما قال: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة:١٠٢]، قال الأصمعي: رأيت رجلاً عيوناً سمع بقرة تحلب؛ فأعجبه شخبها فقال: أيتهن هذه؟ فقالوا: الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها، فهلكتا جميعاً: المورى بها، والمورى عنها. قال الأصمعي: وسمعته يقول: إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني»[(١)].

٦٨/٨٢٨- قد يكون الرجل الصالح عائناً، وهذا لا يقدح فيه ولا يفسق به[(٢)].

٦٨/٨٢٩- العلم أول أسباب العمل؛ فسمي بسببه[(٣)].

٦٨/٨٣٠- يجبر العائن على الاغتسال إذا أصاب أحداً بالعين.

قال القرطبي:

«العائن إذا أصاب بعينه ولم يبرك؛ فإنه يؤمر بالاغتسال، ويجبر على ذلك إن أباه؛ لأن الأمر على الوجوب؛ لا سيما هذا؛ فإنه قد يخاف على المعين الهلاك، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولاسيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه»[(٤)].

٦٨/٨٣١- يجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرك.

قال القرطبي:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢٧).

(٢) المرجع السابق (٩/ ٢٢٧).

(٣) المرجع نفسه (٩/ ٢٢٩).

(٤) المرجع السابق نفسه (٩/ ٢٢٧). وانظر «علام يقتل أحدكم أخاه» لمحمد موسى نصر.

«واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرك ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ؛ ألا ترى قوله -عليه السلام- لعامر: « ألا بركت»؛ فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا برك العائن، وإنها إنما تعدو إذا لم يبرك . والتبريك أن يقول: «تبارك الله أحسن الخالقين اللهم بارك فيه»[1].

٦٨/٨٣٢- يجب على الإمام أن يحجر على العائن ويمنعه من مخالطة الناس؛ دفعاً للضرر، ويجري عليه رزقه.

قال القرطبي:

«من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس؛ دفعاً لضرره، وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته، وإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، ويكف أذاه عن الناس. و قد قيل: إنه ينفى؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال؛ فإنه -عليه السلام- لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفي، بل قد يكون الرجل الصالح عائناً، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسق به، ومن قال: يحبس ويؤمر بلزوم بيته؛ فذلك احتياط ودفع ضرر، والله أعلم»[2].

قال الإمام ابن قيم الجوزية:

«...وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عُرِف بذلك؛ حبسه الإمام، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت، وهذا هو الصواب قطعاً»[3].

٦٨/٨٣٣- الرقى الشرعية مما يستدفع به البلاء[4].

---

(١) المرجع نفسه (٩/ ٢٢٧).

(٢) المرجع نفسه (٩/ ٢٢٧).

(٣) «زاد المعاد» (٤/ ١٦٨).

(٤) المصدر نفسه (٩/ ٢٢٧-٢٢٨).

٦٨/٨٣٤- العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار[(١)].

قلنا: من أجل ذلك كان النبي ﷺ يرقي الحسن والحسين كثيراً.

٦٨/٨٣٥- يجب على المسلم أن يحذر أخاه مما يخاف عليه ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

قال القرطبي:

«قوله -تعالى-: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾؛ أي: من أبواب شتى ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء ليس من الأول . ﴿ فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾؛ أي: خاطر بقلبه وهو وصيته أن يتفرقوا؛ قال مجاهد: خشية العين، وقد تقدم القول فيه. وقيل: لئلا يرى الملك عددهم وقوتهم، فيبطش بهم حسداً أو حذراً؛ قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال : ولا معنى للعين هاهنا. ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم»[(٢)].

٦٨/٨٣٦- أن الذي لا يعمل بعلمه لا يكون عالماً.

قال ابن عطية:

«ثم أثنى الله -عز وجل- بأنه لقن ما علمه الله من هذا المعنى. واندرج غير ذلك في العموم، وقال: إن أكثر الناس ليس كذلك.

---

(١) المصدر نفسه (٩/ ٢٢٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢٨-٢٢٩).

وقيل: معناه: إنه لعامل بما علمناه؛ قاله قتادة، وقال سفيان: من لا يعمل لا يكون عالماً.

وهذا لا يعطيه اللفظ؛ إما أنه صحيح في نفسه يرجحه المعنى، وإما تقتضيه منزلة يعقوب -عليه السلام-»[1].

٨٣٧/٦٨- الرد على منكري العين.

زعم جماعة من أهل الكلام: أن العين ليس لها أثر أو ضرر!

قلنا: خالفوا المنقول والمعقول والمحسوس:

أما المنقول؛ فالأحاديث الواردة في العين متواترة.

وأما المعقول؛ فقد قال ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: «فأبطلت طائفة ممن قلَّ نصيبهم من السمع والعقل أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجاباً، وأكثفهم طباعاً، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها، وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين، ولا تنكره، وإن اختلفوا في سببه وجهة تأثير العين.

فقالت طائفة: إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة، انبعث من عينه قوة سمِّية تتصل بالمعين، فيتضرر.

قالوا: ولا يستنكر هذا، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان، فيهلك، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعي أنها إذا وقع بصرها عل الإنسان هلك، فكانت كالعائن.

---

(١) «المحرر الوجيز» (٩/ ٣٣٩).

وقالت فرقة أخرى: لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهـر لطيفة غير مرئية، فتتصل بالمعين، وتتخلل مسام جسمه، فيحصل له الضرر.

وقالت فرقة أخرى: قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضـرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه من غير أن يكـون منـه قـوة ولا سبب ولا تأثـير أصلاً، وهذا مذهب منكري الأسباب والقوى والتأثـيرات في العـالم، وهـؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثـيرات والأسـباب، وخـالفوا العقـلاء أجمعين.

ولا ريب أن الله -سبحانه- خلق في الأجسـام والأرواح قـوى وطبـائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة، ولا يمكـن لعـاقل إنكـار تأثير الأرواح في الأجسام؛ فإنه أمر مشاهد محسوس، وأنت ترى الوجه كيـف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحي منه، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه، وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قـواه، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح، ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعـل إليـها، وليست هي الفاعلة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعـها وقواهـا وكيفياتها وخواصها، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بيناً؛ ولهذا أمر الله- سبحانه- رسوله أن يستعيذ به من شره، وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمـر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية، وهو أصل الإصابة بالعين؛ فـإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة،وتقابل المحسود، فتؤثـر فيـه بتلـك الخاصية، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى؛ فإن السم كامن فيها بالقوة، فإذا قـابلت عدوها، انبعث منها قوة غضبية، وتكيفت بكيفية خبيثة مؤذية؛ فمنها ما تشـتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين، ومنها ما تؤثـر في طمـس البصـر،

كما قال النبي ﷺ في الأبتر، وذي الطفيتين من الحيات: «إنهما يلتمسان البصر، ويسقطان الحبل»(١).

ومنها ما تؤثر في الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به؛ لشدة خبث تلك النفس، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة، والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية، كما يظنه من قلّ علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة، بل التأثير يكون تارة بالاتصال، وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات، وتارة بالوهم والتخيل، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أعمى، فيوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه، وإن لم يره، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال -تعالى- لنبيه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١]، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾، فكل عائن حاسد، وليس كل حاسد عائناً، فلما كان الحاسد أعم من العائن، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تصيبه تارة وتخطئه تارة؛ فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه؛ أثرت فيه ولا بد، وإن صادفته حذراً شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام؛ لم تؤثر فيه، وربما ردت السهام على صاحبها، وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء، فهذا من النفوس والأرواح، وذاك من الأجسام والأشباح. وأصله من إعجاب العائن بالشيء،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (٢٢٣٣) من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-.

يعين الرجل نفسه، وقد يعين بغير إرادته، بل بطبعه، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عرف بذلك، حبسه الإمام، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت، وهذا هو الصواب قطعاً»[1]

وأما المحسوس؛ فإن جميع الأمم تعتقد بتأثير العين.

قال العلمي:

«قوله: ﴿ لَا تَدْخُلُواْ ﴾ يعتقد فريق من الناس -خصوصاً النساء- أن للعين الشريرة -كما يدعونها- تأثيراً على الأشخاص والأجرام والأشجار التي تنظر إليها هذه العين نظرة استحسان وإعجاب، ولما كانت كل امرأة تنظر إلى طفلها مثل هذه النظرة، فهي تعتقد أن هذه «العين الشريرة» واقعة عليه لا محالة؛ ولذلك قد جرت العادة أن تسلح النساء أطفالهن بسلاح يرد هذا الضرر:

فالمرأة السورية -لترد العين عن طفلها- تلبسه خرزة من الخرز الأزرق.

والمرأة الفلسطينية، تضع ضمن قلادة خرزة بيضاء وخرزة زرقاء، وصورة شخص من ذهب، تسميه «مُشْخَص».

والمرأة الإرلندية، تمنطقه بخصلة شعر من امرأة عجوز.

والمرأة الرومانية، تربط كاحليه بشريطة حمراء.

والمرأة الإسوجية، تضع في مهده كتاباً من كتب الطب.

والمرأة البلجيكية، تعلق على صدره قطعة من النقود.

والمرأة الإسبانيولية، تعلق على قبعته غصن صنوبر.

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١٦٥-١٦٨)، وانظر «علام يقتل أحدكم أخاه» لمحمد موسى نصر.

والمرأة الإنجليزية، تعلق فوق باب غرفته نعل حصان، وفي عنقه زهرة من نبات يدعى «ميسيلتو» ، يوجد في غابات انجلترة.

والمرأة الفرنسية، تعلق فوق مهده غصناً من أغصان شجرة «الدرويد» المقدسة في نظرهم[1].

وبعد كل هذا؛ فيعقوب -عليه السلام- إنما أراد لأولاده التحفظ من عيون الناس الأشقياء أهل الفساد، ومن عيون مستخدمي الحكومة»[2].

---

(١) وهذا من الشيخ العلمي -رحمه الله- حكاية للواقع المحسوس وليس إقراراً له؛ لأنه في الشرع من باب التمائم المحرمة.

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٨٦-٩٨٧).

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَاْ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

٦٩/٨٣٨- في اجتماع الشتيتين برد اليقين.

ألم الفراق سياط يكتوي بنارها المتحابون، ولا يطفؤها إلا لقاء لا فراق بعده... ولذلك بمجرد أن رأى يوسف الصديق -عليه السلام- أخاه الحبيب وشقيقه القريب بنيامين آواه إليه، وضمه تحت جناحيه، وواساه مما قاساه، وقرت عينه باجتماع شمله مع أخيه.

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان

كل الظن ألا تلاقيا

وما أشبه لقاء يوسف بأخيه واجتماعه به بقول القائل:

كأنك لم توتر من الدهر مرة

إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه

٦٩/٨٣٩- أخو يوسف بنيامين قاسى الأمرين من بني العلات.

قال العلمي:

«لما دخل إخوة يوسف على يوسف، حيوه تحية الأمراء، وقالوا له: ها نحن أولاء قد سعينا السعي الحثيث مع أبينا حتى أتينا بأخينا بنيامين حسب رغبتك وأما يوسف؛ فلا تسل عن فرحه بمجيئهم وبينهم بنيامين، فقد فرح بمجيء إخوته بني العلات، فرح المنتصر الظافر، وفرح بمجيء شقيقه، فرح الحبيب بالحبيب، ولما رفع نظره لبنيامين لمس القلب، لا سيما وقد لاحت له في صورته صورة أمه: «راحيل»؛ فعطف عليه وآواه إليه، وكأنه -سبحانه وتعالى- يشير بهذه الكلمة إلى إنقاذه من ظلم إخوته إياه، واستبدادهم به؛ فقد تكاد هذه الكلمة أن لا تستعمل إلا في مقام النصر، والإنقاذ من الذل

والتهلكة ونحو ذلك، ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾، وقوله -تعالى-: ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾، وقوله -تعالى- في النبي ﷺ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ وقول لوط -عليه السلام-: ﴿ أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾، وقول ابن نوح: ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ وقوله -تعالى-: ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾، ويدلنا على أن بنيامين كان محوطاً بظلم إخوته واستبدادهم، قول يوسف له: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ الذي يرمي إلى تكرار أفعالهم المحزنة معه...»[1].

٦٩/٨٤٠- في التأسي مسلاة.

قوله: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ تنبيه من يوسف لأخيه أنك يا أخي يجب عليك أن تخلع الحزن وترمي البؤس ظهرياً؛ لأن ذلك كله لن يضرك، فأنا أخوك يوسف الذي زعموا أن الذئب أكله؛ فها أنت ترى ما أنا فيه من عز وتمكين بفضل ذي القوة المتين؛ فعندئذ وجد بنيامين في يوسف أسوة وقدوة؛ فصلب عوده، وقوي يقينه، وتهيأت نفسه لحادثة الصواع؛ لأن المصائب إذا عمت مسلاة.

قال ابن قيم الجوزية:

«ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية، أخبر -سبحانه- أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه

---

(١) « مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ٩٩٧-٩٩٨).

معه، وإن كـانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة؛ كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلـــولا كـــثرة البـــاكين حـــولي
علـــى إخوانـــهم لقتلـــت نفســـي

ومـــا يبكـــون مثـــل أخـــي ولكـــن
أســـلي النفـــس عنـــهم بالتأســـي

ألا يـــا صخـــر لا أنســـاك حتـــى
أفـــارق عيشـــي وورود رمســـي

فمنع الله -سبحانه- هذا القدر من الراحة على أهل النار؛ فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾»[1]

وقال -أيضاً-:

«فإن مصائب الدنيا إذا عمت صارت مسلاة، وتأسى بعض المصابين ببعض؛ كما قالت الخنساء.

فلـــولا كـــثرة البـــاكين حـــولي
علـــى إخوانـــهم لقتلـــت نفســـي

ومـــا يبكـــون مثـــل أخـــي ولكـــن
أســـلي النفـــس عنـــهم بالتأســـي

---

(١) «الداء والدواء» (ص١٤٧-١٤٨).

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشتركين في العذاب يوم القيامة»[١].

٦٩/٨٤١- جواز أن يخص واحدا من الأخوة بإطلاعه على شأن معين وأمره بالكتمان.

قال ابن كثير:

«يخبر -تعالى- عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوهم بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه؛ فأطلعه على شأنه وما جرى له عرفه أنه أخوه، وقال له: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾؛ أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرما معظما»[٢].

٦٩/٨٤٢- وجوب نصرة الأخ الضعيف والشد من أزره.

٦٩/٨٤٣- الأخ الشقيق أقرب مودة وأكثر محبة وإشفاقا من الأخ لأم أو لأب.

٦٩/٨٤٤- وجوب أن يكرم الأخ أخاه ويسعى في خدمته؛ وخصوصا إذا كان أخا شقيقا، وهذا من المودة والرحمة التي أودعها الله في قلوب الأخوة الأشقاء.

---

(١) «الرسالة التبوكية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٩٠-١٩١- بتحقيق سليم الهلالي).

(٢) « مختصر تفسير ابن كثير » (٢/ ٢٥٦).

٦٩/٨٤٥- من كانوا شركاء في مصيبة واحدة وظلم واحد أوجد ذلك بينهم رابطة قوية من المحبة والتعاون لمواجهة من ظلمهم أو اعتدى عليهم.

٦٩/٨٤٦- يجوز للمسلم الذي يريد الإصلاح بين الناس أن يعمل فكره في تدبير الحيل إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل ورأباً للصدع وجمعاً للشمل.

٦٩/٨٤٧- أن المؤمن عندما يبتلى بالشر لا يفقد إيمانه وثقته بالله بل يبقى ينظر إلى الأمور بالمنظار الأبيض، ويبعد عن نفسه الشعور بالإحباط واليأس والإبتئاس ما دام ينتظر الفرج من الله بصبر واحتساب[١].

٦٩/٨٤٨- حسن تدبير يوسف -عليه السلام- للإبقاء على أخيه معه بعد ذهاب إخوته.

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٤٣).

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

٨٤٩/٧٠- اليوم تمر وغداً أمر.

لقد أحسن يوسف وفادة إخوته، ولكنه كان يعد لبدء المعركة مع إخوته التي سيظهره الله فيها ويحقق رؤياه، وكأنه يقول في نفسه: اليوم تمر وغداً أمر.

قال العلمي:

«من ههنا؛ أي: من قوله: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم ﴾ تبتدئ المعركة بين يوسف وإخوته، وستنتهي بانتصار يوسف عليهم عند قوله: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ ؛ فقد عول على أن يوقع الجميع منهم في مأزق حرج مع أبيهم، وأن يعمل معهم عملاً يقابل عملهم، بحيث يدخل على جميعهم الكرب والهم، لأنهم كانوا أنزلوه في جب الماء، فأراد أن ينزلهم في أتون نار الهم والغم، ...كانوا عملوا معه عملاً يريدون به أن يخلو وجه أبيهم لهم، فأراد أن يعمل معهم عملاً يلفت عنهم وجه أبيهم جزاء وفاقاً، فذر الرماد في العيون، وهيأ لهم ضربة أليمة، كما كانوا ذروا الرماد في عيون أبيهم وآلموا يوسف، جزاء وفاقاً، فكأن يوسف يقول: احصدوا أشواك أعمالكم السابقة.

ويقول الشاعر:

إذا قيل رفقاً قلت للحلم موضع
وحلم الفتى في غير موضعه جهل

أو يقول:

وقد تصبرت حتى لات مصطبر
فالآن أقحم حتى لات مقتحم

هو عمل معهم هذه الحيلة المسيئة لهم التي سيضيقون منها ذرعاً؛ لأنهم سبق أنهم عملوا عليه تلك الحيلة المسيئة، وهي: أخذه من أبيه بحجة أنه ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ فما كان منهم إلا أنهم أنزلوه في غيابة الجب، وقد قيل: الهزيمة تعلم الظفر»(١).

٧٠/٨٥٠- جواز تدبير الحيل لتحصيل مقصود مباح معهم(٢).

قال القرطبي:

«وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل؛ إذا لم تخالف شريعة، ولا هدمت أصلاً؛ خلافاً لأبي حنيفة في تجويزه الحيل، وإن خالفت الأصول وخرمت التحليل»(٣).

قال ابن القيم الجوزية:

«ومن لطيف الكيد في ذلك: أنه لما أراد أخذ أخيه توصل إلى أخذه بما يقر إخوته أنه حق وعدل، ولو أخذه بحكم قدرته وسلطانه، لنسب إلى الظلم والجور- ولم يكن له طريق في دين الملك يأخذه بها.

فتوصل إلى أخذه بطريق يعترف إخوته أنها ليست ظلماً؛ فوضع الصواع في رحل أخيه بمواطأة منه له على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾»(٤).

قال القاسمي:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٠٤-١٠٠٥) بتصرف.

(٢) «فوائد مستنبطة من سورة يوسف -عليه السلام-» (ص٥١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٣٦).

(٤) « بدائع التفسير» (٢/ ٤٦٤).

«في الآية دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى المباح، وما فيه الغبطة والصلاح، واستخراج الحقوق»[١].

٨٥١/٧٠- وقد احتج الفقهاء بقصة يوسف على أنه يجوز للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير بما يمكنه الوصول إليه.

قال ابن القيم:

«وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف على أنه جائز للإنسان التوصل إلى اخذ حقه من الغير بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا من عليه الحق.

قال شيخنا[٢] -رضي الله عنه-: وهذه الحجة ضعيفة؛ فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال: إنه اقتص منه، وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم؛ تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم، والميثاق الذي أخذه عليهم، وقد استثنى الميثاق بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾.

وقد أحيط بهم، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته؛ فإنه كان أكرم من هذا، وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه أعظم مما فيه من إيذاء إخوته، وإنما هو أمر أمره الله به؛ ليبلغ الكتاب أجله، ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء، وتبلغ حكمة الله التي قضاها لهم نهايتها.

ولو كان يوسف قصد القصاص منهم بذلك؛ فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء؛ فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به.

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٥٨).

(٢) «هو شيخ الإسلام ابن تيمية، وانظر: «الفتاوى الكبرى» (٣/ ٢١٢).

وإنما موضع الخلاف: هل يجوز له أن يسرق أو يخون من سرقه أو خانه مثل ما سرق منه أو خانه إياه؟وقصة يوسف لم تكن من هذا الضرب.

نعم؛ لو كان يوسف أخذ أخاه بغير أمره؛ لكان لهذا المحتج شبهة، مع أنه لا دلالة في ذلك على هذا التقدير أيضاً؛ فإن مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق، وهو أن يحبس رجل بريء ويعتقل للانتقام من غيره من غير أن يكون له جرم.

ولو قدر أن ذلك وقع من يوسف؛ فلا بد أن يكون بوحي من الله ابتلاء منه لذلك المعتقل، كما ابتلي إبراهيم بذبح ابنه، فيكون المبيح له على هذا التقدير وحياً خاصاً؛ كالوحي الذي جاء إبراهيم بذبح ابنه، وتكون حكمته في حق المبتلى امتحانه وابتلاؤه؛ لينال درجة الصبر على حكم الله، والرضا بقضائه، وتكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب في احتباس يوسف عنه.

وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها ، ومن حال يوسف؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

فنسب الله -تعالى- هذا الكيد إلىٰ نفسه، كما نسبه إلى نفسه في قوله:

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق١٥و١٦].

وفي قوله: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ [النمل:٥٠].

وفي قوله: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝ ﴾ [الأنفال:٣٠].

وقد قيل: إن تسمية ذلك مكراً وكيداً واستهزاء وخداعاً من باب الاستعارة ومجاز المقابلة، نحو: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى:٤٠] ونحو قوله: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١٩٤].

وقيل- وهو أصوب-: بل تسميته بذلك حقيقة على بابه؛ فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان:

قبيح: وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه.

وحسن: وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له، فالأول: مذموم، والثاني:ممدوح.

والرب -تعالى- إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمته، وهو -تعالى- يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب، لا كما يفعل الظلمة بعباده، وإنما السيئة فهي فيعلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها، فهي سيئة له حسنة من الحكم العدل.

وإذا عرفت ذلك؛ فيوسف الصديق كان قد كيد غير مرة:

أولها: أن إخوته كادوا به كيداً حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه، ثم إن امرأة العزيز كادته بما أظهرت أنه راودها عن نفسها، ثم أودع السجن، ثم إن النسوة كادوه حتى استعاذ بالله من كيدهن فصرفه عنه.

وقال له يعقوب: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ ﴾.

وقال الشاهد لامرأة العزيز: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

وقال -تعالى- في حق النسوة: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ [يوسف:٣٤].

وقال للرسول: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ ﴾.

فكاد الله له أحسن كيد وألطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه

بغير اختياره، وكاد له عوض كيد المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك، ومكَّنه في الأرض يتبوأ منها حيث شاء، وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه حتى شهدن ببراءته وعفته.

وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من الصادقين، فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد له بغياً وعدواناً»[١].

٧٠/٨٥٢- جواز دفع الضرر بضرر أقل منه.

قال القاسمي:

«قال ابن العربي: وفي إطلاق السرقة عليهم بسارقين جواز دفع الضرر بضرر أقل منه»[٢].

٧٠/٨٥٣- صواع الملك: هو المكيال، وهو السقاية، سماه أولاً بإحدى جهتين وآخر لا بالثانية[٣].

٧٠/٨٥٤- بيان عما يوجبه التلطف في بلوغ المراد مع إيقاع الأسباب التي تؤدي إليه بظاهر جميل وباطن حق.

قال البقاعي:

«وقد تضمنت الآية البيان عما يوجبه التلطف في بلوغ المراد من إيقاع الأسباب التي تؤدي إليه، وتبعث عليه، بظاهر جميل وباطن حق مما يخفى على

---

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٥٨-٤٦١).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٥٨).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٣٠٣).

كثير من الناس موقعة ويشكل عليه وجهه؛ لأنــه أنفـذ لـه وانجـح للمطلـوب منه»(١).

٨٥٥/٧٠-في المعاريض مندوحة عن الكذب.

قال السعدي:

«ومنها : استعمال المعاريض عند الحاجـة إليـها؛ في المعـاريض مندوحـة عن الكذب، وذلك من وجوه:

منـــها: قولــــه: ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يوسف:٧٥]، ولم يقل: سرقها.

وكذلـك قولــه: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ [يوسف:٧٩]، ولم يقل: من سرق متاعنا.

وإذا قيل: إن هذا اتهام للبريء.

قيل: إنما فعل ذلك بإذن أخيه ورضاه؛ وإذا زال رضي المحذور»(٢).

قال ابن قيم الجوزية:

« الضرب الثالث: أنه أذن مؤذن: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾.

---

(١) « نظم الدرر» (٤/ ٧٧).

(٢) « فوائد مستنبطة من قصة يوسف-عليه السلام-» (ص٥٣).

وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين:

أحدهما: أنه من باب المعاريض، وأن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه حيث غيبوه عنه بالحيلة التي احتالوا عليها، وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقاً، وهو من الكلام المرموز، ولهذا يسمى خونة الدواوين :لصوصاً.

الثاني: أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف، قال القاضي أبو يعلى وغيره: أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصواع في رحل أخيه، ثم قال بعض الموكلين وقد فقدوه، ولم يدر من أخذه: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ على ظن منهم أنهم كذلك، من غير أمر يوسف لهم بذلك، أو لعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء سرقوا، وعنى أنهم سرقوه من أبيه، والمنادي فهم سرقة الصواع؛ فصدق يوسف في قوله وصدق المنادي.

وتأمل حذف المفعول في قوله: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ ليصح أن يصمن سرقتهم فيتم التعريض، ويكون الكلام صدقاً، وذكر المفعول في قوله: ﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ وهو صادق في الجملتين معاً تعريضاً وتصريحاً، وتأمل قول يوسف: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ ولم يقل: إلا من سرق، وهو أخصر لفظاً؛ تحرياً للصدق، فإن الأخ لم يكن سارقاً بوجه، وكان المتاع عنده حقاً، فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها.

ومثل هذا: قول الملكين لداود -عليه السلام-: ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص:٢٢و٢٣]-؛ أي: غلبني في الخطاب، ولك تخريج هذا الكلام على المعاريض لا يكاد يتأتى، وإنما وجهه أنه كلام خرج على ضرب المثال؛ أي: كان كذلك فكيف الحكم بيننا.

ونظير هذا قول الملك للثلاثة الذين أراد الله أن يبتليهم: «مسكين وغريب وعابر سبيل، وقد تقطعت بي الحبال، ولا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم

بك، فأسألك بالذي أعطاك هذا المال بعيرا أتبلغ به في سفري»[1]، وهذا ليس بتعريض، وإنما هو تصريح على وجه ضرب المثال، وإيهام أني أنا صاحب هذه القضية؛ كما أوهم الملكان أنهما صاحبا القصة؛ ليتم الامتحان.

ولهذا قال نصر بن حاجب: سئل عيينة عن الرجل يعتذر إلى أخيه من الشيء الذي قد فعله، ويحرف القول فيه ليرضيه، لم يأثم في ذلك؟ فقال : ألم تسمع قوله: «ليس بكاذب من أصلح بين الناس يكذب فيه»[2].

فإذا أصلح بينه وبين أخيه المسلم خير من أن يصلح بين الناس بعضهم من بعض، وذلك إذا أراد به مرضاة الله، وكره أذى المؤمن ، ويندم على ما كان منه، ويدفع شره عن نفسه، ولا يريد بالكذب اتخاذ المنزلة عندهم، ولا طمعا في شيء يصيب منهم، لم يرخص في ذلك، ورخص له إذا كره وجدتهم وخاف عداوتهم.

قال حذيفة: إني أشتري ديني بعضه ببعض؛ مخافة أن أقدم على ما هو أعظم منه.

قال سفيان: وقال الملكان:﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ؛ أراد معنى شيء، ولم يكونا خصمين، فلم يصيرا بذلك كاذبين.

وقال إبراهيم: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:٨٩].

وقال:﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء:٦٣].

وقال يوسف:﴿ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ [يوسف:٧٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

فبين سفيان أن هذا من المعاريض المباحة»[1].

٧١/٨٥٦- إبطال الحيل.

قال ابن قيم الجوزية:

«وأما إخباره -سبحانه وتعالى- عن يوسف أنه جعل صواعه في رحل أخيه؛ ليتوصل بذلك إلى أخذه وكيد إخوته؛ فنقول لأرباب الحيل:

أولاً: هل تجوزون أنتم مثل هذا حتى يكون حجة لكم؟

وإلا؛ فكيف تحتجون بما لا تجوزون فعله؟!

فإن قلتم: كان جائزاً في شريعته؟

قلنا: وما ينفعكم إذا لم يكن جائزاً في شرعنا؟!

قال شيخنا[2] -رضي الله عنه-:

ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التي بينا تحريمها وليس من جنسها قصة يوسف حين كاد الله في أخذ أخيه، كما قص -تعالى- في كتابه، فإن فيه ضروباً من الحيل الحسنة:

قوله لفتيانه: ﴿ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يوسف:٦٢].

فإنه تسبب بذلك في رجوعهم، وقد ذكروا في ذلك معاني:

منها: أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها.

ومنها: أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم.

---

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٥٦-٤٥٨).

(٢) يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية -رضي الله عنه- وهذا الفصل منقول من كتابه: «الفتاوى الكبرى» (٣/ ٢٠٩) وما بعدها، يكاد يكون حرفياً.

ومنها: أنه رأى لؤماً إذا أخذ الثمن منهم.

ومنها: أنه أراهم كرمه في رد البضاعة؛ ليكون أدعى لهم إلى العود.

ومنها: أنه علم أن أمانتهم تحوجهم إلى العود؛ ليردوها إليه.

فهذا المحتال به عمل صالح، والمقصود رجوعهم ومجيء أخيه، وذلك أمر فيه منفعة لهم ولأبيهم وله، وهو مقصود صالح.

وإنما لم يعرفهم نفسه؛ لأسباب أخر فيها منفعة لهم وله ولأبيهم، وتمام لما أراده الله بهم من الخير في البلاد.

الضرب الثاني: أنه في المرة الثانية لما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، وهذا القدر تضمن إيهام أن أخاه سارق، وقد ذكروا أن هذا كان بمواطأة من أخيه، ورضاً منه بذلك والحق له في ذلك، وقد دل على ذلك قوله -تعالى-: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يوسف:٦٩].

وفيه قولان:

أحدهما: أنه عرف أن يوسف ووطنه على عدم الابتئاس بالحيلة التي فعلها في أخذه منهم.

والثاني: أنه لم يصرح له أنه يوسف، وإنما أراد: إني مكان أخيك المفقود؛ فلا تبتئس بما يعاملك به إخوتك من الجفاء، ومن قال هذا؛ قال: إنه وضع السقاية في رحل أخيه والأخ يشعر[1]، ولكن هذا خلاف المفهوم من القرآن، وخلاف ما عليه الأكثرون، وفيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع، وأما

---

(١) في «تفسير الطبري» (١٣/ ١٧).

على القول الأول؛ فقد قال كعب وغيره: لما قال له: إني أنا أخوك؛ قال[1]: فأنا لا أفارقك.

قال يوسف: فقد علمت اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا يمكنني إلا بعد أن أشهرك: بأمر فظيع، وأنسبك إلى ما لا يحتمل.

قال: لا أبالي ما بدا لك؛ فإني لا أفارقك.

قال: فإني أدس صاعي هذا في رحلك، ثم أنادي عليك بالسرقة؛ ليتهيّأ لي ردك بعد تسريحك.

قال: فافعل، وعلى هذا؛ فهذا التصرف إنما بإذن الأخ ورضاه»[2].

٧٠/٨٥٧- الأذان في علم التعبير.

قال المشتغلون بعلم التعبير: إذا رأى الإنسان أنه يؤذن؛ فلا يدل على صلاحه، وإنما ينظر في حاله؛ فإذا كان تقياً؛ كان هذا الأذان بشرى حج أو عمرة؛ لقوله -تعالى-: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ [الحج:٢٧]، وإن كان السوء يظهر من مقامه أو فعاله؛ فهو نذير سوء؛ لقوله :﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ [يوسف:٧٠]، والله أعلم.

---

(١) في «الطبري» (١٣/ ١٧) «والفتاوى الكبرى» (٣/ ٢١٠) تسمية أخيه «بنيامين».

(٢) « بدائع التفسير» (٢/ ٤٥٤-٤٥٦).

﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

٧١/٨٥٨- البريء واثق من نفسه، جريء في قوله وتصرفه.

إقبال إخوة يوسف الصديق عليهم وقولهم: ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾؛ دليل على ثقتهم بأنفسهم وجرأتهم؛ لأن لهجتهم يمازجها استغراب، ويخالطها شيء من استهجان نسبتهم للسرقة.

٧١/٨٥٩- ذهول المفاجأة.

قال أحمد نوفل:

«والأمر كله مفاجأة للإخوة هدت عزائمهم، وبخّرت الآمال التي كانت تجمعت في نفوسهم حتى ملأتها...إنه لموقف شديد... ولكن..أليس إلقاء الولد في الجب شديداً ...أليست فجيعة أب بابنه شديدة...؟ بلى.

وإن الذي يصنعه يوسف بهم إنما هو بأمر الله وليس شهوة انتقام؛ إنه يربيهم وينظف جرحهم الملتهب وإن آلمهم بعض الشيء؛ فهو في النهاية لعافيتهم، ولو أراد ألا يتألموا وألا تصيبهم هذه المصيبة ما كانوا زرعوا الحنظل، ولو زرعوا عنباً لحصدوا عنباً، فمن يزرع الشوك لا يجوز أن يتأمل جني العنب، ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ﴾ [آل عمران:١٦٥]، ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]»[1].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٩٦).

﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾.

٨٦٠/٧٢- جواز الجعل للضرورة، وهذه جعالة بذلت للواجد مشروعية إعطاء المكافآت لمن يقوم بعمل معين، وهي الجعالة في الفقه[١].

٨٦١/٧٢- مشروعية الكفالة، والكفيل غارم[٢].

قال ابن عاشور:

«وهذه الآية قد جعلها الفقهاء أصلاً لمشروعيته الجعل والكفالة. وفيه نظر؛ لأن يوسف- عليه السلام- لم يكن يومئذ ذا شرع حتى يستأنس للأخذ بـ (أن شرع من قبلنا شرع لنا) إذا حكاه كلام الله أو رسوله. ولو قدر أن يوسف - عليه السلام- كان يومئذ نبياً فلا يثبت أنه رسول بشرع؛ إذ لم يثبت أنه بعث إلى قوم فرعون، ولم يكن ليوسف- عليه السلام- أتباع في مصر قبل ورود أبيه وإخوته وأهليهم؛ فهذا مأخذ ضعيف»[٣].

٨٦٢/٧٢- لا يشترط في عقد الجعل حضور المتعاقدين كسائر العقود.

قال القرطبي:

«ولا يشترط في عقد الجعل حضور المتعاقدين كسائر العقود؛ ولقوله: ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾، وبهذا كله قال الشافعي»[٤].

٨٦٣/٧٢- ليس للجاعل أن يفسخ العقد إذا شرع المجعول له في العمل.

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٢).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٦٣٢).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٢٩).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٣٢).

قال القرطبي:

«وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فسخه؛ إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده إذا رضي بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له في العمل»[1].

٧٢/٨٦٤- لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب.

قال القرطبي:

«واختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال، هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما؟ فقال الثوري والكوفيون والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق: يأخذ من شاء حتى يستوفي حقه، وهذا كان قول مالك، ثم رجع عنه فقال: لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب؛ لأن التبدية بالذي عليه الحق أولى؛ إلا أن يكون معدما؛ فإنه يؤخذ من الحميل؛ لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة، وهذا قول الحسن.

والقياس: أن للرجل مطالبة أي الرجلين شاء.

وقال ابن أبي ليلى: إذا ضمن الرجل عن صاحبه مالا تحول على الكفيل، وبرئ صاحب الأصل إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء، واحتج ببراءة الميت من الدين بضمان أبي قتادة، و بنحوه قال أبو ثور»[2].

٧٢/٨٦٥- كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود؛ فلا كفالة فيها.

قال القرطبي:

---

(١) المصدر السابق (٩/ ٢٣٢).

(٢) المصدر نفسه (٩/ ٢٣٣).

«الزعامة لا تكون إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها، مما يتعلق بالذمة من الأموال، وكان ثابتاً مستقراً؛ فلا تصح الحمالة بالكتابة؛ لأنها ليست بدين ثابت مستقر؛ لأن العبد إن عجز رق وانفسخت الكتابة، وأما كلّ حقٍّ لا يقوم به أحد عن أحد، كالحدود؛ فلا كفالة فيه، ويسجن المدعى عليه الحد حتى ينظر في أمره»[١].

٧٢/٨٦٦- بيان عما يوجبه حال بهت الإنسان للتثبت في الأمر وترك الإسراع إلى ما لا يجوز من القول[٢] .

٧٢/٨٦٧- كل من تضمن حوائج الناس؛ فهو زعيم.

قال ابن عطية:

«قال مجاهد: الزعيم هو المؤذن الذي قال: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ ﴾ ، والزعيم: الضامن- في كلام العرب- ويسمى الرئيس زعيماً؛ لأنه يتضمن حوائج الناس»[٣].

---

(١) المصدر السابق نفسه (٩/ ٢٣٤).

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٧٧).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٦٤).

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

٧٣/٨٦٨- جواز الحلف بالله -تعالى- للحاجة أو لإثبات البراءة[1].

٧٣/٨٦٩- بيان أن التاء في ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ من حروف القسم وهي خاصة بلفظ الجلالة سبحانه -وتعالى-.

قال ابن عاشور:

«والتاء في ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ حرف قسم على المختار، ويختص بالدخول على اسم الله -تعالى- وعلى لفظ رب، ويختص -أيضا- بالمقسم عليه العجيب»[2].

٧٣/٨٧٠-السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض.

٧٣/٨٧١- إذا اتهم المسلم بتهمة وهو منها براء؛ فعليه أن يواجه الباطل بالحق، والتهمة بالنفي، ولا يقف ضعيفا أو مستخزيا أمام من يلقى عليه التهم بل يدفعها عن نفسه بقوة ما دام هو واثقا من براءته.

قال أحمد نوفل:

«لقد تكلموا بما يعلمون من أنفسهم من براءة فجاءت كلماتهم واثقة فيها نبرة التحدي، فما قالوا: لسنا سارقين، لا، وإنما قالوا: ﴿ تَٱللَّهِ ﴾، ولقد كثر القسم بهذه الصورة في السورة ، ثم قالوا بعد القسم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾؛ أي:

---

(١) «أيسر التفاسير»(٢/ ٦٣٤)

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٢٩).

أنكم أنتم في قرارة أنفسكم من خلال ما رأيتم من أمانتنا عبر أكثر من موقف، أنتم بأنفسكم موقنون أنا برآء.

وهذا أبلغ في اعتقاد البراءة وفي تأكيدها من أن تنفي عن نفسك التهمة فقط، ولكن بأن تقول لمن يتهم: أنا لن أرد عليك. أنت في قرارة نفسك تعلم فساد الدعوى التي تدعي.

إن في نبرة الرجال هؤلاء لثقة، جعلتهم يستعملون هذه المؤكدات ويخرجون كلامهم هذا الإخراج، ولقد نفوا عن أنفسهم بالإضافة إلى ما قلناه لا مجرد السرقة؛ وإنما -أيضاً- أي إفساد في الأرض»[1].

٨٧٢/٧٣- قلب الحجة على الخصم أبلغ في الرد عليه.

لقد قلب إخوة يوسف -عليه السلام- حجة الفتيان عليهم، وهذا أبلغ في الرد وآكد في نفي الاتهام؛ فقد جعلوا علم أهل مصر بصدقهم حجة عليهم:

١- لقد علم أهل مصر أنهم جاءوا ليمتاروا لأهلهم.

٢- ولما وجدوا البضاعة ردت إليهم لم ينكروها ويخفوها

٣- وعدوا العزيز بأن يراودوا أباهم ليأتي معهم أخوهم؛ ففعلوا، وقدموا به.

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٩٧).

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

وفي هذه الآية فوائد كثيرة:

٧٤/٨٧٣- الجزاء هو نتيجة العمل.

٧٤/٨٧٤- الكاذب يستحق العقوبة.

٧٤/٨٧٥- تحكيم المرء في ذنبه.

قال ابن عاشور:

«وقول الفتيان: ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ تحكيم؛ لأنهم لا يسعهم إلا أن يعينوا جزاء يؤخذون به؛ فهذا تحكيم المرء في ذنبه»(١).

٧٤/٨٧٦- الاسترسال للخصم ليقيم الحجة على نفسه.

قال أحمد نوفل:

«لقد قابلو ثقة الإخوة في نفي التهمة بثقة أخرى في إثبات التهمة، وكأنهم مستيقنون منها، قالوا: ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾؛ أي: فما جزاء السارق سواء كان فرداً منكم أو كان بالتواطؤ فيما بينكم، ما جزاؤه إن ثبت كذبكم بالدليل المحسوس والبينة القاطعة؟!»(٢).

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٣٠).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٩٨).

﴿ قَالُواْ جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

٧٥/٨٧٧- ينبغي لمن دخل بلداً أن يعرف أحكام وقوانين ذلك البلد الذي نزل فيه.

قال السمرقندي:

«وكان الحكم في أرض مصر للسارق الضرب والتخمين ، وكان الحكم بأرض كنعان أنهم يأخذون السارق ويسترقونه؛ ففوضوا الحكم إلى بني يعقوب؛ ليحكموا بحكم بلادهم»[١].

قال القرطبي:

«أي: كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يسترقوا، وكان هذا من دين يعقوب -عليه السلام- وحكمه، وقولهم هذا قول من لم يسترب نفسه؛ لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله، وكان حكم السارق عند أهل مصر يغرم ضعفي ما أخذ؛ قاله الحسن والسدي وغيرهما»[٢].

٧٥/٨٧٨- قد تتغير القوانين حسب الأوقات والدول والحكومات.

٧٥/٨٧٩- القوانين والتشريعات أن تؤخذ من تعاليم الدين والشرع.

قال البغوي:

« ﴿ جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥۚ ﴾؛ أي: فالسارق جزاءه أن يسلم السارق بسرقته إلى المسروق منه فيسترقّه سنة، وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق، وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرّم

---

(١) «مختصر تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٣٤).

ضعف قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده؛ فرد الحكم إليهم؛ ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم»[(١)].

قال السعدي:

«وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكا لصاحب المال المسروق»[(٢)].

٧٥/٨٨٠- بيان أن الجزاء من جنس العمل، حيث يتملك السارق كما تملك هو الشيء المسروق .

قال ابن عطية:

«وقولهم: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، أي: هذه سنتنا وديننا في أهل السرقة: أن يتملك السارق كما تملك هو الشيء المسروق»[(٣)].

٧٥/٨٨١- «وقد نسخ هذا الحكم؛ (أي: أخذ السارق) في الشريعة الإسلامية التي تقضي بقطع يد السارق»[(٤)].

٧٥/٨٨٢- «صاحب الحيلة المؤمن يحرص على أن تكون تدابيره متكاملة؛ حتى يدرك هدفه الذي استعمل الحيلة لبلوغه؛ تحقيقا للخير العام، والخير الخاص على السواء»[(٥)].

---

(١) «مختصر تفسير البغوي» (١/ ٤٤٨).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٢٤).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٦٤).

(٤) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٤٥).

(٥) المرجع السابق (ص٤٥).

٧٥/٨٨٣- الاسترقاق كان موجودا في الشريعة الإبراهيمية، ونتعلم من التوراة أنه كان موجودا في الموسوية، وكان فاشيا قبل البعثة المحمدية في العرب واليهود واليونان والرومان.

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾.

٧٦/٨٨٤- علو مقام يوسف -عليه السلام- في العلم[١].

٧٦/٨٨٥- تقرير قاعدة -وفوق كل ذي علم عليم- إلى أن ينتهي العلم إلى الله -تعالى-[٢].

قال السمرقندي:

٧٦/٨٨٦- العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات.

قال الرازي:

«واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات؛ لأنه -تعالى- لما هدى يوسف إلى هذه الفكرة مدحه لأجل ذلك؛ فقال: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾، و-أيضا- وصف إبراهيم -عليه السلام- بقوله: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ عند إيراد دلائل التوحيد»[٣].

قال السمرقندي:

«﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾؛ يعني: ليس من عالم إلا وفوقه أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله -تعالى-»[٤].

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٤).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٦٣٤)، و«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٤٦).

(٣) « تفسير الرازي» (١٨/ ١٨٢).

(٤) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧١).

٧٦/٨٨٧- بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه؛ لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد[(١)].

قال السعدي:

«فبدأ المفتش بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد»[(٢)].

٧٦/٨٨٨- يجوز للرجل قبل حلول الحول أن يتصرف بماله بالبيع أو الهبة إذا لم ينو أو يتعمد الفرار من الصدقة -الزكاة-، أو التحايل على إسقاطها عنه.

قال القرطبي:

«أجمع العلماء أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة»[(٣)].

قال أبو بكر الجزائري:

«قالت العلماء: يجوز للرجل أن يتصرف في ماله بالبيع والشراء والهبة والعطاء قبل حلول حول الزكاة ما لم ينو الفرار من الزكاة؛ فإن حال الحول؛ فلا يصح إلا بعد إخراج الزكاة»[(٤)].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٣٥).

(٢) « تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٢٤).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٣٦).

(٤) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٦).

٧٦/٨٨٩- بيان أن ولي الأمر عند الضرورة يباشر تنفيذ العملية التي أمر بها نفسه؛ كيلا يدع مجالا لاحتمال إفساد خطته من أحد من الذين يمكن أن يعهد إليهم بمهمة التنفيذ[١].

وهذا كان من دأب النبيين وفعل المرسلين؛ كما قام سليمان -عليه السلام- بنفسه ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ [النمل:٢٠].

٧٦/٨٩٠- «إن الله -سبحانه وتعالى- يرفع مقام المؤمن؛ ما دام المؤمن متحليا بالأخلاق، عاملا بأحكام الشرع، ساعيا بكل همة ونشاط لإعلاء كلمة الله، مستمرا في الطاعات ليل نهار»[٢].

٧٦/٨٩١- كيد يوسف لإخوته بتدبير من الله.

قال العلمي:

«بدأ المفتش يفتش بأوعيتهم قبل وعاء بنيامين؛ فتطاولت أعناقهم ليروا ما يبرر كلامهم أمام من اتهمهم،ثم مشى مشيا متثاقلا نحو رحل بنيامين، وما كاد يفتحه حتى استخرج الصواع منه، وعندئذ قطعت جهيزة قول كل خطيب، فاقشعرت أبدانهم، ووقفت شعور رؤوسهم، وسكتوا كأنما على رؤوسهم الطير؛ رأوا ذلك؛ فأجفلوا وبهتوا جميعا لما نظروه مما لم يكونوا يتوقعونه من بنيامين؛ أما بنيامين؛ فقد انصب عليه سوط ولوم وطعن من إخوته، فتظاهر بالخجل وتصنع بالاضطراب تصنعا لم يغير شيئا من مظاهر عزته وأنفته، وكأنه لم يعمل شيئا يذكر؛ صبر ولم يرد أن يكاشفهم بالحقيقة، خوفا من ظهور الأمر قبل أوانه؛ فتبطل الحيلة التي دبرها شقيقه يوسف،

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٤٦).

(٢) المرجع السابق (ص٤٦).

فأبقى الأمر مكتوما إلى حينه، وتحمل تبعة السرقة والتصاقها به؛ لاعتقاده أنه بذلك يخلص من جور إخوته له ومضايقتهم إياه بفلسطين، وأنه بذلك رفع من حضيض الأسر إلى أوج النسر، وهكذا تمت الحيلة ليوسف، ورب حيلة أنفع من قبيلة، وبسعيه هذا فاز بطريدته أخذ أخاه بنيامين.

وأما إخوته؛ فأحسوا بنيران هبت في أبدانهم، وودوا لو تسوى بهم الأرض ولا كانوا يشهدون هذا المشهد المخجل أمام عزيز مصر وعبيده.

كذلك الكيد العجيب كاد الله أن دبر ورأوا وصنع ويسر ليوسف المكائد؛ لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها، يكيد بها من سبق أنهم كادوه، ويصيد بها من كانوا صادوه «جزاء وفاقا»، «وواحدة بواحدة جزاء»، «بالصاع الذي تكيل يكال لك، وفي الحقيقة إن هذا كله يرجع لقدرة الله -تعالى- التي لا تقاوم، وإرادته التي لا تغالب؛ فلهذا ولما كان الله هو المرجع لكل حادث، والمعول عليه في كل الأمور؛ نسب هذا الكيد له -سبحانه وتعالى-»[(١)] .

٧٦/٨٩٢- الكيد نوعان: حسن وقبيح.

قال السمرقندي:

«﴿ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ ﴾؛ يعني: كذلك صنعنا ليوسف، والكيد: الحيلة؛ يعني: كذلك احتلنا له، وألهمناه الحيلة، ثم قال: ﴿ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ ﴾؛ يعني: في قضاء ملك مصر؛ لأنه لم يكن في قضائه أن يستعبد الرجل في سرقته»[(٢)].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٢٤-١٠٢٥).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧١).

قال ابن قيم الجوزية:

«فنسب الله هذا الكيد إلى نفسه، كما نسبه إلى نفسه في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ ﴾ [الطارق:١٥-١٦]، وفي قوله -تعالى-: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [النمل:٥٠]. وفي قوله -تعالى-: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠].

وقد قيل: إن تسمية ذلك مكراً وكيداً واستهزاءً وخداعاً من باب الاستعارة ومجاز المقابلة، نحو: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى:٤٠]. ونحو قوله: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٤].

وقيل -وهو أصوب-: بل تسميته بذلك حقيقة على بابه؛ فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان:

قبيح: وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه.

وحسن: وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له، فالأول مذموم، والثاني ممدوح»[(١)].

وقال العلمي:

«... أو يقال: لما كان هذا الكيد محمودا ومأذونا فيه شرعا؛ لما فيه من فائدة يوسف وأخيه؛ نسب لله، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾، بخلاف كيد الإخوة؛ فإنه شر ليوسف؛ فلهذا نسب لهم وللشيطان في قول أبيه له:

---

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٦٠).

﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ فيوسف ما قصد إلا خير أخيه، والإخوة لم يقصدوا إلا شر أخيهم.

قال الشاعر:

ويقبـــح مـــن ســـواك الفعـــل عنـــدي

فنفعلـــه فيحســـن منـــك ذاكـــا[1]

٧٦/٨٩٣- بيان عاقبة من صبر على كيد الكائد له بغيا وعدوانا.

٧٦/٧٩٤- جواز الكيد والحيلـة في التوصـل للمبـاح ومـا فيـه الصـلاح واستخراج الحقوق.

قال ابن قيم الجوزية:

«فالعلم بالكيد الواجـب أو المسـتحب الـذي يتوصـل بـه إلى طاعـة الله -تعالى- ورسوله ونصر المحق وكسر المبطل مما يرفع الله به درجة العبد»[2].

قال القاسمي:

«قال في «الإكليل»: في الآية دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى المباح وما فيه الغبطة والصلاح واستخراج الحقوق»[3].

٧٦/٨٩٥- دلالة على جواز تسمية قوانين الكفر دينا.

قال القاسمي:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٢٦).

(٢) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٦٦).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٥٨).

«وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملـك، وإلا؛ لاستبد بما شاء، وهذا من وفور فطنته وكمال حكمته، ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملك الكفر دينا، والآيات في ذلك كثيرة»[1].

قلنا: ومما يدل على ذلك دلالة واضحة وصريحة قوله -تعالى-: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾ [الكافرون:٦].

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٥٩-٢٦٠).

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾.

٧٧/٨٩٦-ثبات أبناء يعقوب - عليه السلام- على كره يوسف - عليه السلام-.

قال العلمي:

«هذه الكلمة تشف عن ثباتهم على كره يوسف، حتى يوم ما فاهوا بذلك، وعن أن الحقد قد أكل قلوبهم، والحفيظة ملأت صدورهم!!! والعجيب أنهم لم يكتفوا بالإيقاع بيوسف بما عملوه معه، حتى أردفوا عملهم السيئ بالقول السيئ، مخالفين قول بعض الحكماء: «لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه، فتسد عليه طريق عفوه عنك»، وأما هو -عليه السلام-؛ فلم يحفل بطعنهم، بل هضمه قائلا: «إنه كلام لا يسر ولا يضر؛ فلنمر عليه مر الكرام».

ويمكن أن نقول: إنهم أرادوا بقولهم:﴿ أَخٞ لَّهُۥ ﴾ أخاه الذي يمت إليه من طرفين: طرف الأبوة، وطرف الأمومة، وأما نحن؛ فلا نمت إلا من جانب الأبوة فقط، فاتصالنا به ضعيف، ومشابهتنا له قليلة، بخلافه هو؛ فهو المشارك له في أخلاقه وأعماله، فهو على وتيرته وشاكلته، خريجه الذي أخذ عنه هذه الثقافة»[1].

٧٧/٨٩٧- إنه قد يضطر الحليم إلى أن يقول ما لم يكن يقوله؛ لولا ما وجه به من السوء[2].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٤٦-١٠٤٧).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٦).

٧٧/٨٩٨- «على المؤمن أن يحلم عند الغضب وتوجيه الأذى إليه من قبل المسيء إذا كانت الإساءة شخصية»[١].

٧٧/٨٩٩- «الحليم الذي يسمع الأذى ويغضي عليه ويكظم الغيظ ويتجاوزه ويلجأ في الحال إلى ذكر الله؛ كيلا يدع مجالا للشيطان أن يدفعه إلى أن يقول قولا أو يفعل فعلا في غير مرضاة الله -عز وجل-»[٢].

٧٧/٩٠٠- «عندما يصلح حال المؤمن ويستقيم سلوكه؛ فإنه يكون واثقا من نفسه، لا يضره قول قائل، ولا يهمه افتراء مفتر»[٣].

٧٧/٩٠١- بيان فضيلة كظم الغيظ بترك التشفي والانتقام.

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٤٨).

(٢) المرجع السابق (ص٤٨).

(٣) المرجع نفسه (ص٤٧).

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ ﴾.

٧٨/٩٠٢- «مشروعية الاعتذار عن الخطأ»(١).

٧٨/٩٠٣- مشروعية الاسترحام والاستعطاف لمن احتاج إلى ذلك رجاء أن يرحم ويعطف عليه(٢).

٧٨/٩٠٤- بيان أن شريعة يعقوب -عليه السلام- أن السارق يسترق سنة.

٧٨/٩٠٥- «عندما يكون للمسلم حاجة عند صاحب نفوذ؛ فإنه يعرضها عليه، ويقدم لها مبررا ثم يعززها بذكر خير صفاته؛ فإن ذكر الخير يشكل حافزا يدفعه للمضي في فعل الخير بشرط أن لا يبالغ في مدحه أو يشعره بتقديسه أو تأليهه»(٣).

٧٨/٩٠٦- أن للكبير حقا يتوسل به.

قال القاسمي:

«لما تعين بنيامين وإبقاءه عند يوسف بمقتضى فتواهم طفقوا يعطفونه عليهم بأن له أبا شيخا كبيرا، يحبه حبا شديدا، يتسلى به عن أخيه المفقود؛ فخذ أحدنا بدله رقيقا عندك.

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٦).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٦)، و«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٤٩).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٤٩).

قال بعضهم: الفقه من هذه الجملة أن للكبير حقا يتوسل به كما توسلوا بكبر يعقوب، وقد ورد في الاستسقاء إخراج الشيوخ»[(١)].

قال ابن عاشور:

«ووصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي: حنان الأبوة، وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره؛ لأنه كبير قومه، أو لأنه انتهى في الكبر إلى أقصاه؛ فالأوصاف مسوقة للحث على سراح الابن لا لأصل الفائدة؛ لأنهم قد كانوا أخبروا يوسف- عليه السلام- بخبر أبيهم.

والمراد بالكبير: إما كبير عشيرته؛ فإساءته تسوءهم جميعا ومن عادة الولاة استجلاب القبائل، وإما أن يكون «كبيرا» تأكيدا لـ «شيخا»؛ أي: بلغ الغاية في الكبر من السن، ولذلك فرعوا على ذلك ﴿ فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾، إذ كان هو أصغر الإخوة، والأصغر أقرب إلى رقة الأب عليه»[(٢)].

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٣٦-٣٧).

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

٧٩/٩٠٧- لا محاباة في أحكام الشرع.

قال العلمي:

«الحكم الشرعي الذي لفظتموه عام؛ فهو لا ينظر في كون المجرم لـه أب شيخ كبير أم لا، ولا فرق فيه بين ولـد وولـد، ولا يحتمـل شيئا مـن المحابـاة، ومراعاة الوجوه»[1].

٧٩/٩٠٨- لا تجزي نفس عن نفس شيئا.

قال العلمي:

«قولـــــــه: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾، فكمـا أنـه في الآخـرة ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة:٤٨]؛ فكـذا في الدنيا، لا نسيغ البدل الشخصي، ولا نقبل الشفاعة، التي تعـود علـى العدالـة بالنقص والبطلان، ولا نأخذ فدية من المحكوم عليه، وليس أحد مـن عشيرته وذويه، يقدر أن يخلصه منا قهراً؛ لأن فتح هـذا البـاب يزيـد النـاس ميـلا إلى الشـر، وضـراوة بـالإثم، وأن تعطيـل العـدل، والوقـوف في وجـه الشـرائع والقوانين أن تأخذ مأخذها، وتنفذ نفاذهـا- ضـار بـالأمم، مفسـد للعمـران، ولذلك فحكمتنا في مصـر لا ترضـاه، بـل هـي تباهي بأنـها لا تـروج لديـها «المحسوبيات»، ولا تميل إلى «المحاباة»، وليس فيها متسع للمداخـلات، حقـا إن

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٥٧).

شيئا من هذا القبيل لهو مما يضــر بـالأمم ويفسـد حـالهم، ويؤخـر عمرانـهم، ويوهن عزائمهم عن الوقوف عند حدود الشرائع والقوانين»[1].

٧٩/٩٠٩- وضع العقوبة في غير موضعها ظلم.

٧٩/٩١٠- حرمة ترك الجاني وأخذ غيره بدلا منه؛ إذ هذا من الظلم[2].

---

(١) «المرجع السابق» (٢/ ١٠٥٧).

(٢) «أيسـر التفاســير» (٢/ ٦٣٦)، و«دروس مســتفادة مــن ســورة يوســف» (ص٤٩).

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

٨٠/٩١١- القرآن حوى جوامع الكلم وأحاط ببلاغة الإيماء وعلا على سائر الكلام.

قال القاسمي:

«وقال الثعالبي في كتاب «الإيجاز والإعجاز» في الباب الأول: من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاغة الإيماء ويفطن لكفاية الإيجاز؛ فليتدبر القرآن، وليتأمل علوه على سائر الكلام.

ثم قال: فمن ذلك قوله -عز ذكره- في إخوة يوسف: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾، وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث ؛ فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة»[١].

٨٠/٩١٢- مشروعية المناجاة للتشاور في الأمر الهام[٢].

٨٠/٩١٣- من آداب الكلام أن يقدم الأكبر.

قال أحمد نوفل:

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٦٣).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٩).

«﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾، ولأول مرة يبرز السياق واحداً منهم بعينه، والمرة يكون المتكلم أعقلهم وأكبرهم، وشيء طبيعي أن يكون الأكبر هو الذي يتكلم الآن؛ لأنه الذي يتحمل المسؤولية أمام أبيه بالدرجة الأولى، وأن غيابه مع ذاك الأخ يتخفف من مصيبته، ويقنع ولو احتمالاً أن الأمر ليس تدبيراً كيدياً سيئاً أعده الإخوة، فهذا واحد من البقية قد فقد»[١].

قلنا: وقد جاءت الشريعة الإسلامية في تقديم الكبير في الكلام والسواك.

٨٠/٩١٤- قد يغلب الحياء على المؤمن؛ فيمنعه من أمور هي خير له[٢].

٨٠/٩١٥- مشروعية التذكير بالالتزامات والعهود والمحافظة على ذلك[٣].

٨٠/٩١٦- موجبات العدل عند أهل الحكم والولاية: عندما يكون الحاكم على ثقة من أمره، وهدىً من طريقه، وبصيرة من رؤيته؛ فإنه لا يخضع لأي ضغط خارجي لتغيير موقفه وتحويل وجهته، إرضاء لأحد غير ربه[٤].

٨٠/٩١٧- عندما يواجه المؤمن ظرفاً صعباً يتعلق به أو بجماعته أو ببلده أو بأمته؛ فعليه أن يلجأ إلى الشورى، ويتبادل الرأي مع الآخرين لدفع المصاعب بالجهد المشترك، الذي يؤدي إليه تبادل الرأي وتقليب وجوه النظر[٥].

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٥٠٨).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٩).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٦٣٩).

(٤) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٠).

(٥) المرجع السابق (ص٥١).

٨٠/٩١٨- بعد أن يستفيد المؤمن من كل الوسائل التي تدخل ضمن طاقته في مجابهة المخاطر؛ فإن المؤمن يكل الأمر إلى الله -عز وجل-، ويوطن نفسه على الرضى بما يحكم به الله[1].

٨٠/٩١٩- إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق.

قال العلمي:

«لاحظت هنا ملاحظة، ولا أعلم إذا كان أتيح لغيري أنه لاحظها أم لا! وهي أن قول روابين: ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ هو أول اعتراف بالحقيقة جرى على لسان واحد منهم وسكت عليه الباقون، فيكون الكل قد اعترف صراحة بأنهم أفرطوا في يوسف، وكان هذا نتيجة شيء من الخلاف بين الأخوة، وبعبارة أصح بين راوبين وسواه، وبذلك صدق قول الحكماء: إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق»[2].

---

(١) المرجع السابق (ص ٥٢).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٦٧-١٠٦٨).

﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

٨١/٩٢٠- استنباط عدم جواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر.

قال القرطبي:

«جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلاً وشرعاً، فلا تسمع إلا ممن علم ولا تقبل إلا منهم، وهذا هو الأصل في الشهادات، ولهذا قال أصحابنا: شهادة الأعمى جائزة، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة»[(١)].

قال القاسمي:

«استنبط بعضهم من هذا عدم جواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر، وكذا من سمع كلامه من وراء حجاب لعدم العلم به - كذا في الإكليل- ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به في مواقع الخلاف»[(٢)].

٨١/٩٢١- كل من حصل له العلم بشيء جاز له أن يشهد به وإن لم يشهده المشهود عليه.

قال القرطبي:

«قال أصحابنا: شهادة الأعمى جائزة، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة، وكذلك الشهادة على الخط- إذا تيقن إنه خط فلان -صحيحة؛ فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به، وإن لم يشهده المشهود عليه؛ قال -تعالى-: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٤٥).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٦٤).

[الزخرف: ٨٦] وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها»[1][2].

٨١/٩٢٢- أداء الشهادة يكون عند الاستيعاب لها؛ لأنه حصل المطلوب وتعين عليه أداء العلم.

قال القرطبي:

«والصحيح أداء الشهادة عند الاستيعاب، وبه قال العلماء، وهو الحق؛ لأنه قد حصل المطلوب، وتعين عليه أداء العلم؛ فكان خير الشهداء إذا أعلم المشهود له، وشر الشهداء إذا كتمها؛ والله أعلم»[3].

٨١/٩٢٣- مشروعية النصح، وتزويد المنصوح له بما يقوله ويعمله[4].

٨١/٩٢٤- لا أحد يعلم الغيب إلا الله -عز وجل-[5].

قال السمرقندي:

«﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾؛ يعني: وما كنا نرى أنه سرق، ولو علمنا ما ذهبنا به، ويقال: إنا لم نطلع على أنه سرق، ولكنهم سرقوه»[6].

قال الزمخشري:

---

(١) أخرجه مسلم(١٧١٩) من حديث زيد بن خالد الجهني.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٤٥).

(٣) المرجع السابق (٩/ ٢٤٥).

(٤) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٩).

(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٣).

(٦) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧٣).

«﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف»[١].

قال ابن الجوزي:

«والسادس: ما كنا لغيب ابنك حافظين، وإنما نقدر على حفظه في محضره، فإذا غاب عنا خفيت عنا أموره»[٢].

٨١/٩٢٥- على المسلم الذي يروي حادثا أو ينقل خبرا ألا يشهد إلا بما علم.

٨١/٩٢٦- أنه لا يندم الإنسان إلا بما يقصر في تحصيله وكسبه.

٨١/٩٢٧- الاحتراس في النقل أمان من الكذب.

قال ابن عاشور:

«وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾ احتراس من تحقيق كونه سرق، وهو إما لقصد التلطف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة، وإما لأنهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم به الشك في وقوع السرقة منه»[٣].

---

(١) «الكشاف» (٢/ ٢٧٠).

(٢) «زاد المسير» (٤/ ٢٦٨).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٤٠).

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

٨٢/٩٢٨- إن الأنبياء قد تخاطبـهم الأحجـار والبـهائم والجمـادات والله ينطقها[1].

قال القرطبي:

«وقيل: المعنى ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ وإن كانت جمادا؛ فأنت نـبي الله، وهـو ينطق الجماد لك، وعلى هذا؛ فلا حاجة إلى إضمار.

قال سيبويه: ولا يجوز كلم هندا وأنت تريد غلام هند؛ لأن هذا يشكل، والقول في العير؛ كالقول في القرية سواء»[2].

٨٢/٩٢٩- إنه يمكن للمؤمن الصادق أن يطلب ممن يستمعون إلى حجتـه أن يستشهدوا بجميع الشهود الذيـن رأوا مـا حـدث معـه بـأم أعينـهم تعزيـزا لصدقه وإقناعا بحجته[3].

٨٢/٩٣٠- رد دعوى المجاز في الكلام الإلهي المنزل للإعجاز.

قال شيخ الإسلام:

«...ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز في القرآن: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾. قالوا: المراد به أهلها، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليـه مقامـه، فقيـل لهـم: لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب، وأمثال هذه الأمور التي فيها الحال والمحل

---

(١) «زاد المسـير» (٤/ ٢٦٨)، و«تفسـير سـلطان العلمـاء» (٢/ ١٣٥)، و«فتـح القدير» (٣/ ٤٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٤٦).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٤).

وكلاهما داخل في الاسم، ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان، وتارة على المحل وهو المكان، وكذلك في النهر يقال: حفرت النهر، وهو المحل، وجرى النهر، وهو الماء، ووضعت الميزاب، وهو المحل، وجرى الميزاب، وهو الماء، وكذلك القرية، قال -تعالى-: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ [النحل:١١٢]، وقوله: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:٤و٥]، وقال في آية أخرى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ ﴾ [الأعراف:٩٧]؛ فجعل القرى هم السكان. وقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝ ﴾ [محمد:١٣]: وهم السكان. وكذلك قوله -تعالى-: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝ ﴾ [الكهف:٥٤]، وقال -تعالى-: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩]؛ فهذا المكان لا السكان، لكن لا بد أن يلحظ أنه كان مسكونا، فلا يسمى قرية إلا إذا كان قد عمر لسكنى، مأخوذ من القري وهو الجمع، ومنه قولهم: قريت الماء في الحوض إذا جمعته فيه.

ونظير ذلك لفظ الإنسان يتناول الجسد والروح، ثم الأحكام تتناول هذا تارة، وهذا تارة؛ لتلازمهما، فكذلك القرية إذا عذب أهلها خربت، وإذا خربت كان عذابا لأهلها، فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر، كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما، فقوله: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف:٨٢]. مثل قوله: ﴿ قَرْيَةً كَانَتْ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ [النحل:١١٢]؛ فاللفظ هنا يراد به

السكان من غير إضمار ولا حذف؛ فهذا بتقدير أن يكون في اللغة مجاز، فلا مجاز في القرآن.

بل وتقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف، والخلف فيه على قولين، وليس النزاع فيه لفظي، بل يقال: نفس هذا التقسيم باطل لا يميز هذا عن هذا، ولهذا كان ما يذكرونه من الفروق تبين المنطقيون أن الصفات القائمة بالموصوفات تنقسم اللازمة لها إلى داخل في ماهيتها الثابتة في الخارج، وإلى خارج عنها لازم للماهية، ولازم خارج للوجود. وذكروا ثلاثة فروق كلها باطلة؛ لأن هذا التقسيم باطل لا حقيقة له، بل ما يجعلونه داخلا يمكن جعله خارجا، وبالعكس كما بسط في موضعه»[١].

---

(١) «الإيمان» (ص ١٠٧-١٠٩).

﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾.

٨٣/٩٣١- جواز اتهام البريء لملابسات أو تهمة سابقة[١].

قال العلمي:

«لم يصدقهم أبوهم هذه المرة، مع أنهم -فيما يعتقدون- صادقون فيها؛ لأن من عهد عليه الكذب، لا يصدق ولو تكلم بالصدق، كما أن من عرف بالصدق يصدق في كل شيء ولو كان كاذبا، فأبوهم لم يقابل كلامهم بالتصديق بل استغشهم، ولم يكن في هذه المرة الثانية أقل منه استغشاشا لهم في المرة الأولى.

كانوا استشهدوا بسؤال القرية والعير، فلم يأبه لاستشهادهم، ولم يعبأ بأيمانهم ذلك؛ لأنه تعود منهم الغدر والكذب واليمين الغموس، فما صدقهم في هذه مع أنهم كانوا -في تصورهم- صادقين، فما مثلهم إلا كمثل حكاية الذئب وراعي الغنم المشهورة»[٢].

٨٣/٩٣٢- ما كل الظنون على القياس.

قال ابن عاشور:

«جعلت جملة: ﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ ﴾ في صورة الجواب عن الكلام الذي لقنه أخوهم على طريقة الإيجاز.

والتقدير: فرجعوا إلى أبيهم؛ فقالوا ذلك الكلام الذي لقنه إياهم (روبين) قال أبوهم: ﴿ بَلۡ سَوَّلَتۡ ﴾... إلخ.

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٩).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٧٩).

وقوله هنا كقوله لهم حين زعموا أن يوسف- عليه السلام- أكله الذئب، فهو تهمة لهم بالتغرير بأخيهم.

قال ابن عطية: «ظن بهم سوءا؛ فصدق ظنه في زعمهم في يوسف- عليه السلام- ولم يتحقق ما ظنه في أمر بنيامين؛ أي: أخطأ في ظنه بهم في قضية (بنيامين)، ومستنده في هذا الظن علمه أن ابنه لا يسرق، فعلم أن في دعوى السرقة مكيدة؛ فظنه صادق على الجملة لا على التفصيل.

وأما تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالؤوا على أخيهم بنيامين؛ فهو ظن مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم في قضية يوسف- عليه السلام-، فإنه كان قال لهم: ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾. ويجوز على النبي الخطأ في الظن في أمور العادات كما جاء في حديث ترك إبار النخل[1]»[2].

٨٣/٩٣٣- الصبر الجميل هو الذي لا تسخط ولا جزع ولا شكوى فيه للخلق[3].

قال السعدي:

«﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾؛ أي: ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد والكربة انتهت، فقال:﴿ عَسَى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦١و٢٣٦٢و٢٣٦٣) من حديث طلحة بن عبيد الله ورافع خديج وعائشة وأنس بن مالك -رضي الله عنهم-.

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٤١).

(٣) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧٣)، و«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٤).

ﭐللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ ﴾؛أي: يوسف وبنيامين وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر»[١].

٨٣/٩٣٤- الواجب الصبر عند المصائب في النفس والمال أسوة بالأنبياء.

٨٣/٩٣٥- بيان ما يوجب حسن الظن بالله -عز وجل- وهو مع ظن عبده به[٢].

قال أبو حيان:

«﴿ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾؛ أي: أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب»[٣].

٨٣/٩٣٦- أن الرجاء في الله والاتصال الوثيق به يتجلى في قلوب الصفوة المختارة؛ فيصبح عندها أصدق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار.

٨٣/٩٣٧- أن المؤمن عندما تحيط به الخطوب يفزع إلى الله -عز وجل[٤].

٨٣/٩٣٨- ثقة المؤمن بربه وبأنه عليم بحاله؛ تقوي فيه- إيمانه، وتزيد في يقينه، وتلقي في روحه الرضا بما قدر الله، والصبر على بلواه[٥].

٨٣/٩٣٩- الكلمات التي تتردد على اللسان معبرة عن الحال.

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٢٥-٢٦).

(٢) « تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧٣)، «تفسير البغوي» (١/ ٢٨٩)، «محاسن التأويل» (٦/ ٢٦٨).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٥).

(٤) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٤).

(٥) المرجع السابق (ص٥٤).

قال أحمد نوفل:

«فنحن نلحظ كلمة الصبر مثلا كانت دائما على لسان يعقوب والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف، وتوكيد الأيمان على لسان إخوته»[١].

٨٣/٩٤٠- جزاء السيئة سيئة بعدها.

قال ابن كثير:

«﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ ﴾؛ أي: ليس كما ذكرتم لم يسرق؛ فإنه ليس سجية ولا خلقة، وإنما سولت لكم أنفسكم أمرا؛ فصبر جميل.

قال ابن إسحاق وغيره: لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتبا على صنيعهم في يوسف قال لهم ما قال، وهذا كما قال بعض السلف: إن من جزاء السيئة السيئة بعدها، ثم قال: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ ﴾؛ يعني: يوسف وبنيامين وروبيل ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾؛ أي: بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فيما يقدره ويفعله وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة»[٢].

٨٣/٩٤١- اشتدي أزمة تنفرجي.

قال أحمد نوفل:

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (٤٩).

(٢) «البداية والنهاية» (١-٢/ ٢١٤).

«ولاحظ الثبات في هذه الشخصية يتجلى من خلال ثبات الكلمات، ولاحظ الثقة في الله -تعالى- والأمل في فرج الله، عسى الله أن يأتيني بهم جميعا.

لقد كان يعقوب بمصيبة فصار الآن بثلاث مصائب، فإذا تأزمت الأمور آذنت بفرج، وإنه لم يكن يوما متأملا كما هو اليوم:

اشـــــتدي أزمـــــة تنفرجـــــي
قـــــد آذن ليلـــــك بـــــالبلج

فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً.

وكما قال القائل:

رب أمـــر تتقيـــه فيـــه أمـــر تبتغيـــه
خفـــي المحبـــوب منـــه وبـــدا المكـــروه فيـــه

ولربمـــا نـــثر الجمـــان تعمـــدا
ليعـــاد أحســـن في النظـــام وأكمـــلا

إن الله -سبحانه وتعالى- عليم بحالي وحالهم وحال خلقه، حكيم في أفعاله سبحانه، فلست أشك ولا أشكو»[1]..

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٥١٤).

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾.

٨٤/٩٤٢- جواز إظهار التأسف والحزن والشكوى لله -تعالى-[١].

٨٤/٩٤٣- لا يلام المرء على حزنه، وإنما يلام إذا قرن ذلك بولولة وعويل أو شق ثياب والهجر من القول[٢].

٨٤/٩٤٤- بيان أن المصائب تذكر ببعضها.

قال ابن الجوزي:

«قوله -تعالى-: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾؛أي: أعرض عن ولده أن يطيل معهم الخطب، وانفرد بحزنه، وهيج عليه ذكر يوسف ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ؛ قال ابن عباس: يا طول حزني على يوسف.

قال ابن قتيبة: الأسف: أشد الحسرة، قال سعيد بن جبير: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم يعط الأنبياء قبلهم ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦]، ولو أعطيها يعقوب إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾»[٣].

قال الرازي:

«واعلم أن يعقوب لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه عظم أسفه على يوسف -عليه السلام-، وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٣٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٤٨).

(٣) «زاد المسير» (٤/ ٢٦٩).

١- الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن. والقرح إذا وقع على القرح كان أوجع.

قال متمم بن نويرة:

وقد لامني عند القبور على البكا ... رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... فدعني فهذا كله قبر مالك

وذلك؛ لأنه إذا رأى قبرا؛ فتجدد حزنه على أخيه مالك»[١].

قال السعدي:

«﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾؛ أي: ممتليء القلب من الحزن الشديد ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾؛ أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم وذكرته هذه المصيبة الخفيفة- بالنسبة للأولى- المصيبة الأولى؛ فقال له أولاده متعجبين من حاله: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾؛ أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾؛ أي: فانيا لا حراك فيك، ولا قدرة لك على الكلام ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾؛ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدا»[٢].

---

(١) «تفسير الرازي» (١٨/ ١٩٣).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٢٦).

قال العلمي:

«كان يعقوب يرى أن يوسف هو ثمرة حياته، ومرجع آماله، وزهرة أعماله، وتعزيته في شيخوخته، ووارث علمه، ومجدد مجده، وأنه هو الذي تمثلت فيه ملامحه، وتوفرت فيه خلائق أبيه وغرائزه؛ ولذلك لم ينساه، فعندما سمع نبأ بنيامين؛ تذكر ولده يوسف؛ فتولى عن أولاده، وخلا بنفسه، فصارت الهواجس تتقاذفه، والأفكار تخنقه، وقد جرت عادته أن يتعزى عن يوسف ببنيامين، ولكن اليوم لم يجد ما يتعزى به عنه، فاندفع إلى ذكراه، ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ؛فقد كان تعزيتي عن كل شيء، وكان زينة أولادي، وبيت قصيدهم، فصعد الزفرات، وأسال العبرات حيث طفحت عواطفه عن طريق العيني،ن فانسكب دمعهما قطرات يسابق بعضها بعضا؛ وبالنتيجة ابيضت عيناه من الحزن الصامت، ولكن بدون أن يجني ذلك البياض على نظره، وأشد الحزن ما يبكي الرجال، وكان حينما يبكي لا يدري، أيبكي يوسف.. أم يبكي بنيامين.. أم يبكي راوبين.. أم يبكي شخصه الذي أصيب بهذه المصائب.. أم يبكي تشويش حال أسرته وتشتتها.. أم سوء سمعة بنيامين واسترقاقه في مصر.. إلى آخر الأحوال المحزنة الأليمة التي صبت فوق رأسه -عليه الصلاة والسلام-؟!

وههنا رب سائل يسأل ويقول: كيف بكى يعقوب حتى ابيضت عيناه مع أنه وعد أن يصبر صبرا جميلا؟.. والذي يفهم من كلام بعض الشعراء أن البكاء ينافي الصبر الجميل، قال البحتري:

إن الفراق كما علمت فخلني

ومدامعا تسع الفراق وتفضل

إن لا يكــن صــبر جميــل فــالهوى
نشــوان يحمــل فيــه مــالا يحمــل

وقال كثير:

وقــالوا نــأت فاخــتر مــن الصــبر والبكــا
فقلــت: البكــا أشــفى إذا لغليلــي

وقال أبو الفراس الحمداني:

إذا مــا دعــوت الصــبر بعــدك والبكــا
أجــاب البكــا طوعــا ولم يجــب الصــبر

وقال المتنبي:

يــأبى الشــجاع وصــبره متواتــر
يبكــي ومــن شــر الســلاح الأدمــع
وإذا حصلــت مــن الســلاح علــى البكــا
فحشــاك رعــت بــه وخــدع تقــرع

قلت في جوابه: ليس مطلق بكاء هو من نوع منافيـات الصبر الجميـل، كما تشير إليه هذه الأشـعار، ولكـن الـذي نـص عليـه علمـاء التفسـير، وفي مقدمتهم ابن جرير: أن الصبر الجميل هو الذي ليس فيـه جـزع ولا شـكوى، ومعناه: لا شكوى فيه، ومعناه لا شـكوى فيـه إلى الخلـق، ألا تـرى إلى قولـه تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، وعلى كل؛ فهذا المعنى يصـدق بما إذا كان فيه بكاء ولو كثيرا، ومجرد البكاء ولو كثيرا، لا يسـمى جزعـا، إنمـا الجزع ما يقع من الصياح والنياحة ولطم الخدود وشـق الجيـوب، فـهذا النـبي ﷺ كان سيد الصابرين الصبر الجميل، مع أنه بكى يوم وفـاة ولـده إبراهيـم، وقال: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا بفراقك لمحزونون، ولا نقـول

وقال: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا بفراقك لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا»[1]، وعنه ﷺ: «أنه بكى على ولد بعض بنيه وهو يجود بنفسه، فقيل: يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء، فقال: «ما نهيتكم عن البكاء، وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين: صوت عند الفرح، وصوت عند الترح»[2].

وعن الحسن: أنه بكى على ولده أو غيره، فقيل له في ذلك، فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عارا على يعقوب.

قال الشاعر:

إن البكاء هو الشفاء

من الجوى بين الجوانح

وأما ما يفهمه شعر هؤلاء الأدباء من المنافاة بين الصبر ومطلق البكاء؛ فهو من باب المبالغات الشعرية، و-أيضا- فليس كلام الأدباء بحجة في اللغة، وإنما الحجة الحديث الشريف»[3].

٨٤/٩٤٥- جواز البكاء والتأسف عند المصيبة.

قال القاسمي:

«دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة.

قال الزمخشري:

فإن قلت: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ؟

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٣٩٣)، وعبد بن حميد في «مسنده» (٣/ ٨/ ١٠٤٤)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣٨)، والطيالسي في «مسنده» (١٦٨٣) وغيرهم كثير من حديث عبد الرحمن بن عوف، وسنده ضعيف، وانظر: «تحريم آلات الطرب» (ص ٥٢-٥٣).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٨٢-١٠٨٤).

قلت: الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن؛ ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن.

وقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي، ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[١].

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب.

وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره؛ فقيل له في ذلك؟ فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عارا على يعقوب[٢].

٨٤/٩٤٦- الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن[٣].

٨٤/٩٤٧- فضيلة كظم الغيظ، وهو الذي لا ينفذه صاحبه مع القدرة على ذلك.

قال الزمخشري:

«﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ؛فهو مملوء من الغيظ على أولاده، ولا يظهر ما يسوءهم»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣) من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-.

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٦٧).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٦٧).

(٤) «الكشاف» (٢/ ٢٧١).

٨٤/٩٤٨- ما أعطيت أمة من الأمم الاسترجاع ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ غير هذه الأمة، ولو كان أعطيها أحد قبلكم لأعطيها يعقوب حين قال: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾[١] .

قال السمرقندي:

«وقال سعيد بن جبير: ما أعطيت أمة من الأمم ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ غير هذه الأمة، ولو كان أوتيها أحد قبلكم لأوتيها يعقوب حين قال: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾»[٢].

قال ابن عطية:

«المعنى: أنه ساء ظنه بهم، ولم يصدق قولهم؛ بل استراب به ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ ؛أي: زال بوجهه عنهم، وجعل يتفجع ويتأسف.

قال الحسن: خصت هذه الأمة بالاسترجاع، ألا ترى إلى قول يعقوب: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾؟»[٣].

٨٤/٩٤٩- شكوى المؤمن همه وغمه إلى الله من أسباب الفرج.

قال ابن كثير:

«وقوله: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾؛ أي: من كثرة البكاء ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾؛ أي: مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف؛ فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق؛ ﴿ قَالُواْ ﴾ له على وجه الرحمة له والرأفة به

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٤)، و«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٥).

(٢) «تفسير السمرقندي »(٢/ ١٧٣). وانظر: «فتح القدير» (٣/ ٤٨)

(٣) «المحرر الوجيز »(٣/ ٢٧٢).

والحرص عليه: ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ يقولون: لا تزال تتذكره حتى تنحل جسدك وتضعف قوتك؛ فلو رفقت بنفسك كان أولى بك ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾: يقول لبنيه: لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه، إنما أشكو إلى الله -عز وجل-، وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجا ومخرجا، وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع، ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، ثم قال لهم محرضا على تطلب يوسف وأخيه، وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة؛ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق ﴿ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1].

٨٤/٩٥٠- وجه التشابه بين يوسف -عليه السلام- وأخيه.

قال الرازي:

«إن يوسف وأخاه كانا من أم واحدة، وربما كانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل؛ فكان يعقوب -عليه السلام- يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة؛ فعظم الألم والوجد»[2].

٨٤/٩٥١- المصائب الجديدة التي نزلت بيعقوب -عليه السلام- كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها.

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٢١٥).

(٢) «تفسير الرازي»(١٨/ ١٩٣).

قال الرازي:

«إن المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها، أضف إلى أن مكان من فقد مؤخرا معلوم، أما يوسف؛ فما يعلم يعقوب له مكانا، ولا للمصيبة فيه كيفية»[١].

٨٤/٩٥٢- من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

يخبر الله -تعالى- أن يعقوب -عليه السلام- ضعف بصره من شدة الحزن، وهذا ما يقرره الطب الحديث.

قال ابن عاشور:

«وابيضاض العينين: ضعف البصر. وظاهره أنه تبدل لون سوادهما من الهزال.

ولذلك عبر بـ ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾ دون عميت عيناه.

و(من) في قوله: ﴿ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ سببية. والحزن سبب البكاء الكثير الذي هو سبب ابيضاض العينين. وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار؛ كما قال الحارث بن حلزة: قبل ما اليوم بيضت بعيون الناس فيها تغيض وإباء.

وأن الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر؛ فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد أفضى إلى تعطيل عمل عصب الإبصار»[٢].

٨٤/٩٥٣- تجانس بديع في ألفاظ القرآن.

---

(١) المصدر نفسه (ص٥٢٠).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٤٣).

قال العلمي:

«التجانس بين لفظتي «الأسف» و«يوسف» مما يقع مطبوعا غير متعمل فيه؛ فيملح ويبدع، ونحوه: ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم ﴾، ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾، ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾، ﴿ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ ﴾»[1].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٠٩٢).

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُا۟ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

٨٥/٩٥٤- بيان أن شدة الحزن تعرض صاحبها للحرض أو الموت[1].

قال البغوي:

«﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ قال ابن عباس: دفناً، وقال مجاهد: الحرض ما دون الموت؛ يعني: قريباً من الموت، وقال ابن إسحاق: فاسداً حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل، وأصل الحرض: الفساد في الجسم والعقل من الحزن والهموم أو العشق أو الهم، يقال: رجل حرض، وامرأة حرض، ورجلان حرض، ورجال ونساء، كذلك يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث؛ لأنه مصدر وضع موضع الاسم ﴿ أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَـٰلِكِينَ ﴾؛ أي: من الميتين»[2].

٨٥/٩٥٥- ينبغي على المؤمن عندما يواسي مؤمناً مصاباً أن يقول له: اصبر واحتسب، لا أن يقول له: لا تجزع؛ لكيلا يصيبك المرض أو تكون من الهالكين[3].

٨٥/٩٥٦- أن الحلف لا يكون إلا بالله؛ فمن فعل غير ذلك؛ فقد أشرك[4].

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٥)، و«أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤١).

(٢) «مختصر تفسير البغوي» (١/ ٤٥١).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٥).

(٤) المرجع السابق.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

٨٦/٩٥٧- من شكا إلى الله وصل، ومن شكا من الله انفصل.

قال القشيري:

«شكا إلى الله ولم يشك من الله، ومن شكا إلى الله وصل، ومن شكا من الله انفصل، ولما شكا إلى الله وجد الخلف من الله.

إذا تمنى الناس روحاً وراحة

تمنيت أن أشكو إليك فتسمعا»[١]

٨٦/٩٥٨- بيان أنه تحرم الشكوى لغير الله -عز وجل-[٢].

قال أبو حيان:

«وكأنهم قالوا له ذلك على جهة تفنيد الرأي؛ أي: لا تزال تذكر يوسف إلى حال القرب من الهلاك، أو إلى أن تهلك، فقال هو: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله؛ أي: لا أشكو إلى أحد منكم ولا غيركم، وقال أبو عبيدة وغيره: البث: أشد الحزن؛ سمي بذلك؛ لأنه من صعوبته لا يطيق حمله؛ فيبثه؛ أي: ينشره»[٣].

٨٦/٩٥٩- أن شدة البلاء مع الصبر، وأن قرب الفرج يقوي الرجاء.

قال القاسمي:

---

(١) «اللطائف والإشارات» (٣/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤١)، و«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٦).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٣١٥).

«ولما علم من شدة البلاء مع الصبر قرب الفرج؛ قوى رجاءهم، وأمرهم أن يرحلوا لمصر ويتطلبوا خبر يوسف وأخيه»[١].

٨٦/٩٦٠- صبر يعقوب -عليه السلام- على محنته.

قال السعدي:

«ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب -عليه السلام-، حيث قضى بالفراق بينه وبين يوسف، هذه المدة الطويلة التي يغلب على الظن أنها تبلغ ثلاثين سنة فأكثر ، من ذلك أنه بقي مدة في بيت العزيز قبل السجن، في الإمكان أن تكون من سبع السنين إلى العشر أو نحو ذلك، على وجه الحرص والحذر، ثم مكث بضع سنين في السجن، والأكثر أنها سبع سنين، ثم بعد خروجه دخلت سبع السنين المخصبات، فهذه نحو إحدى وعشرين سنة، ثم دخلت السبع المجدبات، وتردد إخوة يوسف إليه مرات، والظاهر أن اللقاء كان في آخرها، فهذه تقارب الثلاثين ونحوها؛ وهو في هذه المدة لم يفارق الحزن قلبه، وهو دائم البكاء حتى ابيضت عيناه من الحزن، وفقد بصره وهو صابر لأمر الله، محتسب الثواب عند الله، قد وعد من نفسه الصبر، ولا شك أنه وفّى بذلك، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما ينافي الصبر الشكوى إلى المخلوق»[٢].

٨٦/٩٦١- البث أشد الحزن ولا يطيق صاحبه حمله.

قال السمرقندي:

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٦٨).

(٢) «فوائد مستنبطة من سورة يوسف -عليه السلام-» (ص٥٥).

«وقال القتبي: البث: أشد الحزن، إنما سمي الحزن: البث؛ لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه؛ أي: يفشوه»(١).

قال العز بن عبد السلام:

«﴿ بَثِّي ﴾: همي أو حاجتي، والبث: تفريق الهم بإظهار ما في النفس»(٢).

قال الشوكاني:

«وقد ذكر المفسرون: أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزناً، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثاً؛ فالبث على هذا: أعظم الحزن وأصعبه»(٣).

٨٦/٩٦٢- صاحب الكيد كثير الظنون.

قال ابن عاشور:

«والبث: الهم الشديد، وهو التفكير في الشيء المسيء. والحزن: الأسف على فائت؟ فبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعا ليعقوب - عليه السلام-؛ لأنه كان مهتماً بالتفكير في مصير يوسف- عليه السلام- وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفاً على فراقه.

وقد أعقب كلامه بقوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؛ لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية؛ ليعلموا أنهم دون مرتبة أن

(١) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٨٣).

(٢) «تفسير سلطان العلماء» (٢/ ١٣٦).

(٣) «فتح القدير» (٣/ ٤٩).

يعلموه أو يلوموه؛ أي: أنا أعلم علما من عند الله علمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوءة.

وقد تقدم نظير هذه الجملة في قصة نوح- عليه السلام- من سورة الأعراف؛ فهي من كلام النبوءة الأولى. وحكي مثلها عن شعيب- عليه السلام في سورة الشعراء.

وفي هذا تعريض برد تعريضهم بأنه يطمع في المحال بأن ما يحسبونه محالا سيقع.

ثم صرح لهم بشيء مما يعلمه وكاشفهم بما يحقق كذبهم ادعاء ائتكال الذئب يوسف -عليه السلام- حين أذنه الله بذلك عند تقدير انتهاء البلوى؛ فقال: ﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾.

فجملة ﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ ﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا؛ لأن في قوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ما يثير في أنفسهم ترقب مكاشفته على كذبهم؛ فإن صاحب الكيد كثير الظنون ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾»[(١)].

٨٦/٩٦٣- أن الجاهل قد يصبر بادي الرأي، ثم ينفذ صبره ويستولي عليه الجزع بسبب جهله، فيضيع غليه أجر ما صبر[(٢)].

٨٦/٩٦٤- أن الله وحده القادر على تفريج كرب المؤمن ودفع الضرر عنه، فإن الشكوى لغيره مذلة[(٣)].

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٤٥).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٦).

(٣) المرجع السابق.

٨٦/٩٦٥- جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما.

قال السعدي:

« ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا؛ فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر؛ أذن الله حينئذ بالفرج؛ فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارا؛ فتم بذلك الأجر وحصل السرور وعلم من ذلك: أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء والعسر واليسر يمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد وبما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما من غير وجه التسخط»[1].

٨٦/٩٦٦- جواز ابتلاء صاحب الحق بالمصائب والرزايا، وصاحب البطل بالنعم والعطايا.

قال العلمي:

«نقرأ في هذه السورة مصيبة يعقوب بأخذ ابنه منه، بحيلة أجراها عليه أبناؤه الصلبيون، لا أناس بعداء عنه، فهي مصيبة ذات وجهين، ثم إنه يا ليته شدد في الاحتياط، إذا كان يعلم حسدهم وكرههم لأخيهم، بل استرسل معهم استرسالا، كأنه لا يعرف شيئا من مكائدهم ومصائدهم، ثم بعد (٢٠)

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٤٠-٤١).

سنة أخذوا من عنده ولده الأصغر بنيامين، وأخيرا جاؤوه بالخبر السيء، خبر أنه سرق، ثم استرق في مقابلة ذلك، الأمر بل الأمور التي أزعجته، وأقلقت راحته، والحكمة في ذلك الإشارة إلى أن لا نجعل المصائب الشخصية دليلا على كون من تصيبه على باطل أو على حق، فإن من الجائز عقلا والواقع فعلا، أن يبتلي صاحب الحق بالمصائب والرزايا، وأن يبتلي صاحب الباطل بالنعم والعطايا، كما أن عكس ذلك جائز وواقع، قال -تعالى-: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٨٦]، وقال -تعالى-: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ ﴾ [البقرة:١٢٤]، وقال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الصافات:١٠٣-١٠٦]، وقال -تعالى-: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٤١-١٤٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال -تعالى-: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة:٢١٤]؛ نزلت في غزوة أحد حين غلب المشركون المؤمنين،

وشجوا رأس النبي ﷺ، وكسروا رباعيته، ويقول سليمان -عليه السلام-: ﴿ لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾»[١].

٨٦/٩٦٧- الحكمة من منع علمه الغيب عن الناس وإطلاع الأنبياء على شيء منه.

قال العلمي:

«تعليقا على قوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾: غني عن البيان أن الله -جل جلاله- حجب علم الغيب عن الناس، ذلك لأجل رحمتهم وإسعادهم، إذ لو علم الناس الغيب؛ لنزلوا إلى الحضيض، ولكانوا أخس المخلوقين، وأتعب الخلق أجمعين، ذلك أن المرء لو أطلع على الغيب بعد عشر سنين مثلا سيكون رئيس حكومة أو مثريا أو طبيبا أو أستاذا جليلا في العلم- لو صار هذا لم يفكر يوما ما في علم السياسة، ولا في جلب المال، ولا في قراءة الكتب، ولا في تحصيل العلم، ولا في دخول المدارس العالية؛ وإذن تضيع الحكمة، وتذهب الحياة سدى، وتكدر معيشة كل إنسان؛ أما جهل الناس بالمستقبل؛ فهو الذي يكفل سعادة الناس وصفاء عيشهم؛ لأنهم يجدون ويدأبون على السعي، وذلك داع حثيث إلى إتقان العمل.

علم الناس بالغيب قد يسبب أضرارا كثيرة، ناهيك بما يكون من اطلاع بعض الناس على ما في قلوب الآخرين، من حسد وبغض وكراهة، فكيف يعيش الناس في صفاء، وهم مطلعون على ذلك الجفاء والعداء والاستياء؟ لهذا اقتضت حكمة الحكيم الرحيم أن يمنع الغيب عن الناس.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٠٥-١١٠٦).

ولكن؛ نظرا لأن سد باب الغيب مرة واحدة وبصورة مطردة يوجب اليأس من عالم أرقى من هذا العالم، ويوقع في النفوس أنه لا روح خالدة ولا حياة بعد هذه الحياة، ولا ملائكة ولا وحي، ونظرا لأنه يلزم أن يكون لله -تعالى- وسطاء بينه وبين عامة عباده، وهؤلاء الوسطاء هم الأنبياء، سمح بإطلاع أنبيائه على شيء من علم الغيب، من طريق الوحي والإلهام، في اليقظة أو في المنام.

ومن أدلة حصر علم الغيب في الله -تعالى- على الوجه الذي قلناه، قوله -تعالى-: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الجن:٢٦-٢٨]، وقال -تعالى- حكاية عن نوح -عليه السلام-: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [هود:٣١]، وقال -تعالى- خطابا لخاتم رسله، أمره أن يبلغه خلقه: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام:٥٠].

وقد أمر الله نبيه أن يستدل على عدم معرفته بقوله: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وقال -تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:١٧٩]، وقال -تعالى-: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ [الأنعام:٥٩].

ومما تقدم يعلم أن الله يظهر من ارتضى من رسله على الغيب، الذي يتعلق به تبليغ الرسالة، وذلك مشروح في القرآن، ومنه الملائكة والجنة والنار والحساب وغير ذلك، والواجب في هذا المقام الوقوف عند النص، لا نتعداه بزيادة ولا نقصان؛ لأنه ليس للعقل مجال في عالم الغيب، فيقيس ويستنبط...»[1].

(١) «المرجع السابق» (٢/ ١١٠٦-١١٠٩).

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

٨٧/٩٦٨- كل إنسان وهمه.

قال القشيري:

«كان يعقوب يبعث بنيه في طلب يوسف، وكان الإخوة يخرجون بطلب الميرة، وفي اعتقادهم هلاك يوسف.. وكل إنسان وهمه.

وقوله: ﴿ فَتَحَسَّسُواْ ﴾ أمر بطلب يوسف بجميع حواسهم، بالبصر لعلهم تقع عليه أعينهم، وبالسمع لعلهم يسمعون ذكره، وبالشم لعلهم يجدون ريحه، وقد توهم يعقوب أنهم مثله في إرادة الوقوف على شأنه.

ويقال: لم يكن ليعقوب أحد من الأولاد بمكان يوسف، فظهر من قلة الصبر عليه ما ظهر، وآثر غيبة الباقين من الأولاد في طلب يوسف على حضورهم عنده... فشتان بين حاله معهم وبين حاله مع يوسف. واحد ابيضت عيناه من الحزن لغيبته، وآخرون أمرهم باختياره بغيبتهم عنه»[(١)]

٨٧/٩٦٩- حرمة اليأس من الفرج عند الشدة والرحمة عند العذاب[(٢)].

٨٧/٩٧٠- اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين؛ لأن فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله -تعالى-[(٣)].

قال ابن عطية:

---

(١) « لطائف الإشارات» (٣/ ٢٠١)

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤١).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٧).

«والروح: الرحمة، ثم جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين؛ إذ فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله -تعالى-»[١]

٨٧/٩٧١- التحسس يكون برفق ولطف وبالحواس؛ كالسؤال عنه، والنظر، والبحث، والتحري عنه؛ للتأكد والتثبت من الأخبار.

قال أبو بكر الجزائري:

«هذا اللفظ دال على أنه تيقن حياة يوسف؛ وذلك إما بوحي إلهي، أو إلهام، أو هداية عقل؛ وإلا كيف يطلب منهم التحسس على يوسف؟ والتحسس: شدة الطلب والتعرف، وهو أعم من التجسس»[٢].

قال العلمي:

«التحسس: طلب الشيء بالحاسة، وهو قريب من التجسس، وهو: تعرف الشيء بواسطة الجس، أو التحسس في الخير ومنه الحاسوس، والتجسس في الشر ومنه الجاسوس، وهو: الذي يطلب الكشف عن عورات الناس، وكذلك الجوس. وهو: طلب الشيء بالاستقصاء والتردد والطوف، ومنه: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ [الإسراء:٥]. ويقال: التحسس: الاستماع لحديث القوم، والتجسس: التفتيش عن بواطن الأمور، والجاسوس: صاحب سر الشر، والناموس: صاحب سر الخير، وأحس يستعمل في إدراك الحسي والمعنوي، يقال: أحسست بالحرارة والبرودة مثلا، وأحسست منه مكرا، وأحسست منه بمكر، وما أحسسنا منه خبرا، وهل تحس من فلان بخير»[٣].

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٧٤).

(٢) «أيسر التفاسير » (٢/ ٦٤٠).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٣-١١١٤).

٨٧/٩٧٢- بيان استجابة وامتثال الأبناء أمر الوالد ،وأن هـذا واجـب في الطاعة بالمعروف، ولا يجب في المعصية.

٨٧/٩٧٣- أن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه بخـلاف اليأس؛ فإنه يوجب التثاقل والتباطؤ، وحري بالعبد أن يرجو فضل الله ورحمته وإحسانه.

٨٧/٩٧٤- بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمـة الله وروحـه، إن رحمـة الله قريب من المحسنين.

٨٧/٩٧٥- إن القنوط من أكبر كبائر الذنوب؛ لأن المؤمن يرجو الله حتـى في الشدائد.

قال ابن الجوزي:

«﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾؛ لأن المؤمـن يرجـو الله في الشدائد»[(١)].

قال القرطبي:

«﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ دليـــل علـــى أن القنوط من الكبائر وهو اليأس»[(٢)].

---

(١) « زاد المسير» (٤/ ٢٧٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٥٢).

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

٨٨/٩٧٦- جواز الإخبار بالبلاء من غير تسخط.

قال السعدي:

«ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض، أو فقر، أو غيرهما على غير وجه التسخط؛ لقول إخوة يوسف: ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾، وأقرهم يوسف على ذلك»[١].

٨٨/٩٧٧- جواز الشكوى إذا كان المراد بها الكشف عن الحال للإصلاح؛ كأن يقول المحتاج: إني جائع أو عار [٢].

قال أبو بكر الجزائري:

«جواز الشكوى إذا كان المراد بها الكشف عن الحال للإصلاح أو العلاج؛ كأن يقول المحتاج: إني جائع أو عار مثلا، وكأن يقول المريض للطبيب: أشكو ألما في بطني أو رأسي مثلا»[٣].

٨٨/٩٨٨- بيان فضل الصدقة وثواب المتصدقين.

قال القاسمي:

«﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾: أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة؛ كما توفره بالدراهم الجياد، ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾؛ أي: برد أخينا، أو بالإيفاء، أو المسامحة

---

(١) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف -عليه السلام-» (ص٥٩).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٨).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤١).

وقبول ما لا يعد عوضا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِى ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾؛ أي: يثيبهم أحسن المثوبة»[١].

قال العلمي:

«قولهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِى ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾؛ أي: يجزيهم في الآخرة بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ ويجزيهم في الدنيا بالصحة والعافية، ورفع درجات الاحترام، والثناء عليهم من الناس.

كل الأمور تزول عنك وتنقضي

إلا الثناء فإنه لك باقي

قال علي بن الجهم:

هي النفس ما حملتها تتحمل

وللدهر أيام تجور وتعدل

وعاقبة الصبر الجميل جميلة

وأكمل أخلاق الرجال التفضل

وما المال إلا حسرة إن تركته

وغنم إذا قدمته متعجل

وقال غيره:

قدم لنفسك زادا

وأنت مالك مالك

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٦٩).

مـــــن قبـــــل أن تتفـــــانى
ولـــــون حـــــالك حـــــالك
ولســـــت تعلـــــم يومـــــا
أي المســـــالك ســـــالك
إمـــــا لجنـــــة عـــــدن
أو في المـــــهالك هـــــالك

وقال آخر:

يـــا غـــافلا عـــن حركـــات الفـــلك
نبـــهك الله فمـــا أغفلـــك
لغـــيرك مـــا أنـــت ورثتـــه
ومـــا أنـــت أنفقتـــه فـــهو لـــك»[1].

٨٨/٩٧٩- أنه يتعين على العبد إذا خاف على نفسه الضرر من جـوع أو مرض أن يشكو ذلك؛ لرفعه.

قال القرطبي:

«هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر، وفي الكلام حذف؛ أي: فخرجوا إلى مصر؛ فلما دخلوا على يوسف قالوا: ﴿ مَسَّنَا ﴾؛ أي: أصابنا ﴿ وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾؛ أي: الجوع والحاجة، وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر؛ أي: الجوع؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٢٥-١١٢٦).

الألم إلى الطبيب؛ ليعالجه ولا يكون ذلك قدحاً في التوكل، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط، والصبر والتجلد في النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل، وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى، وذلك قول يعقوب: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾]؛ أي: من جميل صنعه، وغريب لطفه، وعائدته على عبادة؛ فأما الشكوى على غير مشك؛ فهو السفه؛ إلا أن يكون على وجه البث والتسلي»[(١)].

قال القاسمي:

«يؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها»[(٢)].

٨٨/٩٨٠- بيان فضيلة الإحسان، وإشارة إلى أن المحسن يُجزى أحسن جزاء منه -تعالى- وإن لم يجزه المحسن إليه.

قال القاسمي:

«في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ حث على الإحسان، وإشارة إلى أن المحسن يجزى أحسن جزاء منه -تعالى- وإن لم يجزه المحسن إليه»[(٣)].

٨٨/٩٨١- أنه لا يجوز للعبد أن يقول: اللهم تصدق علي؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغي الثواب، وإنما يقول: اللهم تفضل علي[(٤)].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٥٢).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٧٠).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٧٠).

(٤) « دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٥٨).

قال السمرقندي:

«﴿ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ ﴾؛ ويعني: تفضل علينا باستيفائه منا مكان الجيد وتصدق علينا ما بين الثمنين؛ يعني: ما بين الجيد والرديء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾؛ يعني: يثيبهم في الآخرة بما صنعوا، وقال ابن عباس: لو علموا أنه مسلم لقالوا: إن الله يجزيك بالصدقة»(١).

قال القرطبي:

«يكره للرجل أن يقول في دعائه: اللهم تصدق علي؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغي الثواب، والله -تعالى- متفضل بالثواب لجميع النعم لا رب غيره، وسمع الحسن رجلاً يقول: اللهم تصدق علي؛ فقال الحسن: يا هذا !إن الله لا يتصدق ؛ إنما يتصدق من يبتغي الثواب، أما سمعت قول الله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ قل: اللهم أعطني وتفضل عليّ» (٢).

٨٨/٩٨٢- الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء.

قال القاسمي:

«استدل بقوله -تعالى-: ﴿ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ ﴾ من قال: إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء»(٣).

٨٨/٩٨٣- من أدب الطالب: تقديم الوسائل أمام المآرب؛ فإنها أنجح لها.

قال القاسمي:

---

(١) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧٤).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٥٥).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٧٠).

«في الآية إرشاد إلى أدب جليل، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب؛ فإنها أنجح لها، وهكذا فعل هؤلاء: قدموا ما ذكر من رقة الحال، والتمسكن، وتصغير العوض، ولم يفجؤوه بحاجتهم؛ ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم، يبعث الشفقة وهز العطف والرأفة، وتحريك سلسلة الرحمة -كما قدمنا-، ومن ثم رق لهم، وملكته الرحمة عليهم؛ فلم يتمالك أن عرفهم نفسه»[1].

قال أحمد نوفل:

«...هم جاؤوا يبحثون عن الأولاد، وكنا نراهم حين دخلوا على العزيز ما بحثوا إلا قضية الطعام..فما القضية؟

لقد راجعوا يوسف في شأن أخيهم حتى ليعتبرون الآن أن من التجاوز أن يراجعوه فيه مرة أخرى، وإلا أثاروا سخطه.. ولذلك هم قدموا شرح حالهم في هذا «العرض حال» الذي قدموه، تمهيد أن رأوا فيه رقة لهم أن ينتقلوا إلى الموضوع الأصيل..

وإنه لموقف يمكن أن نستنتج منه منتهى الحرج أو الحياء أو الحكمة، أو ذلك جميعا..

يا أيها العزيز! لحقنا وأولادنا وأهلنا الفاقة والضرر والجوع، ولسنا نملك ندفع ثمنا للقمح الذي نريد أن تتصدق علينا به، اللهم إلا هذه البضاعة التي لا قيمة لها، جئنا بها معنا من فلسطين، لكن الأمل في كرمك بعد الله لا في الثمن الذي نملك، فأعطنا ما عودتنا من كيل واف كنت تكيله لنا، وتصدق علينا في ذلك الكيل، أو زد لنا؛ إن الله يثيب المتصدقين، ويجزيهم ما الله يعلمه من جزاء حسن عظيم، وقد تركوا الفعل يجزي بدون مفعول.. لتذهب النفس

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٧٠).

في تقديره كل مذهب. وما أشبه استعطاف الإخوة ليوسف باستعطاف ذلك الضبي لعبد الملك بن مروان إذ قال:

والله ما نـدري إذا ما فاتنا
طلب إليك من الذي نتطلب؟
فقد ضربنا في البلاد فلم نجد
أحدا سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتنا التي عودتنا
أو لا؛ فأرشدنا إلى من نذهب»[1]

٨٨/٩٨٤- الفرج مع الكرب.

قال السعدي:

«ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ فإنه لما اشتد الكرب بيعقوب، وقال: يا أسفى على يوسف،قال: ﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وهم حين دخلوا على يوسف، وقفوا بين يديه موقف المضطر، فقالوا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾.

فحينئذ لما بلغ الضر منتهاه من كل وجه، عرفهم بنفسه، فحصل بذلك البشارة الكبرى لأبويه وإخوته وأهلهم، وزال عنهم الضر والبأساء، وخلفه السرور والفرح والرخاء»[2].

---

(١) « سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٥٢٨-٥٢٩)

(٢) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف -عليه السلام-» (ص٥٧).

٨٨/٩٨٥- ابتلاء الأنبياء بالشدة والرخاء.

قال السعدي:

«ومنها: أن الله يبتلي أنبياءه وأصفياءه بالشدة والرخاء، والسرور والحزن، واليسر والعسر؛ ليستخرج منهم عبوديته في الحالين:بالشكر عند الرخاء، والصبر عند الشدة والبلاء، فتتم عليهم بذلك النعماء ، كما ابتلى يعقوب ويوسف، وكذلك غيرهم من أنبيائه وأصفيائه»[١].

٨٨/٩٨٦- في التلميح ما يغني عن التصريح.

قال ابن عاشور:

«وطلبوا التصدق منه تعريضا بإطلاق أخيهم؛ لأن ذلك فضل منه إذ صار مملوكا له»[٢].

٨٨/٩٨٧- خضوع البشر لحكم الغريب.

قال العلمي:

«توسلوا إليه بصوت مازجه السؤال ومسكنه التشكي؛ لأنهم لم يكونوا يعرفونه أنه أخوهم: ولو كانوا يعرفونه أنه أخوهم ما سوغوا لأنفسهم أن يخضعوا له هذا الخضوع، وذلك لما في فطرة البشر من قلة الاحترام بين الأقرباء؛ فالإنسان إذا ترك لفطرته، ودار أمره بين أن يذل نفسه لقريبه أو لأحد الغرباء؛ فضل الخضوع للغريب، ولهذا السبب ترى الشعوب التي يحكمها الفاتحون من الغرباء أسهل قيادا، وأقرب خضوعا لقوانين الدولة ممن يحكمهم أناس من أبناء جلدتهم، وبهذه القاعدة يستدل على كثير من

---

(١) المرجع السابق (ص٥٨).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٤٧).

غوامض التاريخ المختلف في حقيقتها؛ كأصل الفراعنة الأولين مثلا، فالمؤرخون مختلفون في: هل هم مصريون أو دخلاء؟ ونظرا لما هو معلوم من استعبادهم أهل البلاد الأصليين يرجح أنهم غرباء فاتحون، للسبب الذي تقدم»[1].

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١١٢٦-١١٢٧).

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

٨٩/٩٨٨- أن المعاصي لن تكون إلا نتيجة للجهل بالله -تعالى- وبجلاله وشرائعه ووعده ووعيده[١].

٨٩/٩٨٩- مرارة العقاب أشد من حرارة العذاب.

قال ابن عاشور:

«﴿ هَلْ ﴾ مفيدة للتحقيق؛ لأنها بمعنى(قد) في الاستفهام، فهو توبيخ على ما يعلمونه محققاً من أفعالهم مع يوسف- عليه السلام- وأخيه؛ أي: أفعالهم الذميمة بقرينة التوبيخ، وهي بالنسبة ليوسف -عليه السلام- واضحة، وأما بالنسبة إلى بنيامين؛ فهي ما كانوا يعاملونه به مع أخيه يوسف- عليه السلام- من الإهانة التي تنافيها الإخوة، ولذلك جعل الله ذلك الزمن زمن جهالتهم بقوله: ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾»[٢].

وقال أحمد نوفل:

«... وقول يوسف -عليه السلام- هذا الذي قاله لهم: فيه العتاب من أكثر من وجه، فكأنه قال لهم: أنهيتم كلامكم، وأكثرتم خطابكم فما كان في حديثكم إلا ذكر ضرورتكم.. أفلا يخطر ببالكم حديث أخيكم يوسف؟! وذلك في باب العتاب أعظم من كل عقوبة.

ثم هذا الإفراد بذكر إخوة الأخ ليوسف دون أخوتهم: ﴿ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾. ثم وصفهم بالجهل. وفي الآية التالية عتاب آخر أحر وأمر؛ إذ قال

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٤).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٤٧).

لهم: ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ﴾؛ فكأنه قال: إني أخ لمثل هذا لا مثلكم، وهل ما عاملتموني به فعل الإخوة»[1].

٨٩/٩٩٠- صلاح حال إخوة يوسف -عليه السلام-.

قال ابن عاشور:

«وفيه تعريض بأنهم قد صلح حالهم من بعد، وذلك إما بوحي من الله إن كان صار نبيئا، أو الفراسة؛ لأنه لما رآهم حريصين على رغبات أبيهم في طلب فداء بنيامين حين أخذ في حكم تهمة السرقة، وفي طلب سراحه في هذا الموقف مع الإلحاح في ذلك، وكان يعرف منهم معاكسة أبيهم في شأن بنيامين علم أنهم ثابوا إلى صلاح»[2].

٨٩/٩٩١- ربما صحت الأجسام بالعلل.

قال العلمي:

«قيل: إن كلام يوسف مع إخوته كان من قبيل المعاتبة التي هي أقل من التثريب بدرجات؛ فهي المعاتبة، ثم اللوم، ثم التقريع، ثم التوبيخ، ثم التأنيب، ثم التثريب.

قال بعض العلماء: المعاتبة احتكاك بين القلوب، تزيدها حرارة وتجاذبا، والعتاب فاتحة حديث المحبين، وظاهر العتاب خير من باطن الحقد، وأكثر الناس لؤما؛ أقلهم لوما، قال الناظم:

---

(١) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٥٣١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٤٧-٤٨).

لعــــل عتبـــك محمـــود عواقبـــه
فربمـــا صحـــت الأجســـام بـــالعلل»[١]

٨٩/٩٩٢- العلم بالقبح يدعو إلى الاستقباح ويجر إلى التوبة.

قال العلمي:

«استفهم يوسف عن معرفة وجه القبح الـذي يجـب أن يراعيـه التـائب، لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجر إلى التوبة، فهذا من قبيل سياسة «جس النبض» عن توبتهم. لعله يجدهم قد تابوا، فيجد منفـذا للعيشـة معهم بسلام، فكأن كلامه شـفقة عليـهم وتنصحـا لهـم في الديـن، لا معاتبـة وتثريبا؛ إيثـارا لحـق الله علـى حـق نفسـه، في ذلـك المقـام الـذي ينفـث فيـه المصدور، ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك فيه الموتور ثأره، وينفس فيه المكروب عن كربه؛ فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسـجحها؟ ولله حصـا عقولهـم مـا أرزنها وأرجحها؟»[٢].

٨٩/٩٩٣- صدق الخبر الخبر.

قال العلمي:

«هذا القول الذي صدر من يوسف لإخوته هو مصداق قوله -تعـالى-: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾»[٣]

٨٩/٩٩٤- فائدة: أسباب عدم ذكر يوسف أباه في هذا المقام.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٣١).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١١٣٠-١١٣١).

(٣) المرجع نفسه (٢/ ١١٣١-١١٣٢).

أ- إيمان يوسف -عليه السلام- أن أباه يعلم تأويل رؤياه، وأنها ستحقق؛ فأبوه في الحقيقة مطمئن البال، ولذلك لم يذكره وذكر أخاه؛ لأنه لا يعلم من ذلك شيئا؛ فكربه شديد كرب يوسف -عليه السلام-.

ب- أن يعقوب نبي، وأنبياء الله أهل صبر وعزم وجلد وتحمل.

ت- أن إخوة يوسف -عليه السلام- لم يقصدوا إيقاع الأذى بأبيهم، بل على العكس كانوا حريصين على كسب مودته، وفعلوا من أجل ذلك ما فعلوا بيوسف وأخيه حتى يخلو لهم وجه أبيهم.

أما ما صنعوه بيوسف وأخيه؛ فمقصود.

٩٩٥/٨٩- الاعتذار عن الخصم.

قال العلمي:

«كأن أخاهم ضمن العتاب الاعتذار لهم بالجهل، تمحلة لهم؛ لطفا منه وأدبا، كما قال بعض الشعراء:

إذ شئت أن تدعى كريما مهذبا
سنيا سريا ماجدا فطنا حرا

إذا ما بدت من صاحب لك زلة
فكن أنت محتالا لزلته عذرا

قال -تعالى-: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقال -تعالى-: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ

لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء:١٧]»[1].

٨٩/٩٩٦- التوازن والوسطية في شخصية يوسف -عليه السلام-.

قال العلمي:

«نقرأ في هذه السورة الشريفة، فتجد يوسف -عليه السلام- قد سلك في أعماله وأقواله مسلكا وسطا، سلك ذلك مع إخوته ومع سواهم، وخير الأمور الوسط، وهذا يظهر لنا في مواضع عدة منها:

١- أنه لما راودته زليخا لم يخضع لها، ولم يغلظ لها القول، بل أجابها بالمعقول والأدب، متمنعا عن مؤاتاتها.

٢- أنها همت به ضربا أو قتلا، وهو بالمقابلة هم بها كذلك ضربا أو قتلا، ولكنه رأى برهان الله القائم عليه وعلى سائر المكلفين، ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ فرجع لحالة المتوسط وسطا ولجأ إلى الفرار من بين يديها، وبذلك صدق عليه أنه سلك مسلكا وسطا، لا هو واتاها، ولا هو تعدى عليها.

٣- لما بهتته واختانته صريحا لم يسكت ولم يرد عليها ردا عنيفا، بل اقتصر على أقل عبارة يدافع بها عن شرفه وتؤدي مطلوبه.

٤- لما رغبت إليه زليخا أن يخرج على النسوة المصريات أضيافها، لم يمتنع، ولكنه لم يوافقهن على رغبتهن منه، بل سلك في ذلك مسلكا وسطا.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٣٧).

٥- لما استفتاه الفتيان اللذان سجنا معه، لم يطلب منهما أجرة على الفتوى ولم يرد أن يفتيهما مجانا، بلا مقابل معنوي، بل توسط واستقضى منهما أجرة أدبية، وهي إصغاؤها لإرشاده الديني وتبشيره بالتوحيد.

٦- لما أراد «الساقي» أن يخرج من سجنه، لم يهمل يوسف تعاطي الأسباب بتة، ولم يتهافت على ذلك «الساقي» بالرجاء والاسترحام، بل سلك معه مسلكا وسطا، مقتصرا على أقل عبارة تؤدي المقصود وتكفل له الشرف.

٧- لما رجع «الساقي» ليوسف في سجنه، ليستفتيه في حلمي الملك؛ فمن جهة لم يعاتبه على نسيانه وصيته سابقا، ومن جهة أخرى لم يصد عنه ويتجاهل، كما صنع «الملأ» مع الملك، بل سلك مسلكا وسطا باقتصاره على إعطاء الجواب بدون رجائه ثانية.

٨- لما جاءه «الساقي» في سجنه ثانيا ليخرج منه بأمر الملك، لم يرد أن يسكت بتة عن زليخا التي بهتته وظلمته، ولم يرد أن يصرح باسمها، ولكنه أشار إليها بسؤال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

٩- لما جاءه أخوته لأول سفرة، لم يطردهم، ولم يكرمهم إكراما هائلا، من قبيل ما نسمع بأمثلته مما وقع على يد جماعة كثيرين من الأجواد كـ «حاتم الطائي»، و«عبد الله بن جدعان»، و«معن بن زائدة» و«آل برمك» في عهد الرشيد، وغيرهم ممن كانوا يجودون بإسراف لا يوافق روح الشريعة، بل توسط معهم، فقبلهم وكال لهم كيلا وافيا، وأنزلهم منزلا كريما، ولم يأخذ منهم ثمن الحب الذي كال لهم، ولا أعطاهم هدية ونحوها.

١٠- لما بهته إخوته بالسرقة، لم يسكت ولم يصدع بالرد، بل توسط، وزفر سرا زفرة المصدور، قائلا في نفسه: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾، حتى يرتاح نوعا من ألم ما سمع.

١١- لما طلب إخوته إليه أن يستبدل بنيامين بأحدهم، فمع أنه لم يقبل منهم نراه لم يؤنبهم بأن هذا خلاف فتواكم السابقة، وكيف تخالفون شريعة الله؛ وكيف تقولون ما لا تفعلون؟ وعلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر:

وعـــالم بعلمـــه لم يعملـــن
معـــذب مـــن قبـــل عبـــاد الوثـــن

فهو لم يأت شيئا من ذلك، بل اعتدل وردهم لطيفا.

١٢- لما جاؤوا إليه في السفرة الثالثة وشكوا إليه حالهم، وأراد أن يظهر لهم نفسه، لم يوبخهم ويحقرهم، ولم يترك عتابهم، بل توسط وعاتبهم عتابا لطيفا.

١٣- لما سألوه: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾، أجابهم بجواب معتدل ، فلم يتقرب إليهم بأن يقول: «أنا أخوكم يوسف» ولم يتجافهم بأن يقول: أنا المحسود، أنا المشرد المطرود، أنا موضوع المؤامرة الشريرة، أنا الملقي في البئر بلا هوادة، بل اعتدل، وقال: ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ﴾.

١٤- اعتدل في ذيل جوابه لهم، لم يقل: أنا أهل التقوى وأهل الصبر والإحسان، وأنتم أهل العداء والحرب والانتقام، بل إنما قال: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

١٥- تسمعه يقول: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾؛ أي: أنا اليوم لا أريد أن أثربكم، وأنتم ماثلون بين يدي؛ مثول المماليك بين يدي الملك، والأذلاء

أمام العزيز؛ ففي هذا القول، مع قوله: ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ توسط واعتدال بين التعنيف والتكريم»[١].

٨٩/٩٩٧- لكل أجل كتاب.

قال ابن عاشور:

«وإنما كاشفهم بحاله الآن؛ لأن الاطلاع على حاله يقتضي استجلاب أبيه وأهله إلى السكنى بأرض ولايته.

وذلك كان متوقفا على أشياء لعلها لم تتهيأ إلا حينئذ.

وقد أشرنا إلى ذلك عند قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يوسف:٧٩]؛ فقد صار يوسف -عليه السلام- جد مكين عند فرعون.

وفي «الإصحاح ٤٥ من سفر التكوين»: أن يوسف- عليه السلام- قال لإخوته حينئذ: «وهو -أي: الله- قد جعلني أباً لفرعون وسيداً لكل بيته متسلطا على كل أرض مصر»[٢].

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١١٣٧-١١٤٠).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٤٨).

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ ﴾.

٩٠/٩٩٨- بيان فضل التقوى والصبر وما لهما من حسن العاقبة(١).

٩٠/٩٩٩- بالصبر والتقوى يكون التمكين في الأرض.

قال السعدي:

«بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى»(٢).

قال العلمي:

«نتعلم من هذه الآية الفاذة الجامعة: أن التقوى هي البقوى، وهي السبب الأقوى، وأن الصبر عواقبه الجبر والنبر، ونتعلم منها -أيضا- أن الإنسان يجازي على تقواه في الدنيا والآخرة، حيث جعل منة الله عليه وعلى أخيه من ثواب التقوى والصبر»(٣).

٩٠/١٠٠٠- من يتق الزنى ويصبر على البلاء؛ فإن الله لا يضيع أجر من كان هذا حاله.

قال ابن الجوزي:

«قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ ﴾ ومعنى الكلام أربعة أقوال:

أحدهما: من يتق الزنى ويصبر على البلاء.

والثاني: من يتق الزنى ويصبر على العزبة.

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٤).

(٢) «تيسير الكريم» (٤/ ٢٧).

(٣) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٤٨).

والثالث: من يتق الله ويصبر على المصائب؛ رويت هذه الأقوال عن ابن عباس.

والرابع: يتق معصية الله ويصبر على السجن؛ قاله مجاهد»[1].

٩٠/١٠٠١- فالتقوى: تتضمن طاعة الله، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر: يتضمن الصبر على المصائب التي منها أذى المأمور المنهي للآمر الناهي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«ولا بد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور، وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور.

فالأول: هو التقوى.

والثاني: هو الصبر.

قال -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:١١٨-١٢٠]، وقال -تعالى-: ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران:١٢٥]، وقال -تعالى-: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ

---

(١) «زاد المسير» (٤/ ٢٨٢).

عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٦]، وقد قال يوسف: ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ [يوسف:٩٠].

ولهذا كان الشيخ عبد القادر الجيلاني ونحوه من المشائخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين: المسارعة إلى فعل المأمور، والتقاعد عن فعل المحظور، والصبر بالأمر المقدور.

وذلك أن هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة، بل ومن السالكين؛ فمنهم من يشهد القدر فقط، ويشهد الحقيقة الكونية دون الدينية،؛ فيرى أن الله خالق كل شيء وربه، ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يسخطه ويبغضه، وإن قدره وقضاه، ولا يميز بين توحيد الألوهية وبين توحيد الربوبية؛ فيشهد الجمع الذي يشترك فيه جميع المخلوقات: سعيدها وشقيها. مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والنبي الصادق والمتنبئ الكاذب، وأهل الجنة وأهل النار، وأولياء الله وأعداوءه، والملائكة المقربون والمردة الشياطين.

فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع وهذه الحقيقة الكونية؛ وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره. ولا يشهد الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه، وبين المؤمنين والكافرين، والأبرار والفجار، وأهل الجنة والنار وهو توحيد الألوهية، وهو عبادته وحده لا شريك له، وطاعته [وطاعة] رسوله، وفعل ما يحبه ويرضاه، وهو ما أمر به ورسوله أمر إيجاب، أو أمر استحباب، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان. فمن لم يشهد هذه الحقيقة الدينية الفارقة بين هؤلاء وهؤلاء، ويكون مع أهل الحقيقة الدينية، وإلا؛ فهو من جنس المشركين، وهو شر من اليهود والنصارى.

فإن المشركين يقرون بالحقيقة الكونية؛ إذ هم يقرون بأن الله رب كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت:٦١]، وقال -تعالى-: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]؛ ولهذا قال-سبحانه-:﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف:١٠٦] قال بعض السلف: تسألهم من خلق السماوات والأرض؛ فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره.

فمن أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين؛ فهو أكفر من اليهود والنصارى؛ فإن أولئك يقرون بالملائكة والرسل الذين جاؤوا بالأمر والنهي الشرعيين، لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض؛ كما قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ ﴾ [النساء:١٥٠و١٥١].

وأما الذي يشهد الحقيقة الكونية، وتوحيد الربوبية الشامل للخليقة، ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر، ويسلك هذه الحقيقة؛ فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين أطاعوا أمر الله الذي بعث به رسله، وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار؛ فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى. لكن من الناس من قد لحوا الفرق في بعض الأمور دون بعض، بحيث يفرق بين المؤمن

والكافر، ولا يفرق بين البر والفاجر، أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار، ولا يفرق بين آخرين اتباعا لظنه وما يهواه؛ فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار، ويكون معه من الإيمان بدين الله -تعالى- الفارق بحسب ما فرق بين أوليائه وأعدائه.

ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر، وكان من القدرية؛ كالمعتزلة وغيرهم الذين هم مجوس هذه الأمة؛ فهؤلاء يشبهون المجوس، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس.

ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضا؛ فهو من أتباع إبليس الذي اعترض على الرب -سبحانه- وخاصمه كما نقل ذلك عنه.

فهذا التقسيم في القول والاعتقاد.

وكذلك هم في الأحوال والأفعال.

فالصواب منها: حالة المؤمن الذي يتقي الله؛ فيفعل المأمور، ويترك المحظور، ويصبر على ما يصيبه من المقدور، فهو عند الأمر والنهي والدين والشريعة يستعين بالله على ذلك، كما قال -تعالى-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥].

وإذا أذنب استغفر وتاب: لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات، ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات، بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به؛ كما في الحديث الصحيح الذي فيه: «سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي؛

فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[١]؛ فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات، ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى، ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها، كما قال بعضهم: أطعتك بفضلك، والمنة لك، وعصيتك بعلمك، والحجة لك، فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتي؛ إلا غفرت لي. وفي الحديث الصحيح الإلهي: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها؛ فمن وجد خيرا؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه»[٢].

وهذا له تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع.

وآخرون قد يشهدون الأمر فقط: فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة؛ لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر.

وآخرون يشهدون القدر فقط؛ فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك؛ لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله واتباع شريعته، وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين؛ فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدون ولا يستعينوه؛ والمؤمن يعبده ويستعينه.

والقسم الرابع: شر الأقسام، وهو من لا يعبده ولا يستعينه؛ فلا هو مع الشريعة الأمرية، ولا من القدر الكوني. وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس مرفوعا به.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر الغفاري -رضي الله عنه-.

يكون قبل وقوع المقدور: من توكل واستعانة ونحو ذلك، وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك؛ فهم في التقوى، وهي: طاعة الأمر الديني، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام:

أحدها: أهل التقوى والصبر، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

الثاني: الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها، ويتركون المحرمات؛ لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرض، أو ابتلي بعدو يخيفه؛ عظم جزعه وظهر هلعه.

الثالث: قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى، مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم؛ كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام، والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها، وكذلك طلاب الر ئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس، وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام. وهؤلاء هم الذين يريدون علوا في الأرض أو فسادا من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق، ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان، والاستمتاع بالصور المحرمة نظرا أو مباشرة وغير ذلك، يصبرون على أنواع من المكروهات، ولكن ليس لهم تقوى في ما تركوه من المأمور وفعلوه من المحظور، وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب: كالمرض والفقر وغير ذلك، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر.

وأما القسم الرابع؛ فهو شر الأقسام: لا يتقون إذا قدروا، ولا يصبرون إذا ابتلوا؛ بل هم كما قال الله -تعالى-: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ ﴾ [المعارج:١٩-٢١]؛ فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا، ومن أذل الناس وأجزعهم إذ قهروا: إن قهرتهم ذلوا لك ونافقوك، وحابوك واسترحموك، ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول. وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلبا، وأقلهم رحمة وإحسانا وعفوا، كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد؛ مثل: التتار الذين قاتلهم المسلمون، ومن يشبههم في كثير من أمورهم: وإن كان متظاهرا بلباس جند المسلمين، وعلمائهم، وزهادهم، وتجارهم، وصناعهم؛ فالاعتبار بالحقائق: «فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم؛ كان شبيها لهم من هذا الوجه، وكان ما معه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية، وأبعد عن الأخلاق الإسلامية من التتار.

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ؛ أنه كان يقول في خطبته: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨٦٧) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه-.

ضلالة»[1]، وإذا كان خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد، فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به شبهه؛ كان إلى الكمال أقرب، وهو به أحق. ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف؛ كان عن الكمال أبعد، وبالباطل أحق. والكامل: هو من كان لله أطوع، وعلى ما يصيبه أصبر، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله، وأعظم موافقه لله فيما يحبه ويرضاه، وصبراً على ما قدره وقضاه، كان أكمل وأفضل، وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك.

وقد ذكر الله -تعالى- الصبر والتقوى جميعاً في غير موضع من كتابه، وبيّن أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين، وعلى من ظلمه من المسلمين، ولصاحبه تكون العاقبة. قال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٥]، وقال الله -تعالى-:﴿ ۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٦]، وقال -تعالى-:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما-.

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:١١٨-١٢٠]، وقال إخوة يوسف له: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف:٩٠].

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً؛ فقال -تعالى-: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس:١٠٩].

وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها تصديقاً لخبر الله وطاعة لأمره، وقال -تعالى-: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود:١١٤-١١٥]، وقال -تعالى-: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ ﴾ [طه:١٣٠]، وقال -تعالى-: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٤٥]، وقال -تعالى-: ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣]؛ فهذه مواضع قرن فيه الصلاة والصبر.

وقرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله -تعالى-: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ [البلد:١٧]، وفي الرحمة والإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها؛ فإن القسمة أيضاً رباعية:

إذ من الناس من يصبر ولا يرحم؛ كأهل القوة والقسوة.

ومنهم من يرحم ولا يصبر؛ كأهل الضعف واللين: مثل كثير من النساء ومن يشبههن.

ومنهم من لا يصبر ولا يرحم؛ كأهل القسوة والهلع.

والمحمود هو الذي يصبر ويرحم؛ كما قال الفقهاء في المتولي: ينبغي أن يكون قويا من غير عنف، لينا من غير ضعف، فبصبره يقوى وبلينه يرحم، وبالصبر ينصر العبد؛ فإن النصر مع الصبر، وبالرحمة يرحمه الله -تعالى-؛ كما قال النبي ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1]، وقال: «من لا يرحم لا يرحم»[2]، وقال: «لا تنزع الرحمة إلا من الشقي»[3]، وقال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[4]»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد -رضي الله عنهما-.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، والبخاري (٦٠١٣)، ومسلم (٢٣١٩) من حديث جرير بن عبد الله -رضي الله عنه-.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٤) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

وسنده حسن، وقد حسنه شيخنا -رحمه الله-.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وصححه شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (٩٢٥) بشواهده.

(٥) «دقائق التفسير» (٤/ ٢٩٥-٣٠١).

٩٠/١٠٠٢- المؤمن الموصول قلبه بالله -تبارك وتعالى- حين يبلغ من القوة حدا يمكنه من الانتقام ممن أساءوا إليه لا يستسلم لوسواس نفسه، ولا يفرغ شحنة حقده، بل يكتفي بلفت نظرهم إلى فداحة ما ارتكبوه من خطأ في حقه[(١)].

٩٠/١٠٠٣- فضيلة التقوى وأن كل خير في الدنيا والآخرة؛ فمن آثار التقوى والصبر، وإن عاقبة أهلها أحسن العواقب.

قال السعدي:

«ومنها: فضيلة التقوى، وأن كل خير في الدنيا والآخرة؛ فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾»[(٢)].

قال العلمي:

«الجزاء يكون في الدنيا والآخرة:

لي هنا كلمة فذة: يقول يوسف -عليه السلام-: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهو يريد بذلك أنه -تعالى- لا يضيع أجرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، فنتعلم منه: أن الإنسان يجازى على أعماله في الدنيا كما في الآخرة، وهذا يظهر لنا من آيات كثيرة في كتاب الله -تعالى-:

١- قال -تعالى-: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾؛ أي: من أعمال الدنيا والآخرة ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ وعلى الأقل بالرضى

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف -عليه السلام-» (ص٥٨-٥٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٤١).

بما قسمنا له جزاء على عمله الصالح الدنيوي ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم ﴾ في الآخرة ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من أعمالها.

٢- وقال -تعالى-: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ من أعمال الدنيا والآخرة، ﴿ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ ﴾ أعماله الدنيوية والأخروية ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ وهذا الجزاء الذي لنفسه وعلى نفسه هو في الدنيا، وأما جزاؤه عليهما في الآخرة؛ فهو المرموز في قوله: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾؛ أي: فيجازيكم هنا على الخير وعلى الشر بمثله.

٣- وقال -تعالى-: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف:٨٧و٨٨]؛ أي: فمن ظلم بتركه الواجبات الدنيوية والآخروية، فسوف يعذبه ذو القرنين في الدنيا على تركه واجباته الدنيويه، ثم يرد إلى ربه؛ فيعذبه عذابا نكرا على تركه واجباته الأخروية، وأما من آمن وعمل صالحا من أعمال الدارين؛ فله جزاء الجنة على أعماله الأخروية، وسنقول له في الدنيا من أمرنا يسرا على عمله الصالح الدنيوي.

٤- وقال -تعالى-: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [آل عمران:٥٦و٥٧]، فقوله: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾؛ أي: صالحات الآخرة، وقوله: ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾؛ أي: في الدنيا بالنسبة للأعمال الصالحة الدنيوية، وفي الآخرة بالنسبة للأعمال الصالحة الأخروية. والدليل على هذا المعنى قوله في الفريق الأول: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ فإنه بحسب المقابلة يدل على أن معنى قوله في الفريق الثاني: ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾؛أي: في الدنيا والآخرة.

٥- وقال -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ ﴾ [المائدة:٨ و٩]؛ فقوله: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾؛ أي: مثل القيام لله، والشهادة بالقسط، والعدل في الحكم، ولو مع شنآن المحكوم له أو عليه، فالصالحات تشمل صالحات الدنيا وصالحات الآخرة، وقوله: ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ؛أي: في الدنيا على أعمالها، وفي الآخرة على أعمالها.

٦- وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦ ﴾ [مريم:٩٦]؛ فالصالحات هي دنيوية وأخروية، والود هو في الدنيا والآخرة، فيحدث لهم في الدنيا مودة في القلوب يزرعها لهم فيها من غير تودد منهم، ولا تعرض للأسباب التي توجب الود، ويكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة، أو غير ذلك، وإنما هو اختراع منه -تعالى- ابتداء، اختصاصا منه لأوليائه بكرامة خاصة، وكذلك يجعلهم مودودين في الآخرة، يحببهم إلى خلقه، بما يعرض من حسناتهم، وينشر من ديوان أعمالهم ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧ ﴾ [الحجر:٤٧]. والسين في ﴿ سَيَجْعَلُ ﴾ بالنسبة للدنيا؛ لأن السورة مكية، وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة، فوعدهم الله -

تعالى- ذلك «الود» متى انتشر الإسلام وقوي، وأما بالنسبة للآخرة؛ فلأن كل آت قريب عند الله.

٧- وقوله -تعالى-: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص:١٧]؛ فقوله:﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾؛ أي: التي هي من قبيل الأعمال الدنيوية؛ أعني: عدم الظلم والتعدي، والتباعد عن البغي والغصب، فهي أعمال سلبية، وهؤلاء هم الذين يستثنون من الخلطاء الذين يبغي بعضهم على بعض، وهم -أيضا- يوصفون بالقلة، وأما من يعملون الصالحات من صلاة وصوم واعتكاف وتسبيح وتهليل وإقامة أذكار وقراءة أوراد، مع الظلم والتعدي والغصب ونحوه؛ فلا نراهم مستثنين من هؤلاء الخلطاء الذي يبغي بعضهم على بعض، ولا نقول في شأنهم: إنهم قليلون، بل هم كثيرون؛ أكثر من الهم على القلب!.

٧- وقال -تعالى-: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾[ص:٢٨]؛ فقوله: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾؛ أي: صالحات الدنيا، بدليل مقابلته بقوله: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

٨- وقال -تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [محمد:٢] هو جزاء صالحات الآخرة، وقوله: ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ هو جزاء

صالحات الدنيا في الدنيا؛ لأن إصلاح الحال إنما يحتاج إليه في الدنيا ولا حاجة له في الجنة.

٩- وقال -تعالى-: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر:١-٣]؛ فهذا «الخسر» هو الخسران في الماديات والروحيات، وهذه «الأعمال الصالحة» هي صالحات الدنيا وصالحات الآخرة.

١٠- قال -تعالى-: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور:٥٥]؛ فقوله: ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ هي الأعمال الروحية والمادية، ومنها: إعداد ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل، ومنها عدم التنازع المؤدي للفشل، وذهاب الريح، ومنها: أن نرى المؤمنين بالله يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، إلى غير ذلك مما أمر الله به المسلمين، ومما يقتضيه فن الحرب، بحيث نعد في كل عصر ما يناسبه، فإذا قاموا بذلك وما إليه، صدق عليهم أنهم قد عملوا الصالحات، التي يترتب عليها، ترتب المعلول على العلة- اختلافهم في الأرض، وتمكين دينهم لهم، وإبدالهم من بعد خوفهم أمنا.

وأما الصلاة، والصوم، والتهجد، والتهليل، والتسبيح، وإقامة الأذكار، وقراءة الأوراد، مع ترك ما تقدم من مأمورات الله -تعالى-؛ فلا ينجم عنه شيء من هذا الذي وعدنا الله به في هذه الآية الكريمة.

١١- وقال -تعالى-: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾؛ قاله جل شأنه عقب ذكر الأعمال المادية الدنيوية، كما ظهر بمراجعة سابقة.

١٢- وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾ [الكهف:٧]؛ فالعمل هنا مادي وروحي.

سألني سائل: ما هي الأعمال الصالحة الدنيوية التي تدخل في هذه الآيات؟

فقلت له: هي كثيرة جدا: الفنون، العلوم، الصنائع، معامل الدباغة، معامل الصابون؛ معامل الحرير، معامل الأجواخ، تشييد المدارس، تأليف الجمعيات، السياحة، الهجرة في طلب العلم، إقامة الربط في الثغور، صنع الأساطيل الحربية، الطيارات، المدافع، الدبابات، الغواصات، تنظيم وتعليم الجيوش، العناية بالزراعة والغرس والتجارة، طرق المواصلات، إيجاد فرق استخبارات في بلاد الأجانب، إيفاد البعثات العلمية في مختلف العلوم والفنون...إلخ.

نقرأ القرآن الكريم؛ فنسمع الله -تعالى- يقول في أهل الكتاب موعظة لنا: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ۝٦٦ ﴾ [المائدة:٦٦].

فما هذه الإقامة للتوراة والإنجيل؟ هل هي مجرد الركوع والسجود والتسبيح والتهليل، وما إلى ذلك؟

كلا...فإن هذه الأمور بمجردها لا يترتب عليها كثرة الزروع ونمو الأشجار والثمار، وانصباب الخيرات والأرزاق، ولكن المقصود بهذه الإقامة مع ذكر الاشتغال بالأعمال المادية التي تعود على أمتهم بالنفع المادي الدنيوي.

نقرأ القرآن الكريم؛ فنسمع الله -تعالى- يقول تعليما لنا: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥]؛ فهل هذا «الصلاح» هو مجرد العبادات الروحية؟..

كلا.. ولكنه مع ما ذكر التأهل لملك الأرض، وعمارتها، وخدمتها، واستغلالها، واستخراج كنوزها، ومعادنها وثمراتها، وخيراتها، وأخيرا القيام على حراستها وحمايتها والدفاع عنها هذا ما حضرني من الجواب، والله -تعالى- هو العليم بالصواب»(١).

١٠٠٤/٩٠- التحدث بنعمة الله.

إخبار يوسف الصديق -عليه السلام- عن نفسه بالتقوى والصبر من باب التحدث بنعمة الله.

وهذا مقام النبيين والصديقين إذا لم يكن على سبيل الترفع والفخر والرياء.

«وشاهد ذلك قول كعب -رضي الله عنه-: «ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها».

اعلموا- أرشدكم الله- أن الله -سبحانه وتعالى- إذا أسبغ على عبده نعمة؛ فإنه -جل جلاله- يحب أن يرى أثرها عليه؛ لقوله ﷺ: «إذا أنعم الله -عز وجل- على عبده نعمة؛ فإنه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»(٢).

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٥٠-١١٥٥).

(٢) صحيح- أخرجه أحمد (٤/ ٨٣٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٩١و٧/ ١٠) وغيرهم من حديث عمران بن حصين -رضي الله عنه-.
قلنا: وهو صحيح.

ومن آثار نعمة الله على العبد: التحدث بنعمة الله، وفي ذلك يقول الله -عز وجل-: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝ ﴾ [الضحى:١١].

وفي هذا التحديث قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها، وقول العبد: أنعم الله علي بكذا وكذا.

والآخر: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته.

والصواب: أنه يعم النوعين؛ إذ كل نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهارها في شكرها.

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠/ ١٠٢):

«والخطاب للنبي ﷺ، والحكم عام له ولغيره».

ولهذا قال رسول الله: «التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «من أبلي[(٢)] بلاء؛ فذكره؛ فقد شكره، وإن كتمه؛ فقد كفره»[(٣)].

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٤/ ٢٧٨و٣٧٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٣و٨٩٥)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٣)، وغيرهم كثير من حديث النعمان بن بشير بسند حسن.

قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٥٧٣/ ٩٧٦- «صحيحه»): «رواه عبدالله بن أحمد في «زوائده» بإسناد لا باس به».

وقال شيخنا -رحمه الله-: «حسن صحيح».

(٢) أنعم عليه، والإبلاء: الإنعام والإحسان.

(٣) صحيح- أخرجه أبو داود (٤٨١٤)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٢٥٩) من حديث جابر -رضي الله عنه-.

قلت: وهو صحيح.

وهذا ما درج عليه أهل العلم منذ قديم الزمان، ولن أنسى قول الحافظ أبي طاهر السلفي -رحمه الله-:

ليس على الأرض في زماني
من شأنه في الحديث شاني[1]

وهذا السيوطي كتب سيرته الذاتية في كتاب وسمه بـ «التحدث بنعمة الله»[2] ذاكرا فيه كثيرا مما أنعم الله به عليه.

وانظر إلى الشيخ محمد عابد السندي -رحمه الله- يقول: «لمثلي؛ فليسع؛ لأنه بيني وبين البخاري تسعة»[3].

واسمع إلى قول الحافظ ابن رجب يعقب على بحث نفيس في توجيه آيات المواريث: «وهذا مما فتح الله به، ولا أعلم أحدا سبق إليه، ولله الحمد والمنة»[4].

قلنا: ضابط هذا الباب أن لا يكون كبرا أو فخرا أو ترفعا أو رياء، فقد حدث رسول الله ﷺ بنعمة الله عليه مبينا هذا الضابط؛ فقال: «إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولا فخر، وأعطي لواء الحمد ولا فخر، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر» الحديث[5]»[6].

---

(١) «فهرس الفهارس»، الكتاني (٢/ ٩٩٦)، وانظر: مقدمة «سؤالات السلفي» (ص١١).

(٢) وقد طبعته جامعة كمبرج سنة (١٩٧٥م).

(٣) «فهرس الفهارس» ، الكتاني (٢/ ٧٢٢).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٥) صحيح- أخرجه أحمد (٣/ ٤١٤)، واللفظ له، والدارمي (١/ ٢٧) من حديث أنس -رضي الله عنه-.

قلت: وهو صحيح.

(٦) «إتحاف السالك بفوائد حديث المخلفين من رواية كعب بن مالك» (ص٢٧-٢٩)، تأليف: الشيخ سليم بن عيد الهلالي.

٩٠/١٠٠٥- تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة.

ينبغي للعبد أن يتذكر دائما حال الشدة والحزن والابتلاء؛ ليزداد من الله قربا، وله شكرا، وعليه ثناء، ولذلك قال يوسف الصديق -عليه السلام-: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾.

فمن تعرف على الله في السرور والرخاء تعرف عليه ربه -سبحانه وتعالى- في الشدة والبلاء.

٩٠/١٠٠٦- وسائل التعرض إلى نعم الله -تعالى- والحث على التقوى والتخلق بالصبر:

قال ابن عاشور:

«وجملة: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ تعليل لجملة ﴿ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾... أراد يوسف -عليه السلام- تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله -تعالى-، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضا بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه، ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم»[(١)].

٩٠/١٠٠٧- اغتنام الفرصة لإلقاء الموعظة.

قال ابن عاشور:

«وهذا من أفانين الخطابة: أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته.

وذكر المحسنين وضع للظاهر موضع المضمر؛ إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم، فعدل عنه إلى المحسنين؛ للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم؛ ليكون كالتذييل، ويدخل في عمومه هو

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٤٩)

وأخوه، ثم إن هذا في مقام التحدث بالنعمة وإظـهار الموعظـة سـائغ للأنبيـاء لأنه من التبليغ»[١].

٩٠/١٠٠٨- الإحسان لا يفارق المحسنين قولا وفعلا؛ لأنهم ذاقوا ثمرته.

قال أحمد نوفل:

«ومرة يأتي الحديث عن الإحسان على لسان يوسف -نفسه- في حديثـه عن سنة الله التي أكرم يوسف بمقتضاها، يقـول: ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ والإحسان في هذه الآية هو التقوى والصبر، وقد أكدت هذه الآية ما جـاء في سابقتها من حفظ أجور المحسنين وثوابهم»[٢].

٩٠/١٠٠٩- الدخول في مسلك المحسنين متوقف على التقوى والصبر:

قال أبو السعود:

«﴿ وَيَصْبِرْ ﴾ على المحن أو على مشقة الطاعـات أو عـن المعـاصي الـتي تستلذها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾؛ أي: أجرهـم، وإنمـا وضـع موضـع المضمـر؛ تنبيـها علـى أن المنعوتـين بـالتقوى والصـبر موصوفـون بالإحسان»[٣].

٩٠/١٠١٠- الزيادة على سؤال السائل عند الحاجة والبيان:

قال أبو السعود:

---

(١) المرجع السابق (١٣/ ٤٩).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ١٤٨).

(٣) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٠٤).

﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ ﴾ جوابا عن مسألتهم، وقد زاد عليه قوله: ﴿ وَهَٰذَآ أَخِيۖ ﴾؛ أي: من أبوي؛ مبالغة في تعريف نفسه، وتفخيما لشأن أخيه، وتكملة لما أفاده قوله: هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال، فأنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به، والاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والأنس بعد الوحشة، ولا يبعد أن يكون فيه إشارة إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخي لا أخوكم، فلا وجه لطلبكم، ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلي»[1].

١٠١١/٩٠- فوائد التصريح بكلمة: ﴿ وَهَٰذَآ أَخِيۖ ﴾.

قال العلمي:

«أولا: الإشارة إلى قولهم: ﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ﴾، ثم قولهم: ﴿ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ فيشبه أن يكون قوله: ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ ﴾ من نوع التلميح لشيء آخر، تذكيرا لإخوته بما كان سمع منهم، كأنه يقول: ﴿ وَهَٰذَآ أَخِيۖ ﴾ الذي كنتم قلتم عنه: كيت وكيت، ولم تتذكروه، وتذكروه بعنوان إخوتي له إلا في موضعي الحسد والانتقاد، ولكن في مقابلة ذلك، ها أنا ذا أذكره باسم الإخوة في موضع الافتخار به والمباهة، فأنا أباهي وأفاخر به، صارخا بين الملأ: ﴿ وَهَٰذَآ أَخِيۖ ﴾.

ثانيا: لما لم يقولوا له: أإنك لأنت أخونا يوسف بل تعارفوا عليه باسم فقط، غير مقرون بالنسبة الأخوية المشتركة بين الطرفين - أجابهم بجواب من

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٠٤).

نوعه؛ أي: أنه لم يقل: نعم، أنا أخوكم يوسف، بل قال ما معناه: أنا يوسف الذي تسمونه بهذا الاسم كأنه أجنبي عنكم، وهذا أخي الذي انتسب إليه حيث هو لم يصدر منه ما يشم منه رائحة التباعد عن انتساب أحدنا للآخر؛ فحيث أنتم لم تذكروني باسم الأخوة؛ فلا أعدم من أن أذكره بهذا الاسم.

ثالثا: لعله أراد بقوله: ﴿ وَهَـٰذَآ أَخِى ﴾ الإشارة إلى أنه إذا كان يوجد لي أخ حقيقي؛ فهذا هو الأخ الحقيقي، الذي يقوم بحقوق الأخوة، ولم يمسني بأذى مطلقا، هذا هو أخي الذي شاركني في سرائي وضرائي، هذا هو أخي الذي اجتمعت نفسي ونفسه في صعيد واحد من هموم الحياة وآلامها، كما اجتمعت نفسي ونفسه في صعيد واحد من الغبطة والسرور:

إن أخاك الحق من كان معك

ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك

شتت فيك شمله ليجمعك

بخلافكم في كل ذلك، فأخوتكم لي أخوة إسمية فقط، لا فائدة منها، بل هي مصدر ضرري ومبعث إيذائي.

وما أكثر الإخوان حين تعدهم

ولكنهم في النائبات قليل

رابعا: لعله أراد بقوله: ﴿ وَهَـٰذَآ أَخِى ﴾ إنه الأخ الذي حرصتم على التفريق بيني وبينه، وعملتم على بعدي عنه، ها هو جالس بجانبي، ها هو لصيقي، ها هو لا يفصل بيني وبينه إلا مر النسيم، ها هو ذا تسمع أذنه سريرة شفتي، ها هو ذا يشار إليه بإشارة القريب، ها هو بين بصري وسمعي، ضد ما

كنتم سعيتم سابقا من التفريق والتبعيد، وهذا على حد ما قيل: «أزجر المسيء بثواب المحسن»[١].

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٤٩-١١٥٠).

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

٩١/١٠١٢- إنه بالطاعات ومكارم الأخلاق يكون الإيثار والأفضلية:

قال السعدي:

«أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصا على إيصال الأذى إليك والتبعيد لك عن أبيك؛ فآثرك الله -تعالى- ومكنك مما تريده»[١].

٩١/١٠١٣- الذنوب والخطايا سبب لخلف المرء عن الولاية والكرامة، ولو كان وجيها ذا نسب رفيع، ومنه الحديث: « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٢].

٩١/١٠١٤- العبد بصلاحه وتقواه واستقامته يقدم على الجماعة ممن هم دونه في ذلك.

قال -تعالى-: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ فقد نالوا هذه المنزلة، وهي الإمامة في الدين بالصبر واليقين.

ولذا كان إبراهيم -عليه السلام- أمة؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾، وقال -عليه الصلاة السلام-:« يؤم الناس أقرؤهم لكتاب الله»[٣].

---

(١) «تيسير الكريم» (٤/ ٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٣) أخرجه مسلم (٦٧٣/ ٢٩١).

٩١/١٠١٥- الإيثار والتفاضل عند الله بحسب الدين والتقوى والاستقامة، لقوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

٩١/١٠١٦- أثر المعاصي والذنوب في هلاك الأمم والشعوب على مر العصور وكر الدهور(١).

٩١/١٠١٧- وفيها أنه ينبغي للمسيء أن يعترف بإساءته ويطلب المغفرة ممن أساء إليه.

قال العلمي:

«وجوب الاعتراف بالإساءة ثم طلب الغفران:

نتعلم من هذه الآية: إنه ينبغي للمسيء أن يعترف بإساءته، ويطلب المغفرة ممن أساءه، ولو أصغر منه سنا، كما وقع من إخوة يوسف -عليه السلام-، وحينئذ ينبغي للمساء إليه أن يغفر للمسيء، كما وقع من يوسف معهم.

أقروا بذنوبهم، ورجعوا إلى صوابهم، واستقبحوا عملهم، وسخطوا على أنفسهم، وأعلنوا فظاعة ما أجروه، ونحن لا نرتاب في أن يوسف -عليه السلام- قبل منهم هذا كله؛ لأن العبد إنما يحاسب الناس بحسب ظواهرهم، ولكن هل يعتبر هذا القول منهم توبة نصوحا بالنسبة لله -تعالى- الذي يعلم السر وأخفى، بحيث ينالون بها من الله الغفران؟.

ورب قائل يقول: إنهم أرادوا بذلك التوصل إلى استنزال عفو أخيهم عنهم، والتعرض لمغفرته لهم.

---

(١) وقد فصل الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- هذه المسألة في كتابه: «الداء والدواء».

وربما يقول آخر: إن القوم ندموا على ما فرط منهم ظاهرا وباطنا وأخلصوا لله التوبة.

وهذا هو الأقرب؛ بدليل تسميتهم كواكب؛ لأنهم إذا لم يكونوا كواكب بعد هذه التوبة والأوبة، ففي أي وقت يكونون كذلك؟ نعم نعم، إنهم ندموا وأنابوا وأخلصوا لله التوبة، وصار كل واحد منهم كسعيا يصرخ:

ندمت ندامة لو أن نفسي
تطاوعني إذا لقطعت خمسي

تبين لي سفاه الرأي مني
لعمر أبيك حين كسرت قوسي»[1]

٩١/١٠١٨- الفرق بين لفظتي الخاطئ والمخطئ.

إخوة يوسف - عليه السلام- أقروا بذنبهم واعترفوا بخطيئتهم؛ فوصفوا أنفسهم أمام أخيهم في هذه الآية وأمام أبيهم كما في آية (٩٧) بـ ﴿ خَـٰطِـِٔينَ ﴾، فما الفرق بين لفظتي الخاطئ والمخطئ؟

قال العلمي:

«من الناس من يقدم على الفعلة السيئة، تارة باجتهاد وتأويل، بحيث يكون غير خاش بما عمل عقابا من الله ولا توبيخا من الضمير، وتارة بالغلط وعدم معرفة أن هذا الفعل حرام، فصاحب هذا العمل -في الحالين- لا يعاقب، وعلامة هذا النوع: أنه يفعل الفعل، وهو راض عن نفسه، مستريح لعمله، ويقال لصاحب هذا العمل: مخطئ، ومن الناس من يعمل عمل السوء، وهو عالم أنه سوء، وإن الإقدام عليه غير جائز، لا في حكم الله، ولا

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٢٣).

في حكم الضمير، فصاحب هذا العمل يستحق العقاب بمقدار ما عمل، ما من ذلك بد[١] إن لم يعقبه بتوبة، وعلامة هذا النوع أنه يعمل العمل، وهو غير راض عن نفسه، ولا مستريح لعمله، ويقال لصاحب هذا العمل: خاطئ.

فإذا تقرر هذا؛ فأولاد يعقوب -عليه السلام- كانوا من قبيل هذا النوع، ولذلك تراهم أقروا واعترفوا أمام أخيهم، ثم أمام أبيهم بأنهم كانوا خاطئين، وهذا يدلنا على أن العلة التي كانوا توسلوا بها لقتل يوسف أو طرحه أرضا، أو إلقائه في غيابة الجب، وهي: كونه أحب لأبيهم منهم- كانت علة غير حقيقية، حتى في نظرهم، وأنهم كانوا غير مقتنعين بها، لأنها صورية فقط، إذ العلة الحقيقية هي الحسد والغيرة والغيظ والأثرة»[٢].

---

(١) بل هو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، ما لم يكن مشركا بالله.

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١١٥٨-١١٥٩).

﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

١٠١٩/٩٢- شفيع المذنب إقراره أو المصالحة والمغفرة.

قال العلمي:

«إن يوسف -عليه السلام- تأمل في الحالة السابقة بينه وبين إخوته؛ فقال في نفسه:

ولست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث، أي الرجال المهذب؟

ففضل العفو عنهم، وقال لهم: لا موجدة منذ اليوم في قلبي نحوكم ولا ترة بيني وبينكم، ومن حق الصديق والقريب أن يتحملا ثلاثا: ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة.

وأنتم ما خرجتم عن أنكم سكان بيوت من طين، تماسكت أجزاؤها بالماء، ولعل الله قد أتى بي ههنا لأجل أن تحيوا، وتحيا عائلة إسرائيل وأنتم إن كنتم أخطأتم فما أخطأ القدر:

والناس يلحون الطبيب وإنما
غلط الطبيب إصابة الأقدار

وحيث حملتهم شهادة التوبة بيدكم، وبما أن شفيع المذنب إقراره؛ فلا تثريب عليكم اليوم، فالإنسان يصيب ويخطئ، ويسرع ويبطئ، والإنسان من ماء وطين وليس من الملائكة العليين، وإن لكل صارم نبوة، ولكل جواد كبوة،ولكل عالم هفوة، والكمال لله، والعصمة لأنبيائه، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، لا تثريب عليكم اليوم، فبعد اعترافكم بالخطأ، وإنابتكم إلى الله؛ لا يثربكم إلا كل صاحب إحساس أصم، وعواطف مائتة.

يـــا مـــن عـــدى ثـــم اعتـــدى ثـــم اقـــترف
ثـــم انتـــهى ثـــم ارعـــوى ثـــم اعـــترف
أبشـــــر بقـــــول الله في آياتـــــه
إن ينتـــهوا يغفـــر لهـــم مـــا قـــد ســـلف

لا تثريب عليكم اليوم؛ إني قد وهبتكم لأبيكم وعيالكم، وإني مستعد لمسامحتكم ألف مرة لو قدر أن يجني علي ألف جناية.

لا تثريب عليكم اليوم؛ فقد مرت تلك الأيام المتعبة بخيرها وشرها، فيجب أن نسدل الستار على حلوها ومرها، ولم يبق إلا أن نطرد أشباحها المروعة من مسرح الخيال، ونتحامى المطالعة في ذلك التاريخ المظلم.

لا تثريب عليكم اليوم؛ فأنا لست عدو إخوتي ، ولكني عدو تقطيع الأرحام، وكما رأيتم أن من واجبكم الاعتراف بالخطأ،أرى من واجبي عدم لومكم وتأنيبكم، فلا تفتكروا فيما كان بيني وبينكم من الإحن؛ فقد جعلتها دبر أذني وتحت أقدامي، فلا آخذ بها عليكم اليوم؛ لأن خطيئتكم ذابت واضمحلت أمام هذا الاعتراف والندم.

لا تثريب عليكم؛ لأنكم أنتم كنتم من أهم الأسباب التي ساعدت على إرتقائي لهذا المنصب العالي وإن يكن ذلك بطريق غير مباشرة، لكن حركتكم معي أدت إلى هذه الحادثة العظيمة ذات الأثر البعيد في التاريخ البشري، حادثة ارتقائي على عرش الملك.

لا تثريب عليكم اليوم؛ بل عفوت عنكم عفوا لا يخلطه تثريب، ولا يكدر صفوة تأنيب، لي ولكم رب اسمه «الغفار» واسمه «الرحمن الرحيم»[1].

---

(١) المرجع نفسه (٢/ ١١٦٨-١١٦٩).

٩٢/١٠٢٠- فوائد متعلقة بكلمة اليوم.

قال العلمي:

«كلمة ﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ متعلقة بالتثريب أو بالمقدر في ﴿ عَلَيْكُمُ ﴾ من معنى الاستقرار، أو متعلقة بـ ﴿ يَغْفِرُ ﴾ والمعنى على الأول: لا أثربكم اليوم، وهو اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتدأ فقال: ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال: غفر الله لك ويغفر الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعا، ومنه قول المشمت: «يرحمكم الله» وقول العاطس: «يصلح الله بالكم».

والمعنى على الثاني: أن ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ بشارة بعاجل غفران الله، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم، وعلى هذا الثاني؛ فمعنى قول يوسف: ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾: مغفرة ما يرجع إلى حقه وحق ربه دون حق أبيه ، إذ الإثم كان مشتركا بين الثلاثة، ومعنى قولهم فيما يأتي: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾: مغفرة ما يتعلق بحقه وحق ربه دون حق ولده؛ لأنه تنازل عنه سابقا، أو مقصودهم تكرار طلب المغفرة من الله بلسان أبيهم، كما حصل بلسان أخيهم»[١].

٩٢/١٠٢١- الحكمة في مبادرة الاستغفار لإخوته بخلاف أبيهم.

قال العلمي:

«تعليقا على قوله: ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾: هم لم يقولوا لأخيهم: استغفر لنا ذنوبنا . . . ولكنه هو بادر بطلب المغفرة لهم من الله قبل أن يطلبوا منه ذلك،

---

(١) المرجع نفسه (٢/ ١١٧١-١١٧٢).

وأما أبوهم؛ فمع كونهم ابتداؤوا وطلبوا منه استغفاره لهم ذنوبهم؛ فلم يبادر بطلبتهم، وإنما وعدهم بها وعدا مؤجلا، فما الحكمة يا ترى في ذلك؟

والجواب عليه من وجوه:

الوجه الأول: معلوم عند العموم أن قلب الوالد سريع الانعطاف، وأنه محب لخير بنية بالطبع؛ لأنهم مهما كانوا فهم أفلاذ كبده، فلذلك لم يحتج أن يبرهن على ذلك بنحو مبادرته بالاستغفار لهم، بل أخر ذلك لأمر ما ربما يكون فيه خير لأولاده، بخلاف يوسف؛ فهو أخ لا أب؛ فلذلك احتاج أن يبرهن لهم على حنانه وعطفه عليهم بسرعة استغفاره لهم حتى بدون طلب منهم، فأبوهم لم يكن أقل مغفرة لهم وعطفا من أخيهم عليهم، بل هو أكثر مغفرة ورحمة ولكن اختلف الحال، لما بيناه في جواب السؤال.

الوجه الثاني: وهو أنه أمسك عن تثريبهم، وغفر لهم، وأراد أن يجازي سيئتهم بالحسنة، فرغب إليهم أن يأتوا بأهلهم ليعولهم، وأعطاهم من نفسه هذا الكرم؛ لأنه يرى نفسه حاكما وهم محكومون، وأميرا وهم مأمورون، وعزيزا بمصر وهم أذلاء، ومن رجال البلاط وهم سوقة، ووزير مالية وهم فقراء يائسون، وهو قويا وهم ضعفاء، فكان يراهم أصغر في عينيه من أن يأخذهم بذنب، أو يعتد عليهم بسيئة، وإن هذه النظرية العذبة، التي أصبح ينظر بها إليهم ، إنما هي نظرة الرفع، التي يلقيها على البائس الضعيف، الذي يستحق العطف والرحمة، شأن أصحاب المراتب العالية، من أرباب الحكومة، مع أفراد الرعايا، وقد قيل: «إن الحكم والعفو في الحكام، من الصفات التي تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم»؛ فهذا ما حدا بيوسف -عليه السلام- أن يبادرهم برفع التثريب عنهم، والاستغفار لهم، وهذا بخلاف أبيهم -عليه السلام-؛ فإنه ليس من أصحاب المناصب الدنيوية، بل هو لا يزال من

الناس المحكومين، الذين لا يرون لأنفسهم على غيرهم ما يراه أهل الدنيا من الرفعة والعظمة.

الوجه الثالث: وهو أن يوسف رغما عن أنه وزير مالية وعزيز مصر ووكيل مليكها، فهو لا يزال يتحسس الخوف من إخوته، ومن إفسادهم عليه حاله، والمقروض يخاف من جرة الحبل، لا سيما وهم أخوته، فطعنهم فيه أقرب للتصديق من طعن الأجانب؛ فلذلك بادر بطمأنتهم بعدم تثريبهم، وبالدعاء لهم بالمغفرة، وبالرغبة إليهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين، يستصلح بذلك قلوبهم، ويجعل به بينهم وبين ضررهم إياه سدا منيعا، ولما كان هذا المعنى غير موجود في أبيهم، لم يحتج إلى شيء من هذا القبيل، بل رغما عن كونهم تقدموا إليه في استغفار ذنوبهم؛ فقد رأيناه أخر الاستغفار لهم إلى وقت أو مكان أو حال ربما يكون الدعاء فيه أقرب للإجابة.

الوجه الرابع: افتكر يوسف -عليه السلام- في نفسه أنه ليس بين المتشفي المصر على النقمة، وبين المظلوم الجبار المستبد إلا ستر رقيق وحجاب ضئيل، ففضل أن يعفو عن إخوته ولا يثربهم، بل فضل أن يغفر لهم، لا سيما وإن التجاوز عن أمثالهم من أهل العناصر الطيبة يفيد في حسن حالهم، كما إن المغفرة لذوي الخسة والدناءة تزيدهم تعديا وطغيانا، فقد قيل: «إن العفو يفسد من اللئيم بقدر ما يصلح الكريم»، وقال الشاعر:

ليست الأحلام في حال الرضا ... إنما الأحلام في حال الغضب

وقال آخر:

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائبا ... إليك فلم تغفر له فلك الذنب

قيل: لما أتي بإبراهيم بن المهدي إلى المأمون شاور وزيره في قتله، فقال له وزيره: إن قتلته؛ فلك نظراء، وإن عفوت عنه؛ كنت الرجل الوحيد؛ فعفى عنه»[1].

٩٢/١٠٢١- العفو عند المقدرة من صفات المحسنين، والتثريب: هو التعيير والتأنيب والعتاب.

قال العز بن عبد السلام:

«﴿ لَا تَثْرِيبَ ﴾: لا تعيير، أو لا تأنيب، أو لا إباء عليكم في قبولكم»[2].

قال السعدي:

«﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾؛ أي: لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فسمح لهم سماحاً تاماً من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين»[3].

٩٢/١٠٢٣- بيان الصفح والعفو وترك عتاب القريب إذا أساء[4].

٩٢/١٠٢٤- العفو أشد أنواع الانتقام.

قال العلمي:

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١١٧٣-١١٧٥).

(٢) «تفسير سلطان العلماء» (٢/ ١٣٧).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٢٧).

(٤) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٤).

«وهو إن العفو أشد أنواع الانتقام، وهو مرارة ساعة، ثم السعادة إلى الأبد، والانتقام لذة ساعة، ثم الشقاء الدائم الذي لا يفنى، فلذلك فضل يوسف أن يعفو عن إخوته، ويصفح الصفح الجميل؛ فقال بشفته وقلبه: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، وهو حقيق بذلك كله، لأن المقدرة تذهب الحفيظة، ولعمري لقد جاء عفوه عنهم تزكية لانتصاره عليهم»[١].

٩٢/١٠٢٥- ينبغي أن نغفر لمن يسيء إلينا ونحسن إليه، ونصفي له الود وإن نغض عن كل إهانة تلحق بنا.

قال القاسمي:

«قال بعضهم: إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته وإبقاءه عليهم ومصافاته لهم تعلمنا: أن نغفر لمن يسيء إلينا، ونحسن إليه، ونصفي له الود، وأن نغضي عن كل إهانة تلحق بنا؛ فيسبغ الله -تعالى- إذ ذاك علينا نعمه وخيراته في هذه الدنيا؛ كما أوسع على يوسف، ويورثنا السعادة الأخروية»[٢].

٩٢/١٠٢٦- حرص يوسف -عليه السلام- على اقتناص الفرص وشواهد عليه.

قال العلمي:

«الذي يظهر لي أن يوسف -عليه السلام- كان حريصا جد الحرص على انتهاز الفرص متى سنحت له؛ ولنا على ذلك الشواهد الآتية:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٧٥-١١٧٦).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٣٧٣).

الشاهد الأول: حينما أخرج من الجب وأخذ كأسير لم يأت من المقاومة شيئا، بل انتهز فرصة البعد عن إخوته المناوئين له المتألبين عليه، وفضل الجلاء عن فلسطين بلاد البداوة والتوحش إلى بلاد الحرية والتمدن والأمن، فاستخذأ (للسيارة) ورافقهم لمصر لا يلوي على شيء.

الشاهد الثاني: لما سأله الفتيان عن رؤييهما وقبل أن يعبر لهما، انتهز الفرصة وشرع يدعوهما للتوحيد ويعظهما في الدين.

الشاهد الثالث: بعدما عبر رؤيا رئيس السقاة، بما فيه سلامة وقوة عينه، ثم أراد الرئيس أن يخرج من معتقله، تقدم إليه يوسف بالرجاء أن يشفع له عند الملك الريان، وفعلا إن رئيس السقاة نفعه وخدمه، ولكن بعد حين.

الشاهد الرابع: لما سئل يوسف عن تعبير رؤيا الملك وأدى واجبه بالجواب عن الرؤيا، افترض الفرصة؛ فأتى بما لم يسأل عنه، وعرفهم ماذا يجب أن تعمل الحكومة الهكسوسية، وبين لهم طريق السياسة وسبيل الاقتصاد وكان هذا لأجل أن يصير له شأن وذكر حسن لدى مليك مصر ورجال بلاطه، وقد كان.

الشاهد الخامس: لما جاءه سفير الملك آمرا إياه بالخروج من معتقله وأحس بأن الملك أحبه وتوجه عليه بالنظر ووثق به، افتكر أن توجه الملك عليه لا بد أن يكون قد حكي في قصور أمراء مصر، وأن كل من كان كذلك كان حقيقا بأن يكون مهيب الجناب، بحيث لا يتكلم فيه بسوى الحقائق، فنظرا لهذا كله انتهز الفرصة؛ فأبى الخروج من المعتقل إلا بعد التحقيق وبعد سؤال السيدات المصريات؛ لأنه يتوجه نظر الحكومة عليه، يكون قد أمن غائلة هؤلاء النسوة، فلا يتكلمن فيه إلا بالحق، فيخرج من المعتقل ناصع الجبين.

الشاهد السادس: حينما مثل بين يدي الملك: ورمي الملك له تلك الإشارة ورمز له بذلك الرمز الذي يشير إلى أن الملك أزمع على إسناده

منصب ما له في البلاط، اكتسب الفرصة وتقدم توا إلى الملك بتعيين وتشخيص المنصب.

الشاهد السابع: لما جاء إخوته لمصر للمرة الأولى انتهز الفرصة وعمل معهم كل الأعمال التي تقتضي رجوعهم لمصر بأخيهم بنيامين، الأمر الذي هو كل ما يتمناه، لا أقل ولا أكثر.

الشاهد الثامن: لما رجع إخوته بأخيهم بنيامين اكتسب الفرصة وعمل تلك المكيدة التي تقتضي بقاء بنيامين عنده.

الشاهد التاسع: طلب إتيان أبيه وإخوته وأهليهم أجمعين لمصر، منتهزا الفرصة بذلك؛ لكي يكونوا تحت نظره، ويعيشوا تحت رعايته، بعكس ما فعل إخوته معه سابقا، وليس يوجد ألذ للنفس وأشهى القلب من ذلك العلم، و- أيضا- لكي يظهر لهم من مكارم أخلاقه مقدار ما أظهروه هم له من سوء أخلاقهم، ثم احتسابا لوجه الله وصلة للرحم، ومقابلة للسيئة بالحسنة، «وبضدها تتميز الأشياء».

وعلى الجملة؛ فيوسف أجرى ما أجرى من هذه الأمور التسعة، إما مماشاة للطبيعة الإسرائيلية عموما منذ القدم إلى اليوم، هم حريصون على انتهاز الفرص.

قال الشاعر:

وانتهز الفرصة إن الفرصة

تصير إن لم تنتهزها غصة

وإما لكون ما أجراه هو مقتضى العقل والكياسة.

وبالإجمال: إن يوسف كان قوي الإرادة في كل شيء أراده، وكبير النفس في كل شيء رام أن يتعاطاه...»[١].

٩٢/١٠٢٧- إن من يضمر السوء للمسيئين وينتقم منهم؛ فإن الله ينتقم منه ويورده الثبور.

قال القاسمي:

«وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ونقمنا منهم؛ فسينتقم الله منا ويوردنا مورد الثبور، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا»[٢].

٩٢/١٠٢٨- ينبغي للدعاة إلى الله أن يصفحوا ويعفوا عمن ظلمهم وأساء إليهم إسوة بأنبياء الله، وعلى رأسهم إمامهم وسيدهم محمد ﷺ الذي ضرب أروع الأمثلة وسجل أشرف الصفحات من الصفح في تاريخ البشرية.

٩٢/١٠٢٩- كل من يرجو رحمة الله من الرحمن الرحيم؛ فعليه أن يرحم على الخلق أجمعين؛ لأن الراحمين يرحمهم الرحمن.

٩٢/١٠٣٠- بيان ضعف الإنسان عندما يخطئ في حق أخيه أو خصمه خصوصا عندما يأتي معتذرا إليه.

٩٢/١٠٣١- ينبغي للإنسان أن يبتعد عن كل ما يسبب له الحرج والمؤاخذة؛ فيدفعه للاعتذار إلى الناس؛ خصوصا من لا يعذرون ولا يصفحون عنه.

قال العلمي:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢١٥-١٢١٧).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٣٧٢).

«هذه الطريقة التي جرى عليها يوسف في مسامحة إخوته هي الطريقة المثلى التي مشى عليها وأوصى بها العقلاء من الناس.

قال الشاعر:

إذا كنت في كل الأمور معاتبا

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحدا أو صل أخاك فإنه

مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى

ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه؟

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال غيره:

تريد مهذبا لا عيب فيه

وهل عود يفوح بلا دخان؟

وقال غيره:

لا بد للكامل من زلة

تخبره أن ليس بالكامل

وقال غيره:

فقلت لها يا عز مصيبة

إذا وطنت يوما لها النفس ذلت

وقال غيره:

إذا اعتــذر الجــاني محــا العــذر ذنبــه
وكــل امــرئ لا يقبــل العــذر مذنــب

وقال غيره:

احمــد بحلمــك مــا يذكيــه ذو غلــط
مــن نــار غيظــك واصفــح إن جنــى جــاني
فــالحلم أفضــل مــا ازدان اللبيــب بــه
والأخــذ بــالعفو أحلــى مــا جــني جــاني»[1]

٩٢/١٠٣٢- حقوق العباد من أخطر المعاصي التي يؤخذ بها المرء يوم القيامة، يوم يقتص الله من الظالم للمظلوم؛ فينبغي الحذر من ظلم العباد.

٩٢/١٠٣٣- بيان أن التوبة تجب ما قبلها، وأنه ينبغي إعطاء المذنب فرصة أخرى، وفتح صفحة جديدة بعد اعتذاره.

٩٢/١٠٣٤- من زعم أن الوقف على قوله: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ وابتدأ بقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾؛ فقوله ضعيف.

قال ابن كثير:

«أي: لست أعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا، ثم زادهم على ذلك، فقال:﴿ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، ومن زعم أن الوقف على قوله: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾، وابتدأ بقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾؛ فقوله ضعيف؛ والصحيح الأول»[2].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٨٢-١١٨٣).

(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ٢١٦).

٩٢/١٠٣٥- ينبغي للبريء الملوم أن يسعى في إصلاح الحال بتكلمه بلطف مع ظالمه وببيان له خطأه بدل أن يشكوه إلى الغير.

قال العلمي:

«فينبغي للبريء الملوم أن يسعى في إصلاح الحال بتكلمه بلطف مع ظالمه، وتبيينه له خطأه، بدل أن يشكو إلى الغير، أو ينتقم منه بحقد عليه؛ فيبقي العداوة له في قلبه، وينبغي أن تكون المعاتبة سرا؛ لأنه إذا عاتبه أمام الناس اغتاظ منه، أو استحى بأن يقر أمامهم بأنه أخطأ، فيجتهد في تبرير نفسه ويقسو بذلك قلبه، مع أنه إذا انفرد به سهل عليه أن يقنعه بالحق، وينبغي أن يكون العتاب بلطف وحكمة، وبروح الوداعة، وإلا اتسع الخرق على الواقع، وعمق الجرح بدل أن يبرأ، وصب الزيت على النار، بدلا من أن يصب عليها الماء»[(١)].

٩٢/١٠٣٦- ما هو الجزاء الذي وقع على إخوة يوسف حتى غفر الله لهم.

قال العلمي:

«وههنا أتذكر أنني كنت سئلت سؤالا صورته:

إن الجزاء أثر طبيعي للعمل، إن خيرا؛ فثواب، وإن شراً؛ فعقاب، وإن الله بعيد عن المحاباة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ [الزلزلة: ٧و٨]؛ فهل يا ترى وقع الجزاء لإخوة يوسف حتى نالوا هذه المغفرة عند اعترافهم بالخطأ، مع أن الأعمال التي خطئوا بها

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٤٥).

إلى الله وإلى أبيهم وأخويهم رهيبة ورهيبة جدا؟ هذا ما سألني عنه نبيل وذكي من الطلبة، فأجبته بما صورته:

إنهم بتكذيب أبيهم لهم، إذ قال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾، وبما ضيق عليهم يوسف في سفرتهم الأولى إذ قال لهم: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾، وبما ثربهم أبوهم إذ قال: ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ ﴾، وبما شدد النطاق عليهم إذ قال: ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ وبما سرقوا حين قيل لهم ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾، وبما كذبوا حين قيل لهم: ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ وبما سقط في أيديهم، وكأنما صب من فوق رؤوسهم الحميم، وخجلوا أما المتمارين، وأمام المصريين وأهل البلاط، إذا استخرجت السقاية من وعاء أحدهم، بعدما كانوا يقاومون هذه التهمة أشد المقاومة، وبما أنهم ردوا وخيبوا، ولم تنجح مساعيهم ولم تقبل شفاعتهم، حين قال لهم أخوهم يوسف: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾، وبما أنهم وقعوا بذلك في اليأس والحرج، وهم غرباء والوقت وقت جوع، وعيالهم في انتظارهم على أحر من الجمر، وبما أن «راوبين» أنبهم، وذكرهم بما يحرجهم مع أبيهم، وذكرهم بسابق عملهم مع أخيهم، فقال لهم: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾، وبما أن أباهم قد عاد فكذبهم في أن بنيامين سرق، ونسب إليهم في ذلك دسيسة ومكرا، فقال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ مع أنهم لم يكن لهم هذه المرة دسيسة ولا مكر، وبما أنهم وقفوا بين يدي أخيهم ضارعين مستكينين، وقالوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ

فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾، وبما أنهم عوتبوا ووصفوا بالجهالة، ولم يسعهم إلا السكوت ساعة أن قال لهم أخوهم: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾، وبما لمحوا من طرف خفي الإشارة من أخيهم إلى براءته منهم وانتسابه لبنيامين فقط، إذ قال لهم: ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾ وبما أنهم سمعوا التعريض بهم أنهم لم يكونوا من أهل التقوى والصبر، إذ يقول أخوهم أمامهم: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وبما رأوا من حرج الموقف الذي اضطرهم أن يعلنوا اختيار الله لأخيهم دونهم، وأنهم أئمة خطأة، إذ قالوا: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾، ونضم لذلك ما كانوا يرزؤون به في من عدم توجه أبيهم إليم وحنقه عليهم، وأضف لذلك جميعه ما كان يعتريهم كل حين من توبيخ ضمائرهم لهم، ولوم أنفسهم إياهم، وتمرمر معيشتهم، فبحلول هذه النوازل عليهم، وصبها فوق رؤوسهم، علم أخوهم يوسف -عليه السلام- أنهم قد استوفوا جزاءهم جزاء وفاقا، وأنهم لم يبق عليهم ما يؤخذون به، سوى الاعتراف، فلما اعترفوا قال لهم: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ هذا هو الجواب، والله الملهم للصواب، فإن أصاب المحز؛ فمن نعمة الله الوهاب، وإلا؛ فما أنا أول واهم من بني آدم[1].

٩٢/١٠٣٧- العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية.

قال السعدي:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٧٨-١١٨٠).

«إن العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية؛ فإن أولاد يعقوب -عليه السلام- جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والسماح التام من يوسف ومن أبيهم والدعاء بالمغفرة والرحمة»[١].

قال العلمي:

«العبرة بالخواتيم:

إذا تأمل الإنسان في حوادث الدهر، وجدها سلسلة متصلة الحلقات ، كل حادثة منها ولدت من أخرى ، لولاها لم تولد، وبدونها لم توجد، ورأى الخير آتيا من صلب الشر، والشر نازلا من صلب الخير،حتى ينتهي الأمر بأنه يحكم بعدم وجود خير محض و شر محض، وبأنها أمور نسبية، وينبغي أن يضع نصب عينيه: أن ما يراه اليوم مصيبة، قد يضمن في الغد سعادته، وإن ما يراه سعادة، ربما يكفل له فيما بعد شقاوته، فالأمور بخواتيمها، والحوادث يحكم عليها لا بصدورها، بل بأعجازها»[٢].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٢٧).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١١٨١-١١٨٢).

﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

٩٣/١٠٣٨- العقل غرس له في الصدق أثمار.

قال ابن عاشور:

«وقوله: ﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا ﴾ يدل على أنه أعطاهم قميصا. فلعله جعل قميصه علامة لأبيه على حياته، ولعل ذلك كان مصطلحا عليه بينهما. وكان للعائلات في النظام القديم علامات يصطلحون عليها ويحتفظون بها؛ لتكون وسائل للتعارف بينهم عند الفتن والاغتراب؛ إذ كانت تعتريهم حوادث الفقد والفراق بالغزو والغارات وقطع الطريق. وتلك العلامات من لباس ومن كلمات يتعارفون بها وهي الشعار، ومن علامات في البدن وشامات.

وفائدة إرساله إلى أبيه القميص أن يثق أبوه بحياته ووجوده في مصر، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر. ولقصد تعجيل المسرة له.

والأظهر أنه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف- عليه السلام- بجلبه؛ فإن قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصا ولا توجد أمثالها عند الناس، وكان الملوك يخلعونها على خاصتهم؛ فجعل يوسف -عليه السلام- إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنهم جاءوا من عند يوسف- عليه السلام- بخبر صدق.

ومن البعيد ما قيل: إن القميص كان قميص إبراهيم- عليه السلام- مع أن قميص يوسف قد جاء به إخوته إلى أبيهم حين جاءوا عليه بدم كذب»[١].

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٠-٥١).

٩٣/١٠٣٩- لا يأل المؤمن جهدا في تخفيف الآلام عن الناس، فإذا علم أن له كرامة عند ربه؛ كإجابة الدعاء مثلا؛ فإنه يسعى لأن يجعل منها ما يرد به البصر إلى كفيف والعافية إلى سقيم، وما يرد إلى ذلك من معطيات السعادة ومتطلبات الحياة(١).

٩٣/١٠٤٠- سبيل إظهار المعجزات في حق الأنبياء.

قال ابن عاشور:

«وأما كونه يصير بصيرا؛ فحصل ليوسف - عليه لسلام- بالوحي، فبشرهم به من ذلك الحين»(٢).

٩٣/١٠٤١- في مفاجأة السرور خطر، وأحب أن يروض نفسه بالتدريج.

٩٣/١٠٤٢- النفس تنشرح عند حلول الفرج.

٩٣/١٠٤٣- الحث على صلة الأرحام.

قال ابن عاشور:

ثم قال: ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾؛ لقصد صلة أرحام عشيرته.

قال المفسرون: وكانت عشيرة يعقوب- عليه السلام- ستا وسبعين نفسا بين رجال ونساء»(٣).

قال العلمي:

«تعليقا على قوله: ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾: علم يوسف -عليه السلام- أن الرجل العظيم هو من يتوخى للناس المنفعة، ويوطىء لهم

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٦٢).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥١).

(٣) المرجع السابق.

أسباب السرور، ولو كانوا قد أهانوه، فلذلك طلب إلى إخوته الإتيان بأهلهم وكان هذا التوجه وهذه العناية من سيدنا يوسف في محلها وعند وقتها؛ لأنهم كانوا في فلسطين في ضيق عظيم، فكان من رحمة الله أن سخر لهم قلب يوسف وحننه عليهم، حتى لو لم يعثروا على يوسف أخيهم، لكانوا في حاجة شديدة إلى يوسف آخر يعثرون عليه، لينقذهم من شدتهم ولأوائهم، ويأمرهم بالإتيان بأهلهم أجمعين ، ولا يخفى ما في هذا العمل الذي تكرم به يوسف من نسيان، أو تناسى ما كانوا عملوا معه من بخلهم عليه بوجود شخصه بينهم، فهل آن لنا أن نقتدي بهذا القدوة الطيبة ونتناسى أعمال أعدائنا معنا، لا سيما إذا كانوا من أقاربنا وذوي رحمنا!.

وربما يكون قد سمح عن إخوته ورغب إليهم في رجوعهم لمصر؛ لكي يعيشوا عنده عيشة طيبة، مراعاة لوالده الشيخ الجليل. ولأهل إخوته وسلائلهم، كما قيل: بعلة الزرع يسقي الضرع، وقيل: لأجل الورد يشرب العليق، وأيضا؛ فقد رأى يوسف أنه لا يحسن انفراده بالعيشة بمصر، متمتعا بالنعيم الرغد ، دون إخوته وسلائلهم، وهذا هو مذهب العرب حيث يقول قائلهم:

ولو أني حبيت الخلد فردا

لما أحببت بالخلد انفرادا

فهلا هطلت علي ولا بأرضي

سحائب ليس تنتظم البلادا

وهذا هو تعليم الدين الإسلامي، كما في الحديث الصحيح: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

المال والمنصب والجاه هو لصلاح المعاش في الدنيا، وشرف المنزلة في أعين الناس، فيجب استخدام ذلك كله للأقارب والإخوان، فمن كان له مال أو منصب ولا ينفع بهما ذوي رحمه؛ كان كالذي يعد فقيرا، وإن كان موسرا، ويحسب سوقة، وإن كان ذا ولاية، وإن أولى ما يكون في المال والجاه استخدامهما في سبيل صلة الرحم، واستثمارهما لمنفعة الأقارب؛ فلذلك أراد يوسف أن تشاطره إخوته وأهله جميعا في ثمار هذا المركز، الذي أعطاه الله إياه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-.

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢١١-١٢١٢).

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾.

١٠٤٤/٩٤- آية عظيمة هي حمل الريح ريح يوسف على مسافات بعيدة[١].

قال الفخر الرازي:

«فلذلك قوله: ﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا ﴾ والتحقيق أن يقال: إنه -تعالى- أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات؛ لأن وصول الرائحة إليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة؛ فيكون معجزة ولا بد من كونها معجزة لأحدهما، والأقرب إنها ليعقوب -عليه السلام- حين أخبر عنه ونسبوه في هذا الكلام إلى ما لا ينبغي؛ فظهر أن الأمر كما ذكر؛ فكان معجزة له.

قال أهل المعاني: إن الله -تعالى- أوصل إليه ريح يوسف -عليه السلام- عند انقضاء مدة المحنة ومجيء وقت الروح والفرج من المكان البعيد ومنع من وصول خبره إليه مع قرب إحدى البلدتين من الأخرى في مدة ثمانين سنة، وذلك يدل على أن كل سهل؛ فهو في زمان المحنة صعب، وكل صعب؛ فهو في زمان الإقبال سهل، ومعنى: ﴿ لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾: أشم، وعبر عنه بالوجود ؛ لأنه وجدان له بحاسة الشم»[٢].

قال ابن عاشور:

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٧).

(٢) «تفسير الفخر الرازي» (٩/ ٢١٢).

«ووجدان يعقوب ريح يوسف- عليهما السلام- إلهام خارق للعادة، جعله الله بشارة له إذ ذكره بشمه الريح الذي ضمخ به يوسف- عليه السلام- حين خروجه مع إخوته، وهذا من صنف الوحي بدون كلام ملك مرسل، وهو داخل في قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾.

والريح: الرائحة، وهي ما يعبق من طيب تدركه حاسة الشم.

وأكد هذا الخبر بـ(إن) واللام؛ لأنه مظنة الإنكار، ولذلك أعقبه بـ ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾»[1].

٩٤/١٠٤٥- تجلي الصورة الباهر لحقيقة الألوهية في قلب من قلوب الصفوة المختارة.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٢).

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾.

٩٥/١٠٤٦- توارث بني إسرائيل الجفاء والغلظة والسفه والجهالة.

لقد كان أولاد يعقوب -عليه السلام- غائبين عنه؛ فمن هم الذين خاطبهم يعقوب عليه السلام؟ ...إنهم أحفاده.

وجوابهم لجدهم النبي يعقوب -عليه السلام- يدهشك ويثير استغرابك واستهجانك؛ لأنهم لم يكونوا أقل انتقاداً لجدهم من آبائهم حيث سبقوهم في الجفاء والغلظة والسفه والجهالة والقحة والبهت من ثلاثة وجوه:

١- الحلف باليمين الغموس، وأما آباؤهم؛ فإنما طعنوا طعناً خلواً من اليمين؛ فقالوا: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

٢- المواجهة؛ فإن آباءهم لم يصفوا سيدنا يعقوب بهذا الوصف الشائن إلا في غيبته، ولكن هؤلاء الأحفاد واجهوه به مواجهة، وخاطبوه به خطاباً، ولم يحفظوا منزلة الجدودة وكرامتها، ولم يحترموا له عقيدة ولا مذهباً، ولم يحتملوا أن يسمعوا منه رأيه الذي رأى، قال الشاعر:

وقد أبرَّك من يرضيك ظاهره

وقد أطاعك من يعصيك مستتراً

٣- تسجيلهم على جدهم بأنه عاش- مع الأسف – في ظلال مستمر معه ومنذ ولادة عمهم يوسف بالعراق إلى أن جاء فلسطين إلى أن شُرِّد منها إلى مصر إلى هذا الوقت؛ أي: أنه في ضلاله طيلة (٣٩) سنة، ولذلك وصفوه بالقديم»[(١)].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٣٤-١٢٣٥و١٢٣٦) بتصرف.

٩٥/١٠٤٧- إنه لا ينبغي لنا أن نكافىء السفيه على سفهه بمثله، وإلا أصبحنا شركاء في الخلة التي ننقمها منه.

قال العلمي:

«وأما جدهم؛ فلما سمع ذلك من أحفاده، كبر عليه انتقادهم، وهب جسمه ، وتمرمر في داخله، وتنهد تنهدا عميقا ولم يجبهم بحلوة ولا مرة، كما كان أجاب أولاده الصليبيين قائلا: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ بل اغتفر لهم حديثهم وخشونتهم، وتغاضى عن نغمتهم الجافة اليابسة، واستقبل جفاءهم وغلظتهم بالغض والاحتمال، أو كأنه سكت ولم يجبهم؛ لأنه ذكر أن اعتراضهم عليه، وإن يكن مصيبة من المصائب، لكن لا قيمة لمصائب الحياة، بعد مصابه الذي كان نزل به، بفقدان يوسف، وتسريق بنيامين، واحتباس راوبين، فلم يعلق جدهم أهمية على كلمتهم هذه؛ بل سكت ، وفي سكوته ما يغني عن الجواب، فلعمري أن سكوته عن مجاوبتهم أوجب لامتهانهم من الرد عليهم:

قال الشاعر:

قد أفلح الساكت الصموت
فربما كلمة تميت

ما كل نطق له جواب
جواب ما يكره السكوت

وقال:

وأبعد من ناداك من لا تجيبه
وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

وقال:

إذا كـــان دونـــي مـــن بليـــت بجهلـــه
أبيـــت لنفســـي أن أقـــابل بالجـــهل
وإن كـــان مثلـــي في محـــل مـــن العلـــى
ســـكت إذا حلمـــا وصفحـــا عـــن المثـــل
وإن كنـــت أدنـــى منـــه في الفضـــل والحجـــا
رأيـــت لـــه حـــق التقـــدم والفضـــل

وقد قيل: ما تساب اثنان إلا انحط الأعلى إلى مرتبة الأسفل؛ لذا لم يجبهم جدهم على قولهم: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴾.

وقال حذيفة بن بدر لرجل: أيسرك أن تغلب شر الناس؟ قال: نعم، قال: لن تغلبه حتى تكون شرا منه.

وشتم رجل حكيما، فقال: اسكت؛ فلست أدخل في حرب، الغالب فيها شر من المغلوب.

ومنه نتعلم أنه لا ينبغي لنا أن نكافىء السفيه على سفهه بمثله ، فإنا إن فعلنا قضينا له على أنفسنا، وأصبحنا شركاءه في الخلة التي ننقمها منه، فإن كان أحدنا لا بد منتقما، فليكن مثله مثل الأحنف بن قيس إذ جاءه رجل قد جعل له بعض الناس جعلا على أن يغضبه، فما زال يسبه ويشتمه، ويلح في ذلك إلحاحا محرجا، والأحنف ساكت لا يقول شيئا، حتى ضاق بالرجل أمره، فانقلب إلى قومه باكيا نادما، يأكل إصبعه أكلا، ويقول: والله ما سكت عني إلا لهواني عليه»[١].

٩٥/١٠٤٨- بيان وجوب التأدب مع الوالدين.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٣٥-١٢٣٦).

٩٥/١٠٤٩- بيان أنه قد يأتي الضلال بمعنى الخطأ.

قال ابن عطية:

«وقولهم: ﴿ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَـدِيمِ ﴾ يريدون في انتكافك وتحيرك، وليس هو بالضلال الذي هو في العرف ضد الرشاد؛ لأن ذلك من الجفاء الذي لا يسوغ لهم مواجهته به، وقد تأول بعض الناس على ذلك؛ ولهذا قال قتادة -رحمه الله-: قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله -عليه السلام-، وقال ابن عباس: المعنى: لفي خطئك»[1].

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٧٩).

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

١٠٥٠/٩٦- آية مدهشة وعجيبة من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات.

قال ابن كثير:

«أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذي يلي جسده؛ فيضعوه على عيني أبيه؛ فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب بإذن الله، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات»[1].

قال ابن عاشور:

«...و﴿ أن ﴾ في قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ ﴾ مزيدة للتأكيد. ووقوع ﴿ أن ﴾ بعد (لما) التوقيتية كثير في الكلام كما في «مغني اللبيب».

وفائدة التأكيد في هذه الآية تحقيق هذه الكرامة الحاصلة ليعقوب- عليه السلام-؛ لأنها خارق عادة، ولذلك لم يؤت بـ﴿ أن ﴾ في نظائر هذه الآية مما لم يكن فيه داع للتأكيد.

والبشير: فعيل بمعنى مفعل؛ أي: المبشر، مثل السميع في قول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانه الداعي السميع.

والتبشير: المبادرة بإبلاغ الخبر المسر بقصد إدخال السرور. وتقدم عند قوله -تعالى-: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ في سورة براءة. وهذا البشير

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٢١٦).

هو يهوذا بن يعقوب- عليه السلام- تقدم بين يدي العير؛ ليكون أول من يخبر أباه بخبر يوسف- عليه السلام-.

وارتد: رجع، وهو افتعال مطاوع رده؛ أي: رد الله إليه قوة بصره؛ كرامة له وليوسف- عليه لسلام-، وخارقة للعادة. وقد أشرت إلى ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾»[1].

٩٦/١٠٥١- تصديق قول يوسف في أبيه وتصديق قول أبيه فيه.

قال العلمي:

«وبهذا يكون الله قد صدق قول يوسف: ﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ بالفعل، فيوسف من عباد الله الذين إذا أرادوا أراد، كما أن الله -أيضا- بمجيء البشير بالقميص صدق بالفعل قول يعقوب: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾؛ فيعقوب من الذين إذا وجدوا الشيء تلميحا، وجدوه فيما بعد صريحا»[2].

٩٦/١٠٥٢- غرائب خطيرة ونوادر مثيرة.

قال العلمي:

«وبعد؛ فمن غرائب التاريخ ونوادر الحوادث، أن الذين يحملون القميص هذه المرة (القميص) الحاضر الذي يشير إلى حياة يوسف، وقد نشأ منه سرور أبيهم، هم الذين كانوا حملوا (القميص) الماضي، الذي كان يشير إلى موت يوسف، وقد نشأ عنه حزن أبيهم!!»[3].

٩٦/١٠٥٣- جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والترح.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٣).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٤٢).

(٣) المرجع السابق (٢/ ١٢٤٢).

٩٦/١٠٥٤- جواز الهبة والبذل والعطية عند التبشير بما يسر به الإنسان.

قال القرطبي:

«وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز وأفضل العطايا والذخائر، ودلت هذه الآية: على جواز البذل والهبات عند البشائر، وفي الباب حديث كعب بن مالك -الطويل- وفيه: «فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت ثوبي؛ فكسوتهما إياه ببشارته».

وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به، ودليل على جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والترح، ومن هذا الباب: جواز صداقة الصبيان، وإطعام الطعام فيها، وقد نحر عمر بعد حفظه سورة البقرة جزورا، والله أعلم»[١].

٩٦/١٠٥٥- من كان عبدا ربانيا فإن له أخلاقا ربانية.

٩٦/١٠٥٦- لا ينبغي للإنسان أن ينسب ما عنده من العلم لنفسه؛ فعلم الإنسان إنما هو من عند الله -عز وجل-[٢].

٩٦/١٠٥٧- تتفاوت حظوظ الناس من العلم بحسب قربهم من الله؛ فمن كان أعلم بالله؛ فهو أقرب إليه من سواه، ومن لم يكن على قرب من الله؛ لم يكن عنده من العلم ما ينفعه في دينه ولا دنياه ولا في آخرته[٣].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٦٢).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٦٤-٦٥).

(٣) المرجع السابق (ص٦٥).

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

٩٨/١٠٥٨- بيان تعليل الاعتراف بالذنب؛ لأن الاعتراف شرط التوبة.

قال البقاعي:

«لما سألوه الاستغفار لذنوبهم عللوه بالاعتراف بالذنب؛ لأن الاعتراف شرط التوبة؛ كما قال ﷺ: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»[1] فقالوا- مؤكدين تحقيقا للإخلاص في التوبة-:﴿ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴾؛ أي: متعمدين للإثم بما ارتكبنا في أمر يوسف -عليه السلام-»[2].

٩٨/١٠٥٩- شرط مشروعية الدعاء أن لا يكون الإنسان مصرا على الذنب.

قال العلمي:

«طلبوا الاستغفار من أبيهم؛ لأن ذنبهم هذا لم يكن ظلما لأنفسهم فقط لم يتعد شيء منه إلى أبيهم؛ فيكفي فيه استغفارهم لأنفسهم بأنفسهم - بل كان ظلمهم تعدى إلى إيذاء أبيهم، من حيث أنه أب، له وحده الحق في أن يزيد من المحبة من أولاده لأسباب جوهرية، وحكم عالية يعرفها هو، فكان لا بد من توبتهم وندمهم على ما صدر منهم ، أن يظهروا ذلك لأبيهم؛ ليصفح عنهم فيما اعتدوا به على حقه، ويدعو الله -تعالى- أن يغفر لهم تعديهم عليه

---

(١) وهو قطعة من حديث الإفك؛ أخرجه البخاري (٢٦٦١و٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة.

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ٩٧).

وعلى أخيهم وأخيهم، فإن التوبة عن المعاصي المتعلقة بحقوق الناس لا تكون مقبولة ولا صحيحة؛ إلا بعد استرضاء صاحب الحق»[1].

١٠٦٠/٩٨- تعليل قولهم ﴿ ذُنُوبَنَآ ﴾ بصيغة الجمع.

قال العلمي:

« رب سائل يسأل: لماذا قالوا: ﴿ ذُنُوبَنَآ ﴾ بصيغة الجمع، مع أنه ذنب واحد؟ وجوابنا عن ذلك من ثلاثة وجوه:

١- أنهم أتوا بصيغة الجمع باعتبار أفرادهم؛ لأن كل واحد من العشرة قد اقترف الذنب، فهو نظير: ركب القوم دوابهم، ولبسوا عمائهم.

٢- لأن ذلك الذنب الواحد مريع في الحقيقة، باعتبار أنهم خطئوا إلى الله، وإلى كل من أبيهم وأخويهم ، بل وإلى أشخاصهم وضمائرهم، وشريعتي العقل والنقل.

٣- إن الذي اجترموه ليس هو ذنبا واحدا، بل هو ذنوب كثيرة:

حسدوا أخاهم، بغضوه من غير ما جرم، ضللوا أباهم ضلالا مبينا، تآمروا على قتل أخيهم أو طرحه أرضا أو إلقائه في غيابة الجب، وأخيرا قرروا هذه المشورة النهائية، لعبوا على أبيهم دورا مهما، نصبوا أمامه الأحبولة؛ فاصطادوا فيها أخاهم من بين يديه، وقالوا له: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾، ولكن غشوه إذ وعدوا أنهم سيحفظونه، وأخلفوا وعدهم، وكانوا مصممين على خلف هذا الوعد من البدء، ألقوه فعلا في غيابة الجب ولم يرحموه، وبذلك قطعوا الرحم التي بينه وبينهم، بل والرحم التي بينهم بين أبيهم، عقوا بذلك أباهم، أحزنوا بذلك بنيامين، بكوا كذبا، قالوا: أكله الذئب

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢-١٢٤٩-١٢٥٠).

كذبا، جاؤوا على قميصه بالدم كذبا، أقر بعضهم بعضا على الكذب كذبا، إلى غير ذلك مما ظهر للمتأملين، فلهذا قالوا: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ ﴾ بصيغة الجمع، وكان أقل هذه الجمع ثمانية[1].

٩٧/١٠٦١- لا بد لكل ذنب من توبة.

لقد قال أبناء يعقوب - عليه السلام- ﴿ ذُنُوبَنَآ ﴾ بصيغة الجمع، وكذلك ﴿ خَٰطِـِٔينَ ﴾ بصيغة الجمع مما يدل على أن العبد ينبغي أن يحدث لكل ذنب توبة، والله أعلم.

٩٧/١٠٦٢- سبب طلب الإخوة الاستغفار من أبيهم ولم يطلبوه من أخيهم.

قال العلمي:

«ههنا يتساءل المتسائلون: لماذا لم يطلبوا الاستغفار لأنفسهم من أخيهم، وإنما طلبوه من أبيهم فقط؟.

وجوابنا عنه ما يلي:

لما كان سيدنا يعقوب من جهة رجل دين، ومن جهة أخرى أباهم، رأوه أهلا لأن يسألوه الدعاء لهم، وأما سيدنا يوسف؛ فلما كان من جهة أخاهم الأصغر، ومن جهة ثانية كان في نظرهم رجلا مدنيا، وحاكما إداريا، ووزيرا ماليا، ولم يعلموا -أيضا- أنه نبي؛ لم يطلبوا منه الاستغفار، ولكن ذكروا له ما يسر الرجال المدنيين، والحكام الإداريين، من علو مراتبهم وتقدمهم على الأقران، فقالوا له: ﴿ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾، ومع أنهم لم يروه -في نظرهم-

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١٢٤٨-١٢٤٩).

أهلا أن يكون واسطة بينهم وبين ربهم، فقد رأى هو شخصه أهلا لذلك، لأنه أعرف بنفسه منهم، فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾»[1].

٩٧/١٠٦٣- بيان مذهب السلف الصالح في مسائل الإيمان ومقارنته بمذاهب الفرق.

قال العلمي:

«طلبوا من أبيهم الاستغفار لهم؛ ليكونوا من الناجين، فإن العبد لا ينجو بالإيمان فقط، ولكن به وبترك سيئ الأعمال، وفعل صالحها، والتوبة إلى الله - تعالى-، وهذا هو مذهب (السلف) خلافا (للمرجئة)- وهم طائفة يرجئون الأعمال؛ أي: يؤخرونها؛ فلا يقيمون للأعمال الصالحة وزنا في الخلاص وإن كان لها ثواب، وإنما الخلاص بمحض الإيمان، كما لا يقيمون وزن للمعاصي في الهلاك، وإن كان عليها عقاب، وإنما الهلاك بالكفر فقط، وعليه فهم يقولون: المؤمن يستحق الجنة بالإيمان فقط، دون بقية الطاعات، والكافر يستحق النار بالكفر، دون بقية المعاصي، وكأن مصدر هذا الخلاف، الخلاف فيما هو الإيمان؛ (فالسلف الصالح) يقولون: «الإيمان هو اعتقاد وقول وعمل» (وهؤلاء) يقولون: «الإيمان هو الكلمة والعقد، دون الأعمال»، (والخوارج) يكفرون مرتكب الكبيرة، لجعلهم العمل من الإيمان؛ فهم بعكس المرجئة. وأما (المعتزلة)؛ فهم يقولون في مرتكب الكبيرة أنه منزلة وسطى بين المؤمن والكافر، وأنه يخلد في النار، ولكن عذابه دون الكافر»[2].

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١٢٤٧).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١٢٤٨).

٩٧/١٠٦٤- من آذى مسلما في نفس أو مال أو عرض وجب أن يتحلل منه، ليطمئن إلى أنه قد أسقط حقه عنه[١].

قال القرطبي:

«وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له؛ فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها.

وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف.

والصحيح: أنه لا ينفع؛ فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها، والله أعلم.

وفي «صحيح البخاري»[٢] وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء؛ فليتحلل منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه؛ فحمل عليه».

قال المهلب؛ فقوله ﷺ: «أخذ منه بقدر مظلمته» يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشار إليها مبينة، والله أعلم»[٣].

---

(١) « دروس مستفادة من سورة يوسف » (ص٦٥).

(٢) برقم (٢٤٤٩).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٦٢).

﴿ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

٩٨/١٠٦٥- كرم يعقوب وحسن عفوه وصفحه على أولاده؛ إذ استغفر لهم ربهم؛ فغفر لهم[1].

٩٨/١٠٦٦- بيان استحباب تحري الأوقات الفاضلة والمواسم الشريفة للدعاء؛ فإنها أحرى للقبول والاستجابة.

قال القرطبي:

«قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ ﴾؛ قال ابن عباس: أخر دعائه إلى السحر»[2].

قال القاسمي:

«قيل: في هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة في الدنيا، وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه أحضر فيه قلبا من غيره، أو أنه أفضل وأقرب للإجابة»[3].

٩٨/١٠٦٧- أسباب تسويف يعقوب الاستغفار لأولاده.

قال العلمي:

«أجابهم بالتسويف والمماطلة لأسباب:

١- ليتعرف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها؛ لأنه ما من شيء يفنى في الطبيعة، وإنما الأشياء تتبدل مظاهرها.

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٦٢-٢٦٣).

(٣) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٧٨)، وانظر «نظم الدرر» (٤/ ٩٧-٩٨).

٢- لحينما يذهب إلى المعبد الذي كان عمله بالحجر حينما كان مسافرا من فلسطين إلى العراق إلى خاله «لابان»، وكان هذا المكان على غاية اثني عشر ميلا من «القدس» وعلى الشمال منها على جبل أفرايم، وبعبارة أوضح: هذا المكان يسمى «بيت إيل» وهو إلى شرقي خط يمتد من «القدس» إلى «نابلس» على بعد واحد من كلتا المدينتين، ويسمى اليوم: «بتير».

٣- لحينما يصل في طريقه لمصر إلى «بئر السبع» فيدخل المعبد الذي كان بناه إبراهيم وإسحاق -عليهما السلام- وهناك يستغفر لهم؛ لأنه لا يرى أنسب وأقرب لإجابة الدعاء من أن يكون في المعبد الديني، فكأنه رأى أن طلبتهم هذه سابقة لمكانها، ومكانها هو هذا المعبد، قال أبو الطيب المتنبي:

ومن الخير بطء سيبك عني

أسرع السحب في المسير الجهام

أي: تأخر عطائك عني يدل على كثرة ذلك العطاء؛ لأن أسرع السحائب سيرا أقلها ماء.

٤- لبعد ما يجتمع بيوسف ويراه قد صفح عنهم تماما، وحينئذ يكون العدل قد استوفى حقه،لم يبق إلا حق الله -تعالى-؛ فلا يكون بعد مانع من استغفار الله -تعالى- لهم.

٥- أخر ذلك جريا مع طبع الشيخوخة التي تتطلب التؤدة والتأني في سائر الأمور مطلقا.

٦- لحين تكون فيه الإجابة أقرب؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾؛ لأن النفس تكون حينئذ أصفى، والقلب أفرغ من الشواغل، كما نقل عن بعضهم أنه قال: «لولا صحبة الأخيار، ومناجاة الحق في الأسحار؛ ما أحببت البقاء في هذه الدار».

٧- شرط مشروعية الدعاء أن لا يكون الإنسان مصرا على الذنب، وبما أن أباهم لم يرهم في حال تدل على الإقلاع والندامة بـالمرة، بخلاف يوسف؛ فإنه ربما يكون قد رآهم، بحال تدل على الإقلاع والندامة، إذ يجوز أن يكونوا قد خشعوا وخضعوا وبكوا أمام أخيهم يوسف، فرأى أنه لا مانع شرعا من أن يطلب لهم المغفرة، ولكنهم أمام أبيهم لم يخشعوا ذلك الخشوع ولم يخضعوا ذلك الخضوع؛ لأن لهم مع أبيهم حرية أكثر من حريتهم مع أخيهم؛ فلذلك أخر أبوهم الاستغفار لهم حتى يتأكد توبتهم النصوح، وندمهم الخالص، لا سيما وقد سبق أنه رأى منهم الحيل، وجرب عليهم الختل، وأنهم يظهرون خلاف ما يبطنون.

٨- يرى بعض الناس -ولعل سيدنا يعقوب منهم- أن الوعد بالخير أفضل من إعطائه بغتة، مثلا: منصور بن زياد كلم يحيى بن خالد في حاجة رجل، فقال له: عده عني قضاءها فقال منصور بن زياد: وما يدعوك إلى العدة مع القدرة؟، فقال: هذا قول من لا يعرف موقع الصنائع من القلوب، إن الحاجة إذا لم يتقدمها وعد ينتظر به نجحها لم تتحدث النفس بسرورها، إن الوعد مطعم، والإنجاز طعام، وليس من فاجأه طعام، كمن وجد رائحته، وتطعمه ثم طعمه، فدع الحاجة تختمر بالوعد، ليكون لها عند المصطنع حسن موقع، ولطف محل.

وقال بعض البلغاء: دع الوعد يركض ثلاثا؛ فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل»[١].

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٥٢-١٢٥٤).

٩٨/١٠٦٨- يؤخذ منها أن طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منه عند الشيوخ.

قال العز بن عبد السلام:

«﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ ﴾ أخره إلى صلاة الليل، أو السحر، أو ليلة الجمعة مروي عن الرسول[1] ﷺ أو دافعهم بالتأخير.

قال عطاء: طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ، ألا ترى قول يوسف: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾؟ وقول يعقوب ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ ﴾؟»[2].

قال البقاعي:

«قيل: يؤخذ منها أن طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منه إلى الشيوخ»[3].

٩٨/١٠٦٩- أن الدعاء في الأوقات الفاضلة معروف في السنة[4]، ومنه شرع الاستغفار بالسحر، وعقب الصلوات، وفي السجود، وعند الأذان، وبينه وبين الإقامة، وعند الإفطار في الصيام أقرب للإجابة مما عداها[5].

---

(١) لا يصح بل هو موضوع.

(٢) «تفسير سلطان العلماء» (٢/ ١٣٩).

(٣) «نظم الدرر» (٤/ ٩٨).

(٤) انظر-لزاما- «النبذ المستطابة في الدعوات المستجابة» سليم بن عيد الهلالي، وكذا كتاب «هداية الحيران إلى حكم ليلة النصف من شعبان» محمد موسى نصر.

(٥) «دروس مستفادة من سورة يوسف » (ص٦٦).

قال السمرقندي:

«يعني: عند السحر أستغفر لكم، ويقال: معناه سوف أستغفر لكم إن شاء الله على وجه التقديم في قوله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾؛ فأخر الاستغفار إلى أن قدموا مصر؛ فاستغفر لهم ليلة الجمعة عند السحر»[1].

١٠٧٠/٩٨- بيان أن الله غافر الذنب وقابل التوب من عباده إذا هم استغفروه وتابوا إليه سبحانه و-تعالى-[2].

١٠٧١/٩٨- وجوب الاستغفار عند الذنب وندبه واستحبابه في سائر الأوقات لما يحصل من التقصير[3].

---

(١) «السمرقندي» (٢/ ١٧٦).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٦٥).

(٣) «أيسر التفاسير» (٥/ ٤٦٢).

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

٩٩/١٠٧٢- مشروعية الخروج خارج المدينة لاستقبال أهل الكمال والفضل[(١)].

٩٩/١٠٧٣- المسلم البار بأبويه يحسن استقبالهما، ويحتفي بهما عندما يقومان بزيارته، ولا ينتظر حتى يصلا إلى بيته؛ ليظهر لهما حفاوته، بل يسارع بالخروج إليهما ، ولا يسمح بأي حال إلا أن يبيتا عنده؛ إكراماً لهما وبراً بهما[(٢)].

٩٩/١٠٧٤- يلتمس العبد المؤمن من الله وحده الأمن والأمان ، وإن كان قد بذل الجهد في اتخاذ الأسباب التي تشيع الأمن بين الناس، وخصوصاً إذا كان ذلك العبد في مركز القوة ويتمتع بالسلطان، فإنه لا يتمتع بالإحساس بالأمن إلا إذا لجأ إلى الله وطلب منه أن يسبغه عليه[(٣)].

٩٩/١٠٧٥- بيان أن الأمن هو ملاك العافية، وبها لذة العيش، وأن الرفعة بها كمال النعيم في الدنيا إلى حين[(٤)].

قال ابن عاشور:

«والأمن: حالة اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٧).

(٢) « دروس مستفادة من سورة يوسف » (ص٦٦).

(٣) المرجع السابق (ص٦٦).

(٤) المرجع نفسه (ص٦٦).

ونحو ذلك، ولذلك قالوا في دعوة إبراهيم- عليه السلام-:﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ [البقرة:١٢٦] إنه جمع في هذه الجملة جميع ما يطلب لخير البلد»[(١)].

٩٩/١٠٧٦- وجوب التأدب مع الله في الخطاب.

قال ابن عاشور:

«وجملة ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ : تأدب مع الله؛ كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمن، فوقوعه في الوعد والعزم والدعاء بمنزلة وقوع التسمية في أول الكلام، وليس هو من الاستثناء الوارد النهي عنه في الحديث: أن لا يقول: اغفر لي إن شئت؛ فإنه لا مكره له[(٢)]؛ لأن ذلك في الدعاء المخاطب به الله صراحة»[(٣)].

٩٩/١٠٧٧- حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة.

قال ابن كثير:

«وهذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة... فجاءوا كلهم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ اجتمع بهما خصوصا وحدهما دون إخوته ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾»[(٤)].

٩٩/١٠٧٨- الخالة بمنزلة الأم.

قال ابن عاشور:

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

وأخرجه البخاري (٦٣٨)، ومسلم (٢٦٧٨) من حديث أنس -رضي الله عنه-.

(٣) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٥-٥٦).

(٤) «البداية والنهاية» ٢/ ٢١٧-٢١٨).

«وأبواه: أحدهما يعقوب -عليه السلام- وأما الآخر؛ فالصحيح: أن أم يوسف- عليه السلام- هي (راحيل) توفيت قبل ذلك حين ولدت بنيامين، ولذلك قال جمهور المفسرين: أطلق الأبوان على الأب وزوج الأب وهي (ليئة) خالة يوسف- عليه السلام- وهي التي تولت تربيته على طريقة التغليب والتنزيل»[(١)].

قال العلمي:

«من هي أم يوسف التي آواها إليه؟

الكتاب الكريم يقول: ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ وإنه لمعلوم أن أباه هو سيدنا يعقوب، ولكن من هي أمه هذه التي حضرت لمصر؟

قيل: هي أمه الحقيقية (راحيل)، ولكن ورد في كتب المؤرخين تبعا لسفر التكوين: أن راحيل توفيت وعمر يوسف عشر سنين...

وقيل: إن أمه التي حضرت لمصر هي «ليئة» أخت «راحيل»؛ لأن الخالة أم؛ كما أن العم أب، وقد سمى النبي ﷺ عمه العباس أباه، وقال -تعالى-: ﴿ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ ﴾، ولكن ورد في التواريخ تبعا لسفر التكوين أن «ليئة» ماتت قبل رحلة يعقوب لمصر، ودفنت في الغار الشريف.

وقيل: إن المراد من أمه التي حضرت لمصر« بلهة» جارية أمه، ومربيته حال حياة أمه وبعد وفاتها، لا سيما أنه بعد وفاتها قد انتقل هو وأخوه بنيامين، لخيمتها، والمربية أو الرابة تدعى أما؛ لقيامها مقام الأم، كما كان

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٥).

هارون الرشيد يدعو عبادة امرأة يحيى البرمكي- أما له: لأنها كانت أرضعته، وهذا هو الصحيح...»[١].

قلنا: لا مجال للاحتمال؛ فالأصل إعمال ظاهر القرآن والوقوف عند صريح الآيات.

٩٩/١٠٧٩- بجيرانها تغلو الديار وترخص.

قال العلمي:

«رحل يعقوب -عليه السلام- من أرض الشام مع أنها أرض الميعاد، وهي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين؛ حبا بولده يوسف، بجيرانها تغلو الديار وترخص.

والجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق، والمؤجر قبل المؤخر، وأخيرا قال -تعالى-: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم: ١٣][٢].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٦٠-١٢٦١).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١٢٦١).

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

١٠٨٠/١٠٠- وجوب إكرام الوالدين بوضعهما وإجلاسهما بمكان مرتفع أدبا معهما.

١٠٨١/١٠٠- صدق رؤيا يوسف -عليه السلام- إذ تمت حرفيا؛ فجلس يوسف على عرشه، وخر له أبواه وإخوته ساجدين(١).

١٠٨٢/١٠٠- الرؤيا تأويلها يكون على خير بين قريب وبعيد.

قال ابن عاشور:

«والذين خروا سجدا هم أبواه وإخوته؛ كما يدل له قوله: ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ ﴾ وهم أحد عشر وهم: راوبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويساكر، وربولون، وجاد، وأشير، ودان، ونفتالي، وبنيامين، والشمس، والقمر، تعبيرهما: أبواه يعقوب -عليه السلام-، وراحيل»(٢).

١٠٨٣/١٠٠- اختصار يوسف القول في جلسة الاتهام وتبسطه فيه في جلسة الختام.

قال العلمي:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٧).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٦).

«نرى يوسف -عليه السلام- قد اندفع في خطابه الذي ألقاه بحضور أهله جميعاً كالسيل المنهمر، ورزق نشاطاً أيما نشاط، بخلاف وقفته وهو لدى الباب بين يدي العزيز، حينما قالت زليخا: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾؛ فإننا رأيناه في ذلك الموقف قد اختصر القول اختصاراً؛ إذ قال: ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ وسكت، فأين ذلك الانقباض والاختصار في القول، من هذا التبسط والاندفاع فيه؟ فهو قد أنشأ هنا خطاباً أطنب فيه أي إطناب.

ولعل السر في هذا الإطناب هو سروره وفرحه بأبيه وذويه، والسر في اختصاره فيما سبق، حصره وانقباضه؛ لكونه كان عبداً خادماً، ويعجبني ههنا قول القائل:

في انقباض وحشمة فإذا
صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها
وقلت ما قلت غير محتشم

وأيضاً أين مقامه وهو عبد خادم من مقامه وهو سيد مخدوم؟!

وأين مقامه وهو حاكم من مقامه وهو محكوم؟

وأين مقامه وهو يتكلم بين يدي أهله، من مقامه وهو يتكلم بين خصومه وعدويه؟

وأخيراً: أين مقامه وهو صبي يافع، من مقامه وهو رجل كهل»[1].

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٦٧-١٢٦٨).

١٠٨٤/١٠٠- أن الانقياد والمبالغة في التعظيم بالانحناء قد يعبر عنه بالسجود وكان عادة أهل الشام ومصر.

قال محمد رشيد رضا:

«﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ والسجود التطامن والانحناء الذي سببه الانقياد والخضوع أو المبالغة في التعظيم، وأصله قولهم : سجد البعير إذا أخفض رأسه لراكبه عند ركوبه، وكان من عادات الناس في تحية التعظيم في بلاد فلسطين ومصر وغيرها»[١].

قال السمرقندي:

﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾، ورفع أبويه على العرش، وكانت تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف، فسجد إخوته وأبوه وخالته»[٢].

قال ابن عاشور:

«وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم. ولم يكن يومئذ ممنوعاً في الشرائع، وإنما منعه الإسلام لغير الله تحقيقاً لمعنى مساواة الناس في العبودية والمخلوقية. ولذلك فلا يعد قبوله السجود من أبيه عقوقاً؛ لأنه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم»[٣].

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١٢/ ٢٥٣)، وانظر«تفسير سلطان العلماء» (٢/ ١٤٠)، و« فتح القدير» (٣/ ٢٨٢).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧٧).

(٣) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٦).

١٠٨٥/١٠٠- قد يتأخر تأويل الرؤيا عشرات السنين إذ تأخرت رؤيا يوسف أربعين سنة[١].

١٠٨٦/١٠٠- بيان تجليات الألطاف الإلهية والرحمات الربانية في هذه القصة في مظاهر عجيبة [٢].

١٠٨٧/١٠٠- أنه يكره التذكير بالإساءة بعد العفو عن صاحبها.

قال القرطبي:

«قوله -تعالى-: ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ ﴾ ولم يقل: من الجب استعمالا للكرم؛ لئلا يذكر إخوته صنيعهم بعد عفوه عنهم بقوله: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ﴾»[٣].

قال أبو حيان:

«ذكر إخراجه من السجن، وعدل عن إخراجه من الجب صفحا عن ذكر ما تعلق بقول إخوته، وتناسيا لما جرى منهم؛ إذ قال: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ ﴾، وتنبيها على طهارة نفسه وبراءتها مما نسب إليه من

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٧)، و«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٦٨).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٧)، و«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٦٨).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٦٧).

المراودة، وعلى ما تنقل إليه من الرياسة في الدنيا بعد خروجه من السجن، بخلاف ما تنقل إليه بالخروج من الجب إلى أن بيع مع العبيد»[(١)].

قال ابن عاشور:

«فإن (إذ) ظرف زمان لفعل أحسن؛ فهي بإضافتها إلى ذلك الفعل اقتضت وقوع إحسان غير معدود، فإن ذلك الوقت كان زمن ثبوت براءته من الإثم الذي رمته به امرأة العزيز وتلك منة، وزمن خلاصه؛ من السجن فإن السجن عذاب النفس بالانفصال عن الأصدقاء والأحبة، وبخلطة من لا يشاكلونه، وبشغله عن خلوة نفسه بتلقي الآداب الإلهية، وكان -أيضا- زمن إقبال الملك عليه، وأما مجيء أهله؛ فزاول ألم نفساني بوحشيته في الانفراد عن قرابته وشوقه إلى لقائهم، فأفصح بذكر خروجه من السجن، ومجيء أهله من البدو إلى حيث هو مكين قوي.

وأشار إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجب، ومشاهدة مكر إخوته به بقوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾، فكلمة ﴿ بَعۡدِ ﴾ اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره. وقد ألم به إجمالا اقتصارا على شكر النعمة وإعراضا عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته، فمر بها مر الكرام، وباعدها عنهم بقدر الإمكان، إذ ناطها بنزغ الشيطان»[(٢)].

١٠٨٨/١٠٠- بيان نسبة النزغ إلى الشيطان وأسنده إليه ؛ لأنه بوسوسته وإلقائه.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٢٨)، وانظر «نظم الدرر» (٤/ ٩٩)، و«محاسن التأويل» (٦/ ٢٨١).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٧).

قال أبو حيان:

«وأسند النزغ إلى الشيطان؛ لأنه الموسوس؛ كما قال: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا ﴾ وذكر هذا القدر من أمر إخوته؛ لأن النعمة إذا جاءت أكثر شدة وبلاء كانت أحسن موقعا»[1].

قال القاسمي:

«﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ﴾؛ أي: أفسد ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾؛ أي: الحسد، وأسنده إلى الشيطان؛ لأنه بوسوسته وإلقائه، وفيه تفاد عن تثريبهم أيضا، وإنما ذكره؛ لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعا»[2].

١٠٨٩/١٠٠- بيان أن حصول النعمة بعد البلاء أو على أثره أحسن موقعا[3].

١٠٩٠/١٠٠- بيان أن الانتقال من البادية نعمة؛ وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء والبعد عن موارد العلوم وعن رفاهية المدينة.

قال القاسمي:

«ويستدل على أن الانتقال منه نعمة، وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء والبعد عن الموارد وعن رفاهية المدينة، ولطف المعاشرة والكمالات الإنسانية، وروى الجرير:

أرض الحراثة لو أتاها جرول ... أعني الحطيئة لا غتدى حراثا

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٢٨).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٨١).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٣٢٩)، و«محاسن التأويل» (٦/ ٢٨١).

مـــا جئتـــها مـــن أي وجـــه جئتـــها
إلا حســـــبت بيوتـــــها أجداثـــــا

وفي الحديث: «من بدا جفا»[١]؛ أي: من حـل الباديـة؛ ففـي هـذا دليـل على حسن النقلة من البوادي إلى المدن»[٢].

قال ابن عطية:

«وقوله: ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ يعم جمع الشمل والتنقل من الشـقاوة إلى النعمة بسكن الحاضرة، وكان منزل يعقوب -عليه السلام- بأطراف الشام في بادية فلسطين، وكان رب إبل وغنم وبادية»[٣].

قال ابن عاشور:

«والمجـيء في قولـه: ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ نعمـة، فأسـنده إلى الله -تعالى- وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو.

والبدو: ضد الحضر، سمي بدوا؛ لأن سكانه بادون؛ أي: ظاهرون لكل وارد، إذ لا تحجبهم جدران، ولا تغلـق عليـهم أبـواب. وذكـر «مـن البـدو»؛ إظهار لتمام النعمة؛ لأن انتقال أهل البادية إلى المدينة ارتقاء في الحضارة»[٤].

قال العلمي:

«عدم ممانعة الدين الإسلامي التمتع بحياة المدن الإجتماعية:

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (١٢٧٢).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٨٢).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٨٢).

(٤) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٨).

تعليقا على قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ إذ اعتبر يوسف مجيء أبويه وإخوته من عيشة البداوة إلى عيشة الحضارة: ذات الأنس والحبور والحياة الاجتماعية والسرور، إحسانا به.

هذا وإن الدين لا يمنع من العناية بذلك؛ ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾، وإذا كان الله يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾؛ فهل المسلم خارج عن دائرة هؤلاء المخاطبين؟ وإذا كان الله يمتن على عباده بالظلال والكهوف والثياب التي تستر العورة؛ كما قال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾، فكم تكون منته عليهم إذا سكنوا في المدن، وتمتعوا بما فيها من مرافق الحياة؟ وإذا كان الله قد امتن على أهل البوادي بجمال الحيوانات؛ كما قال: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦﴾؛ فكم كون منته على الناس بما حوته المدن من مظاهر السرور، ومجالي شرح القلوب؟»[1].

قال العلمي:

«النزغ دخول في أمر لإفساده، نزغ: أفسد وأغرى، وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجري... وغلب استعماله بالشر فقط، وبناء عليه؛ فنزغ الشيطان: إفساده وإغراؤه، وأما ما يروونه من حديث: «اختلاف أمتي

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٧٦-١٢٧٧).

رحمة»؛ فقال الحافظ السخاوي: «زعم كثير من الأئمة، أنه لا أصل له»، وهذا القول هو الصواب[1].

كيف والله -تعالى- يقول: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾؟! وكيف يقال: الاختلاف رحمة: والله يقول: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ ﴾؟! والثابت بالشرع والعقل والتجربة: أن الاختلاف نقمة، وبسببه تفرقت الكلمة وذهبت الريح والشوكة، إلى أن وصلنا إلى هذه الدرجة من الضعف، وذهب ملكنا، وصارت المملكة الكبيرة من ممالكنا، تقع في قبضة الأجانب، فلا يبالي سائر المسلمين بذلك، فأين الوحدة والأخوة والتواد والتراحم وتمثيل مجموعهم بالجسد الواحد؟ كل ذلك قد زال، وكان مبدأ زواله الاختلاف»[2].

١٠٩١/١٠٠- الأعمال بخواتيمها.

قال أحمد نوفل:

«وبنهاية القصة يتكشف رمز الحلم؛ فلقد أصبح يوسف متحكماً في خزائن مصر ولقاء الأب بالابن، ولم شمل الأسرة، وكلا البداية والنهاية تسير في خطوط متوازية؛ مما يدل على بناء محكم وتصميم متقن وفن رائع سبق زمانه وما يزال، تنزيل من حكيم حميد»[3].

١٠٩٢/١٠٠- فوائد تعدي الإحسان بالياء.

---

(١) وانظر «سلسلة الأحاديث التي لا أصل لها»، سليم بن عيد الهلالي.

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٧١).

(٣) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص ٣٩).

قال أبو السعود:

﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ ﴾ المشهور استعمال الإحسان بإلى، وقد يستعمل بالباء -أيضا- كما في قوله عز وجل اسمه: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴾، وقيل: هذا يتضمن لطف وهو الإحسان الخفي؛ كما يؤذن به قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾، وفيه فائدة لا تخفى؛ أي: لطف بي محسنا إلى غير هذا الإحسان»[(١)].

قال العلمي:

«الإحسان يتعدى بالباء وبإلى:

تعليقا على قوله: ﴿ أَحۡسَنَ بِيٓ ﴾ الإحسان يتعدى بالباء وبإلى، فيقال أحسن إليه وأحسن به، وكذلك أساء إليه وأساء به، قال الشاعر: أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة، والأول أبلغ؛ لأن من أحسن به الله هو من يتصل به بره، وحسن معاملته، ويلتصق به مباشرة على مقربة منه، وعدم انفصال عنه، وأما من أحسن الله إليه؛ فهو الذي بره، ولو على بعد، أو بالواسطة، إذ هو شيء يساق إليه سوقا، ونظير ما هنا قوله -تعالى-: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣][(٢)].

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٣٠٧).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٦٩-١٢٧٠).

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

١٠٩٣/١٠١- الشكر بريد المزيد.

قال ابن عاشور:

«أعقب ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمى في الآخرة، فذكر ثلاث نعم: اثنتان دنيويتان؛ وهما: نعمة الولاية على الأرض، ونعمة العلم. والثالثة أخروية وهي: نعمة الدين الحق المعبر عنه بالإسلام.

وجعل الذي أوتيه بعضا من الملك ومن التأويل؛ لأن ما أوتيه بعض من جنس الملك، وبعض من التأويل؛ إشعارا بأن ذلك في جانب ملك الله وفي جانب علمه شيء قليل.

وعلى هذا، يكون المراد بالملك التصرف العظيم الشبيه بتصرف الملك إذ كان يوسف -عليه السلام- هو الذي يسير الملك برأيه. ويجوز أن يراد بالملك حقيقته، ويكون التبعيض حقيقيا؛ أي: آتيتني بعض الملك؛ لأن الملك مجموع تصرفات في أمر الرعية، وكان ليوسف -عليه السلام- من ذلك الحظ الأوفر، وكذلك تأويل الأحاديث.

وتقدم معنى تأويل الأحاديث عند قوله -تعالى-: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ في هذه السورة.

و﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ نداء محذوف حرف ندائه.

والفاطر: الخالق. وتقدم عند قوله -تعالى-: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:١٤].

وجملة: ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [يوسف:١٠١] من قبيل الخبر في إنشاء الدعاء، وإن أمكن حمله على الإخبار بالنسبة لولاية الدنيا، قيل لإثباته ذلك الشيء لولاية الآخرة. فالمعنى: كن وليي في الدنيا والآخرة»[١].

١٠٩٤/١٠١- الدين الحق هو النعمة العظمى.

قال ابن عاشور:

«وأشار بقوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ إلى النعمة العظمى وهي نعمة الدين الحق، فإن طلب توفيه على الدين الحق يقتضي أنه متصف بالدين الحق المعبر عنه بالإسلام من الآن، فهو يسأل الدوام عليه إلى الوفاة.

والمسلم: الذي اتصف بالإسلام، وهو الدين الكامل، وهو ما تعبد الله به الأنبياء والرسل -عليهم السلام-، وقد تقدم عند قوله -تعالى-: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢].

والإلحاق: حقيقته جعل الشيء لاحقا؛ أي: مدركا من سبقه في السير.

وأطلق هنا مجازا على المزيد في عداد قوم.

والصالحون: المتصفون بالصلاح، وهو التزام الطاعة.

وأراد بهم الأنبياء؛ فإن كان يوسف- عليهم السلام- يومئذ نبيئا؛ فدعاؤه لطلب الدوام على ذلك، وإن كان نبيء فيما بعد؛ فهو دعاء بحصوله، وقد صار نبيئا بعد ورسولا»[٢].

١٠٩٥/١٠١- مشروعية دعاء الله -تعالى- والتوسل بأسمائه وصفاته[٣].

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٥٩).

(٢) المرجع السابق (١٣/ ٦٠).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٨).

١٠١/١٠٩٦- مشروعية العزوف عن الدنيا والرغبة عنها عند تحصيلها والتمكن منها[١].

١٠١/١٠٩٧- الأنبياء يسألون الله أحسن الدعاء، وطلب حسن الخاتمة بالإسلام من أجل ما يسأل الله به؛ فهم قد سنوا هذه السنة الحسنة.

قال ابن قيم الجوزية:

«جمعت هذه الدعوة: الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء»[٢].

١٠١/١٠٩٨- فضل الشوق إلى الله -تعالى- والحنين إلى رفقة الصالحين في الملكوت الأعلى.

١٠١/١٠٩٩- غاية المؤمن الوفاة على الإسلام الذي ارتضاه الله للخلق فمن مات يهوديا أو نصرانيا لم يفلح أبدا، وكذا من مات مشركا.

١٠١/١١٠٠- فيه رد على من أنكر قدرة الدين على إدارة أمور الحكم.

١٠١/١١٠١- الثناء على الله وتعداد نعمه قبل سؤاله ودعائه، وهذا من أدب الأنبياء مع ربهم، بين يدي دعائهم وسؤالهم، وكذلك ينبغي أن يكون المسلم مع ربه.

١٠١/١١٠٢- مشروعية سؤال الموت؛ إن لم يكن لضرر أو ملل من العبادة أو رغبة في الراحة.

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤٨).

(٢) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٧٦).

١١٠٣/١٠١- بيان أنه دعا بذلك مع علمه؛ إظهارا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب الخاتمة وتعليما للأمة.

١١٠٤/١٠١- بيان أنه من أحب لقاء الله أحب الله لقائه.

١١٠٥/١٠١- دين الأنبياء واحد، وهو: الإسلام، وهو الدين الذي ارتضاه الله -تعالى- لجميع خلقه.

١١٠٦/١٠١- فيه الرد على دعاة توحيد الأديان، والتسوية بينها وبين الإسلام، كما عليه الماسونية وأتباعها من الساسة العلمانيين الذين لا يفرقون بين التوحيد ودعاة التثليث، ولا يميزون بين المسلمين والمجرمين ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الصافات:١٥٤]، ويقول -تعالى-: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة:١٣٣].

قال العلمي:

«الإسلام دين جميع الرسل:

الإسلام ليس بدين جديد، وإنما هو الدين الذي أوحاه الله لجميع رسله، فحرفه أتباعه، ثم أنزل إلى خاتم النبيين أخيرا؛ لإحداث إصلاح ديني عام، لسائر الملل: شرقيها وغربيها، ولذلك جعلت قاعدته الإيمان بسائر رسل الله، من نعرف أسماءهم، ومن لا نعرف أسماءهم، وبجميع كتب الله، بأي لغة كانت، فالمسلم ليس تابعا لدين من ضمن الأديان المنعزلة المتعادية، ولكن للدين الأصلي، الجامع لسائر الأديان، والمسلم بهذا الاعتبار، يجد في نفسه قيمة لم يحس بها من قبل، لأنه يرى نفسه عاما لا خاصا، يرى نفسه متبعا دينا، في نفسه دين الكل، فمن كان كذلك؛ فلا يتحامل على الأديان؛ لأنه أمر

بأن يؤمن بها كلها، وأن يكون منها بالمركز الأوسط مكتفيا بما في كتابه من خلاصاتها، ومن أدرك من الناس مقامه في هذا المركز الأوسط العام، وشعر أنه في مجتمع أميال الأمم وفي نقطة تلاقي مراميها، واتحاد أفئدتها - في يوم من الأيام-؛ فلا يهون على نفسه أن يميل عنه إلى نقطة متطرفة، ولو سيق إليها بقوة قاهرة؛ المسلم لا يقول كما قالت اليهود: ﴿ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [البقرة:١١٣]، ولا يقول كما قالت النصارى: ﴿ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [البقرة:١١٣]، ولكنه يقول: إن اليهود على شيء، والنصارى على شيء، ولكن قد امتدت أيدي التحريف والزيادة والنقصان في كتبهم.

المسلم يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٦٢].

المسلم لا يعتقد أن مفاتيح الجنة في قبضة يده، وأن مواهب الله منحصرة فيه، حتى يقول كما قالوا: ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١]، بل يقول: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢].

الإسلام إنما جاء بالإصلاح العام، لسائر الأديان البشرية، لا أنه دين منعزل مثل سائر الأديان، الإسلام هو مؤسسة ديانة كبيرة، وهو قديم، وهو دين الأنبياء والرسل الأقدمين، قال -تعالى-: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣]، وقال -تعالى-: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ

عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٣]، وقال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال نوح -عليه السلام-: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، وقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، وقال عن السحرة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦]، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤]، وقال -تعالى-: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة:١١١].

المسلم -هو المسلم لإرادة الله -تعالى-، هو الذي أسلم وجهه لخالق السماوات والأرض، والإسلام ليس هو دين النبي ﷺ خاصة، بل هو دين جميع الأنبياء الذين أتوا قبله، فكما هو دين الأمة المحمدية اليوم، فقد كان دين اليهود والنصارى وغيرهم، ولكن دخل على دين اليهود شيء من الديانة المدعوة «مسورا» وإن شئت قلت: التلمود؛ أي: أقوال علماء اليهود وتفاسيرهم على التوراة، وبهذا خرجوا عن الإسلامية التي يريدها الله -تعالى-

كما أن الديانة النصرانية خرجت على الإسلامية المرادة لله، بسبب التعاليم السرية، والأفكار التي أذاعها «بولس»، والأغلاط الفظيعة التي أدخلها عليها شِيَع النصارى»[(١)].

١١٠٧/١٠١- فيه بطلان ما عليه اليهود والنصارى، ونسبة أبينا إبراهيم الخليل وأبنائه وأحفاده إلى ما هم عليه من الشرك والوثنية ومخالفة التوحيد ومعاداة الإسلام وأهله.

١١٠٨/١٠١- لا بد بعد تمام النعمة من الدعاء وسؤال الله الثبات على الإسلام حتى الممات.

قال الزمخشري :

«﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسن، كما قال يعقوب لولده: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣١]؛ ويجوز أن يكون تمنياً للموت على ما قيل ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من آبائي أو على العموم»[(٢)].

قال السعدي:« أي: أدم عليَّ الإسلام وثبتني حتى تتوفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار»[(٣)].

قال ابن عطية:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٩٦-١٢٩٨).

(٢) «الكشاف» (٢/ ٢٧٦).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٠)، و «فوائد مستنبطة من قصة يوسف» (ص٦١).

«وقال ابن عباس: «لم يتمن الموت نبي غير يوسف»»، وذكر المهدوي تأويلا آخر -وهو الأقوى عندي- أنه ليس في الآية تمني موت ؛ وإنما عدد يوسف -عليه السلام- نعم الله عنده، ثم دعا أن يتم عليه النعم في باقي عمره؛ أي: ﴿ تَوَفَّنِي ﴾ -إذا حان أجلي- على الإسلام واجعل لحاقي بالصالحين، وإنما الموافاة على الإسلام لا الموت.

وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به»[١] الحديث بكماله.

وروي عنه -عليه السلام- أنه في بعض دعائه قال: «وإذا أردت في الناس فتنة؛ فاقبضني إليك غير مفتون»[٢].

قال القاضي أبو محمد: فيشبه أن قول النبي ﷺ: «لضر نزل به»، إنما يريد ضرر الدنيا؛ كالفقر والمرض ونحو ذلك، ويبقى تمني الموت مخافة فساد الدين مباحا، ويدلك على هذا قول النبي -عليه السلام-: «يأتي على الناس زمان يمر فيه الرجل بقبر الرجل؛ فيقول: يا ليتني مكانه ليس به الدين، لكن ما يرى من البلاء والفتن»[٣].

قال القاضي أبو محمد:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس -رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥) وغيره من حديث معاذ بن جبل -رضي الله عنه-.

(٣) أخرجه البخاري (٧١١٥)، ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

«فقوله: «ليس به الدين»؛ يقتضي إباحة ذلك أن لو كان عن الدين وإنما ذكر رسول الله ﷺ حال الناس كيف تكون»[١].

١٠١/١١٠٩- جواز تمني الموت مخافة فساد الدين عند الفتن مباح.

١٠١/١١١٠- لا ينسى العبد الصالح ذكر ربه بل يبقى لسانه رطبا بذكر الله، فإذا بلغ مقاما عليا، فإن جاه المنصب وعز السلطان لا ينسيه ذكر فضل ربه عليه، ولا تحجب النعمة قلبه عن المنعم[٢].

١٠١/١١١١- إن مهمة الشيطان إفساد ذات البين، وإيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين؛ فعلى كل مؤمن أن يحذر من وسوسة الشيطان في ضرره، وذلك بأن كل مؤمن للنفس الأمارة بالسوء وكل وسواس يوسوس في الصدر[٣].

عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: أتى النبي ﷺ أعرابيا؛ فأكرمه، فقال رسول الله ﷺ: «سل حاجتك»، فقال: ناقة برحلها وأعنزا يحلبها أهلي. فقال رسول الله ﷺ: «أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل»؟ فقال أصحابه: يا رسول الله وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: «إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلوا الطريق فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: نحن نحدثك؛ إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا.

قال : فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا :ما ندري أين قبر يوسف؛ إلا عجوز من بني إسرائيل؛ فبعث إليها؛ فأتته، فقال: دليني على قبر يوسف،

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٨٣-٢٨٤).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٦٨).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٦٩).

قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، قال: ما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه: أن أعطها حكمها. فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء، فقالت: انضبوا هذا الماء، فأنضبوا. قالت: أحضروا واستخرجوا عظام يوسف فلما أقلوها إلى الأرض إذا الطريق مثل ضوء النهار»[(١)].

١٠١/١١١٢- أن الملك يدخل فيه النبوة؛ لأنه يشمل ملك الأرواح، وملك الأجسام، وملك الأرواح هو: النبوة؛ لأن سلطان الأنبياء على القلوب والأرواح سلطان كبير.

قال العلمي:

«إن الملك يدخل فيه النبوة؛ لأنه يشمل ملك الأرواح وملك الأجسام، وملك الأرواح هو: النبوة؛ لأن سلطان الأنبياء على القلوب والأرواح سلطان كبير، يضاهي سلطان حكام الدنيا على الأجساد والظواهر، بل يفوقه بكثير؛ لأن من كان له سلطان على الروح، كان له شيء من السلطان على الجسد بالتبع، وهؤلاء هم الأنبياء، وأما الملوك الزمنيون؛ فإن سلطانهم على الجسد، لا يستتبع السلطان على القلب»[(٢)].

١٠١/١١١٣- النبوة داخلة ضمن قوله: ﴿ وَعَلَّمْتَنِى ﴾؛ لأن التعليم الرباني المسند لله هو عين الوحي للأنبياء».

قال العلمي:

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (٣١٣).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٢٩٢).

النبوة داخلة في ضمن قوله: ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾؛ لأن هذا التعليم الرباني المسند لله لهذه الأحاديث، التي تشمل أحاديث الدين، هو عين الوحي للأنبياء»[١].

١٠١/١١١٤- إنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائما في تثبيت إيمانه ويعمل بالأسباب الموجبة لذلك[٢].

١٠١/١١١٥- إنه يجب على العبد أن يسأل الله حسن الخاتمة وتمام المنة[٣].

١٠١/١١١٦- ثناء العبد على ربه عند النقصان والافتقار.

قال ابن كثير:

«ثم لما رأى يوسف -عليه السلام- نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع؛ عرف أن هذه الدار لا يقر لها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان، وما بعد التمام إلا النقصان؛ فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه وهو خير المسؤولين أن يتوفاه؛ أي: حين يتوفاه على الإسلام؛ وأن يلحقه بعباده الصالحين، وهكذا كما يقال: في الدعاء: اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين؛ أي: حين تتوفانا.

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره -عليه السلام-؛ كما سأل النبي ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين من

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١٢٩٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٤١).

(٣) المرجع السابق (٤/ ٤١).

النبيين والمرسلين؛ كما قال: «اللهم الرفيق الأعلى ثلاثاً »[١] ثم قضى.

ويحتمل أن يوسف -عليه السلام- سأل الوفاة على الإسلام منجزا في صحة بدنه وسلامته، وأن ذلك كان سائغا في ملتهم وشرعتهم، كما روى عن ابن عباس أنه قال: «ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف»[٢].

فأما شرعتنا؛ فقد نهى عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن؛ كما في حديث معاذ في الدعاء رواه أحمد: «وإذا أردت بقوم فتنة؛ فتوفنا إليك غير مفتونين»[٣].

وفي الحديث الآخر: «ابن آدم الموت خير من الفتنة»[٤].

وقالت مريم -عليها السلام-: ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾.

وتمنى الموت علي بن أبي طالب لما تفاقمت الأمور، وعظمت الفتن، واشتد القتال، وكثر القيل والقال.

وتمنى ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب «الصحيح» لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفيه الأهوال.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٩)، ومسلم (٢٤٤٤/ ٨٧) من حديث عائشة- رضي الله عنها-.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ٧٣).

(٣) (٥/ ٢٤٣)، وصححه شيخنا الألباني-رحمه الله- في «ظلال الجنة في تخريج السنة» (٣٨٩)، و« إرواء الغليل» (٦٨٤).

(٤) أخرجه أحمد(٤٢٧) من حديث محمود بن لبيد - رضي الله عنه-؛ وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «السلسلة الصحيحة» (٨١٣).

فأما في الرفاهية؛ فقد روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به، إما محسناً وإما مسيئاً؛ فلعله يستعتب، ولكن ليقل: اللهم أحيني إذا كانت الحياة خير لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خير لي»[1].

والمراد هنا بالضر: ما يخص العبد في بدنه من مرض ونحوه لا في دينه والظاهر»[2].

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٨٦٥).

(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ٢١٩).

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

١١١٧/١٠٢- تقرير النبوة المحمدية لرسولنا ﷺ بأصدق برهان، وأعظم حجة[(١)].

قال ابن الجوزي:

«وفي هذا الاحتجاج على صحة نبوة نبينا ﷺ؛ لأنه لم يشاهد تلك القصة، ولا كان يقرأ الكتاب، وقد أخبر عنها بهذا الكلام المعجز؛ فدل على أنه أخبر بوحي»[(٢)].

قال ابن عطية:

«هاتان الآيتان تدلان أن الآية التي قبلهما فيها تعريض لقريش ومعاصري محمد -عليه السلام-، كأنه قال: فإخبارك بالغيوب دليل قائم على نبوتك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وإن كنت أنت حريصاً على إيمانهم؛ أي: يؤمن من شاء الله، وقوله: ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ اعتراض فصيح. وقوله: ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ ﴾ الآية: توبيخ للكفرة وإقامة الحجة عليهم؛ أي: ما أسفههم في أن تدعوهم إلى الله دون أن تبغي منهم أمراً؛ فيقول قائل: بسبب الأجر يدعوهم»[(٣)].

قال العلمي:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٥٦١).

(٢) «زاد المسير» (٤/ ٢٩٣).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٨٤).

«جعل الله -تعالى- على صحة رسالة النبي ﷺ علمية، حتى لا يبقى مجال لأن يرتاب فيها أحد من طلاب الحق المخلصين، وهي: إتيان رجل أمي عاش بين الأميين إلى ما بعد سن الكهولة بكتاب؛ فيه أعلى العلوم الإلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية، وأخبار الأمم والأنبياء السابقين، الذين لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئاً وغير ذلك من أخبار الغيب التي ظهر صدقها في زمنه وبعد زمنه، ببلاغة عجز البلغاء عن مثلها، وأسلوب أشد إعجازاً»[1].

قال ابن عاشور:

«وهذه الجملة استخلاص لمواضع العبرة من القصة، وفيها مِنَّةٌ على النبي ﷺ، وتعريض للمشركين بتنبيههم لإعجاز القرآن من الجانب العلمي؛ فإن صدور ذلك من النبي ﷺ الأمي آية كبرى على أنه وحي من الله -تعالى- ولذلك عقب بقوله: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾»[2].

١١١٨/١٠٢- هذه القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم رسولنا محمد ﷺ.

قال أبو حيان:

«﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ ﴾؛ أي: عند بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم على أن يجعلوه في الجب، ولا حين التقطته السيارة، ولا حين بيع وهم يمكرون؛ أي: يبغون الغوائل ليوسف ويتشاورون فيما يفعلون به، أو يمكرون بيعقوب حين أتوا بالقميص ملطخا بالدم، وفي هذا تصريح لقريش بصدق رسول الله ﷺ،

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٣١٤).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٦١).

وهذا النوع من علم البيان يسمى: الاحتجاج النظري وبعضهم يسميه المذهب الكلامي، وهو أن يلزم الخصم ما هو لازم لهذا الاحتجاج، وتقدم نظير ذلك في آل عمران وفي هود، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لا يخفى على أحد أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحد ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقصه هذا القصص الذي أعجز حملته ورواته لم تقع شبهة في أنه ليس منه وإنما هو من جهة القرون الخالية ونحوه: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ﴾ [القصص:٤٤]؛ فقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ ﴾: هنا تهكم بهم؛ لأنه قد علم كل واحد أن محمدا ﷺ ما كان معهم»[1].

قال الشوكاني:

«ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ولا خالطهم ولا خالطوه؛ فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير؛ فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحي من الله -تعالى-؛ فهذا يستلزم الإيمان بما جاء به فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار قال الله -سبحانه- ذاكرا لهذا»[2].

قال القاسمي:

«وقوله -تعالى-: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ كالدليل على كونه نبأ غيبيا ووحيا سماويا؛ أي: لم تعرف هذا النبأ إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر إخوة يوسف حين أجمعوا أمرهم على إلقاء أخيهم في البئر وهم يمكرون به، إذ حثوه على الخروج معهم يبغون له

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٠-٣٣١).

(٢) «فتح القدير» (٣/ ٥٨).

الغوائل، وبأبيهم في استئذانه؛ ليرسله معهم؛ أي: فلم تشاهدهم حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها»[1].

قال العلمي:

«الرد على دعوى الكفرة: بأن الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس قبل النبوة.

التعليق الأول: كان قصارى الكفرة المعاندين المعاصرين لصاحب الرسالة ﷺ أن يقولوا تارة عن القرآن: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾ [الفرقان:٥]، وتارة يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣] كانوا يقولون ذلك، وهم يعلمون أن محمد بن عبد الله مكث فيهم أربعين سنة، لا يتلو من كتاب، ولا يخطه بيمينه، وأن لسان الذين يلحدون إليه أعجمي ولسان القرآن عربي مبين،اتهموه بأن سلمان الفارسي كان يعلمه، وهم لا يمارون في أن سلمان ما عرفه إلا بعد الهجرة، ونزول كثير من آيات ومعجزات الفرقان، ثم اتهموه بأن رجلا روميا دخل في الإسلام، فكان يعلم الرسول -وهو أعجمي اللسان- تلك الآيات الباهرة، ولو كان الأمر على ما وصفوا، لكان لذلك الرومي من العلم والحكمة والفضل بحيث تضرب إليه أكباد الأبل، وتجثو بين يديه الأمم، ويعرف اسمه في مشارق الأرض ومغاربها، ولكنهم لم يحسنوا سبك مفترياتهم، ولم يجيدوا صياغة ترهاتهم، إذ عجزوا حتى عن تعيين اسم الرومي؛ فاختلفوا فيه على أربعة أقوال: هل اسمه «يعيش»، أو «بلعام»، أو «جبر»، أو «يسار»، على أنه لم يسمع

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٨٥).

عن واحد من أولئك الأربعة شيء مثل ما جاء به النبي الأمي، ولا عرف أحدهم حتى بالرواية عن رسول الله.

نتصفح تواريخ الرجال، فلا نكاد نجد فيها ما يشعر بأنه لأحد أولئك النفر رواية، حتى لما كان يقول الرسول من أحاديثه، فأنى لأولئك الجاحدين الجامدين أن يزعموا أن الرسول قد تخرج على أحدهم!!!

يزعم أولئك المبطلون: أن الرسول قد استفاد كثيرا من رحلاته إلى الشام، حيث المدنية ورهبان النصراني، والقوانين الرومانية، وما هم في تلك المزاعم الأولى بأحمق منهم في هذا الزعم الأخير؛ فإن محمدا لم يغب عن قومه، ولا كثرت اختلافاته إلى بلاد أهل الكتاب ليستمد شيئا من علومهم، بل عاش بين قومه يرعى كغيره من الأنبياء الغنم في صغره وشبابه، وما خرج عنهم إلا في رحلتين إلى الشام، ولم يتم أولاهما بل رده إلى مكة عمه أبو طالب بإشارة من الراهب بحيرا، وكان عمره إذ ذاك تسع سنين، وبلغ في ثانيتهما الشام، في تجارة لخديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- وكان في سن الخامسة والعشرين، ولم يطل في هذه الرحلة مكثه بالشام مدة يحتمل فيها أن يتعلم القليل من العلم، بل بله الكثير، بل كان في سفره لا يكاد ينفك عن قومه ورفاقه، وإلا لو غاب عن قومه بضع سنين، لقالوا له: لعلك تعلمت هذا مدة غيابك عنا، ولم يتفوهوا بمثل هذا، مع أنهم كانوا يحاولون أن يلصقوا به هذه الشبهة، وهي التعلم من الناس، و-أيضا-؛ فأي حامل يحمل هذا الفقير، الذي نشأ هذا المنشأ الذي بيناه، ولم يوجد من ينبهه ويرشد فكره لفضيلة العلم، حتى يترك ما يقتات به، وهو في تلك البلاد الأجنبية، ويترك ما به إرضاء لخديجة التي بعثته لتلك البلاد، ويجهد نفسه في البحث عن عالم ليس من أمته، ولم يكن على عقائدهم، ويرضخ له حتى يبعث في قلبه كل هذه التعليمات، ويسلم له فيما خالف معتقد آبائه وأجداده؟.

وأما حصول هذا التعلم له في بلاده؛ فهو غير ممكن للأسباب الآتية:

أولا: كان يشاهد أنه يفعل ذلك ولو مرة واحدة.

ثانيا: إن المعلم له، إما أنه كان من اليهود، وهذا لا يمكن أن يعلمه أخبار المسيح وأمه، والإقرار لهما بالفضل والنزاهة، ولا أن يرمي اليهود بالتحريف في كتبهم، ولا غير ذلك مما يوجد في القرآن الكريم من الإنكار عليهم، وإما أنه كان من النصارى، وهذا لا يعلمه أن ينكر لاهوت المسيح، ولا التثليث ولا الصلب، ولا أن يرمي النصارى بالتحريف في كتبهم، ولا غير ذلك مما يوجد في القرآن من الإنكار عليهم.

ثالثا: أي حامل يحمل هذا المعلم على إجهاد نفسه، وصرف وقته في تعليم هذا الغريب الأمي؟ ولم لا يدعو الناس إلى هذه الأشياء بنفسه؟ أو يختار أحدا ممن اشتهر بشعر أو خطابة أو شيء من العلم، أو كان له جاه أو أعوان أو مال، أو غير ذلك مما يصلح أن يكون سببا في تخصيصه بالتعليم؟

رابعا: إنه من الصعب جدا أن يقدر أحد من الناس، أن يهذب هذا الأمي كل هذا التهذيب، وأن يخرجه من عقائد آبائه وأجداده، ويدخل في ذهنه مسائل النبوة والوحي والتنزيه والتوحيد، ويجعله يعتقد ذلك اعتقادا حقيقيا إلا إذا كان هذا المعلم، مقتدرا عالما حكيما، ومثل هذا لم يعرف له ذكر في بلاد العرب، وفيما جاورها، فكيف لم يشتهر بالعلم والفضل؟ وأي مؤرخ لذلك العهد، ذكر كلمة عن أحد مثل هذا متمسكا بما يوجد في القرآن، من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والمبادئ وغيرها؟

خامسا: لم لم يسر هذا المعلم إلى أحد، بأنه يعلم محمدا ويهذبه؟ وما الذي حمله على إخفاء هذه المسألة، وكتمها هذا الكتمان المطلق؟

سادسا: لم لم يشاهد محمد يحترم أحدا قبل نبوته أكثر من غيره ، أو يلوذ به ويلازمه، كما هو شأن التلميذ مع معلمه؟

سابعا: أي شيء ألزمه الصبر أربعين سنة، ولم يجعله يسارع إلى دعوى النبوة، ولم يبادر إلى سرد القصص التي تعلمها مرة واحدة؟ لا جرم أن شأن الذي يريد أن يدعي شيئا مثل هذا، أن تظهر عليه عدة أمور تدل على ما تطويه سريرته، ثم يتجرأ؛ فيزداد شيئا فشيئا، لا أن يسكت أربعين سنة، ثم يندفع مرة واحدة بعزيمة واحدة، قوتها في الأول، كقوتها في الآخر.

ثامنا: كيف أن هذه الفكرة لم تأخذ بلبه ومشاعره، فتجعله مشتغلا بها طول السنة؟ وكيف يتناساها أحد عشر شهرا، ويشتعل به شهر رمضان فقط من كل سنة، فيستعيد فيه لما سيدعيه؛ كما يزعمه أولو الأهواء في عزلته السنوية.

إن عادة المفترين: أن تأخذ مثل هذه النيات بحواسهم وعقولهم، حتى يظهر للناس أنهم دائما في انشغال بال، ولكن النبي ما كان يشغله شيء عن شيء، وإلا لأنهك الفكر بدنه، وصار سقيما، وكلت قواه العقلية، من كثرة الحيل، وتعداد الصعوبات، التي كان يلاقيها، فتضعف عن تدبر كل ما كان يدبره، لولا الإرشادات الإلهية والإلهامات الربانية، وكيف علم أنه لا ينقضي أجله حتى يتم القرآن في آخر سنة من حياته، ويأمن على نفسه، فيأتي به نجوما نجوما؟

الرد على دعوى الكفرة: بأن الرسول ﷺ قد تلقى العلم من الناس بعد النبوة

التعليق الثاني: وإن كان التعليم حصل بعد ظهور النبوة نقول:

أولا: كيف ابتدأ دعواه على جهله؟ وأي منبه قام بفكره حتى حمله على ذلك؟ وكيف ضمن أنه يجد من يعلمه؟

ثانيا: لم يشاهد مرة يلجأ إلى أحد الناس؛ ليتعلم منه.

ثالثا: لم لم يقدم هذا المعلم، ويفضله على أصحابه أو يوحي له بالخلافة؟ ولم بقي معلمه مرؤوسا له، ولم يكن رئيسا عليه؟

رابعا: لم لم يوجد بين أصحابه من كان يأنف من أن يتلقى العلم منه ويخضع لأمره وينتهي بنهيه؟ فأين كان هذا المعلم ؟ إذ لو كان موجودا لأنف من أن يأخذ العلم عن تلميذه محمد، ثم نحن لا نعرف أحدا بينهم ممتازا بعلم، سوى ما أخذوه بإقرارهم جميعا عن كتاب الله وحديث رسوله، فإن كان هذا المعلم موجودا في عصر النبوة، فلم لم يشتهر بالعلم والفلسفة قبل دعوى محمد؟ ولم أخفى نفسه حتى ادعى محمد النبوة؟ ولم لم يظهر بين العرب حتى تجله وتحترمه احترامها لمحمد وأي شيء استفاد حتى يكتم هذا كله؟ فيا لله من التعصب الذي يعمي ويصم! ثم إنه كان وعد أصحابه بالنصر والفتح والتمكين في الأرض والخلافة، فوقع كل ذلك لهم ، وصدق في جميع ما أخبر به من المغيبات المستقبَلة، كخبر انتصار الروم على الفرس.

هذا ولم يكن في مكة من أهل الكتاب إلا أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحدة، وكانوا من أجهلهم وأحطهم مقاما في المجتمع الإنساني، وكانوا يحترفون بدنيء الحرف، كخدمة بعض العرب ، أو الاتجار في بعض أشياء حقيرة.

الرد على دعوى البروتستانت بأن الرسول ﷺ كان يتصيد المسائل من نصارى العرب ويهودها:

التعليق الثالث: هب أنه كان يتصيد المسائل من نصارى العرب ويهودها؛ كما ادعاه بعض البروتستانت، فكيف أمن من الوقوع في خرافاتهم التي يجزم العقل ببطلانها كقصة «شمشون» وما يتعلق بقوته وشعره، ونحو ذلك من الأوهام التي كانت ولا تزال منتشرة بين النصارى واليهود إلى اليوم، وقد ذكر منها إخواننا!! ستا وثلاثين أسطورة منقولة عن «العهد العتيق» فلم

تنزه كلامه عن تلك الحكايات المخزية؟ ثم لم تنزه كلامه عن أضاليلهم في المسألة اللاهوتية؟ كعقائدهم في المسيح والصلب والتثليث، ومصارعة الله ليعقوب وغير ذلك، أليس من المعهود أن الإنسان يقع في بعض غلطات من ينقل عنهم ويعتمدهم؟ فلماذا لم يقع محمد في خطأ واحد من أخطائهم؟

هل يعرف الأمي الذي نشأ في وسط الجهل وفي زمن الجهل، ما صح من المسائل وما فسد منها؟ حتى لا يقع في كلامه إلا الصحيح، مع أن انتشار الخرافات والأقوال الفاسدة، كانت بحيث إذا كلف فيلسوف بانتقاد واختيار صحيحها، لوقع في الوهم، ولحكم على بعض الصحيح بأنه باطل، وعلى كثير من الباطل بأنه صحيح، وخصوصا في ذلك الزمن، وفي تلك البلاد العربية، التي كان العلم فيها عبارة عن مجموع خرافات للعجائز، اختلطت بشيء لا يخلو من الصحة من بعض الوجوه، فما بالك بمحمد الأمي والرجل العامي؟!

أيتصور في هذا الرجل الذي كان يعتقد في أهل الكتاب: أنهم غاشون ماكرون، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويفترون على الله الكذب، ويكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله؟! ليشتروا به ثمنا قليلا، أيتصور منه، وهو يعرف كل هذا عنهم، أن يثق بأقوال يسمعها من أفواه الجهلة عنهم، ويزعم بعد ذلك أنها من عند الله مع أنه ما كان يثق بقول أعظم عالم من علمائهم، بل كان يرميهم بأنهم لا يفهمون حقائق ما عندهم من الكتاب، وأنهم يختلقون أشياء كثيرة؛ لتضليل عامتهم وغشهم، فكيف يقول النبي الذي لا ينكر أحد رجحان عقله على قولهم، مع أنه شرح للناس مكرهم وكذبهم،

وكيف لا يخاف أن يكذبوا عليه، ويغروه ويوقعوه في الخطأ، الذي لا يمكنه التخلص منه؟»[١].

١٠٢/١١١٩- هذا يستلزم الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ[٢].

١٠٢/١١٢٠-المسلم الحق لا يلجأ إلى أدعياء العلم؛ كالمشعوذين والكهان والمنجمين والمتنبئين وأحزابهم؛ ليستقي منهم علما أو يستفيد منهم معرفة[٣].

١٠٢/١١٢١- يحذر المؤمن أن يمكر بأحد أو يؤذيه أو يوقع الضرر به؛ لأن عين الله تراه، وهو لا بد كاشفه، وإذا فضح الله أحدا؛ فلا ساتر له [٤].

١٠٢/١١٢٢- أن الذي أنزل إلى الرسول ﷺ من الكتاب هو الحق المبين؛ لأن إخباره صدق، و أوامره و نواهيه عدل.

قال السعدي:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ النبأ الذي أخبرناك به ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾، ولولا إيحاءنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، ﴿ وَمَا كُنتَ ﴾ حاضرا ﴿ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ ﴾؛ أي: إخوة يوسف ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه في حالة لا يطلع عليها إلا الله -تعالى-، ولا يمكن أحدا أن يصل إلى علمها إلا بتعليم الله له إياها؛ كما قال -تعالى- لما

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/١٣٠٦-١٣١١).

(٢) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٠) و«فتح القدير» (٣/ ٥٨).

(٣)«دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٧٠).

(٤) المرجع السابق (ص٧٠).

قص قصة موسى وما جرى له ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه؛ فهذا أدل دليل على أن ما جاء بها رسول الله حقا»[(١)].

١١٢٣/١٠٢- الإنسان لا يعلم ما لم يعلم.

قال العلمي:

«إن الإنسان -أي إنسان- لا يعلم ما لم يعلم؛ قال -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾، وقال -تعالى-: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾، وقال -تعالى-: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ هذه نصوص القرآن الكريم، وهي ظاهرة المعنى؛ فلا نعلق عليها بشيء سوى أن نقول كلمة واحدة: تبارك الله، والله لو كان هذا القرآن من عند محمد لما وردت فيه هذا الآيات الكريمة»[(٢)].

١١٢٤/١٠٢- نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ هو الحق، وخبره هو الصادق، وما خالفه هو الباطل.

قال العلمي:

«مما يجب التنبيه عليه: أنه يوجد في هذه السورة اليوسفية ما لا يتفق مع ما هو مذكور في هذه القصة المندرجة في سفر التكوين المتداول بين أيدي اليهود؛ فالسورة هاهنا تحكي أن إخوة يوسف دخلوا على والدهم ورغبوا

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٠).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ١٦٨).

إليه أن يرسل أخاهم معهم، وأن حوارا دار بينهم وبين والدهم انتهى بانتصارهم عليه حتى سلمهم إياه، ولكن سفر التكوين لا يحكي شيئا من هذا القبيل، إنما يذكر أن إخوته مضوا ليرعوا غنم أبيهم قريبا من نابلس، وفي غيبتهم قال له أبوه: إن إخوتك يرعون غنمهم عند نابلس؛ فاذهب إليهم؛ لتنظر سلامتهم وسلامة الغنم وترجع إلي بالتطمين؛ فسمع لأبيه، فأرسله من شمالي (حبرون) أو من (سيلون) إلى نابلس، فوجدهم قد ارتحلوا منها إلى (دوثان) وهي مدينة شمالي نابلس على غاية اثني عشر ميلا؛ فذهب وراءهم فوجدهم في دوثان؛ هذا هو الشيء الذي يؤخذ من سفر التكوين وشروحه، ولكن نحن علينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه خاتم الأنبياء ﷺ ونقل إلينا بالتواتر الصحيح هو الحق، وخبره هو الصادق، وما خالفه هو الباطل، وناقله مخطئ أو كاذب؛ فلا نعده شبهة على القرآن، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه»(١).

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (١/ ٣٤٤).

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣ ﴾.

١١٢٥/١٠٣- بيان حكم الله في الناس وهو أن أكثرهم لا يؤمنون؛ فلا يحزن الداعية ولا يكرب[1].

قال العلمي:

«المؤمنون أقل من الكافرين:

مقتضى هذه الآية: أن المؤمنين أقل من الكافرين، ولذلك شواهد:

١- قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٦٢ ﴾ [الإسراء:٦٢]؛ أي: لاستأصلنهم بالإغواء.

٢- قال -تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ كرر هذه الآية سبع مرات فيمن أرسلهم نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-؛ كما يعلم من «سورة الشعراء».

٣- قال -تعالى-: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢ ﴾ [آل عمران:٥٢]، والحواريون كانوا اثني عشر فقط...»[2].

فهذه الآية تفيد أن طبيعة أكثرية الناس عدم الإيمان، وأن المؤمنين بالنسبة لغيرهم هم أقلية.

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥١).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٣٢١-١٣٢٢).

١١٢٦/١٠٣- بيان شدة حرص رسول الله ﷺ على إيمان قومه، وشفقته على أمته، وإخلاصه في دعوته.

قال العلمي:

«هذه الآية تشير إلى إخلاص النبي ﷺ في دعوته؛ إذ الغاية من الدعوة صلاح العالم، وانتظام شؤونه على منهاج السعادة، فإذا وجه الداعي قصده إلى هذا الغرض، بدون نظر إلى منفعة مادية، بل ولا معنوية تعود عليه؛ استقام على الطريقة، وقضى حياته في سيرة راضية، وكان كلامه مقبولا جدا، وإذا انحرف عن هذا القصد، ولو قيد أنملة؛ رأيته يضطرب في حال دعوته، ويكون كالريشة تخفق بها الرياح، أينما تصرفت، وقد حكى التنزيل أن شعيبا -عليه السلام- قد برأ نفسه ورفعها عن أن تؤم غرضا من الدعوة سوى الإصلاح، قال: ﴿ ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ [هود:٨٨]، فتشوف الداعي إلى ما في أيدي القوم، وتطلعه إلى أن ينال من وراء إرشاده شيئا من هذه الحياة؛ قادح في صدقه، وداخل بالريبة في إخلاصه»[١].

١١٢٧/١٠٣- إن الهداية بيد الله وحده.

قال القاسمي:

« قال الرازي -ما معناه-: وجه اتصال هذه الآية بما قبلها: أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا من النبي ﷺ قص نبأ يوسف تعنتا، فكان يظن أنهم يؤمنون إذا تلي عليهم، فلما نزلت وأصروا على كفرهم... وكأنه إشارة

---

(١) المرجع السابق (١/ ١٣٢٤-١٣٢٥).

إلى ما ذكر في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص:٥٦]»[١].

١٠٣/١١٢٨- على الداعية إلى الله -تعالى- ألا يحزنه أقوال أهل الباطل وأكاذيبهم؛ حتى لا ينقطع عن دعوته[٢].

١٠٣/١١٢٩- على الداعية إلى الله أن يدعو إلى الإسلام على طريق رسول الله ﷺ، ولا ينتظر الاستجابة الفورية من الناس، بل يبذل جهده في دعوتهم إلى الحق، ويترك النتيجة لله تبارك و-تعالى-[٣].

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٨٦).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٤٩٠).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٧١).

﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

١٠٤/١١٣٠- لا تذهب نفسك عليهم حسرات.

قال ابن عاشور:

«وجملة: ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ ﴾ معطوفة على جملة: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ ﴾ إلى آخرها، باعتبار ما أفادته من التأييس من إيمان أكثرهم؛ أي: لا يسوءك عدم إيمانهم، فلست تبتغي أن يكون إيمانهم جزاء على التبليغ؛ بل إيمانهم لفائدتهم»[(١)].

١٠٤/١١٣١- دعوة الله ينبغي أن تقدم للناس، وأجر الداعية على الله -تعالى- الذي يدعو إليه[(٢)].

١٠٤/١١٣٢- أن الدعوة لا ثمن لها؛ فيمتاز الأغنياء على الفقراء، ولا شرط لها؛ فيمتاز القادرون على العاجزين، إنما هي عامة شاملة لمن يريد.

١٠٤/١١٣٣- أن الأنبياء لا يأخذون من الناس أجرا على دعوتهم وإرشادهم، وكذلك العلماء الربانيون.

١٠٤/١١٣٤- توبيخ للكفرة وإقامة الحجة عليهم؛ لأنه ﷺ ما يسألهم على ما ذكر به أجرا، ولا ينتظر منهم منفعة.

قال أبو حيان:

«وفيه توبيخ للكفرة وإقامة الحجة عليهم، أو ما تسألهم على ما تحدثهم به وتذكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى، كما يعطي حملة الأحاديث والأخبار،

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٦٢).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥١)، «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٧١).

إن هو إلا موعظة وذكر من الله للعالمين عامة، وحث على طلب النجاة على لسان رسول الله ﷺ»[١].

١١٣٥/١٠٤- يدأب الداعية في تذكير الناس بالقرآن؛ تنبيها للغافلين، وتذكيرا للناسين؛ فإن الناس إذا تذكروا وعادوا إلى فطرتهم رأوا آيات الله من حولهم، وتفتحت قلوبهم:﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

١١٣٦/١٠٤- الدعوة ليست خاصة للمسلمين، بل هي للناس كافة وللعالمين جميعا: إنسهم وجانهم، مؤمنهم وكافرهم.

١١٣٧/١٠٤- أن من تصدر للإرشاد من تعليم ووعظ؛ فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه.

قال القاسمي:

«قال بعض اليمانيين: وفي الآية دليل على أن من تصدر للإرشاد من تعليم ووعظ؛ فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه»[٢].

١١٣٨/١٠٤- إشارة إلى إخلاص النبي ﷺ في دعوته؛ إذ الغاية من الدعوة صلاح العالم، وانتظام شؤونه على منهاج السعادة.

١١٣٩/١٠٤- عالمية الدعوة الإسلامية.

كلمة (العالمين) جمع عالم، وهذا يدل على عالمية الدعوة الإسلامية، قال -تعالى-: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣١).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٨٧).

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

١١٤٠/١٠٥- بيان ذم الغفلة وعدم التفكير في الآيات الكونية[1].

قال العلمي:

«تقريع الناس المعرضين عن النظر في الآيات الكونية الدالة على توحيد الإله.

قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ ﴾؛ أي: لم يكن كل أمرهم أنهم لم يستدلوا بما في ذكر من دليل النبوة، بل يعطف على هذا ويزاد عليهم أنهم أضافوا إلى عدم الاهتداء بدليل النبوة، عدم الاهتداء بالآيات الكونية التي تهديهم وترشدهم إلى توحيد الإله في الألوهية، كما وحدوه في الربوبية؛ أي: فهم مع هذا الإعراض عن النظر في دليل النبوة، معرضون عن الكثير من الآيات الكونية؛ الدالة على أن الرب الواحد، هو الحقيق بالألوهية وحده، وأنه لا يجوز أن يدعي غيره، ولا أن يعبد سواه؛ لأن الربوبية والألوهية متلازمتان، فالآيات الدالة على أن الرب واحد دالة -أيضا- على أنه هو الإله وحده، ولولا إعراضهم عن النظر في ذلك، والتأمل فيه عنادا من رؤسائهم، وجمودا على التقليد من دهمائهم، المانع من النظر والاستدلال؛ لظهر لهم ظهورا لا يحتمل المراء، ولا يقبل الجدال- وأصل الإعراض التولي عن الشيء الذي يظهر به عرض المولي المدبر عنه-.

هذه الآية الكريمة ، نزلت في الغافلين من أهل مكة خاصة، كما أنها للناس عامة، وهي تقريع لمن عطلوا أبصارهم عن إدراك صحائف الوجود

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥١).

وعميت بصائرهم عن تدبر ما فيه من الآيات البالغة، وكم جاء في القرآن الكريم أقوال من هذه القبيل؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾»[1].

١٠٥/١١٤١- إن إعراض المشركين عن الآيات الكثيرة لا يؤهلهم للإيمان ويجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة في الآفاق.

١٠٥/١١٤٢- فضيلة التفكير فيما خلق الله في الأرض والسماوات من كواكب زاهرات، وأفلاك دائرات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وحيوان ونبات؛ فسبحان الله المنفرد بكمال الأسماء والصفات.

قال ابن كثير:

«يخبر -تعالى- عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلق الله في السماوات والأرض؛ من كواكب زاهرات، وأفلاك دائرات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وحيوان ونبات؛ فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات»[2].

١٠٥/١١٤٣- بيان أنه لا عجب يا محمد ﷺ إذا لم يتأملوا في الدلائل على نبوتك؛ فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها.

قال القاسمي:

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٣٢٦-١٣٢٧).

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٦٤).

«قال الرازي: يعني: أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك؛ فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها.

واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لا بد وأن تكون من أمور محسوسة، وهي:

إما الأجرام الفلكية.

وإما الأجرام العنصرية.

أما الأجرام الفلكية؛ فهي قسمان: أفلاك، وكواكب.

أما الأفلاك؛ فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع، وقد يستدل بكون بعضها فوق بعض أو تحته، وقد يستدل بأحوال حركاتها؛ إما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات.

وأما الأجرام الكوكبية؛ فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها، وتارة بألوانها وأضوائها، وتارة بتأثيرها في حصول الأضواء والاظلال والظلمات والنور.

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية؛ فإما ان تكون مأخوذة من بسائط، وهي عجائب البر والبحر، وأما المواليد، وهي أقسام:

أحدها: الآثار العلوية؛ كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح.

ثانيها: المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها.

ثالثها: النبات وخاصية الخشب والنمو والورق واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة.

ورابعها: اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها.

وخامسها: تشريح أبدان الناس وتشريح القوى الإنسانية وبيان المنفعة الحاصلة فيها.

فهذه مجامع الدلائل.

ومن هذا الباب -أيضا- قصص الأولين، وحكايات الأقدمين، وأن الملوك إذا استولوا على الأرض وخربوا البلاد قهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر، ثم بقي الوزر والعقاب، ولما كان العقل البشري لا يفي بالإحاطة بشرح دلائل العالم الأعلى والأسفل ذكر الكتاب العزيز مجملا»[1].

١٠٥/١١٤٤- العاقل هو الذي يتبصر في الآيات الكونية المبثوثة من حوله؛ فإذا تدبرها علم أن من ورائها خالقا قادرا يستحق إفراده بالعبودية والشكر[2].

١٠٥/١١٤٥- إن لم يعقل الإنسان آيات الله من حوله؛ فإن فيه شبهاً من الأنعام التي تمر على هذه الآيات معرضة عنها غير شاعرة بها، ولا يليق بالإنسان الذي حباه الله نعمة العقل أن يهوي إلى درك الحيوان الذي لا يعقل[3].

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٧٢).

(٣) المرجع السابق (ص٧٢).

١٠٥/١١٤٦- لا يريد الله -تعالى- أن يكون الناس منقادين مقلدين في عباداتهم وعقائدهم إنقيادا أعمى، بل أرشدهم إلى الاستدلال والتفكير في آيات الكون.

قال العلمي:

«هذه الآية الكريمة تنعي على الناس أنهم لا يستعملون ما عندهم من العلم والمعرفة التي وهبهم الله -تعالى-، فلهذه الآية وأشباهها أثر كبير في الحياة العقلية وإثارة العقل إلى النظر لما في العالم من الظواهر، قال -تعالى-: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾، وقال -تعالى-: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾، وقال: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس:٢٤-٣٢]، وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴿١٩١﴾ ﴾، وقال -تعالى-: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ إلى كثير من أمثال ذلك، فهذا الضرب من الآيات بعث العقل على النظر في الكون، وكان له أثر في نمو الحياة العقلية.

فالله -تعالى- لا يريد أن يكون الناس منقادين في عقائدهم، والاعتراف بوجود الصانع ووحدانيته انقيادا أعمى، بل أرشدهم إلى الاستدلال والتفكر

في آيات الكون، قال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾.

العقل هو نعمة من الله -تعالى-، وكل من لم يستعمل عقله؛ فكأنما رفض نعمة هذا المنعم، ولنضرب لكم مثلا: إذا أعطانا صديق هدية ولم نستعملها ونستفد منها، بل رميناها؛ فإننا نهين صديقنا بهذه المعاملة، فالصديق رمز عن الله -تعالى-، والهدية هي العقل، وطرحنا لهديته ظاهر بعدم استعمال عقولنا، والاعتقاد بأمور تنافي العقل دليل عدم تحكم عقولنا فيما نعتقد، وعدم استعمال عقولنا فيما يجب أن نعرف ونعتقد إهانة كبرى نصنعها مع من قدم لنا هذه الهدية ،إذا كان باستطاعتنا إهانته، ولكن لا نستطيع أن نهينه جل وعلا»(١).

١٠٥/١١٤٧- تقرير قاعدة أن الاعتبار بما يدل عليه اللفظ، لا بما يفيده السبب من الاختصاص بمن كان سببا لنزول الحكم.

قال الشوكاني:

«فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ، لا بما يفيده السبب من الاختصاص بمن كان سببا لنزول الحكم»(٢).

١٠٦/١١٤٨- وفي الآية إشارة إلى ركوب الفضاء عبر المراكب الفضائية والطائرات والصواريخ وغير ذلك؛ لأن المرور على آيات السماء يفيد ذلك، والله أعلم.

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٣٣٢-١٣٣٣).

(٢) «فتح القدير »(٣/ ٥٩).

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

١١٤٩/١٠٦- بيان حقيقة ثابتة، وهي: أن غير أهل التوحيد وإن آمنوا بالله ربا خالقا رازقا مدبرا أكثرهم يشركون به غيره في بعض صفاته وعباداته[١].

قال السمرقندي:

«قال -تعالى-: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾؛ يعني: مقرون أن الله خالقهم، وهم مع ذلك يجعلون لله شريكا.

وقال الضحاك: كانوا مشركين في تلبيتهم.

وقال عكرمة: يعلمون أنه ربهم، وهم مشركون به من دونه»[٢].

١١٥٠/١٠٦- أن كل من آمن بالله وكفر بمحمد ﷺ؛ فهو مشرك، وكل من آمن بتوحيد الربوبية، وأشرك شرك الألوهية؛ فهو مشرك.

قال البقاعي:

«كانوا يقرون بأن الله خالقهم ورازقهم، ويعبدون غيره، وكذا المنافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفران، وكذا أهل الكتابين يؤمنون بكتابهم ويقلدون علماءهم في الكفر بغيره؛ فعلم أن إذعانهم بهذا الإيمان غير تابع لدليل، وهو محض تقليد لمن زين له سوء عمله؛ فرآه حسنا لما سبق فيه من علم الله أنه لا صلاحية له؛ فأفسده بما شابه به من الشرك»[٣].

١١٥١/١٠٨-توحيد الربوبية لا ينقذ من الكفر، فلا بد من توحيد العبادة.

قال العلمي:

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥١).

(٢) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٧٩).

(٣) « نظم الدرر» (٤/ ١٠٧).

«. . . على أني أرى أنها تصدق على كثير من مسلمي أهل اليوم المعدودين من الموحدين «اسما» و«جغرافيا» أو بحسب «هوياتهم» و«سجل نفوسهم» فترى الكثير منهم يسجدون لبعض الأولياء أو لأضرحة الأنبياء، يرجون الله ويرجون بعض الأنبياء أو الأولياء!! يقدمون نذورهم لله ولسواه!! يحلفون بالله وبغيره، يدعون الله وسواه!! وكثيرا ما نسمعهم يهجرون الله مقتصرين على ما عداه!!

فيقولون: الله يا سيد، الله يا بدوي، الله والسيد البدوي، الله يا إمام، الله والإمام علي، الله يا سيد عبد السلام، الله والنبي، الله يا نبي، الله يا حسين، في حفظ الله والسيد، في حفظ الله والنبي، هذا نذر لله وللنبي، لله علي نذر ولك يا سيدي عبد السلام إن صار كذا وكذا، هذا نذر لله وللسيد البدوي، أقسم بالله وبسيدنا الحسين، بالله العظيم وبالإمام علي، وحياة السيدة زينب، وحياة الله والنبي، وحياة الباز والله.

وأما الذين يهجرون الله مقتصرين على ما سواه؛ فيقولون: يا سيد، يا بدوي، يا إمام، يا سيدي عبد السلام، يا نبي، يا باز، هذا الخروف للسيد البدوي، وهذا الجدي لسيدي الدسوقي، وهذا العجل لسيدي عبد السلام، وهذا الكبش للسيدة زينب..وإلخ، ولك يا سيدي يا بدوي علي خروف إن شفي ولدي، ولك يا ستي نفيسة خروف إن رجع ولدي بالسلامة، ثم يقولون: وحياة سيدنا هاشم، وحياة سيدنا الحسن، وحق الإمام علي، وحياة السيد البدوي، وحياة عبد القادر الجيلاني، وحياة الباز، إلى آخر ما هو أكثر من الجهلاء المتعالمين وأزيد من أهل الحشو والجمود في الدين.

وعلى ذلك ترى أكثر الناس اليوم لا يذكرون الله إلا ذكرا مصحوبا بالوثنية والإلحاد ويحرصون على سؤال الأنبياء والأولياء وأشباه الأولياء والاستعانة بشفعائهم حرص البخيل على درهمه ولو زائفا، والجبان على دمه ولو فاسدا.

كثير من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على أكثرية

المسلمين.

هذا وإن في القرآن الكريم كثيرا من الآيات التي نزلت في غير المسلمين تصدق اليوم على المسلمين، ولكن (مع الأسف) وجد فينا من حشويي العلماء من طمس هذه الحقيقة، وجعل كل ما ينكره القرآن هو منزل على غير المسلم، وأما المسلم؛ فلا يصيبه منه أدنى غبار، ولا أصغر شرار، ولو كان المسلم متلبسا كل ما أنكره كتاب الله، كما بالعكس جعل كل ما يحمده القرآن خاصا بالمسلم، ولو كان غير متلبس بشيء من تلك المحامد، فكأن القرآن مجموعة قصائد شتى، فما كان فيه من قبيل المدح؛ فما كأنه إلا قصائد مدائح نظمت لتفريط من حاز لقب مسلم سواء كانت أعماله حسنة أو قبيحة،وما كان فيه من قبيل الطعن؛ فما كأنه إلا قصائد ذم دبجت لهجو وجماعة اسمهم غير المسلمين سواء كانت أفعالهم صالحة أو طالحة. وبهذا حصل تنفير قارئي القرآن غير المسلمين من الإسلام، كما حصل للمسلم غرور وخدعة، ووقعت الحيلولة بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ وفهم الحقائق، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[(١)].

وقال أيضا:

«تحريم سؤال الأولياء ذوي الأضرحة شيئا ماديا و معنويا.

وهذا لا يصح أن نسأل الأولياء أصحاب الأضرحة شيئا ما، لا ماديا ولا معنويا؟ إذ كيف نسألهم ما قطعه الله عنهم من رزق الدنيا ومصالحها، وما لا يبذل من ذلك بحسب الأسباب والسنن الإلهية، وما يبذل؟ فيطلبون منهم المال وزيادة الغلة ونماء الزرع وشفاء المرضى، والانتقام من الأعداء؟ وكيف يجوز أن ندعو ممن كان بالأمس في نعشه، والمصلون واقفون يدعون له، يشهدون له بالإسلام، ويقولون: « اللهم إن كان مسيئا، فتجاوز عنه ولفه

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٣٣٦-١٣٣٧).

برحمتك ورضاك حتى تبعثه آمنا برحمتك يا أرحم الراحمين» فكل مسلم من أبي بكر الصديق إلى اليوم، يدعى له يوم يموت ويصلي عليه بهذا الدعاء ونحوه، فهل يعقل أن يدعى للميت بالأمس يوم موته، ولكنه متى قبر تدعوه الناس أو يدعوه من دعا له قبل ساعة؟!

هذا؛ ولم يرد في كتاب الله -تعالى-، ولا في سنة رسوله ﷺ، ولا نقل عن أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة، ولا نقل عن التابعين والأئمة المجتهدين وقدماء الصوفيين، ما يدعيه بعض المشايخ من أن سيدي فلانا من الصالحين، وسيدي فلانا من الأولياء، هم أصحاب سر ومدد، وإن تلاميذتهم في حياتهم، وأتباعهم بعد مماتهم، يتوسلون بهم إلى الله -تعالى-، ويطلبون منهم المدد والسر، كما نرى ذلك في كتبهم، ولم يكلفنا الله باتباعهم؛ بل باتباع كتابه وسنة نبيه، وهدي أصحاب نبيه، الذين أخذوا الدين عنه مباشرة، وكانوا به خير العاملين، وبسيرة السلف الصالح؛ لأنهم أعلم الناس بهما.

وأما كلام الصوفية المتأخرين؛ فقد صرحوا بأنه رموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها، الذين سلكوا هذه الطريقة إلى نهايتها، وهم صرحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضل.

وقد قال الشعراني في بعض كتبه: «أنه سأل شيخه الخواص لماذا يطلب من الناس تأويل كلام الأنبياء إذا خالف ظاهر الشرع، ولم يطلب منهم تأويل كلام الأولياء؟ فأجابه: لأن الأنبياء معصومون، فيجب حمل كلامهم على الصحة دائما، والأولياء ليسوا بمعصومين؛ فيجوز أن يكونوا فيما خالفوا فيه مخطئين»[١].

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١٣٤٤-١٣٤٥).

﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

١٠٧/١١٥٢- الشرك وترك التوحيد سبب للعذاب المباغت والعقاب العاجل المفاجئ.

١٠٧/١١٥٣- بيان إمكان إتيان الغاشية في الدنيا بغتة أو يوم القيامة.

قال أبو حيان:

«وإتيان الغاشية؛ يعني: في الدنيا؛ وذلك لمقابلته بقوله، أو ﴿ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿ بَغْتَةً ﴾؛ أي:فجأة في الزمان من حيث لا يتوقع ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ تأكيد لقوله: ﴿ بَغْتَةً ﴾.

قال الكرماني: لا يشعرون بإتيانها؛ أي: وهم غير مستعدين لها. قال ابن عباس: تأخذ الصيحة على أسواقهم ومواضعهم»[١].

١٠٧/١١٥٤- يحرص المؤمن على تتبع أشراط الساعة؛ ليبقى قلبه بذكر الله نابضا، ورجاؤه برحمة الله معلقا[٢].

١٠٧/١١٥٥- ينبغي للعاقل الحذر من كل ممكن وإن كان لا يقر به.

قال البقاعي:

«ولما كان العاقل ينبغي له الحذر من كل ممكن وإن كان لا يقر به»[٣].

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٢).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٧٧).

(٣) «نظم الدرر» (٤/ ١٠٨).

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

١٠٨/١١٥٦- وجوب الدعوة إلى الإسلام والشريعة بأسرها.

قال ابن عطية:

«وقوله -تعالى-: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ الآية إشارة إلى دعوة الإسلام بأسرها، قال ابن زيد: المعنى: هذا أمري وسنتي ومنهاجي»[(١)].

١٠٨/١١٥٧- تعين الدعوة إلى الله -تعالى- على كل مؤمن تابع للرسول ﷺ[(٢)].

١٠٨/١١٥٨- دعوة الرسل دعوة علم وبصيرة، وكذلك دعوة أتباعه.

قال ابن عاشور:

«وفي الآية دلالة على أن أصحاب النبي ﷺ والمؤمنين الذين آمنوا به مأمورون بأن يدعوا إلى الإيمان بما يستطيعون. وقد قاموا بذلك بوسائل بث القرآن، وأركان الإسلام، والجهاد في سبيل الله. وقد كانت الدعوة إلى الإسلام في صدر زمان البعثة المحمدية واجبا على الأعيان؛ لقول النبي ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»[(٣)]؛ أي: بقدر الإستطاعة. ثم لما ظهر الإسلام، وبلغت دعوته الأسماع؛ صارت الدعوة إليه واجبا على الكفاية؛ كما دل عليه قوله -تعالى-: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٨٥).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥٤).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران:١٠٤][١].

١٠٨/١١٥٩- وجوب توحيد الله -تعالى- في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته[٢].

١٠٨/١١٦٠- بيان أن البصيرة حجة واضحة، وبرهان متيقن على علم وبصيرة غير عمياء.

قال الزمخشري:

«أي: أدعوا إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء»[٣].

قال أبو حيان:

«ومعنى بصيرة: واضحة، وبرهان متيقن من قوله: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ ﴾»[٤].

١٠٨/١١٦١- لا بد لاتباع الداعية من أن يكونوا على بصيرة مثله؛ فلا يجوز الانقياد الأعمى في التجمع الإسلامي، بل لابد لكل مسلم يتبع عالما أن يكون مهتديا بكتاب الله وسنة رسوله؛ لتتولد لديه البصيرة التي تجعل انقياده انقيادا مبصرا غير أعمى[٥].

١٠٨/١١٦٢- بيان أن الدعوة إلى الله هي مهمة الرسل وأتباعهم جميعا؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٦٥-٦٦).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥٥).

(٣) «الكشاف» (٢/ ٢٧٧)، وانظر «فتح القدير» (٣/ ٥٩).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٣).

(٥) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص ٧٩).

إلى التوحيد، ومن النار إلى الجنة، وهي ترتكز على دعائم، وتقوم على أسس لا بد منها، ومتى أختل واحد منها لم تكن دعوة صحيحة.

ومن هذه الدعائم:

١- العلم بما يدعو إليه؛ فالجاهل لا يصلح أن يكون داعية.

٢- العمل بما يدعو إليه حتى يكون قدوة حسنة.

٣- الإخلاص بأن تكون الدعوة لوجه الله لا رياء ولا سمعة.

٤- البداءة بالأهم فالأهم؛ كالعقيدة وفعل الواجبات وترك المحرمات.

٥- الصبر على ما يلاقي من سبيل الدعوة إلى الله.

٦- الأخلاق الكريمة؛ بأن يكون متحلياً بالخلق الحسن مستعملاً الحكمة في دعوته.

٧- عدم قنوط الناس من نصر الله وإن تأخر.

٨- الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

٩- التيسير لا التعسير، والتبشير دون التنفير[(١)].

١١٦٣/١٠٨- الرسول ﷺ وأتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله على بصيرة؛ فمن ليس منهم؛ فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى.

قال ابن قيم الجوزية:

«وسواء كان المعنى ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ على بصيرة، وأنا أدعو إلى الله، أو المعنى ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ كما كان متبعوه يفعل؛ فهؤلاء خلفاء

---

(١) وانظر-لزاماً- «من معالم المنهج النبوي في الدعوة إلى الله» لمحمد بن موسى نصر.

الرسل حقاً وورثتهم دون الناس، وهم أولوا العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وعملاً وهداية وإرشاداً وصبراً، وهؤلاء هم الصديقون، وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر.

وقيل: ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ عطف على المرفوع بـ ﴿ أَدْعُوٓاْ ﴾؛ أي: أنا أدعو إلى الله على بصيرة، ومن اتبعني كذلك يدعو إلى الله على بصيرة.

وعلى القولين: فالآية تدل أن أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله على بصيرة؛ فمن ليس منهم؛ فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من اتباعه على الانتساب والدعوى»[1].

١١٦٤/١٠٨- أن سبب إعراض كثير الناس عن الأدلة الموجبة للعلم هو التقليد.

قال البقاعي:

«ولما وصف الله -سبحانه- له ﷺ أكثر الناس بما وصف من سوء الطريقة للتقليد الذي منشؤه الإعراض عن الأدلة الموجبة للعلم، أمر أن يذكر طريق الخلّص، فقال: ﴿ قُلْ ﴾؛ أي: يا أعلى الخلق وأصفاهم وأعظمهم نصحاً وإخلاصاً: ﴿ هَٰذِهِۦ ﴾؛ أي: الدعوة إلى الله على ما دعا إليه كتاب الله وسننه ﷺ ﴿ سَبِيلِىٓ ﴾ القريبة المأخذ، الجلية الأمر، الجليلة الشأن، الواسعة الواضحة جداً؛ فكأنه قيل: ما هي؟ فقال: ﴿ أَدْعُوٓاْ ﴾ كل من يصح دعاؤه ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الحائز لجميع الكمال ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾؛ أي: حجة واضحة من أمري، بنظري الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، وترك التقليد الدال على الغباوة والجمود؛

---

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٧٧-٤٧٨).

لأن البصيرة المعرفة التي تميز بها الحق من الباطل ديناً ودنيا بحيث يكون كأنه يبصر المعنى بالعين»[1].

١١٦٥/١٠٨- الدعوة إلى الله -تعالى- تحسن مع وجود شرط البصيرة والعلم:

قال الرازي:

«وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله -تعالى- إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط، وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك؛ فهو محض الغرور»[2].

١١٦٦/١٠٨- على الداعي أن يترقب الأزمات المتكررة؛ فلا ييأس من نصر الله.

قال البهي الخولي:

«على الرسول -أو على الداعي بعده- ألا يستغرق في أمل الاستجابة من الناس لدعوته، كما عليه أن يترقب الأزمات المتكررة والتي قد تضيق فرص النجاح أمامه، أو تبددها في نفسه كلية في لحظة من اللحظات وهي اللحظة التي فيها نصر الله له.

فليس هنا مبرر للمبالغة في أمل الاستجابة طالما الكثير من الناس تولي ظهرها لما هو صالح في الحياة، وليس عن اقتناع، ولكن عن إعراض ووقوع تحت الإغراء.

---

(١) «نظم الدرر» (٤/ ١٠٨-١٠٩).

(٢) «تفسير الرازي» (١٨/ ٢٢٥).

وليس هنا -أيضاً- مبرر للضيق بالأزمات، طالما الأزمات في شدتها تحمل بداية انفراجها والخلاص منها»[١].

١١٦٧/١٠٨- الخصال المهمة التي يجب على الداعية أن يتحلى بها:

قال القاسمي -نقلاً عن محمد عبده في «رسالة التوحيد»[٢] تعليقاً على قوله: ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾-:

«دل قوله: ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ على مزية هذا الدين الحنيف، ونهجه الذي انفرد به، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته، ولكنه ادّعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين، وكر عليها بالحجة، وخاطب العقل واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان، وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها؛ لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه».

ثم قال القاسمي:

«دلت هذه الآية على أن سيرة اتباعه ﷺ الدعوة إلى التوحيد... ينبغي للعالم أن يكون حديثه مع العامة في حال مخالطته ومجالسته لهم في بيان الواجبات والمحرمات ونوافل الطاعات وذكر الثواب والعقاب على الإحسان والإساءة، ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها، ويزيد بياناً للأمور التي يعلم أنهم ملابسون لها، ولا يسكت حتى يسأل عن شيء من العلم وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ومضطرون إليه؛ فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال.

---

(١) «تفسير سورة يوسف» (ص٨).

(٢) (ص٢٤).

والعامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين علماً وعملاً، فلا ينبغي للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم؛ فيعم الهلاك ويعظم البلاء.

وقلما تختبر عامياً -وأكثر الناس عامة- إلا وجدته جاهلاً بالواجبات والمحرمات وبأمور الدين التي لا يسوغ ولا يجوز الجهل بشيء منها، وإن لم يوجد جاهلاً بالكل وُجد جاهلاً بالبعض، وإن علم شيئاً من ذلك وجدت علمه به علماً مسموعاً من ألسنة الناس، لو أردت أن تقلبه له جهلاً فعلت ذلك بأيسر مؤونة؛ لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه.

وعلى الجملة؛ فيتأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم ويحدثوهم به ويبثوه لهم، ويكون كلام العالم معهم في بيان الأمر الذي جاؤوا من أجله.

ولا ينبغي للعالم أن يخوض مع الخائضين، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته في غير إقامة الدين»[١].

---

(١) «محاسن التأويل» (٩/ ٣٦١١-٣٦١٢).

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

١١٦٨/١٠٩- بيان أن الرسالة من خصوصيات الرجال وليس في النساء نبوة[١].

١١٦٩/١٠٩- جرت سنة الله أن يكون الرسول بشرا من جنس قومه.

١١٧٠/١٠٩- العاقل يؤثر نعيم الجنة الدائم على عرض الدنيا الزائل.

١١٧١/١٠٩- الرسل لا يكونون من أهل البادية لما في أهل البوادي من جفاء وخشونة طبع.

قال القرطبي:

«قوله -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ هذا رد القائلين: ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ ﴾؛ أي: أرسلنا رجالا ليس فيهم امرأة ولا جني ولا ملك، ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾؛ يريد: المدائن، ولم يبعث الله نبيا من أهل البادية؛ لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو، و لأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم.

قال الحسن: لم يبعث الله نبيا من أهل البادية قط، ولا من النساء، ولا من الجن.

وقال قتادة: ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾؛ أي: من أهل الأمصار؛ لأنهم أعلم وأحلم.

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥٤).

وقال العلماء: من شرف الرسول أن يكون رجلاً آدمياً مدنياً، وإنما قالوا: آدمياً تحرزاً من قوله: ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾. والله أعلم»[١].

١٠٩/١١٧٢- أهل العمود في كل أمة أهل جفاء وجهالة مفرطة، وأهل القرى أعلم وأحلم من أهل العمود.

قال الزمخشري:

«لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة»[٢].

قال ابن عطية:

«﴿ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾: المدن، وخصصها دون أهل العمود؛ فإنهم في كل أمة أهل جفاء وجهالة مفرطة.

قال ابن زيد: ﴿ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أعلم وأحلم، من أهل العمود»[٣].

قال أبو حيان:

«أهل القرى أعلم وأحلم من أهل البادية؛ فإنهم؛ قليل نبلهم، ولم ينشىء الله قط منهم رسولا»[٤].

١٠٩/١١٧٣- تقرير عقيدة البعث والإيمان باليوم الآخر[٥].

١٠٩/١١٧٤- بيان ثمرات التوحيد والتقوى في الدنيا والآخرة[٦].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٧٤).

(٢) «الكشاف» (٢/ ٢٧٧).

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٨٦).

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٤).

(٥) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥٥).

(٦) المرجع نفسه.

١١٧٥/١٠٩- وجوب الاتعاظ والاستفادة من مصارع الأمم الماضية للتذكر والاعتبار.

قال القرطبي:

«قوله -تعالى-: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة لأنبيائهم؛ فيعتبروا»[١].

١١٧٦/١٠٩- ترغيب وحض على العمل للدار الآخرة والاستعداد لها؛ ليظفر بها ويتقي المهلكات.

قال أبو حيان:

«﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ وهذا حض على العمل للدار الآخرة والاستعداد لها، واتقاء المهلكات؛ ففي هذه الإضافة تخريجات:

أحدهما: أنها من إضافة الموصوف إلى صفته، وأصله: ولدار الآخرة.

والثاني: أن يكون من حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه، وأصله ولدار المدة الآخرة أو النشأة الآخرة»[٢].

١١٧٧/١٠٩- اتخاذ البادية سكناً مكروه إلا في الفتن؛ حين يفر المرء بدينه خشية أن يقع فيها.

قال ابن عطية:

«والتبدي مكروه إلا في الفتن، وحين يفر المرء بالدين؛ كقوله -عليه السلام-: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً»[٣] الحديث، وفي ذلك أذن رسول الله ﷺ لسلمة بن الأكوع[٤]»[٥].

١١٧٨/١٠٩- الرسل الذين بعثهم الله من أهل القرى دعوا الأمم فلم

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٧٥).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٩) من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه-.

(٤) أخرجه البخاري (٧٠٨٧).

(٥) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٨٦).

يؤمنوا حتى نزلت بهم المثلات فصاروا في خبر من يعتبر بعاقبتهم.

قال ابن عطية:

«ويتضمن قوله -تعالى-: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أن الرسل الذين بعثهم الله من أهل القرى دعوا أممهم؛ فلم يؤمنوا بهم حتى نزلت بهم المثلات؛ فصاروا في حيز من يعتبر بعاقبته فلهذا المخمن حسن أن تدخل حتى في قوله:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾»[١].

١٠٩/١١٧٩- بيان أن الله يغضب ممن أعرض عن تدبر آياته الكونية.

١٠٩/١١٨٠- فيها رد على اليهود والنصارى وشرذمة قليلة من فرق المسلمين الذين يزعمون: أنه قد تكون المرأة نبية.

قال العلمي:

«الرد على من يزعم أنه قد تكون المرأة نبية؛ كما هو مذهب اليهود والنصارى، وشرذمة قليلة من فرق المسلمين، وهذا الرد وإن يكن صحيحاً لكنه غير مراد هنا»[٢].

١٠٩/١١٨١- وفيها رد على مشركي العرب؛ إذ قالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:٧].

قال العلمي:

---

(١) «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٨٧).

(٢) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٣٧٨).

«الرد على مشركي العرب؛ إذ قالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾ [هود:١٢]، ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٩٢] وهذا قد يكون مراداً ههنا»[(١)].

١٠٩/١١٨٢- ورد على من يقولون: إن الأنبياء سياسيون ومحنكون.

قال العلمي:

«الرد على من يقولون: إن الأنبياء سياسيون محنكون، استفادوا من حنكتهم وحسن سياستهم تأييد سلطتهم وتصحيح دعواهم النبوة ،وهذا ما يعتقده ويزعمه في نبينا بعض مشركي العرب، كما يعتقده اليوم أهل أوروبا؛ أي: أنهم يعتقدون أن النبي القرشي، قام بما قام به بحنكته وسياسته، لا بتأييد الله -تعالى- له بوحيه وعنايته به، ومثل الإفرنج في هذا الرأي كل من لا يدين بدين الإسلام من علماء ونصارى الشرق؛ فدعوى: أن نجاح النبي ﷺ كان بسياسته وحنكته؛ أي: بتجاربه؛ هي: أكبر شبهتهم على الإسلام، حتى أنهم لولاها لكانوا مسلمين»[(٢)].

١٠٩/١١٨٣- العاقل يستفيد من الأحداث التي تمر به فيتعظ بها.

قال أحمد نوفل:

«فالأحداث كما ترى مربوطة بالقدير العليم -سبحانه-، وما بين الأحداث انبثت التوجيهات الإلهية تربي العباد وتزكي نفوسهم وتنمي بذرة الإيمان فيهم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾»[(٣)].

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١٣٧٨).

(٢) المرجع نفسه (٢/ ١٣٧٨-١٣٧٩).

(٣) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٦).

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

١١٠/١١٨٤- بيان سنة الله في النصر على رسله وعباده المؤمنين زيادة من الإعداد والتمحيص، ثم يأتي نصر الله؛ فيعز أولياءه ويذل أعداءه [(١)].

١١٠/١١٨٥- يصح تسمية المشرك بالمجرم؛ لأن الشرك جريمة لا تغتفر إلا من تاب منها قبل الموت.

١١٠/١١٨٦- عندما ينزل عذاب الله الموعود؛ فلا مرد له، وينجي الله من عذابه من يشاء؛ فالعاقل يسارع إلى الإيمان؛ لينجو من عذاب الله المحتوم قبل فوات الأوان[(٢)].

١١٠/١١٨٧- التنديد بالإجرام، وهو: الإفساد للعقائد والأخلاق والشرائع والأحكام [(٣)].

١١٠/١١٨٨- إذا تراخى نصر الله؛ فقد يهجس في نفس الداعية هاجس يزرع في قلبه اليأس بأن السبب في تأخر نصر الله هو عدم جدارة الداعي، أو ضعف إيمانه، أو تلبس أفكاره بهمز شيطاني؛ فعلى الداعية أن يحذر من مثل هذا الهاجس الشيطاني الخطير، ولا يفقد ثقته بنفسه، بل يستمر في دعوته، ويثابر على إصلاح نفسه وتطهيرها من الأعمال الطالحة والأخلاق الفاسدة والأفكار السيئة[(٤)].

---

(١) «أيسر التفاسير» (٢/٦٥٦).

(٢) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٨٢).

(٣) «أيسر التفاسير» (٢/٦٥٦).

(٤) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٨٢).

١١٠/١١٨٩- ينبغي للداعية أن لا يسمح لليأس بأن يتسرب إلى نفسه إذا واجهه الناس بالإعراض عن دعوته أو بمقاومته أو بالسخرية منه أو بالتقول عليه؛ لو طال الزمن على ذلك؛ فإن نصر الله لآت لا محالة، ولكنه موقوت بلحظة شعور الداعي باستحالة إيمان من لم يؤمن[1].

١١٠/١١٩٠- كانت عائشة -رضي الله عنه- تقرأ﴿كُذِّبُوا﴾ بالتشديد.

قال شيخ الإسلام:

«في قوله -تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ قراءتان في هذه الآية؛ بالتخفيف والتثقيل.

وكانت عائشة -رضي لله عنها- تقرأ بالتثقيل وتنكر التخفيف، كما في «الصحيح»[2] عن الزهري قال: أخبرني عروة عن عائشة، قالت له- وهو يسألها عن قوله: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ مخففة قالت-: معاذ الله! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها- قلت: فما هذا النصر-﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ بمن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك، لعمري لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن.

وفي «الصحيح»[3] -أيضاً- عن ابن جريج سمعت ابن أبي مليكة يقول: قال ابن عباس: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ خفيفة ذهب بها هنالك، وتلا: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٣٨٩).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٥٢٤).

﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾؛ فلقيت عروة فذكرت ذلك له، فقال: قالت عائشة: معاذ الله، والله ما وعد الله رسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يكون؛ ولكن لم يزل البلاء بالرسل، حتى ظنوا وخافوا أن يكون من معهم يكذبهم؛ فكانت تقرأها:﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِّبُواْ ﴾ مثقلة.

فعائشة جعلت استيأس الرسل من الكفار المكذبين، وظنهم التكذيب من المؤمنين بهم، ولكن القراءة الأخرى ثابتة لا يمكن إنكارها، وقد تأولها ابن عباس، وظاهر الكلام معه، والآية التي تليها إنما فيها استبطاء النصر، وهو قولهم: ﴿ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ ﴾؟ فإن هذه كلمة تبطئ لطلب التعجيل.

وقوله: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ قد يكون مثل قوله: ﴿ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ [الحج:٥١] والظن لا يراد به في الكتاب والسنة الاعتقاد الراجح، كما هو في اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم، ويسمون الاعتقاد المرجوح: وهماً، بل قد قال النبي ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»(١)، وقد قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨].

فالاعتقاد المرجوح هو ظن، وهو وهم، وهذا الباب قد يكون من حديث النفس المعفو عنه، كما قال النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد يكون من باب الوسوسة التي هي صريح الإيمان، وفي حديث آخر: إن أحدنا ليجد ما يتعاظم يا رسول الله، إن حدنا ليجد في نفسه ما لأن يحرق حتى يصير حممة، أو يخر من السماء إلى الأرض: أحب إليه من أن يتكلم به. قال: «أو قد وجدتموه»؟ قالوا: نعم. قال: «ذلك صريح الإيمان»(١)، وفي حديث آخر: إن أحدنا ليجد ما يتعاظم أن يتكلم به. قال: «الحمد الله الذي رد كيده إلى الوسوسة»(٢).

فهذه الأمور التي هي تعرض ثلاثة أقسام:

منها ما هو ذنب يضعف به الإيمان، وإن كان لا يزيله.

واليقين في القلب له مراتب:

ومنه ما هو عفو يعفى عن صاحبه.

ومنه ما يكون يقرن به صريح الإيمان.

ونظير هذا: ما في «الصحيح» عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد؛ ولو لبثت في السجن بما لبث يوسف لأجبت الداعي. ونحن أحق بالشك من إبراهيم؛ إذ قال له ربه: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾»(٣).

وقد ترك البخاري ذكر قوله: «بالشك» لما خاف فيها من توهم بعض الناس.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٥١١٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٦٨) وغيرهما من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- بسند صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٧٢).

ومعلوم أن إبراهيم كان مؤمناً كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة:٢٦٠]، ولكن طلب طمأنينة قلبه، كما قال: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾؛ فالتفاوت بين الإيمان والاطمئنان سماه النبي ﷺ: شكاً لذلك بإحياء الموتى، كذلك الوعد بالنصر في الدنيا: يكون الشخص مؤمناً بذلك؛ ولكن قد يضطرب قلبه؛ فلا يطمئن، فيكون فوات الاطمئنان ظناً أنه قد كذب، فالشك مظنة أنه يكون من باب واحد، وهذه لأمور لا تقدح في الإيمان الواجب، وإن كان فيها ما هو ذنب؛ فالأنبياء -عليهم السلام- معصومون من الإقرار على ذلك، كما في أفعالهم على ما عرف من أصول السنة والحديث.

وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم؛ فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييأسوا إذا ابتلو بذلك، ويعلمون أنه قد ابتلي به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلى خير؛ فليتيقن المرتاب، ويتوب المذنب، ويقوي إيمان المؤمنين؛ فبها يصح الأتساء بالأنبياء؛ كما في قوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١].

وفي القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيت؛ ليتأسى بهم في الصبر على ما كذبوا وأوذوا، كما قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام:٣٤]. ولنا لأنه في ذلك ما هو كثير في القرآن؛ ولهذا قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:١١١]، وقال: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت:٤٣]، وقال: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا

تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف:٣٥]، ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠].

وإذا كان الاتساء بهم مشروعاً في هذا وفي هذا؛ فمن المشروع التوبة من الذنب، والثقة بوعد الله، وإن وقع في القلب ظن من الظنون وطلب مزيد الآيات لطمأنينة القلوب، كما هو المناسب للاتساء والاقتداء دون ما كان المتبوع معصوماً مطلقاً. فيقول التابع: أنا لست من جنسه، فإنه لا يذكر بذنب، فإذا أذنب استيأس من المتابعة والاقتداء؛ لما أتى به من الذنب الذي يفسد المتابعة على القول بالعصمة، بخلاف ما إذا قيل: إن ذلك مجبور بالتوبة، فإنه تصح معه المتابعة، كما قيل: أول من أذنب وأجرم ثم تاب وندم آدم أبو البشر، ومن أشبه أباه ما ظلم.

والله -تعالى- قص علينا قصص توبة الأنبياء لنقتدي بهم في المتاب، وأما ما ذكره -سبحانه- أن الاقتداء بهم في الأفعال التي أقروا عليها فلم ينهوا عنها،ولم يتوبوا منها؛ فهذا هو المشروع. فأما ما نهوا عنه وتابوا منه؛ فليس بدون المنسوخ من أفعالهم، وإن كان ما أمروا به أبيح لهم، ثم نسخ تنقطع فيه المتابعة؛ فما لم يؤمروا به أحرى وأولى.

وأيضاً؛ فقوله: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ قد يكونون ظنوا في الموعود به ما ليس هو فيه بطريق الاجتهاد منهم؛ فتبين الأمر بخلافه، فهذا جائز عليهم كما سنبينه، فإذا ظن بالموعود به ما ليس هو فيه، ثم تبين الأمر بخلافه ظن أن ذلك كذب، وكان كذباً من جهة ظن في الخبر مالا يجب أن يكون فيه.

فأما الشك فيما يعلم أنه أخبر به؛ فهذا لا يكون، وسنوضح ذلك -إن شاء الله تعالى-.

وما ينبغي أن يعلم: أنه سبحانه ذكر هنا شيئين:

أحدهما: استيأس الرسل.

والثاني: ظن أنهم كذبوا.

وقد ذكرنا لفظ «الظن»، فأما لفظ: ﴿ ٱسْتَيْـَٔسُواْ ﴾؛ فإنه قال-سبحانه-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ ولم يقل: يئس الرسل، ولا ذكر ما استيأسوا منه، وهذا اللفظ قد ذكره في هذه السورة ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف:٨٠].

وقد يقال: الاستيئاس ليس هو الإياس؛ لوجوه:

أحدها: أن إخوة يوسف لم ييأسوا منه بالكلية، فإن قول كبيرهم: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ دليل على أنه يرجو أن يحكم الله له، وحكمه هنا لا بد أن يتضمن تخليصنا ليوسف[1] منهم، وإلا؛ فحكمه له بغير ذلك لا يناسب قعوده في مصر لأجل ذلك.

وأيضاً؛ فـ «اليأس» يكون في الشيء الذي لا يكون، ولم يجئ ما يقتضي ذلك، فإنهم قالوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يوسف:٧٨و٧٩]؛ فامتنع من تسليمه إليهم. ومن المعلوم أن هذا لا يوجب القطع بأنه لا يسلم إليهم ، فإنه يتغير عزمه

---

(١) هكذا في الأصل، والصواب: لبنيامين.

ونيته، وما أكثر تقليب القلوب، وقد يتبدل الأمر بغيره حتى يصير الحكم إلى غيره، وقد يتخلص بغير اختياره، والعادات قد جرت بها على مثل من عنده من قال لا يعطيه. فقد يعطيه، وقد يخرج من يده بغيره اختياره، وقد يموت عنه؛ فيخرج، والعالم مملوء من هذا.

الوجه الثاني: قال لهم يعقوب: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف:٨٧]؛ فنهاهم عن اليأس من روح الله، ولم ينههم عن الاستيئاس، وهو الذي كان منهم، وأخبر أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

ومن المعلوم أنهم لم يكونوا كافرين؛ فهذا هو الوجه الثالث أيضاً، وهو: أنه أخبر أنه: ﴿ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]؛ فيمتنع أن يكون للأنبياء يأس من روح الله، وأن يقعوا في الاستيئاس بل المؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسوا من روح الله، وهذه السورة تضمنت ذكر المستيئسين، وأن الفرج جاءهم بعد ذلك، لئلا ييأس المؤمن؛ ولهذا فيها: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فذكر استيأس الإخوة من أخي يوسف وذكر استيأس الرسل يصلح أن يدخل فيه ما ذكره ابن عباس، وما ذكرته عائشة جميعاً.

الوجه الرابع: أن الاستيئاس استفعال من اليأس، والاستفعال يقع على وجوه:

يكون لطلب الفعل من الغير، فالاستخراج والاستفهام والاستعلام يكون في الأفعال المتعدية، يقال: استخرجت المال من غيري، وكذلك

استفهمت، ولا يصلح هذا أن يكون معنى الاستيئاس، فإن أحداً لا يطلب اليأس ويستدعيه، ولأن استيأس فعل لازم متعد.

ويكون للاستفعال لصيرورة المستفعل على صفة غيره، وهذا يكون في الأفعال اللازمة؛ كقولهم: استحجر الطين؛ أي: صار كالحجر، واستنوق الفحل؛ أي: صار كالناقة. وأما النظر فيما استيأسوا منه؛ فإن الله -تعالى- ذكر ذلك في قصة إخوة يوسف حيث قال: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ ﴾.

وأما الرسل؛ فلم يذكر ما استيأسوا منه، بل أطلق وصفهم بالاستيئاس، فليس لأحد أن يقيده بأنهم استيأسوا مما وعدوا به، وأخبروه بكونه، ولا ذكر ابن عباس ذلك.

وثبت أن قوله: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ لا يدل على ظاهره، فضلاً عن باطنه: أنه حصل في قلوبهم مثل تساوي الطرفين فيما أخبروا به، فإن لفظ الظن في اللغة لا يقتضي ذلك؛ بل يسمى ظناً ما هو من أكذب الحديث عن الظان؛ لكونه أمراً مرجوحاً في نفسه.

واسم اليقين والريب والشك ونحوها يتناول علم القلب وعمله وتصديقه، وعدم تصديقه وسكينته وعدم سكينته، ليست هذه الأمور بمجرد العلم فقط؟ كما يحسب ذلك بعض الناس، كما نبهنا عليه في غير هذا الموضع.

إذ المقصود هنا الكلام على قوله:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾. فإذا كان الخبر عن استيئاسهم مطلقاً؛ فمن المعلوم أن الله إذ وعد الرسل والمؤمنين بنصر مطلق -كما هو غالب إخباراته- لم يقيد زمانه ولا مكانه، ولا سنته، ولا صفته، فكثيراً ما يعتقد الناس في الموعود به صفات أخرى لم ينزل عليها خطاب الحق، بل اعتقدوها بأسباب أخرى، كما اعتقد طائفة من الصحابة

إخبار النبي ﷺ لهم أنهم يدخلون المسجد الحرام ويطوفون به، أن ذلك يكون عام الحديبية؛ لأن النبي ﷺ خرج معتمراً، ورجا أن يدخل مكة ذلك العام، ويطوف ويسعى. فلما استيأسوا من دخوله مكة ذلك العام- لما صدهم المشركون، حتى قاضاهم النبي ﷺ على الصلح المشهور- بقي في قلب بعضهم شيء، حتى قال عمر للنبي ﷺ: ألم تخبرنا أنا ندخل البيت ونطوف؟ قال: «بلى. فأخبرتك أنك تدخله هذا العام؟»، قال: لا، قال: «فإنك داخله ومطوف»[1] وكذلك قال له أبو بكر.

وكان أبو بكر-رضي الله عنه- أكثر علماً وإيماناً من عمر، حتى تاب عمر مما صدر منه، وإن كان عمر- رضي الله عنه- محدثاً؛ كما جاء في الحديث الصحيح، أنه قالﷺ: « قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي؛ فعمر»؛[2] فهو- رضي الله عنه- المحدث الملهم، الذي ضرب الله الحق على لسانه وقلبه؛ ولكن مزية التصديق الذي هو أكمل متابعة للرسول، وعلماً وإيماناً بما جاء به، ودرجته فوق درجته؛ فلهذا كان الصديق أفضل الأمة، صاحب المتابعة للآثار النبوية، فهو معلم لعمر، ومؤدب للمحدث منهم الذي يكون له من ربه إلهام وخطاب كما كان أبو بكر معلماً لعمر ومؤدباً له حيث قال له: فأخبرك أنك تدخله هذا العام؟ قال: لا. قال: إنك آتيه ومطوف.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١و٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٩)، ومسلم (٢٣٩٨).

فبين له الصديق: أن وعد النبي ﷺ مطلق غير مقيد بوقت، وكونه سعى في ذلك العام وقصده لا يوجب أن يعني ما اخبر به؛ فإنه قد يقصد الشيء ولا يكون؛ بل يكون غيره؛ إذ ليس من شرط النبي ﷺ أن يكون كما قصده؛ بل من تمام نعمة ربه عليه أن يقيده عما يقصده إلى أمر آخر هو أنفع مما قصده، كما كان صلح الحديبية أنفع للمؤمنين من دخولهم ذلك العام، بخلاف خبر النبي ﷺ؛ فإنه صادق لا بد أن يقع ما أخبر به ويتحقق.

وكذلك ظن النبي كما قال في تأبير النخل: «إنما ظننت؛ فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله؛ فإني لن أكذب على الله»[(١)]. فاستيأس عمر وغيره من دخوله ذلك هو استيئاس مما ظنوه موعوداً به، ولم يكن موعوداً به.

ومثل هذا لا يمتنع على الأنبياء أن يظنوا شيئاً فيكون الأمر بخلاف ما ظنوه؛ فقد يظنون فيما وعدوه تعييناً وصفات ولا يكون كما ظنوه، فييأسون مما ظنوه في الوعد، لا من تعيين الوعد، كما قال النبي ﷺ: «رأيت أن أبا جهل قد أسلم؛ فلما أسلم خالد ظنوه هو، فلما أسلم عكرمة علم أنه هو»[(٢)].

وروى مسلم في «صحيحه»: أن النبي ﷺ مرّ بقوم يلقحون: « فقال لو لم تفعلوا هذا لصلح» قال: فخرج سيتاً؛ فمر بهم فقال: « ما لنخلكم؟» قالوا: قلت: كذا وكذا. قال:« أنتم أعلم بأمر دنياكم»[(٣)].

وروي -أيضاً- عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة بن عبيد الله، قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل، فقال: «ما يصنع

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٣٦١) من حديث طلحة بن عبيد -رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه -بنحوه- يوسف بن يعقوب الجصاص في «فوائده»؛ كما في «الإصابة» (٢/ ٤٩٧)- من طريقه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٥٧٠)- بسند من لم نعرفه.

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٣٦٣).

ﷺ: «ما أظن يغني ذلك شيئاً»، فأخبره بذلك؛ فتركوه. فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه؛ فإني ظننت؛ فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً؛ فخذوا به؛ فإني لن أكذب على الله»(١).

فإذا كان النبي ﷺ يأمرنا إذا حدثنا بشيء عن الله أن نأخذ به؛ فإنه لن يكذب على الله، فهو أتقانا لله، وأعلمنا بما يتقى، وهو أحق أن يكون آخذاً بما يحدثنا عن الله، فإذا أخبره الله بوعد كان علينا أن نصدق به، وتصديقه هو به أعظم من تصديقنا، ولم يكن لنا أن نشك فيه، وهو- بأبي- أولى وأحرى أن لا يشك فيه؛ لكن قد يظن ظناً، كقوله: «إنما ظننت ظناً؛ فلا تؤاخذوني بالظن» وإن كان أخبره به مطلقاً؛ فمستنده ظنون، كقوله في حديث ذي اليدين: «ما قصرت الصلاة ولا نسيت»(٢).

وقد يظن الشيء ثم يبين الله الأمر على جليته، كما وقع مثل ذلك في أمور؛ كقوله -تعالى-: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات:٦] نزلت في الوليد بن عقبة لما استعمله النبي ﷺ،وهم أن يغزوهم لما ظن صدقة، حتى أنزل الله هذه الآية(٣).

وكذلك في قصة بني أبيرق التي أنزل الله فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٣٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»؛ كما في «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٩٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٣٩٥) بسند ضعيف، لكن له شواهد ترفعه إلى درجة الحسن.

﴾ [النساء:١٠٥]، وذلك لما جاء قوم تركوا السارق الذي كان يسرق، وأخرجوا البريء؛ فظن النبي ﷺ صدقهم، حتى تبين الأمر بعد ذلك[(١)].

وقال في حديث قصر الصلاة: «لم أنس ولم تقصر»، فقالوا: بلى قد نسيت. وكان قد نسي، فأخبر عن موجب ظنه واعتقاده، حتى تبين الأمر بعد ذلك[(٢)].

وروي عنه أنه قال: «إني لأنسى لأَسُنَّ»[(٣)].

وأيضاً؛ فقوله في القرآن: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] شامل للنبي ﷺ وأمته، حيث قال في صدر الآيات: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾ [البقرة:٢٨٥] الآيات.

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عيسى الأنصاري، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: « بينا جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٣٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٩٣٣)، والطبري في «جامع البيان» (٥/ ١٧٠) بسند حسن.

(٢) تقدم تخريجه آنفاً.

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ١٠٠-رواية يحيى الليثي)، و(١/ ١٨٩-٤٨٩-رواية أبي مصعب الزهري)، و(ص٢٢٦-رواية القعبني)، و(٣٣٩/ ٩٧٠-رواية الشيباني) بسند ضعيف.

وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته»[(١)].

وفي «صحيح مسلم»[(٢)] عن آدم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٤] دخل في قلوبهم منها شيء لم يدخل مثله، فقال النبي ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا»، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ أَخْطَأْنَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٨٦] قال: قد فعلت، إلى آخر السورة قال: قد فعلت».

وفي «صحيح مسلم»[(٣)] عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٤]؛ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ، ثم بركوا على الركب؛ فقالوا: أي رسول الله! كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، فلما اقترأها

(١) أخرجه مسلم (٨٠٦).

(٢) (١٢٦).

(٣) (١٢٥).

القوم وذلت بها ألسنتهم: أنزل الله عز وجل في أثرها:﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥] فلما فعلوا ذلك نسخها سبحانه؛ فأنزل الله:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ إلى قوله:﴿ قَبۡلِنَاۚ ﴾ قال: نعم: ﴿ وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ ﴾ [البقرة:٢٨٦] قال: نعم. إلى آخر السورة، قال: نعم.

والذي عليه جمهور أهل الحديث والفقه أنه يجوز عليهم الخطأ في الاجتهاد؛ لكن لا يقرون عليه، وإذا كان في الأمر والنهي فكيف في الخبر؟ وفي «الصحيحين»[(١)] عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما اقضي بنحو ما أسمع، فأحسب أنه صادق، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً؛ فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار» فنفس ما يعد الله به الأنبياء والمؤمنين حقاً لا يمترون فيه، كما قال -تعالى- في قصة نوح:﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ ﴾ [هود:٤٥] إلى آخر الآية. ومثل هذا الظن قد يكون من إلقاء الشيطان المذكور في قوله:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ إلى قوله:﴿ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الحج:٥٤]، وقد تكلمنا على هذه الآية في غير هذا الموضع.

وللناس فيها قولان مشهوران؛ بعد اتفاقهم على أن التمني هو التلاوة القرآني؛ كما عليه المفسرون من السلف كما في قوله:﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ ﴾ [البقرة:٧٨]. وأما من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنهما.

يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة:٧٨]. وأما من أول النهي على تمني القلب؛ فذاك فيه كلام آخر؛ وإن قيل: إن الآية تعم النوعين؛ لكن الأول هو المعروف في التفسير، وهو ظاهر القرآن ومراد الآية قطعا، لقوله بعد ذلك:﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج:٥٢-٥٣]. وهذا كله لا يكون في مجرد القلب إذا لم يتكلم به النبي؛ لكن قد يكون في ظنه الذي يتكلم به بعضه النخل ونحوها، وهو يوافق ما ذكرناه.

وإذا كان التمني لا بد أن يدخل فيه القول؛ ففيه قولان:

الأول: أن الإلقاء هو في سمع المستمعين، ولم يتكلم به الرسول، وهذا قول من تأول الآية بمنع جواز الإلقاء في كلامه.

والثاني: وهو الذي عليه عامة السلف ومن اتبعهم: إن الإلقاء في نفس التلاوة، كما دلت عليه وسياقها من غير وجه، كما وردت به الآثار المتعددة، ولا محذور في ذلك إلا إذا أقر عليه؛ فأما إذا نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته؛ فلا محذور في ذلك، وليس هو خطأ وغلط في تبليغ الرسالة، إلا إذا أقر عليه.

ولا ريب أنه معصوم في تبليغ الرسالة أن يقر على خطأ، كما قال:« فإذا حدثتكم عن الله بشيء؛ فخذوا به، فإني لن أكذب على الله»[١]، ولولا ذلك لما قامت الحجة به، فإن كونه رسول الله يقتضي أنه صادق فيما يخبر به عن

(١) مضى تخريجه (ص٩٢٢).

الله، والصدق يتضمن نفي الكذب ونفي الخطأ فيه. فلو جاز عليه الخطأ فيما يخبر به عن الله وأقر عليه لم يكن كل ما يخبر به عن الله.

والذين منعوا أن يقع الإلقاء في تبليغه فروا من هذا، وقصدوا خيرا، وأحسنوا في ذلك؛ لكن يقال لهم: ألقى ثم أحكم، فلا محذور في ذلك. فإن هذا يشبه النسخ لمن بلغه الأمر والنهي من بعض الوجوه؛ فإنه إذا موقن برفع قول سبق لسانه به ليس أعظم من إخباره برفعه.

ولهذا قال في النسخ: ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:١٤٣]؛ فظنهم أنهم قد كذبوا هو يتبع ما يظنونه من معنى الوعد، وهذا جائز لا محذور فيه. إذ لم يقروا عليه، وهذا وجه حسن، وهو موافق لظاهر الآية ولسائر الأصول من الآيات والأحاديث، والذي يحقق ذلك أن باب الوعد والوعيد ليس بأعظم من باب الأمر والنهي.

فإذا كان من الجائز في باب الأمر والنهي أن يظنوا شيئا، ثم يتبين الأمر لهم بخلافه؛ فلأن يجوز ذلك في باب الوعد بطريق الأولى والأحرى، حتى إن باب الأمر والنهي إذا تمسكوا فيه بالاستصحاب لم يقع في ذلك ظن خلاف ما هو عليه الأمر في نفسه؛ فإن الوجوب والتحريم الذي لا يثبت إلا بخطاب إذا نفوه قبل الخطاب كان ذلك اعتقادا مطابقا للأمر في نفسه، وباب الوعد إذا لم يخبروا به قد يظنون انتفاءه، كما ظن الخليل جواز المغفرة لأبيه حتى استغفر له، ونهينا عن الاقتداء؛ كما قال النبي ﷺ لأبي طالب: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»[1]، وحتى استأذن ربه في الاستغفار لأمه؛ فلم يؤذن له في ذلك، وحتى صلى على المنافقين قبل أن ينهى عن ذلك وكان يرجو لهم المغفرة،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤).

حتى أنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:١١٣] إلى قوله: ﴿ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٤] وقال عن المنافقين: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة:٨٤]، وقال: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون:٦]؛ فإذا كان صلى على المنافقين واستغفر لهم راجيا أن يغفر لهم قبل أن يعلم ذلك.

ولهذا سوغ العلماء أن يروي في باب الوعد والوعيد من الأحاديث ما لم يعلم أنه كذب، وإن كان ضعيف الإسناد. بخلاف باب الأمر والنهي؛ فإنه لا يؤخذ فيه إلا بما يثبت أنه صدق؛ لأن باب الوعد والوعيد إذا أمكن أن يكون الخبر صدقا وأمكن أن يوجد الخبر كذبا لم يجز نفيه؛ لا سيما بلا علم، كما لم يجز الجزم بثبوته بلا علم؛ إذ لا محذور فيه. منابت الناس اللفظ تعيين الوعد والوعيد فلا يجوز منع ذلك بمنع الحديث إذا مكن أن يكون صدقا؛ لأن في ذلك إبطالا لما هو حق، وذلك لا يجوز.

ولهذا قال النبي ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[1]. وهذا الباب وهو«باب الوعد والوعيد» هو في الكتاب بأسماء مطلقة للمؤمنين، والصابرين، والمجاهدين، والمحسنين، فما أكثر من يظن من الناس أنه من أهل الوعد، ويكون اللفظ في ظنه أنه متصف بما يدخل في الوعد لا في اعتقاد صدق الوعد في نفسه.

وهذا كقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر:٥١]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

---

(١) تقدم (ص٩١٨).

وقد يقع من النصر الموعود به ما لا يظن أنه من الموعود به، فالظن المخطئ فهم ذلك كثيرا جدا أكثر من باب الأمر والنهي، مع كثرة ما وقع من الغلط في ذلك، وهذا مما لا يحصر الغلط فيه إلا الله -تعالى-، وهذا عام لجميع الآدميين؛ لكن الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- لا يقرون؛ بل يتبين لهم، وغير الأنبياء قد لا يتبين له ذلك في الدنيا.

ولهذا كثر في القرآن ما يأمر نبيه ﷺ بتصديق الوعد والإيمان، وما يحتاج إليه ذلك من الصبر إلى أن يجيء الوقت، ومن الاستغفار لزوال الذنوب التي بها تحقيق اتصافه بصفة الوعد، كما قال -تعالى-: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم:٦٠]، وقال -تعالى-: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر:٧٧] والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة. والله تعالى أعلم»(١).

قال السمرقندي:

«ويقال: لما آيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا عليهم جاءهم بالنصرة.

وروي ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس؛ أنه قال:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾. قال: كانوا بشرا؛ فضعفوا وسئموا، وظنوا أنهم قد كذبوا، وأشار بيده إلى السماء.

قال ابن أبي مليكة: فذكرت ذلك لعروة، فقال: قالت عائشة: معاذ الله، ما حدث الله ورسوله شيئاً إلا وعلم أنه سيكون قبل أن يموت.

---

(١) «دقائق التفسير» (٣/ ٣٠١-٣١١).

قالت: ولكن نزل بالأنبياء البلاء حتى خافوا أن يكون من معهم كذبوهم من المؤمنين.

وكانت تقرأ ﴿ قد كذبوا﴾ بالتشديد.

وعن عائشة قالت: استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم، وظنوا أن من قد آمن بهم من قومهم قد كذبوهم.

وقال القتبي: الذي قالت عائشة أحسنها في الظاهر، وأولاها بأنبياء الله -تعالى-»[1].

قال ابن كثير:

«وفي قوله: ﴿ كُذِبُواْ ﴾ قراءتان:

أحدهما بالتشديد: ﴿ قد كذبوا﴾، وكذلك كانت تقرؤها عائشة.

قال البخاري[2]: عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة؛ أنها قالت -وهو يسألها عن قول الله تعالى-:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ قال: قلت: أكذبوا أم كذبوا؟

قالت عائشة: كذبوا.

قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم؛ فما هو بالظن؟

قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك.

فقلت لها: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾.

قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها.

---

(١) «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٨٠).

(٢) تقدم (ص٩٣٢).

قلت: فما هذه الآية؟

قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم؛ فطال عليهم البلاء وتأخر عنهم النصر ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم؛ جاءهم نصر الله عند ذلك»[1].

قال الشوكاني:

«أي: ظن القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا.

وقيل: المعنى: ظن القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من نصرهم.

وقيل: المعنى: ظن الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم للنصر.

وقرأ الباقون: ﴿ كذبوا﴾ بالتشديد، والمعنى عليها واضح؛ أي: ظن الرسل بأن أقوامهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب.

ويجوز في هذا أن يكون فاعل ظن القوم المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد.

وقرأ مجاهد وحميد: ﴿ قد كذبوا﴾ بفتح الكاف والذال المخففين على معنى: وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا.

وقد قيل: إن الظن في هذه الآية معنى اليقين؛ لأن الرسل قد تيقنوا أن قومهم كذبوهم، وليس ذلك مجرد ظن منهم.

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٦٦).

وقد قيل: إن الظن في هذه الآية معنى اليقين؛ لأن الرسل قد تيقنوا أن قومهم كذبوهم، وليس ذلك مجرد ظن منهم.

والذي ينبغي أن يفسر الظن باليقين في مثل هذه الصورة، ويفسر معناه الأصلي فيما حصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة﴿ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾؛ أي: فجاء الرسل نصر الله -سبحانه- فجأة»[1].

١١٠/١١٩١- هذه الآية فيها وعيد وتهديد لمعاصري رسول الله ﷺ.

١١٠/١٠٩٢- فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم .

قال القرطبي:

«قوله -تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ تقدم القراءة ومعناها، ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾، وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم، وهذا الباب عظيم وخطره جسيم ينبغي الوقوف عليه؛ لئلا يزل الإنسان؛ فيكون في سواء الجحيم.

المعنى: وما أراسلنا قبلك يا محمد إلا رجالاً، ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب، حتى إذا استيأس الرسل؛ أي: يئسوا من إيمان قومهم»[2].

١١٠/١١٩٣- النصر يتنزل حين يبذل الدعاة كل جهدهم ويستنزفون كل طاقاتهم، ثم يبلغون من قومهم مبلغاً من اليأس لا مزيد عليه:

قال أحمد نوفل:

---

(١) «فتح القدير» (٣/ ٦١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٧٥).

هذه السنة تشير إلى نهاية هذه المواجهات بين الأنبياء وأقوامهم، وأن النصر يتنزل حين يبذل الدعاة من الرسل كل جهدهم، ويستنزفون كل طاقاتهم، ثم يبلغون من قومهم مبلغا من اليأس لا مزيد عليه، ويتيقنون أنهم مكذبون من هؤلاء الأقوام ولا أمل في الاستمرار وإطالة الزمن، عند ذاك يتنزل النصر؛ فننجي بهذا النصر من نشاء، أما القوم المجرمون؛ فلا يرد بأسنا عنهم.

ولقد أكد هذه السنة آيات أخرى وقصص الكتاب العزيز، و هذا شاهد من قصة نوح: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ . [القمر:١٠-١٤] ولا يخطرن ببالك أن استيأس الرسل كان من وعد الله، أو أن ظنهم التكذيب إن وعد الله مخلف، معاذ الله؛ فهذا كفر مخلد في النار، ومعاذ الله أن يقع فيه عامة المؤمنين؛ فكيف بالأنبياء المرسلين؟!»(١).

---

(١) « سورة يوسف دراسة تحليلية »(ص٥٧٩-٥٨٠).

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

١١١/١١٩٤- الحاجة إلى تدبر معاني القرآن.

على المسلمين أن يكثروا من قراءة قصص القرآن، وأن يتدبروها؛ ليأخذوا منها العبر؛ فإن الله لم يقصها عبثاً، وإنما قصها للذكرى والأسوة والاعتبار.

١١١/١١٩٥- وجوب العدل في القضاء والشهادة.

١١١/١١٩٦- حرمة التخلي عن الشهادة لمن تعينت عليه[١].

١١١/١١٩٧- القرآن مصدق لما قبله، ومقرر ما فيها من الحق.

قال العلمي:

«القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد:

أولاً: القرآن مصدق لما قبله في تقرير التوحيد الخالص واتقاء الشرك، صغيره وكبيره، وإثبات النبوءات والرسالات، وما يغذي الإيمان ويقويه، ومن ترك الفواحش والمنكرات وعمل الصالحات.

القرآن مصدق لما قبله من أصول الدين.

ثانياً: القرآن مصدق لأصول الدين وأركانه، التي هي المقصد من إرسال جميع الرسل، لا يختلفون فيها، وإنما يختلفون في طرق حمل الناس عليها، وهدايتهم بها، وترقيتهم في معارجها، بحسب سنة الله في ارتقاء البشر بالتدريج

---

(١) «أيسر التفاسير» (١/ ٥٥٦).

جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن.

خذ إليك مثلا على ذلك: المقصد من جميع الحكومات هو العدل، وإنما تختلف الدول في القوانين المقررة له، باختلاف أحوال الأمم، فليس من العقل ولا الصواب أن تنكر الأمة تغيير حاكم جديد ما كان عليه من قبله إذا كان يوافقه في جعله مقررا للعدل مقيما لميزانه بين الناس كما كان أو أكمل، وهو في هذه الحالة يسمى مصدقا لما بين يديه لا مكذبا ولا مخالفا، فالقرآن قرر نبوة إبراهيم وموسى وداود وعيسى ونحوهم، وصدقهم فيما جاءوا به عن الله -تعالى-، ووبخ الأقوام المدعين اتباعهم، على إضافتهم لبعض ما جاءوا به، وتحريفهم للبعض، وزيادتهم في بعض المواضع، وعلى عدم الاهتداء والعمل بما هو محفوظ عندهم، حتى أن أكثرهم هدموا الأساس الأعظم للدين، وهو التوحيد، فثلثوا واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا؛ فتصديق القرآن لما بين يديه، لا ينافي مانعاه عليهم من الإضافة والنسيان والتحريف والتأويل المغلط.

القرآن مصدق لما قبله من كتب التوحيد

ثالثا: القرآن مصدق للكتب السالفة في التوحيد، وروح العبادة، وتزكية النفس بالأعمال التي تقوم الملكات، وتهذب الأخلاق، وفي الكليات الخمس، وهي: حفظ الدين؛ بعدم الردة والكفر، وحفظ النفس؛ بعدم الانتحار وقتل الناس، وحفظ المال؛ بعدم السرقة والربا والغش والخيانة، وحفظ النسب؛ بالتباعد عن الزنا، وحفظ العقل؛ بأن لا يتعاطى مسكرا ولا مخدرا؛ هذه هي

الكليات الخمس التي هي مشروعة في كل دين ،وموصى عليها في كل كتاب»[١].

١١١/١١٩٨- القرآن مصدق لدين اليهود والنصارى الأصليين؛ فإن ديننا هو عين دينهم.

قال العلمي:

«القرآن مصدق لدين اليهود ودين النصارى الأصليين؛ فإن ديننا هو عين دينهم مع مزيد بيان وإصلاح يقتضيه ترقي البشر، ومع إزالة بدع وأوهام دخلت عليهم من باب الدين وما هي من باب الدين في شيء»[٢].

قلنا: دين الأنبياء جميعاً واحد هو الإسلام، وهو الذي ارتضاه الله؛ غير أن الاختلاف في الشرائع، وشريعة نبينا أكمل الشرائع وأتمها.

١١١/١١٩٩- إن قصص المرسلين فيها تسلية وتثبيت للتأسي بهم في الصبر على ما كذبوا.

قال شيخ الإسلام:

«وفي القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيت؛ ليتأسى بهم في الصبر على ما كذبوا وأوذوا؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾[الأنعام:٣٤]...[٣] ولنا لأنه أسوة في ذلك ما هو كثير في القرآن؛ ولهذا قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]، وقال: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ

---

(١) «مؤتمر تفسير سورة يوسف» (٢/ ١٣٩٤-١٣٩٦).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٣٩٦-١٣٩٧).

(٣) فراغ في «الأصل».

لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ ﴾ [فصلت:٤٣]، وقـال: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾[الأحقاف:٣٥].

وإذا كان الإتساء بهم مشروعا في هذا وفي هذا؛ فمن المشروع التوبة من الذنب . والثقة بوعد الله وإن وقع في القلب ظن من الظنون وطلب مزيد الآيات لطمأنينة القلوب، كما هو المناسب للاتساء والاقتداء دون ما كان المتبوع معصوما مطلقا، فيقول التابع: أنا لست من جنسه؛ فإنه لا يذكر بذنب، فإذا أذنب استيأس من المتابعة والاقتداء؛ لما أتى به من الذنب الذي يفسد المتابعة على القول بالعصمة، بخلاف ما إذا قيل: إن ذلك مجبور بالتوبة؛ فإنه تصح معه المتابعة، كما قيل: أول من أذنب وأجرم ثم تاب وندم آدم أبو البشر، ومن أشبه أباه ما ظلم.

والله -تعالى- قص علينا قصص توبة الأنبياء؛ لنقتدي بهم في المتاب، وأما ما ذكره سبحانه أن الاقتداء بهم في الأفعال التي أقروا عليها؛ فلم ينهوا عنها، ولم يتوبوا منها، فهذا هو المشروع .فأما ما نهوا عنه وتابوا منه؛ فليس بدون المنسوخ من أفعالهم، وإن كان ما أمروا به أبيح لهم، ثم نسخ تنقطع فيه المتابعة؛ فما لم يؤمروا به أحرى وأولى»[(١)].

قال ابن عاشور:

«هذا من رد العجز على الصدر؛ فهي مرتبطة بجملة ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ ﴾ وهي تتنزل منها منزلة البيان لما تضمنه معنى الإشارة في

(١) «دقائق التفسير» (٣/ ٣٠٣-٣٠٤).

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ من التعجيب، وما تضمنه معنى﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ من الاستدلال على أنه وحي من الله مع دلالة الأمية.

وهي -أيضا- تتنزل التذييل للجمل المستطرد بها؛ لقصد الاعتبار بالقصة ابتداء من قوله:﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

فلها مواقع ثلاثة عجيبة من النظم المعجز.

وتأكيد الجملة بـ(قد) واللام للتحقيق.

وأولوا الألباب: أصحاب العقول. وتقدم في قوله:﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:١٩٧] في أواسط سورة البقرة.

والعبرة: اسم مصدر للاعتبار، وهو التوصل بمعرفة المشاهد المعلوم إلى معرفة الغائب.

وتطلق العبرة على ما يحصل به الاعتبار المذكور من إطلاق المصدر على المفعول كما هنا.

ومعنى كون العبرة في قصصهم أنها مظروفة فيه ظرفية مجازية، وهي ظرفية المدلول في الدليل؛ فهي قارة في قصصهم سواء اعتبر بها من وفق للاعتبار أم لم يعتبر لها بعض الناس.

وجملة: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ إلى آخرها تعليل لجملة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾؛ أي: لأن ذلك القصص خبر صدق مطابق للواقع وما هو بقصة مخترعة. ووجه التعليل: أن الاعتبار بالقصة لا يحصل إلا إذا كانت خبرا عن أمر وقع؛ لأن ترتب الآثار على الواقعات ترتب طبيعي، فمن شأنها أن تترتب أمثالها على أمثالها كلما حصلت في الواقع، ولأن حصولها ممكن إذ الخارج لا يقع فيه المحال ولا النادر، وذلك بخلاف القصص الموضوعة بالخيال والتكاذيب؛ فإنها لا يحصل بها اعتبار لاستبعاد السامع وقوعها؛ لأن أمثالها لا

يعهد، مثل مبالغات الخرافات وأحاديث الجن والغول عند العرب، وقصة رستم واسفنديار عند العجم ، فالسامع يتلقاها تلقي الفكاهات والخيالات اللذيذة ولا يتهيأ للاعتبار بها إلا على سبيل الفرص والاحتمال، وذلك لا تحتفظ به النفوس.

وهذه الآية ناظرة إلى قوله -تعالى- في أول السورة:﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ فكما سماه الله أحسن القصص في أول السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية...

والافتراء تقدم في قوله: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ [المائدة:١٠٣] في سورة العقود.

و ﴿ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾: الكتب الإلهية السابقة. وضمير بين﴿ يَدَيْهِ ﴾ عائد إلى القرآن الذي من جملته هذه القصص.

والتفصيل: التبيين.والمراد بـ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الأشياء الكثيرة مما يرجع إلى الاعتبار بالقصص.

وإطلاق الكل على الكثرة مضى عند قوله -تعالى-:﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ [الأنعام:٢٥] في سورة الأنعام.

والهدي الذي في القصص: العبر الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص، على أن المتصرف هو الله -تعالى-، وعلى أن التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة ، وكذلك الرحمة؛ فإن في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم، وذلك رحمة للمؤمنين؛ لأنهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون ، فتصلح أحوالهم، ويكونون في اطمئنان بال، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم، وسبب لرحمته إياهم في الآخرة، كما قال -تعالى-: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]»[١].

١١١/١٢٠٠- بيان فضل القرآن وما فيه من الهدى والرحمة لمن طلب ذلك منه[٢].

١١١/١٢٠١- بيان أن القرآن مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وكون أن محمداً ﷺ أمياً؛ فاستدل بذلك على صحة نبوته[٣].

قال البغوي:

«﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى﴾؛ أي:ولكن كان تصديق الذي﴿ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من التوراة والإنجيل»[٤].

قال ابن الجوزي:

«إن من تفكر: علم أن محمداً ﷺ مع كونه أمياً لم يأت بهذه القصة على موافقة ما في التوراة من قبل نفسه؛ فاستدل بذلك على صحة نبوته»[٥].

قال أبو حيان:

«بل هو حديث صدق، ناطق بالحق، جاء به مَنْ لم يقرأ الكتب، ولا تتلمذ لأحد، ولا خالط العلماء؛ فمحال أن يفتري هذه القصة بحيث تطابق ما ورد في التوراة من غير تفاوت.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٧١-٧٣).

(٢) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥٦).

(٣) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٨٢).

(٤) «مختصر تفسير البغوي» (١/ ٤٥٦).

(٥) «زاد المسير» (٤/ ٢٩٧).

وقيل: يعود على القرآن؛ أي: ما كان القرآن الذي تضمن قصص يوسف -عليه السلام- وغيره حديثاً يختلق، ولكن كان تصديق الكتب المتقدمة الإلهية»[(١)].

قال ابن كثير:

﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾؛ أي: من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير»[(٢)].

قال الشوكاني:

﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾؛ أي: ما قبله من الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور»[(٣)].

١١١/١٢٠٢- المؤمنون باعتبار أنهم أحياء هم الذين ينتفعون بهداية القرآن ورحمته [(٤)].

قال أبو حيان:

«وخص المؤمنون بذلك؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بذلك؛ كما قال -تعالى-: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾»[(٥)].

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٧).

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٦٧)

(٣) «فتح القدير» (٣/ ٦١).

(٤) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٥٦).

(٥) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٨).

١١١/١٢٠٣- العبرة في القصص القرآني لا يدركها إلا أولو الألباب أصحاب العقول الراشدون، فعلى كل لبيب أن يعقل القرآن، ويأخذ العبرة مما جاء في قصصه، ولا يكون من الذين عطّلوا عقولهم، ومرّوا بالعبر الماثلة في القصص القرآني مرور الغافلين(١).

١١١/١٢٠٤- المؤمن الحق هو الذي يعتقد بأن القرآن كلام الله منزل من عنده، وليس كلاماً مختلقاً من عند الرسول، وأنه يحمل الرحمة والهداية للمؤمنين؛ فلا يشقون ولا يتعذبون(٢).

١١١/١٢٠٥- أن القرآن مفصل لكل شيء من التحليل والتحريم، والأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات والمكروهات، والإخبار عن الرب -تبارك وتعالى- بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات؛ فتهدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد.

قال البغوي:

«مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والأمر والنهي﴿ وَهُدًى ﴾: بياناً ونعمة ﴿ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾»(٣).

قال القرطبي:

«مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والشرائع والأحكام ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾»(٤).

---

(١) «دروس مستفادة من سورة يوسف» (ص٨٢-٨٣).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «مختصر تفسير البغوي» (١/ ٤٥٦)

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٧٧).

قال ابن كثير:

«من تحليل وتحريم وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب -تبارك وتعالى- بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات؛ فلهذا كان ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم: أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة»[1].

قال الإمام الشوكاني:

«فصل الله بين حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته»[2].

١٢٠٦/١١١- بيان أن الأكاذيب لا يصدق بعضها بعضاً، ولا تحقق هداية ولا يطمئن لها القلب.

١٢٠٧/١١١- الأعلام بالله -تعالى- من العلم والقدرة والتصرف في الأشياء على ما لا يخطر على بال ولا يجول في فكر[3].

١٢٠٨/١١١- قصة يوسف هي القصة الوحيدة التي جاءت بكل أطرافها في سورة واحدة أطلق عليها اسم صاحب القصة، وتسلسلت أحداث القصة في

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٦٧).

(٢) «فتح القدير» (٣/ ٦٢).

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ٣٣٧).

نسق رائع، وأسلوب ممتع، تنتقل بالقارئ من حدث إلى حدث في عذوبة تشد القلوب؛ فلا تمل، وتشويق يجذب النفوس؛ فلا تسأم.

قال محمد السيد الوكيل:

«وقصة يوسف -عليه السلام- في القرآن الكريم هي القصة الوحيدة التي جاءت بكل أطرافها في سورة واحدة، أطلق عليه اسم صاحب القصة، وقد بدأت هذه القصة برؤيا، وظلت أحداثها تترى متوالية متتابعة حتى انتهت بتفسير الرؤيا التي بدئت بها، وتسلسلت أحداث القصة في نسق رائع، وأسلوب ممتع، تنتقل بالقارئ من حدث إلى حدث، في عذوبة تشد القلوب؛ فلا تمل، وتشويق يجذب النفوس؛ فلا تسأم»[1].

١١١/١٢٠٩- قصة يوسف تتضمن فنوناً شتى من أساليب التربية والسلوكيات، وتهدف بوضوح إلى إبراز الخصائص النفسية للصفوة المختارة من الناس، وتشرح لنا في أسلوب سهل أخاذ ثمرة اللجوء إلى الله -عز وجل- في الضيق والمحن، وكيف لا يتخلى الله عمن يلتجأ إليه؛ فيصرف عنه السوء وينقذه مما يتورط فيه، ويضيء له الطريق مع شدة الظلام من حوله، ويمكّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء[2].

١١١/١٢١٠- تسلية النبي ﷺ بما لقيه يعقوب ويوسف -عليهما الصلاة السلام- من الهم من الأذى، وقد لقي النبي ﷺ من آله أشد ما لقيه من بعداء كفار قومه؛ مثل عمه أبي لهب، والنضر بن الحارث وغيرهم، وإن وقع أذى الأقارب في النفوس أشد من وقع أذى البعداء.

---

(١) «نظرات في أحسن القصص» (ص٣٠٤).

(٢) المرجع السابق (ص٣٠١-٣٠٢).

كما قال طرفة:

وظلـــم ذوي القربـــى أشـــد مضاضـــة

علـــى المـــرء مـــن وقـــع الحســـام المـــهند

١١١/١٢١١- القرآن رحمة للمؤمنين بما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل في الدنيا والآخرة.

قال السعدي:

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾؛ فإنهم بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة»[(١)].

١١١/١٢١٢- القرآن الكريم دال على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه.

قال السعدي:

«ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب -ما قص- من الأحاديث المفتراة المختلقة ﴿ وَلَٰكِن ﴾ كان ﴿ تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب السابقة يوافقها، ويشهد لها بالصحة، ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه ومن الأدلة والبراهين»[(٢)].

١١١/١٢١٣- وفي قصة يوسف العظة والرحمة للمؤمنين؛ فتهدي قلوبهم به من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون الرحمة من رب العالمين في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد؛ فنسأل الله العلي العظيم أن يجعلنا من

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٣٢-٣٣).

(٢) المرجع نفسه (٤/ ٣٢).

السعداء في الدارين؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

١١١/١٢١٤- قصة يوسف القصة الجميلة: عبرة، وعظة بالغة لا تلمح العبرة منها عين كل ناظر إليها، ولا ينفذ إلى لبابها كل قارىء لها، ولكنها كما قال -تعالى-: ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1].

١١١/١٢١٥- وجوب الاقتداء بالأنبياء والتأسي بما ورد في قصصهم؛ لأن القصص تتبع الأثر.

قال الراغب الأصفهاني:

«القص: تتبع الأثر.

يقال: قصصت أثره، والقصص: الأثر، قال -تعالى-: ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف:٦٤]، ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص:١١]، ومنه قيل لما يبقى من الكلأ؛ فيتتبع أثره: قصيص، وقصصت ظُفره.

والقصص: الأخبار المتتبعة، قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [الكهف:٦٤]، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ [القصص:٢٥]، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف:٣] ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾[الأعراف:٧]، ﴿ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [النمل:٧٦]، ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾[الأعراف: ١٧٦].

والقصاص: تتبع الدم بالقود، قال -تعالى-: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة:١٧٩].

---

(١) «قصص الأنبياء» (ص١٤٤) عبد الوهاب النجار.

ويقال: قص فلان فلاناً وضربه ضرباً؛ فأقصه؛ أي: أدناه من الموت. والقص: الجص»[1].

١١١/١٢١٦- القصة القرآنية قصة إيمان؛ للإيمان جاءت.

قال أحمد نوفل:

«من قرأ القصة القرآنية عموماً، أو قصة يوسف؛ وجد ربطاً محكماً بين القصة بأحداثها وأشخاصها وبين تدبير القدر؛ فالقصة القرآنية قصة إيمان للإيمان جاءت، وبالإيمان جاءت، لتربية العقيدة في القلب الإنساني، قصت من الأحداث ما قصت؛ فهي ترتبط من أول مشهد لآخر مشهد بيد التدبير والتقدير، ولا تخرج عن هذا في صغير أو كبير»[2].

١١/١٢١٧- الخاتمة صفات القرآن.

قال السعدي:

«لما قص الله -تعالى- علينا هذه القصة العجيبة بتفاصيلها قال في آخرها: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

فنفى عن هذا القرآن الكذب والخطأ من جميع الوجوه، ووصفه بثلاث صفات، كل واحدة منها فيها أكبر برهان على أنه من عند الله، وأنه الحق الذي لا ريب فيه.

---

(١) «مفردات غريب القرآن» (ص٦٧١-٦٧٢).

(٢) «سورة يوسف دراسة تحليلية» (ص٤٥).

الصفة الأولى: أنه تصديق الذي بين يديه؛ أي: من الكتب المنزلة من السماء ومن كل الرسل المعصومين الذي أوحى الله إليهم، كما قال -تعالى-: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الصافات:٣٧].

فهذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ جاء بالحق، وهو الصدق في إخباره عن الله ، وعن ملائكته، وعن اليوم الآخر، وعن جميع الغيوب السابقة واللاحقة، العدل في أحكامه؛ فلا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن الشر؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥].

وأيضا؛ فإن هذا القرآن صدق جميع ما جاءت به الرسل وهيمن عليها، واتفق منها على الأصول العظيمة، والشرائع الكبار العامة الشاملة.

وأيضا؛ فإن الرسل أخبروا وبشروا بمحمد ﷺ، وبما جاء به محمد ﷺ؛ فصدق مخبرها وحقت بشارتها.

الصفة الثانية: أنه تفصيل لكل شيء، وهذا شامل لجميع ما يحتاجه الخلق في عقائدهم، وأخلاقهم ، وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وفي دينهم ودنياهم:

فقد شرح الله به وفصل التوحيد، والرسالة والجزاء، وجميع العقائد الصادقة الصحيحة شرحا وتفصيلا لا يساويه في ذلك أي كتاب كان.

وفصل فيه الحث على حقائق الإيمان، وعلى التخلق بالأخلاق الجميلة، والتنزه من الأخلاق الرذيلة، وبين الطريق والأسباب التي يحصل بها حسنها والتي يدفع به سيئها.

كما فصل الشرائع الظاهرة، والأعمال الصالحة، والحلال والحرام، والخير والشر.

وفصل فيه جميع المقاصد والغايات النافعة ، الدينية والدنيوية.

وفصل ما يتوصل به إليها؛ فصل فيه البراهين العقلية، كما فصل فيه البراهين السمعية.

الصفة الثالثة: أنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون؛ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]؛ أي: لكل حالة قويمة وطريقة مستقيمة؛ يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي لمصالح الدين كلها، ومنافع الدنيا التي بها يقوم الدين، وتتم السعادة.

والفرق بين الهدى والرحمة: أن الهدى هو الوسائل، والطرق الموصلة إلى خيرات الدنيا والآخرة، والرحمة هي نفس الخيرات والثواب العاجل والآجل.

فسعادة الدنيا والآخرة متوقفة على اتباع هذا القرآن علما وعملا.

وخص الله المؤمنين بالهدى والرحمة؛ لأنهم هم المنتفعون على الحقيقة، وبإيمانهم اهتدوا وزادهم الله هدى ورحمة؛ فهذا القرآن بصائر للناس كلهم، بصرهم بجميع ما يحتاجون إليه، فلم يبق خير إلا دلهم عليه، ولا شر إلا حذرهم منه، فقامت به الحجة على كل أحد، ولكنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون»[(١)].

---

(١) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف -عليه السلام-» (ص٩٢-٩٤).

فوائد متفرقة
في فضائل يوسف -عليه السلام-

١٢١٨- فراسة العزيز في يوسف -عليه السلام-.

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز: حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾.

والتي قالت[1]: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾، وأبو بكر حين تفرس في عمر -رضي الله عنهما-»[2].

---

(١) هي ابنة شيخ مدين الصالح.

(٢) موقوف صحيح- أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٤/ ٥٧٤/ ١٨٩٠٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٦٧/ ٨٨٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٤٥-٣٤٦) وغيرهم عن سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود موقوفا.

قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قلنا: وقد وهما؛ فإن البخاري لم يخرج لهذه الترجمة؛ أي: أبي إسحاق عن أبي الأحوص؛ فإنها من أفراد مسلم، فهو صحيح على شرط مسلم وحده.

وأما ما يخشى عليه من اختلاط أبي إسحاق؛ فإن سفيان روى عنه قبل الاختلاط، وهو من أثبت الناس فيه؛ فليتنبه.

١٢١٩- جمال يوسف -عليه السلام- وحسنه الباهر.

قال ﷺ: «ثم عرج بي إلى السماء الثالثة؛ فاستفتح جبريل، ففتح لنا؛ فإذا أنا بيوسف -عليه السلام-؛ إذا هو قد أعطي شطر الحسن(١)؛ فرحب بي ودعا لي بخير»(٢).

وفي رواية أخرى: «أعطي يوسف وأمه شطر الحسن»(٣).

١٢٢٠- مكانته -عليه السلام- في السماء.

عن مالك بن صعصعة قال: قال النبي ﷺ: «فأتينا السماء الثالثة، قيل: من هنا؟ قيل: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على يوسف؛ فسلمت، فقال: مرحباً بك من أخ ونبي»(٤).

١٢٢١- وشهد شاهد.

روي: أن شاهد يوسف -عليه السلام- الذي شهد معه وتكلم وهو صغير من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: «تكلم أربعة

---

(١) حسن وجمال آدم -عليه السلام-.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-.

(٣) «السلسلة الصحيحة» (١٤٨١)، والمراد بأمه: سارة زوجة الخليل -عليه السلام-.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-.

صغار: عيسى بن مريم -عليه السلام-، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون»[١].

١٢٢٢- صبر يوسف -عليه السلام- على السجن.

قال ﷺ: «عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه، والله يغفر له»[٢].

وقال: «ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[٣].

١٢٢٣- كرم يوسف ونسبه -عليه السلام-.

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله عليهم -الصلاة والسلام»[٤].

١٢٢٤- ثقته بعلمه وفتواه - عليه السلام-.

قال عبد الله ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: لما حكيا ما رأياه وعبر يوسف -عليه السلام- قال أحدهما: ما رأينا شيئاً. فقال: ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾[٥].

---

(١) ضعيف- وقد فصل شيخنا الألباني-رحمه الله- تخريجه في «الضعيفة» (٢/ ٢٧١).

(٢) «الصحيحة» (١٩٤٥).

(٣) البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١/ ١٣٣/ ١٥١و ٤/ ١٨٣٩/ ١٥١).

(٤) مضى تخريجه (ص ٦١٠).

(٥) أخرجه الثوري في «تفسيره» (ص١٤٢) ، والطبري في «جامع البيان» (١٢/ ١٣١) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٨/ ١١٦٣٢)، والحاكم (٢/ ٣٤٦) بسند ٠صحيح.

الفهارس العلمية

- فهرس الآيات.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس الآثار.
- فهرس فوائد الآيات.
- فهرس الفوائد.
- فهرس فوائد الفوائد.
- فهرس المصادر والمراجع.



فهرس الآيات

سورة آل عمران

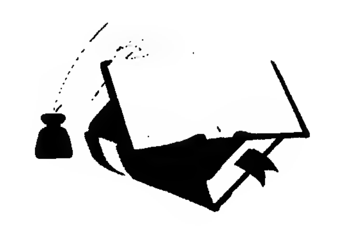
سورة المائدة



فهرس الأحاديث



فهرس الآثار



فهرس فوائد الآيات

فوائد الآية الحادية عشرة ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾. ١٣٦

فوائد الآية الثانية عشرة ﴿ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾. ١٥٢

فوائد الآية الثالثة عشرة ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾. ١٦٠

فوائد الآية الرابعة عشرة ﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ ١٧٩

فوائد الآية الخامسة عشرة ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾. ١٨٥

فوائد الآية السادسة عشرة ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾. ٢٠١

فوائد الآية السابعة عشرة ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾. ٢٠٥

فوائد الآية الثامنة عشرة ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ٢٤٤

فوائد الآية التاسعة عشرة ﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾. ٢٦٢

فوائد الآية العشرين ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾. ٢٦٥

فوائد الآية الحادية والعشرين ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ

فوائد الآية الثلاثين ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ٣٧٨

فوائد الآية الحادية والثلاثين ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ٣٨٥

فوائد الآية الثانية والثلاثين ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾. ٣٩٨

فوائد الآية الثالثة والثلاثين ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ٤٠٦

فوائد الآية الرابعة والثلاثين ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ٤١٤

فوائد الآية الخامسة والثلاثين ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ٤١٨

فوائد الآية السادسة والثلاثين ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ٤٢٢

فوائد الآية السابعة والثلاثين ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ ٤٢٨

فوائد الآية الثامنة والثلاثين ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ٤٣٩

فوائد الآية الأربعين ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٤٧٤

فوائد الآية الواحدة والأربعين ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ ٤٨٧

فوائد الآية الثانية والأربعين ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ٤٨٩

فوائد الآية الثالثة والأربعين ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٥١٢

فوائد الآية الرابعة والأربعين ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ٥٢١

فوائد الآية الخامسة والأربعين ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ٥٢٨

فوائد الآية السادسة والأربعين ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ٥٣٣

فوائد الآية السابعة والستين ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ٦٥٥

فوائد الآية الثامنة والستين ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ٦٦٩

فوائد الآية التاسعة والستين ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ٦٨٢

فوائد الآية السبعين ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴾ ٦٨٧

فوائد الآية الواحدة والسبعين ﴿ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴾ ٦٩٩

فوائد الآية الثانية والسبعين ﴿ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴾ ٧٠٠

فوائد الآية الثالثة والسبعين ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾. ٧٠٣

فوائد الآية الرابعة والسبعين ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ ٧٠٥

فوائد الآية الخامسة والسبعين ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ٧٠٦

فوائد الآية السادسة والسبعين ﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾ ٧٠٩

فوائد الآية السابعة والسبعين ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ٧١٦

فوائد الآية الثامنة والسبعين ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ٧١٨.

فوائد الآية التاسعة والسبعين ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ٧٢٠

فوائد الآية الثمانين ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ٧٢٢

فوائد الآية الواحدة والثمانين ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ٧٢٥

فوائد الآية الثانية والثمانين ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ٧٢٨

فوائد الآية الثالثة والثمانين ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ ٧٣١

فوائد الرابعة والثمانين ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ ٧٣٦

فوتائد الآية الخامسة والثمانين ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ٧٤٦

فوائد الآية السادسة والثمانين ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾	٧٤٧
فوائد الآية السابعة والثمانين ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾	٧٥٦
فوائد الآية الثامنة والثمانين ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾	٧٥٩
فوائد الآية التاسعة والثمانين ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾	٧٦٨
فوائد الآية التسعين ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾	٧٧٦
فوائد الآية الواحدة والتسعين ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾	٨٠١
فوائد الآية الثانية والتسعين ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾	٨٠٥
فوائد الآية الثالثة والتسعين ﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾	٨٢١
فوائد الآية الرابعة والتسعين ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾	٨٢٥
فوائد الآية الخامسة والتسعين ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾	٨٢٧

فهرس الفوائد

١٢٠١/ ١١١- بيان أن القرآن مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وكون أن محمدا ﷺ أميا؛ فاستدل بذلك على صحة نبوته. ٩٤٠

١٢٠٢/ ١١١- المؤمنون باعتبار أنهم أحياء هم الذين ينتفعون بهداية القرآن ورحمته. ٩٤١

١٢٠٣/ ١١١- العبرة في القصص القرآني لا يدركها إلا أولو الألباب أصحاب العقول الراشدون، فعلى كل لبيب أن يعقل القرآن، ويأخذ العبرة مما جاء في قصصه، ولا يكون من الذين عطلوا عقولهم، ومروا بالعبر الماثلة في القصص القرآني مرور الغافلين. ٩٤٢

١٢٠٤/ ١١١- المؤمن الحق هو الذي يعتقد بأن القرآن كلام الله منزل من عنده، وليس كلاما مختلقا من عند الرسول، وأنه يحمل الرحمة والهداية للمؤمنين؛ فلا يشقون ولا يتعذبون. ٩٤٢

١٢٠٥/ ١١١- أن القرآن مفصل لكل شيء من التحليل والتحريم، والأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات والمكروهات، والإخبار عن الرب -تبارك وتعالى- بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات؛ فتهدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد. ٩٤٢

١٢٠٦/ ١١١- بيان أن الأكاذيب لا يصدق بعضها بعضا، ولا تحقق هداية ولا يطمئن لها القلب. ٩٤٣

١٢٠٧/ ١١١- الأعلام بالله -تعالى- من العلم والقدرة والتصرف في الأشياء على ما لا يخطر على بال ولا يجول في فكر. ٩٤٣

١٢٠٨/ ١١١- قصة يوسف هي القصة الوحيدة التي جاءت بكل أطرافها في سورة واحدة أطلق عليها اسم صاحب القصة، وتسلسلت أحداث القصة في نسق رائع، وأسلوب ممتع، تنتقل بالقارئ من حدث إلى حدث في عذوبة تشد القلوب؛ فلا تمل، وتشويق يجذب النفوس؛ فلا تسأم. ٩٤٣

فهرس فوائد الفوائد

أسماء الله وصفاته

القرآن وعلومه

١٢٠٢/ ١١١- القرآن مصدق لدين اليهود والنصارى الأصليين؛ فإن ديننا هو عين دينهم. ٩٣٦

١٢٠٣/ ١١١- إن قصص المرسلين فيها تسلية وتثبيت للتأسي بهم في الصبر على ما كذبوا. ٩٣٦

١٢٠٤/ ١١١- بيان فضل القرآن وما فيه من الهدى والرحمة لمن طلب ذلك منه. ٩٤٠

١٢٠٥/ ١١١- بيان أن القرآن مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وكون أن محمداً ﷺ أمياً؛ فاستدل بذلك على صحة نبوته. ٩٤٠

١٢٠٧/ ١١١- العبرة في القصص القرآني لا يدركها إلا أولو الألباب أصحاب العقول الراشدون، فعلى كل لبيب أن يعقل القرآن، ويأخذ العبرة مما جاء في قصصه، ولا يكون من الذين عطّلوا عقولهم، ومرّوا بالعبر الماثلة في القصص القرآني مرور الغافلين. ٩٤٢

١٢٠٩/ ١١١- أن القرآن مفصل لكل شيء من التحليل والتحريم، والأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات والمكروهات، والإخبار عن الرب -تبارك وتعالى- بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات؛ فتهدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد. ٩٤٢

١٢١٢/ ١١١- قصة يوسف هي القصة الوحيدة التي جاءت بكل أطرافها في سورة واحدة، أطلق عليها اسم صاحب القصة، وتسلسلت أحداث القصة في نسق رائع، وأسلوب ممتع، تنتقل بالقارئ من حدث إلى حدث في عذوبة تشد القلوب؛ فلا تمل، وتشويق يجذب النفوس؛ فلا تسأم. ٩٤٣

١٢١٣/ ١١١- قصة يوسف تتضمن فنوناً شتى من أساليب التربية والسلوكيات، وتهدف بوضوح إلى إبراز الخصائص النفسية للصفوة المختارة من الناس، وتشرح لنا في أسلوب سهل أخاذ ثمرة اللجوء إلى الله -عز وجل- في الضيق والمحن، وكيف لا يتخلى الله عمن يلتجأ إليه؛

الرسالة والنبوة

المعجزات والخوارق

الإيمان والكفر

العلم

التربية والسلوك

الأخلاق

القواعد

أحكام شرعية

الرؤى

الطب

النكاح

اللغة العربية

علوم التاريخ



فهرس المصادر والمراجع

اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان الطباعة
إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين	محمد الحسيني الزبيدي	بيروت
إتحاف السالك بفوائد حديث المخلفين من رواية كعب بن مالك	سليم بن عيد الهلالي	الأردن
إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل	محمد ناصر الدين الألباني	بيروت
أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن	محمد الأمين الشنقيطي	بيروت
إكمال المعلم بفوائد مسلم	القاضي عياض	بيروت
أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير	أبو بكر الجزائري	السعودية
أين الله؟ دفاع عن حديث الجارية رواية ودراية	سليم بن عيد الهلالي	الكويت
الأدلة والشواهد	سليم بن عيد الهلالي	فلسطين
الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة	علي القاري	بيروت
الاستيعاب في بيان الأسباب	محمد موسى نصر وسليم بن عيد الهلالي	السعودية
الأم	محمد بن إدريس الشافعي	بيروت
الأمالي	الشجري	بيروت
الإيمان	ابن تيمية	بيروت
بحر العلوم	أبو الليث السمرقندي	بيروت
بدائع التفسير	ابن قيم الجوزية	السعودية
بصائر ذوي التمييز	الفيروز أبادي	بيروت
بصائر ذوي الشرف	سليم بن عيد الهلالي	الأردن
البحر المحيط	أبو حيان الأندلسي	بيروت

الكتاب	المؤلف	البلد
البداية والنهاية	ابن كثير	بيروت
تحفة الطالب بمعرفة أحاديث ابن حاجب	ابن كثير	السعودية
تحفة المودود بأحكام المولود	ابن قيم الجوزية	السعودية
تعظيم قدر الصلاة	محمد بن نصر المروزي	السعودية
تفسير أبي السعود	أبو السعود	بيروت
تفسير البيضاوي	البيضاوي	مصر
تفسير القرآن الحكيم (المنار)	محمد رشيد رضا	بيروت
تنقيح الإفادة	سليم بن عيد الهلالي	السعودية
تنوير الإرجاء	الأصالة	الأردن
تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان	عبد الرحمن السعدي	بيروت
التحدث بنعمة الله	عبد الرحمن السيوطي	بيروت
التحرير والتنوير	محمد الطاهر ابن عاشور	تونس
التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير	ابن حجر العسقلاني	بيرونت
التنكيل بما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل	عبد الرحمن المعلمي اليماني	مصر
التوحيد أولاً يا دعاة الإسلام	محمد ناصر الدين الألباني	الإمارات
جامع البيان عن تأويل آي القرآن	محمد بن جرير الطبري	بيروت
جوهرة التوحيد	البيجوري	بيروت
الجامع لأحكام القرآن	محمد بن أحمد القرطبي	بيروت
الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي	ابن قيم الجوزية	بيروت
حاشية الكستلي على النسفية	الكشميري	بيروت
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء	أبو نعيم الأصبهاني	بيروت
دروس مستفادة من سورة يوسف	عبد الرحمن السعدي	السعودية
الداء والدواء	ابن قيم الجوزية	السعودية
الدر المنثور في التفسير بالمأثور	عبد الرحمن السيوطي	بيروت
الدين الخالص	صديق حسن خان	بيروت

روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني	محمود الآلوسي	بيروت
الرسالة	محمد بن إدريس الشافعي	مصر
الرسالة التبوكية	ابن قيم الجوزية	السعودية
زاد المسير في علم التفسير	عبد الرحمن بن الجوزي	بيروت
الزهد	أحمد بن حنبل	بيروت
سلسلة الأحاديث التي لا أصل لها	سليم بن عيد الهلالي	السعودية
سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها	محمد ناصر الدين الألباني	السعودية
سنن ابن ماجه	محمد بن يزيد القزويني	بيروت
سنن أبي داود	سليمان بن الأشعث السجستاني	بيروت
سنن الترمذي	محمد بن عيسى الترمذي	بيروت
سنن الدارمي	عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي	بيروت
سؤالات السلفي	الحافظ السلفي	بيروت
سورة يوسف دراسة تحليلية	أحمد نوفل	الأردن
سير أعلام النبلاء	محمد بن أحمد الذهبي	بيروت
السنن الكبرى	أحمد بن الحسين البيهقي	بيروت
السنن الكبرى	أحمد بن شعيب النسائي	بيروت
شرح حديث لا يزني الزاني	ابن تيمية	بيروت
شرح العقيدة الطحاوية	ابن أبي العز الحنفي	بيروت
الشريعة	محمد بن الحسين الآجري	السعودية
صحيح ابن حبان	محمد بن حبان	بيروت
صحيح البخاري	محمد بن إسماعيل البخاري	بيروت
صحيح الجامع الصغير وزيادته	محمد ناصر الدين الألباني	بيروت
صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج	بيروت
الضعفاء الكبير	محمد بن عمرو العقيلي	بيروت
عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين	ابن قيم الجوزية	السعودية

العقد الفريد	ابن عبد ربه	بيروت
العقيدة الطحاوية شرح وتعليق	محمد ناصر الدين الألباني	بيروت
فتاوى ابن تيمية	ابن تيمية	السعودية
فتح الباري شرح صحيح البخاري	ابن حجر العسقلاني	بيروت
فتح القدير الجامع بين فني الروايـة والدرايـة في علم التفسير	محمد علي الشوكاني	بيروت
فضائل القرآن وحملته	محمد موسى نصر	السعودية
فقه السيرة النبوية	محمد الغزالي	بيروت
فهرس الفهارس	الكتاني	بيروت
فيض الباري	الكشميري	باكستان
الفتاوي الكبرى	ابن تيمية	مصر
الفروسية	ابن قيم الجوزية	السعودية
قصص الأنبياء وأخبار الماضين	عبد الوهاب النجار	بيروت
قواعد في علوم الحديث	التهانوي	بيروت
كرة القدم بين المصالح والمفاسد	مشهور بن حسن	الأردن
كشف الخفاء ومزيل الإلباس	إسماعيل العجلوني	بيروت
الكشاف	محمود الزمخشري	بيروت
اللباب في علم الكتاب	لابن عادل	بيروت
اللطائف والإرشادات	القشيري	بيروت
مجلة الأصالة		الأردن
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	ابن حجر الهيثمي	بيروت
المجالسة وجواهر العلم	أحمد بن مروان الدينوري	البحرين
المجتبى	النسائي	بيروت
محاسن التأويل	جمال الدين القاسمي	بيروت
المحرر الوجيز	ابن عطية الأندلسي	المغرب
مختصر تفسير البغوي		

موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر	ابن حجر العسقلاني	السعودية
موسوعة المناهي الشرعية في صحيح السنة النبوية	سليم بن عبد الهلالي	السعودية
مؤتمر تفسير سورة يوسف	عبد الله العلمي	بيروت
ميزان الاعتدال في نقد الرجال	محمد بن أحمد الذهبي	بيروت
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور	إبراهيم بن عمر البقاعي	بيروت
النبذ المستطابة في الدعوات والمستجابة	سليم بن عيد الهلالي	السعودية

